

مجلة علمية دورية محكمة تصدرها
جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

مجلة العلوم الاجتماعية سابقا

المجلد: 16 العدد 04 - 2019

ISSN .1112-4776

EISSN:2588-1906

الإيداع القانوني: 650-2004



مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة سطيف 2
المجلد: 16 العدد: 04 2019 N°4
Vol: 16 N°4 2019
Université Sétif 2
REVUE DES LETTRES ET DES SCIENCES SOCIALES

مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة سطيف 2
المجلد: 16 العدد: 04 2019 N°4
Vol: 16 N°4 2019
Université Sétif 2
REVUE DES LETTRES ET DES SCIENCES SOCIALES



مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة سطيف 2
المجلد: 16 العدد: 04 2019 N°4
Vol: 16 N°4 2019
Université Sétif 2
REVUE DES LETTRES ET DES SCIENCES SOCIALES

Revue scientifique périodique indexée éditée par
L'Université Mohamed Lamine Debaghine Sétif2

REVUE DES LETTRES ET DES SCIENCES SOCIALES

Anciennement Revue Des Sciences Sociales

Vol:16 N° 04 - 2019

Dépôt légal :650-2004

EISSN:2588-1906

ISSN .1112-4776

مجلة علمية دورية محكمة تصدرها
جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

مجلة العلوم الاجتماعية سابقا

المجلد: 16 العدد 04 - 2019

ISSN .1112-4776

EISSN:2588-1906

الإيداع القانوني: 650-2004



مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة سطيف 2
المجلد: 16 العدد: 04 2019 N°4
Vol: 16 N°4 2019
Université Sétif 2
REVUE DES LETTRES ET DES SCIENCES SOCIALES

مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة سطيف 2
المجلد: 16 العدد: 04 2019 N°4
Vol: 16 N°4 2019
Université Sétif 2
REVUE DES LETTRES ET DES SCIENCES SOCIALES



مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة سطيف 2
المجلد: 16 العدد: 04 2019 N°4
Vol: 16 N°4 2019
Université Sétif 2
REVUE DES LETTRES ET DES SCIENCES SOCIALES

Revue scientifique périodique indexée éditée par
L'Université Mohamed Lamine Debaghine Sétif2

REVUE DES LETTRES ET DES SCIENCES SOCIALES

Anciennement Revue Des Sciences Sociales

Vol:16 N° 04 - 2019

Dépôt légal :650-2004

EISSN:2588-1906

ISSN .1112-4776

مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

مجلة العلوم الاجتماعية سابقا

هوية المجلة وأهدافها

مجلة العلوم الاجتماعية

- مجلة علمية دورية محكمة ، ومنبر معرفي ومنهجي ، يُسهم في إثراء البحث العلمي والحوار المنهجي الموضوعي في حقول المعرفة الاجتماعية ؛ وتهدف إلى :
- 1- الارتقاء بالبحث العلمي إلى مستويات عالية من الجودة من خلال البناء المنهجي للفكر والممارسة البحثية.
 - 2- تحقيق التكامل المعرفي بين حقول المعرفة الاجتماعية ومختلف المناهج البحثية.
 - 3- وصل الحركة العلمية في العلوم الاجتماعية بالتنمية الاجتماعية وقضايا المجتمع الواقعية.
 - 4- إثارة الجدل العلمي في القضايا المستحدثة في مجال العلوم الاجتماعية ، وتوجيهها نحو أفق العالمية.

مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

- مجلة العلوم العلوم الاجتماعية سابقا -

مجلة علمية دورية محكمة تصدر عن جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

اللجنة العلمية

جامعة سطيف2	أ.د. السعيد كسكاس
جامعة سطيف2	د. نصرالدين غراف
جامعة سطيف2	د. التوفيق سامعي
جامعة سطيف2	د. فوزية رقاد
جامعة سطيف2	أ.د. محمد بوادي
جامعة سطيف2	د. رؤوف بوسعدية
جامعة سطيف2	أ.د. خير الدين دعيش
جامعة سطيف2	أ.د. الطاهر سعود
جامعة قسنطينة3	أ.د. فضيل دليو
جامعة الجزائر2	أ.د. محمود بوسنة
جامعة باتنة1	أ.د. الطيب بودرالة
جامعة وهران	أ.د. دحو فغورور
جامعة الجزائر2	أ.د. حمزة محمد الشريف
المركز الجامعي تبازة	أ.د. عمار مانع
الجامعة الإسلامية الأمير عبد القادر قسنطينة	أ.د. احمد صاري
مركز جمعة الماجد دبي	أ.د. عزالدين بن زغبية
جامعة ذي قار العراق	أ.د. عواد كاظم لفتة الغزي
جامعة بخت الرضا -السودان	أ.د. محمد الحسن عبد الرحمن
جامعة قسنطينة2	أ.د. ساعد خميسي
المدرسة العليا قسنطينة	أ.د. حسين أمزيان
CNRS فرنسا	أ.د. دانيال إستريا
CENIEH اسبانيا	أ.د. محمد سخنوني
جامعة ابن طفيل القنيطرة المغرب	أ.د. حمداوي إبراهيم
جامعة باري7 فرنسا	أ.د. آل ديكو بريما

مدير المجلة

أ.د. الخير قشبي مدير الجامعة

رئيس التحرير

أ.د. يوسف عبيش

نائب مدير الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

هيئة التحرير

أ.د. ميلود سفاري

أ.د. جازية لشهب صاش

أ.د. صلاح الدين زرال

أ.د. محمد عزوي

أ.د. عبد الملك بومنجل

د. محمد بن أعراب

أ.د. أنور مقراني

د. عبد الحليم محور باشة

د. لبنى أشهب

د. فريدة قماز

د. هشام شراد

أمانة المجلة

مبروك صبايحي

مفيدة شريفني

شروط النشر في المجلة

تنشر مجلة العلوم الاجتماعية، الأبحاث والدراسات العلمية، الفكرية والأدبية في تخصصات العلوم الإنسانية، الاجتماعية، الحقوق والعلوم السياسية مكتوبة باللغة العربية، الإنجليزية، أو الفرنسية. كما ترحب المجلة بالدراسات النقدية التي تتناول المنشورات الجديدة والتعريف بها في حدود 2000 كلمة.

• يشترط في المقالات المقدمة للنشر ما يلي:

- 1/ أن يكون المقال أصيلاً وجديداً، لم يسبق نشره في نشرات أخرى مهما كانت، ولم يسبق عرضه أو المشاركة به في ندوة أو ملتقى علمي. وألا يكون مستلماً من رسالة أكاديمية (ماجستير أو دكتوراه).
- 2/ الالتزام بأداب الحوار الهادف والنقد البناء بعيداً عن التجريح.
- 3/ اعتماد منهجية موحدة في ترتيب عناصر البحث والالتزام باعتماد تقسيم من التقسيمات المعروفة (مبحث، مطلب، فرع، أولاً...)

4/ ألا يقل عدد صفحات المقال عن 12 صفحات ولا يزيد عن 25 صفحة، بما فيها المصادر، الهوامش، الجداول والرسوم التوضيحية، ويجب أن ترقم الصفحات ترقيماً متسلسلاً.

5/ أن يكون المقال مطبوعاً على الكومبيوتر وفق برنامج "Microsoft Word"، ومسجلاً في قرص صلب.

6/ هوامش الصفحة تكون كما يلي: يمين 03 سم، يسار 1.5 سم، رأس الورقة 1.5 سم، أسفل الورقة 1.5 سم، حجم الصفحة 29.7 cmX21 cm.

7/ تكتب المادة العلمية العربية بخطّ من نوع Traditional Arabic مقاسة 14 بمسافة 21 نقطة بين الأسطر، العنوان الرئيسي Traditional Arabic 14 Gras، العناوين الفرعية Traditional Arabic 12 Gras، أما الفرنسية أو الإنجليزية فتقدّم بخطّ من نوع Times New Roman مقاسة 12.

8/ تحتفظ المجلة عن نشر مقالين متتاليين في العدد ذاته أو في عددين متتاليين لمؤلف واحد

9/ يراعى عند كتابة المقال ما يلي:

- يجب أن يكون المقال خالياً من الأخطاء الإملائية والنحوية واللغوية والمطبعية قدر الإمكان.

- الالتزام بقواعد ضبط الكتابة من خلال:

- احترام مسافة بداية الفقرات، وتجنب الفقرات والجملة الطويلة جداً.

- عدم ترك مسافة (فراغ) قبل علامات الضبط المنفردة كالنقطة (.) والفاصلة (،) والنقطة الفاصلة (؛) والنقطتين (:). وعلامة

التعجب (!) وعلامة الاستفهام (?) وترك مسافة بعدها إذا أتت بكلمة أو نص، وعدم ترك مسافة بعد الواو (و) التي تليها كلمة.

- يُتَجَنَّب الاختزال ما لم يُشَرِّ إلى ذلك.

- يُذكَر مرة واحدة في البحث المصطلح العلمي وأسماء الأعلام باللغة العربية وبجانبه المصطلح باللغة الإنجليزية أو الفرنسية

عند وروده أول مرة، ويكتفى بعد ذلك بكتابه باللغة العربية.

- يجب أن يراعى في الأعمال المتضمنة لنصوص شعرية أو آيات قرآنية كريمة، أو أسماء أعلام ضبطها بالشكل وتخريج

والأحاديث والآيات الشعرية.

10/ أن توضع الهوامش والإحالات والمراجع والمصادر في آخر المقال، وبطريقة الإدراج الآلي مع اتباع ترقيم تسلسلي حسب

ظهورها في النص، (مراجع المقال هي فقط المراجع والمصادر المقتبس منها فعلاً). ويراعى في طريقة التمهيش المنهج التالي:

*الكتب: إسم ولقب المؤلف، عنوان الكتاب، الجزء، الترجمة (إن وجدت)، الطبعة، دار النشر (الناشر)، مكان النشر،

وسنة النشر، رقم الصفحة. (في حالة التأكد من عدم وجود البيانات الجوهرية الإيجابية فقط (دار النشر، بلد النشر، سنة النشر)

على المؤلف الإشارة إلى ذلك باستعمال مختصرات د.د.ن/د.ب.ن/د.س.ن) حسب الحالة.

*المقالات: إسم ولقب المؤلف، "عنوان المقال"، عنوان المجلة، (الجهة التي تصدر عنها)، العدد، الصفحة.

*البحوث المدرجة ضمن كتاب: إسم ولقب المؤلف، "عنوان المقال"، ضمن كتاب: (العنوان)، المنسق العام (اسم من

أشرف على تجميع مادته العلمية)، الجزء، الطبعة، دار النشر (الناشر)، مكان النشر، وسنة النشر، رقم الصفحة.

*الأطروحات والرسائل الجامعية: اسم الطالب، عنوان الأطروحة أو المذكرة (تحت خط)، بيان نوعها (دكتوراه،

ماجستير)، تحديد الكلية والجامعة التي نوقشت فيها هذه الرسالة، تحديد السنة، بيان حالة النشر (رسالة منشورة، أو غير

منشورة)، الصفحة.

*النصوص القانونية: بيان نوع النص (دستور، قانون عضوي،....)، رقمه (15/01)، المؤرخ في (ذكر اليوم والشهر

والسنة)، موضوع النص (المتضمن كذا:....)، الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، العدد، تاريخ نشرها.

* الأحكام والقرارات القضائية: لا بد من بيان الهيئة المصدرة (محكمة ، مجلس)، تحديد القسم أو الغرفة (رقمها ، تخصصها)، رقم الحكم أو القرار ، تاريخ صدوره (ذكر اليوم والشهر والسنة)، ذكر أطراف القضية أو الحرف الأول لألقابهم ثم الاسم ، (قضية بين..)، بيان حالة النشر (قرار أو حكم منشور أو غير منشور)، المصدر (مجلة ، نشرية ، صادرة عن)، العدد ، السنة ، الصفحة.

* المنشورات الداخلية: بيان الجهة المصدرة ، بيان رقم التعلية أو المقرر ، تحديد موضوعه.

* التقارير: الجهة المصدرة للتقرير ، موضوع التقرير ، مناسبة تقديمه ، التاريخ ، الصفحة.

* المراجع الإلكترونية: اسم المؤلف ، أو المنظمة "عنوان المقال" ، العنوان الإلكتروني كاملاً ، (تاريخ التصفح: اليوم ، الشهر ، السنة).

* المخطوطات: اسم المؤلف كاملاً ، عنوان المخطوط كاملاً ، ويذكر اسم المكان المحفوظ فيه هذا الاقتباس ويشار إلى تاريخ النسخة ، وعدد أوراقها. ويذكر رقم الورقة مع بيان الوجه أو الظهر المأخوذ منه الاقتباس ، ويشار لوجه الورقة بالرمز (أ) كما يشار لظهرها بالرمز (ب).

* الصحف: إذا كان خبراً يكتب اسم الصحيفة ، والعدد ، والتاريخ ، ومكان الصدور. أما إذا كانت مقالة يكتب اسم الكاتب ، "وعنوان المقالة" واسم الصحيفة ، ثم تحديد نوعها (يومية ، أسبوعية ، شهرية) ، (ومكان الصدور) والعدد ، والتاريخ ، والصفحة. * عند تكرار ذكر نفس المرجع يكتب بعد رقم الإحالة عبارة: المرجع نفسه ، ثم الصفحة ، أما في حالة ما إذا كان التكرار غير مباشر (فصل تكرار المرجع بمرجع آخر أو عدة مراجع أو بصفحة جديدة) فينبغي بعد رقم الإحالة ذكر اسم ولقب الباحث ، كتابة عبارة: المرجع السابق ، ثم بيان رقم الصفحة.

* تكون الأشكال والخرائط والرسوم البيانية على درجة عالية من الجودة مع تجنب التظليل الثقيل ، وترقم الجداول والأشكال ترقيماً متسلسلاً مستقلاً ، مع إعطاء عنوان قصير لكل منها تتم كتابته (أعلى) الشكل ، ويكون المصدر أسفله. (على الباحث إرسال الخرائط والصور في ملفات مستقلة عن النص ، أي ملف لكل خريطة أو صورة وهذا من نوع (jpeg)) لتسهيل عمل الهيئة التقنية للمجلة.

11/ ترسل أو تسلّم نسخة ورقية من المقال مرفقة بقرص مدمج (CD) فضلاً عن ضرورة إرسالها في ملف عبر البريد الإلكتروني للمجلة المدون أدناه ، مع مراعاة ما يلي:

- على الباحث إخفاء شخصيته في الدراسة ، وتجنب وضع أي إشارة تكشف هويته من خلال الدراسة ، ولأجل ذلك تكتب المعلومات الشخصية (اسم المؤلف ، ورتبته العلمية ، والمؤسسة التي يعمل فيها) على صفحة منفصلة ، ثم يكتب عنوان البحث مرة أخرى على الصفحة الأولى من البحث دون ذكر الاسم. - تقديم صورة رقمية حديثة خاصة.

- التزام الدقة عند إمضاء تعهد (عقد نشر) خطي من المؤلف أو المترجم على نموذج تعدده هيئة تحرير المجلة.

- ترك نسخة من بيان السيرة الذاتية للمؤلف أو المترجم (وفي حالة تقديم المقال من طرف باحثين ، يجب إرسال الموافقة الصريحة لكل واحد منهما بقبول النشر المشترك).

- تقديم ما يثبت موافقة الأستاذ المشرف على البحث ، بالنسبة للبحوث المقدمة من طلبة الدكتوراه (L.M.D).

- تقديم نسخة من الكتاب الأصلي إذا تعلق الأمر بعرض لكتاب.

12/ أن يرفق المقال وجوباً بملخص مُعَرَّب عن محتوى المقال بصورة شاملة وصادقة (في حدود 150 كلمة) باللغات الثلاث عربي ، فرنسي وإنجليزي ، متبوعاً بالكلمات المفتاحية ذات الدلالة على محتوى المقال (Key words) والتي لا تتعدى 7 كلمات تُرتَّب حسب ورودها في المقال ، وينبغي أن تشملها الترجمة باللغات الثلاث.

تنبهات هامة:

* في حالة وجود أكثر من مؤلف يتم مراسلة الاسم الذي يرد أولاً في ترتيب الأسماء في حالة تساوي الدرجات العلمية ، والأعلى درجة في حالة اختلاف الدرجات العلمية.

* يحول المقال إلى لجنة التحكيم السرية المختصة لتحكيمة علمياً بعد التأكد من ملاءمته لقواعد النشر ، وعلى صاحب المقال إجراء التصحيحات المطلوبة منه خلال مدة زمنية تحددها هيئة التحرير.

* كل مقال يخالف شروط النشر لا يؤخذ بعين الاعتبار ، والمجلة غير معنية بإعلام صاحب المقال بذلك. كما لا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.

* يحق للمجلة (إذا رأت ضرورة لذلك) إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر دون المساس بمضمونها ، كما تحتفظ المجلة بحقها في حذف أو إعادة صياغة بعض العبارات التي لا تتناسب مع أسلوب النشر.

* ترتب البحوث في كل عدد ، واختيار حيزها الزمني يتم وفق اعتبارات فنية تقدّرها اللجنة العلمية ولا علاقة لها باسم الباحث أو رتبته العلمية أو قيمة العمل .
* الأبحاث المنشورة في المجلة لا يعاد نشرها في جهة أخرى إلا بإذن مكتوب من مدير تحريرها ، ولا تلتزم المجلة برد المقالات غير المقبولة للنشر إلى أصحابها .
* يتحمل كاتب المقال جميع التبعات الناتجة عن خرق حقوق الملكية الفكرية المترتبة للغير .
-لا تدفع مكافآت عن البحوث التي تقبل للنشر بالمجلة ، غير أن الباحث يستفيد من نسختين من العدد الذي نُشر فيه مقاله .
- تنشر موضوعات المجلة في موقع الجامعة الإلكتروني بعد صدورها .

* الدراسات التي تنشرها المجلة تُعَبَّر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة .

المراسلة والاشتراك: ترسل جميع المراسلات إلى السيد

رئيس التحرير: مجلة العلوم الاجتماعية-جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

الهاتف: 036661181

البريد الإلكتروني:

revue@univ-setif2.dz

revue.setif2@gmail.com

الموقع الإلكتروني للمجلة: <http://revues.univ-setif2.dz>

الفهرس

صفحة	عنوان المقال	المؤلف
08	فلسفة الفعل... مدخل معرفي وتَقَصّ مفهومي	بشير ريوح
21	شبكة تحليل الصور الثابتة: نمذجة بيداغوجية لبعض المرجعيات السيميولوجية	فضيل دليو
34	دور شبكات التواصل الاجتماعي في الحراك السياسي العربي وتأثيره على الثقافة السياسية	هناء قيصران
49	ثقافة السلامة المهنية: مقاربات سوسيو تنظيمية	جمال الدين عاشوري
65	الإدارة العامة الجديدة كآلية للإصلاح الإداري تجارب دولية	مروك ساحلي
77	لغة الكتابة الموجهة للأطفال؛ بين الهدف والتداول	أحمد سعيد مغزي
92	الإدراك الجيوسياسي الصيني، بين موروث الماضي ومتطلبات الحاضر	عبد الحليم غازلي
108	مصطلح علم النقد الأدبي؛ إشكالاته ومرجعياته	زكريا بوشارب
119	عوامل التأثير في تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية وتطبيق القانون الدولي الإنساني - العرف الدولي -	مراد كواشي
138	كفاءة الاتصال البينتقائي في المؤسسة	إيمان بهلول كمال بوقرة
152	آليات التعاون الدولي لمكافحة الفساد	إيمان بوقصة
163	الحداثة الغربية واحتضار الهة الشرق عند داربوش شايفان	لطيفة عميرة
177	التضمن السردي وامتداداته البصرية في رواية مقامة ليلية مقامة المبتدى لعبد العزيز غرمول	ليندة خراب
192	المدارس القرآنية بالتريف البجائي - قرى بني معوش أنموذجا - دراسة أثرية-	فؤاد بوزيد
207	An Arab Feminist's Indirect Perpetuation of Western Stereotypes about Muslim Women: Nawal El Saadawi's Woman at Point Zero	Rawiya Kouachi
218	L'argumentation et l'analyse du discours politique français dans les débats présidentiels - le cas du débat présidentiel de l'entre- deux-tours de 2012	Chikh Talbi
233	La persuasion par l'éveil de la peur dans Le Cid de Pierre Corneille	Chaymaa Almohammad Alobeid Rouba Hamoud
243	Le ludique dans l'enseignement/apprentissage du Français Langue Etrangère au cycle primaire algérien	Sofiane Harrache
257	English Collocations: The Neglected Area in the EFL Classroom	Afaf Djiti Hachemi Aboubou
271	For a Task-Based Pedagogy in a Medical Course to Foster Vocabulary and Aural Comprehension	Hamza Tebani
280	Investigating Intercultural Effectiveness of High and Low Academic Achievers	Khadidja Kouicem Mohamed Lamine Boudoukhane

فلسفة الفعل... مدخل معرفي وتفكير مفهومي Philosophy of action ... a cognitive introduction and conceptual inquiry

تاريخ القبول: 2019-12-18

تاريخ الإرسال: 2019-10-15

بشير ربوح، قسم الفلسفة، جامعة باتنة 1، الحاج لخضر

kamelrebouh2019@gmail.com

"القول الخالص موقوف على العمل، والعمل موقوف على الأجل، والأجل موقوف على الطمأنينة، والطمأنينة موقوفة على الدوام" ... النفري
"إن قراءة جريدة الصباح هي بمثابة صلاة صباحية واقعية" ... هيغل

الملخص

نريد في هذا المقال التطرق إلى مدخل معرفي لميدان فلسفي، هو في طور التكون والتبلور، بحيث نتحدث عن الحضور القوي لمفهوم الفعل في مختلف الرؤى الفلسفة، وبخاصة في المتن الفلسفي العربي، وبحثنا في المسوغات التي تسوغ لنا مقاربة هذا الميدان الجديد، وبخاصة المتعلقة بالبحث في الراهن، والدفاع عن الذات الإنسانية، والدفع بالأفكار الإيجابية، من مثل الحرية، والنقد، والمسؤولية، إلى الواجهة، ضد كل الرؤى الأنطولوجية، التي تريد تعرية الإنسان من سماته الجميلة.

الكلمات المفتاحية: مفهوم الفعل، الوجود، القيم، المعرفة، المسوغات، الراهن، الحضور، التاريخ

Résumé

Le présent article propose d'aborder un champ philosophique en voie d'instauration. Il s'agit de la forte présence de la notion d'acte dans les différentes visions philosophiques, plus précisément, dans le corpus philosophique arabe. Nous avons cherché les fondements qui nous permettent de mieux approcher ce nouveau champ de connaissance, surtout et justement, en ce qui concerne la recherche dans l'actuel, en défendant l'être humain et en projetant des idées positives au devant, telles que la liberté, la critique et la responsabilité, contre les visions ontologiques qui tentent de dépouiller l'homme de ses éminentes caractéristiques.

Mots-clés: acte, ontologie, valeurs, connaissance, fondements, actuel, présence, histoire

Abstract

The present study aims at raising the issue of the concept of action in various visions within the field of philosophy, especially in the Arab philosophical content. It, then, discusses the making sense of the current topic, which enables the researcher to justify the approach of this new field of study, especially in exploring the defense of the human self, and the pushing of positive ideas, such as freedom, criticism and responsibility, questions of now and here. That is, to encourage such a defense for taking a position against all the ontological visions, which prevent the humanity the character's beauty.

Key words: Concept of action, Being, Values, Knowledge, justification, actual, Present, History.

استلم مقال الأستاذ بشير ربوح (كحال) قبل وفاته. إثر حادث مرور وقع له رفقة الأستاذ محمّد الصادق بللم. بتاريخ 2019/10/30. رحمها الله وأسكنها فسيح جناته.
وقد قررت هيئة التحرير نشره بعد مرافقته من طرف خبيرين من أعضاء الهيئة العلمية

فرش إشكالي

عنصر الزمان ، ذلك: "أن الإنسان ذاته ليس ماهية تنكشف زمنياً وإنما هو مصير يتحقق في العالم من خلال الصراع الذي يؤهله لاكتساب إنسانيته".⁷، والفعل لا يكثرث على الإطلاق بصعوبة وعسر البدايات، بل المهم أن هذا هو العادي والمألوف في معترك الحياة، فالعادي هو: "العتبة الأولى، الدرجة الصفر، الذي تنطلق منه كل التشكيلات الفكرية أو التركيبات النظرية. لكنه يفلت من الكثافة المفهومية من فرط بساطته ولطافته. فهو كالنور: يتيح الرؤية ويستحيل رؤيته في ذاته".⁸

وعليه نتساءل: هل يمكن لنا بعد هذا المسار الفكري أن نتحدث عن فلسفة تشغل بمفهوم الفعل وبملاحقه المفهومية الأخرى التي تتحرك في فلكه؟ أتعد العودة إلى الفعل تعبيراً عن انشغال الإنسان بالحياة كمعطي وجودي، وكحدث قيمي، وكأفق معرفي؟ وما معنى أن نتحدث عن الفعل في أبعاده المختلفة؟ وهل نستطيع أن نجد في الفعل درباً آمناً للخروج من القحط الأنطولوجي الذي يلفنا بعد بزوغ فجر النهايات الكبرى للسرديات؟ وما هي المسوغات التي تمنح للاشتغال الفلسفي على مفهوم الفعل أهلية فكرية؟

فرش تحليلي

ترتبط فلسفة الفعل⁹ بجملة كبيرة من التيارات الفلسفية مثل: السقراطية، والرواقية، والديكارتية، والكانطية، والهيغلية، والنيتشوية، والتواصلية، والبراغماتية، والفلسفة التحليلية، ومع الكثير من الميادين الفلسفية، بحيث تُشكل اللحظة السقراطية حالة متميزة في الفكر الإنساني، في حين ابتعد أرسطو عن التعالي الأفلاطوني، من أجل البحث عن مثال خارج هذا الواقع، واقترب من الواقع في مختلف مستوياته، من مثل: الحسي، والسياسي، والاجتماعي، وبخاصة من الأفق القيمي الأخلاقي، بحيث نعثر على: "الواقعية كذلك في الفلسفة الأخلاقية عند أرسطو، وذلك في كتبه المشهور الأخلاق عند نيقوماخس: أو نيقوماخيا، كما ورد في المصادر العربية القديمة. فهو ينطلق مما نلمسه من الحياة اليومية، إذ إن الإنسان يبحث عن السعادة، هذه السعادة التي هي جزء لا يتجزأ من الرغبة الإنسانية في العيش الجيد أو الحياة الخيرة، ما يريده كل إنسان في حياته مع الناس وما يسعى إليه، المتغنى والمنشود والمرغوب هو أن تكون حياته سعيدة، وهذا المنشود والمتمنى في كل مشاريعنا الحياتية، في كل

إن التعاطي مع مفهوم الفعل في الفلسفة المعاصرة، والتي تحمل راهنية قوية¹، إذ أنّ هناك تزاوج غليظ بين الفعل والراهن، لأن: "الاهتمام بالفعل يترجم على صعيد الزمن بالاهتمام بالحاضر، فالحاضر هو يحمل المستقبل والماضي ليس حتمية بل هو هذه الداخلية التي تشكل الحرية ذاتها، ذلك أن الحاضر الحي متغير بالضرورة في امتداده وفي كثافته".²، والحاضر مطلب حيوي في استشكال مفهوم الفعل، بحيث يقول الفيلسوف الفرنسي ديكارت: "غالباً ما نزل شديدي الجهل بما يمارس في زماننا إن نحن أسرفنا في حب الاطلاع على ما كان يُمارس في القرون الماضية".³، وبخاصة من جهة السعي إلى الإمساك بهذا المفهوم لسانياً ومعرفياً وتاريخياً، فقد علمنا الفيلسوف الألماني هيغل: "أن من يفكر، يفكر دوماً داخل تاريخ ما".⁴، والتفكير داخل التاريخ، يعني أولاً أن الحديث عن الفعل هو بتعبير دقيق انخراط في مسعى فلسفي، يحوز على جذور قوية في تربة الفلسفة، وله امتدادات في مختلف التوجهات الفلسفية الكبرى، إذ لا يمكن أن ننكر على هذه التوجهات رغبتها القوية في مقاربة هذا المفهوم، وإنما نحن نريد أن نعلن انتمائنا إلى تيار فلسفي، يجتهد في استكمال هذا المسعى، وإعادة تنشيطه مرة أخرى، وسجبه من ذلك التواجد الهامشي والحضور المحتشم إلى أفق الحياة والكينونة الحقيقة، ولكن وفق رؤية جديدة، تتبنى مفهوم الحياة كمعطي مفصلي في تاريخ البشر، لأن الفعل في عمقه تأمل في الحياة وليس تأملاً في الموت، كما أوصانا الفيلسوف باروخ اسبينوزا، Baruch Spinoza (1677-1632)، وفي ذلك يقول الباحث التونسي فتحي التريكي، أن فلسفة التاريخ الحضوري، حسب الوصف المشهور للفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو، "تعتمد قبل كل شيء على تحرير الفكر الفلسفي من بوتقة المدارس والأنساق. لقد انشغلت كثيراً ضمن اختصاصي الأساسي في فلسفة التاريخ بالتاريخ الحضوري من حيث هو نقطة عبور إستراتيجية نحو فلسفة اليومي".⁵، وبالتالي فنحن: "مقبلون على استشكال لا استغناء فيه هو استشكال الإصغاء إلى الأشياء والبشر والمفاهيم والنصوص".⁶

وهو اضطلاع بمهمة وجودية كبرى تتمثل في العودة إلى الإنسان في ذاته بعيداً عن الإكراهات المختلفة، والمساحيق السياسية المتنوعة والمتجددة باستمرار، ومنها

تجعلني مرتبطاً بمحيطي الطبيعي والإنساني؛ وهي التي تدفع بي إلى الانفتاح عن العالم لأتفاعل معه بغية الإبقاء عليه على حاله، أو تبديله، إن كان كلياً أو جزئياً.¹⁴

رأس الأمر في هذا القول المنفتح، أن نبدأ أولاً في تعقب المفهوم في محاضنه التي تبلور فيها، بحيث لم يكن مفهوم الفعل غريباً عن التفكير الفلسفي اليوناني، فـ"اللحظة السقراطية هي اللحظة التي وجه فيها الفلاسفة اهتمامهم إلى الإنسان وتغاضوا عن موضوع الطبيعة، فذلك لا يعني أن الانشغال الفلسفي الماقبل-سقراطي كان موجّهاً كله إلى الطبيعيات ولا موقع للإنسان ولا لفعله فيه. إذ يكفي لتأكيد هذا الحضور أن نشير إلى مفاهيم "الجور" عند أنكسمندر و"الحكمة" عند هرقلطس وضروب التطهر الفيثاغوري والصدقة بما هي حظّ الإنسان عند أنابذوقليس والاعتدال والاكتفاء الديمقريطين.¹⁵ وبالرغم من راهنية الإشكال، فإنّه يحوز على امتداد تاريخي يلامس: "فترة سقراط، وهو البراكسيس؛ أي لا ما يقوله الفيلسوف، لكن ما يفعله، وكيف يربط بين قوله وفعله. الفرق بين سقراط والسوفسطائيين لا يتعلق بما يقولونه، ولا بالطريقة التي يعتمدونها. بل بممارستهم، "البراكسيس".¹⁶، ولم يخفي سقراط رغبته في توطيد دعائم البراكسيس في كل تصرفاته اليومية، وفي توسيع دائرة الممارسة حتى تطل الصدقة، الروح، الكلام... فقد كان: "يعالج الروح بواسطة الكلام".¹⁷

هذه ضروب متعددة من تظاهرات الفعل عند سقراط، وهي ليست محصورة فيها، بل هي نماذج مصغرة لحياة فلسفية بامتياز، أخذت منعطفاً خطيراً في حدث¹⁸ موته على أيدي حكام أثينا الجدد، نتيجة: "إنكاره لآلهة المدينة، واختراع آلهة جدد، وإفساد شباب المدينة، وهي في أصلها محاكمة دينية".¹⁹، رُبَّ مُنعطف شكّل بالنسبة لأفلاطون حدثاً حفزه على التوجه صوب فعل أساسي وتاريخي، كان في المتن السقراطي مدموماً، وهو فعل الكتابة، فلقد فهم أفلاطون: "أن موت سقراط لم يكن حدثاً مقبولاً فقط، لكن وبصورة شائعة ومُؤسفة، هي حكم على الحق، وهي بالضديد، ما يمكن ترجمتها على أنها دعوة أحادية يُدشن بها مهمة غير مألوفة، هي كتابة الفلسفة".²⁰، والانتقال نهائياً إلى فضاء التدوين، بحسابه فعلاً يُؤدي إلى تثبيت الخطاب الفلسفي في صحائف التاريخ، خوفاً من ذهاب وانحاء المعاني الفلسفية وانثارها.

تصرفاتنا اليومية، في كل أحلامنا وأمانينا يظل على صلة وثيقة بالمادي والحسي، أي بالعيش الكريم والبُجْبُوحة والرخاء." والانخراط في الواقع اليومي يعني عند أرسطو امتلاك المقدرة على اتخاذ المواقف، وألا يكون الإنسان إمعة يتحرك سهلاً، أو كما قال عبد الجبار النفري، في كتابه "المواقف"، قوله توصل لفكرة القصدية، بحيث خاطب الشخص الإنساني، قائلاً: "إنما أنت متوجه إلى ما أمامك، فانظر إلى ما أنت متوجه إليه، فهو الذي ينظر إليك وهو الذي تصير إليه".¹⁰

وفي هذا حرص شديد على أن الإنسان مُرغم على أن يشترك في علاقات جديدة، مبنية على فكرة الصداقة مثلاً، التي تعتبر أعلى مراتب الوجود، فالإنسان: "يُجابه كل يوم مواقف حرجة ومتعددة، وعليه أن يقرر وأن يزن الأمور ويتصرف بفطنة، دون أن يحرم نفسه من اللذة والمتعة والحياة اليومية. ويفرد أرسطو صفحات طويلة للصداقة، إذ إن الصديق يريد الخير لصديقه من أجل هذا الصديق نفسه، أي إنه لا يبغى أية منفعة من وراء هذه الصداقة التي تعطي الحياة الاجتماعية جمالاً خاصاً".¹¹، غير أن الفلسفة الرواقية بنزعتها المُنسجمة مع الطبيعة تعتبر من منظورنا مُعادية لمفهوم الفعل الذي نفكر فيه، فهذه المدرسة التي: "أسسها زينون الإيلي من مدينة كيتيوم القبرصية، الفينيقي الأصل على الأرجح، وقد سميت بالرواقية Stoicism نسبة إلى الرواق Le Prortique باليونانية (stoa) حيث كان زينون يعلم ويجتمع مع تلامذته في أثينا، هذه المدرسة رأت في الانفعالات والتأثرات والأهواء مصدر تعاسة الإنسان، فنادت بمعاملتها كما لو كانت أمراضاً يجب اقتلاعها من جذورها، وأضحت الفلسفة هي فن التماشي مع الطبيعة والوصول إلى حالة اللانفعال، أو عدم الإحساس apathie حيث لا يعود لأي ألم أو حزن من سيطرة على الإنسان".¹²، ومن بينها يأتي الخوف، لأنه: "في الصيغة المتعارف عليه، هو "ناصح تعيس". ولكنه يجعلنا أيضاً متمركزين حول ذواتنا، منغلقيين تجاه الآخرين، إذ تحث وطأة الخوف، لا يفكر المرء إلا في ذاته، وهو على استعداد لأن يفعل أي شيء ليتقي الخطر الذي يهدده إلى درجة ترك الآخرين في المواجهة، وحتى في التضحية بهم".¹³. لذلك كان الفعل مبنياً على توجه خاص، بحيث تتحول فيه الأفعال لتجعل الإنسان مرتبطاً أشد الارتباط بالعالم الخارجي، فإذا كان: "التفكير يعود بي إلى ذاتي، فإن العمل يدفع بي إلى الخارج. فأعمالي قد تكون أحق من أن

محافظاً على استقلاليتها، وعلى حياة هادئة متقشفة يمضي معظمها في التأمل.²⁶

ويسعى ابن باجة في أعماله "تدبير المتوحد" و"رسالة الوداع"، إلى الحديث عن مفهوم الفعل انطلاقاً من: "مقدمتين متلازمتين: تنص أولاً على "أن الإنسان مدني بالطبع...وان الاعتزال شر كله"؛ وتقول الثانية إن الإنسان مجبول بالطبع على البحث عن السعادة. يقودنا الجمع بين هاتين المقدمتين إلى القول إن الإنسان لا يستطيع الوصول إلى السعادة من دون الاجتماع المدني الذي يضمن له الحد الأدنى والضروري للبقاء في الوجود من أمن ومسكن ومأكل، والحد الأعلى من أنظمة وقوانين وأخلاق لاستكمال غاية الإنسان.²⁷؛ معنى هذا أن الاجتماع المدني هو الذي يحول الإنسان بالقوة إلى إنسان بالفعل.

وفي العصر الحديث، تجلّى ذلك الارتباط القوي بين مفهوم الفعل والنزعة الإنسانية التي: "ظهرت في القرن التاسع عشر ميلادي، وبالتحديد في 1808 مع البيداغوجي البافاري نيتمار من أجل تحديد "النظام التربوي التقليدي الذي يستهدف تكوين الشخصية الجامعة والإنسانية بواسطة "الإنسانيات".²⁸ وبالتالي فالنزعة الإنسانية هي: "الثقة المتجددة في الإنسان وفي قدراته، هذه المقاربة العلمانية للعالم، هي محاولة لعلمنة التاريخ، هذه الطريقة التي تهدف إلى الهيمنة على الطبيعة وتطويع قدراته، وهذا العمل يستمر من أجل بناء الجمهورية الأرضية."²⁹

وبمتتالية متصاعدة بدأ مفهوم الفعل يفتح على فلسفة نيتشه أو بصيغة أخرى، وجد نيتشه فيه ضالته الفلسفية، وبخاصة حين نبش جينولوجياً في عمق الشخصية الارتكاسية التي استوطن فيها الكاهن وتشبعت بروح الاضطغان: "الذي يحرك ذلك النوع من الكائنات التي حُرمت من ردّ الفعل الحقيقي، ردّ الفعل الذي يكون فعلاً، والتي لا تجد من عزاء إلا في ثأر خيالي. وفي حين أن كل أخلاق نبيلة إنما تنبثق من قول -نعم لنفسها بشكل منتصر، تبدأ أخلاق العبيد بقول لا لـ "خارج ما"، لضرب من "عدم-النفس". وهذه الـ "لا" هي فعلها الخلاق. هذا الانقلاب في النظرة الواضحة للقيم هذا التوجه الضروري نحو الخارج بدلاً من التلفت نحو الذات-إنما يدخل تحديداً في صلب الضغينة: إذ كي تنشأ إنما تحتاج أخلاق العبيد دائماً وأولاً إلى عالم مُضاد وعالم خارجي، متى تكلمنا بشكل فيزيولوجي، هي تحتاج عموماً إلى مثيرات خارجية لكي تفعل-إن فعلها هو بالأساس ردة فعل.

بالتأكيد لم يكن مفهوم الفعل غائباً عن المتون الفلسفية، بل على العكس من ذلك ظل حاضراً في رؤى المدارس الفلسفية، كالفيثاغورية، الرواقية، المشائية، ومتواجد في نتاجات الفلاسفة العرب، عند الكندي، الفارابي، ابن سينا، ابن رشد، ابن باجة، هذا الأخير الذي وضع الفعل الفكري في رتبة الفصل النوعي، إذ يقول، مُعرفاً الإنسان: "ويمتاز عن جميع هذه الأصناف بالقوة الفكرية وما لا يكون إلا بها."²¹ ويبيّن ابن باجة الفعل على شرط الاختيار، لأن: "كل فعل إنساني فهو فعل باختيار. وأعني بالاختيار: الإرادة الكائنة عن روية."²²

في هذا المستوى من التفكير، تحدث كل من أبو بكر بن باجة (الذي توفي في مدينة فاس المغربية في شهر رمضان 533هـ، أي في شهر ماي سنة 1139) في كتابه تدبير المتوحد، فهو يُعد: "أو من نصب مسألة الإنسان في الفلسفة الإسلامية"²³، ومن أجل أن نوضح هذه المسألة عنده سعى ابن باجة إلى تقديم رؤية تحتوي على: "تديراً خاصاً عرض فيه أين يلتقي بقية الناس، أين يتميز عن الجميع، وكتب لصديقه ابن الإمام يدعو كيف يكون خادماً لنفسه، حين يدرك الغاية الأخيرة من الوجود، وأن هذه الغاية لم تُعطَ للجمهور بل اقتصر على نخبة تسافر إلى أفكار هي بمثابة موطنها الحقيقي. من أجل هذه الخاصة تشكل ما يسميه النوابت أي تلك التي تكون مخالفة لكل النباتات الأخرى التي زرعت في الحقل، يبني ابن باجة نظريته في المعرفة، وهي أيضاً مرتبطة كلياً بالصراع بين الخاصة والعامّة، بين النخبة والجمهور، وبناء على هذه النظرية المعرفية يقيم فيلسوف سرقسطة فلسفة معيارية، أي فلسفة عملية أخلاقية."²⁴

ونلاحظ أن مفهوم الفعل حضر وتواجد في اللسان العربي بمفردة دالة تسمى بـ"التعقل"، أي phronesis الفرونسيس، وقد: "تصوره الفارابي وابن باجة، إنها هو إمكان نظري نشيط وواعد لبناء إحدائيات "فلسفة عملية" لا تقتصر على تجميل السياسة بالأخلاق كما فعل كانط، بل تسعى إلى إيجاد اقتران فعلي بين الحقيقة والنجاعة، بين المعقولة و"التعقلية."²⁵ ونعثر في الفلسفة الغربية، على نموذج حي للتوجه الانعزالي الذي يتعد عن الحياة البشرية، ويؤثر السلامة الشخصية، يتمثل في فلسفة باروخ اسبينوزا، فقد: "تعلم أن يكسب عيشه من مهنة صقل العدسات. لم تلبث شهرته أن اتسعت ولكنه رفض كل عرض ليعلم في إحدى الجامعات، أو ليلتحق بخدمة أحد النبلاء، فقد شاء أن يظل

الاعتزام إنما تنبثق الصُّحبة الأصلية ، الواحد مع الآخر ، أو من مرة ، وليس من اتفاقات قائمة على الرّيبة والتحاسد ومن ثرثرة التأخر في الفهم ، ومما يريد الهمُّ أن يخوضوا فيه.³⁴ ويُقرّ هيدغر أنّه يُفضل في تحليلاته مفهوم العزم بحكم ارتباطه الغليظ بمفهوم "العالم" ، لأن: "إغفال ظاهرة "الإنية" هو في الحقيقة ناجم عن إغفال ظاهرة "العالم" وعدم فهم "الذات" بوصفها "كينونة في العالم".³⁵ هذه الكينونة تلتصق بيُعد أنطولوجي هو بُعد "الزمان" أو "الاستباق" ، لكي يرتقي إلى مستوى الكينونة الأصلية ، فما هو مطلوب من الدازين هو: "أن المستقبل ذاته هو أول ما ينبغي أن يظفر به ، ليس انطلاقاً من حاضر ما ، بل انطلاقاً من المستقبل غير الأصيل".³⁶ فأصالة المستقبل تُستمد من ممارسة مكينة في صلب الدازين هي الاعتماد على شرط "العزم" ، لأن: "المستقبل الأصيل هو معركة ، وليس شيئاً تنتظره في الكسل اليومي للهمُّ".³⁷ وبهذا فهو مرهون بالعزم الذي: "هو ما به يتقوم وفاء الوجود إلى ذاته".³⁸ أما ما يستبعده هيدغر من متنه الفلسفي ، فهو مفهوم الفعل³⁹ ، نظراً لكون: "الدازين من حيث هو عزم ، إنما هو يفعل بُعدٌ ، وقد نتحاشى مصطلح "الفعل" عن قصد".⁴⁰

أما اللحظة التي أخذ فيها هذا البحث بُعداً تأسيسياً ، فهي التي تجسدت في المنجز الفلسفي الذي قدمته المدرسة البولونية ، إذ: "من بين فلاسفة الفعل — ولهم ما يطابقهم في مدرسة الهيغلية الألمانية وفلسفتها للفعل — نعد ترنتوفسكي الشخصية الأهم. فقد أراد أن يبني أول نسق فلسفي "وطني" حتى يتمكن بفضل من تقرب الشعب البولوني من أوروبا ومساعدته في تعبيد طريقه إلى الحرية".⁴¹ وكذلك: "وضع سيزكوفسكي في (كتابه) المقدمة نظرة هيغل للتاريخ موضع مساءلة ، وكان مفاد اعتراضه الرئيس أن هيغل لم يعالج خاصةً إلا الماضي ، ومن ثم ففكره التاريخي لم يسم إلا إلى جزء من تاريخ الإنسان وغض الطرف عن المستقبل واضعاً إياه بين قوسي تأملاته المجردة".⁴² ، ومنه اقترح سيزكوفسكي درباً أمناً ، وما على الذات الغربية ، أو البولونية تحديداً ، إلا أن تطرقه تكراراً ومراراً ، درب يُعبد أصلاً بمفهوم الحرية ويُعضد بالفعل الإنساني الصادق والصامت والمثابر ، فما: "تطلبه الحرية الحقيقية ليس مجرد الوجود الإمكاناني (بالقوة) بل الوجود بالفعل وليس السلب بل الإيجاب وليس النشاز بل التناغم ، إن الفعل المؤسس للحسم ليس كافيًا في الحرية بل

وإن العكس هو ما يحدث عندما يتعلق الأمر بطريقة النبلاء في التقويم ، هي تفعل وتنمو عفواً ، وهي لا تبحث عن ضديدها إلا من أجل أن تقول لنفسها نَعَمْ أكثر عرفاناً وأكثر ابتهاجاً — وليس مفهومها السالب من جنس "الوضع" و"العامي" و"الليهم" ، إلا وهو صدى باهت ومتأخر النشأة بالنظر إلى مفهومها الأساس ، الموجب ، المتشرب في أعماقه حياةً وشغفاً ، "نحن النبلاء ، نحن الأخيار ، نحن أصحاب الجمال ، نحن السعداء".³⁰

إن لغة نيتشه المتشوقة إلى الحياة وجدت لها صدى متألقاً في المتن الهيدغري ، فقد جاء كتابه العمدة "الكينونة والزمان" زاخراً بعبارات فلسفية تشي بوجود توجه صارم من هيدغر نحو الاشتغال على مفهوم الفعل ، بالرغم من حرصه المطلق على صفات الدازين القادم ، ونقول القادم لأن هيدغر كما أشار الدكتور فتحي المسكيني متسائلاً: "لماذا لم يبدأ هيدغر في تحليلاته بالأنا أو الذات وليس بالعالم؟ لأن الدازين لا يفهم نفسه في غالب الأحيان انطلاقاً من نفسه بل انطلاقاً من العالم الذي ينشغل به. فهو في أول أمره ضائع في ذلك العالم ومنهمك فيه. ومن ثم فالمطلوب من أجل النهوض بالسؤال من يكون؟ هو أن يُعاود استملاك نفسه وتحريرها مما هو غريب عنها".³¹ ، وهذا يقتضي عند هيدغر التحرر أولاً من الانحطاط الذي يلف الكائن الإنساني ، ومن: "الكينونة المنحطة في نطاق المشاغل المباشرة "للعالم" تقود التفسير اليومي للدازين وتسدل على الصعيد الأنطقي حجاباً دون الكينونة الأصلية للدازين".³²

وضياع الكينونة عنده متعلق بمسألة أساسية ترتبط بهذا الشكل التافه من الوجود ، والذي يمنع الكائن من البروز أنطولوجياً ، بحيث يغدو كائناً غفلاً فقيراً وهشاً ، و: "يكون الدازين ضائعاً في "العالم" الذي له ، وإن الفهم ، من حيث هو استنزاف نحو إمكانات الكينونة ، قد انزاح نحو الجهة. والانغماس في الناس يعني هيمنة التفسيرية العمومية ، فيمثل المكشوف عنه والمفتوح على جهة التخفي والانغلاق في ثنايا القيل والقال والفضول والالتباس. إن الكينونة لم تُمَح ، ولكنها صارت مُنبتة ، وإن الكائن لم يُحجب بالكلية ، بل هو على وجه الدقة مكشوف عنه ، ولكن هو في الوقت نفسه متخفٍ ، هو يبين عن نفسه-ولكن على جهة الظاهر".³³ على هذا الأساس اجتهد هيدغر في تقديم تخريج عملياتي لهذا الوضع الذي خشي منه أن يسقط فيه الدازين ويفقد صفته الأنطولوجية ، بحيث تكون حقيقة الكينونة: "الأنفسنا في

التي تزاوجها في مواقعها المعرفية داخل الخطاب الفلسفي، كمفهوم العمل مثلاً، غير أن هذا الأخير ارتبط والتصق بممارسة محددة وثابتة هي "دورتي الإنتاج والاستهلاك". فإذا: "ما اختزل الفعل في العمل واختزل العمل في الدورة التي لا تنتهي للإنتاج والاستهلاك، بل في الدورة التي تتضمن فيها الإنتاج ذاته الاستهلاك، فإن الأساسي حينها يصبح هو توفير لقمة العيش وحبس كل الاقتدارات في الدرجة الدنيا للمحافظة على الحياة".⁴⁷، إلى جانب ذلك يبنّي العمل على التكرار، والنمطية، والرغبة الجامحة في الملكية، وانخراط الفرد في حركية أكبر منه هي حركية المجتمع اللامتناهية، كل هذه الصفات تمحّي بمجرد الاقتراب من فضاء الفعل، فمعنى "فعل" "Agir" بالمعنى الواسع، تدلّ على أخذ مبادأة، يشرع، يتورط في.⁴⁸ أما الطابع الجماعي للعمل فهو لا يقدر إلا على: "تأسيس واقعة مُعترف بها، ومميّزة لكل فرد من الجماعة، وعلى الضدّ من ذلك تقتضي، بالفعل، محو كل وعي فردي".⁴⁹، ومنه، يغدو العمل في صميمه ممارسة فردية بأبعاد جماعية، يلتغي فيها الفرد ككائن مُتفرد بذاته، ويسقط في أنماط أنطولوجية مُنحطة، يلفها الاغتراب، والتكلس، أما: "الفعل الإبداعي الذي يؤكد به الإنسان ذاته هو الفعل الصدوق والعسير والمتجدد، أما الأفعال النمطية والمكرورة فحمالة اغتراب".⁵⁰

مسوغات التفكير في الفعل

يمكننا رصد شبكة كبيرة من المسوغات التي دفعتنا في هذا المنعطف التاريخي إلى التفكير في الفعل⁵¹، باعتباره ظاهرة مركبة من مفاعيل عديدة، ومن رؤى مختلفة، ومن اشتراطات مُستمدة من الواقع الإنساني، فالفكر الذي: "يتجاهل تاريخه ومرتكزه يظل فكراً مفصلاً عن تربة إنباته أفكاره ويظل بالتالي "فكر تخليق" لكن حتى في هذه الحال فإنه يظل يحلق فوق ما هو "أقدم" منه".⁵²، ونحن بالتالي نريد أن نطرح السؤال الحارق "من نحن اليوم؟"، وما ذا نريد من هذا اليوم، وما هو دورنا فيه؟ بحيث: "يؤكد فوكو على قيمة طرح سؤال "من نحن اليوم؟"، وهو سؤال كان كانط قد طرحه عندما فكر في "الأنوار"، ولكن ذات السؤال طرحه نيتشه أيضاً. حيث يعتبر فوكو أن مهمة "الفيلسوف"، مثلها جسدها فكر نيتشه، تكمن أساساً في تشخيص الزاهن، ف"لقد اكتشف نيتشه أن الفعالية الخصوصية للفلسفة تكمن

إن ما تحتاجه الحرية هو الحياة العملية التامة والواقع المتناغم. ينبغي أن تكون الحرية فعلاً وليس مجرد نية".⁴³ وبفضل هذا التمشي تزايد الانشغال بمفهوم الفعل في الفلسفة الغربية، وبدأت الإضافات تربو وتتكاثر، وقد تزامن ذلك مع تنامي نزعة التحرر من هيمنة الأنساق الكبرى، وبخاصة في صورتها الهيغلية، وتجلت هذه النزعة في المسعى النيتشوي، والماركسي، والفرويدي، أو وفق التوصيف الطريف لبول ريكور "فلاسفة الريبة"، الذين صرفوا جهداً كبيراً في محاربة غريهم الأساسي، ألا وهو الوعي الذاتي، بحيث: "طرح فرويد بصورة جذرية الإيمان بتحكم الفاعل في ذاته. كان يتحدث عن ثلاثة جروح للنرجسية الإنسانية: مع غاليليو اكتشف الإنسان أنه ليس في مركز العالم، ومع داروين أنه ليس في مركز الحياة، ومع فرويد أنه ليس في نفسه الخاصة به".⁴⁴ ومن صلب مناقشته لهم أدرك بول ريكور أن السرد الحقيقي والتاريخي لا يمكن أن تقوم له قائمة بدون ذات فاعلة، وبالتالي قادرة على أن تحكي قصتها في سرد تاريخي، جدير بأن يُعاش ويُروى، وبأن نستأنف الحديث في مسألة الفعل استئنافاً يُعيده إلى فضاء النقاش الفلسفي الرصين، إذ يقول: "سنمضي، أولاً، لاختراق هذه المنطقة النقدية ونسعى لإعادة التفكير بطريقة أخرى في هذه الطريقة التي يُسهّم فيها الخيال في صنع الحياة، بالمعنى البيولوجي للكلمة؛ أي الحياة الإنسانية. أريد أن أطبق على هذه العلاقة بين السرد والحياة حكمة سقراط القائلة إن الحياة بلا عناء لا تستحق أن تعاش".⁴⁵

من هنا كان التفكير في مفهوم الفعل بحسبانه موضوعاً قائماً بذاته هو من جهة مبدعة ومنفتحة على إمكانات جديدة للقول الفلسفي؛ أي هو: "استئناف التفكير بالفعل في الأنطولوجيا التي تعرت من الحياة وعرت الكائن من مقولة أساسية من مقولاته وهي مقولة الصراع، وتجذير التفكير بالفعل في التاريخ والأخلاق هو تجذيره في الزمن والقيمة وجدلته متابعتة في الأضداد أو في الفروق أو في التقالبات والتقاطعات. فالفعل يبحث إما عن زيادة الاقتدار وإما عن تحقيق هدف وقعت محاولة إنجازه في الماضي وإما عن المساهمة في إنجاز أثر ما وإما عن تثبيت القائم من الأمر والمحافظة عليه. في كل الأحوال، الفعل مخاطرة ومبادرة ومبادأة وعملية تحقيق ما هو جديد".⁴⁶

إن الاشتغال على هذا المفهوم يقتضي منا الذهاب رأساً جهة التعاطي مع المفاهيم التي تتحرك بالقرب منه، أو

بين النقد والتعاطي مع الراهن، من أجل تكريس قاعدة معرفية وسلوكية في الآن نفسه، تتمثل في عدم الاستسلام للواقع المتغير باستمرار والحذر من جاذبيته القوية، وهذا ما انشغل به كانط في زمنه، بحيث: "تكمن قيمة الفلسفة الكانطية، حسب فوكو، في الربط الذي أقامته بين المبحث النقدي والسؤال عن الراهن، وهو ما يبدو جلياً من خلال مقاله "ما هي الأنوار؟"⁵⁸، والحضور القوي هو الذي يبني على فكرة الحرية التي تعني عندنا المقدرة الكلية على صناعة الحياة انطلاقاً من ذات مؤهلة أنطولوجياً ومعرفياً، فلدى: "الإغريق ما يشير إلى قيام الفعل على مبدأ الحياة والحرية، هو أمر يتبّه فوكو مثلما يتبّه إليه نيتشه."⁵⁹

- نريد من خلال التركيز على مفهوم الفعل الذي يرتبط زمنياً بمفهوم الحاضر، أن نلج قارة جديدة من التفكير، وهي قارة الحاضر، أو البحث عن أنطولوجيا تؤسس لليومي ونسعى إلى فهمه وفق إحدائيات معرفية جديدة، وفي ذلك يقول عبد العزيز العيادي (1955-): "إذا كان الإنسان هو الكائن الذي يفعل فإن فعله هو الاعتراف بنقصانه، على أن النقصان والتناهي والمائية ليست سوالب إلا متى أولت كمرادفة للعجز وسكون المهمة وموت الخاطر."⁶⁰، ويقول كذلك: "إذن، التأكيد على الحاضر ليس رفضاً للتاريخ بإطلاق وليس تغليفاً لممرات الذاكرة وإنما هو مدافعة عن الحياة في مواجهة الخسيان والذين بلغت شمسهم رأس الحائط والذين يسكنون أواخر الكلمات طلباً للسلامة كما الواقفين على الحياض أو على الربوة عسماً يحرصون "موضوعية" التاريخ."⁶¹، ويقول ميشال فوكو: "إن المسألة الأساس في الفلسفة هي مسألة هذا الحاضر الذي هو أنفسنا، فالفلسفة اليوم هي سياسية وتاريخية كلياً."⁶²، والاعتناء بالحاضر لا يعني البتة القطع مع التراث؛ فهذا الأخير يشكل بالنسبة لنا ينبوعاً لا ينضب من الرؤى والمفاهيم والتصورات، التي تقرض علينا التحاور معه، على أساس أن التراث هو مخزن كبير لمنظوريات وتجارب بشرية قيمينة بالتأويل، وانطلاقاً من رؤية الفيلسوف الألماني هانز غيورغ غادامير، Hans-Georg Gadamer (1900-2002)، الذي يلح على: "إعادة صياغة مفهوم التراث نفسه واعتماده إرادة التسليم من جيل إلى آخر والحركة المستمرة في الدوران عبر الأجيال، لأنه يرى أن "الانتفاء إلى تراث ما شرط من شروط التأويلية"، التراث الذي هو تجارب تاريخية لا محض وقائع حدثت وانقطع بها الزمن. التراث هو الذاكرة المستمرة، هو تواصل، حاضر مُشارك لنا

في عمل التشخيص (Diagnostic): ما حالنا اليوم" وما هو هذا "اليوم" الذي نحيا صلبه؟"⁵³ من بينها:

- يذهب الباحث التونسي عبد العزيز العيادي، إلى تحديد بعض المسوغات التي يمكن الاتكاء عليها لكي نفكر في الفعل، ويصح بالتالي استشكالياً فلسفياً يحمل راهنية غليظة، بحيث يقول: "استئناف التفكير بالفعل في الأنطولوجيا هو استئناف الأنطولوجيا التي تعرت من الحياة وعرت الكائن من مقولة أساسية من مقولاته وهي مقولة الصراع، وتجذير التفكير بالفعل في التاريخ والأخلاق هو تجذيره في الزمن والقيمة وجدلنة متعينة في الأضداد أو في الفروق أو في التقالبات والتقاطعات."⁵⁴

- ومن بين المقولات التي تعمل على عرقلة انطلاق الفعل من عقاله، هي مقولة لحاضر المكبل بالماضي، والذي لا ينتج إلا الأهواء الحزينة، وفق التوصيف الجميل لاسبينوزا، فالماضي: "يمنعنا من الإقامة في الحاضر، إما لأنه كان سعيداً ويشدنا في شباك الحنين، وإما لأنه كان شقياً ويفرقنا فيما يسميه سبينوزا بتعبير جميل "الأهواء الحزينة"، وفي ضروب الأسف والندم والخجل والشعور بالإثم، التي تُصرفنا عن الفعل وتُلجم مبادرتنا وتُضعف قدرتنا على اغتنام الوجود والعيش في اللحظة الراهنة. وعندئذ، تساورنا الرغبة في الارتقاء بين أحضان خيال وهمي آخر، متجه هذه المرة نحو المستقبل: وهو الأمل."⁵⁵، وبذلك يكون الفعل بمعنى دقيق، الانتفاء الذي لا لبس فيه إلى الحاضر، والقطع مع الأفكار المتعالية التي تسبح بصورة عمياء في عالم الفراغ، بحيث لا يكون: "البحث عن الحقيقة في السرديات المتعالية ولا العوالم المفارقة، وإنما في الحاضر الحي بتجاربه الوهاجة وتجلياته المتجسدة. لم يكن الكنان⁵⁶ مناقضا للحدث سوى في الظاهر، لأنه "حادثة" جديدة، يبحث عن العريق في الجديد، عن الإله في العالم، عن المطلق في النسبي، عن المتناهي في الكبر داخل المتناهي في الصغر كالذرة المنطوية على الكون الأكبر."⁵⁷

- نحن هنا في هذا المستوى من التفكير، بحيث نخمن في تطوير أنطولوجيا الفعل الممزوجة بمفهوم الحضور، بعيداً عن التصورات التي تشكلت في ميتافيزيقا الحضور، بكل جهازها المفاهيمي الضخم، والحضور يعي المقدرة الكبيرة على القيام بالأفعال المفتاحية التالية: القراءة، الفهم التأويل، الكتابة، النقد، التنوير، وبالتالي هناك ارتباط قوي

الظرف عبئاً والوضع بلية بينما الظرف شرط وجود والوضع فضاء عمل وتحرر ويخلص من الهيمنة الزائفة ومن وهم سعادة تامة وبهجة نزقة تحسب أنها حكرًا على الأغنياء والمتنفذين في هذا العالم أو هي إقطاعة لذوي الثروة والسلطان بينما هؤلاء كثيرا ما تتضاعف عليهم ويشدد عليهم الوجع ويتعب منهم الجسم والنفس ويملوهم الغيظ والحنق.⁶⁷ وفي هذا السياق يذهب هيغل إلى محاربة كل الأفكار التي تأنف عن الانغماس في الواقع، وهو توجه يجادل فيه المتن الكانطي، إذ يذهب إلى: "حد السخرية من النفس الجميلة" التي تخشى الغوص في الواقع لأنها لا تريد أن تلتخّ يديها بالفساد المحيط بها، وتريد المحافظة على نقاوة الفؤاد، فتنتهي بأن تعيش شقاء الحنين، وتزول "مثل بخار لا شكل له يتحلل في الهواء". ذلك أنه لم يُنجز شيء عظيم إلا وكان الانغماس في العالم والهوس الشديد وراءه، ولا يدين مثل هذه الأعمال العظيمة التي تكون خارج كل اعتبار أخلاقي، سوى أخلاقية كاذبة وزائفة.⁶⁸ وكذلك مقاومة كل أشكال وضروب الملل والسأم، فأن: "يكون للشخص الواحد كل مساء أو الرجل على نفس السرير، وأن يرى كل يوم ونفس الأنوف تعلق نفس الوجوه في المكتب أو المصنع، فقد يصبح هذا على المدى الطويل مملا للغاية. وإزاء ثقّة الرتبة ومنطية "المترو، فالعمل، فالنوم"، من لم يذهب به التفكير، مثل رامبو Rimbaud أن "الحياة الحقّة هي غير ذلك"؟⁶⁹

- لا ينشغل الفعل فقط بالجانب التطبيقي، فهذه رؤية سطحية وساذجة، لا تتنبه إلى الجانب الفكري فيه، بحيث يظهر هذا بقوة في الفعل، فالفعل هو نهاية الفكرة وبداية التصرف، والفعل الذي ينبع من الفكرة الصادقة والقوية والمنتينة في منطقتها الداخلي، هو الفعل الذي يحدث تأثيراً كبيراً في مسارات الوجود، إذ أشار الفيلسوف الانكليزي فرانسيس بيكون Francis Bacon (1561-1626)، في مؤلفه "الأروغانون الجديد"، إلى مسألة خطورة الأفكار في صناعة الوهم، وهي أخطر المنجزات البشرية على الفعل التاريخي، حيث تكون: "الأفكار المُسبقة التي ورثناها، وهي أربعة أصناف: أوهام الجنس البشري أي تلك المتأتية من الطبيعة البشرية التي تملك حواس غير دقيقة وأهواءً وانفعالات، وبالتالي لا يمكن الركون إليها وهو يسميها idola tribus. أما الأفكار المُسبقة الثانية فهي أوهام الكهف نسبة إلى أسطورة أفلاطون، وهي تختص بكل فرد وتربيته وظروفه. ثم هناك أوهام الساحة العامة idola fori وهي عبارة عن الأفكار

ونحن مُشاركون فيه. فنحن نقرؤه ليس من أجل معرفة الماضي ودوامه بقدر ما نقرؤه من أجل الحاضر، من أجل جعله حاضراً، فهو تجارب وجودية فلا تُقيم معها قطيعة، بل تواصلًا وحواراً.⁶³، والحوار يقتضي منا أن نولي دراسة التاريخ ومعرفته أهمية قصوى، وهي مهمة ستسعدنا في فهم الفعل البشري، لأن التاريخ هو الإمكانية الكبرى التي تعلمنا إن الممكن ما زال قائماً، فقد خصص نيتشه: "الخاطرة الثانية من كتاب "خواطر في غير أوانها" لمسألة فوائد دراسة التاريخ ومساوئه بالنسبة إلى الحياة، معتبراً أن دراسة التاريخ وجب ألا تتعارض مع الحياة، أعني مع الصيرورة والتنوع، ووجب أن لا تتعارض مع حاجة الإنسان إلى الفعل: "من المؤكد أننا نحتاج إلى التاريخ [...] كي نحيا ونفعل، لا لنولي أنظارنا عن الفعل".⁶⁴، وبالتالي يصبح الهدف من دراسة الفعل، هو الإمساك بقدر الفكر في الراهن، أو التاعطي مع الراهن بواسطة الفت، كما أوصانا هيغل، Georg Wilhelm Friedrich Hegel (1770-1831)، وأكثر: "من أي وقت مضى، هو إعادة الإمساك بمكونات ماهيته الممكنة عساه يستعيد اقتداره على تحمل الأمانة الانطولوجية الكوسمولوجية والأنطولوجية، بجدارة الحر المسؤول الكريم."⁶⁵

- نريد من خلال هذا العمل، أن نؤسس لممارسة فلسفية، نبغي من خلالها إلى الجمع بين التأسيس والحديث عن الفعل، على الضد مما ذهب إليه الفيلسوف الألماني، غوتفريد فيلهيلم لايبنتز، Gottfried Wilhelm Leibniz (1664-1716)، الذي انشغل بالفعل وأهمل التأسيس، فهو يرى فيه مسألة لا طائل من ورائها، وعلينا الذهاب مباشرة إلى الفعل أو ما يسمى بالإنجاز، إذ يتضح أن: "الإلحاح الليبنتزي متجه إلى الفعل وليس إلى التأسيس كما هو الحال مع ديكارث، فالبحث في الأساس بحث عقيم وبالتالي لا طائل من البحث عن يقين أول، كالكوجيطو أو النفس أو الأساس مهما تنوعت أسماؤه ومن يدخل هذه المتاهة تختلط عليه السبل ويعجز عن المعرفة شأن عجز الذين يلهيهم الجدل في القدر والحرية عن الفعل، فبالفعل يحقق كل موجود فضيلته، نعني قدرته وتميزه الذي يخصه والذي فيه تمارس كل طبيعته نشاطها المخصوص الذي يجعلها تمتد وتتحول نحو الأفضل."⁶⁶

- الفعل الحقيقي هو الذي ينخرط في ممارسة ترمي إلى مقاومة الوضع الراهن بكل تعقيداته ومفاعيله المختلفة، فالذين: "يحملون الظروف والأوضاع كل مآزقهم إنما يفترضون

في الوقت الذي يكون فيه هو الشاهد والقابل للحجم عليه. فعبر العمل يخرج المرء من ذاته إلى الخارج. وهو لا يتصرف بمعزل عن الآخرين، بل يعمل ضمن مجموعات لها تمثيلات اجتماعية ومعارف مشتركة تمثل إرثاً جماعياً. كما أن الفعل يعكس في ذات الوقت تجارب الفرد ومهاراته، لكونه يجمع بين التجربة المتعلقة بالماضي والحاضر والتخطيط للمستقبل. كما يتميز الفعل بالحركية، لتصحح للفعل القدرة على إحداث تغييرات في العالم، وإيجاد ما لم يكن. كما يمكن القول بأن الفعل هو القدرة على التمييز بين ما يجب فعله وما لا يجب فعله، أي القدرة على اختيار السلوك المناسب للاستجابة لوضع ما.⁷⁴ وأن نؤسس الفعل على شرط وجودي، هو شرط الحرية، إذ يمكن: "القول بأن الفعل هو ميدان ممارسة الحرية، والحرية سمة من سمات الإرادة، إنها ممارسة الإرادة."⁷⁵

خاتمة

هذه المحاولة هي مجرد مقارنة نعتمد عليها للاقترب من فضاء فلسفة الفعل، ولسنا ندعي الإحاطة أو الإلمام بهذا الموضوع المترامي الأطراف، وليس في مستطاعنا المعرفي أن نجتمع فيه كل ما قيل حوله، ونرفض جميع عبارات الإطباق والإنهاء، فنحن في مستهل الطريق نحو موضوع طريف وجديد، تلتقي فيه النفوس النبيلة لكي تقعد له، وتضعه على طاولة النقد، وتوثقه بما هو ثمين من الأقوال والعبارات والتيارات الفلسفية، حتى يغدو مجالاً خصباً من الناحية المعرفية، ونقطة تقاطع للفلسفات الأنطولوجية والقيمية، وأفقاً بازغاً يحمل همس يتامى الدهر، وأصوات الذين انكسروا في لحظات القوة، وكل من أنس في نفسه مقدرة على التغيير والابتعاد عن تقاهة اليومي في صحبه الأعمى. إن هذا الموضوع يأتي في لحظة تاريخية حاسمة وفي منعطف خطير يحفزنا على تثوير قدراتنا المتعددة، من أجل ما هو مأمول والذي يعدنا بأفضل الحمل، لأن الفعل الصادق هو الذي يضعنا في قلب التاريخ، ويمنحنا شحنة وجودية نتحمل بها نوازل الزمن، ونطمح إلى أفق جديد وطريف.

المُسبقة الاجتماعية، وهي تأتي في الغالب من اللغة واستعمالاتها الخاطئة، فالكلمات قادرة على أن تقود العقل إلى التيه، ولا تحمل بلغتها الأفكار المُسبقة عينها، وهناك أخيراً أو أهم المسرح *idola theatri* ويسمى كذلك لأنها أوهاهم عقائدية تتأتى من عرض المبادئ الفلسفية على الساحة العامة، فتكون السفسطة ويكون البرهان الخاطيء في النظريات والقواعد.⁷⁰ ويرتبط الفعل كذلك بشبكة أخرى من المفاهيم المركزية التي تحتاجها الممارسة الإنسانية، ومن بينها اللغة، فهذه الأخيرة، ليست مجموعةً أو نسقاً من: "العلامات الثابتة والجافة، لكنها شبكة من الممارسات. لا معنى للغة إذا لم تمارس، أي لغة خالية من النطق والتعبير والأداء،. تتجلى حياة اللغة في استعمالها، أي في انخراطها في الحقل العملي للسلوك البشري. خارج هذا الحقل هي مجرد أجياديات صورية على غرار المثل الأفلاطونية."⁷¹

- التفكير في الفعل يعني السعي إلى استرجاع الذات⁷²

البشرية التي تعرضت لشتى أنواع النقد والتفكيك والعداء، نتيجة الحملة القوية التي قادها ليفيف من فلاسفة الحداثة وما بعدها مثل: ماركس، نيتشه، فرويد، هيدغر، ليونار، دريدا، لأن بناء الذات هو المبتغى الأساس في فلسفة الفعل: "فلقد هوجمت من شتى المدارس الفلسفية وعملت كهمم هو عبارة عن بقايا متخلفة من الماضي. غير أن الفلاسفة الذين آمنوا بالإنسان وبقيمته المنطلقة وبفردته المتمرد على كل تموضع يبحثون عن بصيص نور، عن نواة صلبة فلا يجدون ذلك إلا في الكوجيطو الديكارتية، حتى أننا نستطيع القول بأن هذا الكوجيطو مكان الاستقبال المستعد دوماً لتلقي الذات المجروحة بل المُثخنة بالجراح من دون أن يصيبها جرح قاتل، بالرغم من الإعلان مرات عديدة عن وفاتها، غير أنها تقوم من بين الأموات، كما لو كانت "طائر الفينيق لداخلية جديدة حية، لروحانية جديدة". وبهذا المعنى يتكلم ريكور عن كوجيطو مناضل وجريح.⁷³ وهذا الفاعل الذي نشير بوجوده، في وسط أنطولوجي زاخر بالعراقيل التي تربو في كل لحظة بلا توقف، هو كوجيطو قادر على صناعة فعل خاصيته: "تكمن بالأساس في كونه الكاشف لذاتي أمام الآخر،

الهوامش

1. - يشير الباحث التونسي فتحي المسكيني، في كتابه: *فلسفة النوبات*، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1997، هامش صفحة 9، إلى تاريخية إشكال الفعل أو ما سماه الإمكان العملي، قائلاً: "نحن نذكر وبخاصة ليو شتراوس Léo Strauss وغادامير Gadamer وحنا أرنت H.Arendt، فإن ما يجمع بين أعمالهم، على تبيان مقاصدها وتباعد مواضعها، هو ضرب من الأفق الإشكالي والأصلي، ألا وهو الحس العميق بضرورة الاضطلاع بإعادة اعتبار جذري للإمكان العملي، وبخاصة في بواكيره الأولى لدى اليونان، من حيث إن تلك البواكير قد طمست من فرط التقليد الميتافيزيقي الذي قام على استئناف معنى الموجود من بينية النظر" بعامة. رب أفق إشكالي نجد أن هيدغر هو من كونه لهم منذ البداية".
2. - عبد العزيز العيادي، مسألة المعنى ووظيفة الحرية في فلسفة موريس ميرلوبونوتي، دار صامد للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، الطبعة الأولى، 2004، ص 422
3. - نقلاً عن: عبد العزيز العيادي، مسألة المعنى ووظيفة الحرية في فلسفة موريس ميرلوبونوتي، مرجع نفسه، ص 576
4. - فتحي المسكيني، فلسفة النوبات، مرجع سابق، ص 27
5. - فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، الدار المتوسطة للنشر، تونس، سلسلة الكوني، الطبعة الأولى، 2009، ص 7
6. - عبد العزيز العيادي، فلسفة الفعل، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، الطبعة الأولى، 2007، ص 10
7. - عبد العزيز العيادي، اتيقا الموت والسعادة، دار صامد للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، الطبعة الأولى، 2003، ص 23
8. - محمد شوقي الزين، الغسق والنسق، مقدمة في أفكار ميشال دو سارتو، الكنان، التاريخ، اليومي، مجد للنشر، لبنان، مدارج، الوسام العربي، الجزائر، الطبعة الأولى، 2018، ص 80
9. - يذهب الباحث المغربي حسان الباهي، في مؤلفه: *فلسفة الفعل*، اقتران العقل النظري بالعقل العملي، أفريقيا للشرق، المغرب، دون طبعة، 2016، ص 163، إلى إرجاع ظهور وانبثاق فلسفة الفعل، إلى ما قدمه الفيلسوف لودفيغ فيتغنشتاين، ودفيغ فيتغنشتاين Ludwig Josef Johann Wittgenstein (1889-1951)، قائلاً: "لقد سعى السؤال الذي طرحه قتنجشتين على ظهور فلسفة الفعل التي سعت إلى طرح أسئلة وقضايا تخص دلالات الفعل وخصائصه، والبحث في العلاقة بين الفعل وأسباب التصرف، وكذلك ما إذا كانت أسباب التصرف هي علل الفعل، وغيرها من القضايا التي اشغلت بها المهتمون بهذا البحث". ونحن لا ننكر فضل التحليل الذي قدمه قتنجشتين في تفعيل هذا المسار، غير أن فلسفة الفعل كبحث فلسفي، هو لحد يوم الناس هذا، مازال لم يأخذ صورته الكاملة، وقد شاركت في تشكيله رؤى فلسفية متعددة. وفي صفحة 156، يقول أن الفلسفة قدمت: "إشكالات جديدة تخص نظرية الفعل؛ بنفس الطريقة التي أعادت بها طرح المشاكل التقليدية المرتبطة بفلسفة الفعل. ومع ذلك، وإن كان التوجه التحليلي يقر بوجود التركيز على مشاكل يمكن حلها عوض مشاكل لا أمل في حلها، فإن المقاربات ستتتبع داخل هذا التوجه".
10. - محمد بن عبد الجبار بن الحسن النفري، الأعمال الصوفية، راجعها وقدم لها: سعيد الغانمي، منشورات الجمل، ألمانيا، الطبعة الأولى، 2007، ص 171
11. - جورج زيناتي، الفلسفة في مسارها، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، الطبعة الثانية، 2013، ص 29
12. - جورج زيناتي، الفلسفة في مسارها، المرجع السابق، ص 30
13. - لوك فيري، بالتعاون مع كلود كبليلي، أجمل قصة في تاريخ الفلسفة، ترجمة محمود بن جماعة، دار التنوير، لبنان، مصر، تونس، الطبعة الأولى، 2015، ص 31
14. - حسان الباهي، فلسفة الفعل، اقتران العقل النظري بالعقل العملي، مرجع سابق، ص 16
15. - عبد العزيز العيادي، مسألة الحرية ووظيفة المعنى في فلسفة موريس ميرلوبونوتي، دار صامد للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، 2004، ص 481
16. - Yves-Jean Harder, *Histoire et Métaphysique*, Les éditions de La Transparence, 1^{er} édition, avril, 2006, p 340.
17. - Jean-joel duhot, *Socrate ou l'éveil de la conscience*, Bayard édition, 1999, p 74.
18. - تكمن قدرة الحدث وفق الرؤية الريبكورية: "على إحداث تغيير متميز، أو نقطة انعطاف في مجرى الزمن. ما كان يبدو لي ذا أهمية هو إمكان توسيع فكرة أرسطو عن الحدث peripteia، ومدها بما يتعدى قصرها وفوريبتها بغية مساواتها بفكرة التحول الدال المتميز في مجرى معين للأحداث." مجموعة مؤلفين، الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكور، تحرير ديفيد وورد، ترجمة وتقديم: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1، 1999، ص 243
19. - Jean-joel duhot, ibid, p 61
20. - Yves-Jean Harder, ibid, p 193
21. - ابن باجة، تدبير المتوحد، تنسيق سامي بن أحمد، دار سراس للنشر، تونس، 2009، ص 25
22. - المرجع نفسه، ص 26
23. - عبد العزيز العيادي، اتيقا الموت والسعادة، مرجع سابق، ص 80
24. - جورج زيناتي، الفلسفة في مسارها، مرجع سابق، ص 62
25. - عبد العزيز العيادي، اتيقا الموت والسعادة، مرجع سابق، ص 80
26. - جورج زيناتي، الفلسفة في مسارها، مرجع سابق، ص 145
27. - محمد المصباحي، الذات في الفكر العربي الإسلامي، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، الدوحة، الطبعة الأولى، 2017، ص 55
28. - Abdelaziz Ayadi, *la philosophie claudicante, Humanisme tragique et joie de la finitude*, L'Harmattan, Paris, 2011, p 124
29. - Abdelaziz Ayadi, ibid, p 124
30. - فريدريتش نيتشه، في جينالوجيا الأخلاق، ترجمة فتحي المسكيني، منشورات دار سيناترا، المركز القومي للترجمة، سلسلة ديوان الفلسفة، الطبعة الأولى، تونس 2010، ص 58-59.
31. - أنظر ما كتبه فتحي المسكيني في الهامش من مؤلف مارتن هيدغر، الكينونة والزمان، ترجمة وتقديم وتعليق: فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديدة، لبنان، الطبعة الأولى، 2012، ص 231
32. - مارتن هيدغر، الكينونة والزمان، المرجع السابق، ص 544.
33. - المرجع نفسه، ص 407

34. - المرجع نفسه ، ص 524
35. - أنظر ما كتبه ما كتبه فتحي المسكيني في الهامش من مؤلف مارتن هيدغر ، الكينونة والزمان ، ص 560
36. - المرجع نفسه ، ص 585
37. - أنظر ما كتبه فتحي المسكيني في الهامش من مؤلف مارتن هيدغر ، الكينونة والزمان ، ص 585
38. - المرجع نفسه ، ص 670
39. - يشير فتحي المسكيني ، في مؤلف مارتن هيدغر ، الكينونة والزمان ، إلى مسألة خطيرة ذات طابع تشيبي ، وهي أن: "هذا موضع طريف للبحث في العلاقة الممكنة بين التحليلية الوجدانية ؛ أي فلسفة في الفعل ، كذلك التي وضعتها حنة أرندت وطورها بول ريكور." في هامش ص 528
40. - المرجع نفسه ، ص 524
41. - هنس زدنكولر ، المثالية الألمانية ، المجلد الثاني ، تحرير الأصل الألماني ، تحرير الترجمة العربية أبو يعرب المرزوقي ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ، بيروت لبنان ، ط 1 2012 ، ص 1029
42. - المرجع نفسه ، ص 1034
43. - المرجع نفسه ، ص 1035
44. - جان فرانسوا دورتي ، فلسفات عصرنا ، تياراتها ، مذاهبها ، أعلامها ، وقضاياها ، حوار مع بول ريكور ، معرفة الذات وأخلاق الفعل ، ترجمة : إبراهيم صحراوي ، منشورات الاختلاف ، الدار العربية للعلوم ، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم الطبعة الأولى ، 2009 ، ص 103
45. - بول ريكور ، الحياة بحثاً عن السرد ، مقال ضمن كتاب: الوجود والزمان والسرد ، فلسفة بول ريكور ، مرجع سابق ، ص 243
46. - عبد العزيز العيادي ، فلسفة الفعل ، مرجع سابق ، ص 33
47. - المرجع نفسه ، ص 39
48. - Hannah Arendt. *condition de l'homme moderne*. traduit de l'anglais par Georges Fradier, Préface de Paul Ricœur, Paris, Calmann-Lévy, 1983, p 233
49. - Hannah Arendt. *ibid*, p 275
50. - عبد العزيز العيادي ، فلسفة الفعل ، مرجع سابق ، ص 38
51. يشير الباحث المغربي حسان الباهي ، في مؤلفه : فلسفة الفعل ، اقتران العقل النظري بالعقل العملي ، مرجع سابق ، هامش ص 15-16 ، إلى فارق جوهري بين الفعل والعمل ، قائلاً : "قد يُستخدم مفهوم العمل action ليدل على ما دل عليه الفعل acte وقد يستخدمان في سياقات أخرى بمعنيين مختلفين. ويعود هذا التقارب أو التباعد بينهما إلى التداخل الذي يقع أحياناً بينهما من جهة المعنى. فقد يحدث ان نعتبر العمل أخص ، والفعل أعم ، فننسب الفعل للقوة المادية إلى جانب الأفعال الإنسانية ؛ وأحياناً نخصص العمل للطبيعة والفعل للإنسان. وقد يقع العكس ، بأن ننسب الفعل لقوة الهادية ، كان نقول فعل الطبيعة ، وفعل البرودة. وفعل الرطوبة ؛ بينما نطلق العمل على الفعل الذي يكون من فاعل عاقل وقاصد. كما يعني العمل المهنة ، والفعل ذلك المجهود الذي يبذله الفرد لتحقيق منفعة. فكل عمل هو فعل ، وليس كل فعل عملاً ؛ وكل فعل حركة ، لكن ليست كل حركة فعل ، فالفعل يترك أثراً بأن يؤثر ويغير ، أما العمل ففيه قصد ، وإلا كان فعل ، كما هو الشأن عند حديثنا عن فعل الطبيعة. وعليه ، بالرغم من أننا قد نستخدم مفهوم الفعل مكان العمل ، أو العكس ، فلا بد من التذكير ببعض الفروق بينهما والمتمثلة أساساً في كون الفعل قد يمتد في الزمان ، بينما يحدث الفعل دفعة واحدة ، وقد يطلق العمل على كل فعل صدر عن فاعل دون تأثير خارجي ، أو يطلق على التأثير الذي يحدثه الفاعل في غيره. كما قد نخصص العمل ليعني كل فعل يرمي إلى غاية ويصدر عن إرادة وقصد. بالتالي ، فأحدهما نسبته إلى الفاعل من جهة محفزه الداخلي ، والآخر نسبته إلى الحرمان الخارجية من جهة كونها مظهراً لذلك الجهد. وقد يرتبط بالباعث أو المؤثر في الشيء ، فيقال كثرة الإنتاج من عوامل الرخاء. وبالرغم من أن العمل هو إيجاد الأثر في الشيء إلا أن العمل لا يقتضي العلم بما نعمل له. لهذا ، نفرق بين العامل والصانع ، فالعامل في مهنة أو صناعة ، وقد لا يعلم بوجوده ما يعمل من منافع وعمله ، وقد نقول العمل ليراد به أولوية العمل وتقدم الإزادة. ومع ذلك قد يحدث أن يقترب معنى العمل عم معنى الفعل. ولهذا سنستخدم على العموم مفهوم الفعل ، وأحياناً العمل للتخصيص ، وكان نقول عمل عملاً صالحاً. وقد يقصد بالعمل إيجاد الأثر في الشيء ، فنقول فلان يعمل الطين خزفاً ، ولا يقال يفعل ذلك ، لأن فعل الشيء هو إيجادها".
52. - عبد العزيز العيادي ، مسألة المعنى ووظيفة الحرية في فلسفة موريس ميرلوبونتي ، مرجع سابق ، ص 364
53. - نور الدين الشابي ، فوكو قارئاً نبتشه ، حول التأويل والجينالوجيا والمعرفة ، منشورات ضفاف ، دار الأمان ، كلمة للنشر ، منشورات الاختلاف ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 2016 ، ص 139
54. - عبد العزيز العيادي ، فلسفة الفعل ، مرجع سابق ، ص 33
55. - لوك فيري ، بالتعاون مع كلود كبلياي ، أجمل قصة في تاريخ الفلسفة ، مرجع سابق ، ص 29
56. - يشير الباحث الجزائري محمد شوقي الزين ، في مؤلفه ، الغسق والنسق ، مقدمة في أفكار ميشال دوسارتو ، الكنان ، التاريخ ، اليومي ، مرجع سابق ، في هامش صفحة 47 ، من الكتاب إلى ملاحظة معرفية ، بحيث يقول: " في الفصل الثاني أستبدل كلمة "عرفان" بالكلمة "كنان" و "مكتون" لتعبر عن الكلمة mystique ، بعدما تبين لي هزال الكلمات عرفان ، تصوف ، وباطن في التبدل على المنطوق "مستيتك" (mystique) كما درسه حصراً ميشال دو سارتو. "
57. - محمد شوقي الزين ، الغسق والنسق ، مقدمة في أفكار ميشال دو سارتو ، مرجع نفسه ، ص 51
58. - نور الدين الشابي ، فوكو قارئاً نبتشه ، حول التأويل والجينالوجيا والمعرفة ، مرجع سابق ، ص 127
59. - مرجع نفسه ، ص 158
60. - عبد العزيز العيادي ، فلسفة الفعل ، مرجع سابق ، ص 34
61. - المرجع نفسه ، ص 37
62. نقلاً عن: محمد الشبكر ، هايدغر وسؤال الحدائنة ، أفريقيا للشرق ، المغرب ، الطبعة الأولى ، 2006 ، ص 39
63. - أحمد عويز ، العقل التأويلي الغربي ، مقاربات في أنظمتها المعرفية ومساراته ، دار الكتاب الجديد ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 2018 ، ص 176
64. - نور الدين الشابي ، فوكو قارئاً نبتشه ، حول التأويل والجينالوجيا والمعرفة ، مرجع سابق ، ص 77-78
65. - مصطفى كمال فرحات ، لماذا الفلسفة اليوم؟ من مُمكنات فعل التفلسف أخيراً ، منشورات الجمل ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 2016 ، ص 11
66. - عبد العزيز العيادي ، مسألة المعنى ووظيفة الحرية في فلسفة موريس ميرلوبونتي ، مرجع سابق ، ص 364
67. - عبد العزيز العيادي ، اتيقا الهوت والسعادة ، مرجع سابق ، ص 218

68. - جورج زيناتي ، الفلسفة في مسارها ، مرجع سابق ، ص 221
69. - لوك فيري ، بالتعاون مع كلود كيليبي ، أجمل قصة في تاريخ الفلسفة ، مرجع سابق ، ص 15
70. جورج زيناتي ، الفلسفة في مسارها ، مرجع سابق ، ص 101-102
71. محمد شوقي الزين ، الغسق والنسق ، مرجع سابق ، ص 221
72. انظر: محمد المصباحي ، الفلسفة في مسارها ، مرجع سابق ، ص 120 ، الذي يتحدث عن مفهوم الذات في الفكر العربي الإسلامي ، إذ يرصدها عند كل من الكندي ، الفارابي ، ابن سينا ، الغزالي ، ابن رشد ، ابن خلدون ، هذا الأخير الذي تحدث عن الفرق بين "الذات العصبية" و"الذات العقلية" ، فبينما "تمتاز" الذات العصبية "باللحمة التي لا تنفصل بين الفرد والجماعة ، ما يجعلنا نسميها ذاتاً عامة ، فإن "الذات العقلية" ، التي تُنتج العلوم والصناعات والفلسفات والفنون والآداب محولة العمران البدوي إلى دولة ثم حضارة ، لا يمكن أن تكون إلا "ذاتاً خاصة". لهذا كانت غاية "الذات العصبية" المحافظة على الذات بطلب الأمور الضرورية للمعاش ومن بينها الدولة ، بينما غاية "الذات العقلية" استكمال الذات بأنواع من الكمالات الحضارية."
73. - جورج زيناتي ، الفلسفة في مسارها ، مرجع سابق ، ص 121
74. - حسان الباهي ، فلسفة الفعل ، اقتران العقل النظري بالعقل العملي ، مرجع سابق ، ص 172
75. - مرجع نفسه ، ص 183

بيبلوغرافيا البحث

1. أحمد (عويّز)، العقل التأويلي الغربي، مقاربات في أنظمتها المعرفية ومساراته، دار الكتاب الجديد، لبنان، الطبعة الأولى، 2018
2. ابن باجة، تديبير المتوحد، تنسيق سامي بن أحمد، دار سراس للنشر، تونس، 2009
3. المسكيني (فتحي)، فلسفة النوايت، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1997
4. العيادي (عبد العزيز)، مسألة المعنى ووظيفة الحرية في فلسفة موريس ميرلوبونتي، دار صامد للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، الطبعة الأولى، 2004
5. العيادي (عبد العزيز)، فلسفة الفعل، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، الطبعة الأولى، 2007
6. العيادي (عبد العزيز)، اتيقا الموت والسعادة، دار صامد للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، الطبعة الأولى، 2003
7. التريكي (فتحي)، فلسفة الحياة اليومية، الدار المتوسطية للنشر، تونس، سلسلة الكوني، الطبعة الأولى، 2009
8. الباهي (حسان)، فلسفة الفعل، اقتران العقل النظري بالعقل العملي، أفريقيا للشرق، المغرب، دون طبعة، 2016
9. المصباحي (محمد)، الذات في الفكر العربي الإسلامي، منشورات المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، الدوحة، الطبعة الأولى، 2017
10. الشابي (نور الدين)، فوكو قارئاً نيتشه، حول التأويل والجنينولوجيا والمعرفة، منشورات ضفاف، دار الأمان، كلمة للنشر، منشورات الاختلاف، لبنان، الطبعة الأولى، 2016
11. الشيكور (محمد)، هايدغر وسؤال الحداثة، أفريقيا للشرق، المغرب، الطبعة الأولى، 2006
12. النفري (محمد بن عبد الجبار بن الحسن)، الأعمال الصوفية، راجعها وقدم لها: سعيد الغانمي، منشورات الجمل، ألمانيا، الطبعة الأولى، 2007
13. شوقي الزين محمد، الغسق والنسق، مقدمة في أفكار ميشال دو سارتو، الكنان، التاريخ، اليومي، مجد للنشر، لبنان، مدراج، الوسام العربي، الجزائر، الطبعة الأولى، 2018
14. جورج زيناتي، الفلسفة في مسارها، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، الطبعة الثانية، 2013
15. لوك فيري، بالتعاون مع كلود كلباي، أجمل قصة في تاريخ الفلسفة، ترجمة محمود بن جماعة، دار التنوير، لبنان، مصر، تونس، الطبعة الأولى 2015
16. مصطفى كمال فرحات، لماذا الفلسفة اليوم؟ من إمكانات فعل التفلسف آخراً، منشورات الجمل، لبنان، الطبعة الأولى، 2016
17. مجموعة مؤلفين، الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكور، تحرير ديفيد وورد، ترجمة وتقديم: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى، 1999
18. فريدريتش نيتشه، في جنينولوجيا الأخلاق، ترجمة فتحي المسكيني، منشورات دار سيناترا، المركز القومي للترجمة، سلسلة ديوان الفلسفة، الطبعة الأولى، تونس 2010
19. مارتن هيدغر، الكينونة والزمان، ترجمة وتقديم وتعليق: فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديدة، لبنان، الطبعة الأولى، 2012
20. هنس زندكولر، المثالية الألمانية، المجلد الثاني، تحرير الأصل الألماني، تحرير الترجمة العربية أبو يعرب المرزوقي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت لبنان، ط 1 2012
21. جان فرانسوا دورتي، فلسفات عصرنا، تياراتها، مذاهبها، أعلامها، وقضاياها، حوار مع بول ريكور، معرفة الذات وأخلاق الفعل، ترجمة: إبراهيم صحراوي، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم الطبعة الأولى، 2009

الهراجع باللسان الفرنسي

1. Yves-Jean Harder, *Histoire et Métaphysique*, Les éditions de La Transparence, 1^{re} édition, avril, 2006
2. Jean-joel duhot, *Socrate ou l'éveil de la conscience*, Bayard édition, 1999
3. Abdelaziz Ayadi, *la philosophie claudicante, Humanisme tragique et joie de la finitude*, L'Harmattan, Paris, 2011
4. Hannah Arendt, *condition de l'homme moderne*, traduit de l'anglais par Georges Fradier, Préface de Paul Ricoeur, Paris, Calmann-Lévy, 1983

1- يشير الباحث التونسي فتحي المسكيني، في كتابه: فلسفة النوايت، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، 1997، هامش صفحة 9، إلى تاريخية إشكال الفعل أو ما سماه الإمكان العملي، قائلاً: "نحن نذكر وبخاصة ليو شتراوس Léo Strauss وغادامير Gadamer وحنأ أرنت H.Arendt، فإن ما يجمع بين أعمالهم، على تبيان مقاصدها وتباعد مواضعها، هو ضرب من الأفق الإشكالي والأصلي، ألا وهو الحس العميق بضرورة الاضطلاع بإعادة اعتبار جذري للإمكان العملي، وبخاصة في بواكيره الأولى لدى اليونان، من حيث إن تلك البواكير قد طمست من فرط التقليد الميتافيزيقي الذي قام على استئناس معنى الوجود من بينية "النظر" بعامة. رب أفق إشكالي نجد أن هيدغر هو من كونه لهم منذ البداية."

شبكة تحليل الصور الثابتة: نمذجة بيداغوجية لبعض المرجعيات السيميولوجية

Grid analysis of still images : pedagogical modeling of some semiological references

تاريخ القبول: 2019-12-18

تاريخ الإرسال: 2019-01-28

فضيل دليو، جامعة قسنطينة3 صالح بوبنيدر

fdeliou@yahoo.fr

الملخص

رافقت الصورة الكلمة منذ القدم بل وسبقها أحيانا كتعبير عن التجارب المعيشية للإنسان. ثم تطورت أشكالها وموادها لترافق كل التغيرات المجتمعية خاصة السياسية والدعائية، لآعبة دورا مهما في تنشيط نقاشات الحياة العامة من خلال تمثّلاتها الظاهرية المباشرة والضمنية غير المباشرة. مما يجعل دراستها وتحليلها أكثر من ضرورة.

فما هي الصورة، لغة واصطلاحا؟ وما هي أهم مرجعياتها السيميولوجية؟ وكيف يمكن استكشاف وتحليل لغتها البصرية ورموزها، باعتماد نموذج شبكة تحليلية عامة مدعّمة بمثال تطبيقي؟ هذا ما يستهدفه العمل الحالي.

الكلمات المفتاحية: الصورة، شبكات تحليل الصورة، النمذجة، مرجعيات سيميولوجية.

Résumé

L'image a accompagné le mot depuis longtemps et l'a même précédé en tant qu'expression d'expériences de vie humaine. Ensuite, ses formes et ses matériaux ont évolué pour accompagner tous les changements de société, notamment politiques et de propagande. Elle joue un rôle important dans les débats publics par le biais de ses représentations directes et indirectes. Ce qui rend son étude et son analyse plus que nécessaires.

Ce travail tentera de répondre à nombre de questions : Quelle est le sens littéral et conceptuel de l'image ? Quelles sont ses références sémiologiques les plus importantes ? Et comment explorer et analyser son langage visuel et sa symbolique à l'aide d'un modèle général de grille analytique ou un exemple empirique?

Mots-clés : Image, Grille d'analyse d'images, Modélisation, Références sémiologiques.

Abstract

Since ancient times image has accompanied the word and has even preceded it as an expression of human life experiences. Then, its forms and materials evolved to accompany all societal changes, especially political and propaganda, playing an important role in stimulating discussions of public life through its direct & implicit representations. These factors make the study and analysis of image more than necessary. This work is aiming at answering the following questions: what is image? What are its most important semiological references? And how can its visual language and symbols be explored and analyzed, using a general analytical grid model and a practical example?

Keywords: Image, Image Analysis grid, Modeling, Semiological references.

مقدمة

السيميولوجيا في دراسة الاتصال الإرادي المستعمل لرموز معلومة ومحدودة مثل اللغات وإشارات المرور...، أي "سيميولوجيا الاتصال" بأنصارها من أمثال: "بريتو، مارتيني، بويسان" (Buysens, Mounin, Martinet,) (Prieto)؛ واتجاه "مَرْن" يدرس كل الأنظمة الدلالية المفتوحة، ومثله "سيميولوجيا الدلالة" من خلال رمزها من علماء اللسانيات: "جاكوبسون وياالمسلاف" (Jakobson & Hjelmslev). مع العلم أن "رولان بارث" (Roland Barthes) و"كريستيان متز" (Christian Metz) يعتبران أبرز الممثلين الفرنسيين الأوائل لهذا التيار⁽²⁾.

أما في أمريكا، وفي نفس فترة "دوسوسير"، فقد ارتبط هذا العلم بالتوجهات النظرية للأمريكي "شارل ساندرس بيرس" (Charles Sanders Peirce)، متخذا اسم "السيميوطيقا" (Semiotics)، وذلك قبل أن يطوره مواطنه "شارل موريس" (Charles Morris) في ثلاثة اتجاهات رئيسية: السيميولوجيا الصرفة (Pure)، التي تتعلق باللسانيات وفلسفة اللغة؛ السيميولوجيا الوصفية، المستلهمة من المدرسة السلوكية، والتي تدرس السلوكيات الاجتماعية غير اللفظية (الإدارة الاجتماعية والثقافية للفضاء، للوقت، وللإيماءات)، واللغات غير اللفظية (الصور، الملابس...); والسيميولوجيا التطبيقية أو البراغماتية، التي تهتمّ بالعلاقة بين العلامة والفرد وكذا بعلامات الاتصال الحيواني⁽³⁾.

- الصورة: الماهية، الأهمية والوظائف

- ما هي الصورة؟ إنها في الأصل اللغوي "نسخة" عن شيء أو "تقليد" له (وفي معظم اللغات الأوروبية، يعود أصل كلمة Image(n)- إلى هذا المعنى نفسه: Imitari (Imite(a)r/ Copie(a)r)⁽⁴⁾. وفي تراثنا الإسلامي، ورد في تفسير ابن كثير-على لسان مجاهد-أن قوله تعالى: "في أيّ صورة ما شاء ركبك" (الإنفطار: 8) يعني: في أي شبه أبٍ أو أمٍ أو خالٍ أو عمٍ....

لكنها عادة ما تعرف اصطلاحاً في التراث المتخصص بأنها شيء أنجز لكي يكون مرئياً، وفي حدود إطار معين، ومرتبطة غالباً بوسائل الإعلام والاتصال. وهذا الشيء قد يكون تمثيلاً مرئياً لشيء طبيعي أو اصطناعي، مادي أو معنوي... عبارة عن رسم، صورة فوتوغرافية، لوحة فنية، إشارة إرشادية، لافتة إخبارية، صورة علمية (فلكية، طبية،

رافقت الصورة الكلمة منذ القدم بل وسبقتها أحيانا كتعبير رسمي -في الكهوف خاصة عن التجارب المعيشية للإنسان. ثم تطورت أشكالها وموادها إلى أن تم اختراع الصورة الفوتوغرافية في القرن التاسع عشر فالصورة الرقمية الافتراضية والتفاعلية مع نهاية القرن الماضي ومطلع القرن الحالي، لتوافق ما يسمى بـ"حضارة الصورة" وكلّ التغيرات المجتمعية وخاصة منها السياسية والدعائية، لآعبة دوراً مهماً في تنشيط نقاشات الحياة العامة من خلال تمثلاتها الظاهرية المباشرة والضمنية، المدعمة للأنظمة المهيمنة والمنتقدة لها، عاكسة البنى الفوقية والعميقة للمجتمعات وحاملةً لرسائل مستهدفة وأخرى جانبية. مما استدعى دراستها وتحليلها لمساعدة الجمهور العام، أو الطالب الشاب، أو حتى الباحث المبتدئ على الاقتراب من صور قد يعتقد أنها حيادية وتسلم نفسها للاستهلاك العفوي، فيما أنها قد تكون أحيانا مخادعة وتكون دائماً هادفة، ذات رسائل غير مباشرة وذات تأثير خفي...

ولتحليل الصورة الثابتة بالذات، وردت في التراث المتخصص في التحليل السيميولوجي عدة شبكات تحليلية للصورة، تم اقتراحها من عدة باحثين متخصصين، وسنحاول مراجعتها قبل اقتراح شبكة تحليلية توجيهية بعناصرها التفصيلية. ولكن قبل ذلك، سنبدأ بمدخل معرفي عام حول السيميولوجيا وحول ماهية الصورة، أهمية تحليلها والوظائف المُوطة بها عادة.

أولاً) مدخل مفهومي

سيقصر عرضنا في هذا المدخل على الإحاطة المعرفية الموجزة بمفهومي السيميولوجيا والصورة:

- السيميولوجيا:

إن أصل كلمة (Sémiologie) -كما هو معروف- مركب من مقطعين يونانيين (séméion/سيميو): علامة، وlogos/لوجيا): حديث، دراسة⁽¹⁾، وهي أصبحت تعبر عن علم يختص بدراسة العلامات ودلالاتها. ولقد ارتبط تاريخه الأوروبي في مطلع القرن العشرين باسم عالم اللسانيات "فيردناند دوسوسير" (Ferdinand De Saussure)، الذي خص هذا العلم بدراسة العلامات ودلالاتها وطريقة تدليلها في الحياة الاجتماعية. انقسم أتباعه إلى اتجاهين: محافظ حصر

إنها، كما يلاحظ، تصنيفان متداخل العناصر ومفصّلان على العموم لخاصتي الرسائل الظاهرة والمبطن (التضمنية والتعينية) بمختلف أنواعها.

ثانياً) بعض مرجعيات شبكات تحليل الصورة

عند تحليل صورة ما، عادة ما تتدخل الذاكرة البصرية لتنتج مجموعات من المعاني... وهو ما يستلزم استجابة مباشرة من جانب المتلقي، أو ما يسمى بالآثر الرجعي (Feed-back)، مما وجب أخذه بعين الاعتبار عند تحليل أي صورة، إلى جانب كونها تصلنا مع اعتمادها على أساليب عدة ومتأثرة بسياقات مجتمعية مختلفة⁽⁷⁾. وهو ما ساهم بقسط وافر في تعدد مقاربات تحليل الصور بمختلف أنواعها، وخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار التباين الموجود بين الباحثين حول النماذج أو التقنيات الواجب إتباعها لتحليل محتوى الصور الثابتة.

حيث يعتقد البعض أنه سيكون من المفيد استخدام سيميائية الخطاب (البلاغة مدعومة بالسيميائية) بالتركيز على العلاقة بين النص والصورة (Durand, 1965; Bonsiepe,) (1999; Joly 2003; Carretero,)؛ مقابل باحثين آخرين (1997) يعّدون أن الصورة تشكل وحدة دلالية، تتكون من دال ومدلول ودلالة، دون الحاجة إلى اللجوء إلى علم الجمال، كما يقترح ذلك دارسي البلاغة. بينما ترى مجموعة ثالثة من الباحثين (Baraduc, 1993) أن للصورة قواعد نحوية يمكن اعتمادها للكشف عن البنية الداخلية لعناصرها التصويرية (Pictographiques)، أو التشكيلية (Plastiques)⁽⁸⁾.

لكل ما سبق، وردت في التراث المتخصص في التحليل السيميولوجي عدة شبكات تحليلية للصورة الثابتة بالذات، ثم اقتراحها من طرف مناهجة تحليليين اعتمد معظمهم على ثلاثية "بارث"⁽⁹⁾ في تحليله لصورة إخبارية ثابتة لعجائن إيطالية: رسالة لغوية (Linguistique)، صورة أيقونية غير مرّزة / "تعينية" ظاهرية / مباشرة / حرفية (dénotée/ littérale)، تحمل صورة أيقونية مرّزة / "تضمنية" / إيحاءية "غير مباشرة" (Connotée/ Symbolique) (Codée) ثقافية مشتركة بين المرسل والمستقبل⁽¹⁰⁾. ونخص هنا بالذكر: شبكتي "جولي" / "Joly"⁽¹¹⁾ و"جيرفيرو" / "Gervereau"⁽¹²⁾، بالإضافة إلى ثلاث شبكات أخرى والتي

إرصادية...، فيقوم صاحبها بعدد من الخيارات لإخراج عمله في أحسن مظهر ممكن، من حيث التأطير، زاوية الرؤية، الألوان، النص المرافق... وهي من العناصر التشكيلية التي تستهدفها أي شبكة تحليلية للصورة⁽⁵⁾.

ولكن، لماذا نقوم بتحليل الصورة؟ لأن الصورة، أيا كان نوعها، فهي توجه لنا رسالة معينة. هذه الرسالة البصرية لها لغتها الخاصة ورموزها الخاصة، ودائماً لديها وظيفة رئيسة وأخرى ثانوية: التسجيل، التواصل، الإقناع، الانتقاد... ولذلك، اجتهد بعض المتخصصين في وضع شبكات تحليلية لها، سنعرضها لاحقاً.

لكن، قبل عرض بعض هذه الشبكات المرجعية التحليلية، تجدر الإشارة إلى بعض المحاولات المحددة لوظائف الصورة، ومنها، محاولة "مارتين جولي" (Joly, M.) التصنيفية لمختلف أنواع الصورة انطلاقاً من وظائفها التواصلية التي قد تساعد في تحديد بعض أطر تحليل الصورة: "وظيفة تعينية أو مرجعية أو إدراكية (صور الهوية، إشارة مرور، صورة صحافية، طبية...); وظيفة تعبيرية أو أحساسية (جمالية، فنية)، وظيفة شعرية (جمالية، فنية، تصميمية، تشكيلية); وظيفة تعينية (إشهارية، دعائية، تركيبية); ووظيفة انتباهية -phatique- (زخرفية، تلييسية، متحركة)"⁽⁶⁾.

وهناك محاولات تصنيفية أخرى لوظائف الصورة، يعكس اثنان منها الجدول الموالي:

جدول رقم 01: وظائف الصورة عند كل من

"جاكوبسون" و"شافيز" (تشير الأرقام إلى ترتيب الوظائف عندهما)

تشافيز	جاكوبسون
4- تشخيصية / تعريفية	1- تعبيرية: المرسل
3- إقناعية	2- تضمينية تأثيرية: المستقبل
2- إخبارية	3- مرجعية: المحنوى والسياق
5- توافقية	4- لغوية (حول اللغة): الترميز
1- تواصلية	5- انتباهية /تواصلية: القناة
6- جمالية	6- شعرية جمالية: الرسالة

المراجع: بتصرف عن: ACAL DíAZ, Inmaculada,

2015, 432.

المورفولوجي ومستوى المحتوى، قبل أن يضيف إلى هذه المستويات كل بيانات الخصائص البليوغرافية: المؤلف، العنوان، التاريخ والمكان، وما إلى ذلك، ويسمى التحليل التشكيلي أو الخارجي. فالصورة عنده ثلاثية المعلومات، تعينية -dénotée- (التي تظهر في التمثيل البصري، من عناصر لفظية وكتابية)، وتضمنية -connotée- (ما يقترحه التمثيل البصري) وسياقية (المشهد الذي يحدث فيه التمثيل البصري)، والتي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار ليكون التحليل كاملاً.

بعد عرض هذه النماذج التحليلية لمحتوى الصور الثابتة، نلاحظ أنها تجمع على وجود مستويين: ظاهري مباشر وباطني غير مباشر (بتسميات متشابهة و/أو متباينة)، ولكنها تختلف في الإجراءات أو التقنيات أو الأساليب المستخدمة وفي بعض العناصر التفصيلية المتضمنة في كل مستوى، لتمييز الرسائل المرسلّة بواسطة الصور.

سنحاول فيما يلي تقديم نموذج مبسط ومرن البنية وبتفصيلات توفيقية ووظيفية في كل مستوى تحليلي من مستويات تحليل الصورة:

ثالثاً) نموذج شبكة تحليلية عامة

سنقدم فيما يلي شبكة تحليلية عامة، معظم عناصرها مستوحاة من نصائح "الدروس المنهجية المفتوحة"⁽¹⁹⁾ المعتمدة أساساً على البنية التحليلية العامة لـ"جيرفيرو" - سابقة الذكر ومطعمة بمرجعيات أخرى أجمعت - كما مر معنا على وجود ثنائية ما قد يسمى بـ"التضميني" و"التعيني" واختلفت في إجراءات وتفاصيل مستويات القراءة. وهي موجهة للمبتدئين في تحليل الصور الثابتة للاسترشاد بها، مع مراعاة خصوصية كل صورة:

فلتحليل الصورة الثابتة، يجب إذن المرور بمراحل ثلاث: الوصف والسياق والتأويل، أي:

1. القيام بوصف موضوعي ("ما نراه")
2. وضعها في السياق ("ما نعرفه")
3. التأويل والنقد ("ما نستنتجه")

إنها مراحل تبسيطية، واضحة المعالم والتفاصيل، أحسبها أقل تعقيداً وتركيباً وتداخلاً من بعض الدراسات السابقة، ومنها مثلاً، "الإجراءات المنهجية لتحليل الصورة الإعلامية الثابتة"، التي عرضتها "بوللجة وزياد"⁽²⁰⁾ في سياق تقديمها لكيفية استخدام المنهج السيميولوجي في البحوث

نقدم تعريفاً موجزاً لها فيما يلي قبل اقتراح شبكة تحليلية عامة توجيهية بعناصرها التفصيلية:

- شبكة "مارتين جولي" وتحليل الصورة:

تعتمد في تحليلها على عنصري الدليل التشكيلي والدليل الأيقوني اللذين تعكسهما "العلامة" (Signe)، والتي يمكن النظر إليها من ناحيتين: تمثل الأولى المعنى المباشر/ المرئي (Stricto sensu/ intrinsèque) والثانية المعنى المتسع/ الكامن/ غير الظاهر (Lato sensu/ extrinsèque) أو النظام الدلالي⁽¹³⁾. وتحليل الصورة (الإشهارية) عندها يتم من خلال: السياق، الوصف، الرسالة التشكيلية، الرسالة الأيقونية والرسالة اللسانية، بالإضافة طبعاً إلى خلاصة عامة تخص الرسالة الضمنية للصورة⁽¹⁴⁾.

- شبكة "جيرفيرو" لتحليل الصورة:

تعتمد شبكته على تقسيم عملية التحليل السيميولوجي إلى ثلاث مراحل أساسية: الوصف الدقيق للصورة "في ماديتها" وتحضيراً للتحليل: ذكر الخصائص التقنية للصورة (المصدر، الشكل، تقنية التمثيل، الدعامية المادية)، أسلوبها (التركيبة، الألوان، الأضواء...) بمعية وصف موضوعها وكيفية تمثيله (من خلال اللقطات والأشكال والفضاء وعلاقة النص بالصورة)؛ ذكر السياق (القبلي، الحالي والبعدى) الشخصي للمؤلف، المجتمعي والتقني للصورة: أي ظروف إنتاجها واستقبالها وتأثيراتها (من خلال شهادات، نصوص، دراسات...)؛ وتأويل معناها انطلاقاً من عناصر تكوينها وسياقها وتحليلات معاصريها ومن تلاهم، وصولاً إلى التعبير عن ذاتية المحلل في شكل حوصلة عامة⁽¹⁵⁾. أي باختصار، التعبير عن "ماذا؟ وكيف؟ ولماذا؟".

- شبكات تحليلية أخرى

بالإضافة إلى الشبكات التحليلية الرئيسة سابقة الذكر، هناك شبكات أخرى، من بينها تلك التي ميز فيها "بانوفسكي" (Panofsky, 1998)⁽¹⁶⁾ بين ثلاثة مستويات من الدلالات، ما قبل- الأيقوني، والأيقوني والتأويل الأيقوني؛ والشبكة المقترحة من طرف "بينتو وآخرون" (Pinto et al.)⁽¹⁷⁾ والتي ضمنوها أيضاً ثلاثة مستويات رئيسة لتحليل محتوى الوثائق المرئية: الوصفي والتعريفى/التشخيصي (d'identification) والتأويلي. ومن جهته، ميز "فابي غاستامينثا" (Valle Gastaminza)⁽¹⁸⁾ بين المستوى

- لوحة صور كاريكاتيرية ،
- عمل فني (يمكن أن يكون لوحة ، صورة فوتوغرافية ، رسم ، ملصقة ، الخ.) ،
- ...

• هل تم تغيير شكل الصورة الأصلية؟ بال Photoshop (كما تم ذلك مؤخرا مثلا مع صورة زوجة أردوغان يجعلها تعانق سياسي يوناني)؟

- ما الذي يتم تمثيله في الصورة (عناصرها التصويرية الرمزية أو التشخيصية -Figuratifs- / أو الأيقونية -Iconiques)؟ ما هو موضوعها الرئيس؟
- شخصيات؟ معروفة أم لا؟ سياسيون؟ نجوم؟ رجال؟ نساء؟ حيوانات؟ ...

- رمز ،
- منظر طبيعي ... ،
- شيء ،
- مشهد ، معركة ، حدث معروف ...
- ما طبيعة موضوعها: ديني ، علماني ، تاريخي ، سياسي ، إلهاري ، الخ.

- هل هناك علاقة بين عنوان الصورة والموضوع؟ من هذه العناصر وغيرها (تبعاً لطبيعة الصورة)، يمكن بالفعل إجراء جرد موجز ، وعرض الصورة عن طريق تسمية المؤلف والسنة ومصدر الوثيقة والموضوع الرئيس . وفيما يلي مثالان عن ذلك وبتعليقين متفاوتين في الاختصار ومختلفين ، لأن ثانيهما سيعتمد لاحقاً كنموذج تحليلي:



غرنیکا (بابلو بيكاسو)

الصورة عبارة عن لوحة فنية للإسباني "بابلو بيكاسو" (Pablo Picasso)، رائد المدرسة التكعيبية. وهي لوحة جدارية زيتية (بالأزرق الداكن والأسود والأبيض)، رسمت في باريس (بلد المهجر) سنة 1937 على قماش بيعدي 349x776سم. المكان الحالي: متحف الملكة صوفيا (مدريد). وموضوعها تاريخي يعرض معاناة ومأساة ضحايا الحرب ويستهدف التنديد بقصف مدينة (Guernika) الباسكية (شمال أسبانيا) أثناء الحرب الأهلية الأسبانية. أما عناصرها،

الإعلامية المعاصرة⁽²¹⁾؛ و"منهج تحليل الصورة الثابتة" ل"كامبوثانو رويث"⁽²²⁾، الذي حصرها في خمسة مستويات: التقني والتشكيلي والدلالي والسياقي والمستوى الأخير الخاص بالنتائج الشاملة⁽²³⁾؛ و"تحليل الخطاب الإلهاري ل"حمداوي سعيدة"⁽²⁴⁾ التي التزمت فيه حرفياً بمقاربة "رولان بارث"، الخ...

وفيما يلي تفصيل عناصر الشبكة التحليلية التوجيهية:

1- الوصف الموضوعي للصورة من خلال "ما نراه" (التحليل الظاهري)

وهو يتكون من عنصرين: تقديم الصورة وعناصرها التشكيلية:

1.1- تقديم الصورة

- نبدأ بتحديد صاحب الصورة ونوعها وموضوعها وتقنية ومادة وظروف إنجازها وشكلها، من خلال الإجابة على الأسئلة الآتية:

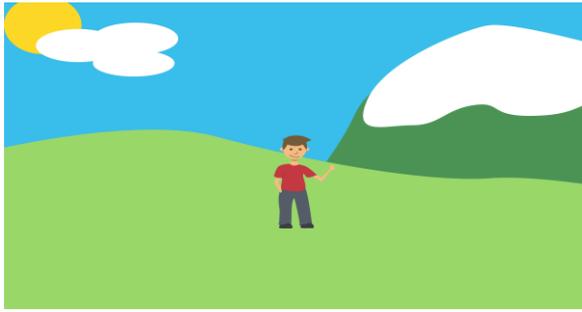
- من هو مؤلف الصورة؟
- ما هو تاريخ تصويرها و/ أو نشرها؟
- أين تم نشرها؟ (البلد والوسيلة: جريدة ، كتاب ، معرض فني ، الخ.) ، وإذا كانت عبارة عن عمل فني: أين يتم حفظه (متحف...)?
- ما هو عنوان الصورة؟
- ما التقنية المستخدمة في إنجازها؟
- التصوير الفوتوغرافي ،
- الرسم (الفحم ، الأقلام الملونة ، الباستيل ، الخ.) ،
- النقش (على النحاس ، الخشب ، الطباعة الحجرية...)

- اللصق ،

- الطلاء (زيت ، ألوان مائية ، أكريليك ، الخ.)

...

- هل يمكننا تحديد طبيعة الصورة؟
- رسم صحافي / كاريكاتير ،
- صورة إخبارية (يمكن أن تكون صورة سياسية ، وثائقية ، الخ.) ،
- صورة منفردة؟ مع النص؟ مع الشخصيات؟
- ملصق / لافتة ثقافية أو سياسية أو إعلانية ،
- بطاقة بريدية ،



1: إجمالية

- لقطة عامة / Plan général: للسرد، مع تقريب موضوع الصورة أكثر ولفت الانتباه إلى الشخصية أو الموضوع المعني ومحيطه،



2: عامة

- لقطة أمريكية (مستوى الفخذ) أو إيطالية (تحت الركبة): للسرد أيضا، مع التركيز أكثر على الموضوع المستهدف،



3: أمريكية،



4: إيطالية

- لقطة متوسطة/ Plan Moyen (مستوى المعدة): لتكثيف الحركة والإيماء وجذب انتباه الجمهور،

فيعكس تنظيمها شكلا ثلاثيا مركزيا على إطار هرمي متكون من كتل بيضاء متوازنة وأجساد مشوهة (جندي متقطع الأوصال، زهرة، حصان، امرأة...) بزواوية نظر حادة-تكعيبية-مختلفة، قد ترمز إلى الأمل والموت والأمل بعد الموت في ليلة القصف.



صورة من "منتدى اللمة الجزائرية"

(/https://www.4algeria.com/forum/t/326548)

تبين الصورة مسجدا في قرية صغيرة. ويمكن لطبيعة هندسة المسجد أن تسمح لنا بان نخمن انه مسجدا مشرقيا (الطراز التركي) قرب شاطئ بحيرة وفي سفح جبال. كما يمكن الافتراض أن هذه صورة "فوتوغرافية" تسويقية، في موضوع سياحي.

2.1- القيام بالتحليل التشكيلي للصورة (كيف

تم تقديم الصورة؟)

ما هو التحليل التشكيلي (Analyse formelle)؟: هو الوصف الموضوعي للعناصر التي تشكل الصورة. أي التحليل الأولي لمكوناتها، وهو يشمل تعريفها، وصفها—ذكر خصائصها—وأحيانا تأويلها الأولي، وذلك من خلال العناصر الآتية:

• الشكل (Format): هندسي (مربع، مستطيل...)، الحجم الأصلي للصورة واتجاهها (أفقي-منظر طبيعي-، عمودي).

• التأطير أو تحديد الإطار (Cadrage): لفت الانتباه لعنصر معين من خلال اللقطات التالية (التي تخص تصوير الأشخاص وتحديد حجم عناصرها):

- لقطة إجمالية / Plan d'ensemble: للوصف العام

وتحديد موقع موضوع الصورة،

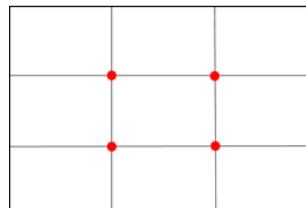
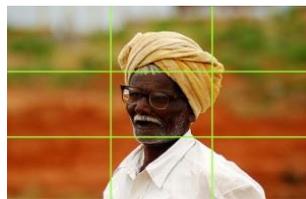
شيء) في مكان شيء آخر كنا نتوقع وضعه فيه⁽²⁵⁾، وكلاهما بالطبع يختلف عن إطار/سياج (Cadre) الصورة المحدد لها فيزيقيا وعازلها: إطار لوحة فنية، إطار صورة فوتوغرافية، شاشة تلفزيون أو سينما أو حاسوب...

هذا بالنسبة للصور الخاصة بالأشخاص، أما بالنسبة للصور الأخرى فالاختيار يخضع لمقياس اللقطة (l'échelle du plan) والذي يرتبط بنوعية/طريقة "التركيب" (Composition)⁽²⁶⁾: ومثالها الصورة الموالية:



Source de l'image: <http://www.gratisography.com/>
12/01/2019

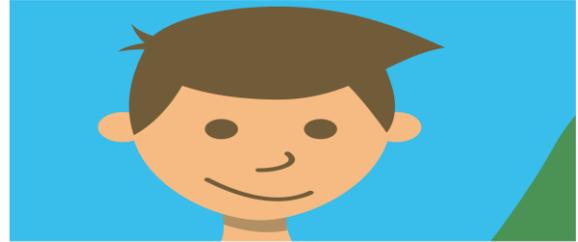
• **طريقة التركيب (Composition):** تخص تنظيم العناصر على مساحة الصورة (فضائها الداخلي)، مع تحديد أهم خطوط بناء الصورة والتي توجه النظر إليها (من اليمين إلى اليسار تبعا للكتابة العربية أو العكس بالنسبة للغات الأوروبية). مع العلم أن الخطوط المائلة تفيد عادة الحركة، والأفقية تعكس الهدوء والاستقرار، والمتقاطعة نقاط القوة، والأشكال الهندسية (مثلث، دائرة...) المفاجأة... وهي تستعمل المجموعات (الأفق، البنية، الخطوط...) المكونة لها وتخضع عادة لقاعدة الأثلاث (تقسيم الصورة إلى تسعة أجزاء متساوية وخاصة في حالة الأشخاص والمناظر الطبيعية). كما هو موضح في الصور أدناه:



5: متوسطة

- لقطة مقربة / Plan rapproché (مستوى الكتف):

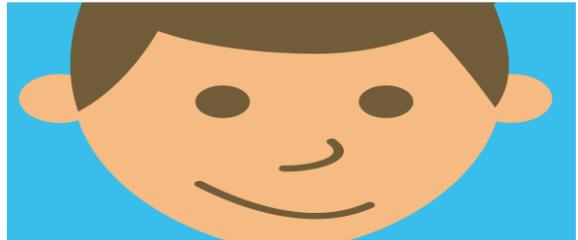
لإظهار ردود الفعل العاطفية في حالة تصوير الأشخاص،



6: مقربة

- لقطة مكبرة / Gros plan (مستوى الرأس): ذات

قيمة نفسية، عاطفية لإبراز حساسية الشخصية وتحريك مشاعر الجمهور-



7: مكبرة

- لقطة مكبرة جدا: العين(ان)، اليد...- Très gros

plan: لعزل إحدى التفاصيل بغية إعطائها قيمة رمزية...



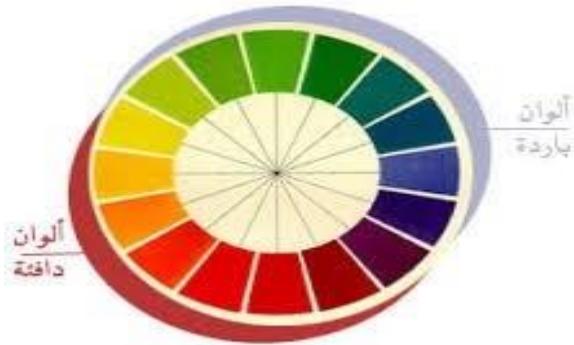
8: مكبرة جدا

مصدر الصور بتصرف: Sciences Po et

/OpenClassrooms : 2016/05/25

مع الإشارة إلى إمكانية استعمال "عدم التأطير" (décadrage)، حيث لا يكون الشخص في المكان المتوقع له أن يكون فيه، أو حيث يضع المؤلف شيئا (أو لا يضع أي

الثقافات والأزمنة ، والأمر نفسه بالنسبة لتأويل دلالات التأطير وزوايا الرؤية... ولكن لأسباب أخرى.



الشكل رقم 1: دائرة تعكس نماذج عن الألوان الدافئة / الحارة والباردة

• النص (علاقة النص بالصورة): ما وظيفة النص بالنسبة للصورة؟ هل هو تسميتها التوضيحية (Légende) ماذا يضيف لفهمها؟ ما موقعه في الصورة (أعلى ، أسفل ، أعلى يمين / يسار ، أسفل يمين / يسار...)? هل يغير من معنى الصورة؟ هل هناك فجوة بين النص والصورة؟ ...

- ما خصائصه الطباعية (Typographie):؟ الحجم ، الخط ، اللون ، مخطوطة أو مطبوعة.

- طبيعة النص: عنوان ، حوار ...

- من يكلم من؟ (شخص يكلم نفسه ، يتكلم مع متفرد ، مع شخص غير مرئي ، صوت معلق...).

- نمط النص: إعلامي ، محفز ، عبارة عن محاكاة صوتية ، لغة أجنبية ، فكاهية ، استفزازية... ما مستوى لغته؟ ...

- العلاقة بين النص والصورة: هل يعكس النص ما يرى في الصورة؟ ، هل يتناقض معه؟ ، هل يزيد من قيمتها أم لا؟ ...

• اللمسة (Touche) / السيمات (Traits): يتعلق الأمر بملاحظة آثار التقنية المستعملة: مناطق كبيرة من الرسم المسطح أو المعجن ، ذي لمسات صغيرة وقصيرة (نقطية ، على سبيل المثال) ، عدم وجود لمسات (رسم كلاسيكي محدث) ... إيماءات / لفتات "ظاهرة" (Gestuelle apparente) توحى عادة برسم عاطفي أكثر ، و"غير ظاهرة" تكون نتيجتها أكثر برودة وغير شخصية / مجهولة. هل مادة الرسم سميكة أم شفافة؟ هل هي عبارة عن رسم في شكل أثر دائري ، ظلال مطمسة ، صورة وصفية ، تحيزات؟ رسم فوتوغرافي (فضي ، رقمي ، حبيباتي ، نقطي...)?



الصورة مأخوذة من "ويكيبيديا" (موضوع تركيب

الصورة): 2019/01/12

كما يتم تقسيمها عادة إلى ثلاثة أنواع: التركيب المحورية (axiale) التي تقدم المنتج في محور/خط الرؤية ووسط الرسالة (تستعمل خاصة في الإشهار لمنتج جديد) ، والتركيب المركزة (focalisée) التي تقدم المنتج خارج محور الصورة ، والتركيب التتابعية/ التسلسلية (séquentielle) التي تقول عنها (جولي / Joly) ⁽²⁷⁾ أنها تقدم في شكل حرف (Z) انطلاقاً من أعلى اليسار... (تبعاً لاتجاه القراءة في اللغات الأوروبية طبعاً).

• الفضاء (L'espace): هو ترتيب العناصر في عمق الصورة والتعبير عن الحجم ، من خلال تكبير/ توضيح حجم العناصر -للدلالة عن القرب ولفت الانتباه- أو تصغيرها/عدم وضوحها -للدلالة عن البعد-.

• الضوء (Lumière) / الإضاءة (L'éclairage): من أين يأتي؟ (لتحديد الاتجاه) ، ما كثافته؟ (لتحديد الشدة) ، هل هو طبيعي أم اصطناعي؟ ، ضوء النهار/ الليل؟ ، الداخل/ الخارج؟ ، الشمعة/ المصباح؟ (لتحديد المصدر) ، ضوء منتشر (يفصل الظلال ويعطي بعض النمذجة للأشخاص ويخفف سمات وجوه الأشخاص) ، ضوء مباشر/ غير مباشر (نظرة خام على الشخصية) ... لتحديد نوعيته.

• الألوان: يعبر غياب الألوان (أو الأسود والأبيض واللوان الرمادية) عن الشكل الدرامي للأشخاص / القديم ، اللازمي؛ أما وجود الألوان فاستعماله متعدد: سيادة ألوان دافئة أو حارة (أحمر ، برتقالي ، أصفر ، برتقالي مصفر أو محمر...) للتعبير عن الدفء والحرارة لجلب النظر؛ سيادة ألوان باردة (أزرق ، أخضر ، بنفسجي ، أخضر مزرق...) للتعبير عن البرودة والمسافة؛ كثافة الألوان الزاهية؟ ذات رمزية متعددة: الأبيض (النقاء ، النظافة ، البراءة) ، الأسود (الليل ، المحنة/ الاستغاثة ، الأناقة...) ، الأحمر (الحب ، الشغف ، الخطر...) ، الأزرق (الهدوء/ السكينة ، اللانهاية ، الصفاء) ... ولكن مع وجوب الحذر عند تأويلها لاختلافها أحياناً باختلاف

الاقتصادية ، الحرب الباردة ؟ ... باختصار ، ما الذي تعرفه عن سياق إنشاء الصورة ؟

3-التأويل (Interpréter)

بعد التحليلين الظاهري والموضوعي ، نحتاج إلى تأويل الصورة وفهمها (إعطاء معنى للصورة). أي نحاول تحديد كيفية عمل الصورة في سياقها والتعبير عن رأينا فيها ، من خلال نقدها. والمقصود تأويل الصورة بالذات (الأثار التي تركتها فعلياً) وليس نوايا صاحبها فقط ، لأن عملية الإبداع معقدة وتشمل أيضاً لاشعور (العقل الباطني) صاحبها. إذا كان المعلن ينوي إنشاء صورة لنقل رسالة أو عدة رسائل محددة ، يجب أن ندرك أن مشروعه لا ينجح دائماً. بالإضافة إلى ذلك ، فإن أصحاب الصور عادة ما يعبرون عن آراء أكثر من رغبتهم في مجرد التواصل.

فتحليل الصورة إذن ، يعني وضع أنفسنا في مكان المتلقي ، وحينها نحتاج للإجابة على الأسئلة التالية:

- ما هي وظيفة (وظائف) هذه الصورة ؟
- ما هي الرمزية التي تظهر من الصورة ؟
- كيف نتحدث إلينا هذه الصورة ؟

للمساعدة في الإجابة ، نحتاج عادة إلى:

- في حالة الإعلان / الإشهار ، على سبيل المثال ، تحديد الهدف (من هو المستهدف من هذه الصورة ، ولماذا يستهدف هذا الجمهور بهذه الطريقة أو تلك ؟). لأن ذلك سيساعد في الحصول على سياقها وفهما.
- البحث عن المعاني الممكنة للتحليل الظاهري ، المنجز في المرحلة السابقة.

• البحث عن الصور الأخرى التي قد تساعد المقارنة معها على توضيح معاني الصورة التي يتم تحليلها.

- القيام بالتأويل بالاعتماد على الوصف الدقيق واستخدام الأفعال التالية:

- ترمز الصورة إلى ... / تذكرنا بـ ... / تشير إلى ... / توحى لنا بـ ...

- تقترح الصورة ...

- تعطي الصورة انطباعاً عن ... (الجديّة ، الجاذبية ...)

- تعبر الصورة عن شعور ...

• الزاوية (زاوية الرؤية والتقاط النظر): هي موقع المؤلف من الموضوع (زاوية رؤيته لموضوع صورته). وهو بذلك يشير إلى نوعية علاقته بالموضوع من خلال توظيف الزاوية المناسبة لعرض الفكرة: فزاوية التصوير تعطي جودة الصورة وقوتها: الزاوية العادية / الوجيهة (العين -وكذا الجمهور- عند نفس المستوى: Vue Frontale) للدلالة على الموضوعية؛ الزاوية الغائصة/الفوقية (العين فوق: En plongée) للإشارة إلى هيمنة الجمهور والتقليل من شأن الموضوع؛ أو التحتية/ المنخفضة (العين تحت / من الأسفل إلى الأعلى: En contre-plongée) للإشارة إلى جمهور خاضع وإعطاء إحساس من نبل وتفوق وقوة الموضوع؛ أو المائلة (Inclinée) لزيادة حدة بعض الأثار المرغوبة. مع الإشارة إلى أنه يمكن تأويل دلالات هذه الزوايا بطريقة عكسية.

إن هذه الشبكة التحليلية ليست شاملة (جامعة مانعة) ... فهي عبارة عن مؤشرات وعموميات إرشادية ، يمكن الاستفادة منها بتطويرها وتخصيصها تبعاً لطبيعة الصورة موضوع التحليل.

2-وضع الصورة في سياقها (التحليل الموضوعي)

الصورة هي التمثيل المرئي لحدث أو رأي ، أو رؤية شخصية حول موضوع ما. وترتبط رؤية أو تفسير المؤلف دائماً بزمانه ، أي بالسياق السياسي والاقتصادي والثقافي لفترة ما. وتمثل وظيفته (أو وظائفه) أحياناً في إقناع أو انتقاد أو تمثيل حدث أو شخص. لذلك يجب وضع الصورة في سياقاتها (Mise en contexte) المختلفة (المصدرية ، الفنية والمجتمعية) لفهمها.

لكن كيف يمكن القيام بذلك ؟

لدراسة السياق ، ينصح بملاحظة أربعة عناصر:

• المؤلف: من أنجز الصورة وما هي علاقتها مع تاريخه المهني (ربما الشخصي)؟

• الراعي (الذي كلف بإنجازها): من رعى الصورة ؟

فرد؟ وكالة إعلانات؟ صحيفة؟ الحكومة؟ ما هو التوجه السياسي للراعي؟ ...

• السياق الفني والتقني: ما هو السياق الفني (الحركة

الفنية على سبيل المثال) أو التقني للصورة؟

• السياق التاريخي والسياسي والاقتصادي والثقافي:

في أي عام/ فترة تم إنجاز هذه الصورة: فترة الحرب ، الأزمة

4-خاتمة

رابعاً) نموذج شبكة تحليلية للصور الثابتة

لتشخيص ما تم عرضه سابقا ، نقترح فيما يلي جدولاً توضيحياً يعكس نموذجاً عاماً لشبكة تحليلية تتضمن مجمل العناصر التي تم عرضها أعلاه:

يمكن تضمينها عادة ما نظن أن صاحب الصورة أراد التعبير عنه وما عبرت عنه فعليا ، وهل عكس بذلك ذاتيته ، مع ذكر الأهمية الفنية للصورة مدعمة بأراء المعاصرين من النقاد والمحللين ، بالإضافة إلى انطباعات شخصية حصرية.

جدول رقم 03: نموذج شبكة تحليلية لصورة منظر طبيعي

عناصر التحليل	التحليل
مقدمة	تقديم موضوع التحليل وعناصره (الواردة أدناه): الوصف الظاهري ، السياق المصدري والفني والمجتمعي ، التأويل والانطباعات الذاتية.
1 الوصف الظاهري للصورة (ماذا؟)	- تقديم الصورة: تحديد نوع الصورة وصاحبها وموضوعها وتقنية ومادة وظروف إنجازها وشكلها... - التحليل التشكيلي للصورة: التحليل الأولي للعناصر التالية: الشكل ، التأطير ، التركيبة ، الفضاء ، الإضاءة ، الألوان ، علاقة النص -إن وجد- بالصورة ، زاوية الرؤية ...
2 السياق (كيف؟)	وضع الصورة في سياقاتها المصدرية ، الفنية والمجتمعية: • التعريف بصاحبها وبمن كلف بإنجازها -إن وجد- • التعريف بالسياق الفني والتقني • التعريف بالسياق التاريخي والسياسي والاقتصادي والثقافي ...
3 التأويل (لماذا؟)	التأويل الشخصي للصورة بالذات واستنتاج نوايا صاحبها من خلال ذكر: • وظيفة (وظائف) الصورة • رمزية الصورة ودلالاتها التعبيرية
خاتمة	ذكر الأهمية الفنية للصورة مع الانطباعات الشخصية والغيرية

المصدر: إعداد شخصي مبني على معطيات عناصر الشبكة التحليلية المذكورة سابقا

جدول رقم 03 : شبكة تحليلية لصورة المنظر الطبيعي المذكور أعلاه وفق النموذج السابق

عناصر التحليل	التحليل
مقدمة	يتمثل موضوع التحليل في صورة ثابتة غير مرفقة بنص لمنظر طبيعي ، سيتم تحليله من خلال الوصف الظاهري للصورة ، وذكر سياقها ومحاولة فهمها وتأويلها وذكر انطباعاتنا حولها:
1 الوصف الظاهري للصورة (ماذا؟)	صورة من منتدى اللمة الجزائرية (https://www.4algeria.com/forum/t/326548) - تبين الصورة مسجدا في قرية صغيرة. نشرت -غير مرفقة بنص- في منتدى "اللمة الجزائرية" (قسم الصور والتسليبية) ⁽²⁸⁾ . ويمكن لطبيعة هندسة المسجد أن تسمح لنا بأن نخمن انه مسجد مشرقى (الطراز التركي) قرب شاطئ بحيرة وفي سفح جبال. كما يمكن الافتراض أن هذه صورة "فوتوغرافية" تسويقية ، في موضوع سياحي... - تعتبر لقطة الصورة لقطة "إجمالية" استخدمت للوصف العام لمنظر طبيعي وتحديد موقعه. أما عناصرها ، فيعكس تنظيمها خطوطا مائلة تفيد الحركة والوجهة (اتجاه الجبال ومسار الطرق نحو الماء) وخطوط متقاطعة (عند المسجد) تقيد نقطة قوة مركزية وسط فضاء أخضر (باتجاه الجمهور المسلم المستهدف أساسا) ، مع استعمال مجموعات متباينة: أفق غير مكتمل ، عناصر بنوية: مركز وأطراف ، خطوط مائلة ، أفقية وعمودية... وتركيبها "محورية" تستجيب لمتطلبات الإشهار عن موقع سياحي "جديد" (في الغالب) وقد يكون "بعيدا/ نائيا" بحكم ترتيب العناصر في عمق الصورة وبفعل استعمال الألوان الباردة ، و"مريحا وهادئا" بحكم غلبة اللون الأخضر المتوسط لزرقتي السماء الصافية والماء الراكد وكثرة الفضاءات (الخضراء) الخالية (من العمران). أما إضاءة الصورة فهي طبيعية وغير كثيفة ، بفعل ضوء النهار المنتشر (يفصل الظلال لنمذجة عناصر الصورة المحورية: سفح جبل أخضر ، مساحات خضراء قليلة العمران ، مسجد ، شاطئ...). أما زاوية التقاط الصورة فقد نُوحى بفوقيتها إلى نظرة بانورامية غائصة ومهيمنة لجمهور مدعو لاكتشاف تفاصيل موضوع الصورة.

<p>2</p> <p>السياق (كيف؟)</p> <p>لوضع الصورة في سياقها من خلال تمثيلها المرئي ، يمكن القول أن هذا الأخير يشير إلى موضوع التسويق السياحي -خارج المدن الكبرى-سياقيه الاقتصادي والثقافي للفترة الحالية. وتتمثل وظيفته الرئيسية في إقناع الجمهور بزيارة البلد -ككل-للمتعة بمنظره الطبيعية خاصة-ممثلة في الصورة (بعناصرها المحورية المذكورة أعلاه) كنموذج وليس بزيارة موقع معين ، فالصورة لم تحدد اسم الموقع السياحي ، ولذلك قد تكون من تكليف هيئة حكومية أو اتحاد وكالات السياحة مثلا...</p>		
<p>3</p> <p>التأويل والفهم (لماذا؟)</p> <p>من خلال عناصر الوصف الظاهري للصورة وسياق تمثيلها المرئي ، يمكن القول أن صاحبها و/ أو راعيها أراد التسويق للسياحة في بلده مستهدفا جمهورا "من البلدان المسلمة" -في الغالب-أو جمهور "استكشافي" يرغب في زيارة أماكن نائية ، هادئة و/ أو ذات سياقات مجتمعية مغايرة لواقعه الاعتيادي.</p> <p>بالإضافة إلى ذلك ، فالصورة توشي إلى كون الجمهور المستهدف -مهما كان مصدره-مدعو إلى زيارة أماكن خارج المدن السياحية الكبرى بغض النظر عن اسم الوجهة المحلية (فالصورة لم تحدها). ومقابل ذلك ، فالصورة ترمز إلى عدة عناصر محورية رمزية تم استعمالها لجذب الجمهور المستهدف: سفح جبل أخضر ، مساحات خضراء قليلة العمران ، مسجد ، وشاطئ... وكلها عناصر توشي لنا بالراحة والاستجمام... مع عدم الاغتراب الروحي بالنسبة للبعض (المسلمين) وتلبية بعض روح الفضول والاستكشاف بالنسبة للبعض الآخر...</p>		
<p>نظن أن صاحب الصورة و/ أو راعيها أراد التعبير عن وجود وجهات سياحية في بلاده غير تلك التي اشتهر بها في المدن الكبرى ، معبرا عن وجود أماكن طبيعية جذابة للجمهور "الأخر" الراغب في الهدوء والسكنية الفيزيائية والروحية ، مع تلبية رغباته الاستجمامية والاستكشافية بعيدا عن ضوضاء المدن. وأقدر أنه وفق في اختيار المكان المصور بنظرته "البانورامية" لنموذجيته التشكيلية (جبال ، مساحات خضراء ، مسجد وشاطئ) ، إلى حد قد يوحي أن الصورة مركبة ومعدلة معلومتيا بتقنية الفوتوشوب ... لأنه من الصعب توافر كل العناصر الجذابة بطريقة طبيعية في مكان واحد.</p>	<p>خاتمة</p>	

المصدر: إعداد شخصي مبني على عناصر الشبكة التحليلية السابقة

خاتمة

نهدجتها سردا تمّ في جدول مبسط ووظيفي قوامه: مقدمة وخاتمة ، يتخللهما وصف ظاهري وسياق وتأويل (مرفق بمثال تطبيقي)، نحسب أن منهجيته المرننة والتوفيقية بعناصرها المحورية ستكون مفيدة لتحليل الصور الثابتة ، مع الإشارة طبعا إلى أن لكل صورة خصوصيتها وبالتالي انقرايتها التفصيلية الخاصة.

يحتوي أي خطاب بصري تواصل ، كالصور الثابتة ، على معاني ظاهرة مباشرة وأخرى ضمنية غير مباشرة. وهو ما يستدعي دراستها وتحليلها. ولتيسير ذلك اجتهد بعض الدارسين في وضع شبكات تحليلية تعكس هذين المستويين المعنويين في خطوات أو مراحل تطبيقية ، تم اعتماد بعضها هنا كمرجعيات للتحليل السيميولوجي للصور الثابتة ، بغية

الهوامش

- 1- <https://fr.wiktionary.org/wiki/s%C3%A9miologie> & <https://fr.wiktionary.org/wiki/-log%C3%ADa>
- 2- TABUCE, Bernard, Résumé du cours 'E 12 MCC SÉMILOGIE DE L'IMAGE', année universitaire 2008-2009, p.8. In: http://asl.univ-montp3.fr/L108-09/S1/E12SLMC1/RESUME_COURS_IMAGE.pdf.
- 3- Ibid., p.9.
- 4- أما في بعض التراث المتخصص ، فقد لا تكون الصورة -حسب "إيكو" (U. Eco) -عبارة عن "نسخ" لشيء بل عبارة عن عملية "تحويل" لشيء ، أو "إعادة بناء" له ، حسب مجموعة μ (مو) (TABUCE: 2008-2009, 18).
- 5- و هي معاني مختلفة بالطبع عن ما يعرف بالصورة التي تتكون في أذهان الناس عن المؤسسات أو الديانات أو بعض الشخصيات... وقد تكون مؤسسة (تعبّر عن واقع) أو مفكرة ، وتوصف عادة بالذهنية.
- 6- JOLY Martine, "Introduction à l'analyse de l'image", Collection 128, Paris, Armand Colin, 2014, 44-45.
- 7- ACAL DiAZ Inmaculada, Metodologías para el análisis de la imagen fija en los documentos... *Revista General de Información y Documentación*. Vol. 25-2 (2015) 428.
- 8- Ibid. p.430.
- 9- BARTHES Roland, Rhétorique de l'image. In: *Communications*, 4, 1964, pp.42-43. Recherches sémiologiques. pp. 40-51. Voir : www.persee.fr/doc/comm_0588-8018_1964_num_4_1_1027; 1964, 42-43
- 10- مع إقراره بسهولة فصل ما هو "اللساني" عن ما هو "اليقوني" ، وبصعوبة الفصل بين الأيقوني المرمز والأيقوني غير المرمز (TABUCE: 2008-2009, 16-17). وتجدر الإشارة هنا ، إلى أنني أتخفظ على لاحظت ترجمة عربية غريبة للفتحين: dénotée / بالتضميني و connotée / بالتعيني (كما وردتا عند "بارث") ، ولذلك ذكرت في المتن مترادفات دلالية لكل منهما بالفرنسية والعربية بين قوسين... لأنه كثيرا ما يتبادر لأول وهلة من الظاهر اللفظي لكلمة "تضميني" أنها تشير إلى ما هو ضمني أي مرّمز وغير مباشر (وليس للمتضمن ظاهريا) ، وكلمة "تعيني" إلى ما هو معين ومقصود بعينه ، أي ظاهر ، مباشر وغير مرّمز (حرفي: Littéral).
- 11- JOLY, Martine, Op. Cit. 44-45.
- 12- GERVEREAU Laurent, Voir, comprendre, analyser les images, Paris, La Découverte, 1994, 192 p.
- 13- Thiéblemont-Dollet, Sylvie, « Martine JOLY, *L'image et son interprétation* », *Questions de communication* [En ligne], 3 | 2003, mis en ligne le 01 juillet 2003, consulté le 24 novembre 2018. URL: <http://journals.openedition.org/questionsdecommunication/7557>.
- 14- JOLY, Martine, Op. Cit. 73-93.
- 15- <https://www.decryptimages.net/grille-d-analyse-des-images>, consulté le 12 janvier 2019.
- 16- PANOFISKY, Erwin, *El significado de las artes visuales*. Madrid: Alianza. 1998.
- 17- PINTO MOLINA. María; GARCÍA MARCO, F. Javier; AGUSTÍN LACRUZ, M^a del Carme), *Indización y resumen de documentos digitales y multimedia. Técnicas y procedimientos*. Gijón (Asturias): Trea. 2002, 105-122.
- 18- VALLE GASTAMINZA, Félix del, "Indización y representación de los documentos visuales y audiovisuales", en José López Yepes *Manual de Ciencias de la Documentación*. Madrid: Pirámide, 2002, 429-430.
- 19- Sciences Po et OpenClassrooms, *Conseils pour analyser une image* (fiche méthodologique), quatrième. Publié le 25 mai 2016 à 14h46 - Mis à jour le 25 mai 2016 à 15h10. In: https://www.lemonde.fr/campus/article/2016/05/25/conseils-pour-analyser-une-image_4926285_4401467.html
- 20- بوثلجة نجاة وشهيناز زياد: استخدام المنهج السيميولوجي في البحوث الإعلامية المعاصرة-الصورة الإعلامية الثابتة نموذجاً- ، مجلة المعيار ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، الجزائر ، العدد35 ، 407-414.
- 21- حيث تم عرضها في ثلاثة مراحل توليفية: وصف / تعيين / تضمين ، مع اعتماد عناصر "جيفيرو وسولاز" الوصفية (التقنية ، الأسلوبية ، الموضوعية) ، وجعل التعيين يشمل كل المستويات التحليلية لـ"جولي" (التشكيلي ، الأيقوني ، اللساني) ! وجعل التضمين بمعنى السياق ويلي التعيين ومن دون أدنى تفكيك له (ص.414) بدلا من تقدمه وحمله تبعا لـ"بارث" -كما مرّ معنا وللمعنى اللغوي المعتمد للكلمتين.
- 22- CAMPUZANO RUIZ, Antonio, *Tecnologías Audiovisuales y Educación. Una visión desde la práctica*. Madrid, España, Ediciones Akal. 1992, Pp. 93- 110. In: http://investigacion.ilce.edu.mx/panel_control/doc/c42lectura2.pdf.
- 23- بحيث جعل المستوى التقني يشمل مواد تقنية (تتطلب معرفة بتكنولوجيا السيمي البصري: الأجهزة والتقنيات) // والمستوى التشكيلي يشمل الضوء واللون والبنية التركيبية ، زاوية الرؤية وملمس الصورة // والمستوى الدلالي يشمل ما هو كائن أو ظاهر من المعاني (بمستوياته الثلاثة: الأولي ، الثانوي ومستوى المحتوى) ، ما هو مخفي ، وما هو كائن لكنه لا يبدو كذلك لأول وهلة ؛ بالإضافة طبعا إلى السياق والنتائج الشاملة الأولى ((Op. Cit., 94-101, CAMPUZANO RUIZ)). وهي تبدو في تقديرنا معقدة ، غير متوازنة وغامضة أحيانا.
- 24- حمداوي سعيدة ، الخطاب الإشهاري في ضوء المقاربة الحجاجية ، مجلة دراسات معاصرة ، المركز الجامعي تيسمسيلت ، الجزائر ، المجلد3 ، العدد1 ، 2019/01/02 ، ص ص. 74-81.
- 25- TABUCE, Bernard, Op. Cit., p.23.

26- SATORY, S., Comment analyser une image? In : http://www.clg-roquepertuse.ac-aix-marseille.fr/spip/sites/www.clg-roquepertuse/spip/IMG/pdf/Comment_analyser_une_IMAGE_2.pdf. Consulté le 24 janvier 2019.

27- TABUCE, Bernard, Op. Cit. P. 24.

28- <https://www.4algeria.com/forum/t/326548/>. Consulté le 15 janvier 2019.

دور شبكات التواصل الاجتماعي في الحراك السياسي العربي وتأثيره على الثقافة السياسية

The role of social networks in the Arab political movement and its impact on political culture

تاريخ القبول: 2019-12-18

تاريخ الإرسال: 2018-08-18

هناك قيصران، جامعة محمد خيضر بسكرة

nanoukisrane07@gmail.com

الملخص

هدفت الورقة إلى معرفة دور شبكات التواصل الاجتماعي في الحراك السياسي العربي ، وتأثيره على الثقافة السياسية ، حيث توصلت الدراسة إلى أن لشبكات التواصل الاجتماعي دورا هاما في الحراك السياسي العربي ، وذلك من خلال قدرتها على حشد وتوجيه المتظاهرين ، وكسر حاجز الخوف لديهم ، حيث أصبحوا على درجة عالية من الاقتدار السياسي ، والكفاءة ، والفاعلية السياسية ، من خلال ما تنشره هذه الشبكات من: معلومات ، وأفكار ، وتوجهات ، وقيم سياسية ، ساهمت في إنجاح المرحلة و الانتقال من الركود إلى / الوعي السياسي ، ومن ثقافة الخوف إلى / ثقافة سياسية مشاركة ، يدرك من خلالها الأفراد أهمية مشاركتهم في العملية السياسية ، وتجعلهم على دراية ، ووعي بحقوقهم ، وواجباتهم اتجاه وطنهم ، و أكثر ولاء ، وانتماء إليه .

الكلمات المفتاحية: شبكات التواصل الاجتماعي ، الحراك السياسي العربي ، الثقافة السياسية ، المشاركة السياسية ، المعرفة السياسية ، الوعي السياسي ، الهوية الوطنية.

Résumé

Le but de ce travail a pour connaître le rôle des réseaux sociaux dans le mouvement politique arabe et son impact sur la culture politique. L'étude a révélé que les réseaux sociaux jouent un rôle important dans le mouvement politique arabe par sa capacité à mobiliser et guider les manifestants, brisant la barrière de la peur qu'ils ont, où ils sont devenus la un haut degré de professionnalisme politique, l'efficacité et Fiabilité politique, à travers ce qui est publié par ces réseaux d'information, idées, tendances et valeurs politiques, a contribué au succès de la transition de la récession vers la conscience politique et d'une culture de la peur à la participation de la culture politique, Grâce à laquelle les individus reconnaissent l'importance de leur participation au processus politique, et les rendent conscients de leurs droits et leurs devoirs envers leur nation, et les rendent plus fidèles et appartenant à leur patrie.

Mots-clés : réseaux sociaux, mouvement politique arabe, culture politique, participation politique, savoir politique, conscience politique, identité nationale.

Abstract

The paper aimed at knowing the role of the social networks in the Arab political movement and its impact on the political culture. The study concluded that social networks play an important role in the Arab political movement through their ability to mobilize and guide demonstrators and break the fear barrier. It becomes in high degree of political competence, efficiency and political effectiveness, through the dissemination of these networks of information, ideas and political trends and values, which contributed to the success of the transition from recession to political awareness, and from the culture of fear to a culture of political participation, through which individuals recognize the importance of their participation in the political process, and make them known and aware of their rights and duties towards their homeland, and make them more loyal and belonging to their homeland.

Keywords: social networking, Arab political mobility, political culture, political participation, political knowledge, political awareness, national identity

المقدمة

أحدثت شبكات التواصل الاجتماعي تطوراً كبيراً ليس فقط في تاريخ الإعلام، وإنما في مختلف مجالات الحياة، فبعدما شكلت في بداية الأمر وسيلة مخصصة للتواصل بين المستخدمين في جميع أنحاء العالم، امتد تأثيرها ليشمل جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية ولاسيما السياسية، حيث فتحت هذه الشبكات المجال للأفراد، والتجمعات والتنظيمات، لإبداء آرائهم، ومواقفهم في القضايا والموضوعات السياسية التي تهمهم، كما ساعدتهم في أن أمدهم بقنوات جديدة للمشاركة في الأنشطة السياسية، الأمر الذي جعل من السياسة شأنًا عامًا، يمارسه معظم أفراد الشعب عبر هذه المواقع، من خلال إتاحة المجال لتحفيز وتحريك الرأي العام وللتفاعل، وهو ما حدث في المنطقة العربية التي شهدت الحراك السياسي، والذي كان له تأثير في تحقيق ثقافة سياسية جديدة.

لذا من خلال هذا المنطلق ناقش في هذه الورقة الإشكالية التالية: ما دور شبكات التواصل الاجتماعي في دعم الحراك السياسي العربي وتأثيرهما على الثقافة السياسية؟

لنتفرع عن هذه الإشكالية التساؤلات التالية:

-ما مفهوم كل من؛ شبكات التواصل الاجتماعي، والحراك السياسي العربي، والثقافة السياسية؟

-فيما تمثل واقع الثقافة السياسية قبل الحراك السياسي العربي؟

-كيف أسهمت شبكات التواصل الاجتماعي في تنشيط الحراك السياسي العربي؟ وهل أثر ذلك على الثقافة السياسية؟

للإجابة عن هذه الإشكالية والتساؤلات الفرعية نتبع العناصر التالية:

المحور الأول: الإطار المفاهيمي للدراسة.

المحور الثاني: واقع الثقافة السياسية قبل الحراك السياسي العربي.

المحور الثالث: علاقة شبكات التواصل الاجتماعي

بالحراك السياسي العربي وتأثيره على الثقافة السياسية.

المحور الأول: الإطار المفاهيمي للدراسة

أولاً: ماهية شبكات التواصل الاجتماعي

1. تعريف شبكات التواصل الاجتماعي

تعرف موسوعة ويب أوبيديا شبكات التواصل الاجتماعي Social networks بأنها عبارة تستخدم لوصف أي موقع على الشبكة العنكبوتية يتيح لمستخدمه وضع صفحة شخصية عامة معروضة، تتيح إمكانية التواصل بين المستخدمين⁽¹⁾.

كما يعرف (زاهر راضي) شبكات التواصل الاجتماعي أنها: منظومة من الشبكات الالكترونية التي تسمح للمستخدم فيها بإنشاء موقع خاص به، ومن ثم ربطه عن طريق نظام اجتماعي الكتروني مع أعضاء آخرين، لديهم الاهتمامات، والهوايات نفسها⁽²⁾.

من خلال التعريفين السابقين نستنتج أن شبكات التواصل الاجتماعي تستخدم لوصف المواد المعلوماتية الموجودة على الانترنت، والتي تتيح للمستخدمين الذين لهم الاهتمامات والهوايات نفسها خدمة، فتح، وعرض صفحة شخصية، من أجل التعارف فيما بينهم، على الرغم من أن شبكات التواصل الاجتماعي تتيح فرصة أيضاً للتواصل بين المستخدمين الذين لهم اهتمامات، وهوايات مختلفة من أجل الانفتاح أكثر على العالم.

لذا عرفت شبكات التواصل الاجتماعي على أنها مواقع الكترونية على الشبكة العنكبوتية، تؤسسها وتبرمجها شركات كبرى لجمع المستخدمين، والأصدقاء، لمشاركة الأنشطة، والاهتمامات، وللبحث عن تكوين صداقات وعن اهتمامات وأنشطة لدى أشخاص آخرين⁽³⁾.

بمعنى أن شبكات التواصل الاجتماعي هي مجموعة مواقع على شبكة الانترنت، تؤسسها وتصممها شركات وأشخاص، تتيح فرصة التواصل بين الأفراد، لتكوين الصداقات وللبحث عن اهتمامات أو أنشطة أخرى يستفاد منها.

كما يعرف (الديلمي) شبكات التواصل الاجتماعي على أنها شبكات تفاعلية تتيح التواصل لمستخدميها في أي

نظام يحدده الموقع ، يسمح لمستخدميه التواصل مع الآخرين الذين يشتركون معهم في الاتصال ، كما تتيح للأفراد خدمة تبادل الآراء مع المستخدمين سواء الموجودين في قائمة الاتصال أو في صفحات ومجموعات يتم إنشائها في هذا الموقع⁽⁶⁾.

• تويتر Twitter: هو شبكة اجتماعية تقدم خدمة تدوين مصغر ، بحيث يمكن لمستخدميه إرسال رسالة لا تتعدى 140 حرف ، سواء عن طريق تويتر مباشرة ، أو عن طريق التطبيقات الخارجية التي يقوم بها المطورون⁽⁷⁾.

• يوتيوب Youtup: هو مكتبة فيديو ، يمكن من خلالها مشاهدة الأحداث والبرامج وغيرها من الخدمات ، وذلك من خلال البث الشبكي⁽⁸⁾.

• موقع فليكر Flickr: هو موقع لهواة التصوير على الإنترنت ، ولمشاركة الصور ، وحفظها ، وتنظيمها ، كما يتيح هذا الموقع لمستخدميه خدمة التعامل للمستخدمين عن طريق تخصيص مساحة للتعليق ، كما تتيح أيضا فرصة حفظ الصور ، بحيث يستطيع أي متصفح للموقع مشاهدتها ، ويمكن لمن يقوم بتحميل الصور أن يجعلها خاصة بحيث لا تتاح فرص الاطلاع عليها إلا لصاحب الحساب ، أو لمن يسمح له بذلك⁽⁹⁾.

ثانيا: ماهية الحراك السياسي العربي

قبل التطرق إلى تعريف الحراك السياسي العربي ، لابد من توضيح نقطة مهمة ، ألا وهي أن الأحداث التي جرت في اغلب الدول العربية نتجت عنها العديد من القراءات والاصطلاحات ، حيث أطلق عن هذه الأحداث العديد من المسميات من بينها الربيع العربي ، الانتفاضة الشعبية العربية ، الحراك الشعبي العربي ، وأخيرا الحراك السياسي العربي.

1. تعريف الحراك السياسي

يشير مفهوم الحراك السياسي Political movement إلى الحالة السياسية التي تتسم بتزايد التغيير في موازين القوة ونمط توزيع السلطة ، وسرعة تواصل الأفكار السياسية وانتشارها وكثافة التواصل فيما بين الأفراد⁽¹⁰⁾.

وقت ، وفي أي مكان في العالم ، تتيح فرصة تبادل الصور والآراء مع إمكانية توطيد العلاقات الاجتماعية بينهم⁽⁴⁾.

التعريف الإجرائي: من خلال التعريفات السابقة نستنتج أن شبكات التواصل الاجتماعي هي مواقع على شبكة الانترنت ، يتم من خلالها إنشاء صفحة شخصية أو مجموعة تتيح للأفراد فرصة التواصل والتفاعل ، وتبادل المعلومات والآراء والمهارات.

2. خصائص شبكات التواصل الاجتماعي: لشبكات

التواصل الاجتماعي جملة من الخصائص أهمها:

• الشمولية: حيث تلغي الحواجز الجغرافية والمكانية ، وتلغي من خلالها الحدود الدولية ، حيث يستطيع الفرد في الشرق التواصل مع الفرد في الغرب ، من خلال الشبكة بكل سهولة.

• التفاعلية: فالفرد في شبكات التواصل الاجتماعي مستقبل وقارئ ، مرسل وكاتب ومشارك ، فهي تعطي حيزا للمشاركة الفاعلة من المشاهد والقارئ.

• تعدد الاستعمالات: مواقع التواصل الاجتماعي سهلة ومرنة ، ويمكن استخدامها من قبل الطلاب في التعليم ، والكتاب للتواصل مع القراء ، وأفراد المجتمع للتواصل بينهم.

• سهولة الاستخدام: فالشبكات الاجتماعية تستخدم بالإضافة للحروف وبساطة اللغة ، الرموز والصور التي تسهل للمستخدم نقل فكرته والتفاعل مع الآخرين.

• اقتصادية في الجهد والوقت والمال: في ظل مجانية الاشتراك والتسجيل فالكامل يستطيع امتلاك حيز على شبكة للتواصل الاجتماعي ، وليس ذلك حكرا على أصحاب الأموال ، أو حكرا على جماعة دون أخرى⁽⁵⁾.

ولكن رغم الخصائص المتعددة التي تتميز بها هذه الشبكات ، إلا أنها لا تخلو من السلبيات ، التي من بينها انعدام الخصوصية ، وإضاعة الوقت ، والعزلة عن العالم الواقعي ، ونشر الإشاعات ، وضعف مصداقية المعلومات التي تنشرها في بعض الأحيان.

3. أشكال شبكات التواصل الاجتماعي: والتي من

أهمها:

• الفيسبوك Facebook: هو خدمة على شبكة الانترنت تسمح للأفراد من تكوين ملف شخصي لهم ، في إطار

وليد لحظة، ولكنها حصيلة تراكمات سياسية واقتصادية، واجتماعية، وثقافية عانت منها الشعوب العربية، والتي دفعت بهم للخروج إلى الساحات والميادين، وتمثلت هذه الأسباب في:

أ. الأسباب السياسية: ومن بينها:

-حالة الطوارئ التي تمنع تنظيم المظاهرات والتي أدت إلى خنق الحياة السياسية.

-القهر السياسي المتراكم للجماهير العربية، نتيجة لقمع متعدد المستويات عانت منه جميع الفئات الاجتماعية، والذي بدأ يقترب من درجة الغليان، بعدما استفحلت إجراءات القمع التي أدارتها المنظومة الأمنية المتحكمة بالقرار السياسي، بحيث باتت هذه المنظومة هي القيادة الفعلية للسلطة.

-انتشار الفساد السياسي في كافة قطاعات الدولة ومؤسساتها السياسية والأمنية والقضائية، بسبب غياب وتغييب المساءلة وانعدام الشفافية في إدارة الحكم، واعتماد نظام المحسوبية في تولي المناصب العامة.

-غياب الديمقراطية عن مجرى الحياة السياسية العربية، بحيث انعدمت فرص تداول السلطة، وساد نهج التوريث السياسي والتأييد بالسلطة، وانعدام التواصل والعلاقة بين الحاكم والمحكومين، ووجود طبقة عازلة بين الحكام والشعوب وذلك لتحقيق وحماية مصالحها.

-تراجع الحريات والعدالة في جو يسوده الديكتاتورية والقمع⁽¹⁴⁾.

ب. الأسباب الاجتماعية: من بين الأسباب الاجتماعية نذكر أهمها:

-السياسات النيو ليبرالية التي انتهجتها الأنظمة العربية، والتي أدت إلى خلل اجتماعي أصاب معظم الشرائح والطبقات الاجتماعية، وهو ما أفرزته موجة واسعة من الحركات الثورية والتظاهرات، حيث ظهر السخط الشعبي من تلك الأنظمة المستبدة.

-تزايد الفجوات الاجتماعية بسبب تزايد الفقر والجهل الممنهج⁽¹⁵⁾.

ت. الأسباب الاقتصادية: ومن أهمها:

من خلال هذا التعريف يتضح لنا أن الحراك السياسي هو مصطلح مرتبط بتغيير نمط توزيع السلطة وبالتالي تغيير موازين القوة، باعتبار أن من يملك السلطة يملك القوة.

كما يُعرّف الحراك السياسي أيضا على انه نشاط أو تفاعل (فردى أو جماعى) داخل الدولة أو خارجها، يهدف به فاعلوه إلى جني ثمار سياسية معينة أو بلوغ أهداف محددة⁽¹¹⁾.

بمعنى أن الحراك السياسي هو القيام بمختلف النشاطات السياسية سواء من طرف فرد أو جماعة، سواء داخل الدولة أو خارجها، وذلك بهدف الانتقال إلى موقف أو وضع أو رؤية سياسية أخرى، لكن ليس بالضرورة أن يكون هذا الانتقال ايجابيا أو للأحسن، فقد يكون الانتقال إلى وضع أسوأ مما كان عليه.

كما يقصد بالحراك السياسي على أنه تأثير مجموعة من الأفراد والجماعات في حركة النظام السياسي⁽¹²⁾.

بمعنى أن الحراك السياسي هو قيام مجموعة من الأفراد والتنظيمات والجماعات بالمظاهرات والاحتجاجات، للتأثير على النظام السياسي، وذلك من أجل تحقيق أهداف معينة، وهو ما حدث في بعض الدول العربية.

ومنه عرف الحراك السياسي العربي Arab political movement على أنه تلك الموجة من المظاهرات والاحتجاجات والاعتصامات والمسيرات التي أجتاحت عدد من الدول العربية منذ نهاية عام 2010، مطالبة بإحداث تغييرات إصلاحية شاملة، في المجالات السياسية والاقتصادية، والاجتماعية⁽¹³⁾.

التعريف الإجرائي: من خلال التعاريف السابقة نستنتج أن الحراك السياسي هو نشاط سياسي يقوم به فرد أو جماعة بهدف تغيير موقف أو رؤية سياسية، كما يمكن أن يهدف إلى تغيير السلطة، أما الحراك السياسي العربي هو حالة من الاحتجاجات والتظاهرات شهدتها المنطقة العربية، والتي جاءت كتعبير عن تطلعات الجماهير المحرومة، هدفها إحداث تغيير في البنى السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية.

2. أسباب نشوء الحراك السياسي العربي: إن

الحراك السياسي الذي شهدته بعض الدول العربية لم يكن

الأزمة الاقتصادية العالمية عام 2008 والتي وصل تأثيرها إلى غاية سنة 2010، أما تونس كان معدل البطالة حوالي 13 % في بداية الاضطرابات، لتبلغ نسبة 19 % في عام 2012⁽¹⁶⁾، وهذه النسب المرتفعة للبطالة يمكن إرجاعها إلى فشل السياسات الاقتصادية التي قامت بها الحكومات العربية للحد من ظاهرة البطالة، التي من شأنها تعزيز المشاعر السلبية بين الشباب والعصيان والمقاومة والاحتجاج ضد حكوماتهم.

-ارتفاع معدل البطالة: إن ارتفاع معدل البطالة بين الشباب العربي كان عاملا من عوامل الحراك السياسي الذي شهدته بعض الدول العربية، فكما هو موضح في الجدول رقم 1، كان معدل البطالة حوالي 9 % في مصر قبل الحراك، ليرتفع إلى أكثر من 12 % سنة 2011 و2012، ويمكن إرجاع ذلك إلى النمو الديموغرافي الذي تشهده مصر و هو في تزايد مستمر، أما بالنسبة لليبيا ارتفع معدل البطالة إلى 14 % مع

الجدول رقم 1: يوضح معدل البطالة في كل من مصر وليبيا وتونس

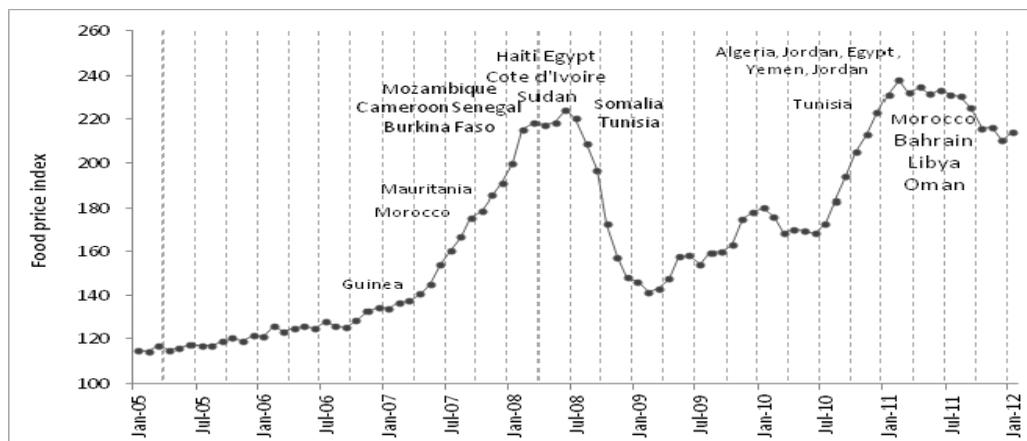
	2000	2007	2008	2009	2010	2011	2012
Egypt	9.0	9.2	8.7	9.4	9.2	12.1	12.3
Libya	13.0	13.7	14.5	17.5	20.7	25.3	19.5
Tunisia	15.7	12.4	12.4	13.3	13.0	13.0	18.9

Source : Sertan Cinar , Ismet Gocer ,OP CIT , p 41

الدخل، يستوعب نسبة كبيرة من دخل الأسرة، فإن ارتفاع أسعار السلع الأساسية، يمكن أن يؤدي بلا شك إلى تفاقم الظروف المعيشية، لأكثر الفئات فقرا في المجتمع، ومع ذلك إذا نظرنا إلى معدلات التضخم في بلدان شمال أفريقيا في السنوات التي سبقت أعمال الشغب في الفترة 2008-2010، فإن العلاقة السببية تبدو أقل وضوحا، حيث كان متوسط معدل التضخم 5 % في الجزائر وليبيا، و 13 % في مصر، وحوالي 4 % في تونس، وحوالي 1 % في المغرب، ولم تكن هذه المعدلات مختلفة عن تلك المسجلة خلال السنوات الأولى من الألفية الجديدة، حيث كانت معدلات التضخم في ليبيا والجزائر حوالي 30 %، و 25 % في مصر⁽¹⁷⁾.

-ارتفاع الأسعار: في سنة 2007 و2008 شهدت بعض الدول العربية نوبات متنوعة ما يسمى بـ "أحداث شغب الخبز"، ليتم تسجيل الذروة الثانية في عام 2010 حيث وقعت أعمال الشغب والاحتجاجات في مصر، والمغرب، وتونس، واليمن، التي تزامنت مع ذروة ارتفاع في أسعار المواد الغذائية، وهو ما يوضحه الشكل رقم 1 توقيت بعض أعمال الشغب ذات الصلة بمؤشر أسعار المواد الغذائية التي حدثت مع بداية سنة 2010، ومن الممكن أن نرى كيف تقاس أسعار المواد الغذائية التي تتطابق بشكل فعال مع معظم حلقات عدم الاستقرار السياسي في البلدان المتخلفة، وبما أن الإنفاق على الغذاء في البلدان منخفضة ومتوسطة

الشكل رقم 1: يوضح مؤشر أسعار الغذاء وأعمال الشغب بداية سنة 2010



Source: Andrea Ansani, Vittorio Daniele, OP CIT, P 7.

نحو شؤون السياسة والحكم، الدولة والسلطة، الولاء والانتها، الشرعية والمشاركة⁽²⁰⁾.

وعرف قاموس أكسفورد الثقافة السياسية بأنها الاتجاهات والقيم التي تتصل بعمل نظام سياسي محدد، وتعد بمثابة معرفة متضمنة، ومهارات مكتسبة عن عمل هذا النظام، كما تتضمن اتجاهات ايجابية أو سلبية نحوه، وأيضاً أحكاماً تقييمية بشأنه⁽²¹⁾.

من خلال التعريف السابق يتضح لنا أن الثقافة السياسية يقصد بها مدى إدراك الأفراد لنظامهم السياسي ورموزه ومؤسسته والأحاسيس التي يحملها اتجاهه واتجاه بلده، وهو ما يتفق مع تعريف (لاري ديموند).

حيث عرف (لاري ديموند (Larry Diamond) الثقافة السياسية على أنها مجموعة معتقدات الناس واتجاهاتهم وأفكارهم ومشاعرهم وتقييماتهم المسبقة إزاء النظام السياسي لبلدهم⁽²²⁾.

التعريف الإجرائي: من خلال التعاريف السابقة نستنتج التعريف الإجرائي للثقافة السياسية والتي يقصد بها مجموعة من القيم والمعارف والمعتقدات والأنماط السياسية التي تحدد مواقف الأفراد اتجاه السلطة والقضايا والعمليات السياسية، سواء كانت هذه المواقف ايجابية أو سلبية.

2. أبعاد الثقافة السياسية

حدد كل من (العوامل والشبكات) في دراسة لهما عناصر الثقافة السياسية على أنها تتمثل في القيم السياسية، المعرفة السياسية والاتجاهات السياسية.

• القيم السياسية: هي صفات وتصورات وأحكام يؤمن أو يعتقد بها الأفراد وتكون بمثابة معايير يتخذون من خلالها قراراتهم فيما يتصل بالحياة السياسية، مثل الحرية والمساواة وغيرها، وتمثل إطاراً مرجعياً للحكم على الأشياء وتحدد سلوك الأفراد وردود أفعالهم تجاه النشاط السياسي، وتحتل موقعا متقدما في تشكيل شخصية الفرد وتكوينه الثقافي مقارنة بالاتجاهات التي تشكل في مجموعها قيما، وهي نتاج البيئة والمعتقدات والتجربة⁽²³⁾.

• المعرفة السياسية: هي المعرفة العامة بالمفاهيم والمصطلحات والظواهر والأحداث والاتجاهات

3. خصائص الحراك السياسي العربي: هناك

مجموعة من الخصائص التي تميز الحراك السياسي العربي وتمثل في:

✓ استخدام كافة سبل التعبير السلمي المتاح.
✓ انطلاق حراك من العالم الافتراضي من خلال الفيسبوك، تويتر، اليوتيوب والمدونات، فتم استخدامها في تحديد أماكن المظاهرات ومواعيدها، ونشر هذه المظاهرات في صور وفيديو.

✓ مشاركة كافة قطاعات المجتمع دون إقصاء أو تمييز على أساس العرق أو الدين أو المذهب، وهي حركة يشارك فيها النشطاء من مختلف القوى التي تنشأ التغيير، وان اختلفت درجة المشاركة وتعددت وسائلها.

✓ نجاح كسر حاجز الخوف الذي عانت منه المجتمعات العربية لعقود طويلة.

✓ بروز دور الشباب وظهورهم طيلة فترة الأحداث كمحرك وعنصر أساسي في هذه التحولات والتغيرات.

✓ الدعم الشعبي والدولي من جميع المنظمات والمحافل للقائمين بهذه التحولات والتغيرات⁽¹⁸⁾.

ثالثا: ماهية الثقافة السياسية

1. تعريف الثقافة السياسية

عرف (لوسيان باي Lucian Bay) الثقافة السياسية Political culture على أنها مجموعة القيم والمعتقدات السياسية السائدة في أي مجتمع، والتي تتميز عن غيره من المجتمعات وتخلق نوعا من الملائمة الاجتماعية لسلوك الأفراد وتعطي للعملية السياسية شكلا ومضمونا بالطريقة نفسها التي تعطيها الثقافة ملائمة للحياة الاجتماعية⁽¹⁹⁾.

يتضح لنا من خلال تعريف (لوسيان باي) أن الثقافة السياسية هي الأحكام المعيارية، والأفكار، والاتجاهات السياسية السائدة في مجتمع معين، والذي يميزه عن باقي المجتمعات، حيث إن هذه الأحكام والأفكار تخلق الانسجام الاجتماعي الذي يعطي للعملية السياسية معنى.

كما تعرف الثقافة السياسية على أنها مجموعة من المعارف والقيم، والمعتقدات، والآراء، والاتجاهات السائدة

• خلق الشخصية القومية: إن عملية الاهتمام بالثقافة السياسية يساهم في تطوير سبل المشاركة السياسية وتطويرها من الثقافة المحدودة أو الضيقة إلى الثقافة بالمشاركة، لأن وجود الثقافة المحدودة أو الضيقة يعكس عموماً درجات اللاتجانس الثقافي والسياسي، وتعكس أيضاً أنماط اللامبالاة السياسية وعدم المشاركة في صنع القرارات السياسية، وهذا يؤثر بصورة سلبية ظهور الشخصية القومية، التي تظهر نوعية الأداء السياسي والاجتماعي لدى الجماهير أو المواطنين تجاه قضاياهم الوطنية وتحقيق المصالح والأهداف العامة (30).

4. أنواع الثقافة السياسية

هنالك ثلاثة أنواع من الثقافة السياسية وهي الثقافة السياسية المشاركة، والثقافة السياسية التابعة، والمحددة، فحينما تكون اتجاهات المواطنين إيجابية نحو الموضوعات السياسية فإننا نصنف الثقافة السياسية في هذا المجتمع على أنها مشاركة، أما حينما تكون استجابة المواطنين للنسق السياسي سلبية فإن الثقافة السياسية تصبح تابعة، ذلك أنهم لا يمارسون أي تأثير في الموضوعات السياسية، وإنما يتأثرون بها فحسب، أما حينما لا يجد الفرد أية علاقة بينه وبين النسق السياسي، وليست عنده معلومات كافية عن، فإن الثقافة السياسية في هذه الحالة تصبح ثقافة محدودة (31).

المحور الثاني: واقع الثقافة السياسية قبل الحراك

السياسي العربي:

أولاً: خصائص الثقافة السياسية العربية

للثقافة السياسية العربية مجموعة من الخصائص نذكر من بينها:

❖ غياب الشعور بالاعتدال السياسي: حتى تتحقق فاعلية وحيوية العملية الديمقراطية لا بد أن يشعر كل أو غالبية أفراد المجتمع بالقدرة على التأثير في مجريات الحياة السياسية، وأغلب الظن إن الإنسان العربي بوجه عام لا يكاد يشعر بإمكانية تغيير مجرى الحياة السياسية عن طريق التأثير في عملية صنع القرارات.

❖ انعدام الاستعداد للمشاركة السياسية: الممارسة الديمقراطية الحقيقية تقتضي مشاركة أغلب المواطنين في

والإيديولوجيات السياسية والمواقف وكذلك معرفة شخصيات ذات الدور السياسي في المجتمع سواء كان على المستوى المحلي أو الوطني (24).

• الاتجاهات السياسية: يشير الاتجاه إلى تنظيم عدد من الاستعدادات بموضوع معين، وهي غالباً ما ترتبط بموقف محدد أو موضوع بالذات، وكذلك يرتبط بحالة من الاستعداد أو التأهب العصبي والنفسي، ولهذا تجد عددها كبيراً مقارنة بالقيم التي يقل عددها، وتكون ذات تأثير توجيهي أو حركي على استجابة الفرد لجميع المواقف التي تستشير هذه الاستجابة (25).

3. وظائف الثقافة السياسية: للثقافة السياسية أكثر

من وظيفة ودور، نذكر منها ما يلي:

• التعرف على طبيعة البناءات والنظم السياسية: حيث أن دراسة الثقافة السياسية يساعد على فهم مكونات وعناصر البناء السياسي الذي يوجد في أي مجتمع من المجتمعات (26).

• تحليل العلاقة بين المواطنين أو الجماهير والسلطة السياسية: حيث تعكس نوع الثقافة السياسية لدى الجماهير مدى توقعات الجماهير من السلطة السياسية، وما ينبغي أن تقوم به السلطة السياسية أو الحكومة في تلبية الحاجات والأهداف السياسية التي تتطلع إليها الجماهير (27).

• تعد الثقافة السياسية عاملاً من عوامل التأثير في الحياة الاجتماعية السياسية، حيث إنها تعطي الفرد القدرة على التصرف في أي موقف، كما تهيئ له أساس التفكير والشعور، وتزوده بما يشبع به حاجاته البيولوجية، فهي تجيب على تساؤلات الفرد بطريقة أو بأخرى، فهي التراث الاجتماعي السياسي الذي يرثه أفراد المجتمع من الأجيال السابقة (28).

• دراسة عملية المشاركة السياسية وكيفية تحديثها: حيث تعد الثقافة السياسية العنصر الأساسي لتطوير عمليات المشاركة السياسية والتنشئة السياسية، ولاسيما أن عملية التحديث الثقافي السياسي تساعد على خلق نوع من الدافعية، والعمل ونمو النشاط الديمقراطي الفعال في الحياة السياسية، وهذا لن يحدث إلا من خلال وجود الوعي السياسي الجماهيري (29).

الشرعية الصورية عليها من خلال انتخابات معلومة النتائج سلفاً⁽³³⁾.

وعليه فإن الثقافة السياسية العربية قبل الحراك السياسي هي ثقافة سياسية ضيقة هامشية، لا يستطيع فيها الأفراد تقديم أي نوع من التأييد، أو المعارضة اتجاه النظام السياسي، وما يصدره من سياسيات، وقرارات، واللامبالاة بأهمية المشاركة في العملية السياسية، وذلك بسبب ضعف كفاءاتهم وفعاليتهم السياسية.

المحور الثالث: علاقة شبكات التواصل الاجتماعي

بالحراك السياسي العربي وتأثيره على الثقافة السياسية

أولاً: أسباب بروز دور شبكات التواصل الاجتماعي

في ظل أوضاع الحراك السياسي العربي: والتي من بينها:

○ إن اعتماد شبكات التواصل الاجتماعي، كوسائل نشر بديلة، جاء كرد فعل للواقع الاجتماعي والسياسي في المنطقة العربية، فالأوضاع غير المستقرة في تلك البيئة، بالإضافة إلى انفلاق الأنظمة العربية، سياسياً وإعلامياً، وسطوتها المفروضة على وسائل الاتصال، والتعبير، والنشر والاستبدادية في الحكم، وخنق الحريات، أفضى إلى البحث عن قنوات جديدة للتعبير عن الذات وإبداء الرأي، بالإضافة إلى ذلك شكلت شبكات التواصل الاجتماعي أماكن لتجمع عدد كبير من المواطنين، ويهدف مشترك ودون تنظيمات سرية في عالم افتراضي.

○ إن هذه الشبكات جاءت كرد فعل على السيطرة الكاملة لأجهزة السلطة على الوسائل التقليدية في الإعلام، فلم تترك أية قنوات تقليدية للشباب الحر، فتحوّلت شبكات التواصل الاجتماعي إلى ملجأ آمن لهم، بالإضافة إلى ذلك فإن لجوئهم إلى هذه الشبكات، كان لتوفير درجة من الوعي بقضاياهم السياسية التي كونها يتلقونها من وسائل الإعلام التقليدية والتي كانت تعرضها بدرجات متفاوتة من التعتيم، بل نجدها في أغلب الأحيان تقدم حقائق مزيفة، ومعلومات مصطنعة.

○ سرعة تأثير شبكات التواصل الاجتماعي في الحركات الاجتماعية والسياسية والإعلامية على نحو يفوق تأثير وسائل الإعلام التقليدية.

صياغة السياسات، والقرارات، واختيار الحكام وأعضاء المؤسسات التمثيلية على الصعيدين؛ المركزي والمحلي، والمشاركة في المناقشات، وتقديم الاقتراحات، والعضوية في الأحزاب السياسية والتنظيمات، وهو ما تشهد بعض الدول العربية غيابها، وإن وجد فيكون بصورة شكلية غير حقيقية، نظراً للسلبية السياسية المتفشية في المجتمع العربي.

❖ غياب الثقة السياسية: لا بد للديمقراطية من شعور بالثقة المتبادلة بين المواطن والنظام السياسي، وفيما بين المؤسسات السياسية بعضها بعض، الذي بدوره يساعد على توفر مناخ للتنافس السياسي الذي يشكل جوهر العملية الديمقراطية، إلا أن هذا الشعور لا يبدو أن له قدماً راسخاً في الثقافة العربية السياسية، فالشك المتبادل يكتنف العلاقة بين الحكومة والمواطنين، وتشوب الريبة العلاقات بين الحركات السياسية، فعلى الرغم من وجود أحزاب إيديولوجية واطر مؤسسية في عدد من الأقطار العربية، إلا أن الحاكم لا يثق في هذا كله، ويعتمد في شغل المناصب المهمة على أفراد العائلة، أو الطائفة، أو الذين تربطهم وإياه علاقة شخصية أو مصلحة من أي نوع⁽³²⁾.

ثانياً: الثقافة السياسية قبل الحراك السياسي

واجهت الثقافة السياسية العربية تراجعاً في بنيتها قبل الربيع العربي، عندما حلت ثقافة الاستسلام محل ثقافة المقاومة، وثقافة الخوف مكان ثقافة المواجهة، وثقافة اللامبالاة بدلاً من ثقافة المشاركة السياسية، بقدر ما ركزت على الولاء المطلق للسلطة السياسية، وتبرير شرعيتها ووجودها، بدلاً من الولاء للوطن، كما أفقدت الأنظمة قبل الربيع العربي الفرد ثقته في التعبير عن مصالحه، وبدلاً من أن توحد الأنظمة العربية شعوبها ومجتمعاتها تمهيداً لتوحيد الأمة العربية بأكملها، سارت تلك الأنظمة في سياسة فرق تميز بين فئات المواطنين داخل مجتمعاتها القطرية، لكي تتصارع شعوبها مع بعضها بدلاً من توحيدها ضد التحديات الخارجية التي تواجهها، ومنه تعدّ الثقافة السياسية قبل الحراك العربي ثقافة سياسية ضيقة، فالمشاركة السياسية كانت في غالبية البلدان العربية، تتصف بالشكلية والموسمية وعدم الفاعلية، إذ أن القرارات السياسية عادة ما تتخذ من قبل النخب الحاكمة، وتترك للجماهير العربية مهمة إضفاء

التي سهلت من عملية الاتصال بين المناضلين ، وتوفير منصة وإطار جديد للتداول ، والرصد ، وإحداث التغيير الفعال ، فاصطبغت الثورات العربية بالصبغة الرقمية بما يسمى بالحراك السياسي الرقمي ، حيث استفادت من شبكات التواصل الاجتماعي في الحشد ، وتكريس التغيير ، والانتقال من مرحلة سلطوية إلى مرحلة ديمقراطية⁽³⁵⁾.

فالفيسبوك مثلا تحول إلى أداة سياسية تستخدمها الشعوب للتعبير عن آرائهم وتنظيم المظاهرات ، فكان بمثابة موقعا إخباريا ، ينقل أولا بأول آخر الأخبار موثقة بالصور ، ومقاطع الفيديو ، والذي بدوره ساهم في بلورة الرأي العام ، الأمر الذي حوّل الموقع من وظيفته الأساسية التواصل الاجتماعي إلى وظيفة التعبئة السياسية ، حتى أصبح احد المنابر السياسية الهامة التي تدور فيها الحوارات والمناقشات السياسية ، وإطلاق الدعوات للتظاهرات⁽³⁶⁾.

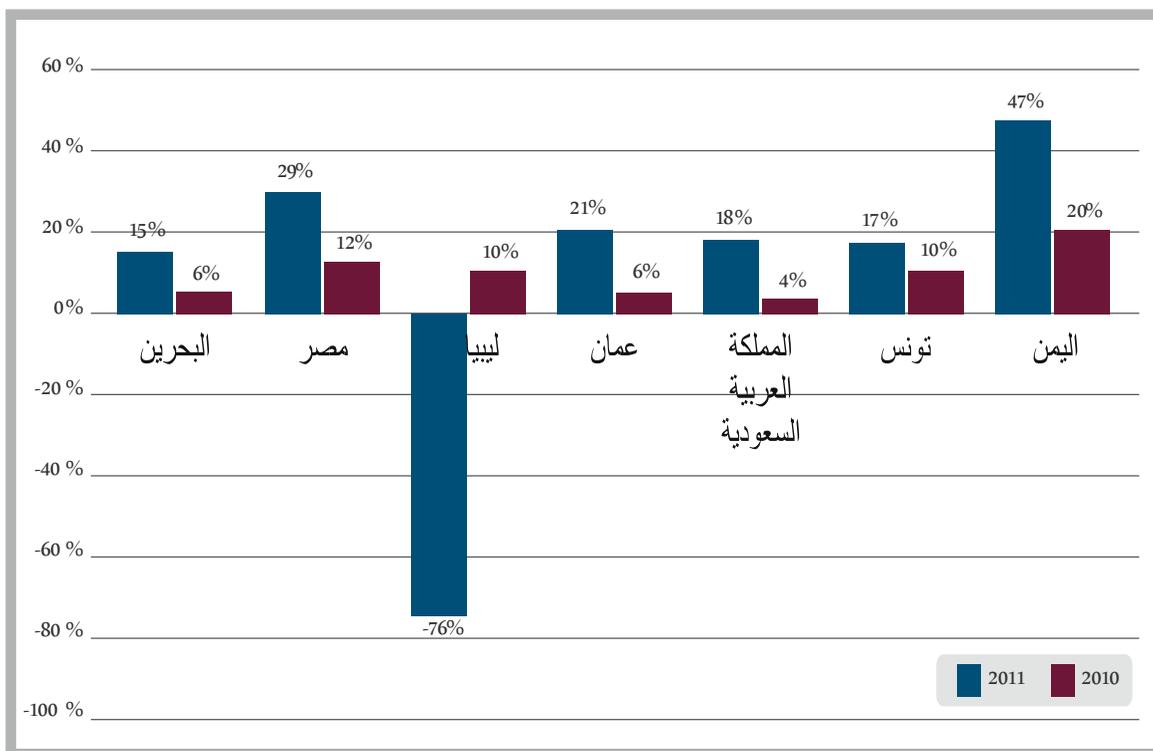
○ التدفق الحر للمعلومات ، فقد وفرت تلك الشبكات كمًا هائلا من المعلومات الحديثة ، بالصوت وبالصورة ، فيما سجلت وسائل الإعلام محدودية في المعلومات التي تخص الاحتجاجات في المناطق العربية⁽³⁴⁾.

ثانيا: دور شبكات التواصل الاجتماعي في الحراك

السياسي العربي

لعبت الوسائط الحديثة المتمثلة في الفضاء الرقمي دورا أساسيا في الحراك السياسي الذي شهدته بعض المناطق العربية ، حيث ازداد الحراك الرقمي في البلدان التي تتمتع بالأنظمة الاستبدادية حتى أصبح موضوعا مهما ، وازداد - لأهميته - انتشار شبكات التواصل الاجتماعي التي توفر للمواطنين مكانا آمنا لاحتجاجات ضد النظم الدكتاتورية ، فاستخدام شبكة الانترنت في المجال السياسي يعطي كفاءة في التنظيم الجماهيري والتعبئة السياسية ، كما يساعد الناشطين السياسيين على الإعداد ، والحشد للاحتجاجات

الشكل رقم 2: يوضح معدل النمو في عدد مستخدمي فيسبوك أثناء احتجاجات 2011 مقارنة بسنة 2010



المصدر: كلية دبي للإدارة الحكومية ، "تقرير الإعلام الاجتماعي العربي حول الإعلام الاجتماعي والحراك المدني: تأثير

الفيسبوك وتويتر" ، الإصدار الثاني ، ماي 2011 ، ص 5

فهناك العديد من الشواهد التي تؤكد أن الثورة المصرية انطلقت من المجتمع الافتراضي إلى المجتمع الواقعي، لأن شبكات التواصل الاجتماعي ربما كانت هي كلمة السر التي جعلت ثورة 25 يناير المصرية هي أول ثورة تدار إدارة " لحظية تشاركية " من قبل جماهيرها الواسعة، دون الحاجة إلى قيادة موحدة تديرها، إذ أتاح موقعي الفيسبوك والتويتير للثوار نظاما فوريا لجمع ونقل وتبادل المعلومات ومعالجتها واستخدامها في اتخاذ القرارات، فجعلهم يتفاعلون بسرعة، ويتواصلون بسهولة مع بعضهم البعض، الأمر الذي جعلهم يستغلون انفتاح هذا المجال الجديد في النزول إلى الواقع للمطالبة بالحقوق والإصلاحات، حيث يمارس فيه الكتاب والمواطنون حريتهم في مناقشة القضايا العامة، ومعارضة النظام السياسي الذي ينتمون إليه⁽³⁸⁾.

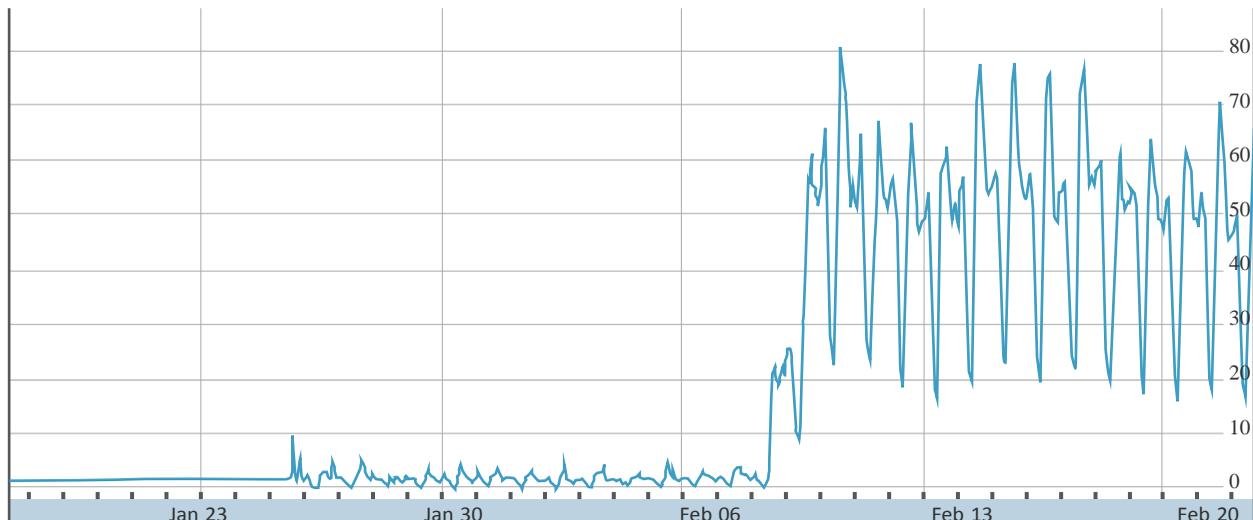
ففي ليبيا استطاع ناشطون على الفيس بوك أن ينقلوا صورة عن الأحداث الإجرامية للنظام الليبي عبر الفيسبوك واليوتيوب وبثها فيما بعد عبر وسائل الإعلام التقليدية، وفي سوريا لعبت مواقع التواصل الاجتماعي دورا هاما حيث كانت الملجأ الآمن لكثير من الناشطين في بلد يتم فيها حظر التجمعات والتظاهرات، حيث استطاع المواطن السوري نشر الجرائم وتوثيق المجازر المرتكبة في حق المدنيين ونشرها على موقع الفيس بوك وبشكل فيديوهات على اليوتيوب⁽³⁹⁾.

فكما هو موضح في شكل رقم 3 هناك انخفاض في استخدام موقع اليوتيوب في سوريا خلال الفترة الأولى من الاحتجاجات، وذلك بسبب الحكومة السورية التي قامت بحظر شبكات التواصل الاجتماعي، ليتم رفع هذا الحظر في السابع من شهر فيفري 2011، إذ شهدت حركة استخدام موقع اليوتيوب ارتفاعا كبيرا، حيث كان هذا الموقع ينقل جميع التظاهرات التي يقوم بها الشعب السوري، ونقل الأحداث لكي يجذب أكبر عدد من المتظاهرين، للمطالبة بحقوقهم ولكشف الجرائم المرتكبة ضدهم من طرف حكومتهم، ومنه الاقتراب بصورة أوثق إلى الممارسة السياسية.

فمن خلال ما يوضحه الشكل رقم 2 نلاحظ ارتفاع عدد مستخدمي الفيسبوك تزامن مع فترة انطلاق الاحتجاجات في كل من؛ البحرين، ومصر، وليبيا، وعمان، والسعودية وتونس، واليمن، حتى نسب الاستخدام لهذا الموقع سنة 2011 هي مرتفعة مقارنة بسنة 2010، باعتبار أن الاحتجاجات كانت في نهاية سنة 2010 وبداية سنة 2011، وهذا ما يدل على وجود علاقة ارتباطية، لذا لا يمكن إنكار الدور الذي لعبه موقع الفيسبوك في حشد وتوجيه وتعبئة المتظاهرين للخروج للشارع، ومطالبتهم بحقوقهم.

أما تويتير - كمحرك بحث قوي لنقل ومتابعة الأحداث فور وقوعها- فلعب دورا في الحراك السياسي العربي، وفي نقل الأخبار والأحداث العاجلة وتطوراتها، فلم يتخيل مؤسسو هذا الموقع أن يستخدم لخدمة نقل أخبار الاحتجاجات، ويصبح مصدر رئيسي للناشطين السياسيين في التعبير عن آرائهم وإرسال الرسائل وتنظيم المظاهرات، فتم استخدامه في الدول الديكتاتورية في دعم الحراك السياسي، وفي تنسيق وتنظيم الأفعال بين الناشطين، والتعامل المباشر مع السياسيين، وفي التغلب على الأجهزة القمعية للنظام الاستبدادي، ولا يقل دور موقع التويتير عن دور موقع اليوتيوب، الذي ظهر كخدمة لمشاركة الفيديوهات الشخصية ووسيلة للترفيه، لكن سرعان ما تحول لوسيلة للنقاش السياسي، حيث أتاح للمحتجين مساحات شاسعة لنشر موادهم الخاصة عن الثورة، وفعاليتها التي مكنتهم من كشف حقيقة الأحداث على أرض الواقع، ونقلها إلى المجتمع الدولي، من خلال ملفات الفيديو التي تم التقاطها من الميادين الثورية أيام الاعتصام، والتي ساهمت في تحريك مشاعر الجماهير والتعبئة واستمرار تشجيع الحشود للنزول، والانضمام إليهم، أما موقع الفليكر لعبت الصورة الرقمية الموثقة لإحداث ثورة يناير المصرية في دفع عدد أكبر من المصريين للتفاعل بشكل إيجابي، فمنذ أن ظهرت الدعوة إلى الثورة سارع أصحابها بنشر مجموعة كبيرة من الصور توضح فيها بعض اعتداءات الشرطة على المتظاهرين، وتهدف إلى حث الناس على الاشتراك في المظاهرات التي دعوا إليها⁽³⁷⁾.

الشكل رقم 3: يوضح معدل استخدام موقع يوتيوب قبل وبعد رفع الحظر على مواقع الإعلام الاجتماعي في سوريا



المصدر: كلية دبي للإدارة الحكومية، "تقرير الإعلام الاجتماعي العربي حول الإعلام الاجتماعي والحراك المدني: تأثير الفيسبوك وتويتر"، مرجع سابق، ص 2.

ساعدت على نجاح الحراك السياسي، إلا أنه لا يمكن الإغفال عن الدور الذي لعبته هذه المواقع.

حيث تعد شبكات التواصل الاجتماعي مصدرا مهما في تحقيق الثقافة السياسية المشاركة في دول الحراك، باعتبار أن هذه الشبكات كان لها دور أساسي في الحراك السياسي العربي، فقد ساهم المجتمع الافتراضي في دول الحراك في تعزيز الديمقراطية، من خلال نشر الوعي السياسي وتنمية المعرفة السياسية لدى المجتمع العربي وزيادة اهتمامهم بالشؤون السياسية.

وهو ما توصلت إليه الدراسة الذي قام بها كل من الدكتور (محمد سعيد عبد المجيد) والدكتور (ممدوح عبد الواحد الحيطي) بعنوان "شبكات التواصل الاجتماعي والثقافة السياسية للشباب الجامعي" على عينة من طلاب جامعة كفر الشيخ بمصر، حيث توصلت إلى أن ملامح الثقافة السياسية للشباب في ظل نظام مبارك، كانت تتميز بضعف الوعي السياسي والخوف من المشاركة السياسية وفقدان الثقة بين الشباب، ورجال السياسة وغير ذلك من أمور، يمكن النظر إليها بوصفها مؤشرات على مدى الإقصاء الذي مارسه نظام مبارك مع فئة الشباب⁽⁴¹⁾، لكن سرعان ما أدت هذه الشبكات إلى نهاية ثقافة الخوف السياسي، وظهور ثقافة سياسية جديدة، من أهم مظاهرها:

– التأثير الكبير للشبكات التواصل الاجتماعي على المشاركة السياسية للشباب خاصة بعد ثورة 25 يناير، وجاء

فصحيح أن شبكات التواصل الاجتماعي لا تمثل العامل الأساسي والوحيد للحراك السياسي العربي، لكنها تعد عاملا مهما في تهيئة متطلبات التغيير، وفي تنظيم الحراك.

ثالثا: الحراك السياسي الرقمي وتأثيره على الثقافة السياسية

أثرت الأحداث - التي جرت في الميادين والشوارع العربية والشعارات التي رفعها المواطنون العرب في نهاية سنة 2010 وبداية سنة 2011 - على الثقافة السياسية العربية الضيقة التي كانت تسود تلك الفترة، حيث ولدت فيما بعد ثقافة جديدة تتناقض مع الثقافة التي كانت سائدة من قبل، حيث أعاد الحراك العربي مصير الأمة العربية إليها - بعد أن خطف الأنظمة إرادة الشعوب العربية منذ أكثر من نصف قرن وتحكمت بإرادتها - من خلال الشعارات التي رفعتها إلى جدول أعمال جميع الشعوب العربية، في المطالبة بالديمقراطية والحرية والمساواة، كما ساعدت الثورات العربية في ديمقراطية السياسة والثقافة، حيث زاد من الوعي والتفتح المعرفي السياسي، وساعدت على إكساب توجهات سياسية جديدة⁽⁴⁰⁾.

فالملاحظ أن هذه الأبعاد (المعرفة والوعي السياسي، القيم السياسية، الاتجاهات السياسية) التي تعرضت للتغيير هي بفعل مجموعة من العوامل من بينها شبكات التواصل الاجتماعي، فصحيح هناك عوامل أخرى

وساعد هذا على تعزيز الهوية الوطنية لديهم ، و التي أسهمت بدورها في التأثير على البعد الوجداني ، حيث ساعدت هذه الشبكات بعد الحراك السياسي على تعزيز قيم المواطنة والانتماء للوطن لدى المجتمع العربي ، لكونها قادرة على التركيز على العوامل التي تساعد في بناء الشخصية الوطنية ، التي تصب في صالح الهوية الوطنية الجامعة ، وذلك من خلال ما تنشره هذه الشبكات ، ساعدت على تأكيد أهمية قيم الولاء ، والانتماء ، والوطنية ، والدعوة إلى التمسك بالانتماء للهوية الوطنية.

وهو ما توصلت إليه أحدث نتائج بحث قام به فريق عمل تقرير الإعلام الاجتماعي العربي خلال عام 2012 ، الذي أجري استبيان إقليمي على الانترنت في ثمانية بلدان عربية (البحرين و مصر ، و الأردن ، و الكويت ، و لبنان ، و عمان ، والمملكة العربية السعودية ، والإمارات العربية المتحدة) لدراسة استخدام شبكات التواصل الاجتماعي ، وتحديد التصورات بشأن تأثيرها على الثقافة والمجتمع في المنطقة العربية ، حيث سجلت نسبة 85 % في مصر و83 % في البحرين و80% في كل من الأردن والكويت ، ونسبة 78 % في كل من عمان والسعودية ، ونسبة 73 % في الإمارات ، ونسبة 66 % أجابوا أن شبكات التواصل الاجتماعي أسهمت في تنمية الإحساس لديهم بالهوية الوطنية ، كالاغتراف بالوطن ، والولاء ، والانتماء إليه ، وهو ما يدل على وجود ثقافة سياسية مشاركة ، فالدول التي يسودها هذا النمط نجد مواطنيها يشاركون في الحياة العامة والسياسية ، ويتميزون بولائهم وانتماءهم الكبير لبلدهم مما يعزز من الهوية الوطنية لديهم⁽⁴⁴⁾.

لذا قد مكنت شبكات التواصل الاجتماعي الجمهور العربي من إبداء رأيه حول مختلف القضايا السياسية ، وانتقادها أو التعليق عليها أو مساندتها ، كما يرى العديد من الباحثين ولاسيما المدافعين عن دور هذه الثورة الاتصالية ، أن التوسع في القدرة على الاتصال يمكن أن يقود إلى تنشئة سياسية بل وتكيف سياسي أكثر ، وأساس هذا التوقع هو أن المواطنين سوف يكونوا أكثر نشاطا في التعبير عن آرائهم من خلال شبكات التواصل الاجتماعي ، والتي تتيح لهم فرصا جديدة لتوصيل رغباتهم ، وآرائهم التي توضح توجهاتهم السياسية ، كما أنها تتيح لهم فرصة للمشاركة في العملية السياسية ، كما قدمت شبكات التواصل الاجتماعي خدمة كبيرة للشباب العربي ، وصنعت واقعا جديدا لم يكن معهودا

في مقدمة مظاهر هذا التأثير استخدامها للتوعية بالحقوق ، والحريات السياسية ، وتوفيرها منبرا للشباب للتعبير عن واقعهم وهمومهم وآمالهم ، ومساعدتها في التعرف على الشخصيات ذات الأدوار السياسية.

- التأثير الكبير لشبكات التواصل الاجتماعي في تنمية المعرفة والوعي السياسي للشباب ، حيث أصبحت هذه الشبكات مصدرا للحصول على الأخبار والمعلومات السياسية ، وأداة لمتابعة مجريات الأحداث السياسية ، ووسيلة لنقل الأخبار والتعليمات والصور والفيديوهات بأسرع وقت وأقل التكلفة⁽⁴²⁾.

ولا يختلف الأمر بالنسبة للدراسة التي أجراها الباحث (Abdul-Salaam) سنة 2012 وهي بعنوان "أهمية التصفح الإلكتروني للصحف اليومية في مصر وبعض الدول العربية" على عينة تكونت من (800) طالب جامعي في كل من مصر وتونس ، وليبيا ، واليمن بواقع (200) طالب من كل دولة ، بهدف معرفة الدور الذي تلعبه شبكات الانترنت في كل من مصر ، وتونس ، وليبيا ، واليمن في دعم حقوق المواطنين لتقرير مصيرهم من خلال ما تبثه من أخبار سياسية ، وفتحها طرق جديدة في التواصل الاجتماعي ، وألقت هذه الدراسة الضوء على العلاقة بين متابعة الشباب للأخبار التي تظهر على شبكة الانترنت ، وبين وعيهم السياسي المتمثل بمختلف الاهتمامات السياسية من نقاشات ، ومعرفة ، ومشاركة سياسية ، وأكدت النتائج أن لما تبثه شبكة الانترنت من أخبار سياسية تأثيرا إيجابيا عليهم ، حيث ساهمت في تنمية الوعي السياسي لديهم⁽⁴³⁾.

من خلال ما سبق نستنتج أن شبكات التواصل الاجتماعي ساهمت في التأثير على البعد المعرفي للثقافة السياسية في دول الحراك السياسي العربي ، وذلك من خلال نقل المعلومات والأخبار السياسية التي ساهمت بدورها في تنمية المعرفة والوعي السياسي لديهم ، كما أسهمت هذه الشبكات في التأثير على البعد السلوكي للثقافة السياسية في هاته الدول ، من خلال ؛ مساهمتها في رفع من مستوى مشاركة الأفراد في الحياة السياسية ، والعملية السياسية ، وبالتالي تحققت أبعاد الثقافة السياسية المشاركة ، ومنه أصبح أفراد المجتمع العربي يؤمنون بأنه بمقدورهم أن يؤثر في السياسات والقرارات التي تصدرها الأنظمة ، حيث أصبحوا على درجة عالية من الاقتدار السياسي والكفاءة والفاعلية السياسية ، مما جعلهم يشعرون بأهمية المشاركة السياسية ،

حيث أسهمت في حشد وتعبئة الجماهير سياسياً، وفي كسر حاجز الخوف لدى الشعب العربي، وعملت على فضح الأنظمة الحاكمة، من خلال المعلومات والأخبار والصور ومقاطع الفيديو التي تنشر عبر هذه الشبكات.

كما شكلت شبكات التواصل الاجتماعي أداة تدريبية للمجتمع العربي على الممارسة السياسية وخلقت وعي سياسي لديهم، وذلك من خلال إتاحة فرصة المشاركة لكل مستخدم لهذه التقنية والتعبير عن رأيه في مختلف القضايا، بكل حرية ودون خوف، الأمر الذي مكّنهم من إحداث تغييرات جوهرية في إدراكهم لكل القضايا، كما عززت لديهم أهمية المشاركة السياسية ودعم ثقافة المواطنة من خلال تعزيز انتمائهم الوطني، وتثقيفهم، وتقديرهم لحقوقهم، وواجباتهم في كافة المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ومنه يتضح لنا تأثير شبكات التواصل الاجتماعي على تحقيق الثقافة السياسية في دول الحراك العربي من خلال:

البعد المعرفي: ويتمثل في نقل ومشاركة الأخبار والأحداث والمعلومات السياسية، التي ساعدت على حشد وتعبئة الجماهير للخروج في احتجاجات والمطالبة بتغيير وتعزيز الديمقراطية، والتي بدورها ساعدت على زيادة وتنمية المعرفة والوعي السياسي لديهم بخصوص القضايا السياسية والقدرة على تشكيل آراء نحوها، وبخصوص العمليات السياسية وأهميتها، ومعرفة المواطن بما عليه من واجبات اتجاه وطنه والنظام السياسي، والتزام هذا الأخير بإعطاء المواطن حقوقه.

البعد السلوكي: حيث ساهمت شبكات التواصل الاجتماعي في تغيير مواقف واتجاهات جماهير الحراك إزاء قضايا وظواهر سياسية معينة، حيث ساعدت على القضاء على ثقافة الخوف التي كانت تعاني منه الدول العربية قبل الحراك، وساهمت في تحديد مستوى مشاركتهم في الحياة السياسية.

البعد الوجداني: ويتمثل في نقل القيم والمعايير والأفكار عبر شبكات التواصل الاجتماعي، والتي ساعدت المجتمع العربي على ترسيخ قيم الولاء والانتماء للوطن وللأمة لديهم.

لكن هذه الثقافة السياسية الجديدة لم تدم طويلاً بعد الحراك السياسي العربي، حيث سرعان ما عادت الأوضاع إلى ما كانت عليه من قبل.

من قبل من حيث؛ حرّيته وحجم انتشاره، إذ أنها أدت إلى نشر الوعي الديمقراطي والحرية والعدالة والمساواة⁽⁴⁵⁾.

فلا يمكن إنكار حالة الوعي السياسي التي تولدت نتيجة الحراك السياسي العربي، وتحقيق ثقافة سياسية نقول عنها أنها شبه مشاركة أثناء فترة الحراك، حيث ولدت فيما بعد ثقافة جديدة تتناقض مع الثقافة التي كانت سائدة من قبل، ونهاية مرحلة ثقافة الخوف، إلا أن هذه النتائج لم تدم فترة طويلة، بحيث تراجعت الحريات في تلك الدول، وأصبح مسألة تعزيزها وترسيخ المشاركة السياسية من الأمور الثانوية بالنسبة لهم، حيث إن الحراك السياسي العربي من خلال شبكات التواصل الاجتماعي لم يقض تماماً على كل ملامح المجتمع السلطوي التي كانت تتسم به معظم المناطق العربية، لأن السلطوية ليست مجرد نظام استبدادي ولكنها ثقافة تغلغلت في المجتمع العربي، وتسببت في الخوف من السلطة وغياب المعارضة، ناهيك عن الثقافة المنغلقة التي لازالت تعاني منها معظم الدول العربية التي تقوم على الانتماء وصلة القرابة والطائفة وعادة ما تظهر هذه الانتماءات في فترة الانتخابات المحلية، وهي ثقافة تعاني من قصور كبير ينتج عنها نظم استبدادية، في مجتمعات أصبحت تقوم على مبدأ الخضوع لعدم فيها المسؤولية ويتجه الأفراد نحو المشاركة في الأمور التي تؤثر في حياتهم اليومية فقط، وهو ما يوضح نقشي ثقافة سياسية تابعة حيث إن أفراد المجتمع العربي لا يمارسون أي تأثير في الموضوعات السياسية وإنما يتأثرون بها فحسب.

الخاتمة

من خلال ما سبق نستنتج أن:

شبكات التواصل الاجتماعي هي مواقع الكترونية تفاعلية تتيح التواصل والتعارف لمستخدميها في أي زمان ومكان، وتتيح لهم فرصة تبادل المعلومات والآراء، كما تتيح لمتصفحها إمكانية مشاركة الملفات والصور وتبادل مقاطع الفيديو، من بين هذه المواقع: "الفيس بوك" "تويتر" "فليكر"، من خلال؛ إجراء المحادثات الفورية، وإرسال الرسائل، وموقع "اليوتيوب" من خلال مقاطع الفيديو، وتعد هذه المواقع هامة ورئيسة لكونها أصبحت الوسيلة الأساسية لتبادل المعلومات، والأخبار الفورية في متابعة مسار وتطورات الأحداث، ليمتد تأثيرها ووظائفها لخدمة القضايا السياسية، لاسيما ما حدث في الحراك السياسي العربي،

الهوامش

1. علي عبد الفتاح كنعان ، الإعلام والمجتمع ، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2014 ، ص 170.
2. عبد العزيز الشريف ، الإعلام الإلكتروني ، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2014 ، ص 165.
3. مروى عصام ملاح ، الإعلام الإلكتروني: الأسس وآفاق المستقبل ، دار الإعصار العلمي للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2015 ، ص 246.
4. احمد قاسمي ، سليم جدي ، تأثير مواقع التواصل الاجتماعي على الأمن المجتمعي للدول الخليجية. برلين: المركز الديمقراطي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية ، 2019 ، ص 14.
5. عبد الرحمان بن إبراهيم الشاعر ، مواقع التواصل الاجتماعي والسلوك الإنساني ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، 2015 ، ص 67.
6. Serge Gutuirth , Yves Poulet , Paul De Hert , *Data Protection in a Profiled Word* . New York: Springer, 2010, p 119.
7. عبد الحلیم موسى يعقوب ، الإعلام الجديد والجريمة الالكترونية ، الدار العالمية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2014 ، ص 13.
8. Adeyink Tella , *Social Media Strategies for Dynamic Library Service Development* . USA: ALIS, 2015, P 286.
9. علي خليل شقرة ، الإعلام الجديد (شبكات التواصل الاجتماعي)، نبلاء ناشرون وموزعون ودار أسامة للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2014 ، ص 81.
10. عبد الرحمان يوسف سلامة ، "التجربة التونسية في التحول الديمقراطي بعد ثورة كانون أول 2010" ، رسالة ماجستير (جامعة النجاح الوطنية في نابلس بفلسطين ، كلية الدراسات العليا ، قسم التخطيط والتنمية السياسية ، 2016 ، رسالة منشورة) ، ص 12.
11. جيدور حاج بشير ، "أثر وسائل التواصل الاجتماعي في عملية التحول الديمقراطي في الدول العربية: دراسة مقارنة" ، أطروحة دكتوراه (جامعة محمد خيضر بسكرة ، كلية الحقوق والعلوم السياسية ، قسم العلوم السياسية ، 2017 ، رسالة منشورة) ، ص 89.
12. علي الزعبي ، السياسات التنموية وتحديات الحراك السياسي في العالم العربي: حالة الكويت ، سلسلة الإصدارات الخاصة ، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربية ، الكويت ، العدد 41 ، ماي 2015 ، ص 28.
13. عبير مجلي أبو دية ، "كامل خورشيد مراد ، الوظيفة السياسية لمنصات شبكات التواصل الاجتماعي: الحراك السياسي العربي أنموذجاً (دراسة ميدانية من وجهة نظر طلبة كلية الإعلام في جامعة الشرق الأوسط" ، 2017. متحصل عليه من موقع: <https://www.academia.edu/35666117> ، (2018/05/01) ، ص 10.
14. أميرة محمد محمد سيد احمد ، الإعلام الرقمي والحراك السياسي ، دار الكتاب الجامعي ، دولة الإمارات العربية المتحدة — الجمهورية اللبنانية ، 2015 ، ص ص 125 — 127.
15. المرجع نفسه ، ص 126.
16. Sertan Cinar , Ismet Gocer , "The Reasons and Economic and Political Consequences of Arab Spring" , *Khazar Journal of Humanities and Social Sciences*, University of Turkey , Vol 17 , No 2 , 2014 , P 40 .41 .
17. http://jhss-khazar.org/wp-content/uploads/2014/04/003Arab_Spring_ismet-sertan_4.pdf (12 / 05 / 2018)
18. Andrea Ansani , Vittorio Daniele , " About a revolution. The economic motivations of the Arab Spring" , University Magna Graecia of Catanzaro, *International Journal of Development and Conflict*, Vol. 3(3), 2012, P 6, 7 .
19. <http://www.vittoriodaniele.info/wp-content/uploads/2011/12/ArabSpring.pdf> (12 / 05 / 2018)
20. أميرة محمد محمد سيد احمد ، مرجع سابق ، ص 123 ، 124.
21. سعد شاكر شلبي ، التنمية السياسية ودورها في الاستقرار السياسي في الدول العربية ، دار زهران للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2015 ، ص 91.
22. ميلاد مفتاح الحراثي ، مبادئ علم السياسة المعاصر: مقدمة في المبادئ والمفاهيم والتفسيرات والموضوعات ، دار الكتاب الجامعي ، الإمارات العربية ، 2018 ، ص 103.
23. سمير العبدلي ، ثقافة الديمقراطية في الحياة السياسية لقبائل اليمن (دراسة ميدانية). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ، 2008 ، ص 50.
24. احمد سليم البرصان ، علم السياسة: المفاهيم والأسس — الدولة — السلوك السياسي — السياسة الدولية ، دار زهران للنشر والتوزيع ، الأردن ، 2014 ، ص 192.
25. عبد الله احمد العوالمة ، خالد حامد شنيكات ، "درجة وعي طلبة البلقاء التطبيقية بمفهوم الثقافة السياسية وأبعادها" ، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة البلقاء بالأردن ، المجلد 39 ، العدد 2 ، 2012 ، ص 228.
26. أمين مشاقبة ، الوجيز في المفاهيم والمصطلحات السياسية ، الجامعة الأردنية ، عمان ، 2015 ، ص 78.
27. عبد الله احمد العوالمة ، خالد حامد شنيكات ، مرجع سابق ، ص 228.
28. عبد الله محمد عبد الرحمان ، علم الاجتماع السياسي: النشأة التطويرية والاتجاهات الحديثة والمعاصرة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 2001 ، ص 440.
29. المرجع نفسه ، ص 440.
30. رعد حافظ سالم ، مبادئ الثقافة السياسية ، زمام ناشرون وموزعون ، الأردن ، 2012 ، ص 54
31. عبد الله محمد عبد الرحمان ، مرجع سابق ، ص 441.
32. المرجع نفسه ، ص 441.

33. هشام محمود الأقداحي ، السياسة والمجتمع (دراسة في علم اجتماع السياسة) . الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة ، 2016 ، ص 317 ، 318.
34. كمال المنوفي ، "الثقافة السياسية وأزمة الديمقراطية في الوطن العربي" ، مجلة المستقبل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد 80 ، أكتوبر 1985 ، ص ص 67 – 72.
35. أحمد سعيد نوفل ، أثر الربيع العربي على الثقافة السياسية ، مداخلة مقدمة في المؤتمر فيلاديفيا الدولي السابع عشر: "ثقافة التغيير" ، جامعة فيلاديفيا ، عمان 6 – 8 / 11 / 2012 ، متحصل عليه من موقع: <http://faculty.yu.edu.jo/ANufal/Lists/Published%20Research/Attachments/2.pdf> ، ص 5 ، 6.
36. عبد الجبار احمد عبد الله ، فراس كوركيس عزيز ، "دور شبكات التواصل الاجتماعي في ثورات الربيع العربي" ، مجلة العلوم السياسية ، جامعة بغداد ، العدد 44 ، ص 213 ، 214.
37. أميرة محمد محمد سيد احمد ، مرجع سابق ، ص 13 ، 14.
38. المرجع نفسه ، ص 25.
39. المرجع نفسه ، ص ص 25 – 35.
40. جيهان حسن أمين حسين ، مرجع سابق ، ص 99 ، 100.
41. سنان صلاح رشيد الصالحي ، "دور مواقع التواصل الاجتماعي في السياسة الدولية" ، مجلة اتجاهات سياسية ، المركز الديمقراطي العربي بألمانيا ، العدد الأول ، ديسمبر 2017 ، ص 73.
42. احمد سعيد نوفل ، مرجع سابق ، ص ص 7 – 13.
43. محمد سعيد عبد المجيد ، مهدوح عبد الواحد الحيطي ، شبكات التواصل الاجتماعي والثقافة السياسية للشباب الجامعي: دراسة ميدانية. متحصل عليه من موقع: <http://erepository.cu.edu.eg/index.php/ARTS-Conf/article/view/5153> ، (25 / 06 / 2018) ، ص 265 - 266 .
44. محمد سعيد عبد المجيد ، مهدوح عبد الواحد الحيطي ، مرجع سابق ، ص 270 – 271.
45. ملوح السليحات ، "انعكاسات ثورات الربيع العربي على الوعي السياسي لطلبة الجامعات الأردنية في إقليم الوسط" ، مجلة المنارة للبحوث والدراسات ، جامعة آل البيت بالأردن ، المجلد 20 ، العدد 1 ، 2014.
46. كلية دبي للإدارة الحكومية ، "تقرير الإعلام الاجتماعي العربي: واقع الإعلام الاجتماعي في العالم العربي: عامان بعد الحراك الشعبي" ، ماي 2013 ، ص 5. متحصل عليه من موقع: <https://www.mbrsg.ae/home/publications/research-report-research-paper-white-paper/arab-social-media-outlook-2014.aspx?lang=ar-ae> . تاريخ الاطلاع: 15 / 01 / 2017.
47. عبد الجبار احمد عبد الله ، فراس كوركيس عزيز ، مرجع سابق ، ص ص 220 – 222.

ثقافة السلامة المهنية: مقاربات سوسيو-تنظيمية

The professional culture of safety: socio-organizational approaches

تاريخ القبول: 2019-12-18

تاريخ الإرسال: 2018-12-17

جمال الدين عاشوري، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

djamelisso@hotmail.com

المخلص

تعالج مختلف العلوم على غرار الأروغونوميا، وعلم نفس التنظيم والعمل موضوع السلامة المهنية مفصولا عن ثقافة المجتمع الخارجي، وثقافة التنظيم. بهذا فإن تعرض الإنسان لمخاطر إصابات العمل، والأمراض المهنية مازال يهدده، على الرغم من توفر المؤسسات على لجان الوقاية والأمن، وعملها على تدريب العمال. والسبب في ذلك راجع إلى غياب الاهتمام ببناء ثقافة سلامة إيجابية بالمؤسسة. تتطرق هذه الورقة البحثية بالدراسة والتحليل إلى مفهوم بثقافة السلامة المهنية، على اعتبار أن السلامة فعل اجتماعي يلزم الفرد في حياته اليومية، ويتأثر بمجموع القيم الثقافية والمعايير الاجتماعية. لذلك فالحاجة العلمية والعملية تدفع إلى الاقتراب من الموضوع من زاوية سوسولوجيا التنظيم والعمل، لتحقيق الفهم الجيد للموضوع، ومحاولة حصر ما يحيط به من متغيرات تؤثر فيه. خلصت الدراسة إلى أن تحقيق الفهم التكاملي لموضوع ثقافة السلامة المهنية يستوجب الاقتراب من الموضوع من زوايا سوسولوجيا التنظيم المختلفة، كون الموضوع متشعب ومتداخل مع متغيرات عديدة، يستدعي الاقتراب في وضعية التفاعلات الفردية (الجزئية) والجماعية (الكلية).

الكلمات المفتاحية: ثقافة السلامة المهنية، الثقافة التنظيمية، السلامة المهنية، المقاربة السوسولوجية.

Résumé

Malgré la surveillance sur l'application des mesures de sécurité nécessaires, l'exposition humaine aux risques d'accidents au travail encore menacés. Cela est dû au manque d'intérêt à créer une culture de sécurité positive dans l'organisation. Cet article va prendre le concept culture de la sécurité professionnelle considéré comme un fait social qui accompagne l'individu dans sa vie quotidienne. Cet acte étant influencé par des centaines valeurs culturelles et normes sociales. C'est pour cela qu'il est nécessaire d'approcher au sujet à partir des paradigmes socio-organisationnel pour bien comprendre le sujet, et bien adapter les variables approches. Pour avoir une compréhension intégrée au sujet de la culture de la sécurité au travail -d'après cette étude-, il est nécessaire d'utiliser les différents approches de la sociologie de l'organisation. Le fait que le sujet soit complexe et se croiser de nombreuses variables, se oblige de l'approcher à l'interaction individuelles et collectives

Mots-clés : Culture de la sécurité professionnelle, culture de l'organisation, sécurité du travail, approche sociologique.

Abstract

Despite monitoring the application of the necessary safety measures, human exposure to the risks of workplace. This is due to the lack of interest in creating a positive safety culture in the organization. This paper examines a culture of occupational safety, because safety is a social work that accompanies the individual in his daily life and is influenced by the sum of cultural values and social norms. Therefore, the scientific and practical need leads to approaching the subject from the point of view of sociology of organization, in order to achieve a good understanding of the subject, and to try to reduce the variables that surround it. This study concluded that achieving an integrated understanding the culture of occupational safety requires approaching the topic from different organizational sociology angles, as the subject is complex and overlapping with many variables, requiring approach in the position of individual and collective interactions.

Keywords: Professional culture of safety, organizational culture, occupational safety, sociological approach.

مقدمة

لموضوع السلامة المهنية، تقوم على افتراض أنها تمتد إلى المراحل الأولى من النشئة الاجتماعية، لتثبت وتدعم وفق الثقافة التنظيمية السائدة بالمؤسسة المستخدمة، بهذا فالمقاربة السوسيو تنظيمية للموضوع تأخذ بتفاعل متغيرات السلامة ضمن البيئة الاجتماعية الداخلية والخارجية.

على الرغم من كون السلامة أو ما يعرف بالأمن في مفهومه الشامل فعلا اجتماعيا، إلا أنه لم يأخذ له مكانة بين مواضيع السوسولوجيا الكلاسيكية والحديثة، الإمبريقية والنظرية، فقد عرف هذا الموضوع اهتمام وتشخيص مختلف العلوم بمعزل عن البعد الاجتماعي، والمقاربات السوسولوجية التي تتوفر على أدوات منهجية، تشكل قالباً تحليلياً يبين أبعاده وتشعباته الاجتماعية، وكيفية تفاعلها فيما بينها في صورتها الجزئية التفكيكية، وبين المتغيرات الاجتماعية الأخرى في الصورة الكلية للمجتمع حسب سياقاته المكانية والزمنية.

يشير التراث السوسولوجي إلى أن الاهتمام بالمواضيع الواقعية والمستحدثة، يتيحها الخيال العلمي الاجتماعي (السوسولوجي) الذي يتميز به علماء الاجتماع؛ إذ أنهم يبدعون حسب الأمريكي رايت ميلز Wright Mills's أدوات منهجية وتحليلية تمكنهم من معالجة المواضيع الاجتماعية وفق طروحات جديدة، تضي فيها أعماق للظواهر المحيطة بالإنسان بتسليط الضوء على معانيها ودلالاتها، لتجعل من المشكلات الفردية متاعب بحثية تثير الباحث السوسولوجي، وتدفعه إلى استرداد ما يتعلق بها¹. ففهم الفرد لا يمكن أن يتم بمعزل عن الأفراد الآخرين، وبمعزل عن البناء الاجتماعي الذي يتواجد فيه. هذا الربط بين الفرد والبناء تتيحه القدرات العقلية للباحث. على هذا المنوال ينبغي للاجتهادات السوسولوجية الراهنة أن تكون أكثر تفتحاً على الواقع، وأكثر تحراً من "الطقوسية المعرفية" على حد تعبير النمساوي بول فيرابند²؛ فالراهن يشهد ظهور المواضيع الجديدة، التي تستدعي الدراسة الآنية قبل التفاهم والتزاحم الموضوعاتي. حينها يستحيل على الباحث الاجتماعي فهم الجديد بمعزل عن الجذور الأولى للظواهر.

عملية البناء الموضوعاتي تستدعي تحديد الهدف منه (فهم وتحليل ثقافة السلامة المهنية، والتعرف على أبعادها

يحوز موضوع السلامة على اهتمام عديد المؤسسات الدولية والوطنية، مضافة إلى قطاعات مختلفة، على غرار السلامة المهنية والمرورية والسياحية والملاحية وغيرها. هذا الاهتمام ولید الحاجة الملحة للتخلص من المخاطر التي تهدد البشر والطبيعة والممتلكات، فنسبة من هذه الأخطار يكون مصدرها الإنسان لجهله أو إهماله. بهذا يكون التعريف بالسلوكيات الخاطئة والمضرة بالنفس وبالغير، وبمصادر الخطر، وطرق التعامل معها؛ سبيلاً للتقليص منها أو استبعادها بالأساس. ولتزايد الحاجة إلى الأمن والسلامة، تعددت التخصصات العلمية التي تهتم بالسلامة في مجالات مختلفة. فظهرت السلامة المرورية، والفكرية، والمهنية، بل إنها طالت كل الإنجازات البشرية المادية وغير المادية حتى تحولت في بعض المجتمعات إلى ثقافة حياة، تتجلى في مختلف الممارسات في الطريق والسوق والعمل.

إن الفهم والتفسير الجيد والمنطقي لهذه الثقافة تتيحه المداخل النظرية، التي تمثل المرجعية التصورية والميدانية للبحث، وتبعا لهذه الأهمية سنتعرض لبعض المداخل النظرية التي وقع الاختيار عليها لاقترابها من موضوع ثقافة السلامة المهنية. ونظرا لحداثة الموضوع فقد واجهتنا صعوبة استنباطه من التراث السوسيو-تنظيمي، الذي لم يتناوله بصفة مستقلة ومباشرة، إلا ما وقع في خضم التنظير لثقافة التنظيم.

أولاً: إشكالية الدراسة

ظل موضوع السلامة المهنية حبيس التنظيرات والدراسات التقنية، التي تنظر إلى التعليمات والتوجيهات الوقائية كقواعد وحركات جافة، يكفي تعليمها للعمال أو للمتربصين منهم للتعامل تقنيا مع المخاطر أو الزملاء لتفادي الإصابات أو الحوادث على غرار علم السلامة المهنية والأرغونوميا؛ إلا أن الإثباتات الميدانية ما فتئت تبين عدم كفايتها (التوجيهات والقواعد) لعدم استنادها لتصورات اجتماعية موحدة وقيم وعادات وتقاليدها، تؤيدها السلوكيات والممارسات اليومية للأفراد باختلاف مراتبهم الاجتماعية أو الوظيفية، فهذا التعدد والتباين يدفع إلى طرح مقاربات

مشكلات اجتماعية؛ كالبطالة، والجريمة، والمرض، والتي تكون مؤثرة بشكل مباشر أو غير مباشر- في السلامة، من خلال رؤية الفاعلين المحليين³. وعلى هذا فالتداول المجتمعي للسلامة يتعدد ويختلف من مجتمع إلى آخر، وتتدخل فيه عدة عوامل، وهو شامل لجميع نواحي الحياة اليومية.

تعددت تعاريف السلامة المهنية بحسب أهميتها بالمؤسسات والآليات المتبعة لتفعيلها، حيث يتداخل مفهوم السلامة مع مفاهيم أخرى، إذ يعتمد بعض الدارسين لاستبدال مفهوم السلامة الصناعية بالأمن الصناعي في الأوساط المعرفية، إلا أن مفهوم الأمن يظهر عليه شيء من الاختصار لأنه يدل على الهدف ولا يدل على الفعل، كما أن الترجمات المتأخرة للفظ "sécurité" بالفرنسية يقابله في اللغة العربية لفظ "سلامة" لأن هذا المفهوم يبدو عليه الشمولية والجمع بين مفهومين أساسيين هما: الأمن والصحة معا، لتكون السلامة الصناعية بذلك برنامجا يضم نظامين متكاملين هما الأمن المهني الذي يوفر وقاية للموارد البشرية من أخطار العمل، والتأمينات الاجتماعية التي توفر رعاية وحماية ضد الأخطار المختلفة التي يتعرض لها العامل في موقع العمل⁴. فالسلامة المهنية حسب سعيد السالم تتضمن معنى الحرص على توفير الأساليب والآليات الفعلية التي يتم من خلالها حماية العمال قبل وقوع حوادث العمل والأمراض المهنية، وبعد وقوع حوادث العمل كذلك عن طريق توفير الرعاية الصحية والاجتماعية وإحساس العامل بالأمن الوظيفي الذي يجعله في راحة نفسية تجاه مستقبله.

ظهر حديثا مفهوم أوسع من مفهوم السلامة المهنية أو السلامة في العمل عموما، كونه يتعدى البعدين السابقين - حماية الموارد وتوفير الرعاية-الذين يشير إليهما مفهوم السلامة المهنية؛ وهو حفظ الصحة والسلامة والبيئة المترجم عن اللغة الانجليزية Health Ssecurity and Environment بالحفاظ على البيئة الخارجية لمحيط المصنع، والاستغلال غير العقلاني للموارد الطبيعية دون الإخلال بتوازن الطبيعة، والمساومة في حق الأجيال اللاحقة... وقد جاء مفهوم السلامة مقرونا في بدايات ظهوره بالصناعة (الأمن الصناعي) لأنه كان وليد الثورة الصناعية التي نتج عنها حوادث عمل وأمراض مهنية خطيرة جدا، وامتد تأثيرها السلبي إلى المجتمعات الريفية، ناهيك عن الحضرية، وأوجدت نمطا

ومكوناتها)، واختيار أرضية البناء المناسبة (طبيعة المؤسسة محل الدراسة، ونوعية متغيراتها التنظيمية)، وتوزيع المهام على الفاعلين في العملية (الفرد/ الجماعة، والمؤسسة، والحكومة، ومؤسسات التنشئة الاجتماعية)، وتحديد نوع الأدوات المنهجية المناسبة (المقاربات النظرية).

تعتنى السوسولوجيا بموضوع الثقافة كونها الموجه الكبير للفعل الاجتماعي، والمفسر لكثير من الظواهر الاجتماعية القديمة والحديثة، وبعد التسليم بتعدد وتنوع الثقافات انشغلت حقول علم الاجتماع بالثقافات الفرعية، فعلم اجتماع التنظيم والعمل يتناول بالدراسة والتحليل موضوع ثقافة السلامة المهنية وفق المنظور التفاعلي والمغلق، بذلك مقاربات سوسولوجيا التنظيم تحاكي في تنوعها اختلافات الظاهرة بين المجالات المكانية والزمانية والمجتمعية، فما هي ثقافة السلامة المهنية؟ وما هي دواعي اهتمام السوسولوجيا بهذا الموضوع؟ وأي المداخل أقرب لفهم ثقافة السلامة المهنية؟

ثانيا: بحثنا عن تعريف لثقافة السلامة المهنية

يعتبر هذا المفهوم المركب من المفاهيم الحديثة نسبيا، لذلك يصعب الإجماع على تعريفه، ويمكن القول أن المبادرات الأولى في تحديد أبعاده قد تمت بمعزل عن الإسهام السوسولوجي، فالأمن أو السلامة كمفهوم قد هيمنت عليه المقاربات السياسية والعسكرية التي اختزلت غالبا مفهوم الأمن في القوة، وتجنيد الأفراد (وتسليحهم) لحماية الحدود السياسية للبلدان من التهديدات الخارجية (الاجتياحات العسكرية خصوصا)، لذلك جاءت تعريفات الأمن أو السلامة ضيقة، واختزالية لأبعد الحدود لبعض عناصر السلامة. وهو ما يستدعي الاستدراك لتقديم تعريف أكثر اتساعا مضافا إلى مفهوم الثقافة.

للسلامة معنيين: الأول محدّد في الخطاب والممارسة ويتجسد في تبرير السياسيين لتقليص الحريات المدنية باسم الأمن القومي، وعندما تقوم المدارس بتركيب أجهزة الكشف عن المعادن لتفتيش من يدخل إليها، وتثبيت كاميرات المراقبة عبر طرقات المدرسة باسم أمن الطلاب؛ أما المعنى الثاني فيحمل دلالات أوسع نطاق من الأول، كونه مجموعة متنوّعة من الظواهر المتعلقة بالفهّات الثقافية للسلامة، والأمان، والفوضى، وانعدام الأمن ودمج هذه الظواهر مع

بأوكرانيا، والناجمة عن التسريبات والانفجار النووي الحاصل بالمحطة، ومنذ ذلك الحين عمدت المنظمات والباحثون إلى تطوير هذا المفهوم من خلال تطبيقه على نطاق أوسع في صناعات غير نووية، وربطه بالحاجة إلى نهج وقائية للصحة والسلامة المهنتين، وبالجوانب الإنسانية والسلوكية، لإدارة فعالة للسلامة والصحة المهنتين⁷.

قدم مكتب العمل الدولي من جهة أخرى تعريفاً لثقافة السلامة بكونها "الثقافة التي يكون فيها الحق في بيئة عمل آمنة وصحية محترماً على جميع المستويات، وتشارك فيها الحكومات وأصحاب العمل والعمال مشاركة نشطة لضمان بيئة عمل آمنة وصحية من خلال نظام من الحقوق والمسؤوليات والواجبات المحددة، ويمنح فيها مبدأ الوقاية أولوية قصوى. ويقتضي تكوين وضمون ثقافة وقائية للسلامة والصحة استخدام جميع الوسائل المتاحة لزيادة الوعي العام والاطلاع على مفاهيم المخاطر والأخطار وفهمها ومعرفة طريقة منعها أو السيطرة عليها"⁸. يضيف هذا التعريف على أصحاب العمل والعمال، الحكومة كفاعل رئيس في الترويج لثقافة السلامة بالمنشآت؛ حيث تحترم بيئة العمل الصحية والأمن، وتضمن الوقاية والحماية عن طريق وضع القوانين والقواعد لتلافي وقوع الحوادث، وهي تتشكل لدى الأفراد بالتعريف المستمر لمخاطر العمل وسبل الوقاية منها.

أما عبد الله الصعيدي فعرف ثقافة السلامة المهنية بأنها: "جمع اجتماعي من القيم والأعراف والاتجاهات والسلوكيات المشتركة وذات الإجماع الاجتماعي، والتي تضبط أنماط السلوك الاجتماعي، وتكون قوة مؤثرة في ضبط الأفراد، وتعزيز امتثالهم ومماراتهم لأعراف المجتمع وقوانينه، ومقاومة من يخرج على الإجماع الاجتماعي، وذلك بقصد تحقيق الاتزان الأمني في المجتمع"⁹. ثقافة السلامة المهنية وفق هذا التعريف ذات طابع اجتماعي بحث، يلغي إمكانية تشكل الثقافات الفرعية المضادة عند الجماعات الثانوية أو الأفراد، كما أن تحقيق الأمن وفقه يتحقق بمجرد إجماع المجتمع على محددات السلوك ومعاييرها، ليتقوقع حولها ويلقي كل أشكال التغيير والتفاعل الثقافي.

تأسيساً على التعريفات السابقة فإن ثقافة السلامة المهنية هي مجموع القيم والتصورات والعادات والطقوس والسلوكيات المتعلقة بالوقاية من أخطار المهنة (إصابات

جديداً في العلاقات الاجتماعية في المجتمعات الصناعية. فالعمال المتوجهين من الزراعة إلى الصناعة غير مدربين على طريقة التعامل مع الآلات، ولا يعلمون بتأثير الظروف الفيزيائية السيئة التي يعملون فيها على صحتهم أو لعدم وجود بدائل عمل أخرى.

بعد ظهور المؤسسات الخدمية، وعودة بعض الحرف اليدوية، والمؤسسات الفلاحية إلى ساحة المنافسة، ظهرت مهن جديدة، وأوجدت معها مخاطر مهنية جديدة تستدعي التعريف بها، وتدريب الأفراد على طرق التصدي لها والتعايش معها، وأخذاً بهذه المتغيرات، فالسلامة في العمل لم تبق مقتصرة على العمل في المصانع، وإنما هي متعلقة بكل نشاط إنساني يتفاعل بموجبه الإنسان مع المحيط الطبيعي والمادي. والسلامة المهنية هي الكفيلة بحماية العامل في بيئة العمل باختلاف طبيعة النشاط الذي يزاوله (حرفة أو فلاحاً أو خدمات أو صناعة).

عرف عالم الاجتماع الأمريكي إيمانويل والرستين Ammanuel Wallerstein الثقافة⁵ بأنها: "مجموعة من المقدمات المنطقية أو الفرضيات (الافتراضات) والممارسات المشتركة، ليست مشتركة بالضرورة بين كل أفراد المجموعة في كل وقت، ولكن مشتركة بين معظم الأفراد في معظم الأحيان، والمشاركة هنا يجب أن تكون علنية. غير أن الأهم من علنيتها أن تكون لاشعورية؛ إذ قلماً تكون هذه الفرضيات محل نقاش أو خلاف"⁶.

يغطي هذا التعريف أبعاداً هامة للثقافة هي:

1. أنها تتضمن التصورات والممارسات التي تكون علنية ولاشعورية، حتى تنشأ عليها الجماعة لتكون محل إجماع.
2. أنها تكتسي طابع التشاركية بين معظم أفراد المجتمع في وقت من الأوقات.
3. التسليم بوجود التغيير الثقافي، وإمكانية حدوثه في أي وقت.
4. أن هناك ثقافة عامة (مهينة)، وثقافة فرعية محتواة ضمنها.

بدأ استخدام مفهوم "ثقافة السلامة" على المستوى الدولي في أعقاب تقرير أعدته الوكالة الدولية للطاقة الذرية في عام 1991 بعد حادثة تشيرنوبيل يوم 1986/04/26

إن الاهتمام بموضوع الأمن يؤسس له أولريش بيك Ulrich Beck عند معالجته في كتاب "مجتمع المخاطر العالمي: بحثا عن الأمان المفقود"¹² لمشكلة الأمن الشامل، وقد ظهر مفهوم السلامة المهنية مواكبا لمستجدات الأعمال والمهن الجديدة، وتوسع ليشمل جميع المهن والقطاعات الإنتاجية والخدمية، بل وحتى الحياة اليومية للأفراد. وفي المرحلة المعاصرة توسعت أبعاد ودلالات السلامة، لتشمل حماية الأفراد صحيا، ونفسيا، واجتماعيا لتحقيق الرفاه، وحماية الموارد المادية من التلف وحماية الموارد الطبيعية من النفاذ، لضمان بقاء التوازن الأيكولوجي، وحماية حق الأجيال اللاحقة، وحماية بيئة العمل، والبيئة الطبيعية من التلوث، وكذا حماية المنشأة ككل من كل التهديدات الخارجية كعمليات التخريب والنهب والسرقة. إن هذه الحماية تكفلها القوانين التي تشرعها وتشرف على تطبيقها مختلف الهيئات الدولية والمحلية، والفاعلين الميدانيين من المنظمات المختلفة النشاط الإنتاجي من خلال التخطيط لبرامج السلامة المهنية التي تحقق الحماية التامة لوسائل الإنتاج البشرية والمادية، وتشرف الحكومة على الرقابة على تطبيق هذه البرامج والالتزامات القانونية من خلال دورها المتخصصة؛ فمفتشية العمل على سبيل المثال تقوم بالمراقبة والتفتيش الميداني لمدى التزام أرباب العمل بتوفير مستلزمات الوقاية والأمن، وتوفير بيئة عمل صحية¹³.

تشرف إدارة متخصصة في كل تنظيم على ما يتعلق بصحة العمال وسلامتهم، وهي مقسمة إلى وحدات وفروع بحسب حجم المؤسسة وطبيعة نشاطها، تعمل جاهدة في اتصالها الدائم بأعضاء التنظيم لغرس ثقافة سلامة إيجابية. يجب الإشارة هنا إلى نقطة مهمة مؤداها أن تحقيق هذه الأخيرة لا يتأتى بمجرد إنشاء خلية تنظيمية أو توفير معدات الوقاية والأمن، بل تحتاج إلى خطوات عملية علمية، وتنطبع مدة زمنية متفاوتة حتى تصبح تشاركية، ويتم تثبيتها، وتنطبع في سلوكيات الأفراد وممارساتهم اليومية.

يهتم علم اجتماع التنظيم والعمل بثقافة السلامة المهنية لاعتبارها موضوعا متشعبا في علاقته بعدد المتغيرات التنظيمية، ويمكن المنظمات من إعداد برامج الوقاية والأمن التي تتوافق مع ثقافة عناصرها البشرية، ليحصل التحكم في المخاطر المختلفة (الحوادث والإصابات المهنية)، فهذه

العمل، والأمراض المهنية، والتلوث)، وتتجلى في الممارسات اليومية اللاشعورية للأفراد والجماعات، لتصبح بحكم التكرار من سمات أفراد التنظيم، المميزة لهم عن غيرهم، عن طريق استعمال أساليب التنشئة التنظيمية المتاحة كالتكوين، والتدريب، والأيام التحسيسية، وكل ما من شأنه تنمية الوعي الوقائي لدى الأفراد الفاعلين في التنظيم.

ثالثا: أهمية الاهتمام بثقافة السلامة المهنية في

المؤسسة

تمت الإشارة في المقدمة إلى أن لموضوع ثقافة السلامة المهنية امتدادا عميقا، يكاد يمس جميع المؤسسات الاجتماعية باختلاف نشاطاتها، إنتاجية كانت أو تربية أو قضائية أو تكوينية. لهذا الامتداد علاقات تأثيرية عكسية. فلو أخذنا على سبيل المثال مؤسسات التربية باعتبارها أحد أهم المؤسسات الاجتماعية صناعة للثقافة بالمجتمع، فإنها ترسم معالم ثقافة السلامة الإيجابية، وإذا ما تحقق التكامل بين مؤسسات المجتمع يمكن أن تسهم المؤسسات الاقتصادية والصناعية في إعداد برامج التعليم وفقا لما يتوافق وثقافتها التنظيمية، والمصلحة العامة للمجتمع ككل.

اهتمام علم الاجتماع بالعلاقات الاجتماعية هو الذي قاد الفرنسي جورج فريدمان Georges Feridman إلى دراسة المشكلات الإنسانية المتعلقة بالآلات الصناعية، ووجهة العمل الإنساني في خضم التطور التكنولوجي الذي أفرز مخاوف جليلة في الوسط العمالي. كما حاول توضيح موقف علم الاجتماع من كل هذا في خمسينيات القرن الماضي¹⁰، وتطرق أيضا إلى العلل المتعلقة بتقسيم العمل، إلا أنه لم يتطرق إلى سؤال الثقافة أو الهوية بشكل مدقق في المصطلح، وهنا نطرح كما يقول سانسوليو Renaud Sainsaulieu موضوعا بحثيا أكثر تعقيدا، كون المؤسسات المعاصرة تستدعي التحلي بذكاء إضافي لفهم السؤال المعاصر حول الهوية ضمن الإنتاج¹¹، فالهوية الثقافية من حيث هي سمات، والقيم والاتجاهات المشتركة بين أعضاء التنظيم الواحد، والتي تميزه عن غيره من المنظمات، تحتاج إلى مهارة كبيرة للتعرف الميداني على مكونات هذه الأبعاد، فما يؤثر على الأدوار والعمليات التنظيمية بشكل كبير هو الثقافة التي يكون توجيهها للسلوك في الغالب غير ظاهر.

بالجماعات غير الرسمية، ولا يمكن بحال إغفال تأثير هذه الثقافات الخاصة على سلوك الأفراد داخل التنظيم.

اهتمام علم الاجتماع بثقافة السلامة المهنية ينطلق من كونها عملية اجتماعية تفاعلية، سواء كان ضمن عملية تفاعلية تسبق تنصيب العامل بالمؤسسات كعملية التعليم والتنشئة التي تتم في الأسرة والمجتمع ومؤسسات التربية والتعليم والتكوين، أو كما صوره بعض علماء الاجتماع في اتصال الإنسان مع الآلة التي يعمل عليها، أو تفاعل العامل مع زملائه أو مع الإدارة. دراسة ثقافة التنظيم بهذه الطريقة تأخذ بتأثير وتأثر البيئة الخارجية بالتنظيم. أما المقاربات الثانية فهي التي تتناول ثقافة السلامة المهنية كعملية تنظيمية محضة؛ تعكس فلسفة وقيم المؤسسة دون تأثير المجتمع فيها. وسيستغل هذا العنصر بالمقاربات الأولى.

حدد فيبر موضوع علم اجتماع العمل في موضعين رئيسيين: يدور الأول منهما حول تحديد كيفية دخول العمال ميدان الصناعة، أما الثاني فيتحدّث حول الظروف الموضوعية التي يواجهها أولئك العمال داخل المؤسسة، في تفاعلاتهم اليومية فيما بينهم، وبينهم وبين الإدارة، والظروف التي يعملون فيها، فالحياة المهنية داخل المصنع -إذا ما تجاوزنا طرح فيبر- يميزها التفاعل بين عناصر التنظيم المادية والبشرية، والتنظيم والبيئة الاجتماعية الخارجية التي تحيط به.

تحدد نوعية حياة العمل في بعض زوايا طرح فيبر مع ما قدمه كاست وروزوايغ James & Kast Fremont E. Rosenzweig من أنها تظهر في ثلاثة مستويات تتمثل في الأفراد، والمديرين، وجماعات العمل. فعلى مستوى الأفراد نجده في ديمقراطية (تشاركية) الإدارة، وتزايد فاعلية العاملين للمشاركة في اتخاذ القرارات. أما على مستوى المديرين، فيعبّر عنه بالجهود الرامية إلى زيادة الإنتاجية من خلال تحسين نوعية العلاقات الإنسانية، والحياة الاجتماعية. أما بالنسبة للمستوى الثالث -مستوى جماعات العمل- فيتعلق بالمشاركة العادلة في الدخل والمكافآت وظروف العمل الجيدة، فضلا عن السلامة المهنية للعاملين في العمل، وروح العمل كفريق متكامل¹⁶.

الأخيرة في بعض الأحيان تكون مقبولة ضمن القيم الثقافية للمجتمع واتجاهاته، فمهنة السياقة مثلا توجهها بعض القيم الجمعية لدى السائقين الجزائريين كما بينت الدراسة الميدانية التي أجرتها فرقة بحث في جامعة الجزائر؛ "أين وجدت أن عدم احترام قوانين المرور أصبحت كعادة طبيعية مقبولة لدى أغلبية الناس، وهناك عوامل عديدة تساهم في تعزيزها وانتشارها"¹⁴. فالواجب دراسة هذه العوامل والتعريف بها وبخطورة مخالفة القوانين أو التصرفات الخطيرة أثناء استعمال الطريق¹⁵.

إن الغاية الجوهرية من أي بحث علمي هي تحقيق المنفعة العملية، وتحصيل المعرفة العلمية، وهذا الموضوع شامل للمنفعتين مجتمعيتين؛ فعلميا يسمح التعريف بقيم السلامة لدى الأفراد، ومواقفهم تجاهها وممارساتهم بالاقتراب أكثر من حقيقة الظواهر الاجتماعية، وابتكار تقنيات بحثية أكثر اقترابا من الموضوع، لتحقيق التراكمية المعرفية؛ أما عمليا فالإحاطة بالمؤثرات الفعلية في سلوك الإنسان تتيح التنبؤ بسلوكه، وإمكانية توجيهه أو التغيير في ثقافته المتعلقة بالسلامة، لتتوافق وثقافة المؤسسة، لكي لا يحدث تعارض ثقافي قد يتحول إلى صراع.

تقادي ما من شأنه تشكيل ثقافات مضادة لدى أعضاء التنظيم الواحد يتحقق بواسطة التأصيل للمشكلة التي تعترض عمليات التسيير، والوقوف على المقاربات النظرية التي تقدم نموذجا جاهزا للفهم، والعنصر الموالي تفصيل في هذا الشرط الأخير، كمحاولة لتقديم بعض أدوات التحليل النظرية لدراسة موضوع ثقافة السلامة المهنية.

رابعاً: ثقافة السلامة المهنية في ضوء

السوسولوجيا التنظيمية

اهتمام سوسولوجيا التنظيم والعمل بموضوع ثقافة السلامة المهنية -لاعتباره مشتملا على البعد الفني والتنظيمي في آن واحد- متعلق بأهمية الموضوع في حد ذاته على المستوى العملي في أماكن العمل، وما يثيره من قضايا نظرية وعلمية تستدعي الدراسة. فعلم اجتماع التنظيم والعمل ينظر إلى هذا الموضوع من زاوية تأثيره وتأثيره على عدة متغيرات من داخل التنظيم ومن خارجه، من منطلق أن العمال لا يصلون إلى المؤسسة مجردين ثقافيا، بل هم يحملون إليها في بعض الحالات ثقافات مهنية، وأحيانا أخرى ثقافات خاصة

1. نظرية الاتفاق البنائي

يقر أصحاب هذا الاتجاه بوجود مؤثرات ثقافية بديلة في المجتمعات المعقدة، أين توجد معايير وقيم تنافس بعضها البعض، وحتى داخل التنظيمات غير العائلية، فممارسات الوقاية الصحية كغسل اليدين مثلاً قبل كل تناول للوجبات ينظر إليها لدى بعض الفئات على أنها سلوك واع وحضاري لتجنب الأخطار الصحية، بينما قد يقيّمها آخرون على أنها من قبيل والمبالغة، وفي أسوأ الأحوال قد ينظر إلى هذا السلوك على أنه دليل على الإصابة بالوسوسة.

النظام الاجتماعي في المجتمع هو نتيجة توافق بين أعضائه حول كيفية التصرف، والأشياء التي تكون موضع تفكير. وعلى الرغم من الاختلافات الثقافية بين الجماعات المختلفة، ووجود الفئات الثقافية المعارضة، الموجودة في الثقافات الكلية؛ إلا أنه يغلب التوافق الكلي. هذا لأن كل المجتمعات تمتلك قيماً معينة حول الأهمية التي لا يختلف عليها أحد، وتسمى هذه القيم بالقيم المركزية أو المحورية التي تضمن الترابط الاجتماعي¹⁹.

2. المقاربة التفسيرية ذات البعد الثقافي

ظل الاهتمام بالجانب التقني كمؤثر على الإنتاجية مهمنا على الدراسات التنظيمية فترة زمنية طويلة، إلى حين بروز مجموعة من الرواد المعاصرين الذين أخذوا يدرسون تأثير العامل الثقافي على المردودية، والتسيير الفعال للموارد البشرية حسب ما تقضيه مصلحة المؤسسة، مع مراعات الخصوصية الثقافية للأفراد.

أسس كل منديل Deal وكندي Kennedy، وبيتر Peter وويترمان Waterman تحليلهم من خلال النموذج الإرشادي الوظيفي للثقافة التنظيمية، وقد راح لديهم هذا المفهوم الذي يتكون حسبهم من القيم والمعتقدات ومعايير السلوك، وترتبط في نشأتها وتشكيلها بتاريخ المؤسسة، وتظهر في الإنتاج الهادي والرمزي. فهي تعبر عن الحقائق التي تكوّن السمات الثقافية لمؤسسة ما²⁰.

يعتبر الفرنسي رينو سانسوليو Renaud SainSaulieu من المؤكدين كذلك على ضرورة الاهتمام بالتحليل الثقافي للمؤسسات، لفهم حقيقة الظواهر التي تحدث داخلها، وهو كثيراً ما يدعو من خلال مؤلفاته "علم اجتماع العمل"، و"الهوية في العمل"²¹ إلى ضرورة الاهتمام بالضوابط الثقافية المتجذرة في عمق السلوكيات الفردية والجماعية داخل

تؤكد النظرية على التنشئة الاجتماعية كعملية يتم من خلالها تكريس التوافق الاجتماعي، والانطباع المشترك بين أفراد المجتمع الواحد بسبب تهيئتهم اجتماعياً وفق قواعد ومعايير موحدة.

تحدد القواعد الثقافية للمجتمع سلوك أعضائه، وتقوم تلك القواعد بنفس الطريقة التي يشكل بها البناء الخارجي لمبنى معين من تصرفات الأشخاص الذين يسكنونه¹⁷، فالسلوك التنظيمي بأي مؤسسة سيكون له أنماطه التي ينتظم فيها، وإذا ما أجرينا عملية تفكيكية عليه فسوف نجد خصوصية سلوك الجماعة عن الأخرى من نفس المؤسسة عند وجود اختلافات في الأبنية الفرعية للوحدات الإنتاجية أو الخدمية، فترسم ممارسات معينة يتشابه فيها أعضاء تلك الأبنية.

إنه وبمجرد الخروج عن هذه الأبنية تستبدل القواعد الثقافية بأخرى تتوافق مع الفضاء أو الدور الذي يكون فيه الفرد؛ فالتركيب الاجتماعي للقواعد ينطبق على الأوضاع الاجتماعية وليس على الأفراد أنفسهم، فمفتش العمل مثلاً لديه ثقافة سلامة لا يفرضها أو يطبقها على جميع المؤسسات التي يقوم بتفتيشها، فالمراقبة على تطبيق تعليمات السلامة من قبل المؤسسة والأفراد تكون تبعاً لنشاط المؤسسة التي يتواجد بها لغرض التفتيش، بهذا فهو يحكم عليها استناداً لمعيار النشاط الذي تزاوله.

يسمى علماء الاجتماع الأوضاع في البناء الاجتماعي بالدور، والقواعد التي تشكل سلوك من يحتل تلك الأوضاع الاجتماعية بالمعايير، وهناك بعض القواعد الثقافية التي لا ترتبط بأي دور أو مجموعة من الأدوار الاجتماعية، وهناك ما يسمى بالقيم، وهي خلاصة مشاعرنا لطرق المعيشة التي نعال الاستحسان، والتي تقوم بالدور الأساس الذي تنشأ منه معايير معينة¹⁸.

يحقق التسليم المشترك بين أفراد المجتمع حول القيم والمعايير التوافق الاجتماعي الذي يوجّه التصرفات والتصورات، وفقاً للقواعد التي جرى التعريف بها وإشاعتها عن طريق مؤسسات التنشئة المختلفة، ليتحقق من خلالها الترابط الاجتماعي والتكامل، ويسود النظام في المجتمع.

أ. الثقافة السابقة للعامل ، والتي يمكن أن تكون مرتبطة بجنسه أو ائتمائه أو الخبرة المهنية التي يكون قد حصل عليها في عمل آخر أو مؤسسة أخرى.

ب. الوضعية المهنية للعامل داخل المؤسسة ، والتي تتضمن الفئة الاجتماعية وكذا شكل تنظيم العمل.

علاقة السلطة والتبعية التي تحكمه داخل المؤسسة ، وما يترتب عن ذلك من استراتيجيات ، سواء في علاقاته بالمؤسسة أو بالآخرين (يمتلك الفاعل الاستراتيجي خبرة في إقامة علاقات شخصية وجماعية). الخبرة المهنية والقوة التي يمتلكها الفاعل الاستراتيجي ضمن منصة التنظيم ، والوسط الاجتماعي الذي نشأ فيه الفاعل ، لذلك فالفاعل الاستراتيجي لا يتاح لجميع الموظفين. هذه العوامل مشتركة تجعله قادراً على التوسط بقوة في توجيه حياة المؤسسة²⁴.

تبعاً لهذه العوامل فإن ثقافة السلامة المهنية تشكل لدى الأفراد نتيجة التفاعل المستمر مع البيئة المهنية والاجتماعية والتنظيمية ، وهي متفاوتة بحسب المتغيرات الشخصية للأفراد (السن ، والجنس ، وتخصص التكوين ، وسنوات العمل...) ، والمتغيرات التنظيمية (طبيعة وظيفة الفرد ، وطبيعة نشاط المؤسسة ، ومكانة الفرد ضمن الهيكل التنظيمي ، وتقسيم السلطة ، وعلاقات العمل والقوة...) . والسمة الغالبة على ثقافة السلامة هي قابليتها للتعديل والتغيير لإمكانية التعديل في أبعادها ، خصوصاً الأبعاد التنظيمية.

على الرغم من التعدد الثقافي داخل التنظيم إلا أن الهوية الثقافية التنظيمية التي تنصهر فيها الهويات الفرعية تمثل عبر الزمن السمة المميزة للتنظيم عن غيره ، وإجماع أعضاء التنظيم عليها يعزز من الاستقرار الاجتماعي والتنظيمي ، والتوحد في الأهداف ووجهات النظر حول المواضيع. فالقيم والسلوكيات الوقائية لدى أعضاء التنظيم الواحد تعزز من الترابط الاجتماعي النظامي ، الذي يحافظ على وحدة الأهداف التنظيمية ، كلما تجنب الأفراد الأمراض المهنية وحوادث العمل ، واتبعوا تعليمات الحماية الموحدة.

3. نظرية الفعل الاجتماعي

إن الحديث عن هذه المقاربة يدعو إلى المرور بإسهام كل من الألماني ماكس فيبر Max Weber ، والأمريكي تالكوت بارسونز Talcott Parsons. وهذه المقاربة تأخذ

المؤسسة ، فعلى الرغم من صعوبة التعرف على هذه الضوابط إلا أنه لا ينفي إسهامها بشكل كبير في توجيه سلوك العاملين في التفاعلات اليومية مع وظائفهم أو مع بقية زملائهم أو رؤسائهم أو مرؤوسيهـم.

بين سانسوليو أنه يمكن تحديد ترسيمات مختلفة للسلوكيات داخل المؤسسة حسب الاصناف الاجتماعية المهنية ، وقد انتهى إلى اختصارها في أربعة نماذج ثقافية رئيسية: "فالأولى تميز العمال المختصين غير الأكفاء أكثر من غيرهم ، فتنطبع ثقافتهم بطابع العلاقات الإنصهاري. أما الثانية فهي على العكس من الأولى ؛ إذ تحيل إلى القبول بالاختلافات وعلى المفاوضة ، وهي بصورة خاصة من صنع العمال المحترفين ، ونجدها كذلك لدى بعض التقنيين الذين يزاولون مهنة فعلية ، ولدى الإطارات التي يمارس أعضاؤها وظائف تآطير فعلية أيضاً. بينما تتناسب وضعيات الحراك المهني طويل الأمد الذي تعيشه غالباً الإطارات عمامية التكوين أو التقنيون ، فيكون نمط الاشتغال العلائقي هو نمط التناغم الانتقائي والريبة تجاه المجموعات المتشكلة داخل المؤسسة. في حين تتسم رابع ثقافات أوساط العمل بالانزوائية والتبعية ، نجدها لدى العمال فاقد التاهيل ، والذين تعوزهم ذاكرة عمالية ، مثل العمال المهاجرين والفلاحين"²².

تتكون المنظمة إذن من عدة ثقافات فرعية يحملها الأفراد الذين تلقوها عن طريق التنشئة الاجتماعية ، ونتيجة للتفاعلات اليومية في العمل تتداول استعمالات وتصورات وقيم وافتراضات بين الأعضاء ، ترعاها الإدارة وتعمل على تنميتها لتشكل بمرور الزمن هوية الجماعات التنظيمية التي تعزز من روح الانتماء ، والتضحية من أجل الجماعة ، والمصير المشترك ، والاندماج الاجتماعي ، فعملية التنشئة الاجتماعية حسبه لا تنقطع ، بل تستمر ضمن المؤسسة التي لا تنفصل عن الضوابط الاجتماعية التي يرسمها المجتمع.

تعمل المؤسسة على التخطيط والتنظيم لعملية التنشئة التنظيمية ، ومرافقتها لغرض تشييد البناء الذي لا يكتمل على حد تعبير سانسوليو ، كون عملية التنشئة سيرورة لا تنتهي. وحسب مقارنته فإن ثقافة السلامة المهنية هي محصلة لثلاث عوامل رئيسية هي:²³

ت. **الفعل الموجه قيمياً:** القيام بهذا الفعل يكون بحسب قيمته؛ إذ "كل ما أهتم به هو ذلك أو لا شيء آخر مهم غيره".

ث. **الفعل العقلاني أو الهادف:** هذه الطريقة هي الأفضل والأكفأ لتحقيق ذلك، ولكن توجد طريقة أكثر كفاءة لتحقيق هذا" فهذا الفعل يتحدد بوحي الفاعل الذي يسعى دائماً لانتهاج الطريقة الأكفأ والأفضل لتحقيق أهدافه، بل إنه سيسعى دائماً للتطوير في طرق الأداء لتمون أكثر فاعلية. فهذا النمط من الفعل أصبح سمة غالبية في المجتمع الرأسمالي نتيجة القيم والأخلاق البروتستانتية التي نشأ عليها الفرد الغربي.

يدعو فيبر إلى هذا النمط الأخير في نموذجه البيروقراطي الذي يقوم فيه الفاعلون بتأدية الأعمال بالطريقة التي تضمن سلامتهم، وسلامة زملائهم من تلقاء أنفسهم، والأكثر من ذلك أنهم يقررون البرامج الوقائية التي تحقق التقليل من أخطار وحوادث العمل. وتمير هذه السلوكيات يكون عن طريق الآراء والقيم والمعتقدات المتوارثة، والتي من شأنها الإسهام في التحولات الاجتماعية.

في الصورة النهائية من التحولات الاجتماعية التي وصل إليها المجتمع الغربي، تبنى الأفراد أساليب التفكير العقلاني والترشيد التي تأخذ بمعايير الكفاءة المركزة على المعرفة التقنية، فهذه المعايير حسب فيبر هي التي يستند إليها المجتمع الحديث لصياغة قيمه واتجاهاته، وليست العادات المتوارثة والدين كما في المجتمعات التقليدية²⁸، إلا ما كان في بعض العقائد الدينية التي تعمل على حشد الطاقات لتحقيق التغيير الاجتماعي، ولا تفرض التمسك بالقيم الثقافية التقليدية.

حاول فيبر أن يقدم نموذجاً مغايراً للفكر الماركسي في أساسه وجوهره؛ أين قدم شواهد ومعطيات تشيد بدور المعتقدات الثقافية في عملية التغيير الاجتماعي، وأن الرأسمالية لم تنبع من القوى الاقتصادية، وإنما من التغيرات الثقافية والروحية السائدة في المجتمع. فالرأسمالية بالنسبة لفيبر طفل له أسلوب معين في التفكير والفعل، وليس مجرد نمط إنتاجي نابع من القوى الاقتصادية²⁹.

فالمجتمع الأوربي حسب هذا الطرح وصل إلى مرحلة الرأسمالية نتيجة القيم الثقافية البروتستانتية (الكالفينية

تصرفات العاملين على أنها أفعال مقصودة، توجيهها غايات الفرد والجماعة، ويصل تأثيرها إلى الآخرين (الفرد والجماعة) ضمن البناء الاجتماعي.

يشار إلى فيبر (1864-1920) على أنه أول الداعين إلى تبني منظور الفعل الاجتماعي، فرغم إقراره بأهمية التدقيق في البنى الاجتماعية مثل الطبقات والأحزاب السياسية، والتنظيمات الكبيرة الحجم في التحليلات السوسولوجية؛ إلا أنه لا يهمل كون هذه البنى تتشكل نتيجة الأفعال الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد²⁵. بل إنه اعتمد على الفعل الاجتماعي كوحدة لتحليلاته، بالأخص ما تعلق بالتغيير الاجتماعي

السلوك في حد ذاته وحدة تحليلية غير مكتملة، واكتمالها أحياناً ما يتحقق حين يرتبط الواقع السيكولوجي بالسلوك الفردي، ليصبح فعلاً إنسانياً أنجزه فاعل، بينما يصبح هذا الفعل اجتماعياً إذا كان الدافع أو الغاية ذات طابع اجتماعي بالأساس²⁶؛ أين يصل تأثيره وامتداده إلى أفراد آخرين يشتركون في الفهم. فالمجال المنظم الذي يمارس فيه الإنسان الفعل العقلاني وفقاً لما ترسمه القوانين الرسمية الرشيدة وصلت إليه أوروبا نتيجة الارتقاء إلى النظام الرأسمالي الذي يرسم له النموذج البيروقراطي نظمه وقواعده، وينفي وجود العادات والتقاليد الاجتماعية، والسمات الشخصية كمحدد لسلوك الأفراد داخل التنظيم البيروقراطي. فالبناء الاجتماعي نتاج الفعل الاجتماعي فهذه المقاربة تأخذ التنظيم على أنه بناء رسمي لا يتأثر بالبيئة الاجتماعية التي تحيط به ويتعامل معها.

واستخدم فيبر تصنيفاً مكوناً من أربعة أنماط من الفعل الاجتماعي، تتباين وفقاً لدوافع الفاعلين²⁷:

أ. **الفعل التقليدي:** "أنا أقوم بذلك لأني دائماً ما أقوم به"، فهذا النمط يفعله الفاعل دائماً (العادة)، ويرى فيه التوافق مع النسق الاجتماعي.

ب. **الفعل العاطفي:** "أنا لا أستطيع التوقف عن القيام بذلك، فكل ما أقوم به لأجلك"، هذا يمارسه الفاعل بناء على حالته العاطفية، كأن يترك الفرد مقعده في الحافلة لشخص مريض أو مسن ليجلس مكانه. فهذا الفعل توجهه مشاعر التعاطف مع الأشخاص العاجزين.

يحتوي على عدة ثقافات فرعية. لكن ما يكن طرحه كسؤال هنا: ألا يؤدي هذا التعدد إلى الصراع؟

حسب بارسونز فإن التعدد لا يؤدي إلى صراع، فهذا التعدد هو نتيجة التغير في الوظائف والبناء، وما دام التسليم المشترك حول المكونات الرئيسة لثقافة السلامة قد تم الإجماع عليها، فإن هذا الشرط الوظيفي سيعزز الاستقرار والتكامل بين المكونات الثقافية، وسيحدث بذلك التوازن بين الثقافات الفرعية.

رصد بارسونز خمسة مكونات لتكامل الأفراد والجماعات في التنظيم، وهي: النسق القيمي السائد في المجتمع مع أهداف التنظيم، وتحقيق هذا التكامل تحقق الأدوار التنظيمية لتصبح ملائمة لتوقعات أعضاء التنظيم، تلك التوقعات التي يكتسبها الأفراد من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، ويتدعم هذا التكامل بوجود أنماط معيارية محددة تنظم العمليات المختلفة التي يتم من خلالها مواجهة المتطلبات الوظيفية التي يتطلبها النسق³². إن التوقعات التي تشكل لدى العمال عن طريقة تعامل إدارة المؤسسة مع المخالفين لإجراءات الوقاية يرسم لديهم حدود الفعل الذي يجنبهم مواجهة القواعد.

إن تحقيق التكامل بين قيم المجتمع وأهداف التنظيم يدل على تبعية التنظيم للمجمعي الكلي، فهذا الأخير يوجه أهداف التنظيم وفق تحديد الأدوار والأفعال التي يقيمها الفاعل الاجتماعي تبعاً للتنشئة الاجتماعية التي تلقاها خارج التنظيم وداخله. جاء تركيز بارسونز على مكونات التكامل من منطلق أنها تؤكد إسهام النسق التنظيمي في تحقيق المتطلبات الوظيفية الخاصة للمجتمع الكلي، وعلى التنظيم أن يضمن لها الاستمرارية إذا ما أراد تحقيق وظائفه، ويمكن تصنيف المتطلبات حسب وظائفها إلى قسمين: الأولى آلية تتضمن مطلبي التكيف وتحقيق الهدف؛ أما الثانية فهي تنظيمية تعبر عن الظروف الداخلية للنسق، ويشمل مطلبي التكامل وتدعيم النمط.

يشير مطلب التكيف (التوافق) في التنظيم إلى توفير الموارد البشرية الماهرة التي تتوافق قيمها مع قيم السلامة المهنية بأي تنظيم كان، والأنماط المعيارية المنظمة للتموين بمواد الإنتاج، وتجهيزات الوقاية المناسبة لنوعية النشاط لتحقيق أهداف التنظيم، وهذا المطلب لا يعمل إلا إذا حدث

خصوصاً) التي تغرس في الفرد قيم الالتزام بنظام محدد في تأدية العمل، والمبادرة والترشيد في الإنفاق وعقلنة السلوك. فهذه القيم مجتمعة هي روح الرأسمالية الحديثة (القيم المشتركة).

إضافة إلى الإسهام الكبير الذي قدمه ماكس فيبر في إعادة بعث الاهتمام بالفعل (الفرد) ضمن التحليل السوسولوجي، فإن ما قدمه بارسونز من إضافات تجديد بالدراسة، بالأخص ما صاغه في مؤلفه بناء الفعل الاجتماعي (1937)، وما أعقبها من توسع في طرح النظرية في كل من مقالات في النظرية الاجتماعية والتطبيقية (1949)، ونحو نظرية عامة للفعل والنسق الاجتماعي (1901)، وأوراق في نظرية الفعل (1953).

طبق بارسونز نظريته الشهيرة "النسق الاجتماعي" على التنظيم، ثم كشف بعد ذلك بناء التنظيمات، ووظائفها، وانطلاقته في ذلك جاءت مستندة إلى تصور التنظيم كنسق اجتماعي يتألف من أنساق فرعية مختلفة، كالجماعات والأقسام والإدارات، وأن هذا التنظيم بدوره يعد نسقاً فرعياً يدخل ضمن نسق اجتماعي أكبر وأشمل كالمجتمع. ثم حلل بعد ذلك التنظيم من وجهة نظر ثقافية نظامية، مؤكداً على التوجيهات القيمية السائدة في التنظيمات المختلفة. النسق القيمي في التنظيم هو المحدد لكل الظروف الداخلية والخارجية التي يواجهها التنظيم³⁰، وهذا ما أغفله فيبر من قبل؛ إذ جرد الفاعل الإداري في العمليات التنظيمية من القيم المجتمعية التي يحملها، لتركيزه على إعطاء نموذج مثالي في العملية التنظيمية. "فالمجتمع الإنساني حسب بارسونز غير ممكن بدون ثقافة مشتركة، تسمح للناس بالاتصال والفهم فيما بينهم، وبالعمل باتجاه أهداف مشتركة. إن وجود ثقافة مشتركة هي شرط وظيفي مسبق أو حاجة أساسية لكل مجتمع يريد البقاء، والنظام المتقن للفعل الإنساني غير ممكن من دون نظام رمزي مستقر نسبياً"³¹.

الثقافة التنظيمية كنسق يتفرع عن الثقافة المجتمعية حسب مقاربة بارسونز، وهي بدورها تتفرع إلى عدة ثقافات فرعية عديدة، منها ثقافة السلامة التي تتفرع عنها ثقافة السلامة المهنية والإدارية، وكل من هذه الثقافات الفرعية لديها قيمها وسلوكياتها الخاصة وصولاً إلى ثقافة السلامة لدى الفرد الواحد. فالنسق التنظيمي من وجهة نظر تفكيكية

ينظر بارسونز إلى التنظيم الاقتصادي على أنه يحقق مطلب المواثمة في المجتمع، والسياسي يؤدي مطلب تحقيق الهدف، والاجتماعي يحقق مطلب التكامل بين وظائف المجتمع أما التنظيم القانوني فيعمل على تدعيم النمط واحتواء التوترات التنظيمية. بل إن نظريته التفكيكية للأنساق التنظيمية قد أخذت به أبعد من ذلك؛ حيث قدم تصنيفا داخليا للتنظيم الواحد يقوم على التمييز بين ثلاث أنساق فرعية في التنظيم -نظرية النسق عند بارسونز تقوم على تفكيك المفكك وصولا إلى أصغرها وهو الفرد-إدارة السلامة كنسق فرعي تضم النسق الفني الذي يختص بالنشاطات الفنية المتعلقة بطريقة أداء العمل الآمن، وترتيب بيئة العمل، وتقديم معدات الوقاية الأنسب. أما النسق التسييري فيهتم بالأمور المتعلقة بحاجات التكوين والتدريب في مجال حفظ الصحة، وصياغة خطط الوقاية والتدخل، وإعداد برامج حفظ الصحة والأمن والبيئة تبعا لإمكانات المؤسسة. في حين يعمل النسق النظامي على الربط بين النسقين الماضيين لإحداث التكامل في أدوار الفاعلين في عملية السلامة (مصلحة الأمن، ومصلحة البيئة، ومصلحة الصحة، والعمال)، وبين النسق التنظيمي، والأنساق الاجتماعية الفاعلة في العملية (الحكومة، مؤسسات الصحة والوقاية، المجتمع المحلي).

يكشف هذا التصنيف على وظائف الأنساق الفرعية لكل تنظيم، وإقامة شبكة اتصال بين هذه الأنساق تحقق التوازن في الأدوار على المستوى الداخلي، والتكامل على المستوى الخارجي مع بقية الأنساق الأخرى، ومع المجتمع الكلي. فهذا النسيج الاجتماعي حسب بارسونز "يستمر بفعل الثقافة المشتركة التي تسمح للناس بالاتصال والفهم فيما بينهم، والعمل باتجاه أهداف مشتركة. إن وجود ثقافة مشتركة هي شرط وظيفي مسبق أو حاجة أساسية لأي مجتمع يريد البقاء"³⁶

إن تركيز بارسونز على الميكانيكيات التي من شأنها تدعيم النمط وتحقيق التكامل بين أنساق التنظيمات في إطارها الداخلي والخارجي قد أخذ ببارسونز إلى إغفال بعدي التغير والصراع في التنظيم، بل إن تناول بارسونز لظاهرة التغير جاءت مقترنة بالتوازن الذي يهدف التنظيم من خلاله (التوازن) إلى تفعيل المتطلبات الوظيفية لإقامة التوازن

تغيرات داخل النسق أو خارجه تستوجب نشاط التكيف، فمستلزمات الحماية الفردية والجماعية قد جرى تطويرها نتيجة الاكتشافات الجديدة في ميدانها. أما مطلب تحقيق الهدف فهو ذلك الجانب من النسق الذي يرتبط بتحقيق غايات الفاعلين من خلال النشاط المشترك، والحد الأمثل للإشباع الجماعي في ضوء الأهداف العامة للتنظيم. والعلاقة بين وظيفتي التكيف وتحقيق الهدف تكمن في أن كل منهما متصل بالأبعاد الخارجية للنسق³³. يتم وفق هذا المطلب تعريف الموارد البشرية بأدوارها، والأهداف التي سيعملون على تحقيقها، فبتطابق الوسائل مع الغايات يتجه النسق نحو تحقيق أهدافه.

ويبدل مطلب التكامل على العلاقات التي تتم داخل النسق التنظيمي من جهة، وإلى العلاقة بين هذا النسق والأنساق الأخرى والمجتمع (النسق الكلي)، وخاصة ما تعلق منها بتحقيق التماسك والتضامن بين هذه الوحدات. في حين يعبر مطلب تدعيم النمط وتصريف التوتر عن "مدى قدرة النسق على التدعيم الذاتي أو الداخلي للنسق، وتحقيق الاستقرار والاستمرار خلال الزمن، وتعتبر القيم والمعايير والرموز الثقافية دالة في تحقيق هذه الوظيفة، لهذا يرى بارسونز أن تدعيم النمط أكثر ارتباطا بالنسق الثقافي³⁴. يعمل هذا المطلب على تحقيق التكامل الرأسي، ويحتاج إلى مطلبين مدعمين ومتلازمين حسب بارسونز هما: "مطلب تدعيم النمط المعبر عن مدى الانسجام والتطابق بين الأدوار التي يؤديها الفرد في التنظيم، والأدوار التي يقوم بها في الجماعات الخارجة عن نطاق التنظيم كالأسرة مثلا، وهذا بدوره يفرض ضرورة وجود ميكانيكيات تساعد على خلق الانسجام والتوائيم النسبي بين التوقعات التنظيمية والتوقعات التي تحدث خارج نطاق التنظيم. أما المطلب الثاني فهو احتواء التوترات التنظيمية واستيعابها من خلال ضمان وجود دافعية كافية لدى الفرد ليستطيع تأدية مهامه التنظيمية"³⁵، والالتزام بآليات الحماية الفردية كقيمة تنظيمية تعزز استقرار الوظيفي داخل المؤسسة، وهذا الاستقرار سينعكس على المؤسسات الأخرى والمجتمع الكلي.

توصل بارسونز في إطار معالجته للمتطلبات التنظيمية إلى تصنيف التنظيمات تبعا لوظيفتها في المجتمع الكلي، ثم إطار التنظيم الداخلي، فعلى المستوى الخارجي

مجموعة من الاستعدادات تمكنه من ممارسة الأفعال المختلفة في إطار بنية محددة"³⁸.

بل إن امتداد ممارسات الفاعلين ضاربة في المستقبل "الذي يوجه الممارسات الحالية، ويتم التعرف عليها في العلاقة بين الهابيتوس من جهة، وبصفة خاصة في البناءات المؤقتة والأحكام المتعلقة بالمستقبل، والتي تتشكل في مدة علاقة معينة ضمن الفضاء الخاص المحتمل؛ من جهة أخرى هناك حالة محددة من الفرص الممنوحة موضوعيا من قبل العالم الاجتماعي. ومعنى المستقبل على الأرجح يكمن في العلاقة الممتدة في عالم مبني تبعا للأصناف الممكنة (لأجلنا) وغير الممكنة (لأجلنا)، المتعلق بالأولويات المسبقة من قبل الآخرين ولأجل الآخرين"³⁹.

يملك المتفاعلون داخل المجال حسب بورديو استعدادات قيمية، وأنماط من الممارسة المشتركة نسبيا، تميزهم عن شاغلي المجالات الأخرى، فالمجال الصناعي يتميز عن المجال الخدماتي مثلا في البناء التنظيمي والممارسات الشخصية لأعضائه، بهذا فإن النظرة التفكيكية للمجتمع تتيح ضرورة الاهتمام بالأبنية الاجتماعية وفقا لخصوصياتها، وليس وفق النظرة الشمولية (الهاكرو) التي لا تتقف على حيثيات الظواهر. فالفرد في حياته اليومية يتعامل مع المجالات وفقا لما تمليه من طريقة في اللباس والكلام والاستعمال، فالعامل في مجال عمله مع زملائه يقوم بممارسات بطريقة معينة، وإذا ما كان داخل الإدارة فإن سلوكه سيتغير ليتوافق مع ما يمليه الفضاء الإداري من الاختصار في الكلام، والعناية بالهندام. فلو أخذنا هذا المثال لنطبق عليه مقولة بورديو عن الحياة والإزاحة، والفروقات ممكنة الظهور في الرأسمال الرمزي⁴⁰ والهابيتوس الخاص بالأفراد على الرغم من توحيد البناء التنظيمي. فتعامل الإدارة مع عمالها يكون بطريقة متفاوتة وفقا للرأسمال الرمزي الذي يتمتع به الفرد، ومدى قدرته على استعمال الهابيتوس، فإذا لم يتحقق ذلك فإن العمال سيشعرون بالإزاحة لمجرد دخولهم إلى الإدارة، لحيازة المجال من قبل الإداريين الذين يجيدون استعمال هذا المجال وحيازته، وغيرهم تظهر عليه انطباعات الجدية والصرامة في هذا المجال فيشعر بالإزاحة، وبمجرد هيمنة الإداريين على الفضاء تعود العلاقات الاجتماعية بين الإداريين إلى طبيعتها، بل إن الشعور بالهيمنة على الفضاء الإداري أحيانا يظهر حتى

ومواجهة التغير، والمحافظة على وجوده واستمراريته. فالانتقال من صورة المجتمع البسيط إلى المعقد تتم بصورة بسيطة وسلسة، ينجم عنها تغير في القيم المسيطرة على النظام الاجتماعي.

4. نظرية الممارسة الاجتماعية

تعتبر هذه النظرية من الأطر التفسيرية الأكثر اقترابا من الحياة الاجتماعية، فهي تأخذ من جهة تأثير القيم الثقافية على الفعل الاجتماعي، ولا تهمل من جهة أخرى ميولات وخصوصية الأفراد في وطريقة تأديتهم للأفعال وفقا للطريقة التي يرون أفضليتها.

"تكتسب نظرية الممارسة الاجتماعية أهميتها في العلوم الاجتماعية والإنسانية بسبب قدرتها التفسيرية المتنوعة والملائمة لكشف طبيعة الظواهر الاجتماعية والإنسانية المختلفة، فعن طريقها يمكن كشف التباينات الاجتماعية والثقافية في آن واحد، كما يمكن تفسير ظواهر السياسة والاقتصاد والثقافة والدين والفن والعلم، دون أن تفقد النظرية مصداقيتها"³⁷. فهذه المقاربة تعالج الظواهر الإنسانية بصورة تكاملية، تجمع فيها بين الماكروسوسولوجيا (البناء الاجتماعي) والميكروسوسولوجيا (الفعل الاجتماعي) في تحليلاتها ودراساتها، فسلوك الأفراد لا يمكن فهمه معزولا عن البناء الاجتماعي والمجال التاريخي الذي يتواجد فيه الفاعل، وهذا ما أغفلته نظرية الفعل الاجتماعي التي أخذها تفكيك الأبنية وتحديد وظائفها عن الاشتغال بمحددات السلوك لدى الفرد. هذا السقط الاستمولوجي عمل عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو Pierre Bourdieu جاهدا إلى تقويمه من خلال اهتمامه بالبناء والفعل عبر الزمن.

"الممارسة الاجتماعية عند بورديو ليست مجرد فعل صادر في الزمن الحاضر، ولكنها فعل موجه من الماضي، فعل تاريخي. فكما لا بد أن تتصافر عدة ظروف قبل هطول المطر، فكذلك الممارسة هي محصلة خبرات مكتسبة أو موروثية، تتصافر لتقييم الواقع المعيش، وتحديد طبيعة الفعل الملائم في لحظة ما. فالممارسة نشاط إنساني يقوم به فاعل يمتلك قدرة على صنع الاختلاف، ولكنها ليست قدرة ذات متعالية، وإنما قدرة فاعل نشط مكافح. لذلك فإن الفاعل شخص محمل بخبرات متراكمة، رأسمال نوعي يكتسبه من خلال عملية التنشئة والتعليم، يولد لديه

الاستراتيجية وهي تتميز بكونها متعدّدة ومتناقضة أحيانا ، لها سلوكيات تختلف حسب المواقف والظروف). فالأفراد الذين ينضمون إلى مؤسسة معينة (سياسية ، علمية ، اقتصادية ، أو دينية) لا يخضعون بالضرورة إلى القوانين القهرية لهذه المؤسسة سوى على سبيل الالتزام الظاهر. كونهم يشغلون في الخفاء عبر الزمن لصناعة أنماط سلوكية خاصة ، تتميز بالقابلية للتعديل والتغيير بحسب مستجدات الاستراتيجية (التدبير بمهارة).

القوانين والتعليمات الخاصة بالسلامة المهنية على سبيل المثال قد صاغتها الإستراتيجية العقلانية التي تتحكم في ممارسات المكان ، استنادا للسلطة والقوة التي تتمتع بها ، وتوحدتها في مراحل الزمن المختلفة لتمثل ما يسمى مجازا بثقافة السلامة المهنية للمؤسسة. إلا أن هذا الأمر مستحيل التطبيق على أرض الواقع ، فالتكتيكية التي يمتلكها الأفراد تتيح لهم استعمال المجال وفق اختلاسات تراوغ من خلالها القواعد التنظيمية والثقافية التشاركية ، لتحل محلها الممارسات الثقافية الخاصة بالفرد وفق ما تمليه عليه منفعته. هذا ما دفع بدوسارتو إلى القول لا توجد قطعة بين العمل وأوقات الفراغ بسبب أن الإستراتيجية والتكتيكية موجودة في كليهما ، لذلك نجده يقول: "هناك تجانس بين هاتين المنطقتين من النشاط (العمل وأوقات الفراغ) ، فهما تتكرران وتدعم إحداهما الأخرى. تنتشر في مواقع العمل تقنيات ثقافية تخفي الإنتاج الاقتصادي تحت خيالات المفاجأة والحقيقة والتواصل ، وبالتبادل يمنح الإنتاج الثقافي حقلا تتوسع بفضلها العمليات العقلانية ، التي تتيح إدارة العمل بتقسيمه وتربيته وتكثيفه. هناك تمييز يطفى غير التمييز الذي يوزع السلوكيات تبعا لمكانها (العمل أو الراحة) ويصفها تبعا للمكانة التي تحتلها في هذه الخانة... في المكتب أو الورشة أو السينما. هناك اختلافات من نمط آخر ، فهي تستند إلى طرائق الفعل أو شكليات الممارسة"⁴³. فالممارسة في هذه المجالات تختلف عن بعضها وفقا للإستراتيجية ، ووفقا للتكتيكية التي تميز شكليات الممارسة للفرد.

إن نظرة ميشال دوسارتو إلى التكتيكية على أنها ماثلة في الأفراد مسلوبو الإرادة ، والمغيبين عن الإسهام في البناء الثقافي للمؤسسة أو المجتمع ، كونهم مجرد مستهلكين ، تدعو إلى إعادة النظر في تسمية أو تعريف الإستراتيجية

بتواجد غير الإداريين (أو الوافدين من إدارات أخرى) ضمن الفضاء.

فحيازة الفاعلين لأي مجال تكون مستندة إلى ما هو مسطر من ممارسات منتظرة ضمنه ، إلا أن الأفراد يبتكرون استراتيجيات جديدة للتوافق مع ما يتطلعون إليه من ذلك المجال ، فالمؤسسة الاقتصادية مثلا كمجال تمارس فيه نشاطات مريحة موجهة لتحقيق أهداف المؤسسة تتفاوت استراتيجيات أعضائه على الرغم من واحدة الخطة التنظيمية ، وضبط نشاط الفاعلين ضمن إطار محدد من الممارسات السليمة ، إلا أن ذلك لا يمنع من تمييز كل واحد باستراتيجياته الخاصة للتوافق مع المستجدات والمواقف دائمة التغير ، بل إن الاستراتيجيات ذاتها يطرأ عليها التغير والتعديل إذا دعت الضرورة لذلك. ثم إن أعضاء التنظيم وربما رأس الهرم ذاته سيقوم بممارسات خاصة بمجال آخر ، كالترفيه أو امتهان التجارة الإلكترونية في وقت الدوام للحساب الخاص ، أو الدعاية لفائدة مرشح حزبي معين والأمثلة على ذلك كثيرة في واقع المؤسسات.

تعيد المؤسسة إنتاج ثقافة السلامة لدى عمالها عن طريق عمليات التكوين والتدريب التي يتلقونها ، ليسهموا بدورهم في نقل هذه الثقافة إلى الوافدين الجدد ، فقيم السلامة بالمؤسسة يعاد إنتاجها وفقا لمجالات العمل الفرعية ، عن طريق القوانين التنظيمية التي تسنها الإدارة ، لتجعل العمال تحت هيمنتها ، إلا أن محاولات الاحتواء هذه تلقى دفعا من قبل الطبقات الدنيا التي تبتكر استراتيجيات يتيحها الهابتوس الخاص بهم لتجاوز الرأسمال النوعي الخاص بذلك المجال ، أو قد ينجم صراع معلن أحيانا ، وضمني في أخرى كشكل من أشكال التعبير عن الرفض.

يعتبر الفرنسي ميشال دوسارتو Michel De Sarteau من المتأثرين بتحليلات بورديو ، خصوصا نظرية الممارسة الاجتماعية التي أسهب في نقلها وتطويرها ضمن كتابه 'ابتكار الحياة اليومية'. يركز في تحليلاته على أن المجالات بمختلف أنواعها حقل للصراع بين ثنائيتين اثنتين هما: الاستراتيجية⁴⁴ (التي يعمل الخبراء والمختصون في المجال على ممارسة التفكير لرسم أنماط الفعل المعقولة ضمنه بغض النظر عن الزمن لتحقيق عملية الضبط المعمم للسلوك الاجتماعي) والتكتيكا أو التكتيكية⁴²(التمثلة في إرادات الأفراد داخل

حالة العجز أو التقاعد)، وآليات المحافظة على استقرار النظام بالمؤسسة.

حاولت هذه الدراسة -انطلاقاً من المقاربات النظرية- أن تبين المداخل التي يمكن من خلالها معالجة موضوع ثقافة السلامة المهنية، ولو على سبيل الاقتراب في معالجاته لموضوع الثقافة بشكل عام أو ثقافة المنظمة بشكل خاص. تتوافق المقاربات التي تم التطرق إليها في أن ثقافة السلامة المهنية تتميز بكونها مجموع القيم والاتجاهات والممارسات التي تكتسي طابع التشاركية، يتميز بها أفراد التنظيم الواحد، وتحول بفعل عمليات التنشئة الاجتماعية والتنظيمية والتكرار ضمن المراحل الزمنية المختلفة إلى سمة تميز التنظيم عن غيره من التنظيمات الأخرى وتصنع له هويته الخاصة.

تتفق المقاربات النظرية التي تم التطرق إليها في كون ثقافة التنظيم أو ثقافة السلامة المهنية في تفاعل مع الثقافة الكلية للمجتمع؛ إذ تسهم الثقافة الاجتماعية في توجيه ثقافة السلامة المهنية، وهذه الأخيرة بدورها يكون لها التأثير على الثقافة في تشكيل أو تغيير القيم الثقافية للمجتمع بالإيجاب أو بالسلب، لذلك فدراسة موضوع ثقافة السلامة المهنية يتطلب اعتماد المقاربات التي تم عرضها ضمن هذه الورقة، لتشكل خلفية نظرية متكاملة حول الموضوع؛ إذ لا يمكن الجزم بأفضلية مقارنة على أخرى إلا بالاحتكام إلى أبعاد الموضوع، وطبيعة البيئة التنظيمية، والاجتماعية، والمسارات البحثية. ومهارة الباحث في اختيارها وتوظيفها.

تم التركيز في هذا البحث على المقاربات المعالجة لموضوع ثقافة السلامة المهنية على أنها عملية اجتماعية تتفاعل فيها المؤسسات بالمجتمع الكلي ومكوناته الفرعية لتشكل معالم الهوية الشخصية والتنظيمية؛ ويبقى مجال التوسع فيها متاحاً للبحوث اللاحقة. والبحث كذلك في المقاربات التي تعالج الموضوع باعتباره عملية داخلية، تنبعث من السمات التنظيمية الخاصة مفصولة عن التأثير الذي يمكن أن تحدثه البيئة الاجتماعية الخارجية.

(العقلانية)؛ فهذه الأخيرة لا يميزها الثبات الذي قال به دوسارتو؛ إذ أن الاستراتيجيات ذاتها تمارس تكتيكية في الزمن (كتغيير في الإستراتيجية)، مجسدة في محاولات لاحتواء الاختلاسات التي يقوم بها الفاعلون داخل المجال.

الممارسات التي تحصل في المجال حسب دوسارتو إما أن تكون استعمالاً أو استهلاكاً، بحسب ظهور ذاتية الأفراد في الممارسة، فحالة الاستهلاك يكون فيها الفرد مجرد متلق للمنتجات الثقافية أو الهادية دون أن يكون له الدور في إنتاجها، ولا حتى التعديل عليها وفقاً لاستعماله التكتيكي. فالقيم الاجتماعية أو التنظيمية التي لا يسهم الأفراد في إنتاجها أو التعديل عليها يكونون بمحل المستهلك المتلقي، المطرود من الإنتاج. أما إذا كان الفرد يجسد هذه القيم وفق تكتيكيته الخاصة، أو يشارك في إعداد برامج السلامة المهنية، فإنه يكون مستعملاً وليس مجرد مستهلك. نفهم من هذا أن القيمة الثقافية الواحدة قد يستهلكها بعض الأفراد ويستعملها آخرون.

خاتمة

وقفاً لما تم عرضه، فإن معالجة موضوع ثقافة السلامة المهنية لم يحظ بعناية كبيرة ضمن الإسهام السوسولوجي، نظراً للتشعبات الكبيرة التي تميز هذا الموضوع، وتقاطعه في الدراسة مع علوم أخرى. كما أن هذا المفهوم مركب، ويحتاج الخوض فيه من جانب علم اجتماع التنظيم إلى الإلمام بالجانب المعرفي لعلم السلامة المهنية والأرغونوميا، والثقافة. والجانب العملي من الممارسات اليومية للفرد داخل التنظيم، والجوانب التي توجه هذه الممارسات.

على الرغم من عناية المقاربات السوسيو-تنظيمية بموضوع الثقافة التنظيمية، إلا أن هذا الاهتمام لم يشمل بدرجة كبيرة بعد ثقافة السلامة المهنية، بل اقتصر في غالب الاجتهادات على السلطة، وعمليات الاتصال، والالتزام، والهوية، أما قيم السلامة وممارساتها فلم يتم الإشارة إليها بتفصيل سوى ما جرى من خلال المنظور الضيق لمفهوم الأمن الوظيفي (ضمان العامل بقائه في العمل بالمؤسسة التي يشتغل فيها أو الانتقال للعمل في مؤسسة أخرى، فالمهم أن يكون في مأمن من البطالة، ويحصل ما يكفل له العيش في

الهوامش

1. أنظر: رايت ميلز ، الخيال العلمي الاجتماعي ، تر: عبد الباسط عبد المعطي ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، 1997 ، ص 14.
2. بول فيرابند ، ثلاث محاورات في المعرفة ، ترجمة: محمد أحمد السيد ، منشأة المعارف ، مصر ، 1998 . ص ص 11-14.
3. خالد كاظم أبو دوح ، "علم اجتماع الأمن: محاولة للتأصيل" ، مجلة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث ، 2017 ، ص ص 8-9.
4. ¹ مؤيد سعيد السالم ، إدارة الموارد البشرية المعاصرة مدخل استراتيجي تكاملي ، ط 1 ، دار إثراء ، عمان ، 2009 ، ص ص 364-365.
5. ساق إيمانويل والرستائين هذا التعريف في مستهل التقديم لانعقاد المؤتمر الرابع عشر للجمعية العالمية لعلم الاجتماع في مدينة منتريال بكندا صيف 1998 ، بصفته رئيساً للجمعية.
6. إيمانويل والرستائين ، علم الاجتماع الغربي: مساءلة ومحاكمة ، تر: محمود الذواوي ، ط 1 ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، 2011 ، ص 20.
7. مكتب العمل الدولي ، إطار ترويجي للسلامة والصحة المهنيين ، التقرير الرابع (1) ، مؤتمر العمل الدولي ، دورة 93 ، جنيف ، 2005 ، ص 5.
8. نفس المرجع ، ص 7.
9. عبد الله الصعدي ، "الثقافة الأمنية ودورها في التنمية" ، مجلة الفكر الشرطي . مجلد 9. عدد 4 ، الإمارات العربية المتحدة ، 2001 ، ص 19.
10. عايش جورج فريدمان مرحلة الثورة الصناعية ، وما أنتجت من تغيرات واسعة على فضاءات الحياة والعمل المختلفة ، فحاول من خلال مؤلفاته تحديد وجهة العمل البشري المستقبلية في ظل هيمنة التقنيات الصناعية ، أنظر: Friedmann. G., Où va le travail humain? Paris, Gallimard 1950, p108.
11. Renaud Sainsaulieu, L'identité au travail: les effets culturels de l'organisation, Presses de la PFNSP, Paris, 1977, P255.
12. يعتبر هذا الكتاب من أكثر الاسهامات السوسولوجية الجادة في معالجة مشكلة الأمن الشامل ، الذي رأى صاحبه أنه في طريق الانقراض في عصر الحداثة. للاطلاع أنظر: أولريش بيك ، مجتمع المخاطر العالمي: بحثا عن الأمان المفقود ، علا عادل وآخرون ، إشراف فيصل يونس ، ط 1 ، المركز القومي للترجمة ، مصر ، 2013.
13. نهاد عطا حمدي ، زيد غانم الحصان ، الأمن الصناعي وإدارة محطة الخدمات ، ط 1 ، دار اليازوري ، الأردن ، 2008 ، ص ص 65-66.
14. حمو بوظريقة ، "أهمية العادات في الحياة الاجتماعية والاقتصادية" ، أعمال الملتقى الدولي حول الثقافة والتسيير ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1992 ، ص ص 17-30.
15. لا يقتصر الاهتمام بمستعملي الطريق السائقين المهنيين أو العاديين في بناء ثقافة السلامة المرورية ، وإنما يدخل ضمنها كل مستعمل للطريق من السائقين والراجلين وعمال صيانة أو تعبيد الطريق المستعمل ، ورجال الأمن وشرطة المرور ، بل يتعداها إلى الأطفال في سن مبكرة من عملية التربية المرورية في البيت أو في رياض الأطفال ثم المدرسة.
16. سعد العنزي ، سما سعد خير الله الفضل ، "فلسفة نوعية حياة العمل في منظمات الألفية الثالثة" ، مجلة العلوم الاقتصادي والإدارية ، مجلد 13 ، عدد 45 ، 2007 ، ص 69.
17. فليب جونز ، النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية ، ترجمة: محمد ياسر الخواجة ، ط 1 ، مصر العربية للنشر والتوزيع ، مصر ، 2010 ، ص 48.
18. المرجع نفسه.
19. المرجع نفسه ، ص 50.
20. ¹ p32, E. La culture d'entreprise, Edition d'organisation, Paris, 2002, elavallée. نقلا عن: بن رمضان سامية ، "أدبيات المؤسسة في المقاربات السوسولوجية" 32-48 ، مجلة العلوم الاجتماعية ، عدد 18 ، ماي 2016 ، ص 42.
21. للمزيد من الاطلاع أنظر: Renaud Sainsaulieu, Op cit, p254.
22. دنيس كوش ، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، ترجمة: منير السعيداني ، مراجعة: الطاهر لبيب ، ط 1 ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، 2004 ، ص 178.
23. بدران دليلة ، "الهوية المهنية للعامل بين الاندماج والأمن الوظيفي: مقاربة سوسيوثقافية لكلود دوبار وسانسوليو لمنظور أزمة الهوية" ، مجلة التراث ، جامعة الجلفة ، 2017 ، ص 123.
24. Renaud Sainsaulieu, Op cit, P257.
25. أنتوني غيدنز ، علم الاجتماع ، ترجمة: فايز الصياغ ، ط 1 ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، 2005 ، ص 76.
26. بن رمضان سامية ، المرجع السابق ، ص 43.
27. فليب جونز ، المرجع السابق ، ص 129.
28. أنتوني غيدنز ، المرجع السابق ، ص 72.
29. فليب جونز ، المرجع السابق ، ص 133.
30. السيد الحسيني ، علم اجتماع التنظيم ، د.ط ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، 1994 ، ص 73.
31. هارلمبسهولبورن ، سوشولوجيا الثقافة والهوية ، ترجمة: حاتم حميد محين ، ط 1 ، دار كيوان ، سورية ، 2010 ، ص 22.
32. السيد الحسيني ، المرجع السابق ، ص 74.

33. محمد عبد المعبود مرسي ، علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز بين نظريتي الفعل والنسق ، مراجعة: أحمد رأفت عبد الجواد ، ط1 ، مكتبة العليقي الحديثة ، مصر ، 2001 ، ص155.
34. المرجع نفسه ، ص ص157-158.
35. السيد الحسيني ، المرجع السابق ، ص76.
36. هارلميسوهولبورن ، المرجع السابق ، ص22.
37. أحمد موسى بدوي ، "ما بين الفعل والبناء: بحث في نظرية الممارسة لدى بيير بورديو" ، 9-22 ، مجلة إضافات ، عدد 08 ، خريف 2009 ، ص11.
38. نفس المرجع ، ص12.
39. Pierre Bourdieu, *Le sens pratique*, Les Edition des Minuit, Paris, 1980, p108.
40. يقول بورديو: "إنني أدعو رأسمالا رمزيا كل نوع من أنواع الرأسمال (الاقتصادي ، الثقافي ، التعليمي أو الاجتماعي) عندما يكون مدركا طبق مقولات الإدراك ومبادئ الرؤية والانقسام ، وأنظمة الترتيب ، وقواعد التصنيف والمعارف وكل ذلك ، في جزء منه على الأقل نتاج اندماج البنيات الموضوعية للحقل المعين ؛ أي بنية توزيع الرأسمال في الحقل المعين" ييار بورديو ، أسباب عملية: إعادة النظر بالفلسفة ، ترجمة: أنور مغيث ، ط1 ، دار الأزمنة الحديثة ، بيروت ، 1998 ،
41. يقول دوسارتو: "أسمي استراتيجية حساب العلاقات في القوة الذي يصبح ممكنا عندما تعزل ذات لها الإرادة والسلطة (شركة ، جيش ، مؤسسة علمية). فهي تقترض مكانا يمكن حصره أو تقييمه كمكان خاص ، هو القاعدة التي تدبر فيها وقائع خارجية في شكل أهداف أو تهديدات (الزبائن أو المنافسين ، الأعداء...) على غرار علم التدبير المؤسسي (management) ، كل عقلنة استراتيجية تعمل قبل كل شيء على عزل "الخاص" عن "بيئة" معينة ، أي مكان السلطة والإرادة الخاصة". أنظر: ميشال دوسارتو ، ابتكار الحياة اليومية: فنون الأداء العملي ، محمد شوقي الزين ، دار العربية للعلوم ناشرون ، ط1 ، بيروت ، 2011 ، ص93.
42. التكتيكية حسب دوسارتو حركة داخل مجال الرؤية للعدو ، وداخل المكان الذي يراقبه... تستفسد من الفرص وتخضع إليها دون قاعدة أساسية تخزن فيها أرباحها... يتيح لها هذا اللامكان بلا شك التنقل ، لكن بالانقياد إلى مصادفات الزمن لتفتنم فرصة القبض على الإمكانيات التي تتيحها اللحظة الآتية... إنها حيلة ذكية (أو فن الضعيف كما عبر عنه كارل فون كلوزيفيتش). أنظر: نفس المصدر ، ص ص94-95.
43. ميشال دوسارتو ، المصدر نفسه ، ص83.

الإدارة العامة الجديدة كآلية للإصلاح الإداري تجاري دولية

The New Public Management is a mechanism for administrative reform

تاريخ القبول: 2019-12-18

تاريخ الإرسال: 2018-12-05

مبروك ساحلي، جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي -

sahlimabrouk.aa@hotmail.fr

"من أجل تكوين مستقبلنا، نحتاج إلى رؤية جديدة للحكومة"

بيت ويلسون حاكم كاليفورنيا 1991

الملخص

حظي موضوع إصلاح القطاع العام باهتمام الباحثين والأكاديميين في الديمقراطيات الغربية منذ سبعينيات القرن الماضي ، فكانت ثمرة الإصلاح بروز نمط الإدارة العامة الجديدة ، كمحاولة للتصدي للتحديات الجديدة التي أصبحت تفرضها التغيرات الاقتصادية ، والسياسية ، والتكنولوجية. كما حاولت الدراسة الإجابة عن إشكالية رئيسية تمثلت في: هل يمكن أن تساهم الإدارة العامة الجديدة كمدخل للتسيير في إصلاح الإدارة العامة؟ وتوصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج تثبت أهمية إسهام الإدارة العامة الجديدة في عملية الإصلاح الإداري.

الكلمات المفتاحية: الإصلاح الإداري ، الإدارة العامة الجديدة ، القطاع العام

Résumé

La réforme du secteur public a attiré l'attention des chercheurs et des universitaires des démocraties occidentales depuis les années 70. Cette réforme a eu pour résultat l'émergence d'un nouveau modèle d'administration publique visant à relever les nouveaux défis posés par les changements économiques, politiques et technologiques. L'étude a également tenté de répondre à cette question problématique : "Dans quelle mesure la nouvelle administration publique peut-elle contribuer à la gouvernance dans la réforme de l'administration publique"?

L'étude aboutit à une série de résultats qui démontrent l'importance de la contribution de la nouvelle administration publique au processus de réforme administrative.

Mots-clés : Réforme administrative, Nouveau Management Public, Secteur public**Abstract**

Public sector reform has captured the attention of politicians, academics and researchers in all western democracies since the 1970s. While there were a surge of activities and changes in many countries, there did not appear to be any universal embracing theme, theory or collection of theories until the literature started to focus around the notion of a new style of governance which became known as the New Public Management. The study ended with a set of results that highlight the importance of the contribution of new public administration within the administrative reform process.

Keywords: Administrative Reform, New Public Management, Public sector

مقدمة

الموارد البشرية، بالإضافة إلى أنظمة الاتصالات والمعلومات، وبالطبع ستحدث تغييرات في طبيعة وطريقة عمل الإدارة العامة بوحى من بعض الأفكار والإيديولوجيات، مثل الإدارة العامة الجديدة. ولذا تمحور إشكالية الدراسة حول: إلى أي مدى يمكن أن تساهم الإدارة العامة الجديدة كمدخل للتسيير في إصلاح الإدارة العامة؟

في حين تنطلق الدراسة من فرضية أساسية تنص: على أهمية الإدارة العامة الجديدة باعتبارها على آليات القطاع الخاص في تسيير المنظمات العامة كمبدأ إصلاحي تترتب في ضوئه تغييرات جذرية في النظام الاقتصادي المتبع لكي يتلاءم مع التوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجديدة.

كما تتبني الدراسة المنهج الوصفي التحليلي لأنه ملائم للدراسات والبحوث المتعلقة بالأراء والاتجاهات، ولأنه يقدم لنا البيانات عن واقع الظواهر والعلاقات بين أسبابها ونتائجها وتحليلها ويظهر العوامل المؤثرة فيها، ويعتمد هذا المنهج على تجميع الحقائق والمعلومات النظرية ثم تحليلها وتفسيرها. كذلك اعتمدنا على المنهج دراسة حالة والمقرب النسقي.

أولاً: الإطار المفاهيمي للدراسة: سنحاول التطرق إلى مفهوم ومداخل الإصلاح الإداري، وكذلك مفهوم الإدارة العامة الجديدة وعوامل نشأتها:

1- مفهوم الإصلاح الإداري: تعددت التعريفات الخاصة بالإصلاح الإداري حيث ركز بعضها على الهدف المراد تحقيقه، في حين ركز البعض الآخر على الإجراءات التي يجب اتباعها لتحقيق الإصلاحات، كما أنّ الإصلاح الإداري يمكن أن يشمل تغييرات شاملة في المجالات مثل: الهياكل التنظيمية واللامركزية، وإدارة شؤون الموظفين والتمويل العام، والإدارة القائمة على النتائج والإصلاحات التنظيمية، وكما يمكن أن يكون جزئياً مثل مراجعة قانون الخدمة المدنية.⁽¹⁾

هذا التباين في التعريف انعكس أيضاً على التباين في المداخل، حيث نجد أنّ هناك العديد من الأطر أو النماذج التي أعدها الباحثون في تصنيف مداخل الإصلاح الإداري نذكر منها:

عرفت فترة ثمانينيات القرن الماضي، إصلاحات في حقل الإدارة العامة أُلقت بظلالها على الكثير من النظريات والممارسات، نقلت الإدارة العامة الفيدرالية من مفهوم العقلانية القانونية إلى العقلانية التسييرية، توجت بما يُعرف بالتسيير العمومي الذي بدوره تمّت إعادة النظر فيه من خلال نموذج معرفي جديد تمثّل في: الإدارة العامة الجديدة (أو التسيير العمومي الجديد) القائم على مبدأ تسيير القطاع العام من خلال تطبيق أساليب ومناهج التسيير الخاص، هذا النموذج الذي سعت العديد من الدول المتقدمة والنامية إلى تطبيقه من خلال ثورة جذرية في طريقة تسيير إدارتها وفق ما تقتضيه التغييرات الجديدة.

ويحتلّ موضوع الإصلاح الإداري بصفة عامة والإدارة العامة الجديدة بصفة خاصة، أهمية علمية نظراً لأنه يشغل حيزاً كبيراً من اهتمام الجماعة العلمية في حقل الإدارة العامة، كما أنّ له أهمية عملية متمثلة في تأثيره المباشر على حياة المواطنين المتعاملين مع الأجهزة والمنظمات الحكومية المختلفة، بل ومع سائر أنواع المنظمات الأخرى سواء في القطاع الخاص أو القطاع المدني التي تتفاعل دائماً مع الجهاز الحكومي، وتتأثر بما يمرّ به من تطوّر. فبدخل منظومة الدولة، وبرغم من تغير النظريات والإيديولوجيات، مازالت الحكومة هي الفاعل الرئيسي، وبالتالي فإنّ أي تطوّر أو حركات للإصلاح تشهد أجهزتها سيكون له عظيم الأثر عليها في شتى مجالات الحياة.

وتسعى هذه الدراسة إلى تحقيق هدفين أساسيين:

- التعرف على مضمون الإدارة العامة الجديدة وعوامل نشأتها.

- عرض لبعض التجارب الدولية في الإصلاح الإداري التي تستهدف تطوير الأداء والإنتاجية وتحسينها في أجهزة القطاع الحكومي. ويشمل عرض تجربة نيوزيلاندا وكذلك تجربة الولايات المتحدة الأمريكية.

كما تتألف فلسفة الإصلاح من تغييرات معتمدة لهياكل مؤسسات القطاع العام وعملياته بهدف إدارتها على نحو أفضل، وبحسب هذا السياق فإنّها تشتمل على آليات لتحسين التنسيق ووضع السياسات، وبناء هياكل مؤسسية قوية وتطبيق اللامركزية ونقل السلطات والصلاحيات وإدارة

ونتيجة لفشل النموذج التقليدي للإدارة العامة لمواكبة التحديات الجديدة طُرحت العديد من التساؤلات من قبل جماعات الأكاديميين والبيروقراطيين، حول: ما الذي من شأنه أن يجعل الحكومة أكثر كفاءة وفعالية؟ فلقد تميّزت فترة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي بالعديد من الدراسات الأكاديمية التي تناولت تعزيز قدرات الحكومة من خلال سياسة المبادرات، وفي هذا الشأن برز تياران رئيسيان: الأول تزعمه الاقتصاديون ويُعرف بالاقتصاد المؤسساتي الجديد *New institutional Economics*، والثاني قوامه المعرفة الإدارية/ التسييرية ممثلة في التسييرية *Managerialism*، حيث قام الاقتصاديون بإدخال المنطق الاقتصادي في عمليات الحكومة، في حين أدخل المسيرون تقنيات الخبرة المهنية التسييرية للقطاع الخاص في القطاع العام. فظهرت العديد من مذاهب الإصلاح على أساس هذين الاتجاهين.⁽⁶⁾

ويُعرف المعجم السويسري للسياسة الاجتماعية الإدارة العامة الجديدة بأنّها: نموذج لإدارة الإدارة العامّة القائمة على رفض نموذج الإدارة البيروقراطية في التسيير. كما يشير *Dufour/ Gow*، كما أنّ الإدارة العامّة الجديدة لا تقود الإدارة العامة للتخلي عن أنشطتها، إنّما تعزّزها من خلال إضفاء الطابع المهني على مديري الإدارة العامّة، ومنحهم المزيد من الحرية مقابل زيادة المساءلة، والاستعانة بتقنيات القطاع الخاص في تسيير القطاع العام من أجل تحقيق النتائج المتوقّعة، بالإضافة إلى الاعتماد على الإدارة القائمة على النتائج، والتنافس بين الوحدات الإدارية و تقديم الحوافز الفردية للأداء. وتركّز الإدارة العامّة الجديدة على الكفاءة، ومراقبة التكاليف، وجودة الخدمات المقدّمة للعملاء، والمرونة التنظيمية.⁽⁷⁾

كما تمّ تعريفها على أنّها: "تصوّر جديد يقوم على محاكاة قواعد تسيير المنظمات الاقتصادية الخاصة، وآليات السوق في إدارة المنظمات العامّة من أجل عصرنتها، والرفع من مستوى أدائها، مع الأخذ بعين الاعتبار التأثير الذي تمارسه البيئة على هذه المنظمات".⁽⁸⁾

وعرّفها *Nazmul Ahsan* بأنّها: "تطبيق تسييري جديد في الإدارة العامة وفق ذهنية القطاع الخاص".⁽⁹⁾ فهناك من يرى بأنّها: "تحويل التركيز من الإدارة البيروقراطية الفيربية إلى أسلوب جديد يقوم على المرونة

- المداخل التقليدية والمداخل الحديثة: ويُقصد بالمداخل التقليدية ما درجت الدول على استخدامها دون أن يصاحبها أثر فعّال في تطوير الإدارة، وهي ليست بالضرورة مداخل بديلة يجري الاختيار من بينها مثل: مدة صلاحية الخدمة الحكومية، التبسيط، فكّ القيود، اللامركزية، والتحديث.

ويُقصد بالمداخل الجذرية (الحديثة) ما يترتّب على تبنيتها تغييرات جذرية في النظام الإداري وهي أيضا مكتملة لبعضها البعض ولا تمثّل حلولاً بديلة، ومن أمثلتها: تقليص حجم العمالة الحكومية، إعادة الهندسة، إعادة الهيكلة، الإدارة الحكومية بأسلوب قطاع الأعمال، خصخصة الوحدات الحكومية.⁽²⁾

- الإصلاح الإداري وفقا لمجالاته: حدّدت سيجما وبالتعاون مع المفوضية الأوروبية المجالات الأساسية في عملية الإصلاح الإداري، وتمثّل في: الإطار الاستراتيجي لإصلاح الإدارة العامة، تطوير وتنسيق السياسات، الخدمة العامّة وإدارة الموارد البشرية، المساءلة، تقديم الخدمات، الإدارة المالية.⁽³⁾

- الإصلاح الإداري وفقا لنطاقه:⁽⁴⁾

المدخل الجزئي: يتمثّل في جهود الإصلاح الإداري التي تنصبّ على بعض عناصر النظام الإداري، ومن أساليب هذا المدخل: تبسيط إجراءات العمل، أو تعديل الهياكل التنظيمية والوظيفية، أو تدريب القيادات الإدارية.

المدخل الشامل: يُمثّل هذا المدخل جهود الإصلاح الإداري التي تتناول مختلف العناصر والعمليات والأنظمة والممارسات الإدارية، في كلّ قطاعات الجهاز الحكومي ومتطلباته أو في أغلبها، ويتمّ عادة من قبل لجان مركزية أو هيئات لا مركزية متوزعة على الوزارات والقطاعات المختلفة، وتوضع له خطة شاملة ويحدّد له نطاق زمني للتنفيذ.

2- مفهوم الإدارة العامّة الجديدة: تعرف الإدارة

العامّة بأنّها: "الآلية الكلية التي تشمل السياسات والقواعد والإجراءات والنظم والهياكل التنظيمية والموظفين وما إلى ذلك، الممولة من ميزانية الدولة و المسؤولة عن إدارة وتوجيه شؤون الحكومة التنفيذية، وتفاعلها مع أصحاب المصلحة الآخرين في الدولة والمجتمع والبيئة الخارجية".⁽⁵⁾

- تغيير في آلية الحكومة: من خلال التغيير في البناء الهيكلي للحكومة، ويتم ذلك عبر إعادة الهيكلة للأقسام والإدارات، واعتماد مبدأ اللامركزية في السلطة والمسؤولية من خلال إعطاء الصلاحيات للمستويات الإدارية الدنيا.

- التغيير في أسلوب الإدارة: ويكون ذلك من خلال تطبيق آليات القطاع الخاص في القطاع العام، والتركيز على الكفاءة والفاعلية.

- تقليص دور الدولة: ويكون عن طريق الخصخصة وتخفيض الميزانية، وتقديم تسهيلات الحكومية للقطاع الاقتصادي.

من خلال ما سبق نرى أنّ المناجارية Managerialists تؤكد على الانتقال من النموذج البيروقراطي (التسلسل الهرمي والرقابة) إلى نموذج ما بعد البيروقراطي، فالنموذج التقليدي للتنظيم وتقديم الخدمات يقوم على مبادئ التسلسل الهرمي البيروقراطي، التخطيط، المركزية، الرقابة المباشرة، والاعتماد على القدرة الذاتية دون إشراك الفواعل الآخرين، هذه الخصائص للنظام البيروقراطي التقليدي سيتم استبدالها بآليات السوق أو ثقافة المقاول/ المؤسسة كأساس لإدارة الخدمة⁽¹⁴⁾. ويوضّح الجدول التالي (رقم 01) أهمّ نقاط المقارنة بين نموذجي الإدارة التقليدية الفيدرالية/ والإدارة العامة الجديدة.

وخدمة العملاء، وتحسين جودة الخدمة لتصبح أكثر كفاءة واستجابة باستخدام نهج السوق"⁽¹⁰⁾

من خلال ما سبق نرى أنّ الإدارة العامة الجديدة هي أسلوب يهدف إلى تقليص حجم الحكومة وفرض نظام أسلوب السوق على عملها.⁽¹¹⁾ وتتميّز بما يلي:⁽¹²⁾

- فصل اتخاذ القرار الاستراتيجي المخول للسلطة السياسية عن التسيير العمليتي المخول للإدارة؛

- وتوجيه الأنشطة الإدارية، وتخصيص الموارد وفقا للمنتجات والخدمات التي يتعيّن تسليمها، وليس وفقا للقواعد أو الإجراءات؛

- وإضفاء الطابع اللامركزي على الوكالات وإنشائها كأداة تنظيمية؛

- والتخلي عن القانون الأساسي للموظف واعتماد الخبرة في مكافأة الأعموان حسب الجدارة؛

- وإدخال آليات السوق في مجال توريد السلع والخدمات ذات المصلحة العامة؛

- والاعتماد على الشفافية فيما يتعلّق بنوعية الخدمات وتكلفتها؛

- والبحث عن الكفاءة في استخدام الأموال العامة؛

- ومشاركة المستخدمين في تحديد وتقييم الخدمات العامة.

وتقوم الإدارة العامة الجديدة على ثلاثة عناصر

أساسية، هي:⁽¹³⁾

الجدول رقم (01): نقاط المقارنة بين نموذجي الإدارة التقليدية الفيدرالية/ والإدارة العامة الجديدة

الإدارة العامة الجديدة	الإدارة الفيدرالية	الأهداف
تحقيق النتائج، وإرضاء العميل	احترام القواعد والإجراءات	التنظيم
اللامركزية (تفويض الصلاحيات، بنية شبكية، الحوكمة)	المركزية (هرمية وظيفية، بنية هرمية)	تقسيم المسؤولية بين الإداريين والسياسيين
الوضوح	الغموض	تنفيذ المهام
استقلالية	تقسيم، تجزئي، التخصص	التوظيف
التعاقد	مسابقات	الترقية
الترقية على أساس الجدارة، وعلى أساس المسؤولية، وعلى أساس الأداء.	عن طريق الأقدمية	مراقبة
مؤشرات الأداء	مؤشرات المتابعة	نموذج الميزانية
تركز على الأهداف	تركز على الوسائل	

- Anne Amar et Ludovic Berthier, "Le nouveau management public : avantages et limites" document de recherche présenté dans XVI international RESER conférence Services Governance and Public Policies.Lisbon, September 28-30, 2006, p03.

البرهان على أنّ آلية السوق هي الأفضل فيما يتعلق بإعادة توزيع الدخل ، وتحقيق الاستقرار في المؤشرات الاقتصادية ، والكفاءة والفعالية في تقديم الخدمات.(15)

كما وجدت العديد من الدول مع نهاية الحرب الباردة نفسها وسط نقاشات واسعة الانتشار حول دور الحكومة وعلاقتها بالمواطنين ، فالدول النامية وجدت نفسها تحت ضغط مماثل تماما يرافقه دعوات قومية لتحديث مجتمعاتها تحديثا سريعا. وكان على الدول المتقدمة أن تعالج انخفاض ثقة المواطنين بالمؤسسات العامة. وقام المرشحون بإثارة حملات ناجحة حول مواضيع تقليص الحكومة وتخفيض قواها العاملة ، وكان من النادر تبني المواطنين لفكرة حكومة صغيرة لا سيما من حيث الخدمات التي يتلقونها. ومع ذلك ، انتشرت القوة السياسية لحكومة مقلصة نوعا ما حول العالم. واجتمعت هذه القوى لتشكّل ضغطا سياسيا قويا باتجاه الإصلاح.(16)

- تأثير النظريات الحديثة: لقد أدّى فشل الدولة في ظهور نظريات اقتصادية تعالج كفاءات ترشيد إنفاق الدولة على مختلف مهامها من خلال تطبيق العديد من الطرق: كتحليل التكلفة والمنفعة ، وترشيد اختيارات الميزانية ، ونظرية الوكالة.

إلا أنّ هذه الطرق أصبحت غير كافية مع تطور الممارسة وتنوع أدوار الدولة ، لهذا توسّع الاهتمام منذ منتصف السبعينيات إلى إسقاط ميكانزمات السوق على مجالات النشاط العمومي ، والممارسة التسييرية انطلاقا من فعاليتها في المنظمات الاقتصادية ، فظهرت مساهمات ونظريات متعلقة بدور الدولة في الحياة الاقتصادية: كنظرية الاختيارات العامة ، نظريات علاقات المعاملة ، ونظريات نفقات الاتفاق ، وفكرة تقليص الضبط الاقتصادي ، وقد أدت النظريات والأفكار المستحدثة إلى إضفاء تغييرات على أساليب تسيير المنظمات العمومية ، حيث مثّلت هذه التغييرات الأسس الأولى التي بني عليها ما يعرف بالإدارة العامة الجديدة.(17)

- العوامل الدولية: مع بداية تسعينيات القرن الماضي انتشر مفهوم العولمة والذي يشير في جوهره إلى ظاهرة مركبة لها أبعادها الاقتصادية والسياسية والاتصالية ، فعلى المستوى الاقتصادي مثلا شاع الحديث عن الاقتصاد

3- عوامل نشأة الإدارة العامة الجديدة: ارتبط

مفهوم الإدارة العامة الجديدة بمشاريع إصلاح الإدارة في بعض الدول الانجلوسكسونية (مارغريت تاتشر في بريطانيا ، وما تلا ذلك من انتخاب رونالد ريغان في الولايات المتحدة الأمريكية 1980 ، وبرايلا ميلي روني في كندا 1984) ، ويعود مصطلح الإدارة العامة الجديدة إلى الباحث كريستوف هود سنة 1990 ، ليتّم تعميم التسمية السابقة الذكر على جلّ المشاريع في الدول الغربية ، ودول آسيا وأمريكا اللاتينية أين أصبحت الإدارة العامة الجديدة هي المرجعية لكلّ الحكومات المركزية والهيئات المحلية فيما يتعلق بإدخال أيّ تغييرات على مرافق الدولة أو إصلاحها. أما عن أسباب ظهور إصلاحات الإدارة العامة الجديدة ، فيمكن إرجاعها إلى الأتي:

- تراجع دور الدولة: لقد كان دور الدولة لعقود كثيرة يقوم على تأمين خدمات الأمن والدفاع الخارجي والقضاء وهو ما يعرف بالدولة الحارسة ، وأوّل استعمال لهذا المصطلح يعود إلى Emile Olivier سنة 1870 وابتداء من منتصف القرن 19 تزايد تدخل الدولة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية ، تعود بوادر هذا التحوّل إلى أزمة سنوات الثلاثينيات التي أعطت دفعا جديدا لتدخّل الدولة في الحياة الاقتصادية.

وفي منتصف السبعينيات عرفت الكثير من الدول المتقدمة أزمة حادة في اقتصادياتها تعود بوادرها إلى نهاية الستينيات ، ورغم كلّ محاولات الإصلاح ، إلا أنّ السياسة المطبقة لم تعط النتائج المرتقبة ، وقد مثّلت أعراض هذه الأزمة والتخمينات الفكرية الليبرالية لدى العديد من الباحثين عوامل أساسية في تجديد الفكر الليبرالي في تلك الفترة ، حيث كان هذا الفكر يقوم على اعتبار أنّ تعاطم دور الدولة وما لذلك من آثار على مختلف الأنشطة ، هو السبب في استمرار واستفحال أزمة الاقتصاديات الغربية. وعليه كانت أولى الإصلاحات تهدف إلى تقليص دور الدولة الاقتصادي والاجتماعي لإعطاء المبادرات الخاصة أكثر مساحة للنشاط ، وكان لآلية السوق والمنافسة دور متزايد في ضبط الاقتصاديات ، وهو ما أدّى إلى مراجعة أشكال تدخّل الدولة بما في ذلك طرق تسيير حتى المرافق ذات الطابع الإداري ، وبناء عليه ظهرت عدّة نظريات أخذت على عاتقها

1- نموذج الإصلاحات الإدارية في نيوزيلندا (نموذج

ويستمنستر): نبعت دفعة الإصلاح الاقتصادي منذ عقدين من الهبوط النسبي للأداء الاقتصادي. ففي عام 1965 كان نصيب الفرد من إجمالي الناتج المحلي في نيوزيلندا (على أساس تعادل القوة الشرائية) سادس أعلى دخل بين البلدان الصناعية، ولكن هذا الترتيب انزلق في مطلع الثمانينيات إلى السابع عشر من بين 22 بلدا صناعيا. وقد عكس هذا الهبوط انخفاض معدلات التبادل التجاري، وحواجز أخرى على صادراتها الزراعية، وقد أضافت السياسات المالية والنقدية إلى مشاكل البلد الاقتصادية، وفي أوائل الثمانينيات واجه اقتصاد نيوزيلندا معدل تضخم مرتفع ومتغير، ودين عام متزايد، وبطالة متزايدة، وضغوطا خارجية متصاعدة، وفقدان الثقة الدولية في الاقتصاد، وهو ما أدى في عام 1984 إلى حدوث أزمة في النقد الأجنبي. (21)

وإزاء هذه الخلفية، كلفت هذه الأزمة الاقتصادية الحزب القومي الأغلبية في مجلس النواب، وجاءت بحزب العمال إلى السلطة لأول مرة منذ تسع سنوات. (22) الذي قام بمجموعة من الإصلاحات تمثلت فيما يلي:

- الخصخصة والتنظيمات: لقد خوصصت حكومة نيوزيلندية عددا من الشركات التي تملكها الدولة وعددا من الخدمات التي تديرها الحكومة (بما فيها شركات الهاتف والنفط والتأمين والبريد والطيران). وبالإجمال باعت الحكومة أكثر من عشرين شركة تملكها الدولة. لكن الخصخصة لم تكن هامة بقدر الجهود الكبيرة لزيادة إنتاجية الشركات التي تملكها الدولة. واعتبرت الحكومة هذه الشركات كيانات للحكومة فيها مصلحة المالك. وكان دورها تأمين أكبر عائد لدافعي الضرائب. وكان قانون الشركات الذي تملكه الدولة 1986 أول وأهم جزء في الإصلاح القانوني (23)، تلاه بعد ذلك قانون قطاع الدولة لعام 1988، وقانون المالية العامة لعام 1989. (24)

- التعاقد على أساس الأداء: ثبت قانون قطاع الدولة 1988 وقانون الأموال العامة لسنة 1989 الإصلاحات في قلب الإدارات الحكومية. ويمكن تلخيص أهم الإصلاحات التي جاء بها هذا القانون فيما يلي: (25)

العالمي، والذي أصبح أمرا واقعا مع ظهور منظمة التجارة العالمية WTO، وانتشار شركات متعددة الجنسيات، وبزوغ التكتلات الاقتصادية الدولية (18)، كما وجّه البنك الدولي ومنظمة التعاون الاقتصادي عملية الإصلاح الإداري وسانده، وفي أحيان أخرى لجأت إلى المشروطة للضغط على الدول المقترضة لإعادة هيكلة حكوماتها وأجهزتها الإدارية من أجل مسايرة العولمة.

- عوامل فنية: وتشمل التطور التكنولوجي وما طرحه من وسائل جديدة لتوفير الخدمات والحصول على المعلومات، بالإضافة إلى تأثير مراكز الأبحاث التي طرحت اتجاهها جديدا بخصوص ما الذي يجب ولا يجب على الحكومة أن تقوم به، وزيادة انتشار الإيديولوجيات التي تدعو إلى الحكم الراشد وإلى تقليص حجم الجهاز الإداري. وكذلك إدراك الشعوب أنّ النظام البيروقراطي القائم لم يعد ملائما، ولم يعد يلبي احتياجاتها وطلباتها كما يجب، كما أنّ الإصلاح الاقتصادي الهيكلي لا يكفي بمفرده. (19)

- أزمة التسيير العمومي: تعدد الآراء بخصوص انتقاد أساليب التسيير العمومي، حيث يرى كيرون وولشن أنّ أهمّ اتهام موجّه للقطاع العام هو التبذير في استخدام الموارد، بسبب عدم وجود حافز لدى الموظفين الحكوميين لمراقبة التكاليف، ويرى نيسكانن أنّ البيروقراطيين سوف يميلون إلى التوسّع في تقديم الخدمة العامة، فينتجون ضعفي الحدّ الأقصى من الإنتاج الذي يتطلبه المجتمع ممّا يرفع الميزانية إلى أعلى درجة لها. يضاف إلى ذلك نقص الحوافز فالأجر لا يرتبط بالإنتاج، وعدم القدرة على مراقبة الأداء بصورة فعّالة، بل وعدم وجود مجموعة مقبولة من مؤشرات الأداء. ممّا يؤدي إلى انتشار الفساد الإداري. (20)

وبسبب عدم وجود مواجهة منافسة، لا تعمل الحكومة على تطوير تقنيات تقديم الخدمة ما ينتج عنه رداءة الخدمة العمومية، وغياب الجودة والتميز في التسيير.

ثانيا: نماذج عن تطبيق الإدارة العامة الجديدة: تقع

الجهود العالمية للإصلاح الإداري في نموذجين عريضين تقريبا: إصلاحات ويستمنستر، التي اتخذت شكلها بانطلاق جهود حكومات نيوزيلندا والمملكة المتحدة، والنموذج الأمريكي في إعادة اختراع الحكومة.

سنوات المقبلة. عرفت الحكومة هذه المناطق SRAS التي أصبحت ملزمة لدوائر الدولة. ثم صاغت هذه المناطق SRAS قرارات الميزانية، بينما احتجت المخرجات المحددة من الرؤساء التنفيذيين (مناطق النتيجة الرئيسية KRAS) في عقودهم. ولم تشكل مناطق SRAS و KRAS الميزانية ونظام المحاسبة فقط، لكنّها حدّدت أيضا المسؤولية الأساسية في حكومة نيوزيلندا: من فعل ماذا، وكيف تتلاءم القطاعات المختلفة مع بعضها البعض في سياسة الحكومة. ومن أبرز نتائج هذه التجربة في الإصلاح الإداري ما يلي: (26)

أ - ظهرت أهمية تعزيز قياس الأداء لتحسين الإنتاجية، لذلك تبنت سياسة المحاسبة على أساس النتائج المتحققة من تلك المتفق عليها في اتفاقية الأداء. واتفاقية الأداء يتم بمقتضاها تحديد النتائج التي ترغب الدولة تحقيقها من كلّ جهاز. وفي ضوء ما يتحقّق من نتائج تتمّ المساءلة الإدارية. على أنه يترك لرئيس كلّ جهاز رسم الاستراتيجيات التي سيتبعها في تحقيق النتائج المطلوبة منه.

ب - ترتب على أسلوب المحاسبة والمساءلة طبقاً للنتائج، وضرورة التخلّص من الرقابة المركزية التفصيلية على النفقات التشغيلية، والتخلّص من وجود سقف للموظفين في الجهاز، ومنح المسؤولين صلاحيات كافية لاستثمار مواردهم في الميزانية بشرط ألا يتمّ تجاوز سقف الميزانية المحدّد للجهاز.

ج - تبين أنّ تغيير ثقافة الجهاز للتركيز على تحقيق النتائج ليس بالأمر الهين ويحتاج وقتا ليس بالقصير. كما أنه يتطلّب تعزيز قدرة رؤساء الأجهزة في أداء مهام الجهاز وواجباته. كما تبين ضرورة بناء نظام معلوماتي، وتوفير تدريب لجميع فئات العاملين، واستخدام تقارير عن المعلومات، وقياس الأداء، وتطبيق جوانب إصلاحية أخرى.

د - تبين أنّ التوجّه نحو التركيز على النتائج يتطلّب وجود جهة مركزية تعطي التوجيهات للأجهزة التنفيذية لكي تساعد على التطبيق، وعلى تقييم جوانب التطبيق لتحديد الصعوبات التي تواجه التطبيق والمنافع الناجمة عن الإصلاح من وجهة نظر مسؤولي الأجهزة التنفيذية التي تطبّق الإصلاح الإداري.

هـ - نتج عن الإصلاح منح المديرين التنفيذيين مرونة كافية في استغلال الموارد المتاحة لهم في الميزانية

- إلغاء نظام السلك الوظيفي واستبداله بنظام التعاقد، وعليه يكون قد أُلغى مبدأ الأمان أو الاستقرار الوظيفي الذي أقرّه قانون القطاع العمومي الصادر في 1962؛ - منح هذا القانون للجنة الخدمات العمومية صلاحية إدارة هذا القانون؛

- يعين على رأس كلّ دائرة من دوائر الخدمة العمومية وزير كرئيس سياسي لها وموظف إداري يعمل كرئيس إداري لها، يطلق عليها رئيس تنفيذي، ويعين من قبل لجنة الخدمات العمومية ولمدّة محدّدة؛

- إعطاء الرؤساء التنفيذيين صلاحية توظيف الموظفين على مستوى الدوائر التي يشرفون على إدارتها من خلال نفس قواعد التوظيف المطبقة في القطاع الخاص؛

- العمل على تبسيط وعقلنة عملية تصنيف العمال في الوظيفة العمومية، حيث كان النظام القديم يعتمد على الترقية في تصنيف العمال مما جعله نظاما معقدا، أما قانون 1988 فأعطى الحرية لرؤساء الدوائر العمومية في اختيار نظام التصنيف الذي يرونه مناسباً، ونتيجة لذلك قام وزير التجارة والأعمال الخارجية بتخفيض عدد القوانين الأساسية الخاصة المطبقة في دائرته من 02/16، كما قام وزير الفلاحة والصيد في 1993 بتبني 04 قوانين أساسية خاصة ومختلفة لتطبيقها على موظفي إدارته؛

- إلغاء منطوق الوسائل أين كانت الجدارة تقاس بالأقدمية واستبداله بمنطوق النتائج، أين أصبح الأداء والتسيير الجيدين هما المعياران اللذان يعبران عن الجدارة والاستحقاق، وبذلك أصبحت مسألة التقييم الأداء تركز على النتائج المحققة سواء على المستوى الفردي أو الجماعي.

- التخطيط الاستراتيجي: منذ سنة 1992 تنتج الحكومة النيوزيلندية ميزانيات بالاستحقاق، إضافة إلى ذلك أقرّ قانون المسؤولية المالية لسنة 1994 أن تحدّد الحكومة أهدافها المالية، وأن تقدّم تقريرا عن جودة إنجازها.

وبعد ذلك خولت الحكومة خلق مناطق النتيجة الاستراتيجية SRAS ومناطق النتيجة الرئيسية KRAS. وكان يطلب من موظفي الحكومة أن ينتقلوا من أهداف السياسة العريضة إلى الإستراتيجية المحدّدة التي تتابعها الوكالات وتقرر هذه الاستراتيجيات مناطق النتيجة الاستراتيجية SRAS التي تركز عليها الوكالات خلال 3-5

-حكومة ريادية مغامرة: الكسب بدلا من الإنفاق ؛
 -حكومة التوقّعات: الوقاية بدلا من العلاج ؛
 -حكومة لامركزية: من التسلسل الهرمي إلى المشاركة والعمل الجماعي ؛
 -حكومة يوجّهها السوق: تعزيز التغيير عبر السوق.

وقد كلّف الرئيس الأمريكي كلينتون بعد فوزه في الانتخابات الرئاسية سنة 1992 نائبه ال غور بتبني فكرة إعادة اختراع الحكومة من خلال برنامج مراجعة الاداء الحكومي NPR، تحت شعار: " خلق حكومة تعمل بصورة أفضل وتكلفة أقل". ومن أهم المبادئ الخاصة بهذا البرنامج كالتالي:(28)

- القضاء على الروتين ؛

- إعطاء الأولوية للعملاء ؛

- تمكين الموظفين من تحقيق النتائج ؛

- الترشيد وإنتاج حكومة أفضل بتكلفة أقلّ.

وتمّ تنفيذ هذه المبادئ من خلال: خلق إحساس واضح برسالة العمل، والإمسك أكثر بالدفة وتجذيف أقل وتفويض السلطات والمسؤوليات، واستبدال القواعد المنظمة بالحوافز، وإعداد موازنات، وتقييم على أساس النتائج، وتعريض العمليات الحكومية للمنافسة، والبحث عن حلول مستمدة من السوق، وقياس الأداء من خلال إرضاء العملاء.

وكانت أهمّ نتائج الإصلاحات الإدارية من منظور إعادة اختراع الحكومة كالتالي:

- تقليص الحجم: تشير الادبيات الى أنّ عملية تقليص الحجم في الولايات المتحدة الأمريكية مرّت بمرحلتين مختلفتين شهدهما الجهاز الإداري. أولاها، منذ أوائل حتى منتصف الثمانينيات وثانيها، منذ 1993 حتى 1999. ففي عام 1993، قامت حكومة الولايات المتحدة بالاضطلاع ببرنامج طموح لتقليص حجم القوى العاملة الفيدرالية بنحو 12.5% خلال ستّ سنوات، ونجحت الحكومة في تحقيق هذا الهدف قبل انتهاء الفترة المحددة. وفي عام 1994، أقرّ الكونجرس الأمريكي تشريعا خاصا بحتمية تقليص العمالة الفيدرالية بنحو 272.900 عامل. وفي عام 1998، تمّ بلوغ هذا الهدف وحتى الزيادة عنه، ففي

لتحقيق النتائج. وبتسهيل إجراءات شؤون الموظفين، وتحويل الكثير من الصلاحيات ذات العلاقة بالتوظيف من الإدارات المركزية للتوظيف إلى الإدارات التنفيذية مثل: إجراءات الترقية، تصنيف الوظائف، وتحديد الرواتب. كما تمّ مطالبة هذه الأجهزة باتباع الأساليب الحديثة في الإدارة لتعزيز جودة الإنتاجية. وانعكست هذه المرونة بشكل إيجابي على إيجاد حوافز لدى الجهاز لترشيد الإنفاق والاستغلال الأمثل للمصادر المتاحة له.

ز — أظهرت التجربة في نيوزيلندا أهمية التعامل الجيد مع مقاييس الأداء بغرض التأكد من أنّها: تنطلق من أهداف البرنامج، تعكس قدرة المسؤولين في التأثير المباشر على النتائج المستهدفة وأثرها على المستفيد، تعطي دورا لمديري البرامج والمسؤولين عن تحقيق النتائج في تصميم مقاييس الأداء لبرامجهم، تشمل النوعية والكمية والكفاءة والفاعلية، وتتيح جمع المعلومات حول مدى تحقيق الجهاز للأهداف العامة والتفصيلية على السواء.

2- نموذج الإصلاحات الإدارية في الولايات المتحدة

الأمريكية (نموذج إعادة اختراع الحكومة): يعتبر كتاب أوسبورن وجيبيلر من أهمّ ما يمثّل الإدارة العامة الجديدة وكيفية ترجمتها لإحداث إصلاح إداري حكومي شامل. لهواجهة الانخفاض الملحوظ في الإيرادات الحكومية في الولايات المتحدة أثناء هذه الفترة، وأنّ الحركة تُعدّ نتاج التقاء تيارين مختلفين هما: تيار الولوج بالإدارة وتيار الإصلاح التقدّمي، ويقترح الكاتبان أوسبورن وجيبيلر عشرة مبادئ أساسية لتحويل مسار الجهاز الإداري:(27)

- حكومة محفزة: التوجيه بدلا من التجذيف ؛

- حكومة يملكها المجتمع: التمكين بدلا من الخدمة ؛

- حكومة تنافسية: إدخال التنافس في إيصال

الخدمات ؛

-حكومة توجّهها مهمتها: تحويل المنظمات التي

توجّهها القواعد ؛

-حكومة توجّهها النتائج: تمويل المخرجات، لا

المدخلات ؛

-حكومة يوجّهها الزبائن: تلبية حاجات الزبون، لا

الجهاز المكتبي ؛

العمالة الفيدرالية يبلغ 355500

خاتمة: من خلال هذه الورقة البحثية حاولنا تسليط الضوء على أهم الاتجاهات الجديدة في الإصلاح الإداري والمتمثل في الإدارة العامة الجديدة ، هذا الاتجاه الذي ما زال يتصف بحدائته ، كما أنه لا يمثل بناء نظريا أو عمليا متفق عليه. إلا أنّ حركة إصلاح الإدارة العامة كانت عالمية بمعنيين. الأول ، لقد انتشرت في جميع أنحاء العالم. والثاني ، لقد كانت كاسحة في مجالها فاستخدمت الحكومات إصلاح الإدارة لإعادة تشكيل دور الدولة وعلاقتها بالمواطنين. ومن أهم النتائج المتوصل إليها ، هي:

- تأثر حركات الإصلاح الإداري بالتطور في النظريات الاقتصادية والسياسية الرائجة في أنحاء العالم ، من خلال تأثيرات العولمة ، ومن خلال الآليات المختلفة التي تسير وتساعد على انتشار وترويج وخلق فكر عالمي يحكم تطور الأنساق المعرفية في كلّ زمن من الأزمنة ، ومن ذلك التطور في وسائل الاتصال والمعلومات.

- تُعدّ الإدارة العامّة الجديدة من أبرز الإصلاحات الإدارية في الدول الغربية في السنوات الأخيرة ، حيث تعدّدت فيه المساهمات والنماذج المقترحة والمطبقة. وبات من غير الممكن تجاهل تجارب الإصلاح المطبقة في العديد من الدول ، حتى وإن كانت هذه التجارب غير قابلة للإسقاط على دول أخرى ، إلا أنّ هناك توجهها عاما في تفعيل أساليب هذا التسيير من أجل فعالية أكثر في تقديم الخدمة العمومية وترشيد استخدام الموارد.

وعلى الرغم من الاتفاق الواسع حول أهمّ ملامح التغيير وحركات الإصلاح الإداري التي تمّ تنفيذها خلال السنوات الماضية ، إلا أنّنا نجد اتجاهات معارضة كثيرة ، لا تدعو للعودة للوراء مرّة أخرى ، أو الالتزام بالنموذج البيروقراطي والإدارة العامة التقليدية ، وإنّما تنبّه وتحذر من بعض مثالب الاتجاهات المعاصرة المتمثلة في الإدارة العامّة الجديدة بجميع مسمياتها ، ومن أهمّ هذه الانتقادات: (31)

- أنّ من أخطر عيوب الإدارة العامّة الجديدة عدم التفرقة بين القطاع الحكومي والخاص ، وتجاهل حقيقة أنّ الجهاز الإداري الحكومي مبنى على سيادة القانون وليس على آليات السوق ، فالاختلافات بين الحقلين ليست بسيطة ،

الفترة من يناير 1993 حتى يناير 1998 ، كان صافي تقليص موظف (16.2% من إجمالي القوة العاملة) ، ووقعت نحو ثلثي التخفيضات (64%) في صفوف المدنيين العاملين بوزارة الدفاع ، بالإضافة إلى هيئات أخرى ، وكان مكتب إدارة الشؤون العاملين من أكثر الهيئات تأثرا بالتخفيضات (نسبة التقليص 51.3%) ، ثم إدارة الخدمات العامة ، بنسبة التقليص تقدر بـ(20.3%). وكان المستهدف في بداية مرحلة التسعينيات هو إجراء تقليص العمالة بنسب متفاوتة في الهيئات المدنية بحجة وجود فائض في الحكومة الفيدرالية ، حيث يمكن التخلص منه دون اضطراب البرامج المقدمة أو الخدمات ، ولكن مع الوقت ، لم ينفذ البرنامج بنسب متساوية وإنما تفاوتت النسب ، فمثلا مكتب إدارة شؤون العاملين فقد أكثر من نصف موظفيه ، بينما وزارة العمل شهدت تزايدا في أعداد الموظفين بها. بالإضافة إلى التخفيضات في أعداد العاملين ، كما نادى تقرير الأداء القومي بضرورة الحدّ من عدد الدرجات الإدارية ، وبإجراء مزيد من التقليص لترشيد استخدام الموارد وخفض النفقات بصورة عامة. (29)

- إنجاز الإصلاح وخدمة الزبون: سنّ الكونغرس في سنة 1994 قانون تنظيم المكتسبات الاتحادية ، بسط هذا القانون الإجراءات لاتخاذ تعليمات للإنجاز وأعطى المديرين مرونة أكثر لشراء السلع المتوفرة ، كما فوّضت الإدارة جميع الوكالات الاتحادية لتقوم بتطوير خطط لخدمة الزبون ، ممّا أدّى إلى تحوّل كبير في طريقة تفكير الكثيرين من العاملين الحكوميين الاتحاديين حول الأعمال التي قاموا بها وبالطريقة التي أدّوا بها هذه الأعمال. (30)

كما حقّقت حركة خدمة الزبون نتائج إيجابية لاسيما في إدارة الضمان الاجتماعي وفي إدارة الجمارك ، وساعد تغيير الإنجاز في جعل الحكومة الاتحادية شريكا أفضل في عقودها الخاصة ، وتقلّصت مكاسب القوى العاملة بمقدار الثلث ، وادّعى أمر تموين القوى الجوية أنّ تخفيضا في عدد صفحات تعليمات المشتريات بلغ 64% ، وأعلنت مراجعة الأداء القومي NPR وفرا قدره 12.3 بليون دولار في السنوات الأربع الأولى من الجهود.

- إنَّ نموذج الإدارة العامة الجديدة لا يصلح لكلِّ الدول ، وخاصة الدول النامية ، ففي قول ماثور لجيبيلر: " لا بدَّ من اختراع الحكومة قبل إعادة اختراعها". فيرى كل من هيرديا وشنيدر والذان تحدّثًا عن نماذج الإصلاح الثلاثة: الخدمة المدنية والمساءلة والنموذج الإداري ، أنَّ الإصلاح الإداري في أي دولة يجب أن يأخذ من النماذج الثلاثة ، ولا يركّز على نموذج واحد فقط ، وهما في ذلك يتفقان مع البنك الدولي الذي يدعو إلى ثلاثة ميكانيزمات أو آليات لتدعيم أداء الدولة وهي: الأحكام والضوابط ، وضغوط المنافسة ، والصوت والشراكة ، فالبنك الدولي يرى بضرورة السعي في الاتجاهات الثلاثة في ذات الوقت.

- إنَّ الإطار الاقتصادي للإصلاح الإداري يصلح فقط للتطبيق على الأعمال الحكومية التي لها طبيعة تماثل قطاع الأعمال ، كعمليات التشييد والبناء ، ولكنه لا يلائم الأنشطة الأخرى: كالتعليم والصحة والرعاية الاجتماعية والسلع العامة.

وإنَّما هي اختلافات جذرية. فمسئولية الموظّفين العموميين هي أن يعملوا على تنفيذ القوانين ، والمهرووسون مسئولون أمام رؤسائهم عن تنفيذ هذه القوانين ، وليس أمام العملاء كما هو الحال في الإدارة العامة الجديدة ، والقانون والدستور هما أساس الإدارة العامة وأساس تحديد غاية الجهاز الإداري ككلّ.

- الإدارة العامة الجديدة أتت ليس فقط بآليات القطاع الخاص ، ولكن أيضا بقيمه ، وهذه القيم مثل: المنافسة والروح الاستثمارية والمغامرة والمصلحة الذاتية ، لا تلائم العمل في الإدارة العامة ، ولها تأثير سلبي على قيم الخدمة المدنية. فعلى سبيل المثال ، فكرة أنَّ المدير في الإدارة العامة يتصرّف كما لو كانت الموارد المالية المسئول عنها ملك له ، تتعارض مع فكرة المساءلة والاستجابة في الإدارة العامة الديمقراطية. وهناك أهمية لتقديم الصالح العام والأهداف الاجتماعية والسياسية على أي مصلحة أخرى ، والترويج لقيم العدالة والمساواة والمساءلة ، والتي في جوهرها الدور الأساسي للجهاز الإداري في أي دولة ديمقراطية.

الهوامش

1. UNDP, **Public Administration reform**, P2.
https://www.undp.org/content/dam/aplaws/publication/en/publications/democratic-governance/dg-publications-for-website/public-administration-reform-practice-note-/PARPN_English.pdf.
2. عالية عبد الحميد عارف ، نظرة نقدية لبرامج الإصلاح الإداري في مصر خلال حقبة التسعينيات ، ورقة بحثية قدمت إلى المؤتمر الدولي الموسوم بإصلاح الخدمة المدنية في مصر 22-23 جوان 2008 ، شركاء التنمية بحوث استشارات تدريب ، القاهرة ، ص 12.
3. سيجما ، مبادئ الإدارة العامة: إطار عمل لدول سياسة الجوار الأوروبية ، ص 5.
<http://www.sigmaxweb.org/publications/Principles-ENP-Arabic.pdf>
4. فيصل بن معي ضال سمير القحطاني ، إستراتيجيات الإصلاح والتطوير الإداري ودورها في تعزيز الأمن الوطني ، الرياض ، جامعة نايف ، 2006. ص ص 40-41.
5. UNDP, **Public Administration reform**, **Opcit**, P1 .
6. طارق عشور ، " مقارنة التسيير العمومي الجديد كآلية لتدعيم وتعزيز تنافسية وكفاءة المنظمات الحكومية" ، مجلة أداء المؤسسات الجزائرية ، جامعة ورقلة ، العدد 01 ، 2001 ، ص 110.
7. Michèle Charbonneau, **Nouveau Management Public**, Dictionnaire encyclopédique de l'administration publique, Québec Canada, 2012, P1.
8. محمد السعيد جوال ، " ترقية أداء المنظمات العمومية في ظل مقارنة التسيير العمومي الجديد (NPM): دراسة تحليلية نظرية" ، مجلة شمال إفريقيا ، جامعة الشلف ، العدد 14 ، 2016 ، ص 69.
9. Nazmul Ahsan Kalimullah, Kabir M. Ashraf Alam, Ashaduzzaman Nour." **New Public Management: Emergence and Principles**". **Bub Journal**, Bangladesh University, Volume 1, Issue 1, September 2012, P2.
10. Kimberly Scism Eagle, **New Public Management in Charlotte, North Carolina: A Case Study of Managed Competition**. for the degree of Doctor of Philosophy in Public Administration, the Faculty of the Virginia Polytechnic Institute and State University, 2005 ,Unpublished.P20.
11. دونالد كيتل ، ثورة الإدارة العامة العالمية: تقرير حول تحول الحكم ، تر: محمد شريف الطرح ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، 2003 ، ص 26.
12. Yves Chappoz, Pierre-Charles Pupion, "Le New Public Management", **Gestion et management public**, L'Association Internationale de Recherche en Management Public (AIRMAP), Volume 1/n°2, 2012, P1
13. بسمة عبد الله ، الإدارة العامة الجديدة ، تم تصفح الموقع يوم 2019/06/23
<https://www.elsyasi.com/articles/print/2169>
14. طارق عشور ، المرجع السابق ، ص 111.
15. ليلي بن عيسى ، " التسيير العمومي الجديد: المقاربات النظرية والتجارب الواقعية" ، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية ، جامعة باتنة 1 ، العدد 16 ، جوان 2007 ، ص 8-9.
16. دونالد ف. كيتل ، المرجع السابق ، ص 18.
17. ليلي بن عيسى ، "الحكم الراشد أحد مقومات التسيير العمومي الجديد" ، مجلة أبحاث اقتصادية وإدارية ، جامعة بسكرة ، العدد 14 ، ديسمبر 2013 ، ص 192.
18. سلوى الشعراوي ، "تحليل السياسات العامة في القرن الحادي والعشرين" ، ضمن كتاب: تحليل السياسات العامة في الوطن العربي ، سلوى الشعراوي محررا ، مركز دراسات واستشارات الإدارة العامة ، القاهرة ، 2004 ، ص 34.
19. ليلي مصطفى البرادعي ، "الاتجاهات المعاصرة في دراسة الإصلاح الإداري دراسة مسحية" ، مجلة النهضة ، جامعة القاهرة ، العدد 20 ، يوليو 2004 ، ص 60.
20. بن عيشي بشير ، بن عبيد عبد الباسط ، "التسيير العمومي الجديد: مدخل حديث لمعالجة أزمة التسيير العمومي" ، مجلة الحقيقة ، العدد 37 ، جوان 2016 ، ص 386.
21. صندوق النقد الدولي ، أفاق الاقتصاد العالمي: دفع عجلة الإصلاحات الهيكلية ، أبريل 2004 ، ص 17.
22. Judy Whitcombe, " Contributions and Challenges of New Public Management : New Zealand since 1984", **Policy Quarterly**, Victoria University of Wellington, Volume 4, Issue 3 , September 2008 P8.
23. دونالد ف. كيتل ، المرجع السابق ، ص 34.
24. Richard Mulgan. **Public sector reform in New Zealand: Issues of Public Accountability**, Asia Pacific School of Economics and Government, The Australian National University, 2004, p1.
25. سلوى تيشات ، أفاق الوظيفة العمومية الجزائرية في ظل تطبيق المناجمنت العمومي الجديد بالنظر إلى بعض التجارب الأجنبية (نيوزيلاندا ، فرنسا ، والولايات المتحدة الأمريكية) ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علوم التسيير ، كلية العلوم الاقتصادية والتجارية ، جامعة بومرداس ، 2014-2015 ، غير منشورة ، ص 169.

26. عبد الرحمن بن عبد الله الشقاوي ، "نحو أداء أفضل في القطاع الحكومي في المملكة العربية السعودية"، ورقة بحثية قدمت إلى الندوة حول: الرؤية المستقبلية للاقتصاد السعودي حتى عام 1440 هـ ، وزارة التخطيط ، الرياض ، شعبان 1423هـ/ أكتوبر 2002. ص 17-18.
27. ديفيد أوزبورن ، نيد غايبلر، إعادة اختراع الحكومة: كيف تحول روح المغامرة القطاع العام، تر: محمد توفيق البجيرمي، العبيكان، الرياض ، 2010 ، ص05.
28. ليلي مصطفى البرادعي ، المرجع السابق ، ص71.
29. ليلي مصطفى البرادعي ، "تقليص الحجم كمدخل من مداخل الإصلاح الإداري في الإدارة العامة: الدروس المستفادة من تجارب عدة دول" ، مجلة النهضة ، جامعة القاهرة ، العدد 08، 2001، ص119.
30. دونالدف. كيتيل ، المرجع السابق، ص 48-49.
31. ليلي مصطفى البرادعي ، "الاتجاهات المعاصرة في دراسة الإصلاح الإداري دراسة مسحية" ، المرجع السابق، ص 75-77.

لغة الكتابة الموجّهة للأطفال؛ بين الهدف والتداول

The language of writing for children; between the objective and the pragmatic

تاريخ القبول: 2019-12-18

تاريخ الإرسال: 2018-12-18

أحمد سعيد مغزي، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

nadi_zahraoui@yahoo.fr

الملخص

تعدّ لغة الكتاب الموجّه للطفل رافدا من الرّوافد الدّاعمة للغة الرّسمية (اللغة الهدف في العملية التعليمية)، ومصدرا من مصادر إثراء الرّصيد اللغوي، وتنمية الخبرة التّداولية للغة، بما يوفّره من ثروة مفرداتية، وأساليب تعبيرية، وصياغات تخدم المواقف التّواصلية. لكن الواقع اللغوي يوحي بأنّ التأثير المستهدف ما يزال بعيد المنال، فما مردّد ذلك؟ ثمّ إنّ الملاحظ في واقع هذا الكتاب، أنّه يعاني ترهلا، يشهد عليه العجز المسجل في مستوى الكمّ والنّوع، ممّا فسح المجال أمام الوافد الأجنبي لسدّ النقص. ولكن هذا لم يخل من تأثيرات سلبية؛ تمثلت بالأساس في نقل صور لبيئات لغوية غير البيئة اللغوية الجزائرية، أربكت الطفل، وقلّلت من قيمة منتوجه اللّغويّ. فهل كان هذا سببا في إضعاف لغة التداول؟

الكلمات المفاتيح: الكتابة الموجّهة للأطفال، الكتاب، الرصيد اللغوي، البيئة اللغوية

Résumé

Le livre destiné à l'enfant est considéré comme un support qui influe sur la langue officielle (la langue cible dans le processus éducatif). Il se voit d'emblée comme étant une source d'enrichissement de l'équilibre linguistique et du développement d'une expérience pragmatique de la langue, avec sa richesse lexicale et ses styles d'expressions qui servent à s'intégrer dans des situations de communications. Toutefois, il a été remarqué que le livre destiné à l'enfant algérien souffre d'une carence qui témoigne de l'important déficit enregistré tant au niveau quantitatif que qualitatif. Cela a permis de reconstituer l'environnement linguistique sans avoir des effets et impacts négatifs.

Mots clés: écriture destinée aux enfants, livre, lexique développé, environnement langagière.

Abstract

The child's book is considered as a medium that influences the official language (the target language in the educational process). It is a source of linguistic richness that provides vocabulary, methods of expression, and formulations that serve communicative situations. But what we notice, in reality, is that the Algerian child book is suffering from a significant deficit recorded in terms of quantity and quality, which paved the way to foreign books to fill the shortage. This has a lot of negative effects; mainly, the transfer of pictures of foreign linguistic environments that may confuse the child, and reduce his linguistic production.

Keywords: writing for children, book, lexical development, the language environment

تمهيد

بعض صورةً باطنة قائمة في نفسه. والجثمانية بالخط الذي يخطه القلم وتقيّد به تلك الصورة، وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة. وفسّر الآلة بالقلم، وبذلك يظهر معنى الحدّ وما يدخل فيه ويخرج عنه؛ ولا شك أنّ هذا التحديد يشمل جميع ما يسطره القلم ممّا يتصوره الذهن ويتخيّله الوهم، فيدخل تحته مطلق الكتابة كما هو المستفاد من المعنى اللغوي⁽¹⁾؛ فالكتابة إذن، ضمّ الألفاظ بعضها إلى بعض بواسطة خطّ القلم، لتصوير معانٍ متخيّلة في عالم النفس الباطن صوراً معقولة، وإخراجها لتصوير صوراً ظاهرة محسوسة، فيتمكّن الكاتب بذلك من التعبير عمّا يجول في عقله، ويحقّق التواصل مع غيره، ويبين عن أغراضه، وهي التي تجعل صاحبها، يحرص على إيجاد قارئه المنتظر، الذي سيبحث الحياة في معاني المكتوب، بحكم أنّه مفطور على حبّ التّطعّ، واكتشاف المجهول، كما أنّها هي من "تحركّ في القارئ كوامن الشّوق إلى البحث عن المجهول الذي يثير فيه المتعة والرّهبة والرغبة من خلال ما يتوافر عليه النصّ من طاقات إبداعية، وبناء محكم، ووجود لغوي ذي وظيفة متعدّدة الأوجه"⁽²⁾. وإذا كان الكاتب يستدعي قارئاً، فإنّ الكتابة تستدعي نصّاً، سيكون جسدها المزدان بجماليات الإبداع، وطاقات الوظيفية المطلوبة لإحداث الفعل القرائيّ المنتظر.

وللكتابة أسس ثلاثة: "الأول معنويّ؛ وهو المحتوى الفكري الذي يتكوّن في نفس الإنسان من المعاني والمدركات التي يريد التعبير عنها، والثاني لفظي؛ وهو المظهر الذي يلوح من خلال الكلمات والجمل والتراكيب والأساليب التي يعبر بها عن الأفكار والمعاني... أما الأساس الثالث فيمكننا أن نطلق عليه الأساس الاجتماعي؛ ويمثل الشكل الذي تصاغ فيه الأفكار على مستوى النص"⁽³⁾.

ومن منظور براغماتي وظيفي، فقد صارت مهارة يجب أن تتحقّق في المتعلّم؛ إذ يلي بها حاجته النفسية اللازمة. لهذا بات يراهن عليها المجتمع في فعله التّربويّ، وراح يستهدفها بدءاً بمرحلة الطفولة، لينبني بها سلوكاً ثقافياً وحضارياً، تمتدّ أبعاده إلى أجيال المستقبل. وإذا كان المجتمع يرى من واجبه حقّ ممارسة الوصاية على الأطفال، فإنّ هذا يلزمه توفير الرعاية الصّحيّة، والنفسية، والفكرية،

الكتابة في عمومها، إنتاج لخطاب واع، يستهدف مخاطبين مؤهلين، يملكون من القدرات ما يجعلهم مستعدّين لتلقّيه بتفاعل مع الغرض التّبليغي المقصود. والكتابة الإبداعية فنّ يضفي على الخطاب الواعي الجانب الجمالي، ويروم تقديمه بهذا اللبوس لأغراض لا يمكن أن تكتفي بالتبليغ والتواصل. وبين الوعي والإبداع يسكن الطفل القارئ مرتبصاً بالكاتب؛ ينهل من لغته الواقعية عندما يرسم له واقعه، ومتطلّعاً للمبدع يخرج به إلى فضاءات أحلامه يستكشف من خلالها لغة العوالم الأخرى ومعارفها. وفي فعل القراءة ستتولّد لحظة الدّمج بين هذا وذاك لتدفع بالطفل القارئ إلى إنتاج نصّ الطفولة المنتظر. لهذا ستظلّ القراءة فعلاً يراود الكتابة، يلامس سطح بنيتها، بحثاً عن مفاتيح دلالاتها، ويغوص في الأعماق مستكشفاً الموارد التي تبني المعرفة الجديدة. وسيظلّ الفعل القرائيّ فعلاً يعتمد على مدى نضج الكفاءة اللغوية عند صاحبها، ليتعامل مع اللغة باللغة، يخصّب منتج القارئ الدّلالي، ويثري رصيده اللفظي، ويضيف إلى التجربة خبرة بالنظام اللغوي.

وإذا كانت القراءة فعلاً للمراودة، فإنّ الكتابة ستكون فعلاً للتحدّي؛ تحديّ الذات في تعبيرها عن قدرتها في التواصل مع الآخر (الطفل القارئ)، وتحديّ عالم اللغة من خلال بيان القدرة على التكيّف مع مستوياتها، وانتقاء ما يناسب هذا الطفل القارئ، وتلبية حاجاته من الفهم والمعرفة. وساعتها سيكون كلّ الرّهان على لغة الكتابة إرسالاً واستقبالاً.

أولاً: مفهوم الكتابة الموجهة للطفل

الكتابة رسم بالرمز اللغوي لإظهار الأفكار الخفية، وتجسيد للدلالات المستورة. إنها ألفاظ مسطّورة، ومعانٍ منشورة، هكذا كانت، وهكذا ستبقى نتاج أقلام محبورة، خطّت الخطّ، فتولّد معه فعل القراءة.

جاء في كتاب (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي قوله في تعريف الكتابة، هي: "صناعة روحانية تظهر بألة. جُثمانية، دالة على المراد بتوسط نظمها. ولم يبين مقاصد الحد ولا ما دخل فيه ولا ما خرج عنه، غير أنّه فسّر في موضع آخر معنى الروحانية فيها بالألفاظ التي يتخيّلها الكاتب في أوهامه، ويصوّر من ضمّ بعضها إلى

- تنمية مهاراته اللغوية؛ ففي ميدان المكتوب، تنمي الكتابة المهارات القرائية والكتابية للطفل، وترتقي بها إلى مستوى الإنتاج والإبداع في عمليتي التواصل والتبليغ. على أننا نحصل من كل هذا الذي قيل؛ إن الكتابة والقراءة يشتركان في أنهما فعلاً إنجازاً، هدفهما اللغة توظيفاً وتحقيقاً.

ثانياً: معايير الكتابة الموجهة للأطفال

أشرنا إلى أنّ الخبرة باللغة هي التي تسهم في بناء المعرفة، وبالتالي فإنّ هذه الخبرة تكتسب من تفاعل طفولي مستمر مع المقروء كيفما كان شكله؛ أي أنّ الكتابة يجب أن تجسدها نصوص وظيفية وإبداعية على السواء. فالفعل التربوي والتعليمي التعليمي قدّم نصّ الوضعيات التعليمية، ونصّ السؤال، ونصّ المعرفة المستنبط (الخلاصة)، مقترنا بالوظيفية، كما يقدم النصّ الأدبيّ بأجناسه المختلفة، مقترنا بالإبداع، وهو بهذا يراهن على التجاوب الفعّال للطفل القارئ المنجذب نحو فعل القراءة، بلبوس الجمالية المحقّق في الكتابة.

من هنا كانت الكتابة للأطفال مهارة، وعملاً إبداعياً، "وحيثما يكون الإبداع توجد صعوبات... لأن الشكل الفنيّ المكتمل أو المقارب للاكتمال يحتاج إلى خبرة ودراية وموهبة، وإلى إلهام عميق بالموصفات الإبداعية المختلفة... ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن طريقة الإيصال للطفل هي بحد ذاتها.. عمل تربوي، يتطلب تفهّماً كاملاً لنفسية الطفل وظروفه وإمكاناته المختلفة"⁽⁷⁾. فالطفل ليس مُصغّر رجل، يخاطب بلغة الكبار القائمة على الإيحاء والغموض في الموضوعات الفنية. والكتابة له، ليست بالضرورة تبسيطاً للمعاني الموجهة للكبار، ولا تكريسا لواقعهم أو تعبيراً عن طموحاتهم؛ إنها تتميز عن هذا كله لتستقل بعوالمها وأدواتها ومعابرها؛ حين سئل الشاعر السوري (سليمان العيسى) عن توجهه لكتابة الشعر للأطفال بغزارة، وكيف وُفق في ذلك، أجاب بما ينبى عن خبرة إيجابية مكتسبة، فقال: "أنا من القانونين بهذه المقولة: في أعماق كلّ منا يثوي طفل كبير. الطفولة هي ينبوع الحي الذي يجددنا، ويجدد الأمة معنا... ونخطئ كثيراً حين نظن أننا نحن نهاية الدنيا"⁽⁸⁾.

وإيجاد المؤسسات التي تقوم بذلك. ومنه، وفي السياق ذاته، يصبح من "واجب الكتاب والمربين تحقيق الإنماء الفكري للأطفال، والتوجيه الثقافي لهم وإشباع الحاجات النفسية والروحية عندهم"⁽⁴⁾. ويتم ذلك بتوجيه كتابات، تُؤلّف مناسبة لمستوياتهم الفكرية، وقدراتهم الإدراكية.

والكتابة المقصودة هنا؛ هي كلّ كتابة (وظيفية أو إبداعية) لم يُخصّص لها قارئ، لكنّ التخصيص الطارئ وهو جعل القارئ طفلاً سيستدعي شروطاً ضرورية، تلزم الكاتب التحلي بها؛ لأنّ فعل القراءة المتولّد ساعتها لن يبعث الحياة في المكتوب، ولن يبين عن الغرض إلا إذا كان فعل الكتابة هذا من نفس مستواه.

من هنا، رأى المختصّون أنّ "الكتابة للأطفال تحتاج، بالإضافة إلى الموهبة الحقيقية الصادقة، إلى تخصص وممارسة ومعاناة، وإلى دراسات متعمّقة في اللغة من زوايا معينة، وإلى دراسات أخرى في أصول التربية وعلم النفس، ومراحل نمو الأطفال وخصائصها المميزة، وإلى معرفة بالقواعد السليمة للكتابة الأدبية الفنية في القصة والدراما والشعر، مع خبرات عملية في دنيا الأطفال، وإحساس فني تربوي مرهف بما يمكن أن تتركه الكتابة في نفوسهم من انطباعات دقيقة، ربّما كانت، رغم ما يبدو من ضآلتها، ذات أثر باقٍ فعّال في تكوين شخصياتهم والتأثير عليها"⁽⁵⁾.

ثمّ إنّ الكتابة للأطفال تستدعي الوعي بعناصر ثلاثة:

- تلبية حاجة الطفل القارئ؛ أي الطفل وهو مقبل على إشباع حاجته من حبّ الاطلاع والتعرّف إلى محيطه بواسطة اللغة، فحاجة المعرفة والفهم من الحاجات العليا التي نَبّه إليها علماء النفس (ماسلو / Maslow) مثلاً، في مقابل الحاجات الدنيا وفق سلمه الهرمي⁶.

- تنمية خبرته باللغة؛ فاللغة استعمال وممارسة. والخبرة بها تتطلّب رصيذا لغويًا غنيًا بالمفردات ودلالاتها في سياقات الدّوال المختلفة، ونامياً يستعمل في مقامات التخاطب المتنوّعة.

• مدى تماشي الكتاب مع خصائص مراحل النمو، والأفكار التي تناسب الأطفال في المرحلة التي يختار لها الكتاب.

• نوع الانطباعات التي يخرج بها الأطفال عند قراءتهم للكتاب ومشاهدتهم لصوره، وما يتركه هذا في نفوسهم من أثر.

• صحة المعلومات التي وردت في الكتاب، ومناسبتها لمستوى الأطفال.

ب- من الناحية اللغوية:

• سلامة اللغة ومناسبتها لمستوى الأطفال، سواء من ناحية الألفاظ أو التراكيب.

• استعمال الأسلوب الشائق الذي يستهوي الأطفال ويجذبهم.

• استخدام علامات الترقيم والضبط بالشكل بما يناسب مستوى الأطفال.

2. مجموعة الاعتبارات الفنية العامة (أو الاعتبارات الأدبية):

والمقصود بها؛ أن يكون الإنتاج الأدبي، الذي يحتويه الكتاب متماشيا مع القواعد الصحيحة لفن الكتابة بما يناسب الأطفال، ويدخل في هذا:

أ- أن تكون القصة على درجة مقبولة من الناحية الفنية المتعلقة بأسلوب كتابة القصة بوصفها عملا أدبيا، وليس معنى هذا المغالاة في المطالبة بمستوى أدبي رفيع، بل يكفي أن تكون القصة متماسكة - من غير تعقيد في أفكارها أو حوادثها- مشوقة بما يناسب المرحلة التي يختار لها الكتاب.

ب- أن تكون المسرحية على درجة معقولة من ناحية الصياغة الفنية، وأن تكون مناسبة لمستوى الأطفال وقدرتهم على الأداء، والمتاح لديهم من الإمكانيات لمسرحية في الإخراج.

ج- أن تكون الأناشيد والاستعراضات الغنائية في مستوى الأطفال، ومتفقة مع القواعد الفنية الصحيحة لكتابة الشعر.

وحقيقة، كان يكفي (سليمان العيسى) أن يجد الطفل التاوي بداخله، فيجعله يتحرك في عالم الطفولة، وفق قوانين هذا العالم، ليتجاوب معه أطفال الوطن العربي كله، فيغنون معه وينشدون.

إن الكتابة للأطفال تستدعي من صاحبها " أن يكون واسع الخبرة، متنبتها إلى معارف الطفل واهتماماته وميولاته وأحلامه؛ حتى يلقي منه ذلك التجاوب والإقبال على ما يقدمه له من زاد ثقافي وعاطفي وأخلاقي، بل إن من يكتب للأطفال لا يبلغ ذروة نجاحه، إلا إذا استطاع أن يحقق لهم السعادة، وأن يثير في نفوسهم الدهشة والعجب أيضا ... " (9).

وإذا كان لا مناص من أن يكتب الكبار للصغار، فلا بد أن يكون ذلك بأسلوب يناسب مستواهم الفكري، ويوظف لغة المعجم الخاص بهم. ومن هنا تصح الحاجة لمحّة للقيام ببحوث خاصة للتعرف على مدركات الأطفال ومحصلوهم اللغوي الأساس، قبل الكتابة لهم. " ثم إن استعمال اللغة العربية الفصيحة السهلة المناسبة لمراحل نمو الأطفال ... يدعو إلى تعرف ... [لغة تواصلهم اليومي] ... قبل أن يبدؤوا الدراسة المنظمة للغة العربية الفصيحة، ... لأنه بغير هذا الأساس، سوف نتخط كثيرا كما حدث في الماضي، وكان من نتائج هذا التخطب ذلك الضعف ... وتلك الشكوى التي تتصاعد بين الحين والحين من المادة اللغوية في كتب الأطفال التي لا تلائمهم، ولا تتفق مع مستواهم" (10)، حيث يعيد البعض إلى توظيف كلمات قاموسية غريبة عن الاستعمال اليومي للطفل في تواصله، أو حتى في لغته المدرسية. كما أن الكتابة للأطفال، يجب أن تخضع لثلاث مجموعات من الاعتبارات الرئيسة:

1. مجموعة الاعتبارات التربوية والسيكولوجية

تستهدف هذه الاعتبارات التعرف على مدى اتفاق المكتوب المنشور، عبر الكتاب الموجه للأطفال، مع المقومات التربوية والنفسية المختلفة. ويدخل في هذا:

أ- من ناحية الأفكار والمضمون

3. مجموعة الاعتبارات الفنية الخاصة

- إنها لغة المجتمع الرسمية ، السليمة والمعتمدة في المدرسة.
- إنَّها لغة جذابة نحو فعل القراءة ، من خلال لبوس الجمالية المحقَّق في الكتابة.
- إنَّها لغة عالمية ، تقدِّم صورة اللغة الهدف أو النموذج ، كما تقدِّم المعرفة ، وتضيف الجديد إلى رصيد الطفل القارئ.
- إنَّها لغة وظيفية خادمة لميولات وأحلام الطفل القارئ ، مشبعة لحاجاته النفسية.
- إنَّها اللغة المناسبة لمعجمه الخاص ؛ المتداولة اجتماعيا ، والمهذَّبة مدرسيا ، والمتنامية عبر المراحل العمرية المختلفة.
- وفي المقابل فإنَّ الطفل القارئ لا يملك من القدرات في التلقِّي إلا أن يوظِّف لغة متداولة في مجتمعه ، تتَّسم عموما بـ:

- فقر في الرصيد اللغوي ، لكنه متنامٍ ومتطوِّر.
- انحراف يبيِّن عن القواعد الضابطة للغة ، وميل دائم إلى الخروج عليها.
- نقص واضح في الخبرة اللغوية فسَّره قصر الجمل ، وعدم الاسترسال في الكلام.
- ظهور تبريرات غير منطقية للسلوك اللغوي ، وعزوف عن التفاسح.
- وفي ظل هذا الواقع القائم على التجاذب ، تأتي محاولتنا للتعرف عن قرب ، على بعض ما يطالعه الأطفال (تلاميذ المدرسة الجزائرية) ، حيث انتقينا بطريقة عشوائية بعض القصص ، والكتب ، وقمنا بدراسة لغتها وأسلوبها في ضوء بعض الأسس العلمية ، وقد كانت موضوعاتها وفق الآتي:

أولا: الموضوعات

1. قصة "بستان السعادة": مؤلفها (نصر شمالي) ، ومطبوعة بدار الهدى بعين مليلة. عدد صفحاتها (32) صفحة ، وهي من الحجم المتوسط ، ولها رقم إيداع في المكتبة الوطنية. وتبدأ سرد أحداثها من الصفحة الخامسة إلى غاية الصفحة الثلاثين. وقد تخللتها ثلاث صفحات مرسومة (دون تلوين). وهي من قصص المغامرات.

- وهي ترمي إلى التعرف على مدى نجاح المكتوب المعروف ، بواسطة الكتاب ، في الإفادة من الإمكانيات المتاحة له كعمل مطبوع. ويدخل في هذا:
- أ- مناسبة حجم الكتاب وعدد صفحاته للأطفال في المرحلة التي يختار لها هذا الكتاب.
- ب- جودة الورق والطباعة.
- ج- اختيار حجم ونوع الخط المناسب للأطفال حسب مراحل نموهم.
- د- جودة الإخراج وتنظيم الصفحات والسطور.
- هـ- وضوح الصور والرسوم وجودتها ، وحسن توزيعها ، وتماشيها مع النص المصاحب.
- و- مناسبة الألوان المستعملة (عددتها ، التوفيق في اختيارها وتوزيعها ، حسن الإفادة منها ، درجة الإتقان في طباعتها ...).

- ز- جودة الغلاف (المنظر العام ومدى تشويقه للأطفال ، نوع الورق ، عدد الألوان المستخدمة ، طريقة الطباعة ، التجليد ...) (11).

إنَّ ما يمكن التأكيد عليه ، هو أنَّ لغة الكتابة الموجّهة للطفل لا يمكنها إلا أن تكون لغة فنيّة ، و"عندما تصبح اللغة فئا ، وتعبيرا فنيا ، فإنَّها حينئذ ينبغي أن تتفق ومرحلة الطفل النفسيّة ، والاجتماعية ، والعقلية والوجدانية ... وتجذبه من نواحيه العاطفية ، أو الإنسانية ... " (12). وإنَّ ما يمكن الوقوف عليه من كلّ هذه الاعتبارات ، بوصفه نتيجة حاسمة إنَّما هو الكتابة الجادّة والمسؤولة العارفة بطبيعة القارئ الطفل ، والمتمثّلة للبوتقة التي فيها تنصهر خبراته الثأمية وتجاربه.

ثالثا: عيّنات كتابية تحت مجهر التقد

تمت الإشارة من قبل إلى أن الكتابة للطفل يجب أن تجسّد نصوص وظيفية وإبداعية ؛ لغتها هي اللغة الهدف ، وعلى المتصدّر لها أن يراهن على التجاوب الفعّال للطفل القارئ مع ما يكتبه له ؛ حيث لغته هي لغة التداول ؛ أي أنَّ اللغة الهدف هنا يجب أن تتحقّق فيها جملة مواصفات ، نعيد إجمالها في الآتي:

مرسومة منها (11) صفحة مزجت بين النص والصورة، وهي من القصص الدينية.

وموضوعها أنّ ملكاً مهيباً، شديد البأس اغتر بنفسه فطغى، وكفر، وحارب أهل الدين، وحرص الناس على الفسق. رزق الملك ولداً فخاف عليه الاحتكاك بأهل المدينة وانتقال الأفكار التي يكرهها إليه، فأبقى عليه في القصر، وأحاطه بكل ملذات الدنيا. إلا أن الولد ملّ كل هذا، وراح يستفسر حقيقة سلوك والده معه من أمه، فأوضحت له الأمر وطلبت منه التكتّم. اغتاظ الولد لمحاربة والده أهل الدين، وحزن حتى احتار والده في أمره، فطلب من يداويه لكن دون جدوى، حتى أتاه رجل عالم وتقي متخفياً في صورة مهرج، ودخل عليه، وبدأ يلقنه دروساً في الدين والحكمة خفية. فانشرح صدر الفتى، وتظاهر بالفرح أمام والده.

4. قصة "نوادير جحا": مؤلفها (عبد الحق سعودي)، مطبوعة بدار الهدى بعين مليلة: والكتاب من الحجم المتوسط، وعدد صفحاته (16) وهو مقسم إلى جزأين؛ 1- كأس السم، به ثلاث صفحات مكتوبة وثلاث صفحات رسوم مصاحبة. 2- الملك الثرثار؛ فكانت به خمس صفحات مكتوبة وممزوجة ببعض الرسومات المصاحبة، واستقلت أربع صفحات بالرسومات لوحدها.

أملخص "كأس السم": جحا يبحث عن عمل، فيناديه ثري ليحمل له جراره مقابل أن يأجره بثلاث نصابح تقيده، فيوافق على ذلك، وكانت هذه النصابح بأن لا يصدق ثلاثة أمور: ليس الشبعان أفضل من الجوعان، ولا الماشي على قدميه بأعز من الراكب على ظهر الجواد، ولا أحد أحق من جحا. فما أن سمع هذه النصابح حتى هسّم الجرار. وانطلق يبحث عن عمل آخر. فاستوظفه ثري في بيته على أن يأجره في نهاية كل عام، فوافق جحا. أمره السيد بأن ينظف أرضية البيت مقابل أن لا يمسه ماء، فسكب عليها جحا زيت الجرار الموجودة، فغضب السيد، كما تناول كأس العسل المهدى لسيدته كاملاً دون إذنه، وادعى أنه شرب السم، وعلى هذا الأخير أن يدفع له أجرته حتى يتخلص منه، وإلا فسوف يموت لأنه سوف ينتحر.

ب-ملخص "الملك الثرثار"

وموضوعها أن شاباً غريباً نزل بمدينة تسمى (مدينة الموت) لغرض معالجة ابنة السلطان المريضة. فوجد أن أهلها يعيشون وضعية غير طبيعية، إذ الكل عبوس، ومضطرب، وحتى مظاهر المدينة تدل على البؤس بما فيها من الأوساخ، وغياب النظام. يصل الشاب إلى القصر وينشر البهجة في نفس الأميرة فتشفى ويضطر السلطان إلى تغيير اسم المدينة ليصبح (بستان السعادة)، وعندما تتقدم الأميرة للتعرف أكثر على أصل الشاب ونسبه؛ لأنها كانت تنتظر أن يتزوجها، يختفي، فتبقى محافظة على سيرته في نشر الخير ومظاهر البهجة وتعليم الناس، حتى تصل إليها ذات يوم عجوز تنبئها بأمر الشاب الغريب، وتقتادها نحوه فتكتشف أنه أمير، ثم يعودان إلى (بستان السعادة).

2. قصة "الصيد والأميرة": مؤلفها (حسن رمضان فحلة)، مطبوعة بدار الهدى، بعين مليلة. وعدد صفحات كتابها (24)، وهو من الحجم المتوسط، يبدأ سرد أحداثها من الصفحة (5) إلى غاية الصفحة (24). تخللتها (11) صفحة مرسومة؛ منها صفحتان مزجتا بين الصورة ونص القصة. وهي من القصص الاجتماعية.

وموضوعها أن رجلاً صالحاً ومجداً في طلب الرزق كان يأخذ ابنه معه للصيد في البحر، فمنه قوت العائلة، وصادف أن اصطاداً سمكة كبيرة، فاضطر الوالد إلى أن يترك الابن ممسكاً بها في شبكته ليحضر شاحنة. رق قلب الابن لحال السمكة فأطلق سراحها، فأعطته حسكة، وظل الولد يقدم العون لكثير من الحيوانات (غزال، عصفور، ثعلب)، وقد أعطاه كل منها على التوالي: كتلة وبر، ريشة، كتلة وبر فيحتفظ الولد بعربون الصداقة، إلى أن يكبر ويصبح شاباً، وبينما هو يتجول بالقرب من قصر في الغابة رأى فتاة جميلة فطلب منها أن تستضيفه، إلا أنها اشترطت عليه القيام بعمل مفيد للناس. فما كان من الشاب إلا أن عاد أدراجه، وفي طريقه قدم العون لشيخ عجوز، فرأته الفتاة بمنظرها، فاستدعته وعرضت عليه أن يتزوجها.

3. قصة "الطفل الحزين": مؤلفها (مصطفى رمضان) نشر بورشات بابا عمي للتصنيف، بفرداية. عدد صفحات كتابها (32)، وهي من الحجم المتوسط. يبدأ سرد أحداثها من الصفحة (4) إلى غاية الصفحة (30). تخللتها (12) صفحة

الصحافة، جمعية العلماء) ومرضه ووفاته، وينتهي بعرض بعض آرائه ومواقفه.

7. كتاب "محمد البشير الإبراهيمي": إعداد (آمنة أشلي)، ومطبوع بالمكتبة الخضراء. عدد صفحاته (20)، تبدأ سردها للموضوع من الصفحة (4) إلى غاية الصفحة (19). وهو يتناول حياة الرجل العالم (النسب والمولد والدراسة والسفر)، ونشاطه (التدريس، الكتابة الأدبية، جمعية العلماء)، ويخصص عنواناً لآثاره وآخر لخصائص أدبه، وينتهي بالحديث عن وفاته وعرض أشعار قيلت فيه.

8. كتاب "العربي بن مهدي" فاهر الجلادين: مؤلفه رابح لونيبي، مطبوع بدار المعرفة بباب الواد. عدد صفحاته (30)، يبدأ عرض الموضوع من الصفحة (5) إلى غاية الصفحة (26)، تخللته (6) صفحات بها صور، واختتم بعد الصفحة الأخيرة بثلاث صفحات بها صور، وكلها باللون الأبيض والأسود. وموضوعه، الترجمة لحياة البطل؛ شخصيته وطفولته، وجهاده في الحركة الوطنية، وإعلانه الثورة واستشهاده.

ثانياً: اللغة والأسلوب في العينات

أ- اللغة: لغة الكتب العينات في هذا المستوى، لغة تخضع لسيطرة عوامل عدة تتحكم فيها، وتقلل من انفلاتها أو التحافها الغموض. وهذه العوامل يمكن تحديدها بالتأمل فيما يتصوره الدارس أنها كتب مطالعة.

- فمن جهة المؤلف نجد

▪ الأهداف: فالكتابة للأطفال كتابة هادفة. "والهدف من الكتابة للطفل - كما تقول ليلي سالم - في دراستها هو: تسليية الطفل [و]إعلامه وتعليمه [و]المزج بين الاثنين (التسليية مع الإعلام والتعليم)"⁽¹³⁾.

▪ القيم: ف " القيم ونظم السلوك ركن من أركان ثقافة الطفل التي تنتقل إليه من مجتمعه. ومناقشة ثقافة الطفل التي يكتسبها من مجتمعه، معتمدة على مداخل إنسانية، تدور حول أساليب اتصاله بالآخرين من حيث سلوكه اللفظي والعملي والانفعالي"⁽¹⁴⁾. وحتى يوصل المؤلف هذه القيم يجب أن يكون واعياً باتجاهات عصره، وما فيه من قيم، ومدى مناسبتها لبيئة الطفل.

1-اعتلى العرش ملك ثرثار، كان محل سخرية ضيوفه، فنصحه وزراره بأن يجعل جحا مستشاراً له ينبهه إذا أخطأ في الكلام. وفي مقابلة له مع أحد ضيوفه، سأله الملك عن حال القطط والكلاب، مما اضطر جحا إلى أن يتدخل ويدعي أن الملك رجل مثقف وكلامه كله رموز، وهو هنا يسأل عن حال رجال الدولة، فاستلطف الضيف الحديث وسرّب به. لكن الملك غضب من تدخل جحا طالما أن الضيف قد سره الحديث.

ثم يردف الكاتب الحكاية بحكاية ثالثة لا عنوان لها؛ وملخصها:

2-يقوم ثور أحد الأغنياء بقتل ثور جحا، فيصل الأمر إلى القاضي ليحكم لصالح الغني، بأن يدفع جحا دنائير له جراء إجهاد ثور الغني لقتل ثوره، فيدفع جحا ثم يتجهج على الغني بصفعة ويطلب منه أن يرد ماله جراء إجهاده له حين صفعه.

5. قصة "القبرة والفيل": مؤلفها (عبد الحق سعودي). مطبوعة بدار الهدى بعين مليلة: والكتاب من الحجم المتوسط، وعدد صفحاته (16). كل صفحة من صفحاته مزودة برسومات مصاحبة.

ملخص القصة: القبرة من الطيور التي تعيش مع أفراخها بجوار فيل ظالم معجب بقوته قرب ضفة نهر، ولأن الفيل لا يأبه بالضغاف فقد تصادف أن أراد العبور عن طريق ضفة النهر حيث عش القبرة وأفراخها. فترجته القبرة أن لا يفعل، إلا أنه أصر وداس العش ومن فيه. حزنت القبرة على موت أفراخها، وراحت تعزف نشيد الحزن، إلى أن سمعها سرب من الطيور المهاجرة فساعدها بمعية الضفادع على التخلص منه؛ بأن فقؤوا له عينيه وقادوه نحو مشارف هاوية كبيرة حين أراد أن يشرب الماء، حيث سقط وهلك.

6. كتاب "عبد الحميد ابن باديس": إعداد (جماعة من الأساتذة). مطبوع بدار الحضارة. عدد صفحاته (32) تبدأ معالجة موضوعه من الصفحة (5) إلى غاية الصفحة (30). تصدّرت صورة الإمام، وتخللته (6) صور لشخصيات مع الإمام. موضوعه يدرج ضمن فن الترجمة والتعريف بسيرة الشخصيات الوطنية، وهو يدور حول حياة الإمام (النسب والمولد والدراسة والسفر)، ونشاطه وجهاده (التدريس،

في المستوى الإفرادي للوحدات الدلالية، مما سيؤدي إلى مخالفة باقي المقاييس التي أشار إليها كل من (Mackey) و(عبد الرحمن الحاج صالح). يقول (حسن شحاتة): "إن هناك خطأين يقع فيهما المؤلف الذي يعتمد في حكمه الشخصي على الكلمات؛ فهو أولاً قد يستعمل عددا كبيرا من الكلمات التي لا تناسب المستوى المعرفي للدارسين، ولا تناسب فهمهم وحاجاتهم، وهو ثانياً قد يهمل عددا كبيرا من الكلمات التي يحتاج إليها الدارسون"⁽¹⁶⁾.

ثم إن تعرّف المؤلف على واقع الطفل اللغوي ضروري، فلا يمكن بحال مخاطبة طفل ما قبل المدرسة بلغة مدرسية، ولا يمكن مخاطبة طفل مرحلة الطفولة المبكرة بلغة طفل مرحلة الطفولة المتأخرة. كما يصبح من الضروري الوقوف على الفوارق القائمة بين اللغة العامية أو "المحدودة" التي تشكل القاعدة التحتية والأساسية للطفل الذي نوجّه له خطابنا، وهو في مرحلة إقبال على التعلم وإثراء لرصيده من اللغة الفصيحة أو "الراقية" على حد تعبير (سيرجيو سبيني) ف"اللغة المحدودة تقدم بصورة رئيسية هذه السمات، فالجمل قصيرة وبسيطة وغير مكتملة، وتبدو التراكيب فيها واضحة نتيجة لقلة استخدام الجمل الفرعية، ولكثرة استخدام أدوات الربط مثل: وعندئذ، وهكذا. كما أنّ استخدام الصفات والظروف محدود وصارم، كما تسودها التأكيدات القاطعة، وتفتقر هذه اللغة للوحدة المنطقية والتسلسل، كما يغلب عليها الألفاظ التي تدرك بالحس عن غيرها من المجردات، وهذه السمات يتأثر بعضها ببعض ويدعم بعضها البعض"⁽¹⁷⁾، أي أنّ لغة الطفل لغة محدودة، سيدفع بها المؤلف نحو الارتقاء، ليتجاوز حدود اللغة المتداولة عند العامة من الناس والتي لا تخدم الفكر. يقول (ب. برنستين): "إنّ الجملة القصيرة بسيطة من حيث القواعد إلا أنّها رديئة من حيث التراكيب النحوية، وهي سمة المحادثة بين عامة الناس، ولكنها لا تيسر نقل الأفكار أو الموضوعات التي تتطلب صياغة دقيقة... وهذا يؤثر بالضرورة على طول ونوعية التفكير الكامل... أما اللغة الراقية فلها سمات مختلفة: فالجمل مكتملة، وتحتوي على الكثير من المفاعيل، والتركيب النحوي رصين، وبالتالي فإنها تشمل على كثير من الجمل الفرعية، واختيار الأسماء والأفعال

المفاهيم والحقائق: فالكتابة للأطفال لا تخلو من تقديم مفاهيم أو التعريف بمجاهيل، وبالتالي فهي تعتمد على عرض هذه المفاهيم والحقائق العلمية، أو الأدبية بصورة تستدعي (نكوصا لغويا) على حد تعبير بعض النقاد المعاصرين.

الإبداع: فالكتابة للأطفال إبداع، وعمل فني منصوب، له صاحب وهوية، لكنه إبداع في ساحة المألوف، يوظف لغة الكبار المستهلكة، لينتج بها عملا أدبيا رائقا وعجيبا.

-ومن جهة الطفل "القارئ" نجد

الخبرة اللغوية: فالطفل يحتكم إلى لغة أقل درجة من لغة الكبار، لكنها لغة متنامية تؤدّي الممارسة والدربة دورا هاما في ترسيخها وإثرائها. وكلما خَبَرَ البيئة اللغوية، نما رصيده، واستطاع الدخول في عملية تواصل عن طريق هذه الرموز الطبيعية، إذ "المعاني المعطاة [لهذه] الرموز، كلمات كانت أو أعدادا، إنها تتحدّد في الخبرة المشتركة بقدر ما بين المرسل والمستقبل في عملية التواصل؛ بحيث يصبح لكل رمز -بوصفه مثيرا- استجابة محددة عند المستقبل"⁽¹⁵⁾.

الميول القرائية: فالطفل ميال للقراءة، إذا وجد ما يشبع رغبته، وبشكل يفهمه وبغيره، بحيث يحدث الاتصال. فإذا أحس بأن الخطاب لا يلبي ميوله، انصرف عنه إلى حيث يجد ما يشبع حاجاته. والحقيقة أن التخوف من عدم مساندة ميول الطفل القرائية، هو الذي يساهم بشكل فعال في (النكوص اللغوي).

المستوى العقلي للطفل القارئ: قدرات الطفل العقلية محدودة، لا يمكنها استيعاب واقع الكبار، ولا المحيط المتفتح على كل المجالات والاتجاهات تفتّحا كاملا، لهذا يجب مراعاة هذا الجانب عند الكتابة.

والممتنع للكتب التي عرضنا لها سابقا، يلاحظ أنها كتب ينطلق مؤلفوها فيها من ذواتهم، ويحاولون ممارسة الوصاية المطلقة على ذهن القارئ الصغير، بحكم أنهم يملكون الحقيقة، وباسم العاطفة فهم يلجأون إلى "التكثيف المعرفي"، وكأنهم يريدون تبليغ كل شيء يعرفونه، وهم بهذا يخالفون مقياس الانتقاء أو الاختيار، إن في المحتوى، وإن

الابتدائي و2,7% في الصف السادس الابتدائي، وتختلف أنواع الحروف باختلاف صفوف المرحلة الابتدائية. فتلاميذ الصفوف الثلاثة الأولى يقتصر استخدامهم للحروف على حروف العطف، والجر، والاستفهام، والنداء والجواب، على حين يتسع هذا الاستخدام ويتنوع في الصفوف الثلاثة الأخيرة حيث تزداد الحروف الناسخة والجازمة والناصبة والنافية، وحروف التوكيد.

5. تصل النسبة المئوية للأسماء الدالة على المحسوسات من ثلاثة أضعاف إلى أربعة أضعاف الأسماء الدالة على المعاني المجردة في المرحلة الابتدائية، حيث يكثر استخدام الأسماء الجامدة وأسماء المكان وظروف المكان، وتخفض نسبة استخدام أسماء المعنى، أسماء الزمان وظروف الزمان.

6. يقل تكرار المفردات في الأحاديث المنطوقة لتلاميذ المرحلة الابتدائية تدريجياً، تبعاً لمراحل نمو التلميذ وانتقاله من صف دراسي إلى صف دراسي أعلى⁽¹⁹⁾.

فماذا عن كل هذا في لغة كتب المطالعة الموجهة للطفل في المدرسة الجزائرية؟

أولاً: دراسة عيّنة: لنأخذ قصة (بستان السعادة) نموذجاً للدراسة والتحليل؛ والهدف هو الوقوف على إمكانية الارتقاء بلغة الطفل من مستواها التداولي الهجين، والمرتسبة في العادة السلوكية للغة، إلى مستوى اللغة السليمة المنتجة في الفعل التواصل (نطقاً وكتابة).

إنّ أول ما يلفت الانتباه في القصة هو غياب تحديد الفئة العمرية للطفل المستهدف. وهذا يفرض على الدارس الاجتهاد في التخمين. كما يلاحظ قلّة استعمال الصور وتوظيفها؛ ففي مجموع (30) صفحة، لا نجد إلا (3) صور كاريكاتورية غير ملوّنة، لا تعكس طبيعة الأفكار المطروحة، ولا تحدث الانجذاب المناسب لها. وهذا يُضعف عنصر التشويق في العمل الفني.

وعندما يشرع الطفل في القراءة (طفل المرحلة الابتدائية بالتقدير)، سيواجه بكمّ من الألفاظ والعبارات الصعب استيعابها دفعة واحدة، لغرابتها عن مستوى إدراكه لمعانيها (نعقت فوق رأسه غرابانها / زكمت أنفه رائحة مستنقعاتها / قنفذا متكوراً من الدّعر / أجسام منهكة ناحلة /

والصفات والظروف يتمّ بصورة تتابعية كبيرة، فمن يتحدث يضع في اعتباره قدرات وآراء المستمع، ولذا يبذل مجهوداً في توضيح أفكاره وإبراز صلاحية أقواله بالبراهين العقلية، كما أن الحديث موحد من حيث الموضوع ومتصل في تفريعاته، ومن سمات هذه اللغة أيضاً، منطقياً، مبدأ التفاعل المتبادل⁽¹⁸⁾.

ويعرض (حسن شحاتة) بحثاً قام به بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لإعداد قوائم بالرصيد اللغوي لتلاميذ المرحلة الابتدائية في مصر، وتحديد خصائص وطبيعة هذه المفردات اللغوية، وتطورها، وعلاقتها باللغة الفصيحة. فلخص إلى نتائج يمكن الاستئناس بها لرسم صورة عن واقع اللغة في الكتابات الموجهة للطفل الجزائري، فيها نوع من المقاربة؛ بحكم أنّ الطفل الجزائري قارئ عربيّ، ولغة التواصل الرسمية في مجتمعه أو لغة قراءته هي عربية القارئ العربيّ، حيث توصل إلى الآتي:

1. تنمو المفردات اللغوية المنطوقة بانتقال التلميذ من صف دراسي إلى صف دراسي أعلى، سواء أكانت مفردات جارية أم مختلفة، وأن هذا النمو لا يسير بصورة منتظمة خلال المرحلة الابتدائية؛ أي أن الرصيد اللغوي ينمو من خلال التحصيل الدراسي، وهو ينمو أيضاً من خلال الاكتساب من المحيط الاجتماعي. والفروق في المتوسطات بين الصفين الأول والثاني تصل إلى 6,4، وبين الصفين الثاني والثالث 2,7، وبين الصفين الثالث والرابع 2,6، وبين الصفين الرابع والخامس 3,5، وبين الصفين الخامس والسادس 5,3.

2. يستخدم أطفال المرحلة الابتدائية الأسماء بنسبة تصل إلى ثلاثة أضعاف استخدامهم للأفعال لأن طبيعة الفعل أكثر تعقيداً من طبيعة الاسم، فالفعل يتكون من حدث في زمن فهو دائم التغيير، على حين أن الاسم دون زمن فهو يتميز بالثبات والديمومة.

3. يزداد استخدام الفعل في المرحلة الابتدائية بانتقال التلميذ من صف إلى صف دراسي أعلى، وتأتي الأفعال المضارعة قبل الأفعال الماضية، وهذه الأخيرة قبل فعل الأمر.

4. تنخفض النسبة المئوية لاستخدام الحروف في المرحلة الابتدائية، حيث تتراوح بين 3,3% في الصف الأول

دون أن تعطيه فرصة إعمال الفكر في حقيقة الصورة القائمة لمدينة (وادي الموت)، ولا أن تعطيه الفرصة للتفكير في مدى تمكّن الأمير / الطبيب من إقناع أهل المدينة ليتجاوزوا مظالم السلطان، ويُقبلوا على إنجاز مشاريع الإعمار، وجعل المدينة (بستانا للسعادة).

إنّ التنوع في الأنماط النَّصِيّة مطلوب من جهة تنمية القدرات الفكرية للطفل القارئ، وتقديم صور الممارسات اللغوية المختلفة التي توسّع من خبرته في الإنجاز الكلامي. لكنّ التركيز على نمط معين كالسرد أو الوعظ مثلا بدعوى ترسيخ معانٍ قيمة، أو تنمية مشاعر وأحاسيس نبيلة، يؤديّ حتما إلى استنتاج مدى ممارسة الوصاية على توجّهات الطفل، وعدم تمكينه من الوصول إلى بناء أحكام معلّلة، هو من يصدرها، وهذا قد لا يخدم التداول. لهذا كان بإمكان الكاتب أن يصل بقارئه الطفل إلى استنتاج أنّ صاحب الحمار رجل قاسٍ مثلا لو اكتفى بالعبارتين (يضرب بقسوة / تحت ضربات العصا) لجعل الطفل يستنتج بمفرده أنّ الرجل قاس، لا أن يصدر هو الحكم في حقه عندما يصفه (الرجل القاسي ص: 6).

ثانياً: بتتبع لغة الكتابة في العيّات، في مستواها المعجمي والوظيفي، يمكن للباحث أن يقف على جملة سمات بارزة، يتم عرضها كالآتي:

أجفل الشَّرْطِيّ / فاغرا فاه / الجدران صلدة / متجهّما / دماثته / عواطفه الأبوية المكبوتة / الوصيفات / طراً على سحنته / مشرق الأسارير ..)، ثمّ، ما معنى عبارة (كَأَنَّهُ يُهْمُّ بِالْعِرَاكِ ص: 6)، ثم تتكرّر في نفس الصفحة بمعنى آخر: (وهو يهْمُّ بمواصلة السير .. هل المقصود بها (يوهم؟ أو يهْمُّ؟)، وما هذا الخطأ في استعمال لفظة (يتوجّب ص: 6، 20، 25) التي تكرّرت مرات عدّة؟ فالمعروف لغة أنّ (يتوجّب بمعنى يأخذ وجبة). فلماذا يعدل القاص عن اللفظة المتداولة (يجب) إلى الخطأ؟! إن توظيف اللغة بمثل هذه الصورة سيبعد الطفل القارئ عن اللغة الهدف، لأنّه سيتجنّب الإقبال على التعامل معها لغموضها وغرابتها.

أما عن أسلوب القاص، فقد مارس دور السارد الوصي، المهتمّ بالوصف والإخبار حتى يُبقي على القارئ متابعاً (وقف الشابّ الغريب على مشارف مدينة وادي الموت ... أجال بصره ... حدّث الشابّ نفسه ... ظهر الشابّ الغريب ... وكان كلب يطارد قطة ... وفي المجاري المكشوفة ... وأمام أحد الحوانيت ... عندما دخل الشاب على السلطان وجده متوتّراً ... عمّت الفرحة المكان ... وقد أطلق يد الشابّ في المدينة والأرياف ... وإذا بهم يهبون جميعاً للعمل ...) وهي عبارات متتابعة قريبة من بعضها، تشدّ بتلايب الطفل القارئ

نوع الكلمات	عنوان الكتاب العينة	الكلمات حسب ورودها في العينة
الغريب	بستان السعادة الصيد والأميرة القبرة والقيط الطفل الحزين	يتأوّه، يتوسل، محمل الجد، خضمّ، ناحلة، زمجر، أجفل، فاغرا فاه، صلدة، زنزانه، واجها، متجهّما، دماثته، قطب، الرعاع، الشمعدان ... متمرق الأسارير، حسكة، سائغة، أوصال، يشنف ... الرؤوم، اغرودتك، الغريزة ... ميناثا (غريب جدا)، ينغص، بعثا، حنقا، الملاهي، المعازف، تقبّض، سنّة، يفتنه الكهنة، المنجمون، مموها، سنّبل، زكا، ... صفحا، اجتباه، التعسفي، تقصّد القنا، الغريزة، نشل، محاباة، الثكلي، محافظين، تزح، نير الاستعمار، مبشريه، شهادة العالمية، الطفيان .. الحرف العربي، موبوءة، برائن، يحدوه، التجنيد، الاستدمار، البدع، التدجيل، الدجالين .. لواء المضطهدين، الوطنية، هيكله، نابالم.
التراثية أو الدينية	بستان السعادة الصيد والأميرة الطفل الحزين	جهنم، كبرياء، الأميرة، السلطان، الوصيفات، وصيفة، حاشية السلطان، القصر، أصل، حسب، نسب، بوابات القصور، بهو، الملك، الله، البركة، الصلاة، توضاً، ورث، صرة، الإيمان، الوقار .. القيامة، الشهم، خادمة، المحبة، الدين، الزهد، الشيطان، الكفر، الفسق، الآخرة، معبري الأحلام، رؤيا، الغي، إمام، داعي، الأمير، بعثا، جنة، نار، الأذكار، داعية ... الدعاة، الخدم، المعرف، سنته، العفاف، الحكمة، الموعظة، الكهنة، المنجمون، الخزف، جرار، العرش، يثرثر، القاضي، دنانير، البدع.
العلمية أو الأدبية	بستان السعادة	الحالة الصحية، جس نبضها، العقاقير، الدواء، أصحاء، مشاريع، الرعاية الصحية .. علم القراءات، مقالات، أفكار.

محمد البشير الإبراهيمي العربي بن مهدي	هندسة العمارة ، المنظار ، العالم ، العلماء ، تربية دينية ، النازية ، الوطنية ، شهادة ، الحساب ، الجغرافيا ، العلوم ،
أسماء الحيوانات	البعوض ، الجردان ، النسر ، ثعلب ، ذئب ، فيلا ، قبرة ، الضفادع .

جدول (1) الوحدات الدلالية الغربية على الطفل ومستوى إدراكه

نوع الخطأ	عنوان الكتاب العينة	موقعه
إملائي	كلّ العينات	إعتقال/الإستعمار/الإستعداد/الإبتدائي/انضم/الإستشهاد/الإجتماعية/الإسم/ إندلاع/انخراط/اجتماع/الانلاع/انقصاد/انتظر/التفت/للإعتداء/يبدو/الإستقبال/ هي/اغرودتك/العوبة/إبنيها/التزاما/الوضعية الإقتصاديةوالإجتماعية/الإنفرد/الإبتزاز/الإختلاس/الإقتصاد/إشترطنا/التزاما/الإستقلال/ الإعتزاز/الإحتلال/إبنيها/لمعلمين/إختار/التقى/اتصل/الإجتماعي/انضمت.
نحوي	القبرة والفيل العربي بن مهدي	وما هي إلا أيام حتى فقسّت البيض يعرضها للهلاك هي وصغارها...مالك مروعة/في حق صغار أبرياء/سُمع ترجيعها في الجبال.. دون أن يُقل..
تركيبية	عبد الحميد بن باديس العربي بن مهدي	من ينشق عن صفوف المسلمين أو يساعد العدو لتفكيك صفوف المسلمين/يمس بشرفها/...على البقاء في وطنهم الذي أصبح مستوطنا لغيرهم
لغوي	/	في قصة الصياد والأميرة خطأ وارد في (ص 18) في نسبة النجاة إلى الذئب بينما هي للثعلب. الإستخفاء ، الإهتمام ، الإقتراح. في قصة (جحا) ينظر (ص 5) السطر 7 كل الكلمات التي تحتاج لشدة غير مشدودة. تغمر ، إنشرح ، بيئما ، فك جحا رباط الحبل ، ما بك يا حَمال ، لَمَا ، البُخل ، الطاؤلة ، فأخذَرُ بذلك. في قصة العربي بن مهدي (ص 25) أعطت مليوناً ونصف من الشهداء ، ستتعرف نماذج ، بنوا مجد هذه الوطن ، فأمة تحي عظامئها. في قصة القبرة والفيل: الرُبي ، فيهبُ السيم العليل ويتضوّع بعطر الزهور ، أريجا ، القبرة؟ ما نوع هذا الطائر ، الأحرش ، عكفت على احتضانها بالدفء والحرارة ، الرؤوم ، نجيبها ، اغرودتك ، يلاحظ جاء في قوله "وفي هذا الفصل تستعد القبرة لاحتضان بيضها ... بعد أيام قلائل باضت القبرة ..." الانتقال دون تمهيد أو إعلام القارئ من الاستعداد إلى وضع البيض. لاعتداء الذئبة ، فلدة كبدها. إن قبائل كثيرة.
تعبيرية	القبرة والفيل	إنها لا تقدر على الطيران ، بل تدب في الأرض ديباً خفيفاً في سرب كأنهم سحابة متنقلة ... كيف تدب على الأرض في سرب؟ (فالسرب جماعة الطيور وهي تحلق) ، ثم ما هذا التشبيه ، وإسناد ضمير العاقل لغير العاقل (كأنهم)؟

جدول (2) الأخطاء اللغوية المختلفة في الكتب العينات

الألفاظ الدينية تجريدية ، لا يفهمها الطفل ، وإنما يقبلها من باب ما يحس به من قداسة تجاهها.

3. نسبة كبيرة من المصطلحات العلمية وأسماء الحيوانات معروفة في واقع الطفل اللغوي ، لكن نسجل انحراف المؤلفين إلى توظيف بعض الغريب منها نحو (علم القراءات ، مقالات ، العقاقير ، القبرة...) ، وهذا يعدّ مستوى آخر من مستويات صعوبة فهم المقروء.

وبالنظر إلى الجدول (2) يمكن تسجيل الملحوظات التالية:

■ ينتشر الخطأ الإملائي في رسم الهمزة لدى المؤلفين ، فهم لا يفرقون بين همزة الوصل وهمزة القطع. فلا نكاد نجد كتاباً يسلم من هذا الخطأ ، رغم أن الفارق بين

إنّ ما يمكن استخلاصه من نتائج واصفة للغة الكتابة الموجّهة للطفل ، من خلال العينات المشار إليها ، ومقارنتها بالعيّنة المدروسة ، يجعلنا نسجّل ما يلي:

1. المتأمل في الجدول (1) يستطيع أن يقف على ظاهرة انتشار الوحدات الدلالية الغربية على الطفل ومستوى إدراكه. وبهذا تعدّ هذه الظاهرة عائقاً أمام فهم المقروء. والحقيقة ، إنه لا يخلو منها كتاب من هذه الكتب.

2. تطغى الألفاظ الدينية والتراثية على كتابات المطالعة ، مما يشير إلى وجود نزعة لغوية أصلية. كما يمكن تفسير ذلك بعلاقة هذه الظاهرة بالمشارب الثقافية لهؤلاء المؤلفين ، ولكن يجب القول بأن طغيان مثل هذه الألفاظ ينزع بالقارئ نحو مستوى آخر من مستوى الصعوبة. فمعظم

بين جميع الكتب المدروسة ، وربما يرجع هذا لطبيعة الإخبار الذي تتصف به كل هذه النصوص .

3. يوظف المؤلفون أدوات التوكيد وتقرير الحقائق (قد ، لقد ، لام التوكيد ، نون التوكيد) كما يلجأون إلى توظيف الصفات والإضافات .

4. يكثر استخدام ضمير الغائب المفرد، وبدرجة أقل ضمير المخاطب المفرد، وبدرجة أقل منها ضميري المفردة الغائبة وجمع الغائبين .

5. يشيع في هذه الكتب استخدام الجملة الفعلية ، التي تعكس طبيعة الحركة والحدث القائم في النص ، وهي جمل ذات طبيعة إخبارية في الغالب ، وتقريرية أو توكيدية بنسبة أقل .

6. الجمل المستخدمة في غالبيتها بسيطة ، تقوم على مسند ومسند إليه متجاورين . وقد يؤدي الضمير فيها دور الوسيط الذي يحفظ علاقة الصورة الذهنية المشكّلة بالعائد عليها . وهذا مما يحفظ للنص انسجامه وترابطه .

7. أنماط النصوص تنوّعت بين الوصف والإخبار والوعظ ، وقلّ النمط الحجاجي فيها والحوار ؛ ولعلّ مردّ ذلك ما يستشعره المؤلفون من وصاية لازمة على عقول الناشئة ، وطبيعة التّوجيه التربوي القائم على غرس القيم ، وإنماء السلوكات القيّمية ، وهم بهذا لا يخدمون الجانب العقلي لدى الطفل ، ولا ينمّون آلية التفكير عنده .

8. فقرات النصوص في الغالب مترابطة تنحو دوما نحو التوسط أو القصر ، وتسهل مواكبة الطابع السرد في غير ملل . يشذ عن هذا كتاب واحد هو "محمد البشير الإبراهيمي" والذي يبدو أن صاحبه لا يعترف بما للفقرة من ميزات .

9. تشيع العبارات الدينية في جل الكتب المدروسة ، ويعود هذا لطبيعة أهداف الكتب الموجهة للطفل ؛ فهي تركز على جانب القيم ، ولا يخلو كتاب من هدف قيمي تربوي .

10. يوظّف المؤلفون المجاز ويسرفون في ذلك ، ربما لما وجدوا فيه من وسيلة تُوسّع المجال لخيالاتهم وخيال الطفل القارئ، كما استخدموا التشبيهات التي تقرب صور المجرّدات إلى الدّهّن .

وإجمالاً لما تمّ التوصل إليه ، يمكن القول ؛ إنّ الطفل يكتسب اللغة من بيئته ، فيتلقاها من الأمّ والأب والأقارب والجيران ومن هم في سنّه ، ويتداولها معهم ، ويقضي

الهمزتين " دليل على قاعدة صرفية تؤدي إلى اختلاف الدلالة"⁽¹⁾ . فمثلاً: (أحذر) و (احذر) لا يمكن أن يؤديا معنى واحداً . فالأولى فعل مزيد بالهمزة التي حولته فعلاً متعدياً ، يمكن أن يستعمل فعلاً مضارعاً (أحذُر من شيء) أما الثانية فلا تكون إلا أمراً (احذُر) .

■ إهمال الشدة في كثير من المواطن التي يجب أن تبرز فيها ، نحو (حمال ، حمّال) ، فالأولى لا توحى بأي معنى دلالي ، بخلاف الثانية .

■ عدم الاهتمام برسم الألف الفارقة أو حذفها ، رغم أن لها دلالة نحوية ، مثل (يبدوا ، يبدو) ، فالأولى فعل مضارع من الأفعال الخمسة ، المسبوق بأداة جزم أو نصب ، فاعله الواو (الضمير المتصل) العائد على الجماعة ، أما الثانية فالفعل مضارع كذلك ، ولكنه يخص المفرد ، الواو فيه أصلية ، والفاعل ضمير مستتر عائد على المفرد (هو) .

5. وتوجد في كتابات المؤلفين أخطاء نحوية ، ولكن بدرجة أقل . وهي لا تشيع إلا عند البعض منهم فنجد مثلاً: يعرضها للهلاك هي وصغارها ، والصواب كما يلاحظ (صغارها) كونها معطوفة على مفعول به (هي) . كما أن الفعل شملهما (هي وصغارها) في وقوعه . ثم إن التركيب ذاته غير مقبول ، إذ المقبول تحقق بوجود الضمير (ها) المتصل العائد على القبرة ، كما أن الفعل المسند له يبقى تأثيره مسنداً للصغار دون إخلال بالمعنى أو إرباك للصورة الذهنية .

كذلك نسجل الخطأ الوارد في العبارة الاستفهامية (مالك مروّعة ؟) فهنا يعمد المؤلف إلى إسناد فعل الترويع إلى القبرة حين يصوغها على وزن اسم المفعول (مروّعة) .

ومثل هذه الأخطاء في عمومها ، تكون عائقاً آخر ، ينقل مستوى الصعوبة في تلقي المقروء عند الطفل (التلميذ الجزائري) إلى مستوى أعلى ، يسهم فيه المؤلف دون وعي منه .

ب- الأسلوب

1. ألفاظ اللغة المستخدمة ألفاظ أصيلة ، بعيدة عن العامية ، وقريبة في كثرتها من اللغة المدرسية ؛ أي لغة كتب القراءة .

2. في مستوى الوحدات الفردية ، يكثر استخدام الفعل الماضي (خاصة وكظاهرة مشتركة الفعل الناقص كان)

كثيرة تزاحم الكتاب ، وتزيد من بعد المسافة بين اللغة الهدف ولغة التداول ؛ فالكتاب الموجه للتلميذ ، بخلاف الكتاب المدرسي ، لا يقوم على أي تصوّر علمي ، ولا معرفة بحاجات الطفل النفسية ، بل إنّ بعض من يكتب للطفل عندنا بحاجة إلى أن يعاود النظر في قواعد الكتابة ؛ ليُصحّح بعض المعارف اللغوية الأساسية. إنّ التلميذ ، يتفاعل بشكل أساس مع الموضوعات التي يعايشها ، ويجد لها وحدات دلالية وظيفية في بيئته اللغوية ، بل وتكون له الجرأة على تخطي حاجز المقروء في ذلك. كما أن اللغة في مستوى مفرداتها التي يفترض أن يشكل بها التلميذ خطابه ، لا يجد فيها ما يساعده على ذلك ، لهذا وجدنا أنه لا يستنفذ لغة المقروء ولا حصيلته اللغوية ، إلا في المجالات الضيقة ، وفي الأوضاع التي لا يجد لها في رصيده ما يعينه على ذلك ، وهذا الذي سيكون واحداً من الأسباب التي تدفع به إلى العجز عن التعبير.

بها حاجاته. لكنه وهو في مرحلة الاكتساب سيتلقاها بأساليب وأداءات مختلفة ، وربّما سيلتبس عليه الأمر وهو يقلّد ويحاكي في مقام معيّن ، فتختلط عليه النماذج ، ويضطرب في كيفية الأداء ؛ لهذا تأتي المدرسة بنموذجها اللغويّ الرّسميّ تطرحه عليه ، فيثبت عنده أنّه التّمودج المحتذى لغةً وأداءً ، ثمّ يقرأ في ما يُكتَب له ، من كتابات لا تخضع لنقد يقومها ، فيجد أنّ لغة التّدالول التي هدّبتها المدرسة ، ليست هي اللغة التي يُكتَبُ له بها ، لأنّ بها ألفاظاً أو عبارات ليست من بيئته ، وإنّما هي من بيئة مشرقية بعيدة ، أو من بيئات غربية تُرجمت صورها اللغوية ، عندما رحنا نقبل بالكتابات الوافدة من بيئات ثقافية مخالفة ، جئنا بها لنسدّ النقص ونلبي حاجات طفلنا القارئ.

لقد بات واضحاً أن ما يقدمه الكتاب من لغة مستهدفة ، هو بعيد عن تلبية حاجات الطفل اللغوية ، وأنّها لا تخضع لمقياس الاختيار ، وعليه ؛ فهي بعيدة عن مواكبة مراحل نموه وإثراء رصيده بما يلائم. إضافة إلى وجود عوامل

قائمة المصادر

1. آمنة أشلي. كتاب "محمد البشير الإبراهيمي". المكتبة الخضراء. الجزائر. د ، ت.
2. جماعة من الأساتذة. كتاب "عبد الحميد ابن باديس". دار الحضارة. الجزائر. د ، ت.
3. حسن رمضان فحلة. قصة "الصيد والأميرة". دار الهدى. عين مليلة. الجزائر. د ، ت.
4. رابع لونيبي. كتاب "العربي بن مهدي" قاهر الجلادين. دار المعرفة. باب الواد. الجزائر. د ، ت.
5. عبد الحق سعودي. قصة "نوادير جحا". دار الهدى. عين مليلة. الجزائر. د ، ت.
6. قصة "القبرة والفيل". دار الهدى. عين مليلة. الجزائر. د ، ت.
7. مصطفى رمضان. قصة "الطفل الحزين". ورشات بابا عمي للتصنيف. غرداية. الجزائر. د ، ت.
8. نصر شمالي. قصة "بستان السعادة". دار الهدى. عين مليلة. الجزائر. د ، ت.

قائمة المراجع

1. أحمد بن علي الفلقشندي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. تعليق وشرح محمد حسين شمس الدين. المجلد الأول. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. 1987م.
2. أحمد علي الفتيش. الأسس النفسية للتربية. الدار العربية للكتاب. ليبيا. 1988م.
3. أحمد نجيب. فن الكتابة للأطفال. ط 5. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر. مصر. 1985.
4. حسن شحاتة. قراءات الأطفال. ط 3. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة. 1416هـ / 1996م.
5. حسني عبد الهادي عصر. مهارات القراءة. المكتب العربي الحديث للطباعة والنشر. مصر. د ، ت.
6. راغدة العيسوي. تدريس الكتابة رؤية ومنهج. ط 1. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. القاهرة. 1434هـ / 2013م.
7. رشدي أحمد طعيمة. أدب الأطفال في المرحلة الابتدائية النظرية والتطبيق مفهومه وأهميته تأليفه وإخراجه تحليله وتقويمه. ط 1. دار الفكر العربي. القاهرة. 1418هـ / 1998م.
8. لحسن كرومي. القراءة: الاختلافي والمفروض القارئ في المقروء. مجلة كتابات معاصرة. المجلد 8. العدد 32. بيروت. (كانون الأول 1997 / كانون الثاني 1998).
9. سليمان العيسى. وجهها لوجه. مجلة العربي. العدد: 451. محرم 1417هـ / جوان 1996م.
10. شريف عبد المجيد. آراء وأفكار في كتابة قصص الأطفال. مجلة آمال. العدد: 66. السنة: 1999م. وزارة الاتصال والثقافة. الجزائر.
11. عبد الرؤوف أبو السعد. الطفل وعالمه الأدبي. ط 1. دار المعارف. القاهرة. 1994.
12. مدحت كاظم - أحمد نجيب. التربية المكتبية. دار الفكر العربي. د ، ت.
13. مرسي سعد الدين في تقديمه لكتاب أحمد نجيب. فن الكتابة للأطفال. ط 5. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. مصر. 1985.
14. نجيب الكيلاني. أدب الأطفال في ضوء الإسلام. ط 4. مؤسسة الرسالة. بيروت 1419 هـ / 1998م.
15. سيرجيو سبيني. التربية اللغوية للطفل. ترجمة فوزي عيسى وعبد الفتاح حسن. دار الفكر العربي. القاهرة. 1991م.

الهوامش

1. أحمد بن علي الفلقشندي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. تعليق وشرح محمد حسين شمس الدين. المجلد الأول. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. 1987م. ص: 82.
 2. لحسن كرومي. القراءة: الاختلافي والمفروض القارئ في المقروء. مجلة كتابات معاصرة. العدد 32. المجلد 8. (كانون الأول 1997/ كانون الثاني 1998). بيروت. ص: 108.
 3. راغدة العيسوي. تدريس الكتابة رؤية ومنهج. ط1. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة. القاهرة. 1434هـ/ 2013م. ص: 12.
 4. رشدي أحمد طعيمة. أدب الأطفال في المرحلة الابتدائية النظرية والتطبيق مفهومه وأهميته تأليفه وإخراجه تحليله وتقويمه. ط1. دار الفكر العربي. القاهرة. 1418هـ/ 1998م. ص: 25.
 5. مرسي سعد الدين في تقديمه لكتاب أحمد نجيب. فن الكتابة للأطفال. ط 5. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. مصر. 1985. ص: 10.
 6. ينظر أحمد علي الفنيش. الأسس النفسية للتربية. الدار العربية للكتاب. ليبيا. 1988م. ص: 29.
- والسَّلْمُ الهرمي ل (ماسلو) هو السَّلْمُ الذي رتَّب من خلاله الحاجات التي يجب إشباعها عند الطفل وفق ترتيب تصاعدي كما يلي:
- الحاجات الفسيولوجية / الحاجة إلى الأمن / الحاجة إلى الحب والانتماء / الحاجة إلى التقدير / الحاجة إلى تحقيق الذات / الحاجة إلى المعرفة والفهم. ينظر؛ رشدي أحمد طعيمة. أدب الأطفال في المرحلة الابتدائية النظرية والتطبيق مفهومه وأهميته تأليفه وإخراجه تحليله وتقويمه. ص: 28. والمقصود بمقامات التخاطب (مقامات الأُس ، والمقامات الثقافية ؛ وفق ما يذهب إليه اللساني الجزائري عبد الرحمن الحاج صالح).
- ولهذا سيظل فعل الكتابة يستدعي فعل القراءة ؛ وهو ما سيجعل منه فعلاً تعليمياً ، يمثّل أبرز السبل لبناء المعرفة ؛ والطفل في منظور أصحاب النظرية البنائية (بباجه تحديداً) ، لن يتعلّم حتى يكون قادراً على الفهم المفضي إلى المعنى ، وهذا سيتحقّق بالتّضح ؛ أي امتلاك الخبرة التي ستؤدّي أهم دور في البناء المعرفي. ومن هنا تبرز لنا أهمية الممارسة القرائية.
7. نجيب الكيلاني. أدب الأطفال في ضوء الإسلام. ط 4. مؤسسة الرسالة. بيروت 1419 هـ / 1998م. ص: 41.
 8. سليمان العيسى. وجهها لوجه. مجلة العربي. العدد: 451. محرم 1417 هـ / جوان 1996م. ص: 64.
 9. شريف عبد المجيد. آراء وأفكار في كتابة قصص الأطفال. مجلة آمال. العدد: 66. السنة: 1999م. وزارة الاتصال والثقافة. الجزائر. ص: 77.
 10. سن شحاتة. قراءات الأطفال. ط3. الدار المصرية اللبنانية. القاهرة. 1416هـ / 1996م. ص: 217.
 11. ينظر. مدحت كاظم — أحمد نجيب. التربية المكتبية. دار الفكر العربي. د ، ت. ص: 116 إلى 118.
 - وينظر للمزيد أيضاً ، أحمد نجيب. فن الكتابة للأطفال. ط 5. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر. مصر. 1985. ص: 25 - 27.
 12. عبد الرؤوف أبو السعد. الطفل وعالمه الأدبي. ط1. دار المعارف. القاهرة. 1994. ص: 41.
 13. نجيب الكيلاني. أدب الأطفال في ضوء الإسلام. ص: 41.
 14. حسن شحاتة. قراءات الأطفال. ص: 149.
 15. حسني عبد الهادي عصر. مهارات القراءة. المكتب العربي الحديث للطباعة والنشر. مصر. د ، ت. ص: 60.
 16. حسن شحاتة. قراءات الأطفال. ص: 216.
 17. سيرجيو سبيني. التربية اللغوية للطفل. ترجمة فوزي عيسى وعبد الفتاح حسن. دار الفكر العربي. القاهرة. 1991م. ص: 74.
 18. المرجع نفسه. ص: 74.
 19. ينظر حسن شحاتة. قراءات الأطفال. ص: 227 وما بعدها.

الإدراك الجيوسياسي الصيني، بين موروث الماضي ومتطلبات الحاضر

Chinese geopolitical perception, between the legacy of the past and the requirements of the present

تاريخ القبول: 2019-12-18

تاريخ الإرسال: 2018-01-06

عبد الحلیم غازلی، جامعة الجزائر 3

abdelhalim.ghazli@gmail.com

الملخص

كان لسكان الصين القدامى نظرتهم الخاصة بلدهم وموقعه في العالم ، وأهمية الفضاء المحيط به بشكل عام. وقد اعتقدوا أنه إذا كان للعالم مركز ، فإن الصين تمثل ذلك المركز. ولكونها كذلك ، فهي إمبراطورية الوسط "l'empire du Milieu". وهو ما تدل عليه كلمة الصين باللغة الصينية zhong guo ، وتعني أمة الوسط.

سأناقش من خلال هذا المقال تأثير مبادئ المدرسة الجيوسياسية الصينية القديمة في الدور الصيني الجديد على الساحة الدولية. وذلك لمعرفة إلى أي حد استطاعت القيادات الصينية تبني هذا الموروث القيمي العريق وتقاليد الضاربة في التاريخ كذخيرة فكرية وجيوسياسية سمحت لها بتجاوز الصعوبات المفروضة أمامها ، وبلوغها المكانة الدولية التي تحتلها اليوم.

الكلمات المفاتيح: الصين ، الفكر الكونفوشيوسي ، الجيوسياسة الصينية ، طريق الحرير ، الجيوبوليتيك.

Résumé

Les anciens Chinois avaient leur propre vision de leur pays et de son emplacement dans le monde. La pensée chinoise traditionnelle a toujours considéré que la Chine serait le centre du monde. En tant que tel, elle a toujours défendu son image d'« empire du Milieu ». Le présent article a pour but d'apporter plus de lumière sur l'influence de l'ancienne école géopolitique chinoise sur le nouveau rôle de la Chine sur la scène internationale contemporaine. Cela, en examinant dans quelle mesure les dirigeants chinois ont réussi depuis l'avènement de la république populaire de Chine à adopter cet héritage d'anciennes valeurs et traditions géopolitiques.

Mots clés : Chine, Pensée confucéenne, Géopolitique chinoise, Route de la soie, Géopolitique

Abstract

Ancient Chinese people had their own vision of their country and its location in the world. They had always considered China as the center of the world, which makes of it the Middle Kingdom. The purpose of this article is to shed light on the influence of the old Chinese geopolitical school on China's contemporary international role. It examines the extent to which Chinese leaders have been able to make of this ancient valuable heritage an intellectual and geopolitical repertoire that allowed them to overcome the difficulties and reach the international position they occupy today.

Keywords: China, Confucian thinking, Chinese geopolitics, Silk Road, Geopolitics.

مقدمة

مختلفة، سواء تعلق الأمر بالرغبة في القضاء على المطالب الانفصالية في غرب البلاد ووضع حد لما تعتبره نشاطا إرهابيا هناك، أو بالسعي لاستعادة الأقاليم التي انتزعت منها غصبا والتي نجحت في رد بعضها ولا تزال تطمح في استعادة البقية. وأخيرا تأمين جوارها القريب وخلق حالة من الاستقرار تسمح لها بتلطيف علاقاتها المتوترة مع بعض الدول المطلة على بحر الصين الجنوبي ونزع بعض الألغام القابلة للانفجار في أي حين وفي مقدمتها الأزمة الكورية الشمالية وملفها النووي. الانشغال الثالث والأخير يختصر في هدف وحيد وهو إقامة نظام دولي متعدد الأقطاب والقضاء على الحلم الأمريكي القائم على الهيمنة من خلال الأحادية القطبية.

من الملفت للانتباه أن النظرة الصينية للعالم اليوم ولكل الخطوات التي تعدها من أجل ولوج هذا العالم من الباب الكبير كفاعل دولي مؤثر، يمكن تصنيفها في ثلاثة دوائر أو حلقات تنظر من خلالها الصين إلى العالم وإلى أدوارها المستقبلية. دوائر ثلاثة لا تختلف كثيرا على ما ورثه الصينيون من تراثهم الجيوسياسي الذي قسم العالم منذ قرون خلت إلى ثلاثة فضاءات. ومنه تظهر أهمية فهم كيف يمكن أن يستمر أسلوب التفكير الجيوسياسي الصيني عبر القرون، بل ويترسخ عند محاولة الصين مرة أخرى التكيف مع معطيات عالم القرن الواحد والعشرين.

لذلك ومن أجل الإحاطة بالموضوع بالشكل الكافي، من المهم منهجيا الإجابة على الإشكالية التالية والتي تقوم على طرح السؤال التالي لمعرفة: إلى أي حد استطاعت القيادات الصينية عبر التاريخ، تبني هذا الموروث القيمي العريق وتقاليد الضاربة في التاريخ كذخيرة فكرية وحيوسياسية للتعامل مع الواقع الدولي المعاصر؟

تندرج ضمن هذه الإشكالية العامة مجموعة من التساؤلات التي تحاول الإلمام بأهمية الإدراك الجيوسياسي لدى القادة الصينيين وبالأخص القادة المعاصرين. من بين هذه الأسئلة: كيف سمح هذا الموروث القيمي العريق للقادة والحكومات الصينية المتعاقبة منذ تأسيس الجمهورية الصينية، بتجاوز التحديات المفروضة أمامها؟ ثم هل بالإمكان اعتبار بلوغ الصين المكانة الاقتصادية المتميزة التي تحتلها اليوم على الساحة الدولية نتيجة حتمية لتبني القادة الصينيين للمبادئ الكونفوشيوسية؟ وفي الأخير هل من المعقول تصنيف كل السلوكيات الخارجية الصينية ضمن

يعد الموروث الفكري والحضاري والتقاليد السائدة في بلد من البلدان مفتاحا مهما لفهم تصرفاتها وسلوكها الخارجي على الساحة الإقليمية والدولية. وفهم الموروث الفلسفي والفكري الكونفوشيوسي المتمثل في التمييز بين الصيني وغيره من الشعوب، ومبدأ المركزية الصينية (Sino-centrisme) يعد فرصة مهمة لفهم إدراك الصين الجيوسياسي لأسبقية الأمة الصينية وتفوقها على بقية العالم. ويمكن النظر إلى كلا المفهومين كجزء من نظام القيم الكونفوشيوسية، الذي استخدم لوصف وجهات نظر الصين الدبلوماسية عبر العصور. والتي لا تزال تؤثر على التفكير الجيوسياسي الصيني الحالي وعلى تأثير الإدراك الجيوسياسي الصيني القديم على طموحات الصين وأدوارها الجديدة على الساحة الدولية.

من الواضح أن الإدراك الجيوسياسي الصيني كما سنطلع عليه لاحقا، قد تأثر بشكل كبير بالقيم الحضارية الصينية التقليدية. ولكن ذلك لا ينفي تأثير الفكر الجيوسياسي الصيني بالإنتاج الفكري الغربي في هذا المجال، وبالأخص ما جاء في كتابات المنظرين الألمان والأنغلو سكسون، وبشكل عام المدارس الكلاسيكية في الدراسات الجيوسياسية. وهي التي كانت تؤكد جميعها على مفاهيم محددة كمسألة البحث عن المجال الحيوي والسعي من أجل المزيد من القوة والأمن، وقبل هذا وذاك مسألة الحتمية الجغرافية والتفاعل الدائم الحاصل بين المعطيات الجغرافية ورسم السياسات الخارجية للدول.

هذا، كما أنه مما لا شك فيه أن التحولات المستمرة التي عرفتها ولا تزال العلاقات الدولية وبالأخص في المرحلة التي أعقبت الحرب الباردة، جعلت الحكومات الصينية المتعاقبة تضع أولويات استراتيجية وهي تحاول التكيف مع التطورات المتسارعة التي تعرفها الساحة الدولية. هذه الأولويات هي في صلب انشغالات المسؤولين الصينيين منذ بدأت الصين مشاورها نحو العالمية والخروج من طوق العزلة الذي ضربه عليها الاستعمار الغربي في البداية ثم الاصطفاف الأيديولوجي الذي وجدت نفسها فيه مرغممة عند ظهور جمهورية الصين الشعبية سنة 1949. أول هذه الانشغالات يتعلق بالرغبة في تحقيق التنمية الاقتصادية والقضاء على التبعية للغرب والتحول إلى قطب اقتصادي عالمي. بينما يتمثل الانشغال الثاني في الهاجس الأمني الذي يورق الصين على أصعدة

الاقتصادي لتلك الأدوات إلا أن الغاية من ورائها لم تعد مجرد ظهور للصين كطرف دولي قوي، بل قد يكون سقف طموحاتها أعلى من ذلك بكثير بحيث تؤسس لسلام صيني بديل للسلام الأمريكي.

I الإدراك الجيوسياسي الصيني التقليدي "المركزية الصينية"

اعتبرت الإمبراطوريات المتعاقبة على الحكم في الصين، أنه إذا كان للعالم مركز، فإن الصين تمثل ذلك المركز. وبما أن للعالم فعلاً مركز، فإن الصين حتماً موجودة في وسط ذلك المركز. الصين هي مركز العالم، هي إمبراطورية الوسط "l'empire du Milieu".² وهو ما تدل عليه كلمة الصين باللغة الصينية zhong guo. فهي مركبة من كلمتين الأولى zhong وتعني الوسط، وبينما كلمة guo تعني بالصينية الوطن أو الأمة، أي أمة الوسط، أو Zhong gua ويقصد به "نور الوسط".³

ظلت الصين طوال الفترة الممتدة من القرن السابع الميلادي إلى القرن الثالث عشر تحت حكم سلالة تانغ Tang وسونغ Song بدون منازع الأمة الأكثر تقدماً. وبحكم تعدادها السكاني وغناها وتقدمها، هيمنت بلا منازع على المنظومة الإقليمية في شرق آسيا.

ولذلك ليس غريباً أن يتم اعتماد تصنيف للعالم في هذه الفترة التاريخية يجعل من الصين مركزاً له كما جاء في الشكل رقم 1. جاء في شكل خمسة حلقات مرتبة يشمل بعضها بعضاً. حيث تمثل الحلقة الأولى في الوسط الميدان الملكي أو إمبراطورية الصين، بينما تمثل الحلقات الثلاث الأخرى التي تليه الشعوب المختلف التابعة لها، أما الحلقة الخامسة فتمثل البرابرة الذين لم يتم بعد تطويعهم.

وفقاً لجون فانسينت بريست Jean-Vincent Brisset⁴ فإن العالم في نظر الصينيين ينقسم إلى دوائر ثلاث، تمثل الصين مركزه:

- في البداية هناك المركز، وفيه يوجد القلب المتمثل في عنصر الهان، وهو لب الصين وجوهره. وحدها الصين تحتل هذا المركز، وتتربع فيه دون منافس، وبقية الكون يدور في فلكها.

- تتكون الدائرة الأولى من الأراضي التي تم ضمها من طرف الإمبراطورية من خلال إرسال جنود-فلاحين لتوطينهم بين سكان مختلفين عرقياً، ولكن بأعداد صغيرة. هؤلاء الجنود

موروث الكونفوشيوسية، أم من الصواب الإشارة إلى أن صاحب القرار في الصين يبقى مثله مثل كل صناع القرار في العالم، مدركاً لكل الإنتاج الفكري والفلسفي والجيوسياسي الذي أنتجته المدارس الغربية في هذا المجال، وفي مقدمتها كتابات كل من راتزل وماكيندر وغيرهما.

تقوم هذه الدراسة على فرضية أساسية مفادها أن السياسة الخارجية والاقتصادية الصينية اليوم من خلال محطات مختلفة سواء تعلق الأمر بتصنيف العالم إلى عوالم ثلاثة كما تم في الماضي مع ماو تسي تونغ، أو الرغبة في إحياء طريق الحرير القديم فيما بات يطلق عليه اليوم مع الرئيس شي جين بينج "حزام واحد، طريق واحدة (One Belt, One Road)"¹، تعد تجسيدا واضحا لكيفية استعانة القادة الصينيين إلى غاية اليوم بالتقاليد الكونفوشيوسية، والتأثر الواضح بها.

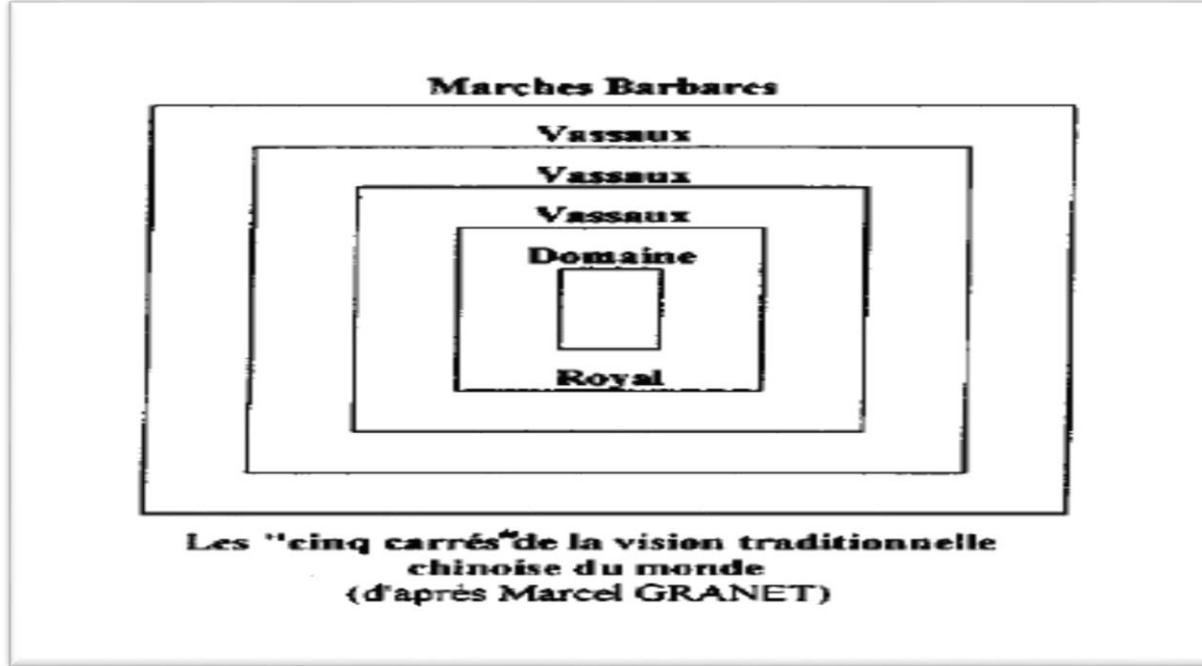
وعليه ستكون هذه الدراسة فرصة لاستعراض التوجهات الجيوسياسية للصين من المنظورين الداخلي والخارجي، هذا دون إغفال الإشارة إلى بعض تطبيقات الإدراك الصيني الجيوسياسي للعلاقات الدولية وكيفية تفاعل الصين معها على مر الأزمنة، من خلال تبيان التأثير الواضح للفكر الجيوسياسي الصيني بالإنتاج الفلسفي والفكري الواسع للمدارس الجيوسياسية الغربية، وبالتحديد المدرسة الأنغلوسكسونية.

لذلك سنحاول مناقشة هذه الإشكالية ومحاولة الإجابة عليها من خلال التدرج في استعراض مجموعة من المعطيات بالمناقشة والتحليل. سنبدأ في خطوة أولى في محور نستعرض فيه فكرة المركزية الصينية وتطورها منذ الصين القديمة مروراً بالمرحلة التأسيسية لجمهورية الصين الشعبية ووصولاً إلى المرحلة الحالية. سنعمل في خطوة ثانية في محور آخر على إسقاط هذا التصور الجيوسياسي الصيني للعالم المتطور عبر الزمن في أول اختبار له، من خلال ما عرف بنظرية العوالم الثلاث أو النظرة الهاوية للعالم التي حاولت الصين من خلالها التعامل مع ظروف الحرب الباردة وانقسام العالم على أسس أيديولوجية. وفي محور أخير وكخطوة ثالثة سنتوجه إلى مناقشة التحول الذي طرأ على التوجهات الجيوسياسية الصينية عبر تسليط الضوء على تراجع الاعتبارات الأيديولوجية أمام تنامي المصالح الاقتصادية، وذلك من خلال إبراز الأدوات الاقتصادية الجديدة التي تقطنت لها الحكومة الصينية وذلك بإحيائها لطرق الحرير التجارية القديمة. والأکید أنه رغم الطابع

▪ وأخيرا، تتكون الدائرة الأخيرة من "البرابرة"، أو الخارجين عن طوع المركز، وقد يكونون أعداء، معارضين لمصالح الصين.

مع مرور الوقت وصلوا إلى الاعتقاد بأنهم يعتبرون شاغلي الأرض الشرعيين ويعلنون ولائهم للوطن الأم الصين؛
 ▪ الدائرة الثانية تتكون من الأتباع، أولئك الذين يجب أن يظلوا خاضعين ومخلصين للإمبراطورية.

الشكل رقم 1: التصور التقليدي الصيني للعالم



Source : Gérard Dussouy. « Les théories géopolitiques Traité de Relations internationales.» Tome (I), Pouvoirs comparés. Paris : l'harmattan, 2006, p. 273.

الشعائر: الملكية، على سبيل المثال، "هوا" و"بي" تستخدم لتمثيل مختلف طبائع وخصائص الهان الصينية والأقليات العرقية، على التوالي، بالإضافة إلى وصف الموقع الجغرافي المركزي الذي يحتله عرق "الهان" في قلب الصين.⁵

وعليه ساد الاعتقاد بأن الأول يقود حياة أكثر تحضرا بكثير، بالنظر للنظام الاجتماعي والسياسي الناضج السائد آنذاك في عرقية الهان. بينما يتبع من هم من غير الهان حياة بدائية وحشية بسبب البدائية التي تعرفها طريقة عيشهم واتخاذهم الكهوف سكنا لهم. وبهذا المعنى، أصبح تدريجيا هذا التمييز شكلا من أشكال الهوية الثقافية والوعي الذي من خلاله يرى المرء أن لعنصر الهان تفوق ثقافي ومادي واجتماعي ونفسي وعاطفي وسياسي على بقية الأعراق.⁶

وعلى هذا الأساس، يعزز هذا التمييز بين العرقين الإدراك الذي يركز على الصين ويركز على الهيكل الجيوسياسي الذي محوره عرق الهان في الصين. ويمكن تلخيص الإدراك

في الواقع النظرة الجيوسياسية الصينية، قائمة في الأساس ومنذ البداية على نوع من التمييز الذي تطور عبر التاريخ بناء على العلاقة ما بين عرقية الهان HAN في مواجهة غيرها من الأعراق الأخرى. أو بالأحرى المركزية الصينية (Sino-Centrism) ممثلة في "الإمبراطورية السماوية والدولة العليا"، مقابل "البرابرة المتخلفين" والتابعين لها بالضرورة.

1. تطور المركزية الصينية منذ الصين القديمة

التمييز بين الصيني وغيره من الأعراق يسلط الضوء على الاختلافات المكانية بين القبائل المختلفة منذ الصين القديمة. طبقت الصين منذ أسرة تشو (1046 قبل الميلاد - 771 قبل الميلاد)، كلمة "هوا" لتمييز عرقية "هان" الصينية السائدة عن باقي الأقليات والأجانب، واصفة إياهم بتسمية "بي". ومع ذلك، وعلى أساس معانيها الأولية، فإن مثل هذا التمايز يعني الاختلاف المكاني بين هان الصينية والمجموعات العرقية الأخرى. وفقا للكونفوشيوسية الكلاسيكية، كتاب

حاولوا من قبل إنشاء هذه الوحدة بين شعوب الصين المختلفة، إلا أنهم فشلوا. وعليه عزز الإذلال من جانب القوى الخارجية واحتلالهم لأقاليم صينية كثيرة مفهوم الصين بأسرها بوصفها وحدة واحدة. وفي هذا السياق، بدأ عدد كبير من السياسيين والباحثين الصينيين في إعادة النظر في تلك الثنائية التي تجاوزتها الأحداث ولم تعد لها قائمة في الصين اليوم. وبذلك، لجأوا إلى فكرة الدولة القومية التي تستخدم على نطاق واسع في النظام السياسي الغربي، وبالتالي محاولة بناء دولة حديثة في الصين.

وعلى هذا الأساس، تم وضع نسخة جديدة من الإدراك الجيوسياسي للمركزية الصينية، إلا أن هذه الأخيرة لم تبين على أساس تقييم متجدد للتمييز الذي كان قائماً في الماضي بين عرقية الهان الغالبة وباقي الأعراق من الأقليات، لكنها تعد استمراراً للتقاليد القديمة المركزية. ذلك أن النسخة الجديدة من المركزية الصينية، حافظت على المركز المحوري لعرق الهان المكون الرئيسي في المجتمع الصيني بأكثر من 90% من التعداد السكاني،⁹ والاختلاف الوحيد في النظام الجديد هو أن مفهوم المركزية في هذه الحالة أصبحت تمثل الأمة الصينية بدلا من عرقية الهان فقط. في حين تنسحب النظرة المركزية التمييزية لغير الهان بداخل الصين إلى الأجنبي بدلا من الأقليات العرقية من غير الهان في الصين. وفي هذا السياق، تخيل الصين نفسها، في النسخة الجديدة من الإدراك الجيوسياسي للمركزية الصينية، أنها مركز العالم الذي يضم عددا كبيرا من السكان، وموارد وفيرة وثقافات متقدمة، تعرف باسم "الإمبراطورية السماوية والدولة العليا"، في حين يتصور البلدان الأجنبية الأخرى على أنها همجية، متخلفة، ومهمشة، تابعة للصين.¹⁰

ولكن تجدر الإشارة إلى أن النسخة الجديدة من المركزية الصينية التي تشدد على تفوق الأمة الصينية على الدول الأجنبية سرعان ما تم إعادة النظر فيها والتراجع عنها تحت ضغط القوة العسكرية البريطانية والقوى الغربية الأخرى خلال عهد أسرة تشينغ، في إطار معاهدة تيينتسين Tientsin في أعقاب حربي الأفيون. ويمكن في هذا الإطار إحصاء سببين أساسيين يمكن من ورائهما فهم وتفسير لهذا التراجع عن إدراك الصين الجيوسياسي لأسبقية الأمة الصينية وتفوقها على بقية العالم، ونظرتهم أحادية الجانب للواقع الدولي من خلال

الجيوسياسي والهيكل الجيوسياسي في هذه الحقبة عبر سمتين أساسيتين:⁷

أولا، يتم التأكيد على المكانة المهيمنة والمركزية لعرق الهان في المركزية الصينية (Sino-centrisme) يسمح لهم فيه احتلال أكثر الأراضي اكتظاظا بالسكان في وسط الصين، في حين يدفع غيرهم إلى المراعي والصحاري والغابات في المناطق الهامشية. وفي الوقت نفسه، يعتبر هؤلاء تابعون لعرق الهان الذي يتم عبره اختزال الصين بأكملها، في كل من المجالين السياسي والاقتصادي.

ثانيا، تؤكد المركزية الصينية على الحضارة كميّار هام يميز بين الصيني-الهان وغيره من الشعوب. وبعبارة أخرى، أي شخص يقبل ويتبع الثقافة المتقدمة التي يتبناها الهان الصينيون (والتي عادة ما تشير إلى الأيديولوجية الكونفوشيوسية السائدة) ينظر إليه على أنه متحضر؛ وعلى العكس من ذلك، فإن أي شخص لا يقبل تلك الثقافة ويتحداها، فسينظر إليه على أنه متخلف.

ومع ذلك، فإن الإدراك الجيوسياسي الجديد لهذه النظرة المركزية سيواجه قريبا تحديا كبيرا في المواجهة المتكررة التي ستقوم بين العالم الشرقي (آسيا والصين على وجه الخصوص) والغرب (المتمثل أساسا في القوى الاستعمارية الأوروبية وحملات الاستكشاف) في المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية. وبسبب الوضع المزري والتمتدني مقارنة بالقوى الغربية خلال هذه المواجهة، انهار المخيال الجيوسياسي الصيني القائم على مركزية الصين في العلاقات الدولية. وقد كان لهذا الانهيار تأثير كبير مزدوج على الإدراك السياسي والشعبي "للمركزية الصينية" في الصين الحديثة.⁸

لقد تم بناء نسخة جديدة من المركزية الصينية على أساس تغيير وتعميق فهم التمييز الحاصل بين عرق الهان وباقي الأعراق المتواجدة في الصين. في البداية، تغير هذا التمييز خلال هذا الوقت بشكل كبير من فكرة عرقية غالبا ما تستخدم لوصف القبائل أو المجموعات العرقية وتمييزها عن الدولة التي يتم تشكيلها من قبل الهان الصينية، إلى فكرة الدولة القومية الحديثة التي يتم استخدامها لوصف الوحدة الكبيرة للأمة الصينية بما في ذلك شعب هان الصيني وغير الهان. وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من السياسيين الصينيين

بينما تميزت المرحلة الثانية، بداية من سنوات الثمانينات حتى هذا الوقت، بسياسة الانفتاح الصيني على العالم والإصلاح واتساع الهوة الإيديولوجية بين الصين والاتحاد السوفيتي آنذاك. تراجعت الدبلوماسية الصينية في هذه الفترة عن التفكير الجيوسياسي الشيوعي الراديكالي بشكل تام، وبدأت بالمقابل تتبع ما صار يطلق عليه بالاشتراكية الصينية. والتي كان من أبرز ملامحها هو اقتراب الصين أكثر من الدول الغربية الرأسمالية في المجال الاقتصادي. على سبيل المثال، في هذه الفترة، بدأت الصين في اتباع اقتصاد السوق وتبني نوع من الانفتاح داخل المجتمع الصيني. وللقيام بذلك، عادت الدولة الصينية إلى القيم والثقافة الصينية التقليدية، من أجل العثور على طريقها المميزة الخاصة بها للتعامل مع الشؤون الدولية. وعلى هذا النحو، أدخلت القيم الكونفوشيوسية على جوانب الثقافة السياسية الصينية المعاصرة مجددا بعد أن استبعدتها سنوات الحرب الباردة.¹⁶

وبهذا المعنى، فإن الممارسة الجيوسياسية الصينية الحالية ليست إلا استمرارا مباشرا لموروث تاريخي امتزجت فيه الأفكار الكونفوشيوسية القديمة التي تعتقد أن الصين هي مركز العالم والفلسفة الشيوعية التي جاءت لتعطي الصين بعدا عالميا وإنسانيا من خلال التضامن والعلاقات الوطيدة مع دول العالم الثالث بشكل أبرز.

ولكن من الضروري لفت الانتباه إلى أن الصين بعد تبنيها المذهب الشيوعي وحتى عندما عدلته إلى ما أسمته بالشيوعية الصينية، قد تراجعت بشكل ملحوظ عن أحد أبرز المبادئ الكونفوشيوسية الجيوسياسية وهي اعتبار العالم الخارجي باستثناء الصين هو عالم متخلف وبربري لا يمكن إلا أن يكون خاضعا للصين. فخلافا للفكرة المركزية الصينية التي تؤكد على تفوق عرق الهان الصيني، تبنت الممارسات الجيوسياسية الصينية الحالية نهجا سياسيا يعتبر الصين جزءا من الخريطة السياسية للعالم الذي يقسم إلى دول وطنية مختلفة وسيدة، وبذلك تشدد الصين على بناء علاقة متكافئة بين دول العالم، لا تقوم على الهرمية أو هيمنة بعضها على الأخرى. ويمكن أن تظهر هذه الفكرة بوضوح في إطار السياسة الخارجية التي اتبعتها الصين والقائمة على ما سماه رئيس مجلس الدولة الصيني السابق شوان لاي "بالمبادئ الخمسة للتعايش السلمي".¹⁷

الاعتقاد بسمو الهان وإيديولوجية "الإمبراطورية السماوية والدولة العليا". فمن ناحية، اهتزت ثقتهم في أنفسهم بشكل مهين بعد انهزام في سلسلة من الحروب المتتالية ضد الغزاة الغربيين بعد حربي الأفيون ضد بريطانيا وفرنسا في 1839 و1842.¹¹ وفشلها في حرب جياوو Jiawu ضد اليابان في 1894.¹² ومن ناحية ثانية وبعيدا عن ميدان الحروب، أدركت الصين تخلفها الكبير والواضح أمام التقدم الذي تعرفه الأمم الأخرى في ميدان العلوم والتصنيع الحربي والتجارة وغيرها من القطاعات.¹³

2. الجيوسياسية الصينية بعد قيام جمهورية الصين الشعبية

جرت المرحلة الأولى من عام 1949 إلى غاية سنوات السبعينيات، وفيها تم تأطير الإدراك الجيوسياسي الصيني من طرف الإيديولوجية الماركسية الشيوعية. يمكن هنا تحديد اثنين من الخصائص الرئيسية للمنظورات الجيوسياسية الصينية خلال هذه الفترة. فمن ناحية، كانت الدبلوماسية الصينية تتبنى مواقف مناهضة للرأسمالية ومعادية للغرب. كانت الدولة الصينية في هذه الفترة دائمة الاصطفاف إلى جانب الاتحاد السوفيتي لمقاومة الدول الرأسمالية وممارساتها الجيوسياسية. ومن ناحية أخرى، اتسمت الممارسات الجيوسياسية الصينية خلال هذه الفترة أيضا بشكل من أشكال مكافحة الكونفوشيوسية ومبادئها التي تعتقد أنها تركز على مبادئ النظام الإقطاعي، وهو ما جعلها مستبعدة إلى حد كبير من الثقافة السياسية الصينية في ذلك الوقت. وقد انعكست هذه السمة المناهضة للكونفوشيوسية على الثقافة السياسية الصينية خلال هذه الحقبة بشكل خاص في "الثورة الثقافية" التي حاولت أن تبعد العناصر الإقطاعية من الثقافة الصينية السائدة آنذاك.¹⁴ وبذلك، يمكن أن نرى أن الممارسات الجيوسياسية الصينية خلال هذه المرحلة قد تراجعت فيها بشكل واضح القيم الكونفوشيوسية التقليدية.

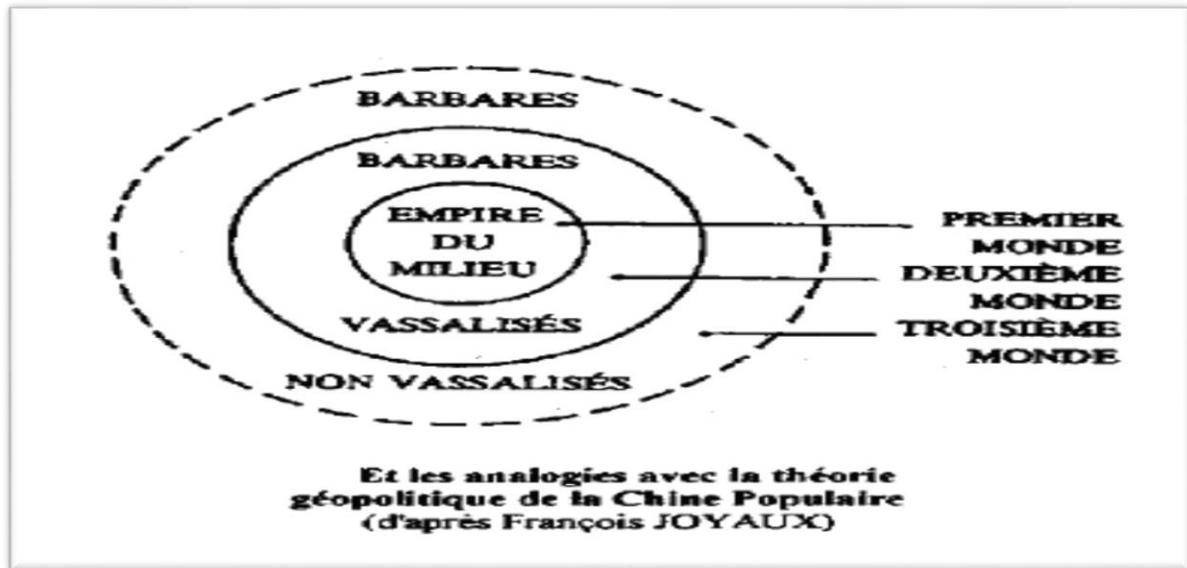
وقد سارع الزعيم الصيني ماو تسي تونغ سنوات الخمسينيات إلى نشر خرائط استعملت في المدارس، تبرز فيها الصين وهي في كامل توسعها الجغرافي مشتملة على جميع الأقاليم الضائعة منها بل ومن ضمنها جمهوريات كازاخستان وقيرغيزستان في أقصى الغرب.¹⁵

II نظرية العوالم الثلاث (النظرة الماوية للعالم)

على الرغم من أنها قدمت إلى العالم على أساس أنها سلاح أيديولوجي قوي ، أو نظرية علمية ماركسية للعالم آنذاك ، إلا أن ما عرف بنظرية العوالم الثلاث في العلاقات الدولية كانت تنحدر في اتجاه الطروحات الجيوسياسية للعالم آنذاك. ولم يكن ذلك جديدا حيث أن تاريخ الفكر الشيوعي الصيني منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كان يؤكد أن الحزب الشيوعي ثم جمهورية الصين الشعبية كانت دائما تدعم مواقفها الدولية اعتمادا على اعتبارات سياسية قائمة في الأساس على الجغرافيا. وبالتالي بالرغم من الخطاب الثوري فان الإشارات المتعلقة بالجيوبوليتيك ظلت دائما مطروحة ومستمرة كما هو

موضح في الشكل رقم 2 ، وتدل على تطابق كبير بين طروحات الموروث الجيوسياسي التقليدي العريق والطروحات الأيدولوجية الشيوعية التي تبناها النظام الشيوعي الصين منذ ماو تسي تونغ ، وذلك بهدف الوصول إلى أكبر قدر ممكن من الاستقلالية للصين وتحقيقا لمصالحها وبقيائها. لذلك ظل ماو تسي تونغ طوال فترة الثنائية القطبية المزدوجة ، شرق-غرب وشمال-جنوب يؤكد: "في اعتقادي ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يمثلان العالم الأول. القوى الوسطى مثل اليابان وأوروبا وكندا تشكل العالم الثاني. أما نحن ، فإنا من العالم الثالث".¹⁸

الشكل رقم 2: التطابق بين الجيوبوليتيك الصينية القديمة مع نظرية العوالم الثلاثة لماو تسي تونغ



Source : Gérard Dussouy. « Les théories géopolitiques Traité de Relations internationales.» Tome (I), Pouvoirs comparés. Paris : l'harmatan, 2006, p. 273

انطلاقا من 1979 غيرت الصين من استراتيجيتها تجاه العالم ، وبدأت في الاقتراب أكثر من الغرب والولايات المتحدة في مرحلة حكم الزعيم دينغ زياوبينغ Deng Xiaoping. اشتهر هذا الأخير بمقولته: "لا يهم أن يكون القط رماديا أو أبيضاً ، الأهم هو أنه يمكنه أن يصطاد الفئران".¹⁹ وهو ما يعكس القدر العالي من البراغماتية التي أصبحت تتبعها الصين في سياستها الخارجية تجاه القضايا الدولية والإقليمية ، وقدرتها على التكيف مع التحولات الدولية التي صاحبت حقبة الحرب الباردة ، وأن تبعد في خلق دولة واحدة بنظامين مختلفين²⁰ وذلك بعد أن استرجعت هونغ كونغ وماكاو تحت سيادتها مجدداً.

هذه المعادلة لخصت بشكل كبير الوضعية الدولية . للصين ، ونظرتها الأيديولوجية والجيوسياسية المزدوجة. ذلك أنها كانت تميز بين عدويها الأساسيين الدولتين العظميين الإمبرياليين (عندما تحول الاتحاد السوفياتي إلى خصم بعد 1952) ، حلفائها الأساسيين (أو ما أسمتهم فيما بعد بالمنطقة) وكذلك دورها كقائد للعالم الثالث. Intermediate الوضعية وهو يشير إلى تقسيم للعالم إلى مناطق تم تحديدها بطريقة غير متجانسة ، بحيث المعيار الوحيد المستعمل في تقسيمها كذلك هو ما تمثله للاستراتيجية الصينية من مصالح.

ولا يقاوم. وفيما يلي مثال يوضح الاستراتيجية الصينية: من أجل تعطيل وتحييد أي استراتيجية "للاحتواء" على الطريقة السوفياتية من طرف الولايات المتحدة. استطاعت الصين أن تجعل من نفسها ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها في نظر الولايات المتحدة، بما في ذلك خلق حالة من الترابط والشراكة الاقتصادية القوية معها بحيث لا تستطيع الاستغناء عن مصالحها مع الصين. الاستراتيجية الصينية غير مباشرة، وهي حذرة.²³

تريد الصين بالتأكيد أن تسترجع مكانتها الحقيقية التي تناسبها في العالم اليوم، تلك التي تتوافق مع ما تمنح لها ديمغرافيتها، شساعة أراضيها، وعمق وثراء تاريخها وثقافتها الضاربة في القدم عبر القرون.²⁴

ولكن كل ذلك لا يعني بالضرورة انتهاء الصين من حسم كل معضلاتها الجيوسياسية. ذلك أنها لا تزال تنتظرها معضلات كبيرة لم تجد بعد خلاصا لها، أو على الأقل بناء على المبدأ الذي سبق الإشارة له، لا تعتقد أن الوقت مناسب لحسمها بالطريقة التي تشاء. فهي لا تنقصها الحجة المقنعة، ومن حيث القوة قد بلغت من التقدم اقتصاديا وعسكريا ما يسمح لها بتحقيق أهدافها بكل سهولة، ولكنها تتحين الفرص وتستغلها على أحسن وجه. من بين تلك المعضلات:

أ. لا تزال الصين تعاني من عدم استكمال سيطرتها على الأقاليم الأخرى ذات الأغلبية السكانية من غير أغلبية الهان Han، الواقعة في شمال البلاد وغربها. ولم تسترد بشكل كامل سيطرتها على الأقاليم التي تقطنها أقليات تهاجر السلطات المركزية الصينية العداء وترغب في الانفصال التام عنها. وبشكل آخر لم تفلح بعد في بسط سيطرتها على الأقاليم التي خرجت من سلطتها منذ الغزو الأوروبي لأراضيها.

ب. هذه الأقاليم كما هو موضح في الخريطة رقم 1، هي: إقليم التبت، إقليم منغوليا الداخلية، وإقليم شينجيانغ Xinjiang الذي تسكنه الأغلبية المسلمة من الإيجور. هذه المناطق كانت تاريخيا تحت الحكم الصيني عندما كانت الصين قوية وخسرتها عندما أصبحت ضعيفة.

سمحت هذه البراغماتية للصين بمضاعفة أدائها الاقتصادي بشكل عام بحيث أضحا بعد سنوات قليلة ينافس كبريات الاقتصادات العالمية. فمنذ عام 1979، حطم نمو الاقتصاد الصيني جميع الأرقام القياسية. وتشير الإحصائيات أن الناتج المحلي الإجمالي قد نما سنويا بنحو 10% في المتوسط، كما بلغ نصيب الفرد من الدخل أربعة أضعاف ما كان عليه، بعد أن ارتفع مستوى دخل الفرد من 5% إلى أكثر من 20%، وهي الآن أعلى بنسبة 100% من الدول الغنية، وتتجاوز حاليا ما لدى العديد من الدول الآسيوية الناشئة.²¹

لذلك يرى فرانسوا جوايو François Joyaux أن النظرية الصينية التقليدية في الجيوبوليتيك لم يحصل وأن اختفت نهائيا، بل على العكس من ذلك لقد تجاوزت القرون.²² وفي اعتقاده، فإن الفكر النظري للصين الشعبية حول العلاقات الخارجية، يتطابق بشكل كبير مع الفكر الصيني الكنفوشي القديم.

وعليه فإن هذا النوع من الاستمرارية يمكن تفسيره بالتواصل غير المنقطع للحضارة الصينية منذ ألفي سنة، عندما وضع فيه المفكرون الصينيون الصين في مركز العالم، وتبنى هذا الطرح مع تعديلات طفيفة قادتها في بداية القرن العشرين. هذا، كما أنه من الواضح أن استمرارية هذه النظرية وتحديدها للزمن، تفسر بشكل آخر رغبة لدى هؤلاء في التعبير عن الشعور الصيني بعقدة الحصار. وبالعداء التي تضمهرها لها البيئة الخارجية. وهو ما يفسر الاستماتة التي تبديها الصين في سعيها لاستعادة ما تعتبره حقا لها في الأراضي والمجالات البحرية التي تعكر دائما صفو علاقاتها مع الدول المجاورة والدول الكبرى. ويوضح بشكل جيد إصرارها على استعادة مكانتها في مركز العالم التي ضيعتها ما بين القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

ولكن من أجل بلوغ ذلك تتبع الصين مبدأ استراتيجيا فريدا من نوعه يستند على ثقافة السرية والتمويه. وهذا ما يسميه بعض المحللين "تكتيكات النقاط العقلية" التي تستهدف مباشرة دماغ القائد العسكري للعدو لجعله يستسلم

الخريطة رقم 1: الأقاليم التي فقدت الصين السيطرة الكاملة عليها

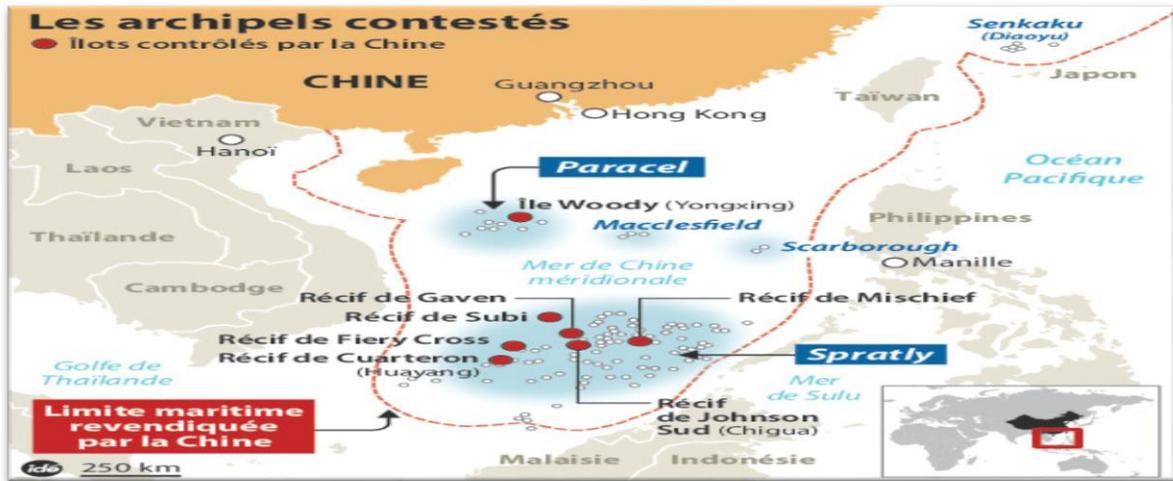


Source : www.axl.cefan.ulaval.ca/asia/chine-map-regions_aut.htm

سنوات التبعية والخضوع. سواء كان ذلك في شكل أراضي تم اقتطاعها أثناء التواجد الأوروبي على أراضيها، كهونغ كونغ أو ماكاو أو تايوان أو من طرف الاتحاد السوفياتي زمن الحرب الباردة، أو في شكل مساحات بحرية في بحر الصين الجنوبي ظلت الصين تعتقد لحد الساعة أنها تشكل جزءا لا يتجزأ من سيادتها كما تدل عليه الخريطة رقم 2. وقد اشتد الخلاف بينها وبين الدول المجاورة لها في هذا البحر، بعد أن ثبت أن هذا الأخير يعج بثروات طبيعية هائلة، في مقدمتها احتياطات نفطية كبيرة.

ت. كما لا تزال الصين تواجه تحديات صعوبة جوارها الجغرافي. حيث وعلى الرغم من أنها استطاعت أن تعدل من حدة مطالبها الجغرافية دون أن تتخلص منها، وهي وإن سلمت بفقدانها لمساحات شاسعة من جغرافيتها التي تحولت تحت الوجود الأوروبي إلى دول مستقلة، مثل الهند الصينية (الفيتنام حاليا) التي انتزعتها منها فرنسا، أو برمانيا والنيبال التي اقتطعتها بريطانيا، أو تايوان وكوريا وسخالين من طرف اليابان، وآخرا وليس أخيرا منغوليا من طرف روسيا.²⁵ إلا أن الصين ظلت مع ذلك تطالب ببعض مما اقتطع من أراضيها في

الخريطة رقم 2: الأرخبيل محل تنازع بين الصين والدول المجاورة لها في بحر الصين الجنوبي



Source : Dorian Malovic. « Washington menace Pékin en mer de Chine méridionale » La Croix, le 31/05/2015. <https://www.la-croix.com/Actualite/Monde/Washington-menace-Pekin-en-mer-de-Chine-meridionale-2015-05-31-1318140> (تم نصححه في 2017/12/11)

يظل تطويره الأولوية الأولى منذ الإصلاحات التي بدأها القادة الصينيون.

في نظر القيادة الصينية لم تعد اللعبة الصفرية تحكم العلاقات الدولية. وبفضل هذه الرؤية الجديدة التي اعتمدها الصين مع شركائها الدوليين وفي مقدمتهم الولايات المتحدة وأوروبا، استطاع الاقتصاد الصيني استقطاب قدر كبير من الاستثمارات الخارجية التي كان في أمس الحاجة إليها في تلك الفترة، بالإضافة إلى تمكن الصين من إيجاد أسواق واعدة لصادراتها التي تعد مصدر الزيادة الأكبر في ناتجها القومي الإجمالي.

إن إضفاء الشرعية على مفهوم المصلحة الوطنية، بدلا من الاستعاضة عنها بالنهج الأيديولوجي للعلاقات الدولية (لأنه لم يفغل أبدا)، سهل إدماج الصين في المؤسسات الدولية. وعلى وجه الخصوص، في المنظمة العالمية للتجارة التي انضمت إليها سنة 2001. وقد سعت الصين، مع وجود العديد من المزايا لدخول السوق العالمية، إلى إثبات أنها الآن "قوة دولية مسؤولة". وبهذا المعنى، فقد تعاملت بكثير من الحكمة وضبط النفس في عديد من القضايا الدولية والإقليمية منذ بداية التحولات التي عرفتها سياستها الخارجية مع بداية التسعينيات. وقد أدى الاندماج الناجح للغاية للصين في التجارة العالمية والزيادة السريعة في قوتها الاقتصادية إلى ظهور حالة من الحساسية في علاقاتها مع باقي القوى الكبرى، حيث أصبحت تشكل على نحو متزايد تحديا لأهم قوة في العالم، الولايات المتحدة الأمريكية. القضية ليست بسيطة: الصين نمت وأصبحت قوة رئيسية عالمية محتملة، ومنافسا قويا لباقي الفاعلين الدوليين، فقط من خلال اتباع قواعد العمل التي فرضتها الولايات المتحدة الأمريكية. وبما أن القيادة الصينية تخشى من أن تمنع الولايات المتحدة الأمريكية عاجلا أو آجلا صعود البلاد بشكل ما، فإنها تمارس ضبطا ملحوظا في سياستها الخارجية. ويتجلى ذلك في السياسة الخارجية المتمثلة في "التوازي عن الأنظار" في الشؤون الدولية التي أطلقها دنغ زهاو بينغ والتي تهدف إلى مداراة النمو السريع للصين وإخفائه. وقد كشفت الأزمة المالية لعام 2008 عن تغير الدور الإقليمي للصين، وأجبرت الولايات المتحدة، التي تعتبر

ومع ذلك، فإن الليونة التي أبدتها الصين في علاقاتها الجديدة مع العالم وبالأخص الدول الغربية وبعض دول الجوار القريب، لا يمكن أن تفسر على أنها تراجع صيني على طموحها في دور بارز على الساحة الدولية وكذلك عن مطالبها الترابية في مناطق شاسعة من جوارها الجغرافي. لذلك فإنه من المحتمل دائما أن تفرض المشاكل الجيوسياسية الكامنة في جوارها الإقليمي مع العديد من جيرانها نفسها على جدول أعمال أصحاب القرار الصينيين. وقد أظهر القادة الصينيون بالفعل الكثير من التصميم على نقطتين لا تحتملان المساومة والتنازل على الأقل، وهما تشكيلان جزءا مهما مما يسمى بالدائرة الثانية للاهتمامات الجيوسياسية الصينية: الحدود البرية لشمال الصين من جهة وإقليمها البحري من جهة ثانية، فيما يعرف ببحر الصين الشرقي وخاصة بحر الصين الجنوبي.

لذلك يظل التصور الصيني لمحيطها الخارجي والفضاء الجغرافي الذي تحتله يخضع إلى جملة من المحددات التي تجعله لا يؤمن بالواقع الحالي والحدود المقبولة عموما في القانون الدولي العام. وهي بالتالي تسعى بشكل لا يدع مجالاً للشك إلى إعادة النظر في هذا الواقع الذي تراه مجحفا بحقها، ويعد جزءا من تراكمات تاريخية ترتبت عن الحقبة الاستعمارية والتدخل الخارجي في شؤون الصين. كمثل على ذلك، نشرت السلطات الصينية في عام 1954 خريطة تكشف أن الحدود الحقيقية للصين هي حدود الإمبراطورية التي كانت قائمة في الفترة ما قبل حرب الأفيون (1840) والمعاهدات غير المتكافئة التي نجمت عنها.

III تراجع الاعتبارات الأيديولوجية/الجيوسياسية وتغليب المصالح الاقتصادية

قامت الصين مع بداية الثمانينات كما سبق الإشارة له، باتباع منهج جديد للدفاع عن مصالحها ووجودها، وذلك من خلال استراتيجيتها للانفتاح على العالم الخارجي وإعطاء أهمية أكبر للعلاقات الاقتصادية والسوق العالمية وتحقيق التنمية الاقتصادية. ²⁶ وكان ذلك في تناغم تام مع ما قاله سان تزو في فن الحرب "اجعل نفسك لا تقهر أولا". ²⁷ لقد تفتنت الصين إلى أن الاقتصاد لا يقل أهمية عن إعداد الجيش، وهو في عالمنا اليوم معيار لقوة أي بلد، بل هو أكثر من القوة العسكرية. لذلك تستمد الصين قوتها أولاً من اقتصادها، الذي

1. طريق الحرير الجديدة

لا يزال مصطلح "طريق الحرير"،²⁹ الذي صاغه أول مرة الجغرافي الألماني Ferdinand von Richthofen فريدناند فون ريشتوفن في عام 1877،³⁰ يحظا باهتمام واسع من طرف الباحثين والمهتمين بالشأن الصيني، والاعتبارات الجيوسياسية المترتبة عن التحركات الصينية على الساحة الدولية وبخاصة في شقها التجاري والاقتصادي. كان طريق الحرير القديم من أكبر شبكات المبادلات التجارية في العالم، بحيث اعتبرت في حينها محورا اقتصاديا بمعنى الكلمة، ربط أهم المراكز الحضارية والاقتصادية على الأرض حتى فجر الاستكشافات العظيمة.³¹ إلا أن أهميتها الاقتصادية والثقافية قد تراجعت شيئا فشيئا إلى أن اختفت، على الرغم من أن بعض أقسامها كانت قيد الاستخدام حتى القرن العشرين. بيد أنه في العقود الأخيرة أصبح إعادة إحيائها على جدول أولويات القيادة الصينية مرة أخرى. وقد أعطاها الرئيس الصيني شي جين بينغ Xi Jinping زخما جديدا بوضعها في صميم سياسته الخارجية.

طريق الحرير، الذي كان مزدهرا لأكثر من ألف سنة، فقد تدرجيا أهميته العالمية، والسبب الكبير وراء ذلك هو أن الملاحة البحرية التي ازدادت قوة بفضل التكنولوجيات الجديدة، مثل البوصلة والسفن الأكثر أمانا، وما إلى ذلك، أعادت تشكيل الخريطة الجيوسياسية للأرض بشكل جوهري. مما دفع خطوط التجارة العالمية إلى اتخاذها بديلا عن الطرق التقليدية. لا يجب أن نغفل أيضا أن الحركة والتحويلات الجيوسياسية التي عرفها مسار هذه الطريق الحافل بالنزاعات وتداول الممالك والدول جعلها أكثر خطورة وأقل أمانا.

ولم يقتصر دور تلك الطريق على التجارة فحسب، بل كان أيضا بمثابة نقطة التقاء الحضارات الكبرى في الغرب والشرق. حيث كانت بمثابة قناة أتاحت الفرصة لتبادل المعلومات والمعتقدات والأفكار والمذاهب الدينية والأساليب الفنية والتكنولوجيات.³²

وليس من قبيل الصدفة إذن أن حاولت بعض الدول الكبرى السيطرة على جزء كبير من طريق الحرير، ولكن دون جدوى حيث لم يحصل وأن نجحت دولة ما في هذا السعي. ولكن ذلك لم يمنع الصين من محاولة إحياء هذه الطريق خدمة لمصالحها الجيوسياسية، فقد قررت بعث هذه

القوة الرائدة في المنطقة منذ الحرب العالمية الثانية، على القبول بالأمر الواقع.

أدركت الصين جيدا أنها من أجل مواصلة ظهورها على الساحة الدولية والاستمرار في إنجازاتها الاقتصادية العملاقة على الصعيد العالمي بشكل لا يلفت انتباه الدول الكبرى إليها، ستكون بحاجة إلى بيئة دولية سلمية، تتجنب فيها المواجهة المباشرة مع الولايات المتحدة.²⁸ كما أدركت الصين أنها بحاجة إلى أسطول أكثر قوة للحد من التواجد المعزز للولايات المتحدة الأمريكية في مجال اهتمامها التقليدي في شرق وجنوب شرق آسيا وبحر الصين الجنوبي، وهو أمر ليس بالسهل على الإطلاق بالنظر إلى ميزان القوة العسكرية الواضح الذي هو لصالح الولايات المتحدة. لذلك وجدت الصين نفسها مجبرة على إيجاد بدائل للحد من هذا الواقع الأقرب إلى الحصار من قبل الولايات المتحدة وحلفائها لمصالحها في المنطقة. وقد وجدته في العودة مجددا إلى رموز الماضي من خلال الالتفاف ولو لحين عن الضغوطات الأمريكية وإعادة إحياء ما كان يطلق عليه بطريق الحرير. من خلال هذا المشروع فإن الصين قد أوجدت لنفسها فرصة جديدة، للتوسع في تجارتها ومد شبكة قوية من العلاقات والأحلاف مع جوارها الجغرافي وشركائها في المنطقة، والعمل على ترسيخ واقع دولي جديد تكون الصين فيه أحد اللاعبين الرئيسيين.

ووفقا للخطة المعلنة من قبل الصين، فإن طريق الحرير الجديد (أو كما سمي لاحقا باسم "حزام واحد، طريق واحد") الذي أطلقه شي جين بينغ، رئيس جمهورية الصين الشعبية في عام 2013، سينشئ حزاما اقتصاديا يشمل أكثر من 60 دولة في غضون عقد أو عقدين من الزمن من شأنه أن يعيد تعريف شبكة الصين في آسيا وأوروبا وأفريقيا.

من الواضح أن الهدف الطموح للصين من خلال مشروع حزام واحد، طريق واحد هو تغيير طبيعة التوازنات الدولية القائمة في العالم اليوم، من خلال جعل منطقة أوراسيا في مركز المبادلات الاقتصادية والثقافية العالمية، وبالتالي جعل الصين محورها الرئيس، وكسر هيمنة القوى البحرية، الإمبراطورية البريطانية والولايات المتحدة في مقدمتها التي ظلت تهيمن على حركة العلاقات الدولية منذ قرن من الزمن أو يزيد.

إعلان الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما استراتيجيته الجديدة في آسيا والمحيط الهادي والتي أطلق عليها تسمية المحور (The U.S Asia Pivot).³³

هناك العديد من المسالك لطرق الحرير التاريخية، ولكن الصين اختارت إحياء طريقين كما هو مبين في الخريطة رقم 3، واحدة عبر البر والأخرى عبر البحر. تسمى الأولى بـ "الحزام الاقتصادي لطريق الحرير" تبدأ من شين جيانغ مرورا بكازاخستان وآسيا الوسطى وإيران والعراق وسوريا وتركيا وهكذا وصولاً إلى أوروبا ثم تستمر من خلال بلغاريا ورومانيا وجمهورية التشيك وهولندا وألمانيا. من الواضح في المسار الذي اختير لهذه الطريق، وجود أهداف جيوسياسية. وهي ذات الملاحظة التي يمكن أن تقدم فيما يخص الطريق البحرية. فهو يتعلق بإعادة إدماج أفغانستان وباكستان والعراق وحتى إيران في الاقتصاد العالمي ببناء هذه الهياكل الأساسية الضخمة من بين أمور أخرى ومن ثم تنجح اقتصادياً مع البلدان التي فشلت فيها الولايات المتحدة عسكرياً. أما الطريق الثاني المسمى "طريق الحرير البحرية للقرن الحادي والعشرين" ستنتقل من الموانئ الرئيسية في غوانغزو وكانتون ويمر عبر تايلاند وفيتنام وماليزيا وسنغافورة ثم إندونيسيا والمحيط الهندي فسريلانكا ثم البحر الأحمر، ثم قناة السويس والبحر الأبيض المتوسط. ومن المتوقع أن تلتقي الطريقان البرية والبحرية في مدينة البندقية الإيطالية.

يتضح جلياً بالنظر إلى طول هذه الطريق وأهمية المواقع التي تعبر منها، وأهمية البلدان الشريكة، أنه إذا نجحت هذه المبادرة، فإنها ستسمح للصين باستخدام جميع قدراتها ومهاراتها للقيام بدور رائد على الساحة العالمية. مثل هذا المشروع إذن يستجيب للأولويات الوطنية ويخدم المصالح الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية الصينية بشكل رئيسي. أدنى هذه الأولويات هو فك العزلة الحاصلة على غرب الصين والأقاليم المجاورة له، وكل ما يعني ذلك من مكاسب اقتصادية وتنموية هائلة. وأقصاه هو رؤية الصين لآسيا أو على الأقل وسط وشرق آسيا، قارة خالية من الوجود الأمريكي.³⁴

الطريق مجدداً من خلال المشروع الذي أطلقه الرئيس الصيني شي جين بينغ Xi Jinping رسمياً في 2013 والذي أطلق عليه اسم: One belt, one road initiative والتي عرفت أكثر باسم مبادرة طريق الحرير الجديدة. ستقوم الصين من خلال هذا المشروع بشق آلاف الكيلومترات من الطرق وشبكات السكك الحديدية، وبناء عشرات الموانئ والمحطات والجسور وشبكات الاتصالات وأنابيب الغاز والنفط على طول الطريق من آسيا إلى غرب أوروبا. ومشروعاً آخر لطريق بحرية سميت: «21st Century Road Economic Belt»

2. من السلام الأمريكي PAX AMERICA، إلى

السلام الصيني PAX SINICA

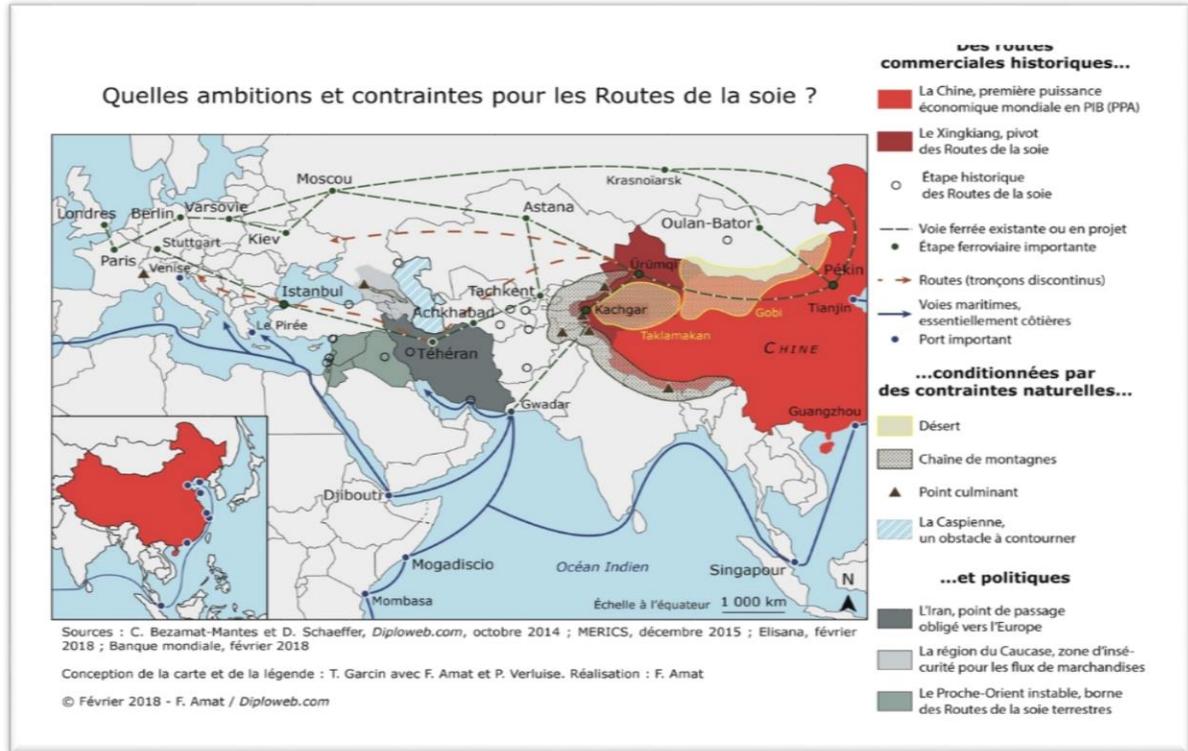
هذا المشروع سيسمح للصين بأن تجعل من نفسها مركزاً للتجارة العالمية وتربط اقتصاديات كل هذه المناطق باقتصادها. وهو ما قد يعزز من مكانتها التي ظلت تنشدها وهي أن تكون مركزاً للعالم.

كما أن اعتمادها على الجانب التاريخي ورموزه، جاء ليدعم السياسة الصينية الحالية وفي مقدمتها بناء آسيا جديدة محررة بشكل تام من التواجد والهيمنة الأمريكية. وتؤكد هذا بشكل خاص، بعد تلقي الصين دعماً قوياً من طرف روسيا في جوان 2015 للمشروع وقبولها الانضمام إليه بعدما تأكدت من أن المشروع لن يضر بمصالحها، وحرص الصين أيضاً على تغليب الجانب الاقتصادي للمشروع ساهم في هذا التوجه الروسي.

وقد تم بالفعل إصدار ميزانية استثمارية بقيمة 40 مليار دولار لهذا الغرض. وفي مارس 2015، أعلن رئيس الوزراء الصيني عن إنشاء صندوق استثمار خاص يسمى "شركة طريق الحرير المحدودة".

ومن الواضح أنه من خلال هذه المبادرة، تعتزم الصين توجيه اهتماماتها الجيوسياسية نحو آسيا الوسطى وأوروبا، وهي استراتيجية تهدف إلى الالتفاف على ساحل شرق المحيط الهادئ والتقليل من تأثير الولايات المتحدة وحلفائها في الشرق الأقصى ونفوذهم المتزايد في المنطقة، خاصة مع

الخريطة رقم 3: طريق الحرير الجديدة



Source : Florent AMAT. « Chine et Eurasie. Quelles ambitions et contraintes pour les Routes de la soie? » <https://www.diploweb.com/Carre-Chine-et-Eurasie-Quelles-ambitions-et-contraintes-pour-les-Routes-de-la-soie.html> (تم تصفحه في 25 أوت 2018)

الحكومة الصينية ترفض بشدة اعتبار مبادرة طريق واحد وحزام واحد، عل أنها مخطط جيوسياسي (وفقا للصيغة الرسمية: تشانغي، وهو ما يعني تقريبا مبادرة للعمل من أجل الصالح العام)،³⁷ إلا أنها تظل في الواقع مشروع يهدف إلى تحويل مسار التجارة الدولية للصين من المحيطات إلى البر الأوراسي. الرهان الذي يرمي إلى تجسيد طريق واحد وحزام واحد، هو استعادة الدور الاقتصادي والسياسي والثقافي التاريخي للصين.

ومع هذا، لا تعني ضرورة الالتفاف برا رفض للمبادلات عبر البحر، والدليل على ذلك أن طريق الحرير البحري في القرن 21 يشكل جزءا هاما من المشروع. ومع ذلك، فإن الطريق البرية تبقى تتمتع بقدر أكبر من الاهتمام، والتي، من وجهة النظر التاريخية، تعني محاولة الصين بكل هدوء القضاء تدريجيا على ما يسمى بالسلام الأمريكي PAX AMERICA، وولوج عصر السلام الصيني PAX CINICA في آسيا.³⁸

في الأخير يجب الإشارة أيضا، إلى أن هذه الطريق بغض النظر عن آثارها الإيجابية على الصعيد الجيوسياسي،

وعلى الرغم من أن مشروع "طريق الحرير" الجديد يعرض كمشروع اقتصادي، فإن له أيضا مكونا استراتيجيا. وفي كتابه "الاستراتيجية الوطنية العظمى" الذي كتب في سنة 2001، حث الجنرال ليو بازو الذي كان في عام 2009 المفوض السياسي لجامعة الدفاع الوطني بلاده على "التحرك غربا".³⁵ واتخاذ جملة من الإجراءات، كإنشاء مراكز للتبادل الاقتصادي والتجاري في المناطق الحدودية، تكون بمثابة نواة لسوق مشتركة في آسيا الوسطى في المستقبل، مع الصين بوصفها الفاعل الرئيسي. كما دعا إلى فتح "جسر بري بين أوروبا وآسيا لتشكيل اتحاد اقتصادي أوروبي-آسيوي كبير وتنمية مصالح مشتركة مع الدول الغربية لتحديد الحصار الأمريكي للصين".³⁶ من الواضح أن الصين اتخذت من طريق الحرير استراتيجية احتواء لها للضغوط الأمريكية الممارسة عليها وهي الالتفاف على ما يمكن أن يصدر من طرف هذه الأخيرة في بحر الصين الجنوبي وباقي الممرات البحرية التي هي تحت سيطرة الولايات المتحدة وحلفائها المباشرين. وعلى الرغم من أن

أعقبت نهاية الحرب الباردة كانت قريبة جدا إلى تبني المخرجات النظرية للمدارس الجيوسياسية الغربية.

لا يمكن أن ننفي أن الدولة الصينية اليوم لا تزال تعتبر الفلسفة الصينية التقليدية الكونفوشيوسية ذخيرة معرفية وعقائدية تؤثر في إدراك وتفاعل النخبة الحاكمة في الصين للشؤون العالمية، ولكن مع ذلك يبدو جليا تأثير صانع القرار الصيني بشكل ملفت للانتباه بما جاء به كل من هالفورد ماكيندر ونيكولاس سبيكمان وتلامذتهما من تنظير، يترجم بالأخص في الاهتمام الصيني المتزايد بالمناطق التي عدت من طرف هؤلاء جزءا من قلب العالم كما صنّفوه في أعمالهم المشهورة. فطريق الحرير في شقها البري والبحري ستكون ترجمة فعلية لما جاءت به هذه المدارس النظرية في إطار الدراسات الجيوسياسية الكلاسيكية على اختلاف توجهاتها، بين من يغلب أهمية اليابسة مثل ماكيندر ومن يرى أن القوة تكمن في الهيمنة على البحار كما كان يعتقد أيضا ألفريد ماهان. وقد عملت الاستراتيجية الصينية اليوم على إيلاء أهمية واضحة لهذه الطروحات التي كانت في الماضي ولا تزال جزءا من خارطة الطريق التي اتبعتها بريطانيا ومن بعدها الولايات المتحدة في رسم سياساتهما العالمية.

وعلى هذا الأساس، يمكن النظر إلى الممارسات الجيوسياسية الصينية الحالية باعتبارها جملة متجانسة من المبادئ الجيوسياسية الكونفوشيوسية القديمة يضاف إليها بعض المبادئ الشيوعية الحديثة إلى جانب التنظير الجيوسياسي الغربي، ولكن في تناغم كبير مع التحولات الدولية الحاصلة اليوم وبشكل متسارع.

فهي كذلك ذات أهمية لا تقدر بثمن بالنسبة للاعتبارات الداخلية البحتة المتعلقة بإدارة الحكومة الصينية لأقاليمها غرب البلاد. ذلك أن هذه الطريق ستكون فرصة لفك العزلة على هذه المناطق التي تتسم بصعوبة التضاريس والمناخ، وستشكل أيضا فرصة لنقل التنمية إليها والحضارة على غرار باقي أجزاء الصين. هذه المبادرة ستسمح للحكومة الصينية بوضع حد للنوايا الانفصالية والنزعة المعارضة التي تغلب على مواقف السكان في هذه المناطق ذات الأغلبية السكانية من غير الهان.

خاتمة

من الواضح أن التوجهات الجيوسياسية الصينية الحالية لا تزال تحت تأثير الكونفوشيوسية، وإن كانت لا تخضع فقط إلى هذا التأثير. وبالتالي لا يبدو أن الإدراك الجيوسياسي الصيني قد عرف تغيرا كبيرا بداية بالفلسفة التقليدية القائمة على أفكار كونفوشيوس، وصولا إلى النظام الشيوعي القائم منذ 1949. وحتى وإن حصل أنه تحت تأثير من الحزب الشيوعي الصيني والأيدولوجية الشيوعية، تراجع تأثير الكونفوشيوسية على التوجهات الجيوسياسية الصينية إلى حد ما. فمن ناحية، استوعبت الممارسات الجيوسياسية الصينية الحالية عناصر من الفلسفة الماركسية، دون أن تحول من أن تتبنى الصين في إطار ممارساتها الجيوسياسية الخريطة السياسية الحديثة للعلاقات الدولية. ولكن من الواضح أن الممارسات والتوجهات الجيوسياسية الصينية في السنوات التي

الهوامش

1. المشروع الذي أعلن عنه الرئيس الصيني شي جين بينج Xi Jinping في سبتمبر 2013 ، والذي كشف فيه لأول مرة عن رؤية الصين الجديدة في إحياء طريق الحرير القديمة باسم مبادرة "طريق واحد حزام واحد" (OBOR) ، اعتبره المتتبعون مخططاً لاستراتيجية كبرى لتوسيع نفوذ الصين عبر آسيا ومن ثم العالم.
2. Laurent Murawiec. « L'Esprit des Nations, cultures et géopolitique. » Paris : Odile Jacob, 2002, p. 35.
3. Xavier Walter. « Petite Histoire de la Chine. » Paris : Éditions Eyrolles. 2007, p. 25
4. Jean-Vincent Brisset. « La chine, une puissance encerclée. » Paris : IRIS (collection Enjeux stratégiques) 2002, p. 24.
5. Ning An. "Confucian geopolitics: Chinese geopolitical imaginations of the US war on terror" Submitted in fulfilment of the requirements for the Degree of Doctor of Philosophy. School of Geographical and Earth Sciences College of Science and Engineering. University of Glasgow April 2017, p. 56
6. Ning An. Op. Cit, p. 58
7. Ibid p. 59
8. Ning An. Op. Cit, p. 60
9. Robert D. Kaplan. « La revanche de la géopolitique, ce que les cartes nous disent des conflits à venir. » Traduit de l'Anglais par Anaïs Goacolou. Paris : Éditions du Toucan, 2012, p. 297
10. Ning An. Op. Cit, p. 63
11. وقعت حرب الأفيون في منتصف القرن التاسع عشر في فترة حرجة من التاريخ الصيني الحديث. حرب الأفيون الأولى خاضتها الصين ضد بريطانيا العظمى بين عامي 1839 و1942. في حين وقعت حرب الأفيون الثانية ، بين عامي 1856 و1860 ، حيث خاضتها الصين هذه المرة ضد كل من بريطانيا العظمى وفرنسا مجتمعيتين. خسرت الصين الحربين وكان من تبعات هزيمتها ، التنازل عن إقليم هونغ كونغ لسيطرة بريطانيا ، وفتح موانئها للتجارة دون قيد ، ومنح حقوق خاصة للأجانب العاملين فيها. بالإضافة إلى ذلك ، كان على الحكومة الصينية أن تدعّن لقيام البريطانيين بزيادة مبيعاتهم من الأفيون في الأسواق الصينية.
12. طالع حول هذا الموضوع:
13. Jack Patrick Hayes. « The Opium Wars in China. » Asia Pacific Foundation of Canada. https://asiapacificcurriculum.ca/system/files/2017-11/The%20Opium%20Wars%20in%20China%20-%20Background%20Reading_1.pdf (تم تصفحه في 2017/09/12)
14. Robert D. Kaplan. Ibid, p. 298
15. Ning An. Op. Cit, p. 65
16. Ning An. Op. Cit, p. 67
17. Robert D. Kaplan. Op. Cit, p. 298
18. Xavier Walter. Op. Cit, p. 10
19. Ning An. Op. Cit, p. 68
20. Gérard Dussouy. « Les théories géopolitiques Traité de Relations internationales. » Tome (I), Pouvoirs comparés. Paris: l'harmatan, 2006, p. 274.
21. Fan Di. "Reflecting on Deng Xiaoping's 'Cat Theory' of Economic Reform." THE EPOCH TIMES, October 18, 2016. https://www.theepochtimes.com/reflecting-on-deng-xiaopings-cat-theory-of-economic-reform_2173740.html (تم تصفحه في 20 ديسمبر 2017)
22. "دولة واحدة ونظامان" هو مبدأ دستوري صاغه الزعيم الصيني دنغ زياو بينغ ، لإعادة توحيد الصين في أوائل الثمانينيات. واقترح أنه لن تكون هناك سوى صين واحدة ، ولكن المناطق الصينية مثل هونغ كونغ وماكاو وتايوان يمكن أن تحتفظ بنظمها الاقتصادية والإدارية الخاصة بها ، بينما تستمر بقية الصين الاشتراكية بنظمها الخاص. وبموجب هذا المبدأ ، يمكن للأقاليم المسترجعة أن تستمر في إقامة نظام حكومي قانوني ومالي خاص بها ، بما في ذلك ربط علاقات تجارية مع بلدان أجنبية.
23. Encyclopedia Universalis. <https://www.universalis.fr/encyclopedie/chine-economie/2-le-decollage-de-l-economie-chinoise/>
24. François Joyaux. « Géopolitique de l'Extrême-Orient ». Tome I. Espaces et politiques, Bruxelles, Complexe, 1991, p. 136, In : Gérard Dussouy. « Les théories géopolitiques Traité de Relations internationales. » Tome (I), Pouvoirs comparés. Paris : l'harmatan, 2006, p. 273.
25. Mehdi Taje. « Géopolitique de la Chine : enjeux et défis. » http://pf-mh.uvt.rnu.tn/324/1/Géopolitique_de_la_Chine.pdf . (تم تصفحه في 2017/09/25) p. 13
26. Mehdi Taje. Op.Cit, p. 37
27. Robert D. Kaplan. Op. Cit, p. 297
28. Robert D. Kaplan. Op. Cit, p. 301

29. Xavier Qin. « Introduction à la pensée stratégique chinoise traditionnelle. Principes anciens et applications actuelles » Civilisation, Avril 2010, http://www.china-institute.org/articles/Introduction_a_la_pensee_strategique_traditionnelle_chinoise.pdf, p. 10, (2018/02/12 في تصفحه)
30. هذه الاستراتيجية الصينية جاءت استجابة لضرورة احتواء الولايات المتحدة التي جاءت بمفهوم جيوسياسي جديد في أكتوبر 2011، والذي أطلقت عليه إدارة الرئيس أوباما اسم "المحور الآسيوي". تدفع هذه الاستراتيجية إلى تغيير شامل في سياسة الولايات المتحدة الخارجية من خلال التزامها بالحفاظ على الوضع الراهن في شرق آسيا، فضلا عن زيادة تفعيل دورها الإقليمي الرائد. تعد استراتيجية المحور الآسيوي في الأساس، مخططا جيوسياسيا بما يتضمنه من أهداف عسكرية وسياسية واقتصادية لمقارعة طموحات الصين. وفي إطار إستراتيجية المحور، عززت الولايات المتحدة تحالفاتها في المنطقة، وقامت بتجهيز الدول التي تعتبر من أهم المنافسين للصين (الفلبين واليابان وفيتنام) بأدوات عسكرية حديثة. وبدأت أيضا في نشر جزء كبير من إمكاناتها العسكرية في المنطقة.
31. يعود تاريخ طريق الحرير التاريخية إلى أحد أباطرة الصين من عائلة هان Hun الذي أوفد أحد رسله إلى أوروبا ومن ثم تحول ذلك المسار الذي اتخذته الرسول إلى طريق يتبعها التجار. يبلغ طول هذه الطريق 6500 كم.
32. Viktor Eszterhai. "The Geopolitical Significance of One Belt, One Road from a Historical Perspective." PAGEO. Geopolitical Institute. March 14, 2017. www.geopolitika.hu/en/2017/03/14/the-geopolitical-significance-of-one-belt-one-road-from-a-historical-perspective/ (تم تصفحه في 15/01/2018)
33. Pan Zhiping. "Silk Road Economic Belt: A Dynamic New Concept for Geopolitics in Central Asia." China Institute of International Studies, www.ciis.org.cn/english/2014-09/18/content_7243440.htm (2017/09/11 في تصفحه)
34. Viktor Eszterhai. Op. Cit, www.geopolitika.hu/en/2017/03/14/the-geopolitical-significance-of-one-belt-one-road-from-a-historical-perspective/ (تم تصفحه في 15/01/2018)
35. Barthélémy Courmont . « LA STRATÉGIE DU PIVOT VERS L'ASIE D'OBAMA EN QUESTION » Recherches internationales, n° 106, janvier-mars 2016,
36. Rolland Nadège, « La nouvelle Route de la soie. Les ambitions chinoises en Eurasie », Politique étrangère, 2015/3 (Automne), p. 136
37. Rachel Vandenbrink. "Asia's Turn to Geopolitics: China and Japan in Central and Southeast Asia." <http://web.isanet.org/Web/Conferences/HKU2017-s/Archive/77c581ce-94fe-4c91-815d-b5f337400688.pdf>, (2017/12/16 في تصفحه في 16/12/2017) p. 12
38. Rolland Nadège. Op. Cit, p. 142
39. Viktor Eszterhai. Op. Cit, www.geopolitika.hu/en/2017/03/14/the-geopolitical-significance-of-one-belt-one-road-from-a-historical-perspective/ (تم تصفحه في 15/01/2018)
40. Viktor Eszterhai. Op. Cit, www.geopolitika.hu/en/2017/03/14/the-geopolitical-significance-of-one-belt-one-road-from-a-historical-perspective/ (تم تصفحه في 15/01/2018)

مصطلح علم النقد الأدبي؛ إشكالاته ومرجعياته

The term literary criticism; its problems and references

تاريخ القبول: 2019-12-18

تاريخ الإرسال: 2018-10-02

زكريا بوشارب، مخبر المناقشة العربية في الأدب وتقده؛ جامعة محمد ملين دباغين، سطيف 2

zakariabouchareb02@gmail.com

الملخص

تهدف هذه المقاربة من خلال أدوات الدرس المصطلحي؛ لتكون قيمة مضافة إلى مشروع دراسة المصطلح النقدي في التراث العربي، بالتركيز على معالجة الإشكالات المصطلحية والمرجعيات المعرفية لمصطلح علم النقد الأدبي، لأن من شأن هذا الإجراء العلمي أن يزيل اللبس والغموض والتشويش الذي لحق كثيراً من المصطلحات النقدية، سعياً لإجلاء رؤية واضحة تقدر الجهود العربية في إرساء دعائم النقد الأدبي، وتأسيس منظومة مصطلحاته. باعتبار أنّ المصطلح يُعدُّ مقدمة لفهم العلم الذي ينتمي إليه؛ فالمصطلح هو اللفظ الذي نعبر به عن المفهوم داخل الحقل العلمي، بل أساساً لضبط نسق المفاهيم التي تشكل صرحه، كما أنّه -بتعبير عبد الحفيظ الهاشمي- هو عودة إلى الواقع العلمي الصحيح، وكشف لغطاء الغفلة المعرفية التي شملت كثيراً من الدراسات والبحوث سنين عدداً.

الكلمات المفتاحية: المصطلح؛ النقد؛ الإشكالات؛ المرجعيات.

Résumé

L'objectif de cette approche est, à travers les outils de la leçon de terminologie, d'ajouter de la valeur au projet d'étude du terme critique dans l'héritage arabe, en s'attaquant aux problèmes de terminologie et aux références cognitives du terme science littéraire, car cette procédure scientifique supprimera la confusion, l'ambiguïté et la confusion qui ont affecté de nombreux termes monétaires. Afin de clarifier la vision des efforts arabes pour établir les fondements de la critique littéraire et la mise en place d'un système de termes. Comme le terme est une introduction à la compréhension de la science à laquelle elle appartient, il est le terme qui exprime le concept dans le champ scientifique, mais essentiellement pour ajuster le schéma des concepts qui composent sa déclaration, et qui - dans l'expression Abdul Hafiz Hashemi - correspond à un retour à la réalité scientifique correct, Connaissance qui a inclus de nombreuses études et nombre d'années de recherche.

Mots-clés : Terme, critique, problèmes, références.

Abstract

The aim of this paper is to explain the concept of intercultural communication competence, components and barriers that limit communication effectivity within multicultural team, this leads to misunderstandings and conflicts that negatively affect the institution. To manage these conflicts there are several methods that differ from high-context cultures to low-context cultures. Each culture follows a particular method for managing these conflicts within multicultural teams. This study shows the developing of intercultural communication competence by using many measures that led to the positive responses that help to communicate effectively with people from different cultures in multicultural team of work.

Keywords: Term, criticism, problems, references.

مقدمة

"تراثنا هو ذاتنا، شئنا أم أبينا اعترفنا به أو أنكرناه[...]. هذا التراث؛ له مفاتيح لفهمه. وإننا، حتى الساعة لانفهمه[...]. والمدخل لكل ذلك، ولما ينبني عليه، هو المصطلحات، ولذلك آثار لا حد لها ولا حصر. أقلها وأبسطها الإدراك الصحيح لهذه الأمة، ما هو؟ ولشخصيتها العلمية، ما هي؟ [...]. لكن الذات الحقيقية لما تُعرف حتى الساعة! فلذلك لابد من امتلاك هذه المفاتيح، ولابد من الصبر على امتلاكها"؛⁽⁸⁾ لأن عدم امتلاكها يؤدي إلى نفور كثير من الدارسين من الإقبال على دراسة هذا التراث، بدعوى كثرة مصطلحاته، وصعوبة ضبط مفاهيمها، مع العلم أن "الاهتمام بالمفاهيم المكونة للذات، ينبغي، بل يجب، أن يكون على رأس الأولويات"⁽⁹⁾ ومعلوم أن "المجدد إن لم يصدر عن التراث، يظل بعيداً عن الأصالة؛ لأن التجديد قتل القديم درساً"⁽¹⁰⁾.

ويجد الدارس للمصطلح النقدي نفسه مضطراً إلى وضع سؤال مهم حول هوية المصطلح؛ وعلاقة هذه الهوية بالإنتاج النقدي، ويبدو أن تحديد هوية المصطلح النقدي في التراث العربي ينبغي أن تنطلق من أوجه الاتصال بالمجال النقدي من جهة، وفيما يحمله المصطلح من لون الشحنة النقدية التي يعبر عنها من جهة ثانية.⁽¹¹⁾ وإذا كانت دراسة المصطلحات من وجهة النظر اللغوية الخالصة غاية في ذاتها، فإنها من وجهة نظر المشتغلين بالعلوم التي تنتمي إليها تُعدّ من باب فرض العين في فهم موضوعات تلك العلوم،⁽¹²⁾ فإذا لم يتوفر للعلم مصطلحه الذي يُعدّ مفتاحه، فقدّ هذا العلم مسوغه وتعطلت وظيفته، ومن هنا كان لابد من تحديد الألفاظ والمفاهيم، لأنّ مثل هذا التحديد هو المنطلق الأول للتفكير العلمي.⁽¹³⁾

وبشكل المصطلح في المنظومة الثقافية علامة تختزل دلالة واضحة ومحددة، وينبغي أن تخلو دلالاته من التعدد والداخل والاضطراب، وأن يرتبط المفهوم بمصطلح واحد. ولا يخفى أن تعدد المصطلح للمفهوم الواحد، أو ازدواجية المفهوم للمصطلح الواحد في أي نسق ثقافي، يهددان النسق المعرفي بين النص والمتلقي؛ إذ إن إشكالية التعدد والازدواجية تقضيان إلى الخلط والتناقض والضبابية في الخطاب التنظيري، وإلى الخطأ في التمثيل والاستنتاج في المستوى التطبيقي؛⁽¹⁴⁾ إذ إن عمليات التواصل هي أنظمة

تُعدّ إشكالية المصطلح من أهم إشكاليات المنهج في آية دراسة علمية؛ لأنّها تمثل الخطوة الأولى في تصور موضوع الدراسة تصوراً صحيحاً، وسبر مدها، وتشكيل مادته، وتشقيق مسائله، فضلاً عن أنّ المصطلح بفكرته المحدودة، واستعماله الصحيح، يوفر الوقت، ويجنب سوء الفهم. وتعدّ - كذلك - مسألة العلاقة بين المصطلح والدلالة ذات أهمية في التفكير العلمي؛ فإذا فقد المصطلح حدّه ووضوحه ودقته، أصاب الدلالة غموض وتعمية واضطراب، وحينما تصاب الدلالة بهذه الأعراض المرضية فإنّ الخطاب الثقافي برمته يصبح خطاباً مفككاً متداخلاً؛⁽¹⁾ فالمصطلح -وفق شروطه الموضوعية- هو جهاز مناعة للمنظومة المعرفية.

ولا تخفى أوامر القربى بين منظومة المصطلحات والخطاب الثقافي؛ لأنّ توافر الشروط الموضوعية للمصطلح يُعدّ دليلاً على وجود عناصر النسق والوضوح والشمولية لأي حقل ثقافي، وقد زعم عمر عتيق أنّ العلاقة الجدلية بين منظومة المصطلحات والخطاب الثقافي، تشبه إلى حد ما علاقة التناسب والتوافق بين علم الإشارات أو العلامات ومدلولاتها؛⁽²⁾ إذ إن الإشارة أو العلامة تقتضي تحديداً ووضوحاً ودقة في دلالتها من جهة، وتوافقاً على تلك الدلالة من جهة أخرى، وأي خلل يحدث في شكلها أو أدائها أو دلالتها يفضي إلى انهيار الدور الوظيفي لها، وانقطاع التواصل بين المرسل والمتلقي؛ وذلك لأنّ "المصطلح هو عقد اتفاق بين الكاتب والقارئ، وشفرة مشتركة تمكن من إقامة اتصال بينهما لا يكتنفه غموض أو لبس"،⁽³⁾ ولعلّ فوضى المصطلح هو الداء العضال الذي يتهدد الدراسات الأدبية والنقدية.

وقد عني كثير من الدارسين المعاصرين -أفراداً ومؤسسات- بدراسة المصطلحات العربية التراثية، في العديد من العلوم والفنون، في أفق تغطية مراحل تاريخنا الأدبي والنقدي كلها؛ وهذا مشروع ضخم وطموح، يتطلب تجند العديد من الباحثين لإنجازه،⁽⁴⁾ ومن ثم "مازال أمامنا واجب جرد المصطلحات التراثية، وتصنيفها، وتعريفها وتحديد مفاهيمها؛ للإفادة منها فيما يقبل من عملنا المصطلحي"⁽⁵⁾ لأن التراث يعدّ "مجلي الذات، وخزان الممتلكات"⁽⁶⁾ و"مستودع جميع ما نملك من مصطلحات"⁽⁷⁾ ذلك أن

أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقاباً لم تكن العرب تتعارف تلك الأعرىض بتلك الألقاب ، وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك ، وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزحاف".⁽²²⁾ وعلى هدي هذه السنة جاءت مصطلحات النحويين وأصحاب الحساب والمتكلمين وغيرهم.

أما الوجه الثالث لقيام جواز الاختراع المصطلحي فهو قول القدامى بخصوصية الاستعمال المصطلحي ، ذلك أن مستعمل مصطلح ما لعلم من العلوم يجب أن يكون من أهل ذلك العلم ؛ "فالمصطلح يتطلب خصوصية تخرجه عن الكلام العادي ، ولكن ذلك يوقع الناقد في مشكلة وهي الحد من رواج ذلك المصطلح ، إذ لا يقف عليه إلا العلماء في ذلك الباب".⁽²³⁾ وهو أمر نبه إليه ، بصفة عامة ، بشر بن المعتمر في صحيفته عندما اشترط أن تكون الألفاظ ، من بين ما تكون ، على أقدار المستمعين ؛ فالخطيب "إن عبّر عن شيء من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين إذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، وإلى تلك الألفاظ أميل وإليها أحنُّ وبها أشغف".⁽²⁴⁾

ويعدّ موقف قدامة بن جعفر في جواز الاختراع المصطلحي بأنه النواة الحقيقية للخطاب الاصطلاحي النقدي لدى العرب ؛ ويتجلى موقفه في موطن فريد من كتابه نقد الشعر ، نسوقه في هذا السياق لأهميته: "ومع ما قدّمته فإني لما كنت آخذاً في استنباط معنى لم يسبق إليه من يضع لمعانيه وفنونه المستنبطة أسماء تدل عليها ، احتجت أن أضع لها يظهر من ذلك أسماء اخترعتها ، وقد فعلت ذلك. والأسماء لا منازعة فيها إذ كانت علامات. فإن فُئِعَ بها وضعته وإلا فليخترع لها كل من أبي ما وضعته منها ما أحبّ فليس ينازع في ذلك".⁽²⁵⁾

واتفق مع رأي قدامة بن جعفر ما ذهب إليه مؤلف (نقد النثر؛ وعنوانه الحقيقي هو: البرهان في وجوه البيان. وينسب إلى ابن وهب الكاتب) على جواز اختراع الألقاب ووضع الأسماء للمسميات التي لم تقع لسابق وبالتالي لم يوضع لها اسم. ولا بد أن نورد النص الكامل لابن وهب على الرغم من طوله لأنه في نظرنا نص تأسيس في الاصطلاحية عند العرب ؛ يقول: "وأما الاختراع فهو ما اخترعت له العرب أسماء مما لم تكن تعرفه. فمما سمّوه باسم من عندهم

تتكون من علامات تدل على مفاهيم محددة ، وأية علامة تشير إلى دالتين مختلفتين تقود المتلقي إلى اتجاهين مختلفين فيفقد النص أو الخطاب غايته أو رسالته ، وكذلك الأمر في المفهوم الذي يشير إلى مصطلحين مختلفين ، وذلك لأن المصطلح في أبسط مفاهيمه "هو عقد اتفاق بين الكاتب والقارئ ، وشفرة مشتركة"⁽¹⁵⁾ بينهما ، تمكنهما من إقامة اتصال لا يكتفنه غموض أو لبس.

01. إشكالية الاختراع المصطلحي والمشاحة في

الاصطلاحات

تعدّ عملية ابتكار المصطلحات الجديدة للمعاني الجديدة ؛ أي اختراع أسماء لها لم يكن معروفاً كما فعل المتكلمون والنحويون وأصحاب العروض والحساب؛⁽¹⁶⁾ قضية من أبرز قضايا علم المصطلح ، ولا شك في أن جهود النقاد العرب القدامى في وضع وابتكار المصطلحات النقدية الجديدة هي جهود كبيرة ؛ ونشير إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ) واضع علم العروض ، وهو علم جديد لم يسبق إليه ، إذ وجد الخليل نفسه بحاجة إلى مسميات كثيرة ليدل بها على منظومة علم القوافي ؛ فالمصطلحات التي تضمنتها دراسة العروض كلها من وضع الخليل وتلقيه ،⁽¹⁷⁾ فهو الذي سمى الأوزان بأسمائها ، ووضع للتفعيلات وأجزائها وعللها وزحافات ألقاباً كالقبض ، والكف ، والخرم ، والثلثم ، والجزء والخبن وغيرها.⁽¹⁸⁾

وقد كان موقف النقاد القدامى واضحاً من قضية الإبداع المصطلحي ؛⁽¹⁹⁾ إذ قالوا بجواز الاختراع المصطلحي - وهو موقف متأصل لدى العرب-نحتج له بوجوه متعددة ؛ أولها تأكيدهم حركية اللغة. ولا ريب أن اشتغال اللغويين بقضية الاصطلاح والتوقيف دافعه الأساسي ، وهدفه كذلك ، هو حركية اللغة.⁽²⁰⁾ فلولا تلك الحركية لما استطاعت اللغة مواكبة التطور الحضاري ، بل لما كان للتجمع البشري أن يكون. وقد صدق الجاحظ عندما قال: "لولا حاجة الناس إلى المعاني وإلى التعاون والترافد لما احتاجوا إلى الأسماء".⁽²¹⁾ من هنا تفرض حركية اللغة مبدأ جواز الاختراع المصطلحي.

ويتأكد تأصيل هذا الجواز من وجه ثانٍ ؛ إذ هو سنة لدى كل مستنبط علم جديد ، وثُرفع هذه السنة إلى الخليل في اختراعه المصطلحات العروضية ؛ "وكما وضع الخليل بن

ويشير أحد الباحثين -وهو؛ عبد الغني بارة- إلى مدى الحذر الذي كان يتوخاه الناقد القديم مما قد يحصل إذا خالف أحدهم المتعارف عليه في الاصطلاحات، فتكون الفوضى ويعم الاضطراب.⁽³¹⁾ ثم يستدرِك قائلاً: "غير أن عيب هذه النظرية قد يكون في حالة غلق باب الاجتهاد في تجديد المصطلح؛ إذ الانغلاق على مجموعة من المصطلحات واستخدامها في كل عصر يجعل من العملية النقدية محدودة الأفق، كما لا يعطي للغة حقها في التعامل مع المستحدث لتفجر طاقاتها وتحتوي الوافد".⁽³²⁾

إن جواز الاختراع المصطلحي -إذن- أمر متأصل لدى العرب، بديهي لدى مخترع العلم مسلّم به، فإن تخلصنا من هذا إلى قول ابن المعتز: "ولعل بعض من قصّر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتمنيه مشاركتنا في فضيلته فيسمي فنا من فنون البديع بغير ما سميناه به [...]"⁽³³⁾. لنلاحظ أن هذا الموقف إنما اندرج ضمن ذلك الجواز لاعتبارات تتعلق بمستعملي تلك المصطلحات، أو بسبب الانشغال بالتأسيس للعلم، ولكن هذه الحرية في اختراع المصطلحات ينجم عنها تشويش مصطلحي كبير وإشكالات كثيرة.

02. إشكالية الوضع أو المواضع

قامت نظرية النظم لدى عبد القاهر الجرجاني على أساس أسبقية المعاني على الألفاظ؛ فقبل أن يكون الاسم كان المسمّى، و"هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني؟ [...]" وأوضاعاً قد وضعت لتدل عليها؟ فكيف يتصوّر أن تسبق المعاني؟ وأن تتقدّمها في تصوّر النفس؟ إن جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء، وقبل أن كانت"⁽³⁴⁾ والألفاظ -كما يرى الجرجاني- أوعية للمعاني وتبع لها، "فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق، فأما أن تتصوّر في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب، وأن يكون الفكر في النظم الذي يتوآصفه البلغاء فكراً في نظم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجيء بالألفاظ على نسقها، فباطل من الظن".⁽³⁵⁾

يقول محمد محمد أباً موسى في شرحه لهذه الفكرة: "اللغات كلها مغروسة في النفوس، والذي نحتاج إلى أن

كتسميتهم الباب في المساحة باباً، والجريب جريباً، والعشير عشيراً، ومنه ما أعربته وكان أصل اسمه أعجيباً كالقسطاس المأخوذ من لسان الروم، والشطرنج المأخوذة من لسان الفرس، والسجل المأخوذة من لسان الفرس أيضاً، وكل من استخرج علماً أو استنبط شيئاً وأراد أن يضع له اسماً من عنده ويواطئ عليه من يخرج إليه، فله أن يفعل ذلك. ومن هذا الجنس اخترع النحويون اسم الحال، والزمان، والمصدر، والتمييز، والتبرية. واخترع الخليل العروض، فسّمى بعض ذلك: الطويل، وبعضه المديد، وبعضه الهزج، وبعضه الرجز. وقد ذكر أرسطاطاليس ذلك وذكر أنه مطلق لكل أحد احتاج إلى تسمية شيء ليعرفه به أن يسميه بما شاء من الأسماء. وهذا الباب مما يشترك العرب وغيرهم فيه وليس مما ينفردون به".⁽²⁶⁾

ويمكن أن نضيف نصاً أقدم؛ هو لبشر بن المعتمر ضمن صحيفته؛ وقد نقله الجاحظ في معرض حديثه عن المتكلمين إذ قال: "وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع".⁽²⁷⁾

ولحازم القرطاجني رأي في قضية جواز الاختراع المصطلحي؛ يقول في ضروب التركيبات في أوزان الشعر العربي: "ولا تشاح في الألفاظ كما أنه لا حرج على من عدل عما تقتضيه تلك الأسماء في المسميات إذا أراد الإفصاح عن جهات مشابهاتها لما نقلت إليها منه التسمية والتمثيل الصحيح في ذلك"،⁽²⁸⁾ ويقول عن المطابق: "يسمى تضاد المعنيين تكافؤاً ولا تشاح في الاصطلاح".⁽²⁹⁾

ووصلت عناية النقاد القدامى بقضية المصطلح وإرسائه إلى غاية الدقة في وضع المصطلحات، حتى أننا نجدهم يؤنّبون من يخالف في المصطلحات المتواضع عليها عند السابقين؛ فهذا الأمدى يأخذ على قدامة بن جعفر مخالفته لابن المعتز في وضع بعض مصطلحات الفنون البلاغية، فيقول: "إنه وإن كان اللقب يصح لموافقته معنى الملقبات، وكانت الألقاب غير محظورة، فإنني لم أكن أحب له أن يخالف من تقدمه، مثل أبي عباس عبد الله بن المعتز وغيره ممن تكلم في هذه الأنواع وألف فيها، إذ قد سبقوا إلى التلقب، وكفوه المئونة".⁽³⁰⁾

وإذا كان وجود النقد العربي القديم مرتبطاً في مراحله المبكرة بالشعر، وأن هذا الشعر العربي قد حمل في طياته بواكير المفاهيم النقدية واصطلاحاتها؛ فإن محمد مندور في كتابه النقد المنهجي عند العرب يرى بأن النقد ليس علماً ولا يمكن أن يكون علماً، وإن وجب أن نأخذ فيه بروح العلم.⁽⁴²⁾ والمتأمل في التأليف الأولى للمدونة النقدية يجد بأن استعمال مصطلحات من مثل: (أهل العلم، العلم بالشعر، البصر،⁽⁴³⁾ النظر،⁽⁴⁴⁾ الفراسة،⁽⁴⁵⁾ المعاينة،⁽⁴⁶⁾ المدارس⁽⁴⁷⁾ [...] كانت سابقة لمصطلح (النقد)، ولعل أسبقها جميعاً هو مصطلح أهل الشعر وذلك باعتبار الشعر صناعة؛ ولكل صناعة أهلها كما قال غير واحد من النقاد:

- الأصمعي: "يسأل عن كل صناعة أهلها".⁽⁴⁸⁾

- ابن سلام الجبجي: "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات".⁽⁴⁹⁾

- القاضي الجرجاني: "ولكل صناعة أهل يرجع إليهم في خصائصها ويستظهر عند اشتباه أحوالها".⁽⁵⁰⁾

- الباقلائي: "لكل عمل رجال ولكل صنعة ناس".⁽⁵¹⁾

- وقيل للمفضل (168هـ): "لم لا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به. قال: علمي به هو الذي يمنعني من قوله".⁽⁵²⁾

إن هذا الإجماع في جوهره إنما هو دعوة صريحة من هؤلاء إلى ضرورة استقلال السلطة النقدية، "وقد اختلفت العلماء بعد في بعض الشعر كما اختلفت في سائر الأشياء، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه".⁽⁵³⁾ ولذلك ذهب الباحث توفيق الزبيدي إلى أن مثل هذه الصرامة قد أدت إلى أن تُكوّن تلك الأحكام الرصيد المرجعي في التراث النقدي، فإن هي تكرّرت حيناً، فقد اتخذت أصولها سنداً في المواقف النقدية في أحيان كثيرة.⁽⁵⁴⁾

إن القياس المنطقي في تلك الآراء يفرض مقدمة كبرى هي: (لكل صناعة علم)، ومقدمة صغرى هي: (الشعر صناعة)، فتكون نتيجة القياس هي أن للشعر علماً؛ وفي ذلك يقول ابن سلام: "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم. والصناعات منها ما تتقنه العين ومنها ما تتقنه الأذن ومنها ما تتقنه اليد، ومنها ما يتقنه اللسان، ومن ذلك اللؤلؤ والياقوت، لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة

نتعلّمه هو السمات والعلامات [...] فإذا تعلّمت مواضع الألفاظ ومجاري المباني في أي لغة فقد تعلّمت شقّها الثاني"؛⁽³⁶⁾ لأن الشق الأول مغروس في الطبع، ومكتسب من غير تكلف.

ومن أدلة أن المفاهيم سابقة على المصطلحات أن المواضع المصطلحية لا تكون ولا تتصور إلا على معلوم؛ "فمحال أن يوضع اسم أو غير اسم لغير معلوم، ولأن المواضع كالإشارة".⁽³⁷⁾ وهذا ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني؛ وهو يستدل في إثبات سبق المسميات على الأسماء بقصة تعليم آدم الأسماء في قوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَقْبِلُوهَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيكُمْ أَمْ لَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَاقِيَ إِذْ سَمِعَ الْجَنَّةَ} [البقرة: 31]

وقد شرح الباحث مسعود بودوخة هذه الفكرة وضرب لها مثلاً بعملة الأوراق النقدية؛⁽³⁸⁾ فهي ليست بذات قيمة في ذاتها مجردة عما ترمز إليه من قيم مادية مرتبطة بها، وهي سابقة عليها، لأن قيمة القطعة النقدية سابقة على سك القطعة في ذاتها.

02. 01. إشكالية وضع مصطلح علم النقد الأدبي

02. 01. 01. تأصيل مصطلح علم النقد الأدبي

يعزى وضع علم النقد الأدبي إلى قدامة بن جعفر، وعلى الرغم من وجود مؤلفات في القرن الثالث الهجري عنيت بنقد الشعر، إلا أن قدامة بن جعفر الذي اطلع حتى على ثقافة اليونان لم يلتفت إلى تلك الجهود العربية؛ لأنه يصرح بأنه لم يجد "أحداً وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتاباً"،⁽³⁹⁾ ويردّف قائلاً: "فأما علم جيد الشعر من رديئه فإن الناس يخطون في ذلك منذ تفقهوا في العلم، فقليلاً ما يصيبون؛ ولما وجدت الأمر على ذلك وتبيّنت أن الكلام في هذا الأمر أخص بالشعر من سائر الأسباب الأخر، وأن الناس قد قصروا في وضع كتاب فيه، رأيت أن أتكلم في ذلك بما يبلغه الوسع"؛⁽⁴⁰⁾ فالنقد لدى قدامة (علم) ومجاله تخليص الجيد من الرديء في الشعر، أما سائر ما يتعلق بالشعر من علم العروض والوزن، والقوافي، والغريب، واللغة والمعاني، فليس مما يدخل في باب النقد إلا على نحو عارض، وقد أكثر الناس في التأليف في تلك العلوم وقصّروا في علم النقد.⁽⁴¹⁾

النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج. ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل".⁽⁶¹⁾ إن مثل هذه الحدة في الطعون لا تعني القدح في علم الرواة واللغويين ، بقدر ما تعني التعبير عن ضرورة استقلال السلطة النقدية عن غيرها.

02. 01. 03. مرجعية مصطلح النقد

(العملة النقدية بين الوجه التجاري والوجه الأدبي)

اقترن لفظ النقد في اللغة العربية في أول عهده بالنقود في معنى الرداءة ، ثم ارتحل إلى علم النقد الأدبي محملاً بمعنى الرداءة ، ليصطلح على الكلام الرديء. ولعلّ استلهم صورة نقد الدراهم والوصول إلى وظيفة النقد ، وهي تمييز الجيد من الرديء ، انبثقت عنها التسمية الأولى لعلم الشعر بالنقد ، وكانت خلاصة قدامة بن جعفر عندما وضع علماً للشعر أن يفتتح المصطلح التجاري (نقد الدراهم) ، ويؤدّ بدلاً منه مصطلحاً أدبياً (نقد الشعر).⁽⁶²⁾ وفيما يأتي سنعرض لأهم مصطلحات العملية النقدية التي اتخذت لها من العملة النقدية مرجعاً لها.

أ. مصطلح النقد

إن استقراء المدونة النقدية يقودنا إلى أن ابن سلام الجمحي هو أول من استعمل مصطلح النقد انطلاقاً من استعماله اسم الفاعل (ناقد) ، وذلك حين أورد خبر خلف الأحمر -السابق- داعماً به رأيه في أن النقد صناعة ؛⁽⁶³⁾ "ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا طراز ولا وسم ولا صفة. ويعرفه الناقد عند المعاينة ، فيعرف بهرَجَهَا وَزَائِقَهَا وَسُتُوقَهَا وَمُفَرَّغَهَا".⁽⁶⁴⁾ وقد يكون سبب اقتراب ابن سلام الجمحي من مصطلح (النقد) ، هو أن مصطلح (ناقد) في عصر ابن سلام هو الرائج في المجال التجاري ، فكان الاستعمال مجازياً أدى إلى ارتحال المصطلح من سياق تجاري إلى سياق أدبي ، ولكن ذلك لا يدل على أن (النقد) قد استقر واستقل مصطلحاً أدبياً.⁽⁶⁵⁾

إن صاحب المعرفة في ميدان الشعر ، إنما هو صرّاف وعلى اطلاع بأحوال النقد والصيرفة ، وبما أن حكمه حاسم ونهايي ، فإن القطعة التي يطعن في صحتها محكومة بأن

ممن يبصره ، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم ، لا تعرف جودتها بلون ، ولا مس ، ولا طراز ، ولا صفة ، ويعرفه الناقد عند المعاينة".⁽⁵⁵⁾

ولعلّ صورة الصرّاف والعالم بالشعر عند خلف الأحمر مهمة إلى حد أنها تمثل في رأينا الصورة الأصل في تبلور النظرية النقدية عند العرب. إذ نقف من مقولة خلف الأحمر على أمرين: (الاستحسان الغفّل والاستحسان الحقيقي) ، وهذا الأخير لا يصدر إلا عن العالم بالشعر ، لذلك صح التبشير بميلاد سلطة مهمتها إصدار الحكم ، ولا تستطيع أن تنافسها في ذلك أية سلطة أخرى ، إذ تحميها قوة الإجماع.⁽⁵⁶⁾

ولا شك أن تؤدّ هذه الصورة لدى خلف الأحمر لم يكن مجرد قياس ، بقدر ما يدل ذلك على أن الأدب لدى خلف الأحمر إنّما هو خاضع للتبادل الذي يستدعي سلطة مراقبة ومُظَلِّمة ومُقيِّمة ، ولعلّ التركيز على شرعية هذه السلطة هو الذي جعل النقاد لا يُولون تسميتها عناية كبرى.⁽⁵⁷⁾

02. 01. 02. استقلالية سلطة النقد الأدبي

جاء في كتب أخبار الشعر العربي عن المفضل الضبي معلقاً على حماد الراوية: "قد سُلِّطَ على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً. فليل له: وكيف ذلك؟ أخطئ في روايته أم يلحن؟ قال: لبيته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يُشَبِّه به مذهب رجل ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميّز الصحيح منها إلا عند ناقدٍ ، وأين ذلك؟".⁽⁵⁸⁾

ومن الخبر نتبيّن أن النقاد قد تنبّهوا إلى أن السلطة النقدية لا بد أن تكتسب استقلاليتها عن سلطة الرواة واللغويين ؛ لذلك ألقينا في التراث النقدي سلسلة من الطعون التي أصابت ظهور هؤلاء ، فهذا الصّولي يتعرض للرواة بأنهم "يعلمون تفسير الشعر ولا يعلمون ألفاظه" ،⁽⁵⁹⁾ "أتراهم يظنون أن من فسّر غريب قصيدة أو أقام إعرابها ، أحسن أن يختار جيدها ويعرف الوسط والدون منها ويميّز ألفاظها".⁽⁶⁰⁾ وللجاحظ موقف يدل على الجرأة الفكرية ، إذ تبينّت له غايات النحويين ورواة الأشعار والأخبار ؛ يقول: "ولم أر غاية

عندها يختم على تلك الدنانير بوضع علامة السلطان على تلك النقود.⁽⁷³⁾

ج. مصطلح البهرج

وارتبط العلم بالشعر، كذلك، إلى جانب النقد والصيرفة، بمصطلحات أخرى من المجال التجاري، كالبهرج؛⁽⁷⁴⁾ وهو مصطلح يؤكد تقاطع الأدبي والتجاري، وحلقة الوصل بين المجالين إنما تكمن في الشكل التبادلي بين طرفين، مع الاحتكام إلى معيار الجودة والرداءة،⁽⁷⁵⁾ والدّرهم البهرج هو الرديء و"المضروب في غير دار السلطان"،⁽⁷⁶⁾ وهو ما يدل على زيفه وسقوط قيمته، وإن لم تكن هناك إلا فُوقِرَات بسيطة تميّزه عن الدّرهم المضروب في دار السلطان، فإن مثل هذه الفوقيرات تخفى على عامة الناس، ولكنها غير خافية على أهل الجبهة بالدينار والدّرهم؛⁽⁷⁷⁾ ممّا يشرّع لقيام سلطتهم. وهي الغاية التي جعلت ابن سلام الجمحي يسوق تلك المصطلحات الصيرفية: "ومن ذلك الجبهة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا طراز ولا وسم ولا صفة. ويعرفه الناقد عند المعاينة، فيعرف بَهْرَجَهَا وَرَأَيْفَهَا وَسُوقَهَا وَمُقَرَّغَهَا".⁽⁷⁸⁾

لقد تساوى السياقان، وتشاكلت حالة الدرهم البهرج مع حالة الكلام البهرج، وذلك دليل على أن النظام الذي يشدّهما واحد، وهو نظام يبنّي على قانون التشابه؛ إذ كما يسعى المحتال إلى إلقاء الشبه بين العُمَلات، فإن صاحب الكلام البهرج يتبع المسلك نفسه.

د. مصطلح الطبع

تبرز لنا الأسباب الدافعة إلى اختيار مادة: (ط. ب. ع) لتشكيل مصطلح (طبع)، وتعود تلك الأسباب، في نظرنا، إلى متصور (الختم) المرتبط بالقيمة، فإن المرجع اللغوي الأساسي إنما هو الطبع؛⁽⁷⁹⁾ "الختم على الدنانير والدرهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوّبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم"،⁽⁸⁰⁾ وذلك للتمييز قصد التعامل في السوق، ومن خلال تشاكل صورتي النقود/الكلام؛ نتبيّن بأن الكلام الحقيقي الأصيل هو المطبوع، فالكلام والدرهم المطبوعان مقبولان، وما لم يطبع منهما إنما هو مردود ومتكلف وبهرج.

تسحب، آجلاً أو عاجلاً، من التداول النقدي؛⁽⁶⁶⁾ وفي ذلك قال رجل ذات يوم لخلف الأحمر: "إذا سمعتُ أنا بالشعر أستحسنه فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك. قال: إذا أخذت درهماً فاستحسنته فقال لك الصرّاف: إنه رديء! ينفعك استحسانك إياه؟".⁽⁶⁷⁾

ولكن يحدث أن يكون الصرّاف ذاته محتالاً لا يعتدّ به؛ إذ يعمل على دسّ عملة مزيفة. وهكذا فإن خلف الأحمر، الذي كان يبدو في النص الذي أوردناه سابقاً، حريصاً على سلامة سوق النقد، كان هو وحماد الراوية، من أكبر المحتالين المزيّفين للقطع الشعرية في الثقافة العربية. ولا شك أن الصرّاف عندما يكشف عن زيفه، سرعان ما يفضحه أصحاب حرفته، لكن عندما يملأ المزيّفون سوق الصيرفة، تتعقد المسألة ويعمّ الشك كل الصرافين على السواء.⁽⁶⁸⁾ وبالتالي ذلك يحط من النظام القيمي في المجال التجاري، كما يحط من النظام القيمي في المجال الأدبي.

ب. مصطلح العيار

إن مصطلح (عيار الشعر) الذي ألفناه عنواناً لمؤلف ابن طباطبا إنّما هو من المصطلحات الاقتصادية، وإذا كان مصطلح (نقد) الاقتصادي قد استعمله لأول مرة ابن سلام الجمحي، فإن مصطلح (عيار) ظهر لأول مرة مجازاً لدى الجاحظ في كتاب البيان والتبيين، حين الحديث عن أصحاب الحوليات، إذ كان الشاعر "يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً [...] فيجعل عقله زماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره إشفاقاً على أدبه".⁽⁶⁹⁾

يقودنا الجذر اللغوي (ع. ي. ر) إلى دلالات كثيرة، نتوقف عند ما تعلق منها بالمكاييل والموازين: "العيارُ هو ما غايَرتُ به المكاييل [...] تقول غايَرتُ به أي سوّيته".⁽⁷⁰⁾ والتقدير يتم بمقابلة المكاييل بما يساويه جنطاً أو غيرها حسب ما هو مقدّر في البلد الواحد.⁽⁷¹⁾

وبهذا وضع ابن طباطبا للشعر معياراً لنقده؛ وهو الفهم الثاقب، ثم حدد علتين لحسن الشعر وقبول الفهم إياه؛ هما: الاعتدال، وموافقته لمقتضى الحال.⁽⁷²⁾

ويتصل بمصطلح العيار مصطلح اقتصادي آخر هو؛ السبّك، فالوزن، والسبّك يشكّلان عيار النقود المعتمد،

خاتمة

في الأخير؛ تجدر الإشارة إلى أن كثيراً من النقاد قد وجدوا في مصطلحات العلوم الأخرى دلالات جاهزة، فنقلوها إلى ميدان النقد، فاختلفت مفاهيمها، باختلاف الموضوعات، ولكنها بقيت بصيغتها اللفظية، ودلالاتها العامة؛ فقد يكون المصطلح مشاعاً، ولكن قد يختلف مفهومه، تبعاً لاختلاف طبيعة الموضوع، وقد يكون في موضوعات متعددة، ولكن لدى كل موضوع بمعنى خاص.⁽⁸¹⁾ ووحدة المصطلحات وخلو المفاهيم من التداخل والاضطراب يوفران الشروط الموضوعية لتلقي المعرفة، ويضمنان تواصلًا فاعلاً بين النص والمتلقي،

ويبشران بنمو الحقل المعرفي وتطوره؛ إذ إن "ثقافة أية أمة من الأمم، تقوض وتفكك بالنظر لعدة أسباب أهمها اضطراب دلالة المصطلح، وتكاثر المصطلحات، وتعارض مفاهيمها، وعدم استقرارها"⁽⁸²⁾ وقد يحجم المتلقي الباحث في أحيين كثيرة عن دراسة ظاهرة ما فراراً من تعدد المصطلح، وخلصاً من المسألة، وبخاصة في أبحاث الدراسات العليا التي تقتضي دقة وموضوعية وشفافية. ولأجل ذلك؛ تولت هذه الورقة البحثية معالجة أهم إشكالات المصطلح النقدي في التراث العربي.

الهوامش

1. ينظر: عمر عتيق، في قضايا المصطلح النقدي والبلاغي والعروضي والإعلامي، دار جرير للنشر والتوزيع، الأردن، ط: 1، 2015م، ص: 13.
2. ينظر: نفسه، ص: 13.
3. سعد مصلولح. الأسلوب. عالم الكتب. القاهرة. ط: 3. 1992. ص: 30.
4. ينظر: محمد أزهرى، أسئلة المنهج في دراسة المصطلح البلاغي العربي التراثي (قضايا ونماذج)، أعمال الندوة العلمية الدولية في موضوع: سؤال المصطلح البلاغي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال، المغرب، يومي: 27/26 أبريل 2016م، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، العدد: 9، 2016م، ص: 74.
5. علي القاسمي، لماذا أهمل المصطلح التراثي، مجلة المناظرة، السنة: 4، العدد: 6، ديسمبر 1993م، ص: 39.
6. الشاهد البوشيخي، نظرات في المصطلح والمنهج، سلسلة دراسات مصطلحية، رقم: 3، مطبعة أنفو-برانت، فاس، المغرب، ط1، 2002م، ص: 11.
7. نفسه، ص: 56.
8. الشاهد البوشيخي، من تقديمه لكتاب: (مصطلح القافية من الأخصى الأوسط إلى حازم القرطاجني)، تأليف: محمد أزهرى، منشورات مؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع)، فاس، المغرب، ومعهد الدراسات المصطلحية بفاس، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2010م، ص: 3/2.
9. الشاهد البوشيخي، نظرات في المصطلح والمنهج، ص: 10.
10. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ص: 5.
11. ينظر: عبد المالك الشامي، النقد الأدبي في الأندلس بين النظرية والمصطلح، منشورات المركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغاربية والشرق أوسطية والخليجية، منشورات أنفو برانت، المغرب، (د.ط)، (د.ت)، ص: 257.
12. ينظر: لحسن دحو. كاريزما المصطلح النقدي العربي؛ تأملات في الوعي النقدي وصياغة المفهوم، مجلة أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، عدد: 07، 2011م، ص: 210.
13. محمد عزام. المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي. دار الشرق العربي. لبنان. (د.ط). (د.ت). ص: 07.
14. ينظر: عمر عتيق، في قضايا المصطلح النقدي والبلاغي والعروضي والإعلامي، ص: 125.
15. نفسه، ص: 125.
16. أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 2001م، 1/19.
17. يؤيد ذلك ما رواه المرزباني؛ روى أن الأخصى سأل الخليل: "لم سميت الطويل طويلاً؟ قال: لأنه تمت أجزاؤه. قال فاليسيط؟ قال: لأنه انبسط عن مدى الطويل. قال فالمديد؟ قال: لتمدد سباعيه حول خماسيه. قال فالوافر؟ قال: لوفارة الأجزاء وتدا بوتد. قال فالكمال؟ قال: لأن فيه ثلاثين حركة لم تجتمع في غيره. قال فالرجز؟ قال: لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة. قال فالرمل؟ قال: لأنه يشبه رمل الحصير بضم بعضه إلى بعض [...]" ينظر: نور القيس، 71. نقلاً عن: حسين لفته حافظ، العلاقة بين الذوق والمصطلح النقدي في التراث النقدي العربي القديم، مجلة مركز دراسات الكوفة، المجلد: 1، العدد: 12، 2009م، ص: 38.
18. عبقرى من البصرة، ص: 97. نقلاً عن: حسين لفته حافظ، العلاقة بين الذوق والمصطلح النقدي، ص: 38.
19. اختصر السيوطي أهم مواقف القدامى من لغويين وغيرهم - من مسألة الاصطلاح والتوقيف كابن فارس وابن جني وفخر الدين الرازي والغزالي وابن الحاجب. ينظر: توفيق الزيدي، جدلية المصطلح والنظرية النقدية، قرطاج 2000، ط1، 1998م، ص: 393.
20. السيوطي، المزهري، 1/ص: 7 إلى 31. نقلاً عن: توفيق الزيدي، جدلية المصطلح والنظرية النقدية، ص: 393.
21. أبو عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ)، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1965م، 330/1.
22. نفسه، 139/1.
23. توفيق الزيدي، جدلية المصطلح والنظرية النقدية، ص: 394.
24. الجاحظ، البيان، 139/1.
25. قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1978م، ص: 23-24.
26. ابن وهب، نقد النثر، 74/73. نقلاً عن: توفيق الزيدي، جدلية المصطلح والنظرية النقدية، ص: 396.
27. الجاحظ، البيان، 139/1.
28. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 252.
29. نفسه، ص: 48.
30. أبو القاسم الحسن بن بشر (الأمدي)، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط4، (د.ت)، ص: 258.
31. ينظر: عبد الغني بارة، إشكالية تأصيل الحدائث في الخطاب النقدي العربي المعاصر (مقاربة حوارية في الأصول المعرفية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، 2005م، ص: 285.
32. نفسه، ص: 286.
33. ابن المعتز، البديع، ص: 2-3.
34. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد رضوان مهنا، مكتبة الإيمان، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص: 316.
35. نفسه، ص: 84.
36. محمد محمد أبو موسى، مراجعات في أصول الدرس البلاغي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 2005م، ص: 160.

37. عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، ص:395.
38. مسعود بودوخة ، نظرية النظم (أصولها وتطبيقاتها) ، البدر الساطع للطباعة والنشر ، ط1 ، 2016م ، ص:38.
39. قدامة بن جعفر ، نقد الشعر ، ص:1.
40. نفسه ، ص:2.
41. إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري) ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، الأردن ، الطبعة العربية الأولى ، الإصدار الخامس 2011م ، ص:179.
42. سلام أحمد إدريسو ، المصطلح الفلسفي في النقد والبلاغة العريبيين ، عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط1 ، 2015م ، ص:76.
43. إذا نظرنا في مؤلف ابن سلام الجمحي ، فإننا نلاحظ أنه يجري لفظ (البصر) في معناه اللغوي: "... من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا تعرفه بصفة ولا وزن دون المعايينة ممن يبصره" ، ثم يجري اللفظ في مستواه المصطلحي ، وذلك بربطه بالصناعات فيذكر : "البصر بغريب النَّخْل" ، و "البصر بأنواع المتاع" ، و "بصر الرقيق" . وهذا الاستعمال هو الذي يمكن أن نخص به النقد على أنه (بصر بالشعر) ، وإن لم يتواتر ذلك عند ابن سلام الجمحي إلا مرة واحدة: "قلت لعمرو بن معاذ النبي وكان بصيرا بالشعر: من أشعر الناس؟" . ينظر: ابن سلام (الجمحي) ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق: محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ط2 ، 1974م ، ص:96/6/5.
44. استعمل ابن سلام الجمحي مصطلحات مرادفة لمصطلح (البصر بالشعر) ، ومن ذلك: الفحص والنظر ؛ التي تقيد في الاستعمال النقدي دلالة التأمل ، كقوله: "ثم اقتصرنا بعد الفحص والنظر والرواية عن مضي..." . ينظر: ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص:49.
45. قال ابن سلام الجمحي عن خلف الأحمر بأنه: "كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدقه لسانا" . ينظر: ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص:60.
46. كما قال ابن سلام الجمحي في موضع آخر مستعملا مصطلح المعايينة: "ويقال للرجل والمرأة في القراءة والغناء: إنه لندى الصوت طويل النفس مصيب للحن. ويوصف الآخر بهذه الصفة وبينهما بون بعيد يعرف ذلك العلماء عند المعايينة والاستماع له بلا صفة ينتهي إليها ولا علم يوقف عليه" . وكذلك الدينار والدرهم "لا تعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز ولا صفة ، ويعرفه الناقد عند المعايينة" . ينظر: ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص:7/6/5.
47. وقال ابن سلام الجمحي أيضا: "إن كثرة المدارس لتُعدي على العلم به" . ينظر: ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص:7.
48. أبو عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ) ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط4 ، 1975م ، 100/2.
49. ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص:5.
50. القاضي علي بن عبد العزيز (الجرجاني) ، الوساطة بين المتبني وخصومه ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، (د.ط) ، 1966م ، ص:100.
51. الباقلائي ، إعجاز القرآن ، ص:128.
52. ابن رشيق (القيرواني) ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط5 ، 1981م ، 117/1.
53. ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص:4.
54. ينظر: توفيق الزيدي ، جدلية المصطلح والنظرية النقدية ، ص:321.
55. الرسالة الواضحة ، ص:42. نقلاً عن: فضل ناصر مكوع ، نقد النص الأدبي وقضاياها في العصر الجاهلي ، دار رسلان ، سوريا ، ط1 ، 2010م ، ص:24.
56. ينظر: توفيق الزيدي ، جدلية المصطلح والنظرية النقدية ، ص:321.
57. ينظر: نفسه ، ص:321.
58. الأصفهاني ، الأغاني ، 85/6. نقلاً عن: توفيق الزيدي ، جدلية المصطلح والنظرية النقدية ، ص:315.
59. أبو بكر محمد بن يحيى (الصولي) ، أخبار أبي تمام ، تحقيق: محمد عبده و خليل محمود عساكر ونظير الإسلام الهندي ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط3 ، 1980م ، ص:101.
60. نفسه ، ص:127.
61. الجاحظ ، البيان والتبيين ، 24/4.
62. ينظر: توفيق الزيدي ، جدلية المصطلح والنظرية النقدية ، ص:336.
63. ينظر: نفسه ، ص:322.
64. ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص:5.
65. ينظر: توفيق الزيدي ، جدلية المصطلح والنظرية النقدية ، ص:322.
66. ينظر: عبد الفتاح كيليطو ، الكتابة والتناسخ ، ضمن الأعمال (الجزء الثاني: الماضي حاضراً) ، دار توفيق للنشر ، المغرب ، ط1 ، 2015م ، ص:166.
67. ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، 7/1.
68. ينظر: عبد الفتاح كيليطو ، الكتابة والتناسخ ، ص:166.
69. الجاحظ ، البيان والتبيين ، 9/2.
70. ابن منظور ، لسان العرب ، مادة: (ع. ي. ر).
71. الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، تحقيق: إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1 ، 1984م ، ص:93.
72. ينظر: فخر الدين عامر ، أسس النقد الأدبي في عيار الشعر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط1 ، 2000م ، ص:52.

73. عبد الرحمن بن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، تحقيق: أبي عبد الرحمن عادل بن سعد ، الدار الذهبية ، القاهرة ، (د.ط) ، 2006م ، ص:226.
74. قد تبين من المراجعة البحثية للمصطلح أن لفظ (البهْرَج) معرب عن الفارسية ، "وقيل هي كلمة هندية أصلها نَبَهْلَه ، وهو الرديء ، فنقلت إلى الفارسية ، فقبل نَبَهْرَه ، ثم عُرِّيت بِهْرَج". ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مادة: (ب.ه.ر.ج).
75. ينظر: توفيق الزيدي ، جدلية المصطلح والنظرية النقدية ، ص:309.
76. الجواليقي ، المعرب ، 97. نقلاً عن: توفيق الزيدي ، جدلية المصطلح والنظرية النقدية ، ص:309.
77. ينظر: توفيق الزيدي ، جدلية المصطلح والنظرية النقدية ، ص:310.
78. ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص:5.
79. قد يرى القارئ بأن الطبع باعتباره مصطلحاً نقدياً ، إنما يرجع إلى الطبيعة ، طبيعة المرء ، وليس الطابع بمعنى الختم ، فإننا نرى بأن كلا المعنيين يستقيان من معين واحد ؛ فالطبع هو المثال ، طبيعة المرء ما اعتاد على الإتيان بمثاله ، وطبع الشيء قولبة على مثاله. ينظر: ابن منظور ، اللسان ، مادة: (ط.ب.ع). "الطبع: المثال".
80. ابن خلدون ، المقدمة ، 261.
81. ينظر: أحمد يحيى علي الدليحي ، المصطلح النقدي عند أسامة بن منقذ في كتاب البديع في نقد الشعر ، دار غيداء للنشر والتوزيع ، عمان ، ط1 ، 2014م ، ص:35.
82. عمر عتيق ، في قضايا المصطلح النقدي والبلاغي والعروضي والإعلامي ، ص:125.

عوامل التأثير في تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية وتطبيق القانون الدولي الإنساني - العرف الدولي -

Factors influencing the implementation of international criminal law and the application of international humanitarian law - International custom

تاريخ القبول: 2019-12-18

تاريخ الإرسال: 2018-10-04

مراد كواشي، جامعة بسكرة
profisormourad@yahoo.fr

المخلص

وجد القضاء الدولي الجنائي من أجل إصدار أحكام قضائية ضد الأشخاص المتهمين بارتكاب جرائم دولية، نتج عنها الكثير من الانتهاكات للقوانين الدولية، وخاصة القانون الدولي الإنساني (اتفاقيات جنيف الأربع 1949، البروتوكولين الإضافيين 1977) وتطبيق هذه الأحكام القضائية الدولية الجنائية يتحكم فيها عدة عوامل، منها العرف الدولي، الذي يعتبر له تأثير إيجابي وسلبي على تطبيق الأحكام القضائية الدولية الجنائية، وتطبيق القانون الدولي الإنساني، ذلك نتيجة لعدم توفر أجهزة دولية تسهر على متابعة تنفيذ هذه الأحكام، وبما أن العرف الدولي عبارة عن عادات تعارفت عليها الدول من قبل، فإن ذلك يعتبر إشكالاً لأن الزمن في تطور وما اتفقت الدول قديماً على اعتباره عرف دولي، قد يكون اليوم يشكل تهديداً أو خطراً على مصالحها مثل حماية اللاجئين موجود قديماً والآن الكثير من الدول تعتبرهم أزمة لبلادهم مثل ما اعتبرته مؤخرا فرنسا...

الكلمات المفتاحية: العرف، الأحكام، القضائية، قانون، دولي.

Résumé

La Cour pénale internationale qui se prononce juridiquement sur les crimes internationaux est souvent à l'origine de violations des droits internationaux et surtout des droits humanitaires (les quatre Conventions de Genève de 1949 et Les protocoles supplémentaires au 1977). La juridiction criminelle internationale est contrôlée par plusieurs facteurs : La coutume internationale a un impact positif et négatif sur la demande des dispositions de juridiction criminelle internationale. L'application de droit humanitaire international est insuffisante faute du manque d'organes internationaux pour assurer le suivi à la mise en œuvre de ses dispositions. C'est à cause de l'évolution du temps qu'il est difficile de l'appliquer car ce qui était juste et correct au passé peut être remis en question aujourd'hui comme c'est le cas de la protection des réfugiés qui, à un moment donné, il était un droit, alors qu'il devient actuellement pour beaucoup d'États une crise..

Mots-clés : Coutume, les dispositions, justice, loi, international

Abstract

The international criminal justice system has been established to prosecute individuals accused of international crimes, resulting in many violations of international law, particularly international humanitarian law (the Fourth Geneva Conventions, 1949 Additional Protocols 1977). The application of these international criminal judgments is governed by several factors, Including international custom, which has a positive and negative impact on the application of international criminal law and the application of international humanitarian law, as a result of the absence of international bodies to monitor the implementation of these provisions. Since international custom is a custom that nations have used before, it is a problem because time is developing and what countries have long accepted as an international custom, which today may pose a threat or a threat to their interests such as refugee protection. They regard them as a crisis for their country, such as France.

Keywords: Custom, judgments, judicial, law, international.

مقدمة

04-الإشكالية

ما أثر العرف الدولي على تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية وعلى تطبيق القانون الدولي الإنساني؟ هل يؤثر إيجابيا أم سلبيا؟ هذا ما نتناوله في بحثنا من خلال:

05-منح الدراسة

اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي الذي يناسب بحثنا، حيث نتطرق إلى تعريف العرف الدولي وأركانه وأثره على تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية وتطبيق القانون الدولي الإنساني، بالإضافة إلى المنهج المقارن لإظهار الاختلافات الموجودة بين القانون الدولي والشريعة الإسلامية.

06-خطة البحث

قسمنا البحث إلى ثلاث مباحث وكل مبحث إلى مطالب وفروع:

المبحث الأول: مفهوم الأحكام القضائية الدولية

الجنائية

المطلب الأول: تعريف الأحكام القضائية الدولية الجنائية.

المطلب الثاني: أنواع الأحكام القضائية الدولية الجنائية.

المطلب الثالث: تعريف القانون الدولي الإنساني ومبادئه.

المبحث الثاني: مفهوم العرف الدولي

المطلب الأول: تعريف العرف الدولي.

المطلب الثاني: أركان العرف الدولي.

المطلب الثالث: أنواع العرف الدولي.

المبحث الثالث: تأثير العرف الدولي على تنفيذ

الأحكام القضائية الدولية الجنائية وتطبيق القانون الدولي الإنساني

المطلب الأول: التأثير على تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية.

المطلب الثاني: التأثير على تطبيق القانون الدولي الإنساني.

يعتبر العرف الدولي من أبرز مصادر القانون الدولي، وله أهمية كبيرة نظرا لكون هذا الأخير نظم الشعوب، وكان سببا في حل الأزمات والنزاعات بين الدول، حيث عاش الإنسان منذ القدم على شكل قبائل، واعتاد على عادات معينة في حياته اليومية، وبمرور الزمن أصبحت هذه العادات إلزامية، وانتقلت هذه العادات من بين القبائل إلى التعامل بها بين الدول وأصبح يطلق عليها عرف دولي.

الكثير من هذه الأعراف قننت في قوانين ومعاهدات تلتزم بها الدول إلى غاية اليوم، إلا أن هذا العرف الدولي له آثار إيجابية وسلبية على الدول وخاصة في الجانب القضائي.

1-موضوع الدراسة: تتركز الدراسة في هذا البحث،

على بيان آثار العرف الدولي الإيجابية والسلبية على تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية، وتطبيق القانون الدولي الإنساني.

2-نطاق البحث

يقتصر هذا البحث على دراسة آثار العرف الدولي على القضاء الدولي والقانون الدولي الإنساني.

03-أهداف الدراسة

تهدف دراستنا لهذا البحث في إبراز مكانة العرف الدولي ومدى تأثيره الإيجابي والسلبي على تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية.

خاصة أن القضاء الدولي الجنائي يعتمد كثيرا على العرف في سير أعماله وتعامله مع الدول، وكذلك نبين تأثيره على تطبيق القانون الدولي الإنساني الذي يعتبر أساس توفير الحماية للمدنيين وكل الفئات التي تحميها اتفاقيات جنيف الأربع 1949 والبروتوكولين الإضافيين 1977، أثناء قيام النزاعات المسلحة دولية أو غير دولية، فكلها تنتج عنها جرائم وانتهاكات للقوانين الدولية ولا بد من الحد منها للعيش بسلام، لذا نطرح الإشكالية الآتية:

نتناول كل هذا كالآتي:

كما نجد تعريف رايبيك ابو طاوى بقوله: "هي كل الأحكام الصادرة من جهاز قضائي دولي معترف به ، وله سلطة على الدول من اجل تنفيذها" (2).

إن رايبيك أيضا يشترط أن تكون الأحكام القضائية ممكنة التنفيذ وذلك بوجود أن تكون المحكمة التي نطقت بالحكم لها سلطة على الدول ، متجاهلا بذلك سيادة الدولة.

إن أصحاب التعريف الضيق للأحكام القضائية الدولية الجنائية يربطون الحكم بالتنفيذ ، إلا أن ذلك لا يكون دائما سهلا ، أو ممكنا ، لان الواقع غير المثاليات التي يتكلم بها الفقهاء والقانونيين ... ، فقد تحكم محكمة دولية جنائية بحكم قضائي إلا أن تنفيذه يكون مستحيلا ، لعدة أسباب منها إصدار حكم غيابي على احد المتهمين بارتكاب جرائم دولية ومخالفة لكل القوانين الدولية (جرائم ضد الإنسانية ، جرائم حرب...) ، هل هذا ليس بحكم قضائي دولي جنائي إذا؟

كما أن الأسباب المادية تلعب دور كبير في عملية التنفيذ ، علما أن المحاكم الدولية الجنائية ليس لها ميزانية خاصة بها وإنما تعتمد على المساعدات من الدول الأطراف وهذا ما يجعل مصاريفها محدودة ، فنقل المتهم من مكان لآخر يستوجب أموال ، كما أن حبسه في مكان ما يستوجب أموال مثل الأكل والحماية وكل ظروف الحياة التي تنص عليها القوانين الدولية ولو كان الشخص مجرما ، لأنه إنسان وله حقوق (3).

كما أن سيادة الدول لها تأثير كبير في تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية ، وذلك من خلال عدم تسليم المتهمين للمحاكم الدولية الجنائية ، مثلا عند العرب عدم تسليم البشير (دولة السودان) بالرغم من أن المحكمة الجنائية الدولية اتهمته بارتكاب جرائم دولية ، إلا أن التسليم لم يحدث إلى غاية اليوم.

الفرع الثاني: التعريف الموسع للأحكام القضائية

الدولية الجنائية

إن أنصار هذا التعريف عرفوا الأحكام القضائية الدولية الجنائية بشكل موسع أكبر من أصحاب التعريف الأول الضيق ومنهم نجد محمد أبو المجد بقوله: "الأحكام القضائية الدولية الجنائية هي كل ما يصدر من محاكم مختصة

المبحث الأول: مفهوم الأحكام القضائية الدولية

الجنائية

تحدث نزاعات دولية مسلحة بين الدول أو داخل الدولة الواحدة ، وتنتج عنها عدة أضرار ويكون المدني هو دائما المتضرر كما انه عند قيام هذه النزاعات تحدث جرائم دولية ، أي يعاقب عليها القانون الدولي لأنها محظورة نتيجة لخطورتها.

إلا أن الجرائم تقع والقوانين تنتهك وبذلك نكون أمام جرائم دولية وجب العقاب عليها من اجل الحد منها مستقبلا ، ولو بنسبة معينة ، وذلك يكون برفع دعوى قضائية أمام محاكم دولية جنائية مختصة في ذلك ، لتصدر حكم قضائي دولي جنائي ، فما هو هذا الحكم؟

المطلب الأول: تعريف الأحكام القضائية الدولية

الجنائية

تصدر المحاكم الجنائية الدولية أحكام قضائية ، ضد كل متهم بجريمة دولية معينة ، يعاقب عليها القانون الدولي والاتفاقيات الدولية (اتفاقيات جنيف الأربع 1949 وبروتوكولها الإضافيين 1977) ، ويختلف تعريف هذه الأحكام من شخص لآخر ومن جهة لأخرى والكل يفسرها كما يراها لذلك يوجد تعريف ضيق وتعريف موسع و نتناول ذلك من خلال:

الفرع الأول: التعريف الضيق للأحكام القضائية

الدولية الجنائية

من بين أنصار هذا التعريف نجد ماري تناو الذي يعرفه بقوله: "الأحكام القضائية الدولية الجنائية هي كل ما يصدر من الجهة القضائية الدولية ، التي تستطيع أن تنفذه" (1).

أي أن ماري يعرف الأحكام القضائية على أساس تنفيذها ، أي لا بد من المحاكم القضائية الدولية أن تقوم بتنفيذها ، وإن لم تنفذه فهذا ليس حكم قضائي دولي في نظره.

تصدر من محكمة جنائية دولية والثاني يصدر من محاكم وطنية محلية مختصة إقليمياً.

المطلب الثاني: المطلب الثاني: أنواع الأحكام القضائية الدولية الجنائية

تختلف الأحكام القضائية وتتنوع وكل يقسمها إلى أنواع معينة وتتناول ذلك كآتي:

الفرع الأول: أحكام مقررة (كاشفة)

الحكم المقرر (الكاشف) هو الحكم الذي يقضى بوجود أو عدم وجود الحق أو المركز القانوني المدعى، دون إلزام الدولة المدعى عليها بأداء معين أو إحداث أي تغيير في هذا الحق، ويتضمن تقريراً أو تأكيداً لحالة أو مركز قانوني موجود من قبل، وتصدر عن المحاكم الدولية ولكنها لا تحدث أي تجديد لدى الأطراف المتنازعة⁽⁷⁾.

يرى أبو مجد الميفعل أن الحكم المقرر هو " إقرار المحكمة الدولية الجنائية بوجود فعل قانوني متخاصم عليه من قبل دولتين"⁽⁸⁾.

أي أن أبو مجد يعتبر الأحكام القضائية المقررة تكون من قبل المحاكم الدولية الجنائية ولا تكون من قبل المحاكم الوطنية -القضاء الوطني-، وهذا ما يميز الأحكام المقررة عن غيرها من الأحكام.

كما يعرفه السيد المنعف على أنه: " كل حكم تصدره محكمة دولية لا تطلب من أحد الأطراف المتنازعة القيام بفعل ما تحت طائلة الإجمار، وإنما تقر وتفسر وتوضح الإشكال بينهم فقط"⁽⁹⁾.

من خلال التعريفين نستنتج أن الأحكام المقررة لها خصائص وهي:

1- تصدر من محكمة دولية: أي أن القضاء الدولي هو المختص بإصداره، نظراً لموضوع الدعوى أصلاً فهي تكون بسبب نزاع بين الدول.

2- غير ملزم للأطراف: أي أن مضمون القرار ليس فيه إلزام لأي أحد الأطراف، وإنما يوضح ويبين للأطراف المتنازعة الجهة الصحيحة والقانونية، ولا يلزمهم بالتنفيذ.

نتيجة رفع دعوى بإجراءات صحيحة واحترام كل قواعد المرافعات ومنح حقوق المتهمين والضحايا وإصدار حكم بحضور قضاة مختصين"⁽⁴⁾.

أي أن أبو المجد منح كل الحقوق للمتهم والضحية على حد سواء واشترط محكمة مختصة وقضاة مختصين وهذا ما يتطلبه العدل، إذا أريد حقا تحقيقه في الواقع.

كما نجد تعريف ربا المنشاوي بقولها: " هي كل الأحكام المطابقة للقوانين الدولية والصادرة من جهة قضائية دولية، مع وجوب احترام الاختصاص ومبدأ التكامل"⁽⁵⁾.

إن ربا في تعريفها هذا ركزت على العدالة أي احترام مبدأ التكامل والذي هو أساس القضاء الدولي، حيث أن المحكمة الجنائية الدولية لا تنظر في الدعوى القضائية الدولية الجنائية إلا بعد قيام الدولة المعنية بعدم النظر فيها أو عدم الحكم بالعدل، أو عدم قدرتها على النظر في القضية لأسباب معينة، أي باختصار أن القضاء الدولي يأتي في المرتبة الثانية بعد القضاء الوطني، وهذا ما يعنى احترام سيادة الدول وقوانينها الداخلية.

بالإضافة إلى تعريف جون ماننا ريبات بقوله: " هي الأحكام الصادرة من قضاء دولي مختص مع مراعاة كل إجراءات المحاكمة المنصوص عليها في القوانين الدولية، وخاصة اختصاصها بالنظر في الدعوى المرفوعة أمامها"⁽⁶⁾.

إن جون يركز على الاختصاص واحترام الإجراءات القانونية للمحاكمة من أجل تحقيق العدل، وعدم تغليب جهة على أخرى أثناء المحاكمة.

في نظري أن هذه التعريفات موسعة بشكل نسبي وكلها تركز على الاختصاص واحترام المبادئ والقوانين الدولية، وهذا هو الأصل من أجل تحقيق العدل، ومنح كل ذي حق حقه، لذا نقول أن الأحكام القضائية الدولية الجنائية في نظري " هي كل الأحكام القضائية الدولية الجنائية التي تصدر من جهة قضائية دولية قانونية، ذات هيكلية قضائية مختصة في نوع القضية المرفوعة أمامها".

لأن الأحكام القضائية الدولية الجنائية تختلف عن الأحكام القضائية الوطنية من حيث جهة الإصدار، فالأول

كل هذه التعريفات تتفق على أن الحكم المنشئ يجب أن يكون:

- 1- منشئ لحالة جديدة: وهذا هو الأصل في كل الأحكام القضائية سواء الدولية أو الوطنية، لان اللجوء إلى القضاء يعني طلب التغيير والحصول على الجديد لان ما كان سابقا هو الذي دفع المعنى للتقدم إلى القضاء بسبب سلبياته.
- 2- صادر من محكمة دولية: وهذا أمر منطقي لان الحكم المنشئ يكون من المحاكم الدولية الجنائية، بالرغم من أن حتى الأحكام الوطنية أي من القضاء الوطني يوجد من يعتبرها منشئة، نظرا لمضمونها الذي قد ينشئ حالة جديدة لم تكن من قبل، مثل الحكم ببناء سكن أو انجاز قنوات لتزوير المياه أو ...
- 3- ينفذ جبرا: أي أن هذا الحكم حائز لقوة الأمر المقضي به، ويجب على أطراف النزاع الالتزام به، وتطبيقه حرفيا كما هو منصوص في الحكم.

الفرع الثالث: أحكام الإلزام

حكم الإلزام أو حكم الإدانة هو الحكم الذي يقضى دائما بإلزام أحد الخصوم بأداء معين إلى الخصم الآخر، وهو في مجال الحديث عن الأحكام القضائية يقضى بإلزام الدولة المحكوم عليها بأداء معين قابل للتنفيذ الجبري. إن مضمون حكم الإلزام يتميز بإثبات واقعة غير مشروعة بمعنى التقرير بأنها تمت مخالفة للقانون وإثبات انتهاكها له من ناحية، وبالحكم على الدولة المخطئة بأداء التزامات معينة من ناحية أخرى، ويلاحظ أن الالتزامات الواردة في مضمون الحكم هي ذاتها التي توجد في أساس العلاقة القانونية المنتهكة، وذلك في الحالة التي تتأكد المحكمة فيها من خرق أو انتهاك قاعدة قانونية دولية (16).
قد تقتصر المحكمة الدولية على إعلان حدوث الانتهاك وثبوت الفعل الضار المخالف لقاعدة القانون الموضوعية من جانب الدولة المخطئة، وقد تأمر المحكمة في ذات الوقت بإعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل ثبوت المخالفة مثل الرد العيني للأموال التي تم الاستيلاء عليها بدون وجه حق، أو الإفراج عن سفينة محتجزة لدى الدولة مرتكبة الفعل غير المشروع، أو إعادة بناء مبنى كان قد تهدم بسبب أفعال غير مشروعة ثبت قيامها في حق الدولة المخطئة (17).

كما تم الاعتراف بالأحكام الصادرة من محكمة العدل الدولية بالصفة المقررة في شأن النزاع البريطاني الألباني، إذ اتجه إلى تفسير اعتراف إنجلترا بألبانيا بعرضها النزاع على المحكمة بأنه تقرير لأمر واقع، ولا يكشف عن آثار قانونية جديدة (10).

الفرع الثاني: أحكام منشئة

الأحكام المنشئة هي تلك الأحكام التي تحدث تجديدا أو تغييرا في مواجهة للموقف القانوني أو المركز السابق للأطراف المتنازعة، والحكم يكون منشئا إذا تضمن إنشاء حالة أو مركز قانوني لم يكن له وجود من قبل.

كما يعد الحكم المنشئ صورة من صور القضاء الموضوعي ويرتب حجية وقوة الأمر المقضي به، ويرتب آثارها حيث انه ملزم لأطراف النزاع ويكون نهائيا، وإذا أنشاء التزاما بأداء معين كان قابلا للتنفيذ الجبري (11).

سمى بالحكم المنشئ لأنه ينتج بالنطق به ما لم يكن من قبل، أي إحداث تغيير في القضية، مثل الحكم بإنشاء حدود بين بلدين، أو تغيير الحدود بينهما نتيجة سبب ما، وكل حكم قضائي يصدر من محكمة دولية جنائية ويحدث تغييرا يعتبر حكم منشئ (12).

كما انه يعتبر هو الحكم الذي يعلن قبول إعادة النظر في حكم سابق، حيث يحدث تعديلا قانونيا يتمثل في إلغاء الحكم المطعون فيه، وبالتالي استبعاد آثاره ويتعين بحث موضوع النزاع مرة أخرى، كما أن الحكم الذي يقضى بانقضاء معاهدة بين دولتين يعد حكما منشئا (13).

يعرف الأستاذ مريتان عبد الصمود الحكم المنشئ على أنه " كل حكم قضائي دولي يحدث تغييرا ملموسا ماديا" (14).

أي أن عبد الصمود اعتبر الحكم المنشئ موجب للتغيير المادي، مثل ما ذكرنا إزالة الحدود أو إنشائها، أو سحب القوات العسكرية من منطقة معينة.

كما نجد تعريف أنطوان دي كريتيان هانتي " هو إصدار حكم من محكمة مختصة دوليا، من اجل تغيير حالة وإنشاء أخرى جديدة" (15).

استثناء ، لذا نتناول تعريفه (الفرع الأول) ومبادئه (الفرع الثاني).

الفرع الأول: تعريف القانون الدولي الإنساني:

يعد الفقيه max huber رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر أول من تبنى مصطلح القانون الدولي الإنساني، بصورة رسمية وقد كان ذلك أثناء المؤتمر الدبلوماسي المنعقد بجنيف خلال أعوام 1974-1977، المتعلق بتأكيد وتطوير القانون الدولي الإنساني المطبق في النزاعات المسلحة.

يعرف الأستاذ جان بيكتيه القانون الدولي الإنساني⁽²¹⁾ بأنه ذلك القسم الضخم من القانون الدولي العام الذي يستوحي الشعور الإنساني ويركز على حماية الفرد الإنساني في حالة الحرب⁽²²⁾.

كما تعرفه اللجنة الدولية للصليب الأحمر بأنه مجموعة القواعد الاتفاقية أو العرفية المنشأة التي تستهدف على وجه التحديد تسوية المشكلات الإنسانية المترتبة مباشرة على النزاعات المسلحة الدولية أو غير الدولية، والتي تقيد لأسباب إنسانية حق أطراف النزاع في استخدام سبل ووسائل الحرب محل اختيارها والتي تحمي الممتلكات والأشخاص المتضررين أو المحتمل تضررهم من النزاع⁽²³⁾.

كما عرفته الأستاذة ماريا تيريزا دوتلي بأنه مجمل القواعد القانونية التي تكون الدول ملزمة باحترامها والتي تستهدف توفير الحماية لضحايا النزاعات المسلحة الدولية منها وغير الدولية⁽²⁴⁾.

بالإضافة إلى تعريفه على أنه مجموعة القواعد والمبادئ والأحكام الدولية الموضوعية بمقتضى اتفاقيات وأعراف دولية لحل المشاكل ذات الصلة الإنسانية الناجمة مباشرة عن المنازعات المسلحة الدولية أو غير الدولية، والتي تحد للاعتبارات إنسانية من حق أطراف النزاع في اللجوء إلى ما يختارونه من أساليب ووسائل في القتال، وتحمي الأشخاص والممتلكات والبيئة من الأضرار التي تترتب جراء النزاع⁽²⁵⁾.

كما نجد انطوان دي كريتيان هانتى يعرفه على أنه " نطق المحكمة بالعدل "⁽¹⁸⁾، وهنا يقصد بالعدل منح القضاء كل من له الحق حقه (الدولة) تطبيقاً للقانون الدولي، الذي وجد أصلاً من أجل تحقيق العدالة الدولية بين الدول.

حكم الإلزام هو حكم يبين صاحب الحق ويجبر مرتكب الفعل الضار على أداء ما عليه من أجل جبر أضرار الضحية، فالدولة التي تضر بأخرى عن طريق الاعتداء على أراضيها أو احتجاز أفراد من جنسيتها أو الاعتداء على المجال الجوي لهذه الدولة، تقوم المحكمة الجنائية الدولية بإصدار حكم قضائي يبين الدولة صاحبة الحق، وتجبر الأخرى على القيام بواجباتها الدولية تجاهها، وهذا كله من أجل تحقيق العدالة الدولية في العالم، وتقادي قانون الغاب (القوى يستولى على الضعيف)⁽¹⁹⁾، بالرغم من أن العالم اليوم يعمل بهذه الطريقة، وخاصة ما تفعله الولايات المتحدة الأمريكية في العالم.

من خلال هذه التعاريف نستنتج أن حكم الإلزام

يتميز بـ:

1- حكم صادر من محكمة جنائية دولية: وهذا أمر بديهي لأننا نتناول القانون الدولي، ولا بد أن يصدر من جهة قضائية مختصة نظراً لكون النزاع بين الدول وليس بين الأفراد⁽²⁰⁾.

2- حكم يثبت وقوع مخالفة للقانون الدولي: إن النطق بالحكم ضد دولة معينة يعني أنها خالفت القانون الدولي، ويجب عليها أن تؤدي واجباتها الدولية تجاه الدولة الأخرى.

3- حكم ملزم بالتنفيذ: أي أن حكم الإلزام واجب التطبيق من قبل الدولة التي حكمت المحكمة ضدها، لأن هذا الحكم يبين وأعطى لكل دولة حقها، وبذلك يجب على الدولة المخطئة أو المنتهكة أن تصحح خطئها الدولي، حفاظاً على استقرار الدول والسلم والأمن الدوليين في العالم.

المطلب الثالث: تعريف القانون الدولي الإنساني

ومبادئه

يعتبر القانون الدولي الإنساني حلاً يلجأ إليه الضعفاء أثناء قيام النزاعات المسلحة الدولية أو غير الدولية، حيث أنه يحتوي على مواد تنص على توفير الحماية للجميع دون

الفرع الثاني: مبادئ القانون الدولي الإنساني

للقانون الدولي الإنساني عدة مبادئ يقوم عليها من أجل تحقيق السلم والأمن الدوليين والمحافظة على حقوق المدنيين وكل الفئات في المجتمع ومنها:

أ- مبدأ الحق في الحياة والسلامة الشخصية والبدنية: يعد الحق في الحياة أسمى الحقوق الإنسانية ويجب المحافظة على حياة غير المقاتلين وعلى من يستسلم من الأعداء، كما يجب المحافظة على حياة المستسلم⁽²⁶⁾ لأنه ليس لديه سلاح يقاوم أو يلحق به أذى.

ب- مبدأ الاعتراف بالحقوق المدنية والشخصية للفرد: ورد هذا الحق في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان 1948 في المادة 6 منه⁽²⁷⁾ وفي اتفاقيات جنيف 1949، حيث يعترف للشخص بكل الحقوق⁽²⁸⁾ من أجل العيش بكرامة.

ج- مبدأ عدم التمييز: ويقتضي هذا المبدأ وجوب معاملة كل الأفراد دون تمييز على أساس الأصل أو اللون⁽²⁹⁾ أو الجنس أو اللغة أو الدين أو...⁽³⁰⁾، لأن التمييز يعتبر سلبي ويؤثر على احترام حقوق الأفراد.

د- مبدأ ضمان محاكمة عادلة:⁽³¹⁾ بحيث أن لكل إنسان الحق في المشول أمام قاض ليحكم في نزاع ما بالعدل⁽³²⁾، وهو ما يعتبر وسيلة لمنح الحقوق لأصحابها بعيداً عن التمييز والتحابل.

هـ- مبدأ الالتزام باحترام القانون الدولي الإنساني: باعتبار قواعد القانون الدولي الإنساني من القواعد الآمرة أو قواعد النظام العام، فإن كل عضو من أعضاء المجتمع الدولي ملزم باحترام والعمل على احترام القانون الدولي الإنساني، وقد جاء الأساس القانوني لهذا الالتزام في نص المادة الأولى المشتركة بين اتفاقيات جنيف الأربع 1949 التي تضمن حكماً يعد بمثابة نواة لنظام المسؤولية الجماعية⁽³³⁾.

المبحث الثاني: مفهوم العرف الدولي

يعتبر الإنسان العرف شيء مقدس في حياته⁽³⁴⁾، وهذا ما نجده في العصور القديمة، حيث كانت الشعوب تحافظ على عادات آبائها وأجدادها، وتحرص على إتباعها والعمل بها بشكل حرفي، وذلك اعتقاداً منهم بأن ذلك

صحيح ولازم وضروري جداً في حياتهم، ولا يزال العرف يلعب دور مهم وكبير جداً في حياة الكثير من الشعوب إلى غاية اليوم، وخاصة عند الصينيين واليابانيين، وحتى عند العرب، لذا نتعرف على معناه وأركانه من خلال:

المطلب الأول: تعريف العرف الدولي

اختلف الكثير من الفقهاء حول تعريف العرف الدولي، وإعطاء مفهوم موحد إلا أنهم كلهم يتفقون أن العرف الدولي "مجموعة من العادات التي قام بها الإنسان منذ مدة طويلة وأصبح يشعر بالزامية القيام به"،⁽³⁵⁾ لذا نجد أن تعريف العرف الدولي اختلف من زمن لآخر.

نجد في اللغة عند الزمخشري بقوله: العرف يعني المعروف أي الجميل من الأفعال⁽³⁶⁾، لقوله تعالى: "وأمر بالعرف"⁽³⁷⁾ أي بالجميل المستحسن من الأفعال⁽³⁸⁾، فالفعل الحسن يجعل الجميع يرغب في العمل به، وهذا ما يضمن إستمراره من جيل لآخر ومن بلد لآخر، لذا نتناول التعريف التقليدي (الفرع الأول) والتعريف الحديث (الفرع الثاني).

الفرع الأول: التعريف التقليدي للعرف الدولي:

اختلفت تعاريف العرف الدولي عند التقليديين ومنهم من يعرفه على أنه:

تعريف "مونين د" "العرف الدولي هو مجموعة العادات الدولية التي تقوم بها دولة تجاه دولة أخرى، وغايتها تحقيق التعاون الدولي بينها خدمة للبشرية"⁽³⁹⁾.

أي أن "مونين د" يرى أن العرف الدولي يكون نتيجة رغبة دولة في تحقيق مصالح شعبها مع الدولة الأخرى⁽⁴⁰⁾، وهذا ما يجعلها تتبع عادات معينة بينها وبين هذه الدولة.

بهذه الطريقة يكون العرف مقتصر على التعاون بين دولة وأخرى فقط، أي لا يتجاوز دولتين، وهذا ما يعتبره الكثيرين غير منطقي.

كذلك نجد تعريف نارتاكي ريمو ثالي "العرف الدولي عادات قام بها الأوائل ونتيجة لفائدتها على الجميع، أصبحت شيء مقدس ومتداول بين الشعوب والدول"⁽⁴¹⁾.

إليها وفقا لأحكام القانون الدولي ...ب-العادات الدولية المرعية المعتبرة بمثابة قانون دل عليه تواتر الاستعمال".⁽⁴⁶⁾

المطلب الثاني: أركان العرف الدولي:

يعتبر العرف الدولي من أهم مصادر القانون الدولي بصفة عامة ، وأهم مصادر القانون الدولي الجنائي ، حيث يعود ذلك إلى سنة 1948 في مشروع الاتفاقية المنشئة للمحكمة الجنائية الدولية.

منهم من يرجعه إلى رابطة القانون الدولي التي أنشأت مشروع المحكمة الجنائية الدولية في 1926 ، لذلك يعتبر العرف الدولي مهم جدا في الحياة العامة والدولية ، نظرا لأهميته وإيجابياته الكثيرة⁽⁴⁷⁾ ، وبما أن العرف الدولي له أهمية بالغة ، يقسم الفقهاء أركانه إلى:

الفرع الأول: الركن المادي للعرف الدولي

يعتبر الركن المادي أساس العرف الدولي ، والذي يقصد به ممارسة الفعل لمدة زمنية معينة تجعل الجميع يقتنعون به ، ويمارسونه نظرا لإيجابياته.

يعرف الفقيه بالوس ما برى الركن المادي على أنه: " هو مجموعة الأفعال والعادات والممارسات التي يقوم بها شعب معين تجاه شعب آخر ، يجعل من هذا الفعل ضروري والكل راض عنه "⁽⁴⁸⁾.

كما يعرف جون دبتان الركن المادي للعرف على أنه: "عادة شعب استمرت لفترة طويلة بين دولتين أو أكثر من أجل تحقيق غاية لها فائدة"⁽⁴⁹⁾.

من خلال هذه التعاريف نستنتج أن الركن المادي للعرف الدولي هو عبارة عن عادة وممارسات تكون بين شعب وآخر من أجل تحقيق غاية معينة ، تعود بالفائدة عليهم جميعا.

مثلا مراسيم استقبال الرؤساء والوزراء والمماليك ، كلها نابعة عن عادات قام بها الأجداد ولا تزال إلى غاية اليوم ، بالرغم من أنها ليست نفسها تماما ، إلا أنه توجد بعض التغييرات تماشيا مع العصر الحديث مثل استعمال الطائرات الخاصة للتنقل بدل العربات التي كانت تنقل الأمراء والرؤساء.

نارتاكي يعتبر أن العرف الدولي جاء نتيجة الفائدة التي نتجت عن عادات معينة قام بها القدامى فيما بينهم ، وهذا ما جعلها تستمر بين الشعوب والدول إلى غاية اليوم ، أي أنه كل فعل فيه فائدة على الدول والشعوب هو عرف دولي ويجب الاستمرار به⁽⁴²⁾.

الفرع الثاني: التعريف الحديث للعرف الدولي:

يعرف محمد علي البناوي العرف الدولي على أنه: "العرف الدولي عادات وتقاليد شعب ما ثم أصبح يشمل كل الدولة ثم كل الدول المجاورة ، ثم الشعور بالزامية القيام بهذه العادات بين هذه الدول "⁽⁴³⁾.

يعرف الجرجاني العرف على أنه: " ما استقرت النفوس عليه بشهادة العقول ، وتلقته الطبائع بالقبول "⁽⁴⁴⁾.

كما عرفه الزرقا بأنه: " عادة جمهور قوم في قول ، أو فعل " ⁽⁴⁵⁾ ، تقريبا كل التعاريف المعاصرة للعرف الدولي تتفق على أنه عادة شعب ما لمدة معينة ، جعلتهم يشعرون بالزاميته ووجوب القيام به فيما بينهم كشعوب أو كدول .

كل شعب أو بلد له عاداته وتقاليدته التي اعتاد عليها منذ وجوده ، لذا بقي يمارسها ويحفظها للأجيال القادمة كإرث معنوي - إن صح التعبير - ، مثلا ما نلاحظه اليوم في معاملة اللاجئين الذين هربوا من أوطانهم نتيجة الحروب والاضطهاد والسياسة الحاكمة ، إلى دول أخرى بعيدة ويختلفون عنهم في العادات والتقاليد واللغة إلا أن هؤلاء اللاجئين وجدوا شيء واحد متعارف عليه لدى الجميع وهو حسن المعاملة والاستقبال ، وتقديم كل المساعدات الضرورية واللازمة لكل من يحتاج إليها.

ف نجد السكان يساهمون بممتلكاتهم الخاصة ، والدولة كذلك ، وهذا كله خدمة للمحتاجين ، وهذا ما يسمى بالعرف لأنه فعل يستحسن فعله ، وتطمئن له القلوب مهما كان دينها ، فلا فرق بين مسلم أو مسيحي أو ... فالكل يفعلون هذا الفعل بدافع الفطرة واطمئنان للقلوب.

حتى القانون الدولي تناول العرف فنجد المادة 38 من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية تناولت العرف الدولي بقولها: "وظيفة المحكمة أن تفصل في المنازعات التي ترفع

نتيجة للعرف الدولي الذي دأبت عليه جميع الدول وقدمت ولا زالت تقدم مساعدات لكل الدول المحتاجة.

المطلب الثالث: أنواع العرف الدولي

إن العرف الدولي لم يأتي من العدم وإنما نتيجة تداول عدة أجيال على فعل ما، نتيجة رغبتهم في هذا الفعل لأنه ينتج عنه منفعة تعود على الجميع، لذا نجد كل قبيلة أو دولة أو منطقة لها أعرافها التي قام بها أجدادها ولا زالت إلى اليوم يحافظون عليها، وهذا ما يجعل العرف الدولي يختلف من مكان لآخر.

فمنه عرف دولي تعمل به مجموعة كبيرة من الدول أي تقريبا كل الدول في العالم، ويسمى العرف الدولي العالمي (الفرع الأول)، ومنه عرف دولي تمارسه مجموعة قليلة فقط من الدول مثل اقتصره على دول أوروبية فقط أو دول عربية فقط، أو دول أفريقية فقط أو ...، وهذا يسمى بالعرف الدولي المحلي (الفرع الثاني).

الفرع الأول: العرف الدولي العالمي

إن القاعدة العرفية هي التي تكون ملزمة لكافة أعضاء المجتمع الدولي، ولكن يجب الانتباه إلى أنها قد لا تكون كذلك منذ بداية نشأتها، حيث أن المادة 38 من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية⁽⁵²⁾ لا تشترط أن تصدر السابقة المنشئة للعرف عن جميع الدول.

كل ما تشترطه في السابقة أن تكون عامة، ويضرب الفقه الدولي مثلا على ذلك بمبدأ حرية الملاحة في أعالي البحار الذي يجد أصوله في العلاقات بين الدول الأوروبية، ثم اكتسبت بعد ذلك نطاقا عالميا عندما جرى التسليم بها في علاقات تلك الدول الأوروبية مع الولايات المتحدة الأمريكية، ومع الدول التي دخلت إلى عضوية المجتمع الدولي بعد ذلك. أصبحت اليوم قاعدة عرفية ملزمة لكافة الدول حتى تلك التي لم يعترف لها بالحق في الوصول إلى أعالي البحار والمشاركة في ممارسة الحريات المقررة فيها إلهادينا⁽⁵³⁾.

العرف الدولي العالمي حسب الكثير من الفقهاء القانونيين هو أساس التعامل بين الدول وبناء علاقات دولية، حيث يعرفه ماونا دوبيس على أنه:

إضافة إلى استعمال موسيقى مسجلة للشيد الوطني بدلا من إلقائه شفويا، إلا أن هذا لا يغير في العرف الدولي ويبقى احترام الضيف واجب، وهذا ما نصت عليه الشريعة الإسلامية قبل أن تكون عرفا متداول بين كل الشعوب، سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة.

أي أن المقصود بالركن المادي هو القيام بالفعل لمدة زمنية معينة تجعل من الناس تقوم بهذا الفعل نظرا للتعود على القيام به، مثل تقديم المساعدات للجميع دون استثناء ودون النظر إلى جنسيتهم أو لغتهم أو دينهم.

المثال الحي الذي وقع مؤخرا فقط في شهر جوان 2018، هو تقديم السلطات الإسبانية للمساعدة لمجموعة من الصيادين الجزائريين الذين ضاعوا في البحر وأخذتهم الأمواج إلى الحدود الإسبانية، قدمت لهم كل المساعدة من أكل ودواء وبزينة وتوجيههم إلى الطريق الصحيح لبلدهم وإبلاغ السلطات الجزائرية عنهم وطمانت أهاليهم⁽⁵⁰⁾، فهذا فعل يدخل في العرف الدولي الذي يقصد به تقديم المساعدة لكل من يحتاج إليها.

الفرع الثاني: الركن المعنوي للعرف الدولي

يختلف الركن المعنوي عن الركن المادي كثيرا، فهو يعتبر شيء داخلي أي شعور بوجود القيام به، نظرا لعدة أسباب، ولهذا يعرف الركن المعنوي على أنه:

تعريف ربالوا بالونع " هو شعور بالإلزام، وعدم القيام به يؤنب الضمير "

تعريف يمالو هافق " رغبة القيام بالفعل نتيجة إحساس داخلي فطري"⁽⁵¹⁾، من خلال هذه التعاريف نستنتج أن الركن المعنوي للعرف الدولي يتمثل في إحساس الشخص بوجود القيام بالفعل، وهذا الشعور نابع من الذات، أي شيء لا إرادي ونقوم به دون جبر أو قوة.

هذه التعاريف وغيرها كلها صحيحة لأن الإنسان يرغب في تقديم المساعدة من تلقاء نفسه ودون إجبار من أحد، وهذا ما يقوم به مسؤولي الدول تجاه دول أخرى.

فمثلا الرئيس بوتفليقة عبد العزيز يقدم مساعدات مجانية ودون مقابل للدول الفقيرة والمحتاجة ودون ضغط من أحد، فبالرغم من أنه واجب إنساني، إلا أنه عادة دولية

ذهبت المحكمة خلافا لوجهة النظر الهندية ، إلى انه ليس هناك ما يمنع من نشأة عرف ثنائي ، وخلصت إلى وجود عرف محلي يلزم الدولتين بخصوص عبور الأشخاص العاديين والموظفين المدنيين البرتغاليين إلى مستعمرة غاوا (57).

إن العرف الدولي المحلي أو الإقليمي هو عرف متداول بين عدد قليل من الدول ، نتيجة تشابه في اللغة أو الدين أو العادات أو التاريخ المشترك منذ القدم ، فنجد مثلا الدول العربية لها تقريبا نفس الأعراف ، على عكس الدول الأوروبية التي تختلف عنها في كثير من الأشياء ، وهذا ما يسمى بالعرف الدولي المحلي ، فهو دولي لأنه بين دولتين أو ثلاثة ، ومحلي لأنه لا يتعدى هذه الدول وسبب القيام به هو لوجود تشابه في شيء ما ، مثلما ذكرنا كاللغة أو الدين أو ...

يعرف الفقيه أبو عبد الله المهوريتاني العرف الدولي المحلي على أنه: "عادات تعارفت عليها دولتين أو أكثر بسبب التاريخ المشترك".

ويعرفه ريمنا سالفا على أنه: " كل ما متشارك به بين دولتين بسبب اللغة أو الدين " (58).

من هذه التعاريف نستنتج أن العرف الدولي المحلي هو نتيجة تاريخ أي أن اللغة والدين سبب في وجودها ، مثلا معاملة الضيوف عند العرب هي نفسها بين كل الدول تقريبا ، وسبب ذلك هو الدين وعادات العرب من قبل.

في رأى أن العرف الدولي المحلي هو العرف الذي يتداول بين دولتين (عدد محدود من الدول) ويختلف عن الدول الأخرى ، باختلاف الدين واللغة والعادات والتقاليد ، فما تقوم به الدول العربية لا تقوم به الدول الأجنبية والعكس صحيح.

المبحث الثالث: تأثير العرف الدولي على تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية وتطبيق القانون الدولي الإنساني:

تنص المادة 1/94 من ميثاق الأمم المتحدة على أنه: " 1- يتعهد كل عضو من أعضاء " الأمم المتحدة " أن ينزل على حكم محكمة العدل الدولية في أية قضية يكون طرفاً فيها

" كل الأفعال التي لها فائدة على جميع الدول ، ولولا وجودها لما كانت العلاقات الدولية " (54).

أي أن ماونا يعتبر العرف الدولي العالمي أساس للعلاقات الدولية التي تنتج عنها مبادلات في جميع الميادين وخاصة الاقتصادية والقانونية و... ، وهي أساس كل بلاد .

كما نجد تعريف نثارو لاويرب " العرف الدولي العالمي هو كل ما تعاملت به غالبية الدول نتيجة تحقيق الفائدة للجميع دون استثناء " (55).

إن نثارو أيضا يعرف العرف (56) الدولي العالمي على أساس الفائدة وتحقيق الفائدة للدول جميعا وهذا ما ثبتت الدول تتبع الأعراف الدولية التي تجلب لها فائدة ، وهذا هو الأصح.

في رأي أن كل الدول لو اتبعت الأعراف الدولية التي فيها مصلحة وخير على البلدان لما قامت الحروب والنزاعات ، وتنتج آثار مأساوية على كل المدنيين والضعفاء مثل ما يحدث في اليمن اليوم و ... ، لماذا لا يحترمون أعراف الحروب واتفاقيات جنيف الأربع 1949 وبروتوكولها الإضافيين 1977؟

الفرع الثاني: العرف الدولي المحلي (الإقليمي):

الأصل أن يكون العرف عاما وشاملا ، غير انه ليس هناك ما يمنع من نشوب أعراف ذات نطاق جغرافي اقل اتساعا ، فقانون الحرب البحري كان خلال زمن طويل قانونا عرفيا قاصرا على دول أوروبية (أوروبا الغربية).

كما أن الدول الأمريكية كانت وفية لقاعدة عرفية توجب الاعتراف بالحكومات المؤلفة في أعقاب الثورات الداخلية ، وقد قبلت محكمة العدل الدولية قرارا بوجود أعراف إقليمية يقتصر تطبيقها على عدد محدود من الدول ، وكمثال على ذلك نذكر قضية اللجوء السياسي بين كولومبيا والبيرو ، وقضية الولاية على مصادد السمك بين إنجلترا والنرويج ، وقضية رعايا الولايات المتحدة الأمريكية في المغرب.

كما قبلت المحكمة بإمكانية وجود أعراف محلية أو خاصة قاصرة على العلاقات التي تنشأ بين دولتين فقط ، ففي قضية حق المرور في الأراضي الهندية بين البرتغال والهند

المساحات ، وأفضلها على حساب غيره ، خاصة المناطق التي تحتوي على الموارد الضرورية للحياة ، مثل الماء ، والمواد الطاقوية (البتروول).⁽⁶³⁾

نظرا لعدم وجود قوانين دولية قديما تحكم هذه الجرائم وتعاقب مرتكبيها ، كان ما يعرف بالعرف الدولي حيث كانت الدول لها عادات وتقاليدها تتبعها أثناء قيامها بالحروب ، مثل احترام المسنين والأطفال و ... ، وهذا كما ذكرنا سابقا مذكور في السنة النبوية منذ القدم ، وأوصى النبي محمد صلى الله عليه وسلم جنوده باحترامها ، ولازالت إلى يومنا هذا وهي مقننة في القوانين الدولية مثل اتفاقيات جنيف الأربع 1949⁽⁶⁴⁾ والبروتوكولين الإضافيين 1977.

ما يهمننا نحن في هذه الدراسة هو أن العرف الدولي له أثر إيجابي على تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية ، لأن المحاكم الجنائية الدولية ، تعرض أمامها انتهاكات القوانين الدولية ، وتصدر أحكاما على الأشخاص المتهمين والذين توفرت فيهم طبعا الأدلة اللازمة لإدانتهم ، والمهم في هذه الأحكام هو تنفيذها ، لكي يكونوا عبرة لغيرهم ولا يجرؤوا على ارتكابها مرة أخرى .

فتنفيذ هذه الأحكام يخضع للعرف الدولي ، أي أن الدولة التي تنتهي إلى هذه المحكمة الدولية ، وأصدر حكما قضائيا ضد شخص ما ، فإن هذه الدولة المعنية بتنفيذ الحكم القضائي الدولي تنفذه بناء على العرف الدولي ، وليس على أساس قانون.⁽⁶⁵⁾

لأننا نعرف أن المحاكم الدولية الجنائية ليس لها جهاز خاص يسهر على تنفيذ الأحكام القضائية الصادرة ، وهي بذلك تختلف عن المحاكم الوطنية من حيث قوة التنفيذ ، وعدم وجود هذا الجهاز يجعل من هذه الأحكام القضائية لا فائدة منها ، ما لم تنفذ.

فحتى المتضرر من هذه الأفعال يبقى دائما لا يثق في القضاء الدولي ، نتيجة عدم التنفيذ ، إلا أن العرف الدولي هو الذي يجعل من الدولة المعنية تنفذ الحكم القضائي بناء على الأعراف الدولية التي اعتاد عليها المجتمع الدولي منذ القدم .

فالدول المنتهية إلى المحاكم الجنائية الدولية ، نتيجة لاتفاقية دولية ، تكون ملزمة بتنفيذ بنود الاتفاقية ، إلا أن الواقع يثبت العكس ، فكثيرا من الدول لا تحترم هذه الاتفاقية

2- إذا امتنع أحد المتقاضين في قضية ما عن القيام بما يفرضه عليه حكم تصدره المحكمة ، فللطرف الآخر أن يلجأ إلى مجلس الأمن ولهذا المجلس ، إذا رأى ضرورة لذلك أن يقدم توصياته أو يصدر قرارا بالتدابير التي يجب اتخاذها لتنفيذ هذا الحكم. "⁽⁵⁹⁾.

يعنى أن كل دولة طرفا في قضية ما ، يجب أن تنفذ الأحكام القضائية التي تصدرها المحكمة ، وهذا احترامها لها ولشروعيتها ، وللقوانين الدولية وتماشيا لما ينص عليه العرف الدولي⁽⁶⁰⁾ ، وعملا بمبدأ حسن النية⁽⁶¹⁾ ، الذي يعتبر الركيزة الأساسية التي يقوم عليها القانون بصفة عامة ، والقانون الدولي بصفة خاصة ، ويعد هذا المبدأ أكثر لزوما للمجتمع الدولي⁽⁶²⁾.

فالعرف الدولي يعتبر له تأثير على تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية وتطبيق القوانين الدولية ، ومنها القانون الدولي الإنساني ، ونبين ذلك من خلال:

المطلب الأول: تأثير العرف الدولي على تنفيذ الأحكام القضائية الجنائية الدولية

العرف قد تنتج عنه آثار إيجابية أو سلبية وخاصة في مجال تطبيق الأحكام القضائية الدولية الجنائية ، والتي هي شيء مهم جدا خاصة بعد كثرة الجرائم الدولية التي تقع اليوم أمام الجميع ، ودون إصدار أي قرار ضد هذه الانتهاكات ، مثل ما يحدث في فلسطين ، العراق ، سوريا ، ليبيا ، اليمن ... ، وتتناول ذلك من خلال:

الفرع الأول: الآثار الإيجابية للعرف الدولي على تنفيذ الأحكام القضائية الجنائية الدولية

عندما يثور نزاع ما ، وخاصة النزاع الدولي المسلح ، فإن الكثير من الجرائم تقع ، ضد المدنيين العزل ، والكل يستغل فرصة النزاع لتحقيق أكبر حاجياته بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة.

هذا ما يجعل الجرائم تكون كثيرة وكبيرة ، مثل ما يحدث في فلسطين والعراق و ... ، خاصة عند انعدام الرقابة الدولية ، ومعاينة المجرمين ، حيث أن هذه الأفعال كانت ترتكب منذ القدم ، حتى قبل الحرب العالمية الأولى والثانية ، لأن الإنسان منذ وجوده وهو يحارب ويسعى لتحقيق أكبر

الدول تمتنع عن تنفيذ حكم قضائي صادر عن محكمة دولية ضد مواطن لها، وتفضل أن تحاكمه داخليا وتحكم عليه بقانون بلدها وليس بقانون آخر وهذا في نظرها تدخل في السيادة الوطنية.

حيث أن العرف ينص على تنفيذ الأحكام القضائية التي تصدر من المحاكم الدولية الجنائية من أجل تحقيق العدالة الدولية⁽⁶⁸⁾.

ب-عدم تهاشي بعض الأعراف الدولية مع عادات وتقاليدها: نعرف أن العرف الدولي أو العرف بصفة عامة يختلف من منطقة لأخرى، ومن بلد لآخر، فحتى داخل الدولة الواحدة يوجد اختلاف، فما بالك بين الدول التي لها لغات وعادات وديانات مختلفة.

فعرف تقبله دولة ما وتراه مناسب لها، تراه دولة أخرى عرف مخالف لها ولعاداتها ودينها⁽⁶⁹⁾، مثلا نحن في الجزائر لا نقبل حرق الأموات، أو تنفيذ حكم الإعدام لشخص ما ثم حرقه إلى أن يصبح رمادا ونضعه في زجاجة، فهذا يخالف عاداتنا وتقاليدها وديننا.

لذا فإن العرف الدولي يعتبر إشكال في تنفيذ الأحكام القضائية الدولية، مثلا تحكم المحكمة الجنائية الدولية بحكم على متهم ما وتطلب من إحدى الدول، والتي هي عضو في نظامها الأساسي أن تقوم بتنفيذ هذا الحكم.

عندما تجد هذه الدولة أن الحكم القضائي يخالف عاداتها وتقاليدها ودينها فإنها لن تفذه وهذا يؤثر سلبا على تنفيذ الأحكام القضائية الدولية، وتبقى دون تنفيذ، خاصة كما سبق وأن قلنا أن القضاء الدولي ليس له قوة تجبر على تنفيذ هذه الأحكام، أي هيئة دولية مثل شرطة دولية أو قوات دولية مهمتها مراقبة تنفيذ الأحكام القضائية ومتابعتها.

ج-الحفاظ على مصالح الدول

نعرف أن كل دولة مهما كانت فهي تسعى لتحقيق أكبر منفعة لبلدها، وهذا ما نجده عند الولايات المتحدة الأمريكية التي تتدخل في كل العالم، وأين ما تجد نزاع ولو بسيط تقوم بالتدخل من أجل الحصول على الامتيازات، ونهب تلك المنطقة، كما تفعل الآن في العراق وسوريا و...،

وتحاول التهرب من تنفيذ بنودها، مبررة ذلك بعدة أسباب⁽⁶⁶⁾

عند وقوع الحرب العالمية الأولى والثانية، أصدرت المحاكم الدولية المؤقتة (يوغوسلافيا، راندا) عدة أحكام ضد أشخاص اعتبرتهم مجرمي حرب، ارتكبوا جرائم دولية ضد المدنيين وخالفوا وانتهكوا القوانين والأعراف الدولية، وأصدرت أحكام قضائية ضدهم، ونفذت خارج الدولة التي أصدر بها الحكم القضائي، وهذا نتيجة للعرف الدولي السائد والذي كان يعمل به بين هذه الدول.

حيث أن الدولة التي تقبل استقبال مجرم ما وتنفذ عليه الحكم، يكون لها هذا الفعل، وهذا اعتبر عرفا دوليا وليس إجبار دولة ما على التنفيذ⁽⁶⁷⁾.

وعليه تنفيذ الحكم القضائي الدولي نتيجة للعرف الدولي يعتبر شيء ايجابي، أي أن العرف أثر على تطبيقه، نظرا لعدم وجود قوة أخرى ملزمة للتنفيذ، مثل شرطة دولية خاصة بالمحاكم الدولية تكلف بمتابعة تنفيذ هذه الأحكام، ولو لا وجود العرف الدولي لما نفذت الأحكام القضائية الدولية.

الفرع الثاني: التأثير السلبي للعرف الدولي على تنفيذ

الأحكام القضائية الجنائية الدولية

العرف عادات تعارفت عليها الشعوب لمدة طويلة، أصبحت ملزمة، نتيجة للشعور بوجود القيام بها ونظرا لفائدتها حسب اعتقادهم، وتعامل دولة مع أخرى خارج الأطر القانونية يكون بالعرف الدولي.

إلا أن هذا الأخير له آثار سلبية على تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية التي تصدر من المحاكم الدولية الجنائية، حيث أن إصدار المحاكم للأحكام من المفروض أن يتم تنفيذها، إلا أن الواقع يثبت عدم تنفيذ الكثير من الأحكام القضائية الدولية الجنائية، التي صدرت من المحاكم المختصة، نتيجة قيام المتهمين بأفعال إجرامية، يعاقب عليها القانون، فالدول دائما تمتنع عن تنفيذ هذه الأحكام لعدة أسباب منها:

أ-السيادة: تتحجج الكثير من الدول بالسيادة على إقليمها وحرية التصرف على أرضها، ولا تقبل بأن يفرض عليها شيء من خارج الدولة وتقوم بتنفيذه داخل دولتها، فحتى أن

المطلب الثاني: تأثير العرف الدولي على تطبيق القانون الدولي الإنساني

نتيجة للحروب التي شهدتها العالم والتي كانت أعنفها الحرب العالمية الأولى والثانية⁽⁷⁵⁾، عان البشر كثيرا من عدم احترام حقوقهم، خاصة المدنيين العزل وكبار السن والأطفال، وكل الفئات الضعيفة، لذا أصدرت عدة قوانين واتفاقيات دولية للحد من هذه الانتهاكات⁽⁷⁶⁾، منها ما هو متعلق بمنع الحروب أو التعهد بعدم اللجوء إلى القوة المسلحة، إلا أن طمع البشر يزداد في كل مرة، ويضربون القوانين والاتفاقيات عرض الحائط⁽⁷⁷⁾.

حيث تنص المادة 01 من الاتفاقية الخاصة باحترام قوانين وأعراف الحرب البرية لاهاي 18 أكتوبر 1907 على أنه: "على الدول المتعاقدة أن تصدر إلى قواتها المسلحة البرية تعليمات تكون مطابقة للأئحة الملحقة بهذه الاتفاقية والخاصة باحترام قوانين وأعراف الحرب البرية"⁽⁷⁸⁾.

عند ظهور القانون الدولي الإنساني، الذي له تاريخ كبير، ليجسد نموذجا متميزا لتنامي دور القانون الدولي العام في مجال تلبية متطلبات فئات مختلفة مشمولة بحمايتها،⁽⁷⁹⁾ تم الاستناد على اتفاقيات جنيف الأربع 1949 والبروتوكولين الإضافيين 1977.

حيث أنه لو تم تطبيقها، لما عان أحد ولما انتهك حق شخص ما، إلا أن هذا القانون يؤثر ويتأثر بعدة عوامل، منها العرف الدولي الذي يعتبر ركيزة القانون الدولي لذا نتناول أثره على القانون الدولي الإنساني من خلال:

الفرع الأول: التأثير الإيجابي للعرف الدولي على تطبيق القانون الدولي الإنساني

تنص المادة 01 المشتركة في اتفاقيات جنيف الأربع 1949 على أنه: "تتعهد الأطراف السامية المتعاقدة بأن تحترم هذه الاتفاقية وتكفل احترامها في جميع الأحوال"⁽⁸⁰⁾.

كلنا نعرف أن اتفاقيات جنيف تنضم القانون الدولي الإنساني، ونص هذه المادة يلزم جميع الأطراف المتعاقدة أن تحترم هذه الاتفاقية في جميع الأحوال، والمقصود بذلك استعمال كل الطرق من أجل تطبيقها، بما في ذلك العرف الدولي الذي هو أساس القانون الدولي.

نتيجة لرغبة الدول في الحفاظ على مصالحها، فإنها أكيد لا ترغب في كسب عداوة مع الدول الأخرى⁽⁷⁰⁾، خاصة عندما تطلب محكمة دولية جنائية من دولة ما أن تنفذ حكم قضائي ضد متهم ينتمي إلى بلد آخر، وهي لها مصالح معها، فهنا تقوم هذه الدولة بعدم تنفيذ الحكم، رغم أن العرف الدولي ينص على احترام الدول التي تنتمي للمحكمة الجنائية الدولية لقراراتها وتنفيذها من أجل إبراز قيمتها وهيبته، وإثبات وجودها وتحقيق العدل الدولي ولو بصورة بسيطة، ومن أجل جعل هذا المجرم عبرة لغيره مستقبلا.

د-اختلاف القانون الدولي عن القانون الداخلي

وهذا يعتبر أكبر عائق حيث أن ما ينص عليه القانون الدولي نجده تقريبا مختلف عما هو منصوص عليه في القانون الداخلي، وهذا ما يصعب تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية الصادرة من المحاكم الجنائية الدولية⁽⁷¹⁾.

رغم أن العرف الدولي ينص على تنفيذ هذه الأحكام، وبذلك يكون العرف الدولي ورغم وجوده إلا أنه لا يتم العمل به، وهذا يعتبر تأثير سلبي على تنفيذ هذه الأحكام.

ه-عدم قدرة الدولة ماديا

إن تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية، يتطلب عدة إجراءات تقوم بها الدولة المعنية من أجل ضمان تنفيذ العقوبة على هذا الشخص⁽⁷²⁾، كما يستلزم على المحكمة الدولية ضمان حقوق المتهم⁽⁷³⁾ - المجرم-، وذلك يستلزم أموال ومصاريف، وقد تكون الدولة فقيرة والأموال التي تصرفها على هذا المجرم، شعبيها بحاجة ماسة إليه وله الأفضلية في ذلك.

لذا نجد الكثير من الدول تمتنع عن القيام بتنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية، نظرا للمصاريف التي تصرفها عليه، حيث تنص المادة 100 من نظام روما الأساسي على أنه:

"تتحمل الدولة الموجه إليها الطلب التكاليف العادية لتنفيذ الطلبات في إقليمها..."⁽⁷⁴⁾.

فالعرف الدولي ساهم كثيرا في إيجاد حلول بين الدول ، خاصة التي بينها نزاع حول شيء معين ، فيلجئون إلى العرف الدولي ويكون الحل ، لأنه يعتبر وسيلة للتعبير عن آرائهم وهو ما نصت عليه المواثيق الدولية⁽⁸⁶⁾ ، وبذلك يكون هذا الأخير أثر على تطبيق القانون الدولي الإنساني والقانون الدولي العام بشكل ايجابي .

مثلا نزاع معين حول الحدود بين دولتين أدى إلى نزاعات مسلحة أدت إلى انتهاك الحقوق خاصة للطبقة الضعيفة مثل المدنيين ، وعدم احترام الدولتين للاتفاقيات الدولية .

لكن عندما يلجئون إلى العرف الدولي فإنهم يجدون حلا وسطا بينهم ، يرضى الطرفين ، بناء على ما قام به من قبلهم من أجيال ، واستمرت الحياة والعلاقات بينهم دون انتهاكات وإيجاد حل لكل النزاعات المسلحة الدولية⁽⁸⁷⁾ أو غير الدولية .

الفرع الثاني: التأثير السلبي للعرف الدولي على تطبيق القانون الدولي الإنساني

تنص المادة 17 من اتفاقية جنيف الأولى 1949 على أنه: " يتحقق أطراف النزاع من أن دفن الجثث أو حرقها يجري لكل حالة على حدة بقدر ما تسمح به الظروف ... لا يجوز حرق الجثث إلا لأسباب صحية قهريّة أو لأسباب تتعلق بديانة المتوفى ، وفي حالة الحرق تبين أسبابه وظروفه بالتفصيل ... وعلى أطراف النزاع التحقق من أن الموتى قد دفنوا باحترام وطبقا لشعائر دينهم ..."⁽⁸⁸⁾ .

نظرا لكوننا نكتب مقالا ومرتبطين بالحجم سنتنصر على هذا المثال لنبين الأثر السلبي للعرف الدولي على تطبيق القانون الدولي الإنساني ، حيث أن دفن الموتى هو ما يهم كل إنسان ، ويختلف من بلد لآخر وذلك حسب الدين الذي ينتهي إليه فيوجد الدفن ويوجد الحرق ، والإشكال هو في مكان الوفاة ، فعند حدوث نزاع مسلح بين دولتين تختلفان في الدين ، فأكد أن هذا النزاع سيحدث آثار وهي الموتى ، فكيف يتم التعامل معهم ؟

إن القانون الدولي الإنساني واضح وهو احترام الأموات حسب دينهم وذلك حسب المادة 17 من اتفاقية جنيف الأولى ، إلا أن الدول تقريبا لا تطبق هذه الاتفاقيات وتعمل

فالقانون الدولي الإنساني يحمي كل الطبقات من الجرحى والمرضى والغرقى و ...⁽⁸¹⁾ ، ومن أجل العمل على توفير هذه الحماية وجب العمل ببنود الاتفاقية ، واستعمال ما هو متعارف عليه بين الدول وسمى بالعرف الدولي .

كما تنص المادة 11 من اتفاقية جنيف الأولى 1949 على أنه: "تقدم الدول الحامية مساعيها الحميدة من أجل تسوية الخلافات في جميع الحالات التي ترى فيها أن ذلك في مصلحة الأشخاص المحميين ، وعلى الأخص في حالات عدم اتفاق أطراف النزاع على تطبيق أو تفسير أحكام هذه الاتفاقية"⁽⁸²⁾ .

تشير هذه المادة إلى العرف الدولي ، أي عندما لا يتم الاتفاق على تطبيق نص المادة من الاتفاقية فإنهم يلجأون إلى العرف الدولي ، الذي يعتبر حلا يتفقون عليه ، لأنه تم العمل به من قبل ، وهو يرضى الجميع حسب التجربة منذ قرون ، وبذلك يكون العرف الدولي له أثر ايجابي على تطبيق القانون الدولي الإنساني⁽⁸³⁾ .

لأنه تقريبا كل الاتفاقيات هي عبارة عن بنود جاءت من العرف الدولي ، وهذا ما يجعل الدول تصادق وتوقع عليها فبدون العرف الدولي تجد الدول صعوبة في قبول الاتفاقيات ، لأنها تختلف وتعارض دينها وعاداتها وتقاليدها ولغتها وسيادتها وقانونها الداخلي ، والهدف منها غالبا هو محاولة حفظ السلم والأمن الدوليين وهو ما تسعى إليه المنظمات الدولية⁽⁸⁴⁾ .

بالإضافة إلى نص المادة 12 من نفس الاتفاقية على أنه: "يجب في جميع الأحوال احترام وحماية الجرحى والمرضى من أفراد القوات المسلحة وغيرهم من الأشخاص المشار إليهم في المادة التالية .

وعلى طرف النزاع الذي يكونون تحت سلطته أن يعاملهم معاملة إنسانية وأن يعنى بهم دون أي تمييز ضار على أساس الجنس أو العنصر أو الجنسية أو الدين أو الآراء السياسية أو ..."⁽⁸⁵⁾ .

ونص هذه المادة هو ترجمة حرفية للعرف الدولي ، فكل المعاملات الإنسانية التي نصت عليها اتفاقيات جنيف الأربع 1949 ، هي عبارة عن عرف دولي متعارف عليه منذ القدم ، وحتى قبل وجود هذه الاتفاقية ، وهي بوادر وجود وظهور قانون دولي إنساني ، يوفر حماية لهذه الفئات .

الحدود ، وتسليم المتهمين الهاربين من دولة إلى أخرى ، كما أن للعرف دور في تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية وتطبيق القانون الدولي الإنساني من خلال التأثير عليهما تأثير إيجابي وسلبي ، إلا أن التأثير الإيجابي أكبر من السلبي ، وهو ما جعل العرف الدولي يستمر إلى غاية اليوم ، ولا تزال جميع الدول تعمل به لدرجة أنه تم تقنينه في اتفاقيات دولية ، وهو ما يجعلنا نقول أن العرف الدولي مهم جدا لذلك نقدم بعض التوصيات.

التوصيات

- ضرورة إنشاء قوة دولية (شرطة دولية) تكون مهمتها السهر على تنفيذ الأحكام القضائية الدولية الجنائية الصادرة من هذه المحاكم ، مثلها مثل القوة العمومية التي تنفذ الأحكام القضائية الصادرة من المحاكم الوطنية ، لان وجود هذه القوة يجعل التنفيذ يكون بشكل صارم وبضمن بالتالي تنفيذه.

- إجبارية تنفيذ الأحكام القضائية الصادرة عن القضاء الدولي الجنائي ، لتفادي ارتكاب مثل تلك الجرائم مستقبلا ، وجعل المتهم أو المحكوم عليه عبرة لغيره.

- ضرورة تعميم مبادئ القانون الدولي الإنساني خاصة لدى العسكريين ، ليكونوا على علم بما يجب القيام به أثناء نزاع مسلح ما ، حتى يتم ضمان حقوق المدنيين ، ومحاولة تحقيق نوع من السلم والأمن ولو جزئيا.

- وجوب احترام الاتفاقيات الدولية التي صادقت عليها الدول وعدم إيجاد أعذار للامتناع عن تنفيذ الأحكام القضائية الدولية ، ومبادئ القانون الدولي الإنساني ، لأنه يجب المحافظة على السلام في العالم من أجل أجيال قادمة تعيش بسلام ، ولا تعيش ما عاشه أجدادنا من عذاب وويلات الحروب.

بالعرف ، أي أنها قد تطبق ما ينص عليه دينها وعاداتها وبذلك يكون العرف أثر سلبا على تطبيق القانون الدولي الإنساني. (89)

نذكر مثال من الواقع ، استعمار فرنسا للجزائر ، نتج عنه أموات للفرينين⁽⁹⁰⁾ ، واختلف التعامل معها ، مثلا أموات فرنسا قامت الجزائر بدفنتهم ، رغم أن من كانوا هنا في الجزائر لهم ديانات مختلفة ، ومنهم من يحرق الجثة ، إلا أن الجزائر لم تحرق أية جثة ، ودفنتهم بطريقة عادية ، ومقابر الأجانب (اليهود) كما تسمى بالجزائر لازالت تشهد على ذلك.

بالإضافة إلى التعامل مع المقابر ، بالرغم من أننا مسلمين إلا أن مقابرنا مهمشة ، مثلها مثل مقابر الأجانب إلا في بعض الأماكن كالعاصمة ، بينما الأجانب مقابرهم في بلادهم مزينة وتحتوي على مناظر تسر من يراها ، وذلك احتراماً لموتاهم.

ونفس الشيء نجده في فرنسا التي قامت بوضع جماجم الشهداء في متحف بدلا من وضعهم في قبر ، فهنا دولة فرنسا لم تحترم المادة 17 من اتفاقية جنيف الأولى ، ولم تحترم بذلك تطبيق القانون الدولي الإنساني ، الذي يلزمها باحترام الأموات حسب دينهم ، وهو ما يعتبر انتهاك جسيم للقانون الدولي⁽⁹¹⁾.

نحن ديننا ينص على دفن الموتى وليس وضعهم في متاحف ؟ وهم قاموا بذلك حسب عاداتهم وتقاليدهم ، أي حسب العرف ، وبذلك يكون العرف الدولي أثر سلبا على تطبيق القانون الدولي الإنساني.

خاتمة

من خلال دراستنا لهذا البحث نصل إلى أن العرف الدولي عبارة عن عادات وتقاليدهم تم ممارسته لمدة زمنية طويلة إلى درجة الشعور بوجوب القيام بها بين الدول ، وذلك نظرا لفائدتها على الجميع ، وخاصة في حل المشاكل بينهم مثل

الهوامش

1. - عبد الإله تالي ، القانون الدولي العام ، منشورات الحلبي الحقوقية ، سوريا ، 2016 ، ص 258.
2. - رومي منكا ، القضاء الدولي ، دراسة للمحاكم الجنائية المؤقتة ، د د ن ، طرابلس ، ليبيا ، 2015 ، ص 142.
3. - تنص المادة 02 من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية المؤرخ في 16 ديسمبر 1966 ، تاريخ بدء النفاذ 23 مارس 1976 على أنه: 1-تتعهد كل دولة طرف في هذا العهد باحترام الحقوق المعترف بها فيه ، وبكفالة هذه الحقوق لجميع الأفراد الموجودين في إقليمها والداخلين في ولايتها ، دون أي تمييز بسبب العرق ، أو اللون ، أو الجنس ، أو اللغة ، أو الدين ، أو الرأي سياسيا أو غير سياسي أو الأصل القومي أو الاجتماعي ، أو الثروة أو النسب ، أو غير ذلك من الأسباب
- 3-تتعهد كل دولة طرف في هذا العهد:
بأن تكفل توفير سبيل فعال للتظلم لأي شخص انتهكت حقوقه أو حرياته المعترف بها في هذا العهد حتى لو صدر الانتهاك عن أشخاص يتصرفون بصفتهم الرسمية.
- بأن تكفل لكل متظلم على هذا النحو أن تبت في الحقوق التي يدعى انتهاكها سلطة قضائية أو إدارية أو تشريعية مختصة ، أو أية سلطة مختصة أخرى ينص عليها نظام الدولة القانوني ، وبأن تنمي إمكانيات التظلم القضائي
- بأن تكفل قيام السلطات المختصة بإنفاذ الأحكام الصادرة لمصالح المتظلمين "
4. - منيراس رائد عايد ، المحاكم الجنائية الدولية بين الواقع والخيال ، دار البحوث للنشر ، المملكة العربية السعودية ، 2018 ، ص 658.
5. - عبد الإله تالي ، القانون الدولي العام ، مرجع سابق ، 275.
6. - منيراس رائد عايد ، المحاكم الجنائية الدولية بين الواقع والخيال ، مرجع سابق ، ص 665.
7. - منار سالم ترابان ، تنفيذ الأحكام القضائية الدولية ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في القانون العام ، كلية الحقوق والعلوم السياسية جامعة الأزهر ، غزة ، فلسطين ، منشورة على موقع الجامعة الفلسطينية ، 2010 ، ص 55.
8. - مروى الكاتين ، القضاء الدولي الجنائي بين الأمس واليوم ، دار العلوم للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2016 ، ص 345.
9. - منيراس رائد عايد ، المحاكم الجنائية الدولية بين الواقع والخيال ، مرجع سابق ، ص 545.
10. - منار سالم ترابان ، تنفيذ الأحكام القضائية الدولية ، مرجع سابق ، ص 56.
11. - منار سالم ترابان ، تنفيذ الأحكام القضائية الدولية ، مرجع نفسه ، ص 56.
12. - ماهر الهالير ، القضاء الدولي ، دراسة أحكام المحاكم الدولية الجنائية ، دار جيل المعرفة والتبشير ، طرابلس ، لبنان ، 2015 ، ص 195.
13. - منار سالم ترابان ، تنفيذ الأحكام القضائية الدولية ، مرجع سابق ، ص 57.
14. - رومي منكا ، القضاء الدولي ، مرجع سابق ، ص 154.
15. - عبد الإله تالي ، القانون الدولي العام ، مرجع سابق ، 302.
16. - منار سالم ترابان ، تنفيذ الأحكام القضائية الدولية ، مرجع سابق ، ص 57.
17. - منار سالم ترابان ، تنفيذ الأحكام القضائية الدولية ، مرجع نفسه ، ص 58.
18. - عبد الإله تالي ، القانون الدولي العام ، مرجع سابق ، 322.
19. - كل ما يحدث اليوم في فلسطين والعراق وسوريا واليمن وموريتانيا و.. ، أليس انتهاك للقوانين الدولية؟ فلماذا لا تقوم المحاكم الجنائية الدولية بعملها ، وتحقق السلم والأمن الدوليين والعدالة الدولية التي وجدت من أجل تحقيقها.
20. - حتى الأحكام التي تصدرها المحاكم الوطنية ملزمة التنفيذ وتبين الجهة المخطئة وتلزم المتهم بأداء واجباته تجاه الضحية ، والفرق بين الحكم الملزم في القانون الداخلي الوطني والقانون الدولي ، هو أن الأول يكون بين الأشخاص والثاني يكون بين الدول.
21. -القانون الدولي الإنساني العرفي يتألف من قواعد مستمدة من ممارسة عامة مقبولة كقانون ، وهي قواعد لا علاقة لها بالمعاهدات لكن أهميتها كبيرة في النزاعات المسلحة الحالية كونها تسد الثغرات التي خلفها قانون المعاهدات في النزاعات المسلحة الدولية وغير الدولية ، وبالتالي يعزز حماية الضحايا خاصة أن أغلبها لا ينطبق عليه الخلاف الدولي ، لمزيد من التفاصيل أنظر: موفق بن عطا البيوك ، القانون الدولي الإنساني في ظل النزاعات الدولية ، من 5 إلى 7 نوفمبر 2012 ، كلية التدريب قسم البرامج التدريبية ، الرياض ، 2012 ، ص 06.
22. -غنيم قنص المطيري ، آليات تطبيق القانون الدولي الإنساني ، رسالة للحصول على شهادة الماجستير كلية الحقوق ، قسم القانون العام ، جامعة الشرق الأوسط ، 2009-2010 ، ص 14.
23. -مايا الدباس ، جاسم ذكريا ، القانون الدولي الإنساني ، الجامعة الافتراضية السورية ، books ، سوريا ، 2018 ، ص 08.
24. - مايا الدباس ، جاسم ذكريا ، القانون الدولي الإنساني ، مرجع نفسه ، ص 09.
25. -أمحمدي بوزينة أمنة ، القانون الدولي الإنساني ، مخبر القانون والأمن الإنساني ، الدورة المشتركة عن بعد في القانون الدولي لحقوق الإنسان والقانون الإنساني ، جامعة حسبية بن بوعلی الشلف ، د س ن ، ص 05.
26. -غبولي منى ، محاضرات في القانون الدولي الإنساني ، كلية الحقوق والعلوم السياسية ، جامعة محمد لمين دباغين ، 2016-2017 ، ص 25.
27. -تنص المادة 6 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أنه "لكل إنسان أينما وجد الحق في أن يعترف بشخصيته القانونية".
28. -غبولي منى ، محاضرات في القانون الدولي الإنساني ، مرجع نفسه ، ص 26.
29. -المادة 2 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان 1948.
30. -غبولي منى ، محاضرات في القانون الدولي الإنساني ، مرجع نفسه ، ص 26.
31. -أمحمدي بوزينة أمنة ، القانون الدولي الإنساني ، مرجع سابق ، ص 17.
32. -تنص المادة 8 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أنه "كل الناس سواسية أمام القانون ولهم الحق في التمتع بحماية متكافئة عنه دون أية تفرقة ...".

33. سامية زاوي ، دور مجلس الأمن في تطبيق القانون الدولي الإنساني ، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير تخصص القانون الدولي العام ، كلية الحقوق والعلوم السياسية ، جامعة باجي مختار عنابة ، 2007-2008 ، ص 96.
34. - لا يزال البشر يعملون بالعرف إلى غاية اليوم ، سواء بين الأسرة الواحدة أو بين الدول ، مثل مراسيم استقبال مسؤولي الدول.
35. - ماجي محمد عبد الله ، القانون الدولي العام ، دار العلم للنشر والتوزيع ، بيروت ، 2012 ، ص 42.
36. - أحمد بن رفاع بن حامد العزيزي المطيري ، العرف في التشريع الجنائي (دراسة تأصيلية مقارنة) ، رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير ، كلية الحقوق والعلوم السياسية ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ، منشورة على موقع الجامعة ، 2010/2009 ، ص 24.
37. - سورة الأعراف ، الآية 199.
38. - أحمد بن رفاع بن حامد العزيزي المطيري ، مرجع نفسه ، ص 24.
39. - محمد بشري قامو ، العرف الدولي ، دار الكتاب ، عمان ، 2010 ، ص 89.
40. - كل دولة لا بد لها من التعاون بين الدول الأخرى لأنه لا يمكن أن تحقق الدولة كل حاجياتها بنفسها ، فما يوجد بالجزائر مثلا لا نجده في أمريكا والعكس صحيح ، لذا لا بد من التبادل من أجل مصالح رعيتهما التي تحتاج إلى كل شيء من أجل العيش ، وهذا التعاون يفرض على الدولة أن تتبع أعراف الدولة الأخرى من أجل التعامل معها ، مثلا نحن في الجزائر لكي نتعامل معنا دولة ما وتصدر لنا مأكولات معينة نشترط عليهم طريقة الحلال.
41. - شاد الفونسو أبو راعب ، الأعراف والتقاليد ، دار الريحان للطباعة والنشر ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، 2015 ، ص 1004.
42. - مقدار الفائدة من العرف المتعارف عليه يختلف من شخص لآخر ومن بلد لآخر ، فما تراه الجزائر عرف نافع تراه دولة أخرى عرف غير نافع وذلك بسبب اختلاف العادات والتقاليد والديانات.
43. - محمد علي بناوي ، القانون الدولي العام ، دار الكتاب للنشر والتوزيع ، الإسكندرية ، 2010 ، ص 102
44. - أحمد بن رفاع بن حامد العزيزي المطيري ، مرجع سابق ، ص 25
45. - أحمد بن رفاع بن حامد العزيزي المطيري ، مرجع نفسه ، ص 26
46. - المادة 38 من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية.
47. - عامن واجد تاري ، العرف الدولي ، دار العلم للنشر والطباعة ، بيروت ، 2015 ، ص 56.
48. - بالوس مابري ، القانون الدولي الجنائي ، مبادئه وآثاره ، دراسة تحليلية ، ترجمة محد على خاتوي ، دار الترجمان ، الإمارات العربية المتحدة ، 2017 ، ص 1152.
49. - جون دبتان ، قانون وأعراف الدول ، ترجمة فبيان قورة ، د د ن ، بيروت ، لبنان ، 2017 ، ص 287.
50. - www.ellbilad.net الاطلاع على الموقع بتاريخ 25 جوان 2018 على الساعة 18.52.
51. - ثابير عبد الإله ، العرف الدولي في القانون الدولي الجنائي ، مركز الدراسات القانونية ، المملكة العربية السعودية ، 2016 ، ص 95.
52. - تنص المادة 38 من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية على أنه: "1- وظيفة المحكمة أن تفصل في المنازعات التي ترفع إليها وفقا لأحكام القانون الدولي ، وهي تطبق في هذا الشأن:
- أ- الاتفاقات الدولية العامة والخاصة التي تضع قواعد معترفا بها صراحة من جانب الدول المتنازعة.
- ب- العادات الدولية المرعية المعتبرة بمثابة قانون دل عليه تواتر الاستعمال.
- ج- مبادئ القانون العامة التي أقرتها الأمم المتحدة.
- د- أحكام المحاكم ومذاهب كبار المؤلفين في القانون العام في مختلف الأمم ويعتبر هذا أو ذاك مصدرا احتياطيا لقواعد القانون وذلك مع مراعاة أحكام المادة 59.
- 2- لا يترتب على النص المتقدم ذكره أي إخلال بما للمحكمة من سلطة الفصل في القضية وفقا لمبادئ العدل والإنصاف متى وافق أطراف الدعوى على ذلك "
53. - عباس ماضوي ، المصادر التقليدية غير الاتفاقية للقانون الدولي العام (ماهيتها وحجيتها) ، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في الحقوق ، تخصص قانون دولي عام ، كلية الحقوق والعلوم السياسية ، قسم الحقوق ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، 2012/2013 ، ص 64.
54. - محمد أبو راشد ، كتابات قانونية في الأعراف الدولية ، دار العلماء للنشر والتوزيع ، طرابلس ، ليبيا ، 2016 ، ص 452.
55. - رائد عانت منشان ، مصادر القانون الدولي الجنائي ، دراسة تحليلية ، دار الكتاب ، بيروت ، لبنان ، 2017 ، ص 366.
56. - قد يخلط الكثير بين العادة والعرف لذا نبين الفرق بينهما:
- يعرف الأصوليون العادة على أنها: "هي الأمر المتكرر ولو من غير علاقة عقلية"
- ومنهم من يعرف العادة والعرف على أنها واحد ، ومنهم ابن عابدين وابن نجيم ، و النسفي ، بقولهم: "العادة هي المعاودة فهي بتكرارها مرة بعد أخرى صارت معروفة ، و مستقرة في النفوس ، و العقول متلقاة بالقبول ، من غير علاقة ، و لا قرينة ، حتى صارت حقيقة عرفية ، فالعادة والعرف بمعنى واحد " ، لمزيد من التفاصيل انظر: أحمد بن رفاع بن حامد العزيزي المطيري ، العرف في التشريع الجنائي دراسة تأصيلية مقارنة ، رسالة مقدمة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في العدالة الجنائية ، كلية الدراسات العليا ، قسم العدالة الجنائية ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية ، المملكة العربية السعودية ، 2010/06/05 ، ص ص 58-59.
57. - عباس ماضوي ، المصادر التقليدية غير الاتفاقية للقانون الدولي العام (ماهيتها وحجيتها) ، مرجع سابق ، ص ص 66-67.
58. - غاوي النقيس أبو مجد ، دراسات في التاريخ المعاصر ، العادات والتقاليد والأعراف الدولية ، دراسة تحليلية ، دار النورين للنشر ، فلسطين ، 2015 ، ص 536.
59. - المادة 1/94 من ميثاق الأمم المتحدة.
60. - مايث وأني ، القضاء الدولي ، د د ن ، الأردن ، 2015 ، ص 42.

61. يعتبر مبدأ حسن النية من أهم مبادئ التعامل بين الدول ، فكل دولة من المفروض أن تحسن نيتها أثناء تعاملها مع دولة أخرى ، وهذا له علاقة بالعرف الدولي ، حيث كان القدامى أي الملوك يتعاملون مع دول أخرى بحسن نية وحتى بدون وثائق في بعض الأحيان ، ولا يزال هذا المبدأ حتى في التعاملات اليومية بين التجار داخل الوطن أو خارجه .

62. حنار سالم تربان ، تنفيذ الأحكام القضائية الدولية ، مرجع سابق ، ص 89.

63. -مناح مراد رائد ، الحروب الدولية ، آثارها وأسبابها-دراسة تحليلية-، دار الكتاب للنشر ، د ب ن ، 2016 ، ص 126.

64. -تنص المادة 3 المشتركة في اتفاقيات جنيف الأربع 12 أوت 1949 على أنه:

" في حالة قيام نزاع مسلح ليس له طابع دولي في أراضي أحد الأطراف السامية المتعاقدة ، يلتزم كل طرف في النزاع بأن يطبق كحد أدنى الأحكام

التالية:

1-الأشخاص الذين لا يشتركون مباشرة في الأعمال العدائية ، بمن فيهم أفراد القوات المسلحة الذين القوا عنهم أسلحتهم ، والأشخاص العاجزون عن القتال ، بسبب المرض أو الجرح أو الاحتجاز أو لأي سبب آخر ، يعاملون في جميع الأحوال معاملة إنسانية ، دون أي تمييز ضار يقوم على العنصر أو اللون ، أو الدين أو المعتقد ، أو الجنس ، أو المولد أو الثروة أو أي معيار مماثل آخر .

ولهذا الغرض تحظر الأفعال التالية فيما يتعلق ...

أ-الاعتداء على الحياة....

ب-اخذ الرهائن.....

ج-الاعتداء على الكرامة الشخصية ...

د-إصدار الأحكام وتنفيذ العقوبات دون إجراء محاكمة

2 - يجمع الجرحى ويعتني بهم ..."

65. -مايث واني ، القضاء الدولي ، مرجع سابق ، ص 95.

66. -تايب منبيراس ، الأحكام القضائية الدولية ، دار الملوك للنشر ، د ب ن ، 2017 ، ص 45.

67. -تايب منبيراس ، مرجع سابق ، ص 46.

68. -عبد الإله رابع ، سيادة الدول ومزاياها ، دراسة حالة دول شمال إفريقيا ، دار العلوم ، بيروت ، لبنان ، 2015 ، ص 785.

69. -ماهر عبد الخالق عتیب ، دراسات تاريخية في العادات والتقاليد الدولية ، درأ أصول النشر ، حلب ، سورية ، 2010 ، ص 96.

70. -عبد الإله رابع ، مرجع سابق ، ص 790.

71. -مرمر أبو سيد ، القانون الدولي العام ، حالة العراق وبلاد الشام ، دار الرافدين للنشر ، 2010 ، ص 85.

72. -تنص المادة 103 من نظام روما الأساسي على أنه:

"1-أينفذ حكم السجن في دولة تعينها المحكمة من قائمة الدول التي تكون قد أبدت للمحكمة استعدادها لقبول الأشخاص المحكوم عليهم ب-يجوز للدول لدى إعلان استعدادها لاستقبال الأشخاص المحكوم عليهم ، أن تقرنه بشروط لقبولهم توافق عليها المحكمة وتتفق مع أحكام هذا الباب.

ج-تقوم الدولة المعنية في أية حالة بذاتها بإبلاغ المحكمة فوراً بما إذا كانت تقبل الطلب ..."

73. -تنص المادة 67 من نظام روما الأساسي على أنه:

"عند البت في أي تهمة ، يكون للمتهم الحق في محاكمة علنية ، مع مراعاة أحكام هذا النظام الأساسي ، وفي أن تكون المحاكمة عادلة ونزيهة ، وكون له الحق في الضمانات التالية كحد أدنى في مساواة تامة:

أ -أن يبلغ فوراً وتفصيلاً بطبيعة التهمة الموجهة إليه وسببها ومضمونها ، وذلك بلغة يفهمها تماماً ويتكلمها .

ب-أن يتاح له ما يكفي من الوقت والتسهيلات لتحضير دفاعه ، وللشاور بحرية مع محام من اختياره وذلك في جو من السرية .

ج-أن يحاكم دون تأخير لا موجب له "

74. -المادة 100 من نظام روما الأساسي ، مرجع سابق.

75. -استعمل في هذه الحرب العالمية الأولى والثانية كل أنواع الأسلحة ، والهدف الوحيد هو الوصول إلى تحقيق النصر ، ودون مراعاة القوانين الدولية التي تنظم الحروب .

76. -منها: اتفاقيات لاهاي لعامي 1899 و1907-اتفاقية جنيف 1906 بشأن تحسي حال الجرحى المرضى من أفراد الجيوش في الميدان-اتفاقية جنيف الأولى 1929 تحسين حال جرحى ومرضى القوات المسلحة في الميدان -اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية 1948 -اتفاقية لاهاي 1945 الخاصة بحماية الممتلكات الثقافية-اتفاقيات فينا لقانون المعاهدات 1969.

77. -تنص المادة 01 من اتفاقية حقوق وواجبات الدول المحايدة في الحرب البحرية لاهاي 18 أكتوبر 1907 على انه:

"إن الأطراف المتحاربة ملزمة باحترام الحقوق الثابتة للدول المحايدة والامتناع عن القيام في الأراضي أو المياه المحايدة بأي عمل من شأنه أن يكون مخالفا للحباد إذا سمحت به أي دولة "

78. -المادة 01 من الاتفاقية الخاصة باحترام قوانين وأعراف الحرب البرية لاهاي 18 أكتوبر 1907.

79. -بلخير طيب ، النظام القانوني لمسؤولية الدول في ظل أحكام القانون الدولي الإنساني ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في القانون الدولي العام كلية الحقوق والعلوم السياسية ، جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان ، منشورة على موقع الجامعة ، 2015/2016 ، ص 04.

80. -المادة 01 المشتركة لاتفاقيات جنيف الأربع 1949 المنعقدة في جنيف من 21 ابريل إلى 12 أوت 1949.

81. تنص المادة 7 من اتفاقية جنيف الأولى لتحسين حال الجرحى والمرضى بالقوات المسلحة في الميدان 12 أوت 1949 جنيف على أنه: "لا يجوز للجرحى والمرضى، وكذلك أفراد الخدمات الطبية والدينية، التنازل في أي حال من الأحوال جزئياً أو كلية عن الحقوق الممنوحة لهم بمقتضى هذه الاتفاقية..."
82. المادة 11 من اتفاقية جنيف الأولى لتحسين حال الجرحى والمرضى بالقوات المسلحة في الميدان 12 أوت 1949 جنيف.
83. - قدم الفقه تعريفات عديدة للقانون الدولي الإنساني تتفق جميعها في المضمون وإن كانت تختلف في الصياغة منها: القانون الدولي الإنساني مجموعة القواعد القانونية الإنسانية التي تطبق في المنازعات المسلحة وتهدف إلى حماية الأشخاص والأموال، تعريف اللجنة الدولية للصليب الأحمر: هو مجموعة القواعد الدولية المستمدة من الاتفاقيات والأعراف التي تهدف بشكل خاص إلى تسوية المشكلات الإنسانية الناجمة بصورة مباشرة عن النزاعات المسلحة الدولية أو غير الدولية، لمزيد من التفاصيل أنظر: جغلول زغودو، حقوق الإنسان وسياسة الولايات المتحدة الأمريكية بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في العلوم القانونية تخصص قانون دولي، كلية الحقوق والعلوم السياسية، قسم الحقوق، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2010-2011، ص ص 242-243.
84. - المنظمة الدولية هي هيئة دائمة تنشئها الدول لممارسة اختصاصات دولية في مجال حفظ السلم والأمن الدوليين، لمزيد من التفاصيل أنظر: جعفر عبد السلام، المنظمات الدولية ودورها في تحقيق الأمن والسلم الدوليين، أبحاث ووقائع المؤتمر العام السابع والعشرين، مصر، د س ن، ص 02.
85. - المادة 12 من نفس الاتفاقية.
86. - لقد شجع ميثاق الأمم المتحدة 1945 وما لحقه من موثائق وإعلانات دولية على الاعتراف بحق الأفراد في تشكيل جمعيات وجماعات سلمية بموجبها يستطيع الأفراد التعبير عن آرائهم، وتشكل وسيلة ضغط على الحكومات التي ربما تنتهك حقوقهم أو تحد من ممارستها، لمزيد من التفاصيل أنظر: مساعد علي، المنظمات الدولية غير الحكومية وتأثيرها على سيادة الدول، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير تخصص الإستراتيجية فرع العلاقات الدولية، كلية الحقوق والعلوم السياسية، قسم العلوم السياسية، 2016-2017، ص 15.
87. - النزاعات المسلحة الدولية هي تلك النزاعات التي تشن بين دول أو بين دولة وحركة تحرير وطني، لمزيد من التفاصيل أنظر: تقرير عن القانون الدولي الإنساني وتحديات النزاعات المسلحة المعاصرة، المؤتمر الحادي والثلاثون للصليب الأحمر والهلال الأحمر، وثيقة أعدتها اللجنة الدولية للصليب الأحمر، 28 نوفمبر 2011، جنيف سويسرا، 31ic/11/5.1.2، ص 08.
88. - المادة 17 من اتفاقية جنيف الأولى، مرجع سابق.
- كما تنص المادة 17 فقرة 02 من نفس الاتفاقية على أنه:
- " لا يجوز حرق الجثث إلا لأسباب صحية قهربية أو لأسباب تتعلق بديانة المتوفى، وفي حالة الحرق، تبين أسبابه وظروفه بالتفصيل...، وعلى أطراف النزاع التحقق من أن الموتى قد دفنوا باحترام وطبقا لشعائر دينهم إذا أمكن، وإن مقابريهم تحترم، وتجمع تبعاً لجنسياتهم إذا أمكن، وتضان بشكل ملائم، وتميز بكيفية تمكن من الاستدلال عليها دائماً، وطلباً لهذه الغاية، وعند نشوب الأعمال العدائية تنشئ أطراف النزاع إدارة رسمية لتسجيل المقابر، لتيسير الاستدلال عليها فيما بعد"
- من خلال نص هذه المادة نجد أن اتفاقيات جنيف وفرت الحماية للأحياء والأموات، إلا أن الواقع يثبت عكس ذلك تماماً، سواء كان الإنسان حي أم ميت.
89. - الجزائريين الذين أخذتهم فرنسا إلى الخارج للقتال مع جنودها ضد ألمانيا، كلهم تم حرق جثثهم تطبيقاً للديانة السائدة في تلك المنطقة، ولم تحترم ديانة الجزائري، كما تم التنكيل بجثثهم من طرف الألمان، انتقاماً منهم لأنهم يقاتلون مع فرنسا ضدهم، وهنا لم يتم احترام القانون الدولي الإنساني.
90. - الحرب واقع لازم الإنسانية منذ بدء الخليقة، وهذا ما دلت عليه الحقائق التاريخية، حيث تذكر الإحصاءات أن 14000 حرباً اشتعلت خلال آخر 500 سنة من التاريخ، وتسببت هذه الحروب في موت العديد من بني البشر، لمزيد من التفاصيل أنظر: علاء سليمان سلمان، جدلية العلاقة بين القانون الدولي الإنساني والمحكمة الجنائية الدولية وأثرها على العلاقات الدولية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلاقات الدولية، كلية العلوم السياسية، قسم العلاقات الدولية، جامعة دمشق، سوريا، 2013-2013، ص 07.
91. - الانتهاكات الجسيمة للقانون الدولي هي أفعال مقصودة تقع من المتحاربين أثناء الحرب بالمخالفة لميثاق الحرب أي قوانين الحرب وعاداتها كما حددها العرف الدولي والمعاهدات الدولية، لمزيد من التفاصيل أنظر: بلخير طيب النظام القانوني لمسؤولية الدول في ظل أحكام القانون الدولي الإنساني، مرجع سابق، ص 286.

كفاءة الاتصال البيثقافي في المؤسسة

Intercultural Communication in the Enterprise

تاريخ القبول: 2019-12-18

تاريخ الإرسال: 2018-09-15

إيمان بهلول، جامعة باتنة 1
 behloul.imane@gmail.com
 كمال بوقرة، جامعة باتنة 1
 kamboug34@yahoo.fr

الملخص

تهدف هذه الورقة إلى توضيح مفهوم كفاءة الاتصال البيثقافي وأهم عناصره ، والمعوقات التي تحد من فعاليات الاتصال داخل الفرق المتعددة الثقافات ، هذا ما يقود إلى حدوث سوء الفهم ، والنزاعات مما يؤثر سلبا على المؤسسة ، ولإدارة هذه النزاعات هناك عدة أساليب تختلف من ؛ ثقافات السياق العالي إلى ثقافات السياق المنخفض ، فكل ثقافة تتبع أسلوب معين ، لإدارة هذه النزاعات داخل الفرق المتعددة الثقافات . وتخلص هذه الورقة إلى تطوير كفاءة الاتصال البيثقافي وذلك باستخدام العديد من المقاييس التي تؤدي إلى استجابات إيجابية ، وترفع من وجهات النظر المختلفة التي تساهم في الاتصال الفعال داخل فريق عمل متعدد الثقافات .

الكلمات المفاتيح: الاتصال البيثقافي ، كفاءة الاتصال البيثقافي ، ثقافة السياق العالي ، ثقافة السياق المنخفض ، المؤسسة .

Résumé

Le but de cet article est de clarifier le concept de compétence de communication interculturelle et de ses composants face aux obstacles qui limitent les activités de communication au sein des équipes multiculturelles, entraînant des malentendus et des conflits qui affectent négativement l'institution. Pour gérer ces conflits, il existe plusieurs méthodes qui varient en fonction de leur appartenance à des cultures à haut contexte ou à celles du bas contexte. Nous montrons comment chacune des deux cultures suit une méthode particulière pour gérer ces conflits au sein d'équipes multiculturelles. Nous concluons cet article par la nécessité de développer une communication interculturelle efficace, en utilisant plusieurs mesures qui répondraient positivement et contribuent à une communication efficace entre une équipe multiculturelle.

Mots-clés : Communication interculturelle, Efficacité de la communication interculturelle, Culture à contexte haut, Culture à bas contexte, Entreprise

Abstract

The aim of this paper is to explain the concept of intercultural communication competence, components and barriers that limit communication effectivity within multicultural team, this leads to misunderstandings and conflicts that negatively affect the institution. To manage these conflicts there are several methods that differ from high-context cultures to low-context cultures. Each culture follows a particular method for managing these conflicts within multicultural teams. This study shows the developing of intercultural communication competence by using many measures that led to the positive responses that help to communicate effectively with people from different cultures in multicultural team of work.

Keywords : Intercultural communication, Intercultural communication competence, High-context culture - Low-context culture, Enterprise.

مقدمة

1. أولا/ التطور التاريخي لحقل الاتصال البيثقافي

تعود جذور دراسة الاتصال البيثقافي إلى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، عندما هيمنت الولايات المتحدة الأمريكية بشكل متزايد على المسرح العالمي، غير أن الموظفين الحكوميين ورجال الأعمال العاملين في الخارج، وجدوا أنفسهم في كثير من الأحيان غير مؤهلين للعمل مع أشخاص من ثقافات مختلفة، فالتدريب اللغوي الذي تلقوه- على سبيل المثال- لم يعددهم جيدا للتحديات المعقدة للعمل في الخارج، وبناء على هذا أصدرت الحكومة الأمريكية في سنة 1946 قانون الخدمة الخارجية، وأنشأت معهد الخدمة الخارجية (FSI) والذي بدوره استدعى "إدوارد تي هول" وغيره من علماء الأنثروبولوجيا واللسانيات البارزين بما فيهم "راي بيردويستيل" و"جورج تراغر" لتطوير دورات تدريبية للعمال الأمريكيين في الخارج، لأن المواد العلمية للتدريب كانت نادرة، فقاموا بتطويرها، وبهذا شكل منظروا معهد الخدمة الخارجية طرق جديدة للنظر إلى الثقافة والاتصال، ومنه ولد حقل الاتصال البيثقافي¹.

يساهم العمل في فريق متعدد الثقافات في الابتكار والتطوير، مما يؤدي إلى رفع الإنتاج والمنافسة في السوق، إلا أن نجاح التواصل داخل هذا الفريق تهدده عدة معوقات ثقافية، ولغوية، تؤثر سلبا على المؤسسة وتؤدي إلى حدوث نزاعات، قد تسبب فشل وخسارة بعض المؤسسات؛ ليس بسبب منتجاتها، بل لقلة كفاءة عمالها في التواصل البيثقافي، فكفاءة تواصل أعضاء الفريق تساهم في التقليل من سوء الفهم، وإيجاد حلول للنزاعات عن طريق التفاوض ومنه كسب الوقت، والعمل في بيئة تقل فيها الشحنات السلبية، وتشجع على الإنتاج، والعطاء والابداع.

وستتطرق في هذه الورقة إلى التطور التاريخي لحقل الاتصال البيثقافي، وتحديد مفهومه، ثم نتحدث عن كفاءة الاتصال البيثقافي، من خلال تحديد مفهومه، وعناصره ومعوقاته، وكيفية تطوير كفاءة الاتصال البيثقافي في المؤسسة، باستخدام مقياس السلوك لتقييم الكفاءة الثقافية BASIC ومقياس الوصف، والتفسير، والتقييم D.I.E، ومقياس "ساموفار" Samovar.

جدول 1. أهم الأحداث في تطور حقل الاتصال البيثقافي

السنة	الحدث
1955-1950	تطوير النموذج الأصلي للاتصال البيثقافي من قبل إدوارد ت. هول وآخرون في معهد الخدمة الخارجية في واشنطن العاصمة.
1955	أول مقالة حول الاتصال البيثقافي من قبل هول بعنوان "أنثروبولوجيا الأخلاق" في مجلة العلوم الأمريكية.
1959	صدور أول كتاب بعنوان "اللغة الصامتة" لإدوارد هول
أواخر 1960	أول دروس للاتصال البيثقافي في الجامعات (مثال جامعة بيتسبرغ)، ونشر الفريد سميث (1966) لكتابه الاتصال والثقافة.
1970	أنشأت رابطة الاتصالات الدولية بالولايات المتحدة الأمريكية قسم الاتصال البيثقافي.
1972	تم نشر أول كتاب بعنوان: "الاتصال البيثقافي: القارئ" من قبل لاري أ. ساموفار وريتشارد. بورتز
1973	أول كتاب مدرسي في الاتصال البيثقافي بعنوان: "الاتصال البيثقافي" من قبل هارمس بجامعة هاواي.
1974	أول إصدار للتقارير السنوية للاتصال الدولي والثقافي؛ مجتمع التعليم والتدريب والبحث بين الثقافات.
1977	صدور مجلة دولية للعلاقات بين الثقافات بالولايات المتحدة الأمريكية.
1998	تأسيس الأكاديمية الدولية للعلاقات بين الثقافات بالولايات المتحدة الأمريكية.

Source: Everett M. ROGERS, William B. HART, and Yoshitaka MIKE, 'Edward T. Hall and The History of Intercultural Communication: The United States and Japan', Keio Communication Review 24 (January 2002): 14.

مع المغتربين بما في ذلك اللغة الصامتة (1973/1959) والبعد الخفي (1966/1982) وما وراء الثقافة (1976/1981) ورقصة الحياة (1983) وفي هذه الكتب قدم هول مفاهيم جديدة في هذا الحقل لا تزال تستخدم لليوم مثل: ثقافة السياق

يعتبر "إدوارد هول" رائد مجال الاتصال البيثقافي لأنه أول من نشر مقالة في الموضوع عام 1955 بمجلة العلوم الأمريكية حول "أنثروبولوجيا الأخلاق" ووسع كتاباته من خلال سلسلة من الكتب النابعة عن تجاربه الخاصة وتفاعلاته

ويعرف "لوستيغ وكوستر" Lustig & Koester الاتصال البيثقافي أيضا بأنه عملية رمزية أين درجة الاختلاف بين الناس كبيرة، ومهمة بما يكفي بقدر خلق تفسيرات، وتوقعات متباينة حول ما يعتبر أنها سلوكيات فعالة، ينبغي أن تستخدم لخلق معنى مشترك.⁹

وغالبا ما يستخدم مصطلح الاتصال البيثقافي وعبر الثقافات بالتبادل إلا أنها مختلفة، وقد وضع العالم الأنثروبولوجي "وليام جوديكونست" William Gudykunst في كتابه "دليل الاتصالات الدولية والبيثقافية" (2002) الفرق بين المصطلحين: فالبيثقافي ينطوي على الاتصال بين الناس من مختلف الثقافات (دراسة الخصائص الثقافية المحددة للناس المشاركين في التفاعل) بينما مصطلح عبر الثقافي ينطوي على المقارنة للاتصال عبر الثقافات (دراسة سلوك الثقافات المتعددة)، ومن هنا فإن الفرق يكمن في التفاعلات والمقارنات.¹⁰

ويميز "جوديكونست" الاتصال البيثقافي عن الاتصال عبر الثقافات من خلال طبيعة الدراسات، فبحوث الاتصال عبر الثقافات تتضمن مقارنة السلوك بين ثقافتين أو أكثر (على سبيل المثال مقارنة الإفصاح عن ما في الذات في اليابان والولايات المتحدة وإيران عند تفاعل الأفراد مع أفراد من ثقافتهم الخاصة)، وتنطوي بحوث الاتصال البيثقافي على فحص السلوك عند تفاعل أفراد من ثقافتين أو أكثر (مثال: دراسة الإفصاح عن ما في الذات عند تواصل اليابانيين والإيرانيين مع بعضهم البعض) ففهم الاختلافات عبر الثقافات في السلوك هو شرط أساسي لفهم السلوك بين الثقافات، لذا فإن الاتصال البيثقافي له علاقة بالتواصل عبر الثقافات.¹¹

3. ثالثا/ تعريف كفاءة الاتصال البيثقافي

تضيف العولمة مفاهيم جديدة إلى أدبيات مختلف التخصصات، وواحد منها هو كفاءة الاتصال البيثقافي، وهناك العديد من التعريفات لهذا المصطلح، قدمت من قبل مختصين في حقل الاتصال البيثقافي، والاختلاف في التعريفات يدل على أن المختصين في حد ذاتهم لا يتفقون في بعض القضايا؛ كالعناصر التي تشكل المفهوم، أو ما هي أهم عناصره؟

العالي² والمنخفض³، أبعاد الوقت الأحادية والثنائية، وبعد الفضاء الشخصي.⁴

لقد بدأ التدريب على الاتصال البيثقافي مع موظفي معهد الخدمة الخارجية وتم توسيعه في الستينات ليشمل كلا من الطلاب ورجال الأعمال، وفي الآونة الأخيرة أصبح التدريب يشمل على التنوع الذي ييسر الاتصال البيثقافي بين أفراد مختلف الفئات الجنسية والعرقية والإثنية، ولاسيما في أماكن العمل التابعة للشركات أو الحكومات.⁵

هناك عدة أحداث ساهمت في تطور حقل الاتصال البيثقافي يتم توضيح أهمها في الجدول التالي:

Source: Everett M. ROGERS, William B.

HART, and Yoshitaka MIIKE, 'Edward T. Hall and The History of Intercultural Communication: The United States and Japan', *Keio Communication Review* 24 (January 2002): 14.

2. ثانيا/ تعريف الاتصال البيثقافي

هناك العديد من التعريفات التي تصف الاتصال البيثقافي حسب التخصصات من بينها:

تعريف روجرز وستيفات Rogers and Steinfatt للاتصال البيثقافي: "هو تبادل المعلومات بين الأفراد الذين يختلفون ثقافيا." هذا التعريف مشابه لتعريف بيرري وآخرون Berry et al's حيث يعرفون الاتصال البيثقافي بأنه: "تبادل المعلومات اللفظية أو غير اللفظية بين أفراد شعوب الثقافات المختلفة."⁶

وقدم ساموفار وآخرون Samovar et al's تعريفا أكثر تفصيلا وركزوا على العناصر في العملية الاتصالية حيث أن: "الاتصال البيثقافي يتضمن التفاعل بين الشعوب التي تتميز بصورتها الثقافية وأنظمة رموزها الخاصة بالقدر الكافي لتغيير موضوع الاتصال."⁷

ويعرف كل من شان وتينغ-تومي Ting-Toomey & Chung "الاتصال البيثقافي بأنه عملية تبادل الرموز التي يحاول بموجبها أفراد من ثقافتين مختلفتين (أو أكثر) التفاوض حول المعاني المشتركة في حالة تفاعلية داخل نظام مجتمعي راسخ."⁸

1.4. السمات الشخصية

وتتمثل في السمات التي تشكل شخصية الفرد ، والتي هي عبارة عن نتاج تجارب فريدة لكل شخص داخل ثقافة ما ، إضافة إلى هذا فهي تتأثر دائما بـ : العامل الوراثي للفرد وغالبا ما تلعب هذه السمات دورا في تحديد عملية التفاعل ، وتشمل السمات الشخصية التي تؤثر على كفاءة الاتصال البيثقافي كلا من: مفهوم الذات ، الكشف عن الذات ، الوعي الذاتي ، والاسترخاء الاجتماعي.¹⁷

1.1.4. مفهوم الذات: حيث يصفه تشن وستاروستا

بأنه الطريقة التي يرى بها المرء نفسه ، وهناك جزء مهم من مفهوم الذات هو تقدير الذات أي ؛ كيفية تقييم المرء لنفسه ، فالشخص الذي يقدر نفسه يشعر براحة أكثر ليس فقط مع نفسه ، بل مع الآخرين أيضا.¹⁸

يُظهر "إيرليخ" أيضاً أن الأشخاص الذين يتمتعون باحترام كبير للذات هم أكثر عرضة للإحساس بالإيجابية تجاه الأشخاص خارج المجموعة مقارنةً بالأشخاص الذين يعانون من تدني احترام الذات.¹⁹

في حين يرى بعض العلماء جوانب أخرى لمفهوم الذات تؤثر على التواصل ، على سبيل المثال يشير كل من "فووت وكوتيريل" Foote & Cottrell إلى أنه يجب أن يكون لدى الشخص الكفاءة نظرة متفائلة ، فهذا يغرس الثقة أثناء التفاعل مع الآخرين ، ويرى "غاردنر" Gardner بأن الشخصية المستقرة والمنفتحة هي مفتاح التواصل البيثقافي الفعال ، في حين تبين دراسة أخرى لـ "هاريس" Harris أن السمات الشخصية مثل الاعتماد على الذات والمثابرة والثقة تتحد لتكون أحد أبعاد الاتصال البيثقافي.²⁰

2.1.4. الكشف عن الذات: وهي مدى استعداد الفرد

لتبادل المعلومات حول نفسه ، والاتصال البيثقافي بطبيعته لديه مستوى عال من عدم الوضوح ، والكشف عن الذات يمكن أن يساعد على التقليل من هذا الغموض،²¹ حيث أظهرت دراسة لـ "تشن" أن الكشف الذاتي هو أحد أبعاد الاتصال البيثقافي ، خاصة مدى عمق واتساع الكشف الذاتي ، وتساعد نتيجة هذه الدراسة على توضيح نموذج الاختراق الاجتماعي حيث تتطور العلاقات من مستوى سطحي إلى مستوى شخصي

يعرف "كوريلو" Kurylo كفاءة الاتصال البيثقافي

بأنها: استخدام الاتصال الفعال والمناسب في سياق تؤثر فيه المتغيرات الثقافية تأثيرا كبيرا على نتيجة التفاعل.¹²

ويعرف "تشن وستاروستا" Chen & Starosta كفاءة

الاتصال البيثقافي بأنه: التفاعل الفعال والمناسب بين الأفراد الذين ينتمون إلى بيئة معينة ، وهو القدرة على تنفيذ سلوك الاتصال بشكل فعال ومناسب للحصول على الاستجابة المرجوة في بيئة خاصة.¹³

ويعرف "ساموفير" وزملاؤه بأنه: "امتلاك القدرة على

التفاعل الفعال والمناسب ، مع أعضاء يمتلكون خلفيات لغوية وثقافية أخرى وفقا لتعبيراتهم."¹⁴

هذا التعريف لا يركز فقط على قدرة التعبير بشكل

فعال ، ومناسب ، بل يركز على ثقافة الغير على حد قوله

"خلفيات لغوية وثقافية أخرى" ، بالنسبة لساموفار وزملائه إن العناصر المهمة هي: الفاعلية ، والتناسب ، والخلفية اللغوية والثقافية ، هذا يعني أنه إذا أراد شخص ما أن يكون كفؤا في التفاعل البيثقافي يجب أن يكون اتصاله فعالا ، ويستخدم اللغة والإيماءات المناسبة ، ويكون على معرفة بالخلفية الثقافية للطرف الآخر.¹⁵

وأجرت "ديردورف" deardorff دراسة تضم فريقا

متكونا من 23 خبيرا دوليا في مجال الاتصال البيثقافي ، ومن خلال هذه الدراسة توصلوا إلى اتفاق حول الخصائص الرئيسية لمفهوم كفاءة الاتصال البيثقافي ، حيث عرفوا كفاءة الاتصال البيثقافي بأنه: "القدرة على الاتصال بشكل فعال ومناسب في المواقف المتعددة الثقافات بناء على معرفة الفرد لمختلف الثقافات ، ومهاراته ، وسلوكياته." هذا التعريف يعكس العناصر الهامة للاتصال والسلوك في حالة البيثقافي ، وللحصول على اتصال بيثقافي كفؤ يجب توفر العناصر التالية: التواصل الفعال والملائم ، ومعرفة الثقافة الأخرى ، ومعرفة الذات ، وقدرات الشخص وسلوكياته.¹⁶

4. رابعا/ عناصر كفاءة الاتصال البيثقافي

لفهم أفضل لكفاءة التواصل البيثقافي ، يجب دراسة

عناصره الرئيسية ، وفي هذا الشأن يقترح "تشن وستاروستا" أربعة عناصر هامة لكفاءة الاتصال البيثقافي وهي: السمات الشخصية ، مهارات الاتصال ، التكيف النفسي والوعي الثقافي.

1.2.4. مهارة الرسالة: تشمل مهارات الرسالة القدرة على استخدام الرسائل الوصفية والداعمة في عملية التفاعل؛ ويقصد بالرسائل الوصفية هي استخدام الملاحظات المباشرة بدلا من الحكم على السلوكيات الأخرى، هذا ما سيؤدي إلى تجنب ردة فعل دفاعية من نظيره، أما الرسائل الداعمة فهي شرط لاغنى عنه في التواصل الفعال، فالأمر يتطلب من الأفراد معرفة كيفية دعم الآخرين بفعالية عن طريق التواصل من خلال الإشارات مثل إيماءات الرأس، والاتصال البصري وتعابير الوجه،³⁰ كما أن مهارات الرسالة تنطوي على الإلهام الكافي بلغة الثقافة المضيفة وسلوكها غير اللفظي.³¹

2.2.4. مهارة مرونة السلوك: وهي القدرة على اختيار السلوك المناسب اللازم للتفاعل البيئتقاني،³² ويرى "ديران ووليس" Wheless & Duran أنه بالإضافة إلى مهارة المرونة في السلوكيات اللفظية وغير اللفظية، يجب أن تحتوي المرونة السلوكية على الشعور بالراحة أثناء التفاعل مع الناس من ثقافات مختلفة.³³

3.2.4. مهارة إدارة التفاعل: تعرف بكيفية المشاركة بشكل صحيح في المحادثة،³⁴ فهي القدرة على تبادل أدوار الحديث وبدء وإنهاء المحادثة بشكل مناسب، وبعبارة أخرى هي قدرة الأفراد على "التعامل مع الجوانب الإجرائية لهيكل المحادثة والحفاظ عليها"، هذا يعني معرفة كيفية تطوير موضوع الحديث بسلاسة أثناء التفاعل.³⁵

4.2.4. المهارات الاجتماعية: وتشمل التعاطف والحفاظ على الهوية؛ فالتعاطف هو القدرة على الإحساس بنفس عواطف الطرف الثاني أثناء طرح أفكاره، ووفقا لـ "باركس" Parks يجب على الشخص المتعاطف أن يظهر قدرته على "التنبؤ بدقة أو تمييز جوانب مختلفة من سلوك الآخرين"، ويرى "فايمان" Wiemann أن مهارة التعاطف يجب أن تشمل تبادل عرض العواطف، والاستجابات اللفظية التي تظهر الفهم والاستماع الفعال.³⁶

أما الحفاظ على الهوية فهي قدرة الأفراد على الحفاظ على هوية نظريهم، والأفراد الأكفاء ليسوا بحاجة إلى معرفة أنفسهم أثناء التفاعل فقط، بل هم في حاجة للسماح لنظرائهم بمعرفة من هم، ومن أجل تحقيق التفاعل يجب على الأشخاص الأكفاء أن يعرفوا كيفية الحفاظ على هوية نظرائهم،

أكثر، وهذا من خلال عمق واتساع المعلومات التي يكشف عنها الأفراد لنظرائهم.²²

3.1.4. الوعي الذاتي: وهي قدرة الفرد على امتلاك المعلومات المطلوبة اللازمة للقيام بسلوك كفو أثناء المحادثة، وهو أيضا القدرة على أن يكون الفرد على بينة من نفسه، وهذا يحسن من تكيفه مع الآخرين، لأن الفرد يصبح مدركا لسلوك الطرف الآخر،²³ ويساعد الوعي الذاتي الأفراد على تنفيذ السلوكيات ذات كفاءة في التفاعل والتكيف بشكل أفضل في الثقافات الأخرى.²⁴

ووفقا لـ "سنايدر" Snyder الأفراد الذين يتمتعون بوعي ذاتي عال دائما ما يكونون حساسين بشكل خاص لتعبيراتهم ولتعبيرات نظرائهم.²⁵

4.1.4. الاسترخاء الاجتماعي: تسمح هذه المهارة بمساعدة الفرد على جعل التفاعل بين الثقافات أكثر راحة،²⁶ حيث يفترض "غوديكونت وهامر" أن هناك سلسلة من الأزمت تحدث عادة في التجربة الأولى للأفراد الذين يقيمون في ثقافة المضيف، هذا ما يؤدي للقلق الذي ينبع من انعدام الأمن الذي هو نتيجة نفسية فورية تحدث عندما يكون الفرد في وضع جديد.²⁷

ويشير "كوباتش" إلى أن الأشخاص المسترخين اجتماعيا هم الأشخاص القادرون على التخلص من السلوكيات مثل العرق غير المبرر، الاهتزاز، الوضعية الجامدة، والحد الأدنى من الاستجابات عند التواصل مع أشخاص آخرين.²⁸ وترى "بارنا" Barna أن الفرد يكون فعالا في التواصل البيئتقاني عندما تكون لديه القدرة على القضاء على العقبات، ومن بينها الشعور بالقلق عند التواصل مع أفراد من ثقافات أخرى، كل هذا يظهر الدور المهم الذي يلعبه الاسترخاء الاجتماعي في التفاعل البيئتقاني.²⁹

2.4. مهارات الاتصال

تشمل كلا من السلوكيات اللفظية وغير اللفظية التي تجعل تفاعلات الأفراد ممكنة، وتشمل هذه السلوكيات على؛ مهارات الرسالة، مرونة السلوك، إدارة التفاعل، والمهارات الاجتماعية.

الشخص الذي يريد أن ينمي وعيه الثقافي أن يستثمر وقته وجهده للقيام بذلك.⁴¹

ويرى "أوليفر" Oliver أن كل ثقافة تظهر أنماط تفكير مختلفة، ومن المشاكل المتكررة في التواصل بين الثقافات هو سوء فهم أنماط التفكير، وليكون التواصل البيثقافي فعال يجب على الفرد أن يتعلم أولاً خصائص الثقافة المضيفة وخاصة أنماط تفكيرها، ويرى "هال" و"وايت" أن فهم الثقافة المضيفة يمكن أن تسمح للضيف بتغيير أنماط اتصاله لتتوافق مع إشارات أهل الثقافة المضيفة، فتغيير سلوك الفرد ليتوافق مع الثقافة المضيفة هو مفتاح الوصول لفهم مشترك.⁴²

5. خامسا/ معوقات كفاءة الاتصال البيثقافي

هناك العديد من المعوقات التي تحد من كفاءة العامل أثناء اتصاله داخل الفريق المتعدد الثقافات وتتمثل فيمايلي:

1.5. الصورة النمطية

يعرف "وايتلي وكايت" Kite & Whitley الصورة النمطية بأنها " رأي أو معتقد حول خصائص سلوك ومواقف أعضاء مختلف المجموعات"، لذا فالصورة النمطية هي صورة ذهنية موحدة يقيمها أفراد جماعة اجتماعية مبنية على آراء مفرطة التبسيط، وأحكام غير صحيحة، وغير قابلة للنقد.⁴³ يعرف كل من "أباتي بوكا وبوتشيارو" Abbate, Boca and Bocchiaro الصورة النمطية بأنها: بناء إدراكي يحتوي على معرفة، ومعتقدات، وتوقعات المتلقي حول بعض الفئات الاجتماعية البشرية.⁴⁴

الصورة النمطية يمكن أن تكون سلبية أو إيجابية، فالتى تشير إلى أن جماعة كبيرة من الناس على أنهم كسولون وخشنون وأغبياء هي صورة نمطية سلبية، أما الصورة النمطية الإيجابية فهي تفترض مثلا بأن الطلاب الآسيويين أذكياء ويعملون بجد، وفي كلتا الحالتين فإن الصورة النمطية تضيق تصوراتنا، وتعرض الاتصال البيثقافي للخطر، وتتخذ لهجة سلبية، ويرجع ذلك إلى أن القوالب النمطية تميل إلى الإفراط في تعميم خصائص جماعة من الناس.⁴⁵

وسواء كان الهدف من الصورة النمطية سلبى أو إيجابى، فهو يعيق التواصل الناجح لأنه يعمينا عن تحليل مجالات الفروق الرئيسية، فالالاتصال الفعال يعتمد على إيجاد وتوضيح مصادر الغموض فضلا عن تعلم التعامل مع المواقف

ويرى باركس أن الأفراد يتعلمون عادة القدرة على الحفاظ على هوياتهم من خلال تجاربهم، ويجب أن يكون استخدام مهارة الحفاظ على الهوية قابلا للتغيير وفقا للمواقف المختلفة والأهداف الشخصية المختلفة.³⁷

ومن هنا المهارات الاجتماعية تنطوي على معرفة شعور الطرف الآخر، وفهم الفرد لهويته وهوية الآخرين.³⁸

3.4 التكيف النفسي

وهو قدرة الشخص على التعامل مع التوتر الذي يأتي بسبب تواجده في بيئة جديدة، ففي البداية قد يشعر الفرد بالإحباط، والاعتراب، والغموض عند محاولة تكيفه مع الثقافة الجديدة، وقد يحدث الإحباط عندما يتوقع الفرد أن يرى شيئا مألوفاً ولكن بدلا عنه يرى شيئا غير مألوف، أو قد يشعر المرء بالغرابة عندما لا يفهم ببساطة الفروق الدقيقة في اللغة الأجنبية، هذه بعض المشاعر التي قد تواجه الفرد عند التكيف مع ثقافة مختلفة، لكن مع الوقت والصبر يمكن للمرء أن يتكيف في الأخير.³⁹

يرى "هامر" أن القدرة على التعامل مع الضغوط النفسية في بيئة جديدة هو أحد العناصر الرئيسية لكفاءة الاتصال البيثقافي، وتشمل هذه القدرة على مهارات لازمة للتعامل بفعالية مع الإحباط، والصراع بين الأشخاص، والضغط، والصعوبات المالية، والاعتراب الاجتماعي، والنظم السياسية المختلفة، والقلق العام، وتبين هذه الصفات الجماعية أن الشخص الذي تكيف جيدا من الناحية النفسية، يمكن أن يتعامل بفعالية مع مشاعر التوتر، والإحباط، والاعتراب والمواقف الغامضة في ثقافة جديدة، والتكيف النفسي الفعال هو متغير رئيسي للكفاءة في التفاعل البيثقافي.⁴⁰

4.4 الوعي الثقافي

يشير إلى فهم أعمق واستجابة للثقافة الجديدة، هذا النوع من الوعي يستغرق وقتا لأنه لا يكمن في معرفة أمور عن الثقافة الجديدة فقط، ولكن الأمر ينطوي على إدراك لما هو غير سطحي، فعندما يكون المرء جديدا على ثقافة ما، فإنه يلاحظ أمورا مثل الموضة، الموسيقى، الغذاء، الهندسة المعمارية، وسلوك الناس، وليس المعاني العميقة التي يمكن ملاحظتها مثل القيم الاجتماعية، التقاليد، والمعايير والأنظمة، وعلى

للمعرفة ، والطريقة التي نفكر بها ونتصرف بها ، والانطباع الذي نشكله عن الآخرين.⁵¹

وتعد التصورات من أعظم مشاكل الاتصال البيثقافي فهي تنشأ عن عدم التطابق والاختلافات في الإطار المرجعي ، حيث يشير كل من "ستاكس هيل وهيكسون" Stacks Hill and Hickson إلى أن "الاتصال يجمعنا معا والتصورات تميل إلى فصلنا عن بعضنا البعض." ولذلك فإن الهدف من التواصل الفعال بين الثقافات هو التفاوض وخلق معنى مشترك من خلال فهم تصورات بعضنا البعض.⁵²

وللحد من التأثير السلبي لهذه التصورات على عملية الاتصال البيثقافي يجب أن ينظر إلى التعميمات الثقافية على أنها تقريبية ، وليست كتصورات مطلقة ، وكما يقول الكاتب الإنجليزي "روبرت بيرتون" Robert Burton: "لا توجد قاعدة عامة ، لا تعرف بعض الاستثناءات".⁵³

4.5. النزعة العرقية

يشرح كل من "ناندا ووارمز" Nanda and Warms مصطلح النزعة العرقية بأنه عبارة عن: "فكرة أن ثقافتنا متفوقة على أي ثقافة أخرى ، وأن الثقافات الأخرى يجب أن تقاس بالدرجة التي ترقى إلى معاييرنا الثقافية ، فنحن نتمركز عرقيا عندما ننظر إلى الثقافات الأخرى من خلال العدسة الضيقة لثقافتنا أو مركزنا الاجتماعي" وهذه العدسة الضيقة هي التي تربط النزعة العرقية ، بمفهوم الصورة النمطية ، والأحكام المسبقة ، والتمييز.⁵⁴

يمكن أن تكون هناك عواقب وخيمة على الفرد الذي لديه نزعة عرقية ويحاول ممارسة التواصل الناجح بين الثقافات ، وأحد هذه العواقب الشخصية هو القلق ، ويرجع "غامبل" Gamble السبب إلى أنه "كلما كانت نزعتك للعرقية كبيرة كلما قلقت أكثر حول تفاعلك مع الثقافات الأخرى ، وعندما نشعر بالقلق ، فإننا أقل احتمالا لتوقع نتيجة إيجابية من هذه التفاعلات ، وأقل استعدادا للثقة بشخص ما من ثقافة أخرى".⁵⁵

والتحدي الحقيقي في الاتصال البيثقافي يأتي من النزعة العرقية الخفية ، التي لا يتم التعبير عنها علنا ويصعب كشفها ، إنها موجودة في عقل المرء ، ومع ذلك فإنه نادرا ما يطعن فيها ، فكل شخص ذو اتجاه عرقي إلى حد ما ، على الرغم

التي يحدث فيها سوء الفهم ، ومن الصعب الوصول إلى هذا التوضيح ، لأن المحلل لا يعترف باختلاف المجالات بين المشاركين ، لأنه يفترض خلفية عامة وفهم مشترك.⁴⁶ وللحد من الصورة النمطية تقترح "أدلر" Adler إستراتيجية يتم تطبيقها أثناء العمل مع ثقافات مختلفة ؛ حيث يجب التركيز على الوصف بدلا من التفسير ، والتقييم ، ففي عملية وصف الثقافة بدلا من تقييمها يتم التقليل من الرضى الذاتي للصورة النمطية والأحكام السابقة لأوانها فالتواصل الفعال بين الثقافات يستلزم التفاعل مع الحقائق البديلة ويرفض الهيمنة الفعلية أو المحتملة لواقع واحد على الآخر.⁴⁷

2.5. التعصب

يعرف "ماشونيز" Macionis التعصب بأنه: "يجمع بين التعميم المتمزمت وغير العقلاني حول فئة من الناس ، فالتعصب أمر غير عقلاني ، إلى حد أن الناس يتخذون مواقف غير مرنة ، تدعمها أدلة قليلة أو معدومة ، وقد يستهدف التعصب أشخاصا ينتمون إلى فئة اجتماعية معينة ، أو نوع جنس ، أو ميولات جنسية ، أو السن ، أو الانتماء السياسي ، أو العرقي أو الإثني".⁴⁸

في سياق الاتصال ، وفقا لـ "روشار" Ruscher فإن المشاعر ، والمواقف السلبية التي يقوم بها المتعصبون ، غالبا ما تظهر من خلال استخدام التسميات الجماعية ، الفكاهة العدائية ، أو الكلام الذي يدعي تفوق مجموعة على الأخرى ، وكما هو واضح فإن العداء تجاه الآخرين هو جزء لا يتجزأ من التعصب ، وهذه المشاعر غالبا ما تحتوي على الغضب ، الخوف ، النفور والقلق مما يؤثر سلبا على الاتصال البيثقافي.⁴⁹ إن تجنب التعصب ليس مهمة سهلة لأنه مثل معظم جوانب التصور الثقافي ، ويتم تعلم التعصب الثقافي والعرقي في وقت مبكر ، كما يتعزز من خلال التعرض المستمر لمثل هذه الأفكار ، ومع ذلك فقد كشفت الأبحاث أن هناك اثنين من التقنيات غالبا ما تكون ناجحة في تبديد الآراء المتعصبة وهي: الاتصال الشخصي والتعلم حول الثقافات الأخرى.⁵⁰

3.5. التصورات

التصور هو عملية اكتساب وتنظيم وتفسير أي معلومة حسية ، التي تشكل من تجاربنا السابقة وقيمنا الثقافية ومعتقداتنا وتنشئتنا الاجتماعية ، ويمكن أن تؤثر على تلقينا

ثانياً: في النزاع الإنتاجي يحد الأفراد أو الجماعات النزاع في القضية الأصلية، بينما في النزاع المدمر فيتم تصعيد النزاع عن القضية الأصلية.

ثالثاً: في النزاع الإنتاجي يوجه الأفراد أو الجماعات النزاع نحو حل مشترك للمشكلة، في المقابل تنطوي استراتيجيات النزاع المدمر على استخدام السلطة، التهديدات، الإكراه والخداع.

رابعاً: في النزاع الإنتاجي يثق الأفراد أو الجماعات بالقيادة التي تؤكد على النتائج المرضية للطرفين، وفي النزاع المدمر فإنها تسير وراء قيادة أحادية التفكير ومتشدة.⁶¹

بما أن الاتصال يختلف بين الثقافات، فإن الأبعاد المفهومية للنزاع وكيف يؤثر النزاع على العلاقات الشخصية قد يكون أيضاً يختلف من ثقافة السياق العالي إلى ثقافة السياق المنخفض،⁶² فوفقاً لـ "تينغ-تومي" "الناس في ثقافة السياق المنخفض قادرين على فصل قضايا النزاع عن الشخص المتورط في النزاع، بينما النزاعات في ثقافة السياق العالي ترتبط دائماً بالأشخاص." حيث ينظر الناس في الثقافات ذات السياق المنخفض إلى النزاعات باعتبارها مفيدة في الطبيعة، وعلى العكس ينظر الناس في الثقافات ذات السياق العالي عادة إلى النزاعات على أنها تعبيرية في طبيعتها وتتصل بالمشاعر والتوتر الشخصي.⁶³

وفي ثقافات السياق العالي يعد الاختلاف مع شخص بشكل علني أو مواجهه أمام الناس هو عبارة عن إهانة شديدة، مما يسبب لكلا الجانبين إنقاص لماء الوجه، بشكل خاص في حالة التفاعلات بين الرؤساء والمرؤوسين، فالأفراد في الثقافات ذات السياق العالي ينظرون إلى حالة النزاع على أنها موجهة بشكل صريح، بالنسبة لهم قضية النزاع وطرف النزاع هو نفسه، ويصعب الفصل بينهما، لذا ففي ثقافات السياق العالي يفترض أن الأفراد يشاركون في عملية معيارية من الحساسية المتبادلة تجاه بعضهم البعض، ويصنف الأفراد في ثقافات السياق المنخفض النزاع على أنه موجه أساساً ليكون فعالاً.⁶⁴

وفي ثقافات السياق المنخفض يتضمن المنهج التقليدي لإدارة النزاع على مواجهة الخلاف وإجراء مناقشات مفتوحة بشأن المسألة، أما في ثقافة السياق العالي يحاول الناس تجنب النزاعات، وعادة هم لا يختلفون، ويعبرون بسلوك جد مهذب ولين، ففي الثقافات التي يكون فيها حفظ

من أن معظم الناس يعتقدون أنهم منفتحون ومتسامحون ويضعون في اعتبارهم القضايا الثقافية.⁵⁶

ومن المعقول أن نفترض أن جماعتنا أو ثقافتنا متفوقة على الآخرين لأن عملية التثقيف من خلال التربية، التعليم، التاريخ والتنشئة الاجتماعية قد برمجت عقولنا بطريقة في أغلبها لا نعرف "النقاط العمياء".⁵⁷

وللحد من النزعة العرقية يجب على الفرد أن يكون منفتحاً على الآراء الجديدة، ويرى "تريانديس" Triandis أننا عندما نحكم بأن ثقافتنا هي في بعض الطرق الأفضل من الآخرين، يجب أن نتعلم تتبع هذه الأحكام بسؤالين: هل هذا صحيح حقاً؟ ما هي الأدلة الموضوعية؟ فالافتقار المعرفي هو سبب رئيسي من أسباب النزعة العرقية.⁵⁸

6. سادساً/ كفاءة الاتصال البيثقافي والنزاعات

إن الإدارة الجيدة للفرق المتعدد الثقافات يمكن أن تحقق عدداً من المزايا الرئيسية تتمثل في انخفاض تكلفة التشغيل في الأسواق العالمية، والحصول على المواهب المختصة الماهرة، وزيادة القدرة على حل المشاكل، وزيادة إمكانية أن تصبح المنظمة عالمية، وسرعة العمليات والحصول على المعرفة والمعلومات والمزيد من الفرص لتشكيل التحالفات.⁵⁹

إلا أنه في حالة تعدد الثقافات، يمكن أن تحدث نزاعات في كثير من الأحيان بسبب غموض العلاقات بين الناس من مختلف الثقافات، حيث لديهم طرق مختلفة للتعبير ولتفسير الرموز النفسية، ووفقاً لـ "تينغ-تومي" فإن جوانب الاتصال البيثقافي مثل الحواجز اللغوية، الاختلافات اللفظية وغير اللفظية، والاختلافات الثقافية والقيمية، وسوء الفهم بين الثقافات يمكن أن يسهل بدأ نزاعات بين الأشخاص،⁶⁰ وهناك نوعين من النزاع البيثقافي حسب الباحث "ديفيد أوغسبرغر" David Augsburger النزاع الإنتاجي، والنزاع المدمر، ويختلفان في عدة نواحي:

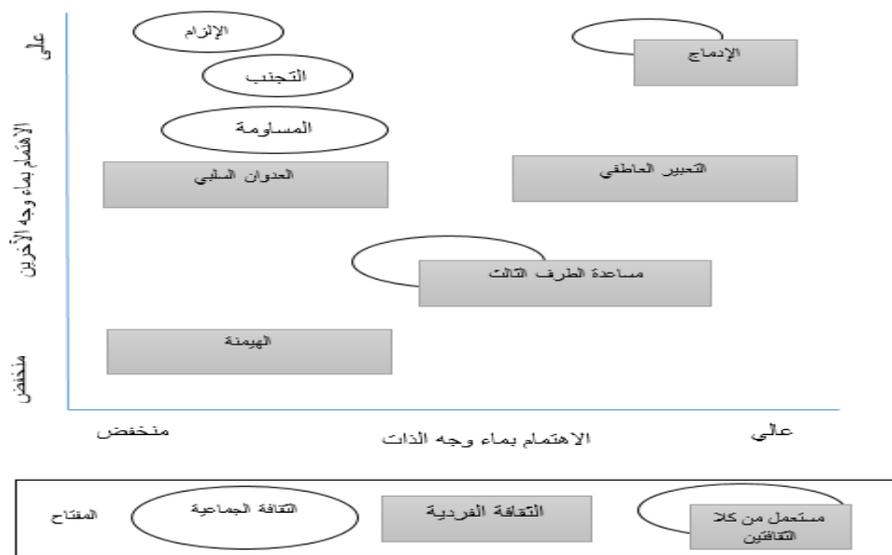
أولاً: في النزاع الإنتاجي الأفراد أو الجماعات يضيقون النزاع من حيث المفهوم، التركيز والقضايا، بينما في النزاع المدمر فإنهم يصعدون من القضايا أو المواقف السلبية.

والإدماج ، بينما الثقافات الفردية (السياق المنخفض) تحذب التعبير العاطفي ، العدوان السلبي ، الهيمنة ، الإدماج ومساعدة الطرف الثالث.⁶⁶

ويتم تصنيف أسلوب التجنب تقريبا كأسلوب الإلزام (إلزام الفرد الاهتمام بأشخاص آخرين) ، أما أسلوب مساعدة الطرف الثالث فيستخدم في الثقافات الجماعية بشكل مختلف عن الثقافات الفردية: ففي الثقافات الجماعية يذهب طرفا النزاع إلى شخص محبوب تربطهما علاقة به ، أما في الثقافات الفردية يذهب طرفا النزاع إلى وسيط مستقل ، أما بالنسبة لأسلوب الإدماج فعندما يتم تبنيه من قبل الثقافة الجماعية يركز على التعاون على المستوى العلائقي ، في حين الثقافات الفردية تركز على القيام بالمهمة وإنهاء العلاقة.⁶⁷

هذا النموذج يفترض أن الناس من ثقافة معينة تفسر صورتهم الذاتية بما تتفق مع الطبيعة الجماعية أو الفردية للمجتمع.⁶⁸

شكل رقم 1: بوض أساليب إدارة النزاعات العالمية



Source: Dainton, M. and Zelley, E.D. (2011) *Applying Communication Theory for Professional Life: A Practical Introduction*, USA: Sage, p 201.

1.7. الأداة الأولى: هي مقياس السلوك لتقييم الكفاءة الثقافية BASIC وهي أداة لفحص سلوك الاتصال الفعلي للشخص ، ويحتوي على ثمانية خطوات:⁶⁹ أولاً. عرض الاحترام: إظهار الاحترام للشخص الآخر.

ماء الوجه ذو قيمة عالية مثل اليابان وماليزيا يمكن أن تضر حالات النزاع العلاقات الشخصية والمهنية ، وفي هذه الثقافات إذا تم حل النزاعات بطريقة مباشرة وأمام الملام يمكن أن يسبب الخجل وردود فعل سلبية ، لذا لا بد من إدارة النزاع بطريقة غير مباشرة ولبقة ،⁶⁵ وتشرح "تينغ-تومي" الاختلافات الثقافية في الاستجابة للنزاع ؛ فالثقافات الجماعية (السياق العالي) تسعى إلى الحفاظ على ماء وجه الجماعة بالدرجة الأولى ثم ماء وجه الفرد ، بينما في الثقافات الفردية (السياق المنخفض) يسعى الفرد على الحفاظ على ماء وجهه ولو على حساب الآخرين ، وفي هذه الثقافة يكون ماء وجه الجماعة بمثابة ثانوية أو لا يكون له اعتبار أساساً.

ولقد حددت "تينغ-تومي" نموذج للتفاوض يحتوي على أساليب لإدارة النزاع بين مختلف الثقافات وهي موضحة في الشكل رقم 1 ؛ فالثقافات الجماعية (السياق العالي) تحذب التجنب ، الإلزام ، المساومة ، مساعدة الطرف الثالث ،

7. تطوير كفاءة الاتصال البيئتقافي

عرض "لوستيغ وكوستر" و "ساموفير" أدوات لمساعدة الشخص ليصبح كفؤاً في الاتصال البيئتقافي.

فالتصريحات الوصفية توضح تفاصيل المعلومات التي تلقاها الشخص ، دون أحكام أو تفسيرات ، بعبارة أخرى دون أن يشوهها الرأي ، وتقدم تصريحات التفسير تخميناً أو فرضية حول ما قد تعنيه المعلومات الإدراكية ، بينما تشير عبارات التقييم إلى حكم عاطفي أو وجداني حول المعلومات.⁷²

الغرض من تقديم تصريحات وصفية عند التواصل بين الثقافات هو أن تسمح لك بتحديد المعلومات الحسية التي تشكل أساس التفسيرات والتقييمات الخاصة بك ، كما تسمح لك التصريحات الوصفية بدراسة فرضيات أو تفسيرات بديلة ، أما بالنسبة للتفسيرات وإن كانت شخصية للغاية فهي تتأثر كثيراً بالأنماط الثقافية الكامنة ، في بعض الأحيان عندما تشارك في تواصل بينثقافي مع أشخاص معينين أو جماعات من الأشخاص لفترة طويلة من الزمن ، سوف تكون قادراً على اختبار العديد من التفسيرات للسلوكيات الذي كنت تفكر فيها ، ومن الممكن أيضاً تفادي التقييمات التي يمكن أن تؤثر سلباً على تفاعلاتك.⁷³

إن أداة الوصف ، والتفسير ، والتقييم ، تزيد من تعدد وجهات نظرك ، والاستجابة الإيجابية ، والتصرف ، بشكل مناسب مع الناس من ثقافات مختلفة ، وإن بساطة هذه الأداة تجعلها متاحة في أي ظرف ، وقد تسمح للمتفاعل البيثقافي بتعليق الحكم طويلاً بما فيه الكفاية لفهم الرموز المستخدمة من قبل الثقافة المعينة.⁷⁴

3.7. الأداة الثالثة: يقترح "ساموفار" لتطوير كفاءة الفرد في الاتصال البيثقافي أن يكون:

أولاً: على بينة من ثقافته ، وهذا يعني أنه يجب أن يفهم ثقافته الخاصة لأنها تعطيه الكثير من المعلومات حول المعتقدات والسلوك والقيم التي يحملها الآن من أين تأتي. ثانياً: دراسة فحص مواقفه الشخصية ، أو فحص المواقف الخاصة به ، وصوره النمطية ، والآراء التي تؤثر على طريقة رؤيته للثقافات الأخرى ، وإدراكه لهذه الأشياء يساعده على فهم سبب اتصاله بالطريقة التي يفعلها مع الثقافات الأخرى.

ثالثاً: فهم أسلوب الاتصال الخاص به (مهيمن ، دراماتيكي ، متفتح ...) لمعرفة كيفية تواصله مع الآخرين ، وكيف ينظر الآخرين إلى هذا الاتصال.

ثانياً. التوجه للمعرفة: إظهار بأن الشخص يدرك بأن الناس يختلفون ولا يجب أن يحكم عليهم وفقاً لأصولهم الثقافية.

ثالثاً. التعاطف: إظهار فهم الشخص لمشاعر الآخرين. رابعاً. التفاعل الإداري: إظهار مهارات إدارة تبادل الحوار أثناء الحديث.

خامساً. أنشطة حل مشكلات الجماعة: الإظهار من خلال السلوك بأن الشخص مرتاح في العمل مع الآخرين في أنشطة حل مشكلات الجماعة.

سادساً. دور السلوك: إظهار بأن المرء مهتم إزاء الانسجام بين الأفراد.

سابعاً. تقبل الغموض: إظهار بأن الفرد يمكنه التعامل مع الغموض ، وأنه قادر على التكيف مع المشاعر التي تأتي مع الغموض.

ثامناً. موقف التفاعل: استخدام الإجراءات غير التقييمية وعدم إصدار الأحكام أثناء الاستجابة للآخرين ، وهذا يتطلب استعمال الرسائل الوصفية بدلاً من الرسائل التفسيرية أو التقييمية ، وهذه الخطوة الأخيرة يتم شرحها بشكل أفضل في الأداة الثانية ، الخاصة بـ D.I.E

2.7. الأداة الثانية: هي مقياس D.I.E

(Interpretation, Evaluation, Description) وتعتمد على الوصف والتفسير والتقييم ؛ حيث يطلب من الناس مراقبة شيء غير عادي أو صورة لمشهد غير مألوف ، ثم وصف ما يرونه ، وتفسير المعاني الممكنة ، وأخيراً تقييمه من خلال إعطاء أحكامهم القيمة.⁷⁰

وهذه الأداة تعدّ ممتازة للكشف عن الأحداث الغامضة في بيئة جديدة ، حيث إنّ الشخص الغريب يصف ما يحدث من حيث الموضوعية دون الحكم ، ثم يحدد التفسير المحتمل للحدث من منظور الثقافة المضيفة ، وأخيراً يقيم الشخص الغريب مختلف التفسيرات المحتملة للحدث ، وللحصول على قلب التفسير ينطوي على طرح أسئلة للذين لديهم خبرة أكبر في البلاد و/أو السكان المحليين.⁷¹

هذه المهارة تدرب الشخص على التمييز بين تصريحات الوصف والتفسير والتقييم ، هذه التصريحات يمكن أن تكون حول كل من الخصائص ، الأحداث ، الأشخاص أو الأشياء ،

العاملة بشكل مترابط أن تفوق أداء ألمع الأفراد وأكثرهم قدرة.⁷⁶

استنتاجات

إن وجود العديد من المعوقات التي تقف دون كفاءة الاتصال البيثقافي في المؤسسة يؤدي إلى حدوث نزاعات بين أفراد الفريق المتعدد الثقافات ، مما يؤثر سلبا على الجو العام وعلى الإنتاجية ، وطرق حل هذه النزاعات تختلف من ثقافة إلى أخرى ، فإتباع الأسلوب المناسب مع نوع الثقافة سواء من السياق العالي أو السياق المنخفض في حل النزاع مهم جدا وإلا زدنا من حدة النزاع بدلا من حله ، وعليه فان على أفراد الفريق تطوير كفاءتهم في الاتصال البيثقافي من خلال مجموعة من المقاييس BASIC ، DIE ومقياس "ساموفار" ، مع الحرص على عمل دورات تدريبية للعمال.

رابعا: مراقبة نفسه حيث يجب أن يكون على دراية بكيفية تصرفه وأن يتقبل طريقة استجابة الناس لسوكه.

خامسا: يجب أن يكون متعاطفا أو يحاول أن يحس كيف يشعر الآخرون ، ويعمل على تحسين هذا من خلال أن يكون منتهبه ويتواصل مع مشاعره ، ويستخدم السلوكيات المقبولة فقط ، ويتعلم قبول الاختلافات.

سادسا: يجب عليه ممارسة الاستماع الفعال ، ويحاول الاستماع جيدا للحد من سوء الفهم وخصوصا عند التفاعل مع ثقافات أخرى.

سابعا: تطوير مرونة الاتصال وهي امتلاك القدرة على تكيف سلوكه مع الناس من ثقافات مختلفة ، وهذا يدعو أيضا إلى التسامح وعدم إصدار الأحكام عند مواجهة الخلافات.⁷⁵

يمكن لعملية تطوير كفاءة فريق متعدد الثقافات أن تعالج العديد من التحديات التي تواجه الفرق المتعددة الثقافات ، وتؤدي إلى تحسين أداء الفريق ، ويمكن للفرق التهميش:

الهوامش

1. Martin, J.N and Nakayama, T.K. (2010), *Intercultural Communication in Contexts*, New York: McGraw-Hill, pp 45, 46.
2. ثقافة السياق العالي: هي الثقافة التي يتجلى فيها معنى الرسالة في حالة الاتصال وفي العلاقة بين المتصلين أو يتم استيعابها في ظل معتقدات وقيم ومعايير الفرد.
3. ثقافة السياق المنخفض: هي الثقافة التي يتجلى فيها معنى رسالة الاتصال بالقول الواضح والصريح ، دون الاعتماد على سياق حالة الاتصال.
4. Chen, L. (2017) *Intercultural Communication*, vol. 9, Handbooks of Communication Science, Germany: De Gruyter, p 22.
5. Martin, J.N and Nakayama, T.K. Op.cit., p 46.
6. Rogers, M and Steinfatt M. (1999), *Intercultural communication*, Illinois: Waveland Press, p 1.
7. Samovar, L.A, Porter, R.E and McDaniel, E.R. (2010), *Communication Between Cultures*, USA: Wadsworth Publishing, p 12.
8. Stella, T.T and Chung, L. (2012), *Understanding Intercultural Communication*, New York: OUP, p 24.
9. Lustig, M.W and Koester, J. (1996), *Intercultural Competence : Interpersonal Communication across Cultures*, New York : HarperCollins College Publishers, p 50.
10. Tuleja, E.A. (2017), *Intercultural Communication for Global Business: How Leaders Communicate for Success*, New York: Taylor & Francis, p 20.
11. Kotthoff, H and Spencer-Oatey .H. (2007), *Handbook of Intercultural Communication*, New York: Walter de Gruyter, p 1.
12. Kurylo, A. (2012), *Inter/Cultural Communication: Representation and Construction of Culture*, USA: Sage, p 49.
13. Croucher, S.M. (2017), *Global Perspectives on Intercultural Communication*, New York: Taylor & Francis, p250.
14. Samovar, Porter, and McDaniel. Op.cit., p 384.
15. Croucher, S.M. Op.cit., p 250
16. Ibid. 253.
17. .17 Chen, G. M. (2009) 'Intercultural Communication Competence: Some Perspectives of Research', Howard Journal of Communications, 2, no. 3, pp 248, 249.
18. .18 Croucher, S.M. Op.cit., p 254.
19. .19 Chen, G. M. Op.cit., p 249.
20. .20 Ibid., 249.
21. Croucher, S.M. Op.cit., p 254.
22. .22 Chen, G. M. Op.cit., pp 249, 250.
23. Croucher, S.M. Op.cit., p 254.
24. .24Chen, L. Op.cit., p 66.
25. .25 Ibid., 250.
26. Croucher, S.M. Op.cit., p 254.
27. .27 Chen, G. M. Op.cit., p 250.
28. .28Chen, L. Op.cit., p 66.
29. .29 Chen, G. M. Op.cit., p 250.
30. .30 Ibid., 251.
31. Croucher, S.M. Op.cit., p 254.
32. .32 Ibid., 254.
33. .33 Chen, G. M. Op.cit., p 252.
34. Croucher, S.M. Op.cit., p 254.
35. .35 Chen, G. M. Op.cit., p 252.
36. .36 Ibid., 253.
37. .37 Ibid., 253.
38. Croucher, S.M. Op.cit., p 254.
39. .39 Ibid., 255.
40. .40 Chen, G. M. Op.cit., p 255.

41. Croucher, S.M. Op.cit., p 255.
42. .42 Chen, G. M. Op.cit., p 255.
43. Patel, F, Li, M and Sooknanan, P. (2011), *Intercultural Communication: Building a Global Community*, USA: Sage, p 29.
44. Samovar, Porter, and McDaniel. Op.cit., p 170.
45. Ibid.
46. Scollor, R and Scollon, S.W. (2001) *Intercultural Communication: A Discourse Approach*, *Language in Society* 21, USA: Wiley-Blackwell, p 174.
47. .47Clausen, L. (2006) *Intercultural Organizational Communication: Five Corporate Cases in Japan, Denmark: Copenhagen Business School Press*, p 60.
48. Samovar, Porter, and McDaniel. Op.cit., p 173.
49. Ibid.
50. Samovar, Porter, and McDaniel. Op.cit., p 176.
51. Patel, Li, and Sooknanan. Op.cit., p 34.
52. Ibid.
53. Samovar, Porter, and McDaniel. Op.cit., p 42.
54. Samovar, Porter, and McDaniel. Op.cit., p.p 179, 180.
55. Ibid. p 181.
56. Patel, Li, and Sooknanan. Op.cit., p 33.
57. Ibid.
58. Samovar, Porter, and McDaniel. Op.cit., p 182.
59. Matveev, A.V. (2017) *Intercultural Competence in Organizations: A Guide for Leaders, Educators and Team Players*, *Management for Professionals*, USA: Springer International Publishing, p 101.
60. Ibid., 91,92.
61. Martin, J and Nakayama, T. (2010) *Intercultural Communication in Contexts*, New York: McGraw-Hill, p.p 447,448.
62. Volodymyr, G and Nataliya, G. (2010) *A Glossary of Intercultural Communication*, Ukraine: Ivano-Frankivsk, p.p 29, 36.
63. Matveev. Op.cit., p 93.
64. Earley, P.C and Ang, S. (2003) *Cultural Intelligence: Individual Interactions Across Cultures*, California: Stanford University Press, p 106.
65. Matveev. Op.cit., p 95.
66. Griffin, E. (2012) *A First Look at Communication Theory*, USA: McGraw-Hill Education, p 417.
67. Griffin. Op.cit., p 418.
68. Ibid.
69. Croucher. Op.cit., p 257.
70. Berardo,K, Deardorff, D.K and Trompenaars, F. (2012) *Building Cultural Competence: Innovative Activities and Models*, USA: Stylus Publishing, p 53.
71. Remland, M.S et al., (2014) *Intercultural Communication: A Peacebuilding Perspective*, USA: Waveland Press, p 329.
72. Lustig, M.W and Koester, J. (2010) *Intercultural Competence : Interpersonal Communication across Cultures*, Boston : Allyn & Bacon, p 77.
73. Ibid., 78,79.
74. Ibid., 80.
75. Croucher. Op.cit., p 257.
76. Matveev. Op.cit., p 95.

قائمة ببليوغرافية

1. Berardo,K, Deardorff, D.K and Trompenaars, F. (2012) *Building Cultural Competence: Innovative Activities and Models*, USA: Stylus Publishing.
2. 2- Clausen, L. (2006) *Intercultural Organizational Communication: Five Corporate Cases in Japan, Denmark*: Copenhagen Business School Press.
3. Chen, G. M. (2009) 'Intercultural Communication Competence: Some Perspectives of Research', *Howard Journal of Communications*, 2, no. 3.
4. Chen, G. M. (1992), A test of intercultural communication competence. *Intercultural Communication Studies*.
5. Chen, L. (2017) *Intercultural Communication*, vol. 9, *Handbooks of Communication Science*, Germany: De Gruyter.
6. Croucher, S.M. (2017), *Global Perspectives on Intercultural Communication*, New York: Taylor & Francis.
7. Earley, P.C and Ang, S. (2003) *Cultural Intelligence: Individual Interactions Across Cultures*, California: Stanford University Press.
8. Griffin, E. (2012) *A First Look at Communication Theory*, USA: McGraw-Hill Education.
9. Kotthoff, H and Spencer-Oatey .H. (2007), *Handbook of Intercultural Communication*, New York: Walter de Gruyter.
10. Kurylo, A. (2012), *Inter/Cultural Communication: Representation and Construction of Culture*, USA: Sage.
11. Lustig, M.W and Koester, J. (1996), *Intercultural Competence : Interpersonal Communication across Cultures*, New York : HarperCollins College Publishers.
12. Lustig, M.W and Koester, J. (2010) *Intercultural Competence : Interpersonal Communication across Cultures*, Boston : Allyn & Bacon.
13. Martin, J.N and Nakayama, T.K. (2010) *Intercultural Communication in Contexts*, New York: McGraw-Hill.
14. Matveev, A.V. (2017) *Intercultural Competence in Organizations: A Guide for Leaders, Educators and Team Players*, Management for Professionals, USA: Springer International Publishing.
15. Patel, F, Li, M and Sooknanan, P. (2011), *Intercultural Communication: Building a Global Community*, USA: Sage.
16. Remland, M.S et al., (2014) *Intercultural Communication: A Peacebuilding Perspective*, USA: Waveland Press.
17. Rogers, M and Steinfatt M. (1999), *Intercultural communication*, Illinois: Waveland Press.
18. Samovar, L.A, Porter, R.E and McDaniel, E.R. (2010) *Communication Between Cultures*, USA: Wadsworth Publishing.
19. Scollor, R and Scollon, S.W. (2001) *Intercultural Communication: A Discourse Approach*, Language in Society 21, USA: Wiley-Blackwell.
20. Stella, T.T and Chung, L. (2012), *Understanding Intercultural Communication*, New York: OUP.
21. Tuleja, E.A. (2017), *Intercultural Communication for Global Business: How Leaders Communicate for Success*, New York: Taylor & Francis.
22. Volodymyr, G and Nataliya, G. (2010) *A Glossary of Intercultural Communication*, Ukraine: Ivano-Frankivsk.

آليات التعاون الدولي لمكافحة الفساد

Mechanisms for international cooperation against corruption

تاريخ القبول: 2019-12-18

تاريخ الإرسال: 2018-12-15

إيمان بوقصة، جامعة العربي التبسي _ تبسة

bouguesaimene1@gmail.com

المخلص

نظرا لخطورة جرائم الفساد وامتداد أثرها ليتجاوز الصعيد الداخلي والإقليمي ، فقد أصبح ظاهرة عالمية تمس أمن وسلام العالم بأسره ، وبالتالي أصبح من العسير مكافحتها بالطرق التقليدية وكفى ، وإنما لا بدّ من تلاقي الإرادات بهدف مواجهة هذه الآفة ، كما أنّ التعاون الدولي لمكافحة جرائم الفساد يكون على أكثر من مستوى ، فعلى المستوى التشريعي تسعى الدول إلى إبرام اتفاقيات من أجل تجريم الأفعال الموصوفة بالفساد ، وتتفق على رصد عقوبات بشأنها تقرّها كلّ دولة حسب سياستها الجنائية ، وهناك العديد من الآليات التي دعت إليها الاتفاقات الدولية وسعت إلى تطبيقها مختلف التشريعات ، وبالطبع هذا التعاون تحكمه ضوابط وأسس تحددها القوانين الداخلية لكلّ دولة.

الكلمات المفتاحية: منظمة الشفافية ، التعاون القضائي ، تسليم المجرمين ، مكافحة الفساد ، الإنتربول.

Résumé

Compte tenu de la gravité des crimes de corruption et de leur impact au-delà des niveaux internes et régionaux, qui affectent la sécurité et la paix du monde dans son ensemble, il est devenu difficile de combattre ce phénomène de manière conventionnelle et suffisante. Pour ce faire, nous devons répondre à la volonté de lutter contre ce fléau à plus d'un niveau. Au niveau législatif, les états cherchent à conclure des accords pénalisant les actes qualifiés de corruption et acceptent de surveiller les sanctions infligées par chaque pays conformément à sa politique pénale. Ainsi, de nombreux mécanismes sont prévus par les conventions internationales et visent à appliquer diverses lois. Et bien entendu, cette coopération est régie par des règles et règlements déterminés par les lois nationales de chaque état.

Mots clés: Transparence, coopération judiciaire, extradition, lutte contre la corruption, INTERPOL.

Abstract

Corruption crimes have become a global phenomenon that affects the security and peace of the entire world due to the danger they represent both on domestic and regional level. It is difficult to combat these crimes in the traditional ways. Therefore, it is necessary to converge the wills through international cooperation in order to confront this lesion. On the legislative level, states are seeking to conclude agreements to criminalize corruption acts, and agree on sanctions decided upon by each country according to its criminal policy. There are many mechanisms that have been called for by international agreements, that various legislations sought to implement. This cooperation is governed by Regulations determined by the internal laws of each country.

Keywords: Transparency, Judicial Cooperation, Extradition, Anti-Corruption, INTERPOL.

مقدمة

المادة 69 من القانون 06-01 المعدل والمتمم وهي على صورتين:

أ_ المساعدة التلقائية (التعاون الخاص): هي المساعدة التي تقوم بها الدولة طواعية لصالح دولة أخرى دون أن يكون ذلك بناءً على طلب موجّه من هذه الأخيرة إذا تبين أنّها تساعد على إجراء متابعة أو تحقيقات قضائية.³

ب_ المساعدة بناءً على طلب: وهي الإطار الإجرائي للتعاون القضائي، وتمثّل في التعاون بين الدول في مرحلة الاستدلال، التحقيق والمحاكمة.⁴

وهذه الصورة الغالبة في مجال التعاون القضائي والتي تقدّم لغرض الحصول على أدلة أو أقوال شخص، وتبلغ مستندات قضائية، وتنفيذ عمليات التفتيش أو الحجز أو التجميد، وفحص الأشياء والمواقع، وتقديم أصول المستندات أو السجلات ذات الصلة، بما فيها السجلات الحكومية أو المصرفية أو المالية، أو سجلات الشركات والمنشآت التجارية، ولا يجوز للدول الأطراف أن ترفض تقديم المساعدة القانونية المتبادلة بحجة السرية المصرفية.⁵

01_2_ القيود الواردة على استخدام الأدلة المتبادلة: وضعت اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد قيوداً على استعمال المعلومات والأدلة المتأتية في إطار المساعدة القانونية، وتمثّل في:

__ الاستعمال المقيد للمعلومات: لا يجوز للدولة الطالبة أن تنقل المعلومات أو الأدلة التي تزودها بها الدولة الطرف متلقية الطلب أو أن تستخدمها في غير التحقيقات المذكورة في الطلب دون موافقة مسبقة من الدولة الأولى إلا إذا كانت هذه الأدلة من شأنها تبرئة متهم ما.⁶

__ الحفاظ على سرية الطلب ومضمونه: يجوز للدولة الطرف الطالبة أن تشترط على الدولة متلقية الطلب أن تحافظ على سرية الطلب ومضمونه باستثناء القدر اللازم لتنفيذه، وإذا تعذر على هذه الأخيرة الالتزام بالسرية وجب عليها إبلاغ الدولة الطالبة بذلك على وجه السرعة.⁷

01_3_ رفض طلب المساعدة القانونية: أوردت المادة 46 فقرة 21 من اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد

لم يعد اهتمام المجتمع الدولي بظاهرة الفساد بالأمر الجديد، نظراً لما يسببه الفساد من مخاطر ومشاكل على استقرار المجتمعات وأمنها، ولصلته بأشكال الجريمة وخصوصاً الجريمة المنظمة، والجريمة الاقتصادية بما فيها غسل الأموال.

ولكون الفساد يهدّد كيان الدول واستقرارها السياسي والتنمية المستدامة لتعلّقه بقيم هائلة من الموجودات، يمكن أن تمثّل نسبة كبيرة من موارد الدول، وكون الفساد لم يعد ظاهرة وطنية محلية بل هو ظاهرة عابرة للحدود، إذ لا تقتصر آثاره على الدولة الواحدة بل قد تمتدّ إلى أكثر من إقليم، ترجم هذا الاهتمام من خلال بلورة مجموعة من الأطر القانونية الدولية في شكل من الأشكال

وعليه ارتأينا طرح الإشكالية التالية: فيما تمثّل آليات التعاون الدولي في مكافحة الفساد؟

وللإجابة على هذه الإشكالية اعتمدنا المنهج التحليلي والوصفي، وذلك بوصف وذكر آليات التعاون الدولي ومستوياته، ثم تحليل هذه الآليات لتقييم مدى نجاعتها ومواطن النقص فيها.

أولاً: آليات التعاون القضائي

ثانياً: تقييم آليات التعاون القضائي في مكافحة الفساد

ثالثاً: آليات التعاون المؤسّساتي

أولاً: آليات التعاون القضائي

على اعتبار أنّ جرائم الفساد من الجرائم العابرة للحدود فإنّ ملاحقة مرتكبيها تتطلب تعاوناً قضائياً إجرائياً بين الدول لتفعيل التعاون التشريعي من خلال عدّة آليات، كما نصّت اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد على مجموعة من الآليات للتعاون الدولي، يمكن تقسيمها إلى آليات تعاون قضائي، وتعاون قانوني.¹

1_ المساعدة القانونية: وتعدّ عنصراً رئيسياً في استراتيجية مكافحة الفساد نصّت عليها اتفاقية الأمم المتحدة² في المادة 46 منها أما المشرّع الجزائري فنصّ عليها ضمن

يقوم على معاهدات دولية، أو اتفاقات ثنائية بين الدول المعنية¹².

كذلك بالرجوع إلى اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد لسنة 2003، لا سيما في نص المادة 44 منها، فقد أكدت أنه لا يجوز لدول الأطراف أن ترفض طلب التسليم بمجرد أن الجرم يتعلّق بأمر مالي، وقبل رفض التسليم يجب على الدولة متلقية الطلب أن تتيح الفرصة إلى الدولة الطالبة لعرض آرائها¹³.

أما بالنسبة للاتفاقية العربية لمكافحة الفساد فقد نصّت في المادة 30 فقرة 05 على: "الدول الأطراف التي لا تجعل التسليم مشروطاً بوجود معاهدة أن تعدّ الجرائم التي تسري عليها أحكام الاتفاقية خاضعة للتسليم فيما بينها"، وبغية إغلاق الملاذ أمام المجرمين والجيلولة دون حصولهم على مأوى آمن لهم وعائدتهم الإجرامية، وجد هذا النظام لكي يحرمهم من الاستفادة من الاختلاف في الأنظمة القانونية والقضائية للدول¹⁴.

وتجدر الإشارة إلى أنّ تسليم المجرمين في جرائم الفساد يخضع للقواعد العامة المنصوص عليها في قانون الإجراءات الجزائية ضمن المواد 694 إلى 720 منه، وكذا المادة 68 و69 من دستور 96، غير أن اتفاقية الأمم المتحدة للوقاية من الفساد ومكافحته استثنت جرائم الفساد من شرط ازدواجية التجريم، وذلك بموجب المادة 44 فقرة 2 منها حيث أجازت للدولة الطرف أن تسمح بتسليم شخص ما بسبب إحدى جرائم الفساد، والفساد المالي، والتي لا يعاقب عليها بموجب قانونها الداخلي، حيث ألزمت الدول باتخاذ ما يلزم من تدابير لإخضاع الأفعال المجرمة وفقاً لهذه الاتفاقية لولايتها القضائية عندما يكون الجاني موجوداً في إقليمها¹⁵.

3_ تبادل المعلومات والإبانة القضائية: تعتبر الإبانة القضائية الدولية إحدى آليات التعاون القضائي الدولي، حيث تلجأ إليها الهيئات القضائية لتنفيذ عمليات التفتيش أو الحجز، أو من أجل جمع الأدلة من الخارج، وهو تفويض يصدر من سلطة قضائية أجنبية مختصة بموجب إنابة قضائية مكتوبة، على أن تكون السلطة القضائية مختصة بالتحقيق في واقعة إجرامية معينة، ومحاولة الكشف عن أدلة ارتكابها مع احترام القانون الداخلي للدولتين¹⁶.

عدداً من الحالات التي يجوز فيها للدولة متلقية الطلب رفض تقديم المساعدة القانونية، وهي:

__ سبب شكلي: عدم تقديم الطلب وفق الشكل المطلوب.

__ سبب سياسي: في تنفيذ الطلب مساس بسيادة الدولة وأمنها ونظامها العام ومصالحها⁸.

__ سبب قانوني: إذا كان الإجراء المطلوب محظوراً على سلطات الدولة، وانتفاء ازدواجية التجريم.

ويشترط في حالة رفض تقديم المساعدة القانونية تسيب الرفض⁹.

كما أنّ الأسباب المذكورة أعلاه فضفاضة واسعة، وبالتالي فالمساعدة القانونية أفرغت من محتواها بمنح سلطات الدولة المطلوب منها كامل السلطة التقديرية في رفض وقبول الطلب خاصة منها السبب السياسي، ومبدأ المعاملة بالمثل أن نجد الدولة المطلوب منها المساعدة ترفض الطلب لعدم قبول الدولة الطالبة لمساعدتها في وقت مضى، وهذا من شأنه إعاقة تحقيق التعاون¹⁰.

2_ تسليم المجرمين: إنّ قضية تسليم المتهمين قضية عالمية تشغل بال القضاة وخبراء القانون، لذلك سعت عدة دول إلى عقد اتفاقات مع دول أخرى لضمان استرجاع حقوقها، من خلال تسليم واسترجاع المتهمين، فيعتبر تسليم المجرمين من أهمّ الآليات القضائية للتعاون الدولي في مجال مكافحة الفساد والقضاء على الجرائم المالية، ويقصد به مجموعة من الإجراءات القانونية التي تهدف إلى قيام دولة بتسليم شخص متهم أو محكوم عليه إلى دولة أخرى لكي يحاكم بها، أو ينفذ الحكم الصادر ضده بعد محاكمته، كما يعدّ التسليم من أهمّ الصور الحديثة والأكثر أهمية في مجال التعاون القضائي بين الدول من أجل القبض على المتهمين وامتثالهم أمام القضاء¹¹.

ويقتضي تسليم المجرمين وجود علاقة بين دولتين أو أكثر بمناسبة جريمة ما ترتكب في إقليم إحدى الدول، ووجود ذلك المتهم على إقليم دولة ما يفترض منها تسليمه للدولة المتضررة من تلك الجريمة التي ارتكبها، هذا التسليم

للساهد من التأثيرات المباشرة من المتهمين دون إغفال هوية الشاهد أو بياناته²².

__ استخدام جهاز الفيديو: ويُقصد بذلك الشهادة المسجلة مسبقاً بواسطة جهاز الفيديو، قبل بدء المحاكمة، ويتمّ بعدها عرض الشهادة في قاعة المحكمة من خلال الشريط، وهذا ما لا نجد في التشريع الجزائري الذي لم ينصّ على أية من الطرق البديلة للشهادة التقليدية في قاعة الجلسات والتي لا تعطي حماية للشاهد الذي قدّم معلومات هامة للمحكمة عن جرائم ترتكب سواء ضدّ الأفراد أو النظام العام والدولة والمجتمع وجرائم الفساد المالي بصفة خاصة بالرغم من نصّ الاتفاقية على ذلك، والمشرع الجزائري حسناً فعل بتجريم الاعتداء على الشاهد حسب نصّ المادة 45 من قانون الفساد، كما جرّم تقديم الرشوة للشاهد بغية تضليل العدالة، أو إقناعه بالامتناع عن الإدلاء بالشهادة في جريمة من جرائم الفساد بصفة عامة، والفساد المالي بصفة خاصة، حيث نجد أنّ المشرع الجزائري بعد مصادقته على الاتفاقية العربية لمكافحة الفساد، خطا خطوة إيجابية بهدف مكافحة الفساد على الرغم من قصور النصّ 45 منه²³، فهو لم يبيّن طرق الإدلاء بالشهادة، بحيث يقرّر حماية للشاهد على غرار باقي التشريعات كما رأينا سابقاً، وعليه لا بدّ من توفير حماية فعلية لكلّ من قدّم معلومات للعدالة لمحاربة الفساد المالي خاصة مع انتشاره في الآونة الأخيرة.

5_ تجميد ومصادرة الممتلكات: عندما تكون محاكم إحدى الدول الأطراف في اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد قد أمرت بتجميد أو حجز العائدات الإجرامية المتأتية من إحدى جرائم الفساد أو الممتلكات أو المعدات أو الأدوات التي استخدمت، أو كانت معدّة للاستخدام في ارتكاب هذه الجرائم فإنّ الجهات القضائية الجزائرية أو السلطات المختصة وبناءً على طلب هذه الدول أن تحكم بالتجميد أو الحجز، وذلك بشروط:

__ وجود الأموال أو الممتلكات المطلوب حجزها في الجزائر.

__ تقديم الطلب بالطريقة الإدارية (إلى وزير العدل)،

ووزير العدل هنا يملك كامل السلطة التقديرية في التصرف في

04_ حماية الشهود: لم ينصّ المشرع الجزائري

بصورة واضحة على موضوع حماية الشاهد في جميع النصوص القانونية المتعلقة بقانون العقوبات، إلا في نصّ المادة 45 من قانون 01/06، المتعلّق بالوقاية من الفساد ومكافحته، حيث جعل عقوبة لكل من يتعرّض لهم بالأذى، وقد شمل النصّ كلّاً من الشهود والمبلغين والخبراء والضحايا¹⁷، وقد نصّت المادة 14¹⁸ من الاتفاقية العربية لمكافحة الفساد على طرق الإدلاء بالشهادة، وهو ما تبنته بعض التشريعات المقارنة.

وتختلف طرق الإدلاء بالشهادة باختلاف مراحل الدعوى العمومية، حيث تبنت التشريعات المقارنة ثلاثة طرق لأخذ الشهادة مع حماية هوية الشاهد، هذه الطريقة تُسمّى بالشهادة المجهلة، لأنّ الأصل في الشهادة أن تكون علنية وبحضور الشهود مع جواز مناقشتهم وتفريقهم عن بعضهم البعض، تحقيقاً للتوازن المفترض بين حقّ جهة الادعاء والتحقيق في إقامة الدليل على إدانة المتهم، وحقّ هذا الأخير في الدفاع، وذلك من خلال السماح له بمواجهة الشهود، وهذا ما يستوجب إحاطة المتهم علماً بهوية الشاهد، ولكن بالنظر إلى ما قد يلحق الشاهد من خطر جراء إدلائه بشهادته فإنّ السلطة القضائية رأّت وجوب حمايته، لهذا كانت الشهادة المجهلة في المواد الجنائية¹⁹، مع إخفاء بيانات الشاهد عن باقي الخصوم في الدعوى وعن الحضور، سواء أ كان ذلك بصورة كلية أم جزئية²⁰.

تعدّ هذه من أهمّ الطرق البديلة للشهادة الشفوية العلنية والمباشرة المستعملة في الأنظمة المقارنة، والتي توفرّ حماية نسبية للشاهد مقارنة بالطرق التقليدية التي تضع الشاهد تحت مختلف الضغوط، وتؤثّر عليه أحياناً.

__ الشهادة خلف الحاجز: تعدّ إحدى طرق الإدلاء

بالشهادة المجهلة، حيث يقوم الشاهد بتقديم شهادته من وراء ستار أو حاجز لا يتمكن من خلاله المتهم رؤية الشاهد خاصة في حالات الاعتداء على الأطفال، وقد ثار جدل كبير حول اعتماد هذا الإجراء لما فيه من مساس بحقوق الدفاع²¹.

__ استخدام الدوائر التلفزيونية المغلقة والوسائل

السمعية البصرية: وهنا يتمّ تقديم أقوال الشاهد عن طريق البث التلفزيوني المغلق أين تتمّ استقبال الشهادة من حجرة مجاورة أثناء المحاكمة بعيداً عن جوّ المحكمة، وهذا كحماية

أجنبية، وذلك استناداً إلى مبدأ السيادة القضائية لكل دولة²⁷، كما أنّ الحكم الأجنبي قد يتأثر في ظروف معينة ببعض الاعتبارات السياسية، كما يصعب تنفيذه أحياناً إذا تضمن عقوبات غير معروفة في التشريع الوطني، غير أنّ متطلبات التعاون الدولي في مجال مكافحة الجرائم الخطيرة اقتضت الاعتراف بحجية الأحكام الأجنبية، وهو ما حدا حذوه المشرع الجزائري في بعض الجرائم، ومنها جرائم الفساد بشرط تضمّنها: _ الحكم بالمصادرة.

_ الحكم بالإجراءات التحفظية: الحجز والتجميد²⁸.

ثانياً: تقييم آليات التعاون القضائي في مكافحة

الفساد:

على الرغم من كلّ الجهود المبذولة لمحاربة الفساد، إلا أنّ كثرة انتشار هذه الآفة تعدّ من التحديات التي تقف في مواجهتها أغلب التشريعات في الوقت الراهن، كون جرائم الفساد المالي تميّز بصعوبة كشفها، وهي خاصة من خصائص الجريمة المنظمة العابرة للأوطان، وقد تستخدم في سبيل إخفائها أساليب متطورة تفوق القدرات الفردية للدول، وبالرغم من توحيد وتضافر الجهود في سبيل القضاء على هذه الآفة، غير أنّ ضعف التعاون الدولي لتنسيق عمليات ملاحقة مرتكبي جرائم الفساد المالي، وجرائم غسيل الأموال، وتوقيع العقاب عليهم، كان نتيجة فشل وقصور في الإجراءات المتخذة إما من هذه المؤسسات المالية التي ألزمها المشرع بواجب الإبلاغ بالشبهة، في المقابل كانت ملزمة بالسرّ المهني، وتعقيدات أخرى حالت دون نجاعة الكشف عن هذه الجرائم، إضافة إلى هذا كلّ، التباين في الأجهزة القضائية، فلكلّ دولة نظامها القضائي الخاصّ الأمر الذي شكّل عائقاً كذلك حال دون إمكانية توحيد الإجراءات المتخذة في سبيل الكشف وملاحقة مرتكبي هذه الجرائم²⁹.

01_ قصور التشريع في مسألة حماية الشهود

والمبلغين وحماية الضحايا: ككلّ جريمة يفترض وجود شخص متضرّر، شأنه في ذلك شأن جرائم الفساد، فقد يتصور وجود شخص طبيعي في المجتمع تضرّر بشكل مباشر من جرائم الفساد، ومختلف التشريعات التي تناولت مكافحة ظاهرة الفساد لم تعط الاهتمام اللازم لشخص الضحية والمتضرّر، وبالرغم من تزايد عدد آليات مكافحة الفساد، إلا أنّ

الطلب، إما بإحالة إلى النائب العام المختصّ (حسب مكان وجود الأموال)²⁴، وله أن يرفض ذلك.

_ بعد إحالة الطلب إلى النائب العام يوجّه هذا الأخير إلى المحكمة المختصة مرفقاً بطلباته، هذه الأخيرة تصدر حكماً قابلاً للاستئناف والنقض وفق قانون الإجراءات الجزائية.

إجراءات تقديم الطلب: يقدّم الطلب من الدولة الأجنبية إلى وزير العدل الجزائري.

يقوم وزير العدل بإحالة الطلب أو رفض إحالته، وله في ذلك كامل السلطة التقديرية.

في حالة قبول الطلب يحيله إلى النائب العام المختصّ (حسب مكان وجود الأموال)²⁵، هذا الأخير يوجّه إلى المحكمة المختصة مرفقاً بطلباته، ثمّ بعد ذلك المحكمة تصدر حكماً قابلاً للاستئناف والطعن وفق قانون الإجراءات الجزائية.

_ يشترط إرفاق طلب اتخاذ إجراءات التجميد والحجز بيان بالوقائع المبرّرة له من الدولة الطالبة.

6_ استرداد العائدات الإجرامية: يترتّب على تصدير

العائدات المتأتية من الفساد، عواقب خطيرة أو حتى مدمّرة لدولة المنشأ، فهو يستنفد احتياطي العملة، ويقلّص الوعاء الضريبي، ويزيد من نسبة الفقر، ويضرّ بالتنافس، ويعيق التجارة الحرة، ولذلك فإنّ مختلف السياسات المرتبطة بالسلم والأمن والنمو الاقتصادي قد تتضرّر من جراء ذلك، ولهذا دعا المجتمع الدولي ومؤسسات الأمم المتحدة إلى الأهمية التي يجب أن تحظى بها مسألة مكافحة الفساد بصفة عامة، والسعي لحلّ مشكلة نقل الأموال غير الشرعية عبر الحدود الوطنية، وإيجاد طرق لإعادتها، ومن هنا جاءت عدّة قرارات صادرة عن الجمعية العامة للأمم المتحدة التي شدّدت على مسؤولية الحكومات وشجعتها على اعتماد سياسات محلية ودولية ترمي إلى منع الفساد ومكافحته، وضرورة إعادة هذه العائدات إلى الدولة المتضرّرة من جرائم الفساد، مصدر تلك الأموال، وذلك بناء على طلب، ومن خلال اتخاذ جملة من الإجراءات اللازمة²⁶.

7_ تنفيذ الأحكام الأجنبية: المبدأ العام أنّ المحاكم

الجزائية لا تعترف بحجية الأحكام الصادرة عن قضاء دول

03_ قيد السرية المصرفية: وهي من أكبر العقوبات التي تقف عائقا أمام مكافحة جريمة تبييض الأموال، كونها تقضي بالحظر من الاطلاع على وثائق العميل من جهة، وعدم الاطلاع على الودائع النقدية من جهة أخرى، وبالتالي احترام مبدأ السرية المصرفية يجعل المؤسسة المالية مساعدا في عمليات تبييض الأموال ذات المصدر غير المشروع، وإدخالها في الدورة المالية للدولة على اعتبار أنها أموال مشروعة، يسهل على مرتكبي الجرائم المالية والفساد بعدها استعمالها علنا دون خوف من كشف السلطات.

فالواقع أننا نجد المؤسسات المالية والبنوك لا تبذل أي مجهود بما فيه الكفاية للكشف عن جرائم تبييض الأموال، بحجة السرية مع زبائنها، وتنسى التزامها بواجب الإخطار بالشبهة، ويجب على هذه الأخيرة ألا تكون حاجزا أمام الرقابة، وأن تكون على حرص لتقصي مصدر الأموال المودعة لديها، وألا تتحجج بمسألة السرية، حتى لا يجد المبيضون أي منفذ يلجأون من خلاله للتخفي والإفلات من العقاب.³⁹

04_ عرقلة تنفيذ الأحكام الجنائية: إن لظاهرة الفساد آثارا وخيمة على المنظومة القانونية والقضائية للدول، وذلك بسبب ظهور تشريعات جديدة لا تحقق الردع المتوخى من السياسة الجزائية الفعالة، بل وتساعد المفسدين على الإفلات من العقاب، كذلك عرقلة إجراء محاكمة المفسدين من أجل التهرب من المسؤولية القانونية، مما يؤدي إلى تقادم الدعاوى في جرائم الفساد نظرا لسياسة التجنح التي انتهجها المشرع الجزائري، فالأمر وارد حيث الجنحة مدة تقادم الدعوى فيها 3 سنوات، قد تمضي في انتظار كشف هوية المظلمين بارتكاب هذه الجرائم، كذلك حالة عدم وجود اتفاقية تعاون بين دولتين تؤدي إلى صعوبة تسليم المعلومات أو المتهمين.⁴⁰

05_ عدم فعالية التعاون والخلل في الجهاز القضائي ذاته: هناك الكثير من العراقيل التي تقف أمام فعالية آليات التعاون القضائي في سبيل مكافحة جرائم الفساد المالي والفساد، وهذه المشكلات أهمها:

_ عدم استقلالية الجهاز القضائي بالمفهوم الحقيقي: فمن أهم النتائج المترتبة عن مبدأ الفصل بين السلطات هو

هناك مشاكل عديدة منها الافتقار إلى الآليات الفعالة لحماية المبلغين، مما يجعلهم يتراجعون عن واجب الإبلاغ خوفا على حياتهم ومصالحهم³⁰، كما أنّ صعوبة كشف جرائم الفساد بالنظر إلى كونها جرائم مالية معقدة، أصبحت تستخدم وسائل متطورة من أجل الحصول على أكبر قدر ممكن من الربح³¹.

وبالتالي، نتيجة سيطرة أصحاب الياقات البيضاء وأصحاب النفوذ على مناصب عليا في الدولة، نجد تخوف المبلغين والشهود من أداء واجبههم وتقديم الإثباتات عن اضطلاع هؤلاء الأشخاص في ارتكاب جرائم توصف بكونها جرائم أموال، وهذا بسبب غياب الضمانات القانونية الفعلية التي تكفل حمايتهم، وهذا ما دعت إليه في الأساس اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد، حسب ما ورد في نصّ المادتين 32 و33 منها³².

وبالرغم من حثّ الاتفاقية للدول الأعضاء على ضرورة توفير الحماية للمبلغين³³ والشهود إلا أنّ الواقع يشهد جمود هذه المبادرة؛ إذ مازالت التشريعات الداخلية تعاني من غياب الضمانات القانونية التي تحمي المبلغ والشاهد على حد سواء³⁴، كما أنّ المشرع الجزائري كرس حماية الشهود من أشكال التهديد التي تمارس عليهم من أجل تضليل العدالة، حسب نصوص قانون العقوبات، والجديد هو ما ورد في نصّ المادة 45 من قانون 01/06 المتضمن قانون الوقاية من الفساد ومكافحته³⁵، حيث كرس النصّ حماية المبلغين والضحايا والشهود، ولا بدّ من تفعيل هذا النصّ من خلال خلق أطر قانونية تجسد على أرض الواقع للعمل على كشف جرائم الفساد، ومتابعة مرتكبيها³⁶.

02_ عدم فعالية التعاون نتيجة ضعف الإجراءات المخولة لبعض المؤسسات المالية: تعتبر المؤسسات المالية من أهمّ الحلقات التي تدور فيها الأموال غير المشروعة عن طريق ما يُسمّى بجريمة تبييض الأموال، والتي تعدّ بدورها نوعا من الفساد المالي والفساد، فهي تعدّ قنوات خصبة يستغلها مبيضو الأموال في تنفيذ جرائمهم، ويظهر الجرم من خلال تسهيل البنوك لعمليات تبييض الأموال، بالإضافة إلى ضعف وقصور الأدوات البنكية، مما أدى إلى تقشي هذه الظاهرة³⁷.

— تعقب الأموال ومنح سلطة التحري القانوني الكافية لمسؤولي تنفيذ القانون ، وذلك لتعقب ومتابعة وتجميد رؤوس الأموال المتحصلة من أنشطة إجرامية خطيرة. ومنه يمكن القول إنَّ الإنترنت بصفته جهة جنائية لتقصي الجرائم والبحث عنها هو من أهم المنظمات التي تسعى إلى تحقيق التعاون الدولي لمكافحة الفساد والقبض على المجرمين⁴³.

2_ صندوق النقد الدولي

يعتبر صندوق النقد الدولي من المنظمات الحكومية المعنية بالأنشطة الدولية المتعلقة بمكافحة الفساد، من خلال مختلف سلطاته في مجال مراقبة السياسات الاقتصادية والمالية، وتشمل هذه الصلاحيات بعض الجوانب المتعلقة بسياسات الاقتصاد الكلي من إدارة شؤون النقد والائتمان وسعر الصرف، و ما يتعلّق بالمؤسسات المالية من بنوك وغيرها، يهدف من خلال هذه الرقابة إلى تحقيق الاستقرار المالي والنقدي في العالم على نحو يوفر الشروط الملائمة لتنمية متوازنة ومستمرة.

كما حدّد صندوق النقد الدولي مسلكين أساسيين من أجل مكافحة الفساد والقضاء عليه، فمن جهة تركيز أنشطة الدولة على المجالات التي تتلاءم مع قدراتها، إذ إنّ كثيرا من الدول لن تفعل أكثر مما تستطيع وبموارد غير كافية وقدرة محدودة، ومن جهة أخرى البحث مع مرور الزمن عن وسائل لتحسين قدرة الدولة، وذلك عن طريق تنشيط المؤسسات العامة، وهذا يعني وضع قيود وقواعد فعّالة للحدّ من تصرّفات الحكومة التحكّمية ومكافحة الفساد، وإخضاعها للمزيد من المنافسة من أجل زيادة كفاءتها وتحسين الرواتب، وبالتالي تصبح الدولة أكثر استجابة لاحتياجات المواطنين، ولتحقيق تنمية شاملة يدعو صندوق النقد الدولي الدول إلى مراعاة:

— إرساء القانون.

— إقرار بيئة للسياسات المالية لا تشويه فيها تشمل استقرارا اقتصاديا.

— الاستثمار في الخدمات الاجتماعية والبيئة الأساسية لحماية الضعفاء.

استقلالية الجهاز القضائي بغية أداء هذا الأخير عمله دون تأثير من جهات عليا، غير أنّ ما نلمسه في الواقع أنّ القضاء مازال يعاني من التبعية للسلطتين التنفيذية والتشريعية على السواء، وما لظاهرة الفساد من آثار وخيمة على المنظومة القانونية والقضائية للدول، حيث إنّها لا تحقّق الردع اللازم للحدّ من جرائم الفساد، كما أنّ الثغرات التي يستغلّها مرتكبو هذه الجرائم للإفلات من العقاب. إضافة إلى عدم اتخاذ تدابير صارمة لحماية القضاة من الضغوطات والتهديدات التي يمكن أن يتعرّضوا لها أثناء ممارسة مهامهم⁴¹.

— تشجيع الدول القوية على الفساد ورفضها تقديم التعاون والمساعدة التقنية والعلمية للدول الأقلّ تطورا، بل تعدّى الأمر إلى المتاجرة بالفساد بحيث تغطي على الفساد وتحمي مرتكبيه مقابل خدمة مصالحها، ومثال ذلك ظاهرة بيع الجنسية في أوروبا لأصحاب الأموال الفاسدة⁴².

ثالثا: آليات التعاون المؤسّساتي

سوف نتطرّق إلى بعض المنظمات الدولية التي كرّست عملها من أجل القضاء على الفساد وإرساء مبادئ سياسية ناجعة يسودها الحكم الراشد، من بين هذه المنظمات: الإنترنت، وصندوق النقد الدولي، منظمة الشفافية الدولية:

1_ الإنترنت: تمّ إنشاء منظمة الشرطة الجنائية الدولية عام 1923، ومقرها مدينة ليون بفرنسا، ولها عدّة فروع ومكاتب في كلّ دولة من دول الأعضاء، ويعمل الإنترنت على تعزيز التعاون الدولي، وذلك من خلال ما يلي:

— استخدام الإجراءات الكفيلة بمنع استخدام التكنولوجيا الحديثة في غسيل الأموال، كونه صورة من صور الفساد.

— ضرورة تأكيد الأجهزة المعنية بالرقابة والإشراف على البنوك والمؤسسات المالية، من وجود برامج كافية لدى هذه الجهات لمكافحة الجرائم المالية بما فيها جرائم الفساد.

— التدخّل بشأن مصادرة الأموال المشبوهة، و في القبض على المجرمين المتهمين وتسليمهم إلى الجهات القضائية المختصة لمحاكمتهم، و مساعدة الدول في عملية تسليم المجرمين.

مجال التعاون الدولي وتعدّد آلياته إلا أنّه يمكن تسجيل النتائج والتوصيات الآتية:

— بالرغم من أهمية مسألة تسليم المجرمين في عمليات التعاون الدولي بشأن ملاحقة المجرمين وتوقيع العقاب عليهم وبالتالي تحقيق الهدف من السياسة الجنائية، إلا أنّه تجدر الإشارة إلى أنّ التجربة الأوروبية ألغت شرط التسليم المزدوج في نظام تسليم المجرمين في 32 جريمة منها جريمة الفساد والمتاجرة بالمخدرات.

— وجود منظمة دولية مختصة في مكافحة الفساد، لا يكفي لوحده بل لابدّ من فرض تدابير رقابية على الدول الأطراف لتنفيذ نصوص الاتفاقية بالشكل المطلوب، الأمر الذي يسهم بالضرورة في مكافحة الظاهرة مكافحة فعالة.

— تشجيع الدول القوية على الفساد ورفضها تقديم التعاون والمساعدة التقنية والعلمية للدول الأقلّ تطورا، بل تعدّى الأمر إلى المتاجرة بالفساد بحيث تغطي على الفساد وتحمي مرتكبيه مقابل خدمة مصالحها، ومثال ذلك ظاهرة بيع الجنسية في أوروبا لأصحاب الأموال الفاسدة.

— يجب أن يمتدّ التعاون إلى التدابير الوقائية والأّ ينحصر في الإجراءات والتدابير الردعية.

— لابدّ من دعم آليات التعاون الدولي بمختلف صورها لتحقيق مكافحة فعالة لشتى الجرائم التي تتسم بالخطورة بما في ذلك جرائم الفساد.

وفي الأخير يمكن القول إنّ الدول التي يمزقها الصراع تدفع ضريبة هائلة في قدرتها على الحكم، وأكبر مثال ما يعرف بالربيع العربي، ومعاناة السوريين والعراق وغيرهم من الدول التي سمحت لنزاعات أهلية أن تعصف بها، وبالتالي يعمّ الفساد، ولتنجح أي دولة في بتر الفساد لابدّ من محاربة كل صورته في ذات الوقت والوقوف بتطوير القطاعات الحساسة فيها من صحّة وتعليم؛ لأنّ الجهل والفقر هما ذخيرة تتغذى عليها هذه الآفة، ويأتي في الأخير دور ترسانة القوانين الداخلية والدولية، لأنّ الوقاية خير من العلاج.

— إعداد قوائم للتعين والتوظيف تقوم على أساس الجدارة والاستحقاق⁴⁴.

3_ منظمة الشفافية الدولية

منظمة الشفافية هي التعبير المؤسّساتي عن حركة عالمية لمكافحة الفساد أفرزها مجتمع مدني عالمي، قرّرت هذه المنظمة القضاء على ظاهرة الفساد التي أدّى انتشارها إلى إعاقة تحقيق أهداف التعاون الدولي في كافة المجالات، وتعمل هذه الأخيرة عن طريق جمع المعلومات عن الظاهرة، وبلورة مناهج وأساليب جديدة لقياسها، وبالتالي إعداد تصنيف وفق مؤشرات معينة يعمل على رؤية مدى نجاعة تلك الأساليب في الحدّ من ظاهرة الفساد، وتحقيق الحكم الراشد في مختلف المجالات.

كما لعبت منظمة الشفافية دورا محوريا أثمرت جهودها بإبرام العديد من الاتفاقات والمعاهدات الدولية الخاصة بمكافحة الفساد، كما تعمل على مراقبة وتسهيل تنفيذ الدول لالتزاماتها المتعلقة بتنفيذ نصوص الاتفاقات والمعاهدات، وإعداد التقارير عن مدى تجاوب الدول واستعدادها لمكافحة الفساد.

خاتمة

من خلال العرض المقدم فإنّ التعاون الدولي لمكافحة جرائم الفساد يكون على أكثر من مستوى، فعلى المستوى التشريعي تسعى الدول إلى إبرام اتفاقات دولية وإقليمية من أجل تجريم الأفعال الموصوفة بالفساد، وتتفق على سنّ عقوبات بشأنها تقرّها كلّ دولة حسب سياستها الجنائية، ثمّ يتّجه التعاون الدولي إلى المجال القضائي المتمثّل في وضع آليات لتبادل الإجراءات بين الدول، إما حسب الطريق الإداري بواسطة وزراء العدل أو الطريق القضائي بين الجهات القضائية المعنية بالإجراء المطلوب، ثمّ يتّخذ التعاون الدولي في هذا المجال منحى أدقّ من خلال التعاون الأمني، المتمثّل في تعاون أجهزة الشرطة من أجل ملاحقة مرتكبي هذه الجرائم في أي دولة كانوا عن طريق منظمة الإنتربول، وأخيرا وكخصوصية لجرائم الفساد فقد استحدثت الدول خلايا الاستعلام المالي، وبالطبع هذا التعاون تحكمه ضوابط وأسس تحددها القوانين الداخلية لكلّ دولة، ورغم اتساع

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

- 01_ اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد 2003، أقرت بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 458 بتاريخ 31 تشرين الأول 2003، ودخلت حيز التنفيذ بتاريخ 14/12/2005.
- 02_ المرسوم الرئاسي رقم 128/04 المؤرخ في 19 أبريل 2004 يتضمن التصديق بتحفظ على اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد المعتمدة من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك يوم 31 أكتوبر 2003، جريدة رسمية عدد 26، لسنة 2004.
- 03_ الإطار القانوني والمؤسسي لمكافحة الفساد في الجزائر، الهيئة الوطنية للوقاية من الفساد ومكافحته، (طبعة 02)، الجزائر، 2014.
- 03_ مؤتمر الدول الأطراف في اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد، فريق استعراض التنفيذ الدورة الرابعة المستأنفة، مدينة بنما، 26 و27 تشرين الثاني / نوفمبر 2013.
- 04- القانون 01-06 مؤرخ في 20 فيفري 2006، يتعلق بالوقاية من الفساد ومكافحته المعدل والمتمم بالأمر رقم 05/10 المؤرخ في 26 أوت 2010.
- 05_ قرار الجمعية العامة رقم 57/244 المؤرخ في 20/12/2002.

الكتب

- 01_ إياد هارون محمد الدوري، الآليات الجنائية المستحدثة لمكافحة جرائم الفساد، (دراسة مقارنة)، دار الأيام لنشر والتوزيع، عمان، 2017.
- 02_ أحمد محمود نهار، مكافحة الفساد، طبعة 01، دار الفكر، الأردن، 2010.
- 03- سليمان عبد المنعم، ظاهرة الفساد، دراسة في مدى مواءمة التشريعات العربية لأحكام اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد.
- 04_ عماد صلاح عبد الرزاق الشيخ داود، الفساد والإصلاح (دراسة مقارنة)، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2003.
- 05_ عبد الحسين محمد، جريمة تبييض الأموال، دار الولاية لنشر، الأردن 2010.
- 06_ محمد عبد الغريب، القضاء والعدالة، جزء 02، جامعة نايف للعلوم الأمنية، مركز الدراسات والبحوث، الرياض، 2006.
- 07_ فادية بيضون، الفساد أبرز الجرائم، الآثار والسبل المعالجة، طبعة 01، منشورات الحلبي الحقوقية، لبنان، 2013.
- 08_ كور طارق، آليات مكافحة جريمة الصرف، دون طبعة، دار هومة، الجزائر، 2013.

الرسائل والأطروحات

- 01_ حاحة عبد العالي، الآليات القانونية لمكافحة الفساد الإداري في الجزائر، أطروحة دكتوراه، قانون عام، جامعة بسكرة، 2013.
- 02_ سارة بوسعيد، دور استراتيجية مكافحة الفساد الاقتصادي في تحقيق التنمية المستدامة، (دراسة مقارنة بين الجزائر وماليزيا)، (مذكرة ماجستير)، جامعة فحات عباس سطيف، كلية العلوم الاقتصادية، الجزائر، 2012/2013.
- 03_ مجبور فايزة، إصلاح الدولة ومكافحة الفساد في الجزائر، مذكرة ماجستير، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة مولود معمري، 2015.
- 04_ شريط محمد، ظاهرة غسل الأموال، مذكرة ماجستير، تخصص شريعة وقانون، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، 2008.
- 05_ داوود يوسف كوركيس، الجريمة المنظمة، أطروحة دكتوراه، الدار العالمية الدولية للنشر، عمان، 2007.
- 06_ قاجي حنان، دور المنظمات الدولية في مكافحة الفساد، مذكرة ماستر، جامعة عبد الرحمن ميرة، كلية الحقوق، بجاية، 2016.
- 07_ صالحى نجاه، الآليات الدولية لمكافحة تبييض الأموال وتكريسها في التشريع الجنائي الجزائري، مذكرة ماجستير، تخصص قانون جنائي، جامعة قاصدي مبراح، ورقلة، 2011.

المقالات والمذكرات

- 01_ راشدي صابر، المجالات الاستراتيجية للتعاون الدولي في مكافحة الفساد، أعمال الملتقى الوطني حول الآليات القانونية لمكافحة الفساد، جامعة قاصدي مبراح، كلية الحقوق، ورقلة، يومي 02 و03 ديسمبر 2008.
- 02_ حسين محي الدين عثمان، اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد، 2010، منشورة على الموقع: www.sodanil.com/htn تم الاطلاع بتاريخ: 23/07/2018.
- 03_ بيطام سميرة، التعاون الدولي في مكافحة جرائم الفساد، مركز الوفاق الإنشائي للبحوث والتدريب، منشور على الموقع: www.wefaqdev-net تم الاطلاع عليه في 16/09/2018.
- 04_ صبحي مريد، تعدد الأجهزة الرقابية وتداخلها يعوق مكافحة الفساد، مطلوب آليات تفعيلية جديدة لمحاربة الفساد والكشف عن المفسدين، منشور على الموقع: www.ahram.org.eg/new/202192 تم الاطلاع عليه في 23/07/2018.
- 05_ المنصور حمزة، الآليات القانونية والمؤسسية لحماية الفساد والوقاية منه، منشور على الموقع: www.startimes.com
- 06_ كتوش عاشور، قورين حاج قويدر، ظاهرة غسل الأموال كمظهر من مظاهر الفساد الاقتصادي، الملتقى الدولي الأول حول الجيل الثاني من الإصلاحات الاقتصادية في الدول النامية، كلية العلوم الاقتصادية، جامعة بومرداس، يومي 04 و05 نوفمبر 2006.
- 07_ سي يوسف زاوية حورية، دور البنوك في مكافحة عمليات تبييض الأموال، الملتقى الوطني حول مكافحة الفساد وتبييض الأموال، كلية الحقوق، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، يومي 10 و11 مارس 2009.
- 08_ فاضل زبير، خمسون عاما من النهب، جريدة الخبر، بتاريخ 26/11/2013، منشور على الموقع: <http://www.elkhabar.com/ar/autresdossiers/369714/htm>
- 09_ مرسل عبد الحق، التعاون الدولي في مكافحة الفساد في الصفقات العمومية، مجلة الاجتهاد للدراسات القانونية والاقتصادية، المركز الجامعي تمنراست، دون سنة نشر.
- 10_ أسامة غربي، بحث في الجريمة المنظمة، دور الإنترنت في مكافحة الفساد، منشور على موقع: www.Google.com تاريخ الاطلاع: 23:30 2019/05/09.

الهوامش

1. حسب خلاصة مؤتمر الدول الأطراف في إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد، فريق استعراض التنفيذ الدورة الرابعة المستأنفة، مدينة بنما، 26 و27 تشرين الثاني / نوفمبر 2013، البند الثاني من جدول الأعمال، حيث جاء فيما يتعلق بالملاحقة والمقاضاة والجزاءات، التعاون مع السلطات وإنفاذ القانون حسب الهادتين 30 و37، أين أكدت على ضرورة التناسب بين العقوبة مع جسامته الفعل.
2. إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد لسنة 2003، أقرت بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 458 بتاريخ 31 تشرين الأول 2003، ودخلت حيز التنفيذ بتاريخ 14/12/2005، أنظر _ إيداد هارون محمد الدوري، الآليات الجنائية المستحدثة لمكافحة جرائم الفساد، (دراسة مقارنة)، دار الأيام لنشر والتوزيع، عمان، 2017، ص 114، 116.
3. انظر المادة 46 من إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد، نصت على المساعدة القانونية المتبادلة، والمادة 69 من القانون 06-01 المعدل والمتمم.
4. سليمان عبد المنعم، ظاهرة الفساد، دراسة في مدى موافقة التشريعات العربية لأحكام إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد، ص 135.
5. المادة 46 فقرة 8 من إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد. أنظر _ حسين محي الدين عثمان، إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد، 2010، منشورة على الموقع: www.sodanil.com/htn تم الإطلاع بتاريخ: 2018/07/23.
6. بيطام سميرة، التعاون الدولي في مكافحة جرائم الفساد، مركز الوفاق الإنمائي للبحوث والتدريب، ص 23، منشور على الموقع: www.wafaqdev-net تم الإطلاع عليه في 2018/09/16.
7. المادة 46 فقرة 20 من إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد. _ المرسوم الرئاسي رقم 128/04 المؤرخ في 19 أبريل 2004 يتضمن التصديق بتحفظ على إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد المعتمدة من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك يوم 31 أكتوبر 2003، جريدة رسمية عدد 26، لسنة 2004.
8. قاجي حنان، دور المنظمات الدولية في مكافحة الفساد، مذكرة ماستر، جامعة عبد الرحمن ميرة، كلية الحقوق، بجاية، 2016، ص 37.
9. قاجي حنان، مرجع سابق، ص 43، 44.
10. صالح نجاة، الآليات الدولية لمكافحة تبيض الأموال وتكريسها في التشريع الجنائي الجزائري، مذكرة ماجستير، تخصص قانون جنائي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2011، ص 101، 109.
11. بيطام سميرة، مرجع سابق.
12. أنظر عماد صلاح عبد الرزاق الشيخ داود، الفساد والإصلاح (دراسة مقارنة)، منشورات إتحاد كتاب العرب، دمشق، 2003، ص 18.
13. أنظر المادة 44 حول تسليم المجرمين، وفق شروط وحالات تحددها كل دولة طرف في الإتفاقية حسب تشريعاتها الداخلية.
14. أنظر المادة 30 من الإتفاقية العربية لمكافحة الفساد.
15. - أنظر _ المادة 42 فقرة 3: "... 3- لأغراض المادة 44 من هذه الإتفاقية، تعتمد كل دولة ما قد يلزم من تدابير من أجل إخضاع الأفعال المجرمة وفقا لهذه الإتفاقية لولايتها القضائية عندما يكون الجاني المزعوم موجودا في إقليمها ولا تقوم بتسليمه لمجرد كونه أحد مواطنيها...".
16. أنظر _ بيطام سميرة، مرجع سابق. وأنظر _ حسين فريجة، "المجتمع الدولي ومكافحة الفساد"، مجلة الاجتهاد القضائي، العدد 5، جامعة بسكرة، ص 44.
17. أنظر مجبور فايزة، إصلاح الدولة ومكافحة الفساد في الجزائر، مذكرة ماجستير، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2015، ص 193.
18. المادة 14 جاءت بعنوان حماية المبلغين والشهود والخبراء والضحايا، وقد عدت وسائل الحماية على سبيل المثال لا الحصر.
19. أنظر _ صبحي مريد، تعدد الأجهزة الرقابية وتداخلها يعوق المكافحة، مطلوب آليات تفعيلية جديدة لمحاربة الفساد والكشف عن المفسدين، منشور على الموقع: www.ahram.org.eg.new/202192 تم الإطلاع عليه في 2018/07/23.
20. ويعد قبول العمل بالشهادة المجهلة في القضاء محل خلاف كبير على مستوى الفقه القانوني المقارن فضلا عن إختلاف موقف التشريعات المقارنة، ومن الأنظمة القانونية التي تعمل بالشهادة المجهلة التشريع البلجيكي والتشريع الفرنسي، والتشريع التشيكي والبولندي، وكان كل من التشريع الإنجليزي والأمريكي من التشريعات السبابة للعمل بها.
21. أنظر أحمد محمود نهار، مكافحة الفساد، طبعة 01، دار الفكر، الأردن، 2010 ص 38.
22. وقد تم العمل بهذه الطريقة في التشريع الإنجليزي حيث خصصت للأطفال تحت سن 14 أثناء الإدلاء بالشهادة في محاكم الجنايات في قضايا العنف والاعتداء الجنسي، ويتم العمل بهذه الطريقة أيضا في كل من التشريع الفرنسي والأمريكي.

23. المادة 45: بعنوان حماية الشهود والخبراء والمبلغين: "يعاقب بالحبس من ستة أشهر إلى خمس سنوات و...، كل شخص يلجأ إلى الانتقام أو الترهيب أو التهديد بأية طريقة كانت وبأي شكل من الأشكال ضد الشهود أو الخبراء أو الضحايا أو المبلغين أو أفراد عائلاتهم وسائر الأشخاص وثيقي الصلة بهم".
24. المادة 67 بعنوان إجراءات التعاون الدولي من أجل المصادرة: "يوجب الطلب الذي تقدمه إحدى الدول الأطراف في إتفاقية، لمصادرة العائدات الإجرامية أو الممتلكات ... من القانون 01-06 مؤرخ في 20 فيفري 2006، يتعلق بالوقاية من الفساد ومكافحته المعدل والمتمم بالأمر رقم 05/10 المؤرخ في 26 أوت 2010. وأنظر _ الإطار القانوني والمؤسسي لمكافحة الفساد في الجزائر، الهيئة الوطنية للوقاية من الفساد ومكافحته، (طبعة 02)، الجزائر، 2014.
25. المادة 67 من القانون 01-06 المعدل والمتمم.
26. أنظر قرار الجمعية العامة رقم 57/244 المؤرخ في 2002/12/20، وهو ما نصت عليه المادة 46 من إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد في فقرتها 03: "... ز/ تحديد العائدات الإجرامية أو الممتلكات...".
27. أنظر كور طارق، آليات مكافحة جريمة الصرف، دون طبعة، دار هومة، الجزائر، 2013، ص 180.
28. انظر المادة 68 من القانون 01-06 المعدل والمتمم. أنظر _ عماد صلاح عبد الرزاق الشيخ داود، الفساد والإصلاح (دراسة مقارنة)، منشورات إتحاد كتاب العرب، دمشق، 2003، ص 18.
29. أنظر راشدي صابر، المجالات الاستراتيجية للتعاون الدولي في مكافحة الفساد، أعمال الملتقى الوطني حول الآليات القانونية لمكافحة الفساد، جامعة قاصدي مرباح، كلية الحقوق، ورقلة، يومي 02 و03 ديسمبر 2008، ص 1. أنظر _ بن عيسى بن عالية، مرجع سابق، ص 72.
30. صبحي مريد، مرجع سابق.
31. المنصور حمزة، الآليات القانونية والمؤسسية لحماية الفساد والوقاية منه، منشور على الموقع: www.startimes.com
32. المادة 32 من إتفاقية الأمم المتحدة، والتي جاءت تحت عنوان حماية الشهود والخبراء والضحايا. _ المادة 33 من إتفاقية الأمم المتحدة، والتي جاءت تحت عنوان حماية المبلغين، وأنظر _ محمد عبد الغريب، القضاء والعدالة، جزء 02، جامعة نايف للعلوم الأمنية، مركز الدراسات والبحوث، الرياض، 2006، ص 775.
33. أنظر مجبور فايزة، مرجع سابق، ص 193.
34. حاحة عبد العالي، الآليات القانونية لمكافحة الفساد الإداري في الجزائر، (أطروحة دكتوراه)، قانون عام، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2013، ص 249.
35. المادة 45 من إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد، والتي جاءت بعنوان نقل الأشخاص المحكومين.
36. أنظر سارة بوسعيد، دور استراتيجية مكافحة الفساد الاقتصادي في تحقيق التنمية المستدامة، (دراسة مقارنة بين الجزائر وماليزيا)، (مذكرة ماجستير)، جامعة فرحات عباس سطيف، كلية العلوم الاقتصادية، الجزائر، 2013/2012، ص 85.
37. أنظر كتوش عاشور، قورين حاج قويدر، ظاهرة غسل الأموال كمظهر من مظاهر الفساد الاقتصادي، الملتقى الدولي الأول حول الجيل الثاني من الإصلاحات الاقتصادية في الدول النامية، كلية العلوم الاقتصادية، جامعة بومرداس، يومي 04 و05 نوفمبر 2006، ص 13.
38. أنظر سي يوسف زاهية حورية، دور البنوك في مكافحة عمليات تبيض الأموال، الملتقى الوطني حول مكافحة الفساد وتبيض الأموال، كلية الحقوق، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، يومي 10 و11 مارس 2009، ص 07.
39. أنظر عبد الحسين محمد، جريمة تبيض الأموال، دار الراية للنشر، الأردن 2010، ص 62.
40. شريط محمد، ظاهرة غسل الأموال، مذكرة ماجستير، تخصص شريعة وقانون، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، 2008، ص 239.
41. أنظر فاضل زبير، خمسون عاما من النهب، جريدة الخبر، بتاريخ 2013/11/26، منشور على الموقع: <http://www.elkhabar.com/ar/autresdossiers/369714/htm>
42. مرسل عبد الحق، التعاون الدولي في مكافحة الفساد في الصفقات العمومية، مجلة الاجتهاد للدراسات القانونية والاقتصادية، المركز الجامعي تمنراست، دون سنة نشر، ص 174.
43. أنظر داوود يوسف كوركيس، الجريمة المنظمة، أطروحة دكتوراه، الدار العالمية الدولية للنشر، عمان، 2007، ص 110. وأنظر _ أسامة غربي، بحث في الجريمة المنظمة، دور الأتربول في مكافحة الفساد، منشور على موقع: www.Google.com، تاريخ الإطلاع: 2019/05/09 على الساعة 23:30.
44. بيضون فادية، الفساد أبرز الجرائم، الآثار والسبل المعالجة، طبعة 01، منشورات الحلبي الحقوقية، لبنان، 2013، ص 385.

الحداثة الغربية واحتضار آلهة الشرق عند داريوش شايغان

Western modernity and the agony of the eastern gods in the regards of Daryush Shayegan

تاريخ القبول: 2019-12-18

تاريخ الإرسال: 2019-01-29

لطيفة عميرة، جامعة محمد لامين دباغين سطيف2

latifaamira66@yahoo.fr

الملخص

يعالج داريوش شايغان، الفيلسوف الإيراني المعاصر، أكثر المسائل حدة في عصرنا وحتمية الترابط بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، بين تقنية طاغية لا مفر منها وبعد روحي ضروري لمستقبل الإنسان.

فيقتراح داريوش شايغان دراسة العلاقات الأساسية المؤثرة في الدائرة الجماعية لحضارة ما مع الأخذ بعين الاعتبار البعد الروحي لها مبيّنا نقاط قوّة الحداثة الغربية دون استبعاد للدور الجوهرى للتراث الروحي.

الكلمات المفاتيح: داريوش شايغان، الحداثة الغربية، احتضار آلهة الشرق، الأصنام الذهنية، الذاكرة الأزلية، التراث

الروحي

Résumé

Daryush Shayegan, le philosophe iranien contemporain, traite des questions les plus aiguës de notre époque et de la nécessaire jonction qui s'opère entre l'Orient et l'Occident, entre le Nord et le Sud, entre la technique envahissante mais inéluctable et la dimension spirituelle essentielle à l'avenir de l'homme.

Daryush Shayegan propose une étude des liens structurels qui agissent dans la sphère collective d'une certaine civilisation mais aussi à l'intérieur de l'âme en quelque sorte, il nous montre ainsi les points forts de la modernité occidentale tout en méditant sur le rôle majeur de la tradition spirituelle.

Mots clé : Daryush Shaygan, la modernité occidentale, l'agonie des dieux orientaux, les idoles intellectuelles, la mémoire éternelle, la tradition spirituelle

Abstract

Daryush Shayegan, the modern-day Iranian philosopher, treats one of the most intense questions of our age and the necessary liaison between East and West, and North and South, between an oppressive but unavoidable technique and a necessary spiritual dimension for the future of Mankind.

And so, Daryush Shayegan suggests a study of the essential relationships that influence the collective sphere of a certain civilization while considering its spiritual aspect and showing the strengths of Western Modernity without discarding the essential role of spiritual memory.

Keywords: Daryush Shayegan, Western Modernity, The Agony of eastern gods, Eternal Memory, Spiritual Tradition

مقدمة

لهذا نستبدل في أيامنا، حوار كبريات حضارات الماضي بعزلة ثقافية حيال غرب نقلد منتوجاته الدنيا ونخضع ونعزي أنفسنا بسراب تقدم موهوم؟

هذا ما سأحاول الإجابة عنه من خلال هذا المقال الذي تتجلى أهميته في تبيان أسباب الاخفاقات النهضوية في العالم العربي الإسلامي خاصة والشرقي عامة عبر عرض أهم آراء الفيلسوف الإيراني داريوش شايفان في مسألة الحدائثة و ما انجر عنها من أوهام ووعي زائف وانفصام مكبوح متبعة في ذلك المنهج المقارن من خلال عرض مقومات الحضارات الشرقية والحضارة الغربية، إضافة الى المنهج التحليلي والنقدي لتبيان المطبات التي وقع فيها العالم العربي الإسلامي لابتعاده عن التأصيل وانتهاجه سبيل فلسفة الاستساعة على حد تعبير داريوش شايفان لفك العقدة بين الأصالة والمعاصرة.

اهم ما كتب داريوش شايفان في هذا المجال:

أوهام الهوية *les illusions de l'identité*

الأصنام الذهنية والذاكرة الازلية *idoles et mémoire*

originelle

النفس المبتورة (هاجس الغرب في مجتمعاتنا) *le*

regard mutilé

بالإضافة إلى حوارات أجراها معه كل من رمين جاهانبلو جمعها في كتاب بعنوان: داريوش شايفان في ظل سماوات العالم، ورضا خجسته رحيمي في مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" بالإضافة إلى مقال كتبه عبد الجبار الرفاعي في مجلة الكوفة بعنوان "الفيلسوف المغمور داريوش شايفان".

مقومات الحدائثة الغربية والحضارات الشرقية

1-التفاوت الوجودي بين الحضارتين

يرى داريوش شايفان أنّ تاريخ الإنسانية يشهد لأول مرة انقلاباً تاماً نكسها رأساً على عقب، ومثل تغييراً عميقاً ما فتئت رياحه تهب علينا من جهة الغرب. في القرنين السادس عشر والسابع عشر انطلق عصر الصناعة، وفي هذا العصر تم الاعتراف بالعلم كقوة (بايكون) وأضحى الإنسان سيّداً ومالكا للعالم (ديكارت). وكما كانت "محورية الكون" سمة التفكير اليوناني، و"محورية الله -الإنسان" سمة التفكير المسيحي،

يعدّ داريوش شايفان الحدائثة الغربية من أبرز التحديات التي أحدثت وما زالت تحدث تحولات فكرية وفنية في العالم العربي الإسلامي خاصة والأمم الشرقية عامة، فأفضى ذلك إلى فقدان الهوية الذي يهدد الحضارات الشرقية التي تعيش حالة من الانفصام، حيث يتصادم مستويان من المعرفة ينتميان إلى نمطين من العيش، فنجم عن ذلك حركات عفوية وردود فعل غير متوقعة من أجل التحدي والمواجهة.

لكن ماذا نعني بالتحدي؟ ألا يعني التحدي إجمالاً،

قوة تواجهنا وتدعونا الى خوض المعركة والصراع؟

أليس في هذا التحدي عنصر غريب يدخل في الحساب، عنصر يحثنا بفعل غرابته على إعادة التوازن المحتمل؟

فهل ينطوي التحدي المعاصر على التعادل في

القوى، وهل نعثر فيه على التجانس الجوهرية؟

فإذا كان الفكر اليوناني مركزه الكون، والفكر

المسيحي مركزه اللاهوت البشري، فقد غدا الفكر، مع العصر الحديث، بشري المركز، بعد ذلك حل الفكر العلمي-التقني، المنحدر من العلوم الطبيعية، محل الأشكال التأملية من المعرفة التي تأسست عليها القيم التي جعلت ممكناً قيام علاقات عميقة بين مختلف الحضارات.

وهكذا فإنّ التوازن قد اختل في صورة نهائية: فمن جهة هناك سيطرة وقوة وعدوان واستثمار ومن جهة ثانية هناك سلبية وقصور وموقف دفاعي وشلل. لم تعد المسألة مسألة حوار بين الحضارات، بل تدمير حضارات محلية على يد حضارة غدت شاملة وكونية أفضت الى انقلاب كامل في القيم والظروف والعادات والافكار.

لهذا إذن غاب عن ساحة الحاضر توازن القوى

والتجانس الجوهرية للذات شكّلا الحضارات الشرقية عوامل دفع لتفاعلات وتوليفات ناجحة وأشكال متنوعة من التجدد؟ لماذا تترزح اليوم، الحضارات الشرقية التي أُرست في تاريخ البشرية أسس أكبر الابداعات، تحت وطأة بلاهة تسبب الشلل أكثر فأكثر؟

الفردية أيضاً. إنَّها عصبياً تتفسد النور الطبيعي للعقل البشري عن طريق توظيف الميول الشخصية والسنن التعليمية والمراجع التقليدية التي تلهم الإنسان.

3-أصنام السوق تنحتها معايشة الناس لبعضهم وعلاقاتهم فيما بينهم، لاسيما العلاقات الشفوية المباشرة. فعن هذا الطريق يحل الكلام والمشاهدة محل التفكير، والكلام ينحرف بفهم الإنسان ويفضي إلى العديد من التناقضات والأخطاء الفاحشة.

4-أما أصنام المسرح فعبارة عن النظم الفلسفية الكبرى الموروثة عن الماضي، كافة المشارب الفكرية والفلسفية التي ظهرت إلى الآن، سواء كانت يونانية أو مدرسية، إنَّها هي ألعاب متنوعة تتحرك على مسرح التاريخ، إنَّها في زعم بيكون الفلسفة السفسطائية (الأرسطية)، والفلسفة التجريبية الخاصة بأراء السيميائيين ومعتقداتهم، والفلسفة الخرافية التي عكفت عليها المدارس-الفيثاغورية والأفلاطونية-.

لا جرم أن فرضية الأصنام الذهنية لها في أفكار بايكون طابعاً سلبياً ونقدياً، وكانت إثارة هذه القضية بمنزلة هجوم عنيف ضد الحكمة الشمولية.²

أصنام الذهن التي تطلع بايكون إلى هدمها، تحولت في غمرة تطورات الفكر الغربي، وبسبب التفكيك الذي كرسه بايكون نفسه بين العلم النظري والعملي فمهد الطريق لظهور التفكير التقني، تحولت إلى إيديولوجيا جديدة. وإذا كانت أصنام الذهن تشكل في الماضي ذاكرة أزلية ومعتقدات قومية غابرة، فقد اختزلت بفضل انقلاب العلاقة بين النظرية والبراكسيس (أي المنفعة) إلى أصنام أقوى وأقدر صنعت من العلم ديناً جديداً، وشتتت المعرفة الإنسانية المتسمة بالاتصال والتماسك سابقاً في غبار هائم من المذاهب والمسالك المختلفة. ومع هذه النتيجة القائلة بانفصام الرباط الفطري بين الإنسان والطبيعة، وتقلص الإنسان في كل واحدة من الإيديولوجيات المتنوعة إلى إحدى دوافعه الأصلية، يمكن أن نخلص إلى أن الإنسان الكامل الذي كان له يوماً ما قيمة سامية، أضحي محض فكرة متوحدة، دوافعه الداخلية هي التي تحرك التاريخ، وعقله المتواضع هو الذي يؤسس لكل معرفة وحقيقة.³

هذا الإنسان الذي يقول عنه أحد العلماء المعاصرين:

"ليس الإنسان سوى آلة بيوكيميائية تستمد طاقتها من نظام

فقد أضحت محورية الإنسان، هي السمة الغالبة على الممارسة الفكرية في العصر الحديث، حيث تختزل الفلسفة إلى معرفة الإنسان. من ذلك الحين فصاعداً شغل التفكير العلمي - التقني المنبثق عن العلوم الطبيعية، مكان المعرفة التأويلية والعرفانية، التي حافظت على القيم شامخة حتى ذلك الحين وأهلتها لتسهيل التواصل العميق بين شتى الحضارات وهكذا يختل التوازن بأفطع صورة.

والعوامل التي أدت إلى هذه التحولات الجذرية في نظر الفيلسوف الإيراني، هي عوامل متعددة، ولا يمكن تحليل حيثيات هذه العوامل ومفاصلها كما تستحقه، يكفي القول بأن الفكر الغربي تلقى موروثين كبيرين: الفلسفة اليونانية والثقافة الدينية اليهودية والمسيحية. ورغم كل المساعي المتعاقبة خلال القرون الوسطى، إلا أن هذين الموروثين لم يستطيعا أن يتلاقحا ويندمجا، وبقيت التركيبة التي حاولت التوحيد بين التفكير اليوناني القائم على أساس "محورية الكون" وبين الديانة المسيحية المرتكزة على "محورية الإنسان - الله"، والتي سعت أيضاً إلى الجمع بين الدين والفلسفة في وحدة لا تتجزأ، بقيت هذه التركيبة مهزوزة هشّة، ولم تستطع الصمود حيال المعارضين المطالبين بالانفصال، وبالتالي فقد انهارت نهائياً عقب آخر المساعي التي أبداهها "توما الأكويني".!

أ-الأصنام الذهنية في الحضارة الغربية

ظهرت فرضية الأصنام الذهنية لأول مرة على يد فرانسيس بايكون وهو أحد مؤسسي النهضة الغربية في بريطانيا وهو باعتقاد الكثيرين رائد الفكر الوضعي، حصر بايكون أصنام الذهن في: أصنام القبيلة، وأصنام الكهف، وأصنام السوق، وأصنام المسرح.

1-أصنام القبيلة هي المعتقدات الموجودة في ذهن الإنسان والكامنة في قوميته. ذلك أن أي إدراك نابع من الحواس والذهن، هو إدراك منفصل عن قوالب الذهن المسبقة ولا يتطابق أكيد مع واقع الأشياء، وبالتالي سيكون ذهن الإنسان أشبه بالمرآيا غير المستوية التي تخلع خصائصها على الأشياء.

2-أصنام الكهف هي تلك المعتقدات الخاصة بالفرد. فالإنسان بصرف النظر عن عصبياته وأخطائه الجماعية التي تنسرب إليه عبر انشداؤه إلى قبيلة أو فئة معينة، له عصبياته

دقيقة. يقول ديكارت في الفصل السادس (مقال في منهج الاكتشاف العقلي): "... بدل الفلسفة النظرية التي تُعَلَّم في المدارس يمكن إحلال فلسفة عملية توضح قوى وتأثيرات النار والماء والهواء والنجوم والأفلاك وكافة الأجسام الأخرى التي تحيطنا، بنفس درجة الجلاء والدقة التي تتضح بها لنا اليوم فنون الحرفيين على اختلافهم وتنوعهم. واذن، نستطيع استخدام المعلومات المذكورة لفوائد تناسبها، فنتملك الطبيعة ونطوِّعها"⁴.

لم تعد الطبيعة موجوداً حياً مستقلاً، وهي ليس حضوراً يمنح للإنسان مباشرة، بل هي شيء يتغير باستمرار ويكتسي صوراً جديدة بسبب الفعل المادي للإنسان. الطبيعة بعبارة أخرى، هي حصيلة الفعل البشري، ولهذا يسميها ماركس (الطبيعة الواقعية الأنثروبولوجية).

الفاعلية التي ينبثق التاريخ العالمي بموجبها، وتكتسي الطبيعة صورة الفعل البشري، هي العمل الاجتماعي، فالحياة الاجتماعية لا تسبغ على الإنسان بالصدفة، إنّما هي في الأساس ما يكون وجود الإنسان. يقول ماركس: "يتشكل الجوهر الإنساني من مجموعة الظروف الاجتماعية".

الثمرة الأولى والأبرز للأنثروبولوجيا الماركسية هي أنّ أسلوب الإنتاج يشكّل جوهر الانسان، وتعبير آخر، ثمة تناغم تام بين أسلوب الإنتاج وكيفية وجود الإنسان، وما نسميه تاريخ العالم ليس سوى إيجاد الإنسان بواسطة عمل الإنسان. لا يمكن تحرّي اتجاه روحي أو مثالي وراء تحولات التاريخ الكبرى. الحداثة التاريخية ليست حصيلة فاعلية انتزاعية لوعي ذاتي موهوم أو روح عالمية غامضة أو شح ميتافيزيقي، وإنّما هي نتاج عملية مادية وتجريبية. الظروف الاقتصادية والاجتماعية ذات دور في صياغة الآراء والمعتقدات يوازي دور الآراء والمعتقدات في تشكيل هذه الظروف، والطبيعة أحد هذه الظروف الأساسية⁷.

ويواصل الفيلسوف الإيراني حديثه عن انفصام الرباط الفطري بين الإنسان والطبيعة، وتقلص الانسان في كل واحدة من الإيديولوجيات المتنوعة إلي إحدى دوافعه الأصلية، يمكن أن نخلص إلى أنّ الإنسان الكامل الذي كان له يوماً ما قيمة سامية، أضحي محض فكرة متوحدة، دوافعه الداخلية هي التي تحرك التاريخ، وعقله المتواضع هو الذي يؤسس لكل معرفة وحقيقة⁸.

وقود معين يكفل الطاقة للكمبيوترات أيضاً" الذي يفضح هذه الجملة هو تعبير «ليس سوى» الذي يجعل الإنسان في كلّ الحقول العلمية تابعاً لنظام شيئي يمسحه في نهاية المطاف "مخلوقاً مشوهاً" في ساحة الطبيعة⁴.

على أنّ الآفاق الجديدة، وفي حين تتبدى وتوسع من ماديات نظرنا للعالم، فإنها تزلزل الأرض تحت أقدامنا أكثر ممّا هي متزلزلة في الأساس. يدل الميكانيك الكمّي أنّ المكونات الأساسية للمادة لا تتبّع قوانين الفيزياء الكلاسيكية، ففي هذا المضمار يقول داريوش شايعان أنّنا إزاء مفاهيم قشبية مثل مبدأ "اللأجزم" و"النظرية النسبية". وهكذا يبقى بناء المادة أكثر غموضاً، ويتسع المجال لمزيد من المجهولات والأسرار، يغوص "فرويد" في أعماق النفس ليكتشف آلية اللاوعي الفردي و(اللويديو)، ويخلع يونغ الطابع الكلي على هذا اللاوعي الفردي فيسميه (اللاوعي الجماعي) المولود من رحم الصور الأزلية للبشرية، وعلماء الاجتماع الفرنسيون يدرسون بنية الذهن لدى الشعوب البدائية وهي بنية عرفت بشكل مغلوط فيما سبق⁵.

تكتسي هذه الغرائز في آراء هرمان ياكوبيلبوس الماهية الفردية، وتنتهي بتعاليم "الناتوراليين" les naturalistes و"الوضعيين" les positivistes إلى فرضية "الإنسان صانع الأدوات"، وهي فرضية لا ترى الفارق بين الإنسان والحيوان إلا في الدرجة وليس فارقاً ذاتياً. في مثل هذه الرؤية، لن تعود الروح انعكاساً لعقل أعلى، وإنّما ظاهرة متفرعة عن الطبيعة. الدوافع التي تحدد مسار التاريخ هي إمّا الميول الجنسية (فرويد) أو إرادة القوّة (شوينهاور، نتشه، وادلر)، أو أنّها نزعات إنتاج وبالتالي عوامل إنتاج تتفرع عن غريزة التغذية بأعم معانيها (ماركس).

في ضوء هذا المسار، يتاح القول أن الفكر الغربي شهد حركة وانتقالاً من العلوي إلى السفلي، ومن العقل إلى الغرائز، ومن الغائية والمعاد إلى عبادة التاريخ، ومن الروحانية إلى التعقل، ومن استغراق ذاهل لإنسان ذائب في المطلق إلى أنانية شرهة متورمة تقف وقفة الأنداد حيال الله والطبيعة.

إن لم يعد العلم تفرجاً ومكاشفات، بل وسيلة لبلوغ هدف معين يتبلور في سد احتياجات الإنسان التي لا يمكن إشباعها بغير الاختراع، المنهج الذي نضجه بايكون في ذهنه كسياسي كبير تحول في فلسفة ديكارت إلي خطة فلسفية

ب-الذاكرة الأزلية في الحضارات الشرقية

بعد هذا العرض للأصنام الذهنية عند بيكون يتساءل داريوش شايغان عن مضمون أصنام الذهن في ضوء القيم التقليدية ، ومع أي الحقائق تتطابق .

إنَّ أطروحة شايغان لأصنام الذهن مخالفة تماما لمنهج بايكون لأنه يحاول الإشارة إلى الأبعاد الإيجابية في هذه الأصنام ، ومن البديهي أنَّ بايكون لم يكن بوسعها الاطلاع على فرضيته من هذه الزاوية ، لأنه كان متمرداً على ما يسميه التقاليد أو التراث ، ووثقا من سلبية وأضرار المعتقدات القديمة إلى درجة لم يخطر معها بباله إطلاقاً أن تكتنف الذاكرة القومية كل هذه الكنوز النادرة وأن تعبر عن منحى آخر من مناحي المعرفة .

وإذا كان باستطاعتنا اليوم تقديم مثل هذه الرؤية فمرد ذلك إلى أننا نشهد حالياً في الآفاق التاريخية للفكر الغربي حركة هابطة نازلة فتح بيكون الباب لها قبل أربعمئة سنة. تكتسب هذه الآفاق أهميتها من حيث أنَّها تكشف عن الحيوية المتوثبة للفكر الغربي ، وأيضاً لأنها بسبب فوارقها عن تفكيرنا ، تسلط الضوء على خصائص عاداتنا الفكرية ، وتفسر لماذا لم تنبثق في الشرق تلك النهضة التي عرفت باسم الرنسانس Renaissance والتنوير ، كما ظهرت في الغرب ناسفة عالم القرون الوسطى القديم. من أجل انبثاق هذه النهضة كان من الضروري بالنسبة لنا أيضا أن نهج منهج مكافحة الذاكرة ، ونسلك سبيل الاستذكار لا في تحطيم الأصنام.⁹

يذهب شايغان أنَّ ما قصده بيكون من الأصنام الذهنية يمكن تفسيره في سياق المعتقدات التي تشكل التراث ، وللتراث ذاكرته وذكرياته التي لا ترتبط بفرد معين وإنَّها هي ذات طابع جماعي ، ولها كانت الذاكرة القومية لكل شعب ، شئنا أم أبينا ، علم أنساب ذلك الشعب ، وهي التي تحافظ على اتصاله بالأحداث الأزلية والأساطيرية ، لذا يتسنى نعت هذه الذاكرة بأنَّها أزلية¹⁰

إذن ما هو المعنى الممكن للأصنام الذهنية في ضوء هذه الذاكرة القومية الأزلية عند شايغان ؟

تمثل هذه الأصنام الذهنية فيما يلي :

1- أصنام القبيلة تشمل تراث قوم معينين ، أو لنقل إنَّها أمانة وصلتنا عن طريق انتقال كنوز تراثية . بعبارة أخرى ،

المراد بهذه الأصنام ذاكرة جماعية قومية معينة ينبع منها التفكير ، ويحاول الأفراد تنظيم سلوكهم الأخلاقي والمعنوي بناء على القيم الكامنة فيه ، والتطابق مع نموذجها .

2- - أصنام الكهف إشارة إلى ميول الأفراد وسلوكهم الذي تتماشى في المجتمع التقليدي مع القيم الروحية والجماعية لذلك المجتمع ، والفرد في مثل هذا المجتمع تابع للجماعة ، أما مفهوم الفردية والفكر الفردي الحر كما ظهر لاحقاً (في العصر الحديث) فلم يكن قد تبلور بعد.¹¹

3- أصنام السوق ناجمة عن الأخطاء المستترة في الكلام والمشاهدة لأنَّ الكلام يفقد أثره السحري حينما ينقطع الفكر عن جذره الأزلي أي عندما يتحول إلى لغة محاورة يومية بعيدا عن تداعيات الذاكرة .

فاللغة لا تستطيع الحفاظ على أصالتها الروحية إلا إذا تمكنت من الاحتفاظ بمفاتيح رموز الأمانة في داخلها والتواصل مع الذاكرة الأزلية ، فالكلام يبقى أجوقا من دون مضامينه

الأصلية ، وفي هذه الحالة فقط يتحول إلى عقبات محيرة في طريق التفكير كما يعبر بيكون .

4-أصنام المسرح تشمل المنظومات الفلسفية الكبرى ، بيد أنَّ المنظومات الفكرية في المجتمع التقليدي ليست مقاطعات فكرية مستقلة.¹²

إنَّ أبرز ما يميز التفكير في التصورات الشرقية عند شايغان هو قبل كل شيء المشاهدة المباشرة والكشف والشهود ، وهو هدف مميِّز لكافة الثقافات العرفانية في الشرق والغرب. فالتفكير الغربي ب «مكافحته السحر» وإقصائه عن الطبيعة ، وبطرده كافة أشكال العلاقة بين العالم المحسوس والعالم المعقول ، وبالغائه أية علة غائية يمكنها التدخل من وراء مظاهر العالم ، وباختزاله سلسلة مراتب الوجود الى مستوى الامتداد وبعد الجوهر الجسماني ، وبالقضاء على «الصور الجوهرية» ونقل الصفات الكيفية للطبيعة إلى تجليات الذهن البشري ، وبتحويله ملكة الخيال إلى مستوى التصورات المشوشة الغامضة ، إنَّها يمسخ الإنسان إلى مرتبة أحادية الأبعاد ليحوله فكرة أجنبية ، وبهذا يستبعد القوة الإشرافية التي لا تندرج في خانة العقل الخالص ، ممهدا الأرضية للمنهج الاختزالي الذي نادى به العلوم الحديثة.¹³

يرى داريوش شايغان بأنَّ هنالك ثنائية كامنة في البنية التأسيسية للفكر الغربي ، لا تجد ما يعادلها في المعنوية

على الرغم من اختلافاتها الهائلة ، إلا أنّها تنهل من ينبوع واحد ، ولها تصورات متقاربة للإنسان والروح ومآله ، وهذا المأل يتعلق في قليل أو كثير بهدف أوحد كان في المعنوية الشرقية القديمة نوعاً من التكامل الروحي يحصل عن طريق الإشراق.

غير أنّ بايكون يطالب باجتثاث الذاكرة الإنسانية ، والهراد بها مخزن الصور الأساطيرية التي تشكل الحكمة الفياضة والخالدة للإنسان ، الأسلوب الذي يتخذه بايكون لهذا الهدف يمكن أن نطلق عليه هاهنا اسم «مكافحة الذاكرة» ، وهو أسلوب يتحالف مع تيارين آخرين موازيين ومتناظرين هما (علمنة التفكير الأساطيري) و(مكافحة السحر عن العالم) ، ليؤدي تالياً ضمن حركة نزولية الى التفكير التقني وهينته الحاسمة.¹⁷

حينما لا يكون ثمة مناخ لازدهار التفكير اليهودي والأساطيري تمنى الحرية الداخلية للإنسان بأزمة ، ليست الحرية مجرد شعار يرفعه الثوريون للاعتراض على النظام السائد وغياب العدالة الاجتماعية أو الانتصار في الصراع الطبقي ، فالحرية مضافاً إلى كل هذا رؤية محايدة وغير متحيزة في اللعبة العالمية. إنّها نظرة يمكن رصد عمقها في المثالية الواعية الحكيمة كما تبدت في أفكار الشرق الكبرى. «إرهات» البوذية ، والإنسان الكامل في الإسلام ، والحي الحر في الهندوسية كلها مظاهر هذه النظرة المحايدة التي تتفتح في ساحة اللعبة العالمية.

أن يكون في أعماق الأشياء انفراج يشبه تفتح الورد السحرية في فجر الخلق الأساطيري (الهند) أو تجليات الفيض الرحماني في مرايا العالم الملونة (الإسلام) أو الارتعاشات الأولى للذكرى الكونية (الفلسفة البوذية) وتكون مضمره في محيطات الأزل ، إنّها هو أمر كررته الثقافات الشرقية دائماً بفضل سحر الرؤية الأساطيرية – الشعاعية ، وأن لا يعود الإنسان منشداً إلى التفاصيل والأشياء في اللقاء البصري المباشر ، بل يرى نفسه متوحداً مع اللعبة التي تتلاعب به في داخل حريته ، هي أيضاً حالة تجلّي في الثقافة الشرقية.

الذاكرة الأزلية عند شايفان هي مخزن الوعي في مدرسة المهايانا البوذية ، وهي بيضة ذهبية تتفتح كوردة نينوفار في الأساطير الهندوسية وهي أم الملائكة الملهمه في الأساطير اليونانية.¹⁸

الآسيوية ، وحتى لو كانت ثمة ثنائية بين هذه المفاهيم في الشرق ، فإن هذه الثنائية لا تسفر أبداً عن فصل حاسم بين الطرفين يمثل غرابة وأجنبية أحدهما على الآخر. بكلمة ثانية: يبقى الجسم تابعاً للروح كما يبقى العلم العملي مغلوباً من قبل العلم الشهودي ، ويبقى الدين والفلسفة وجهين لحقيقة واحدة. ما يسميه بايكون أصنام الذهن ويشجبه ، هو في الفكر الشرقي أمانة تبقى مصونة في الذاكرة القومية ، ويحاول مفكرو الشرق الكبار تحري أساس الفكر في غمرة العلاقة بتلك الأمانة وفي استذكار الرسالة المضمره فيها ، ذلك أن الانقطاع عن مصدر الذاكرة القومية يمثل انقطاعاً عن الجذور ، وبالتالي اغتراباً يقذف صاحبه إلى هاوية العدمية ، وهذه تجربة عاشها الفكر الغربي بأقصى درجاتها ، من هنا كانت أصنام الذهن في نظر بايكون الوجه السلي لتلك الذاكرة الأزلية ، والعلم بالنسبة له هو نفس تلك الأصنام واتخاذ منهج بحثي جديد.¹⁴

وسبب هذا الاختلال عند شايفان هو أنّ «الصور الجوهرية» تركت مكانها تدريجياً للعلاقات الرياضية والقيم الكمية ، وبالتالي تغلبت المعرفة من حيث هي قوة على الرؤية الأساطيرية والتأويلية للإنسان. لماذا كانت غاية المعرفة في (الطاوية) الصينية اللاعمل ذاته ، ولماذا أوصت الديانتان الهندوسية والإسلامية على الترتيب بالعمل للأهداف والقناعة؟

السبب هو أنّ ثمة قوّة كامنة في الممارسة العملية ، أي في الفعل المختزل إلى معايير الشئئية والعمالنية (البراكسيس) إذا انقطعت عن قيم المعرفة العليا ، أو وجدت تياراً عارماً لتحول لا رجعة فيه ، ومثل ردة الفعل هذه تخلق سلسلة تتمثل ذروتها في سقوط الأوجه الأخرى للشعور والإدراك. هذا الخطر الضمني المضمّر في طبيعة كل معرفة تركز على الفعل الصرف وتكون غايتها استثمار الطبيعة والهبوط بها إلي مصادر طاقة ممكنة التبديل إلى بضائع استهلاكية ، كان محسوساً منذ البداية في طبيعة الحضارات الشرقية.¹⁵

إنّ أصنام «فرانيس بايكون» في نظر شايفان لها معادلاتها في التراث بمعنى الأمانة الإسلامية ، أي في الذاكرة الأزلية للكنوز التي يرثها الإنسان عن أسلافه ويبقى وفيّاً لها كعهد مقدس ، لا "تأهيل العلوم وتطويرها"¹⁶.

المدارس الفلسفية في المجتمعات التقليدية (في الدارشات الهندوسية أو المسالك الأربعة الكبرى في البوذية)

النتيجة التي يتوصل إليها بعد هذا العرض أنّ الوفاء للأمانة وتذكر العهد هو الغرض الوحيد من الخلقة ، وهو الدور الأسمى الذي يمكن أن يمارسه التفكير ، وعلى ذلك ، لن يكون العلم مجرد تطابق بين الشيء ونفس العالم كما يقال بالنسبة للعلم الحسولي ، إنّما هو استذكار قبل كل شيء . الجوهر الأصلي للتفكير هو ما قاله الحق في قرآنه الكريم: "فَأَذْكُرُونَ أَذْكُرْتُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾" ²⁴ أو "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَبِيرًا ﴿٣٥﴾" ²⁵

إذا كان البعض يوصي بآيات التذكر والذكر في القرآن فلأنّ الإنسان نساء ، واستذكار الذكرى الأزلية هو بمثابة الدواء المعجز الذي يعالج مرض الفؤاد " وفي قلوبهم مرض " وما ذلك المرض إلا النسيان وفقدان الذاكرة ، فالذكر هو القادر على رفع أقدار الفؤاد ، والعارف على حد تعبير نجم الدين الرازي ²⁶ (ينفي ب (لا إله) ما سوى الحق ، ويثبت ب (إلا الله) حضرة العزة). ²⁷

يتابع شايغان تأكيده على الوفاء بالأمانة مستشهداً بآيات لأحد أبرز الشعراء الإيرانيين الملقب ب "حافظ" ²⁸ الذي يقول في أشهر أبياته لم تستطع السماء حمل أعباء الأمانة وخرجت القرعة باسمي أنا المجنون.

ويرى شايغان أنّ مفتاح هذا البيت الشعري في ثلاثة مفاهيم: الأمانة ، القرعة ، المجنون ، تقبل الإنسان الأمانة لأنّه كان مجنوناً ولديه الشجاعة على قبول أمانة جامعة قصرت عن قبولها ثلاثة عوالم ، من جانب آخر يرتبط مفهوم الجنون بكلمتي "ظلوماً جهولاً" في الآية القرآنية ، تقبل الإنسان الأمانة لأنه كان مرآة كاملة لجميع الأسماء والصفات الإلهية ، وتقبل الإنسان حمل الأمانة لأنه كان ظلوماً جهولاً وبعبارة أخرى كان قدر الإنسان تحقيق هذه الشجاعة الجنونية على أرض الواقع .

ولكن ما هو المراد من الظلوم والجهول ؟ كلمة ظلوم على ما يرى ابن عربي منتزعة من الظلمات لا من الظلم ، وطالما كان الإنسان آخر مرتبة من مراتب الظهورات والنزولات ، فإن أحد طرفيه مظلم عمدي ، لكن الإنسان في الوقت ذاته جهول ، والمقصود بالجهول ، الجهل بما سوى الحق. ²⁹

هذه الأواصر البنوية والترابطات الشكلية المعقدة في شتى جوانب الحضارة في نظر شايغان هي التي تحدد رؤية الإنسان ، والمقولات الموضوعية (الزمانية – المكانية) ، هذه

فهي لا تعرف الزمن لأنها متعالية على أجزاء الزمن ، وهي مخزن للكينونات ، لذا كانت لها رسالتها ورغبتها في أن تحافظ على هذه الرسالة حيّة في قلب الإنسان وذهنه ، من منظور إسلامي تجلّى مفهوم الأمانة بأفضل وأبلغ الصور ، وهذه الأمانة هي تلك الرسالة التي تلقاها الإنسان في يوم «ألست» . يوم «ألست» هو يوم الميثاق والعهد ، والميثاق دعوة إلى الوفاء للرسالة الكامنة في الأمانة ، الوفي لنفسه هو فقط ذلك الصائن للأمانة والحافظ لعهد ، وأي عهد أخطر من الأمانة التي أقيمت على عاتق الإنسان في يوم «ألست» . الأمانة تمثل أساس وجود الإنسان والغاية القصوى لحياته . ما يبلور إنسانية الإنسان ليس الثقافة والاعمار الذي يسميه هاردر (فن النوع البشري) ، وإنسانية الإنسان لا تحددها الحركة الديالكتيكية للروح المطلقة ، أو وسائل العمل والإنتاج ، أو تطور الصناعات وتقدم المجتمعات ، ذلك أنّ الإنسان ليس في الأساس ثمرة حركة التاريخ. ¹⁹

فالأمانة إذن عند شايغان هي في الحقيقة وفاء تام للذاكرة الأزليّة ، مستشهداً بقوله تعالى:

"إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٣٥﴾" ²⁰.

يقول الشيخ محمد اللاهيجي ²¹ في تفسير هذه الآية أنّ المراد بالأمانة أمانة جامعة تشمل كافة الأسماء والصفات ، فالإنسان نسخة ومرآة لجميع الأسماء والصفات ، والمراد بالسماء عالم الأرواح أي عالم الجبروت ، والأرض إشارة إلى عالم الملك والشهادة ، بينما الجبال مظهر لعالم المثال الكائن بين عالم الأرواح والأجسام ، عرض الله هذه الأمانة الجامعة على ثلاثة عوالم فرفضت حملها لأن قابليتها الذاتية كانت قاصرة على حمل الأمانة ، غير أن الإنسان استجاب للعرض لأنه ظلوم جهول. ²²

ويستطرد المفسر الإيراني ببيان أنّ "ظلوماً جهولاً" هما «غاية المدح تبدت ظاهرياً على شكل ذم» لأنّ الإنسان ظلُماني من جهة وجاهل بما سوى الحق من جهة ثانية ، ولذا كان جامعاً للأضداد ، ومن هنا كان أشبه بالمجنون ، وهذا هو في الواقع التناقض الكبير للإنسان المختر الذي خرجت القرعة باسمه والذي استطاع تحقيق جنونه ، ولكن ، حيث أنّ الإنسان حامل للأمانة وصائن لها ، وقد سلّمت له هذه الأمانة في يوم «ألست» أي في يوم «ألست بربكم» ، لذلك كانت رسالة الإنسان الأساسية استذكار العهد المضمّر في الأمانة. ²³

بالحدائث الغربية وكيفية التعااطي معها ، فالنخب المسيطرة في البلدان الإسلامية رأت في الحدائث الغربية مجمل التقنيات الحديثة فنقلتها إلى مجتمعاتها وأجرت تحديثا وليس حداثة ورفضت هذه النخب أن تأخذ مع التقنية الغربية مجمل الأفكار والمفاهيم التي كانت وراء إنتاج هذه التقنية وهذا ما انتقده شايفان بقوله: "غالباً ما نحاول عدّ التقانة ظاهرة غير ضارة تستخدم بأشكال متنوعة ، وننسى أو أننا نجهل أساساً أنّ التقانة ليست هي ماهية التقانة ، إذ من السذاجة أن نعتقد بإمكانية فصل التقانة عن القيم التي تخالطها ، إنّنا في الغالب ننسى أو لا نعلم أنّ العلم ، والتقانة في الفكر الغربي لم تكن أبداً ظواهر مجزأة عن بعضها ، بل على العكس هي النهاية الحتمية للفكر الغربي ، وأنّ تيار العلمنة القديم كان سارياً في هذه الانتصارات المذهلة.³³

إنّ الازدواجية المرضية التي أضحت ساحة لسجلات الوجهين المتناقضين في وجودنا ، تشلّ مساعينا وتصدانا عن التحرك وتسدّ الطريق أمام ازدهارنا الفكري ، والفكر لا يبدو مبدعاً منتجاً إلا إذا استعاد ذاكرته ، أي إذا استمد الفيض من «مشكاة أنوار النبوة» كما يعبر الحكماء المسلمون ، أو إذا كان مستقلاً تماماً ، أي إذا تخلى عن أرضية الاستذكار القومي وخاض في كل الغمار العاتية من أجل ترسيخ مرتكزات جديدة.³⁴

في الوقت الحاضر لا يبدو قادرين على الاتصال بـ (مشكاة أنوار النبوة) ولا نحن في درجة من التحرر والانعتاق من دون أن نكل أو نهار ، طردنا من هناك ولم نلتحق بهنا ، لقد وقعنا نحن الشرقيين في برزخ من التضعف واللاقرار جعلنا عرضة للآفات إلى هذه الدرجة وترك ردود أفعالنا عصية على التخمين إلى هذا الحد ، وبقينا نترنح بين هذين القطبين: بين «لا وتسو» و«ماركس» ، بين سلول السامورائيين النبيل والعنف الاقتصادي ، حيثما تنفعل الطاقات الخلاقة ، تغدو كل الأحوال حتى أكثرها غرابة ، ممكنة الانبثاق والظهور.³⁵

في هذا العالم الذي وصفه شايفان بأنه مرّقع بأربعين رقعة ما زال يحتمل حدوث "فصام ثقافي" الذي يترجم نفسه بعدم تجاوز الماضي والعجز عن استيعاب الحاضر ، فيحضر الفرد في فضائين وجوديين ، غير أنه لا يستطيع التفكيك بينهما ، يصبح كالتلفاز الذي يستقبل قناتين ، كلاهما تظهر من خلال شاشة واحدة ، وفي نفس

الاحتكاكات والصدمات والحوارات والنهضات التي تفتح وتزدهر داخل إحدى الحضارات ، هي بالنسبة لصانعيها والمتأثرين بها ومستلميها والمستفيدين منها ، كانت يقيناً في حكم «التحدي» ، وكانت إلى ذلك سبباً في حريتهم وازدهارهم وتفعيل طاقاتهم الخلاقة. إذا كان «شانكارا»³⁰ يحارب الدين البوذي من ناحية ، ويستلمه من ناحية ثانية ، فمرد ذلك إلى أن الافتقار إلى الجوهر أو إلى أنّ «كارما» هي الأصرة المتينة لكلا الرؤيتين.

وإذا أراد دارا شاكوه³¹ التوحيد بين العرفان الهندوسي والتصوف الإسلامي ضمن إطار تشببه جد متسرع (وملفت في الوقت ذاته وبنفس الدرجة ، من حيث العلاقات المترتبة عليه) فالسبب يعود إلى أنّ الديانتين الهندوسية والإسلامية لهما في تجربتهما الميتافيزيقية بني متجانسة ، مضافاً إلى أن مثاليات الإنسان ، ومصيره ، وواقعه في العالم ونظامه الوجودي أمور متكافئة في كلا الرؤيتين الهندوسية والإسلامية. إذا كانت أفكار ابن سينا وابن رشد قد حضت المفكرين الغربيين على اتخاذ مواقف حيال هذا التحدي الشرقي ، وإذا كان «الخلق من العدم» الناجم عن الإرادة الحرة في المسيحية ، يقف على الجهة المقابلة للجبر اليوناني - الإسلامي ، وإذا كان فيض " الوجود والخلق من العدم يلتقيان في التجاذبات المؤثرة والمثمرة لتوالد الأفكار وتخصيبها ، فالسبب هو أن الإسلام والمسيحية المصطبغة بالتلاوين اليونانية ، ورغم الفوارق الخطيرة بينهما ، يعتقد أنّ كلاهما بالمرجعية الإلهية والروحية العليا ، وأن التجارب العرفانية لإضراب ابن عربي و ما يستر أكهارت متكافئة في أصلها رغم تفاوت المناخات الثقافية التي احتضنت التجريبتين.

2- من الذاكرة الأزلية إلى الهوية بأربعين وجهاً:

بعد هذا التفصيل في مقومات الحضارات الشرقية والفوارق الأساسية بين مقولات الرؤية الأساطيرية التي تمثل العنصر السائد في التفكير الشرقي ، وبين التفكير الفلسفي في العلم الغربي ، يتساءل شايفان عن إمكانية إقامة تناغم أو مصالحة بين التحدي المعاصر وأسلوب نظرنا وتصورنا ، وهل بالإمكان المصالحة بين التقنية والتراث وإنقاذ الذاكرة القومية ، وفي الوقت ذاته تحمل آلام (مكافحة الذاكرة)؟ ينطلق شايفان في مناقشة هذه التساؤلات من طبيعة علاقة الدول العربية الإسلامية خاصة والدول الآسيوية عامة

لم تتوقف النخب الإسلامية من دق أبواب الحداثة والإصرار على وجوب الدخول إلى مقبساتها واتخاذها سبيلاً لنهضة موعودة دون أن تتابع أسفارها عبر التاريخ، فتراها في صراع مع تجسدها الأكثر تطرفاً والأكثر اختزالية بحيث أنه من دون الانتباه إلى حدة التغيرات النوعية التي تصينا، نرى أنفسنا فجأة ماركسيين، ووضعيين، ووجوديين رغم بقائنا غرباء عن السلالة الفلسفية التي انبثقت منها هذه الأيديولوجيات⁴¹

لقد قاد الجهل بهذه السلالة الفلسفية، وهذه الأوصاف البنيوية، والترابطات الشكلية المعقدة في شتى جوانب الحضارة ومجمل اورغانيكية الثقافة في نظر شايغان " إلى استعارة نظام القيم والأيديولوجيات الغربية وظهر وباء الغرب بصورة مبتذلة في تفسير الصلاة بالرياضة، والوضوء بالنظافة، والصوم بالنظام الغذائي، والديمقراطية بالشورى"⁴².

إلا أنّ الديمقراطية عند شايغان هي "ابنة الأنوار، والأنوار هي ذروة نتاج العصر الانتقادي، أي النقد الجدي للحقائق المعقدية"⁴³

فمبدأ الحياة الاجتماعية والقانون والمدنية وحقوق الإنسان والديمقراطية وأشبابها في الحياة الحديثة، جميعها غريبة، إنها ثمرة أربعة قرون من تاريخهم.

لكن أخطر ما يراه شايغان في المجتمعات الإسلامية عملية الكولاج collage (أي اللصق) التي تمارسها النخب المثقفة إذ يتم لصق الإسلام فوق مفاهيم معلّنة مثل الديمقراطية فيؤدي ذلك إلى أخلط هجينة، كوككتالات متفجرة ستزرع الالتباس في عقولنا بدلاً من التوصل إلى حل مشاكلنا.⁴⁴

فانجر عن عملية اللصق هذه الوهم المزدوج الذي يتجسد في تغريب مكثف وفي استيلاّب تدريجي إلا أنّ التغريب ليس وعمياً للفكر الغربي، إنّهُ على العكس من ذلك سلوك سلبى يشل الحركة حيال انتصاراته العجيبة وافتتان مبهر وإعاققة شبه نفسية، دون الدخول في العقل الذي يحرك ديناميكته⁴⁵

بين ما نخال أننا نؤمن به، وبين ما نشعره، تنامي بون شاسع لا يعجز عن تحفيزنا على تركيبة جديدة أو إنتاج قوى جديدة خلّاقة وحسب، وإثماً يعث فينا سياقاً «اسكيزوفرنياً» يتمظهر في منجزنا الفني والأدبي، ليدل دلالة

اللحظة، ماذا يحدث؟ حينما تأتي أفكار حديثة ولا نعلم من أين أتت، أو حينما يصاب الإنسان بتغريب لا واع، يكون عرضة لفصام ثقافي، حينما تتداخل هاتان الحالتان يصاب الفرد بالشلل الذهني، فيضطر للتغليب والطلاء، بسحب هذه على تلك، وتلك على هذه، يخلع غطاءً حديثاً على التراث، أو غطاءً تراثياً على الحداثة.³⁶

فتتولد ظواهر حديثة من قلب التراث، بينما هي ليست نتاجه الطبيعي، بل بسبب مواجهته مع الغرب عندئذ يهيمن الفكر الانتقائي، الذي قد يتولد منه أي شيء، من قبيل العمليات الانتحارية المنبثقة من تراث يحرم الانتحار، فينبثق عن ذلك دعاة الهوية الأصوليون والغربيون والمجانين، وجميعهم يريد أن يبني جنةً لكن في النهاية يبنون جهنماً ويحرقون المدينة.³⁷

يرى شايغان أنّ مشكلتنا مع العالم من حولنا، هي أنّنا لم نساهم في تكوين الحضارة الغربية، فنبحث عن طريق لاختزالها والالتفاف عليها، في بعض الحقب كانت الشيوعية تمثّل أفضل طريق للالتفاف، دول تشبهنا، ممن لم يحضروا وليمة الحداثة الغربية، والنهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر، والإصلاحات الدينية في القرن السادس عشر، وحركة التنوير في القرن الثامن عشر، والثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، كانوا في سبات عميق، ولم يصحوا من رقادهم إلا بعد أن رست بواخر أوروبا في شواطئهم. في مثل هذه الدول يبدو أن الالتفاف واختزال الطريق، هو الحل الوحيد لإخفاء الغياب عن التاريخ، لم نلتفت لحالنا وللمصير الذي وصلنا إليه إلا في نهاية القرن التاسع عشر.³⁸

ولعل احتلال أوروبا لمعظم الدول العربية والإسلامية بعد انكفاء الرجل المريض كان بمثابة الإرهاصات الأولى لهذا الاستعمار المنظم الذي أخضعها لسيطرة تقنية، فبات من المقطوع به أنّ هذا السياق التاريخي مما لا رجعة فيه، وأنّ الحوافز التي تدفعه إلى الأمام تتبع نظام المنفعة والربح وليس التعاطي الروحي بين الحضارات³⁹

ويزداد الأمر سوءاً في العالم العربي الإسلامي عند تهربه من مناقشة أزمانه البنيوية وأسباب تخلفه، فمنذ مطلع عصر الكولونياليزم (أي الاستعمار)، سيغدو مثل هذا التاريخ العالمي ملكنا نحن أيضاً، ولكن لا من حيث أنّنا ساهمنا في إيجاده، بل لأننا لا نملك متاريس تحميننا حيال اعتداءاته⁴⁰

تجسراته الفكرية وبالأخص في هذا الزعم الوهمي الذي يعتقد أنه يمتلك ردوداً جاهزة على كل مسائل العالم.⁴⁹ يتساءل شايفان حول دور النخب الإسلامية وحجم مسؤولياتها عن الإخفاق في قراءة عناصر الفشل التي منيت بها هذه المجتمعات في بناء تنمية حقيقية اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية، كما يتساءل عما اجترحناه لمعالجة الموقف؟ لا شيء! إننا نكرر الأخطاء السابقة، ربما لو تعلمنا من تجارب الناس الذين نقلدهم، أو إذا كنا أوفياء لذكرى أسلافنا، لبقينا بعيداً عن تجرع سموم الإخفاقات. ولكن كلا، نحن متسرعون في أن نسبق حتى أولئك الذين يستعجلون بلوغ مقصد لا أحد يعرف عنه أي شيء، فالقول إذن بأننا هكذا كنا في الماضي، وهكذا كان فكرنا الإشراقي، وأن الغرب مهد الشيطان، والتكنولوجيا بلاء سماوي، كل ذلك لا يحيي الحكمة الشرقية، ولا يحررنا من سطوة التكنولوجيا.⁵⁰

يوصل شايفان تساؤلاته حول قدرة التراث على إصلاح مجرى الأحداث وتوفير ملاذ آمن لحياتنا الروحية وكانت الإجابة ربما، ولكن بطريقة لا واعية يقينا، فتدفق الدماء، والنفوذ الثقافي العميق، والعودة إلى الأصول، كل هذه عوامل مؤثرة ولكن في الميادين اللاعقلانية، أي في ميادين العواطف والغرائز، إلا أن هذه العوامل تززع تخميناتنا المتفائلة جداً، وتترك برامجنا الطموحة وتعرقل فاعليتنا الجريئة، والخلاصة أنها تنسف بقسوة جزءاً من وجودنا يطالب بالجزء الآخر، وتستمر هذه الحال وتتفاقم إلى أن تذوب فاعليتنا التقنية وانجازاتنا التنويرية.⁵¹

وإذن، ما هو الحل في نظر داريوش شايفان؟ بالنسبة له ينبغي القيام بكل شيء من جديد، علينا تعلم عملية التفكير من جديد، وأن نبعث أنفسنا للحياة من جديد، من دون المعرفة بـ «القدر التاريخي»، لن تتمكن هذه الحضارات الأسبوية الكبرى لا من قفزات كبرى، ولا من إنقاذ روحها، أو الإسهام في العملية الإبداعية داخل إطار العالم الحديث، ولأجل حصول هذه المعرفة أو الاطلاع، علينا إعادة تشخيص كافة المفاهيم الوافدة علينا طيلة القرن الأخير، بعبارة ثانية علينا تعلم التفكير من جديد، وأن نتعرف على أنفسنا كما هي لا كما نظنها، ونكون ما نحن عليه فعلاً.⁵²

ففي الشرق لم يظهر العلم بمعناه الغربي الحديث على الإطلاق، ذلك أن العلم لم يصبح دنيوياً أبداً، ولم تنفصل

أكيدة على مرحلة فتور نتخطاها في الوقت الحاضر، مثل هذا السياق يكدر أنفسنا ويشل قوانا الإبداعية لأننا غير مسلحين حيال التحدي المعاصر بأي سلاح يذكر، بل إننا لا نتمتع إزاءه حتى بحرية الاختيار، لأنه السبيل الوحيد المتاح وليس ثمة سواه. إذن، لا مناص من السير في هذا الطريق ولا يمكننا العودة عنه لأننا نخشى التخلف عن الآخرين والخروج الكلي عن تيار الحركة التاريخية. التحدي المعاصر خطاب يوجهه التاريخ لنا كتقدير أوحد ليس ثمة غيره... تقدير أوحد يجب أن نبلغ به تخوم النهاية.⁴⁶

تبعاً لهذا القسر والإكراه، طفقت النخب المثقفة تفكّر في المفاهيم التاريخية، لذلك بدأت تتحدث عن تقدم وتخلف البلدان النامية، وعن الناتج القومي، وراحت تخطط وتهتم للكومبيوترات، وتنبهر بتقنية العالم المتقدم المدهشة، مضافاً إلى أنها أصبحت تطلب القوة وتبحث عن أسواق. وباختصار، تقوم بأعمال معاكسة تماماً لقيمنا التي ورثناها عن آلاف السنين.

وهنا يكمن في نظر شايفان فشل النهضة مثلما يكمن فشل الثورات ذلك أن أهل النهضة المنسحرين بالغرب، لم يدركوا أن وراء هذه القوة، كان هنالك تبدل في رؤية العالم، وأن بين الإسلام والحداثة يوجد فراغ، لا يمكن أن يسده الرجوع إلى القيم السلفية ولا إصلاح الشريعة.⁴⁷ إننا بطبيعة الحال لم نأنس بعد بالتقنية كما ينبغي، ولا يوجد تطابق وتلائم جيّد بين شيئية الشيء والمقولات التي تمثل ميزان أعمالنا، وقد تكون في أفكارنا وتصوراتنا نسبة من التفكير الأساطيري-الشاعري يغير شكل الأشياء ويظهرها لنا كألعوبة أكثر من كونها شيئاً مفيداً، وربما لهذا السبب ترانا نحن الشرقيين (باستثناء اليابانيين) متراخين في فاعليتنا التقنية إلى هذه الدرجة.

ولكن من جهة ثانية، ترانا نحن الذين أيقظتنا أجراس خطر قرعها مفكرون غربيون حذروا من مغبة الحداثة والنزعة الصناعية، واستخففتنا الاحتجاجات التي زلزلت المجتمعات في كل أنحاء العالم محذرة من القيم العلمية-التقنية، بدأنا شيئاً فشيئاً نسأل عن الهوية الثقافية والقيم التراثية الخالدة، ورحنا نقتنع إلى حد ما بأن الأمور كان يمكن أن تنحو منحى آخر وتكون على شاكلة مختلفة.⁴⁸

فمشكلة العالم الإسلامي عند شايفان تكمن في جاذبياته القديمة، في انعكاساته وتأثراته الدفاعية، في

إن اعتماد الحضارات الشرقية على الحضور الناجم على الإشراق والإدراك الوجداني ، هو في الواقع نمط من أنماط الوجود ، لكل إنسان شرقه وغربه ، ليس الهدف المنشود أن تقدم المواعظ لجانب على حساب الجانب الآخر ، ولا أن يعلو جانب على جانب ، إنما الهدف أن ينال كل جانب سهمه المناسب. صحيح أننا لا نتوفر دائماً على قنوات وتصورات متشابهة ولكن إذا عرض أفضل ما يوجد لدى الشرق والغرب ، فربما أمكن إعادة بناء هذا الكل المبعض ، ونقصد به الإنسان الحديث.⁵⁶

وعليه ، لن يكون الإنسان (فكرة) بمعزل عن الأمور التي تتخبط داخل ورطة العدم ، ويتوكأ وجوده على حريته فحسب ، وإنما الإنسان "عالم صغير" زاهر بالأبعاد له صلاته السحرية والباطنية بكل مراتب الوجود. بهذا المعنى ، لن يعود العالم قبساً من العقل الجزئي ولا شبكة من القوانين الفيزيائية والرياضية ، العالم حضور في "كل" يكشف النقاب عن وجهه لا في موضوعية الأشياء بل في الكشف والشهود. في إطار هذا المنحى ، لن يكون الله تكليفاً لا مشروطاً يمليه العقل العملي (كانط) ولا إشعاعاً من الروح الإنسانية (فويرباخ) ولا هو ثمرة الاغتراب الديني (ماركس) ، وإنما هو تجلّي قديس وبداهة مباشرة بلا أية وسائط ، إن هذه البداهة هي في الواقع أصالة تبني الحقيقة قبل عملية التنوير.⁵⁷ وفي الختام بوجه شايغان السؤال نفسه: ما هو معنى التحدي المعاصر؟

معناه أننا عرضة لخطر تغيير علاقة الإنسان بالعالم والطبيعة ، ولهذا ، فلن يساعد هذا التحدي على حوار الحضارات ، وليس هذا فحسب بل إنّه بمثابة نسف للحضارات وإذابتها في حضارات أمست عالمية شاملة ، ولكن بمعنى من المعاني ، نتخبط نحن أيضاً في دوامة من العدمية أشار إليها نتشه بوصفه - على الأرجح - المتنبئ الوحيد في القرن التاسع عشر. في مثل هذه الدوامة لن يكون أفقنا الحياتي سوى غروب الآلهة ، وانحطاط القيم الميتافيزيقية ، الشيء الذي بات محتوماً في الحضارات الشرقية.⁵⁸

الخاتمة

إن تأثير الغرب والحدأة التي تقف وراءه يثيران في أيا من ويحركان في العالم الإسلامي مدارات مقاومة عديدة ، فيولدان تارة تراجعاً إلى أسطورية الأصول ، ظناً بأنها تحلّ بأعجوبة كل التعاسات الأخلاقية والتفاوتات الاجتماعية التي

الطبيعة عن الروح التي تسيطر عليها ، ولم تنحسر تجليات الفيض الإلهي عن مسرح الحياة.⁵³ يقول أتباع مذهب (الفيديانتا): "المعرفة التجريبية تبقى ذات قيمة واعتبار ما لم يتم إثبات نقيضها". وبهذا المعنى يمكن القول أنه طالما كان الوجود محتجباً ، كانت الحقيقة مجرد اختبارنا للعالم التجريبي.

أفلا يمكن أن نضيف إلى هذا أنه: متى ما بلغ الإنسان مرتبة المشاهدة المحضة ، نكتسي قيمة الحقيقة العلمية - التقنية مزيداً من النسبية؟ على أن هذا ما لا نستطيع القيام به لأنه يستلزم قفزة وشجاعة هائلة ، المعارف العصرية المبعثرة والتي تشمل حقولاً مختلفة ، تضع كل واحد منا في حدود علم معين ، ولهذا نرانا مغتبطين بالأمن الدافئ الذي وفره لنا حقل تخصصي يصوننا من إغراءات البحار اللامتناهية ، إلا أن أية تجربة معنوية هي قفزة في ورطة الوجود ، وخطر لا تبادر إليه سوى إنسانية تستطيع في وجد لحظة حافلة أن تنسف كل نواقصها وتتخطى كل حدودها وقيودها ، بيد أن إنسان اليوم كلما أضاف إلى علومه كلما زاد من ضيق أفقه ونظرته ، وعلى حد تعبير الشاعر: (حالت أجنحته الهائلة دون تحليقه في السماء).⁵⁴

يستهن شايغان وصف الشرق بأنه ساكن متحجر يقدس الماضي ، لأن ذلك يعني أن لديه وفاء الشرق للذاكرة الأزلية مستشهداً بنواليس الذي يعدّ عالم الغيب والشعر تجليه الأصيل - أكثر واقعية من عالم المحسوسات ، ويقول: "الأكثر شاعرية هو الأكثر حقيقة". العالم رؤياً ، والرؤيا عالم ، وإدراك هذا العالم الخيالي غير ممكن بواسطة العقل ، وإنما إدراكه عبارة عن حالة باطنية ، وهذه الحالة هي

«اكوستيك الروح» أو (صدى الروح) ، ومقرّها في القلب أي في اللطيف المعنوي. حينما يقطع القلب صلته بالعالم الخارجي ، ويملاً أركانه بالفيض المعنوي ، إذ ذاك يولد الدين والنزعة الروحية المعنوية ، ويتحقق الشعر ، فالمعنوية وكهال الشعر بالنسبة لنواليس هما دين انتقل إلى حيّز الفعل.

شيلنغ وهو من الفلاسفة المثاليين الكبار في ألمانيا ، أسغ على المبادئ الرومانتيكية نظاماً فلسفياً ، يعتقد شيلنغ في فلسفته الطبيعية "أن الطبيعة هي أوديسة الروح والوجود بمثابة عمل فني".⁵⁵

هذه الصدمات الارتجاجية الثلاث هي التي كوَّنت وعي الإنسان الغربي، فعندما يتعيَّن على الحضارات اللاغربية أن تجابه، في منتصف القرن 19، هذا الغول الجديد للأزمة الحديثة، كان هذا الغول قد بلغ ذروة توسعه ونموه وعانى معظم طفراته وتحولاته المعرفية. فإذا سارت الأمور على غير ما يرام وإذا كانت المجتمعات الإسلامية مجرورة نحو الحدائفة فلأنَّ الناس أغفلوا التعاليم الأخلاقية، وارتكبوا خيانة بحق الروح وتاهوا عن رسالتها الأصلية وذاكرتها الأزلية.

واستناداً إلى عبقرية اللغة العربية، قال جاك بيرك بحق " إنَّ اللغة العربية التي تقود كل كلمة فيها إلى الله، قد جرى تصوُّرها لتخفي الواقع، وليس لاكتناهاه"، ولقد تعين، بالضرورة، على التوترات ما بين إخفاء مناطق جديدة من الواقع وبين المقاومات التراثية التي تستبدها أو تكبتها وتطردها من حقل المعرفة، أن تولد انكسارات وثرغرات في الوعي، فبينما كانت الأمور تتبدَّل خارجياً، كانت الإسقاطات الذهنية لا تزال تدور حول طرق التمثل القديمة.

كيف يمكن ان نعيش تلك التمزِّقات في داخل الوعي؟ شئنا أم أبينا، لا يزال هذا الأمر هو المسألة غير القابلة للحل، مسألة جميع الاختلالات الذهنية -وما أكثرها- التي تجتاح عالمنا، ولا يمكن إبراز هذه المسألة إلا على أيدي القيميين على هذه الحضارات بالذات، فكما لا يستطيع أحد أن ينوب عن أي كان في عملية الموت كذلك لا يستطيع شخص منحدر من حضارة مختلفة عن الحضارة التي عشنا فيها، أن يختبر وجودياً هذا التمزِّق داخل نفسه، وبكلام آخر، إنه قدرنا الخاص وغير القابل للتنازل.

تشكو منها هذه المجتمعات، وتارة يسبِّبان هرباً إلى الأمام نحو مغامرات متزايدة المخاطر، وتارة أخرى يحزَّكان رفضاً قاطعاً لمواجهة تحديات الأزمنة الجديدة. إن كل هذه المهارب والمخارج المنحرفة إلى هذا الحد أو ذاك، تعبّر عن وجوه شتى لظاهرة واحدة، وترجم أعراض قلق عميق، بصرف النظر عن أشكال ردود الفعل المنظورة، وفي رأيي، هذا القلق صادر عن عدم فهم أو، إذا شئتم، عن عدم تمثيل واستيعاب ظاهرة تاريخية كبرى -الحدائفة في معناها الواسع جدا- لم تؤخذ كما هي في الحسبان، أي موضوعياً في دلالتها الفلسفية الخاصة، بل كانت تؤخذ دائماً وفقاً للتحويلات الأليمة التي ألحقتها بتقاليدنا وموروثاتنا، في طرق معيشتنا وتفكيرنا. والحال كذلك، فإنَّ كل حكم لها أو عليها ارتدى، منذ بداية الاحتكاكات والاتصالات، رداء التقويم الأخلاقي؛ فكان تقويماً امتداحياً في بداية التلاقي مع القوة المادية للغرب، عندما اكتشف العالم الإسلامي، بدهشة كبرى، تأخره والهوة السحيقة التي كانت تفصله عن أوروبا؛ وكان تقويماً لعيناً عندما انغلق هذا العالم، لاحقاً، أمام تأثير أوروبا، وراح يستثير هاماته الأكثر هذياناً، ولئن كانت ردة الفعل الأولى شديدة الحماس، فإن ردة الفعل الثانية تفوقعت حول نفسها. فالحدائفة هي الابن الشرعي لمسار فكري فريد من نوعه، فلدون أربعة عصور من العلمنة ونفي الترميز، كان يستحيل بلوغ مفهوم الديمقراطية، ودون توضع الطبيعة وفك سحرها، وبدون الصدمة الكوسمولوجية التي أحدثتها ثورة كوبرنيك وتريبيز غاليلي للعالم، لم يكن ممكناً ظهور علوم الطبيعة، ومن دون الصدمة البيولوجية، لم يكن ممكناً إدراك مغامرة علم الأنسال والتطور العضوي للأجناس، ومن دون الصدمة السيكلوجية كان من غير الممكن إعادة اكتشاف أوالات اللاوعي الغامضة.

قائمة المصادر والراجع

- 1- داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية والذاكرة الأزلية ، ترجمة حيدر نجف ، لبنان ، دار الهادي ، 2007 ، الطبعة 1.
- 2- داريوش شايغان ، أوهام الهوية ، ترجمة محمد علي مقلد ، لبنان ، دار الساقى ، 1993 ، الطبعة 1.
- 3- داريوش شايغان ، النفس المتبورة (هاجس الغرب في مجتمعاتنا) ، لندن ، دار الساقى ، 1991 ، الطبعة 1.
- 4- رضا خجسته رحيمي ، غربة زائر في الغرب ، مجلة قضايا إسلامية معاصرة ، العدد 52/51 ، 2012.
- 5- عبد الجبار الرفاعي ، الفيلسوف المغفور داريوش شايغان ، مجلة الكوفة ، العدد 2 ، 2013.
- 6- Daryush Shayegan, Sous les ciels du monde, entretiens avec Ramin Jahanbegloo, Paris, edition du felin, 1992

الهوامش

1. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية والذاكرة الأزلية ، بيروت ، دار الساقى ، 1993 ، ط 1 ، ص 37.
2. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، المصدر نفسه ، ص 33.
3. المصدر نفسه ، ص 46.
4. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 16.
5. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 21.
6. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 41.
7. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 44.
8. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 46.
9. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 34.
10. المصدر نفسه ، ص 36.
11. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 51.
12. المصدر نفسه ، ص 35.
13. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 51.
14. المصدر نفسه ، ص 32.
15. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 25.
16. المصدر نفسه ، ص 25.
17. المصدر نفسه ، ص 36.
18. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 36.
19. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية مصدر سابق ، ص 47.
20. سورة الاحزاب ، الآية 72.
21. الشيخ محمد بن علي اللاهيجي ، المعروف بقطب الدين الاشكوري ، صاحب كتاب "محبوب القلوب" ، توفي سنة 1095هـ.
22. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية والذاكرة الأزلية ، مصدر سابق ، ص 48.
23. المصدر نفسه ، ص 49.
24. سورة البقرة ، الآية 152
25. سورة الاحزاب ، الآية 41
26. هو عبد الله بن محمد نجم الدين الرازي ، ولد قرب طهران وتوفي عام 1247م ، كان من أقطاب المتصوفة الإيرانيين من إقليم خوارزم وعاصر شيخ المتصوفة جلال الدين الرومي.
27. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية والذاكرة الأزلية ، مصدر سابق ، ص 50.
28. هو محمد حافظ الشيرازي (725هـ/792هـ) الملقب بخواجه حافظ الشيرازي والشهير ب «لسان الغيب" ، من أشهر الشعراء الإيرانيين.
29. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية والذاكرة الأزلية ، مصدر سابق ، ص 48.
30. ادي شانكارا (820م/788م) ، فيلسوف هندي ، يعزى إليه توطيد مذهب مدرسة ادفياتا فيدانتا للفلسفة الهندوسية.
31. دارا شاكوه (1069هـ/1024هـ)، الابن الرابع للسلطان شاه جيهان ملك الهند، كان متصوفا وأديبا، من آثاره "سر الأسرار" و"مجمع البحرين" ، وديوان شعر.
32. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 9.
33. المصدر نفسه ، ص 24.
34. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سلق ، ص 28.
35. داريوش شايغان ، أوهام الهوية ، بيروت ، لبنان ، دار الساقى ، 1993 ، ط. الاولى ، ص
36. المصدر نفسه ، ص 53.

37. رضاخجسته رحيمي ، غربة زائر في الغرب ، قضايا إسلامية معاصرة ، العدد 52/51 ، 2012 ، ص 72.
38. داريوش شايغان ، أوهام الهوية ، مصدر سابق ، ص 54
39. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 14
40. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 15
41. داريوش شايغان ، أوهام الهوية ، مصدر سابق ، ص 50.
42. عبد الجبار الرفاعي ، الفيلسوف المغمور داريوش شايغان ، مجلة الكوفة ، العدد 2 ، ص 46.
43. داريوش شايغان ، النفس المبتورة (هاجس الغرب في مجتمعاتنا) ، لندن ، دار الساقى ، 1991 ، ط 1 ، ص 40.
44. داريوش شايغان ، النفس المبتورة ، مصدر سابق ، ص 40.
45. داريوش شايغان ، أوهام الهوية ، مصدر سابق ، ص 50.
46. Daryush Shaygan, Sous les ciels du monde, PARIS, Edition du Felin, 1992, p.114.
47. داريوش شايغان ، النفس المبتورة ، مصدر سابق ، ص 40.
48. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 20.
49. داريوش شايغان ، النفس المبتورة ، مصدر سابق ، ص 39.
50. عبد الجبار الرفاعي ، الفيلسوف المغمور داريوش شايغان ، مجلة الكوفة ، العدد 2013 ، 2 ، ص 49.
51. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص
52. Daryush Shayegan, Sous les ciels du monde, Ibid , p171.
53. عبد الجبار الرفاعي ، الفيلسوف المغمور داريوش شايغان ، مرجع سابق ، ص 45.
54. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 27
55. المصدر نفسه ، ص 96.
56. المصدر نفسه ، ص 89.
57. داريوش شايغان ، الأصنام الذهنية ، مصدر سابق ، ص 17.
58. المصدر نفسه ، ص 27.

التضمين السردى وامتداداته البصرية في رواية مقامة ليلية مقامة المبتدى لعبد العزيز غرمول

The embedding of history and its visual extensions in the novel maqama laylia -maqamat almobtadha by Abdel Aziz Ghermol

تاريخ القبول: 2019-12-18

تاريخ الإرسال: 2018-12-29

ليندة خراب ، جامعة الإخوة منتوري-قسنطينة 1

kharablynda@hotmail.com

الملخص

تقيم رواية مقامة ليلية - مقامة المبتدى لعبد العزيز غرمول ، بنيتها على بلاغة التضمين التي أرسى دعائمها النقد البلاغي القديم ، ثم تطورت مباحثها في حقل السرديات البنيوية ، وتقترب بلاغة التضمين السردية بتخييل سيرة البطل " محمد البشيرى " ، وتقديمها في شكل قصة مُتضمَّنة في قصة المقامة المروية ؛ ففي القصة المتضمَّنة يتراءى محمد البشيرى منزويا في غرفته ، عاكفا على كتابة مذكرة تخرج أو كتابة يوميات موازية ، ثم لا يلبث هذا الفضاء المخصَّص للكتابة أن يتخذ مظهرها بصريا يشمل مختلف الملحقات الأيقونية الموجودة تحت طائلة تبئير السارد وإدراكه الحسى ، إذ تعمل هذه الأيقونات ، ومثلها خزانة الكتب والمخطوطات والرسائل والبطاقات ودفتر اليوميات ، عمل مثيراتٍ تمارس تأثيرها على ساردٍ مستعدٍ دائما للالتفات من قصة المقامة المروية إلى قصة الكتابة ، التفاتا يقترب بتبديل جهة الوضع السردى وزمنه وموضوعه .

الكلمات المفتاحية: التضمين ؛ الفضاء البصري ؛ الأيقونات ؛ " مقامة ليلية-مقامة المبتدى " ؛ عبد العزيز غرمول .

Résumé

Le roman de « Makame Laylia Maqamat Almobtadha » de Abdel Aziz Ghermol est basé sur l'éloquence de l'enchâssement qui a été établi par l'ancienne critique rhétorique puis ces recherches se sont développées dans le domaine de la narratologie. Cette rhétorique de l'enchâssement narratif est accompagnée d'une biographie du protagoniste Muhammad Al-Bachiri et présentée sous forme d'un compte inclus dans l'histoire racontée de Maqama. Dans cette histoire incluse, Mohammed al-Bachiri apparaît isolé dans sa chambre, qui décide à écrire une thèse de graduation ou un journal intime. Ainsi l'espace, qui est consacré à l'écriture, prend un aspect visuel qui comporte les divers accessoires iconiques soumis à la focalisation du narrateur et sa Perception sensorielle. Ces icônes, telles que la bibliothèque, les manuscrits, les lettres, les cartes et le journal intime, agissent comme des stimulants qui exercent leur influence sur le narrateur qui est toujours prêt à passer du compte narré de Maqama au compte de l'écriture. Cette métalepse s'accompagne d'un changement dans le temps, le mode et le thème de récit.

Mots-clés: L'enchâssement, espace visuel, des icônes, *makama laylia maqama, almobtadha, d'Abdel Aziz Ghermol*

Abstract

Abdel Aziz Ghermol's Makama Laylia - Maqamat Almobtadha's novel is based on the eloquence of embedding that was established by former rhetorical criticism, and then its research has been developed in the field of narratology. The rhetoric of narrative embedding is associated with the imagination of the biography of the hero "Muhammad al-Bashiri," and presenting it as an account included in the story of narrated Maqama. In the narrative of the embedding, Mohammed al-Bachiri appears isolated in his room, working on a graduation thesis or a diary that includes the narration of the narrator's memory. This space dedicated to writing takes a visual aspect, which includes various iconic accessories that are subject to the narrator's focus and perception. These icons, such as the library, the manuscripts, the letters, the cards, and the diary, act as stimulants that exert their influence on the narrator who is always ready to pass from the narrated account of Maqama to the account of writing. This métalepse is accompanied by a change in time, mode and theme of the novel.

Keywords: the embedding, visual space, icons-*makama laylia maqamat almobtadha, Abdel Aziz Ghermol.*

1- بلاغة التضمين السردية/مقدمة نظرية

حديث ، غير أن التضمين السردى ، وبالمعنى الذي نتوخاه في هذه الدراسة ، يخرج عن هذا الضرب من الاستشهاد والعلاقات التناسبية القائمة بين النصوص ، ويتصل بمفهوم آخر للتضمين كان معيبا عند بعض القدامى ، وهو تضمين الإسناد ، وفيه يتبع اللاحق السابق من الكلام ويأخذ بعضه برقاب بعض ، وقد أورد ابن الأثير وصفا لتضمين الإسناد يقول فيه: «وذلك يقع في بيتين من الشعر ، أو فصلين من الكلام المنثور ، على أن يكون الأول منهما مسندا إلى الثاني؛ فلا يقوم الأول بنفسه ، ولا يتم معناه إلا بالثاني ، وهذا هو المعداد من عيوب الشعر ، وهو عندي غير معيب ، لأنه إذا كان سبب عيبه أن يعلق البيت الأول على الثاني فليس ذلك بسبب يوجب عيبا»⁶.

يجزم ابن الأثير أنّ هذا اللون من التضمين الذي يقتضي تعلق البيت من الشعر أحدها بالآخر والفقرتين من الكلام المنثور إحداهما بالأخرى ليس معيبا ، بدليل ما ورد في القرآن الكريم من فقر مسجوعة يأتي بعضها مُتضمّن في بعض ، مثل ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء/205-207:

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَكِنُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ . فلا تفهم الآيتان الأوليان إلا بإيراد الثالثة التي فيها جواب الاستفهام الموجود في شعر الأولى. ومثل هذا الضرب من تضمين الإسناد معروف في شعر الفحول ، وقد استدل ابن الأثير على ذلك بمعلقة امرئ القيس الشهيرة ، والتي كان ترديد الخبر الأول فيها على الليل ، ملتفتا إليه بضمير الغائب "هو" ، ومنها قوله⁷:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَىٰ سُدُولَهُ
عَلَىٰ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ
وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءً بِكُلِّكَلٍ:
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ الْأَجَلُ
بِصُحِّهِ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

لقد قدم ابن رشيق ، ومثله ابن الأثير ، فهما مختلفا للتضمين ، فالتضمين سواء أكان استشهادا أو تضمين إسناد ، ليس عيبا من عيوب الكلام ، فأجود التضمين طرا ما يخرج إلى معنى عجيب تكون فيه الهزبة لللاحق على السابق ، وهو: «أن يصرف الشاعر المضمّن وَجَهَ الْبَيْتِ الْمُضْمَّنَ عَنْ مَعْنَى قَائِلِهِ

يقوم نظم السرد في رواية "مقامة ليلية-مقامة المبتدى"، على نسق التضمين (Enchâssement)، الذي نستدل به على وجود مستويات سردية مُتضمّنة ومستويات سردية مُتضمّنة ، وقد عرف جيرالد برنس (prince Gérald) التضمين السردى بأنه: «تألف من المتواليات السردية (أو المروية بنفس الصوت أو بأصوات أخرى)، بحيث يتم إدراج إحدى المتاليات في متتالية أخرى»¹.

ولم يكن لفظ التضمين بغريب عن الذائقة النقدية العربية ، فهو لون بلاغي ، يدل على استعارة الشاعر لأبيات أو أنصاف أبيات من الشعر فيضمّنها أبيات قصيدته ، وهو عند ابن رشيق: «قصّدك إلى البيت من الشعر أو القسم فتأتي به في آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثل»² ، ويعني به الخطيب القزويني: «أن يضمّن الشعر شيئا من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهورا عند البلغاء»³.

وقد أورد ابن رشيق أمثلة من التضمين تقع في الشعر ، فيقول: «فأما احتذى كشاحم قول ابن المعتز في أبيات له⁴:

وَلَا دُنْبٌ لِي إِنْ سَاءَ ظَنُّكَ بَعْدَمَا -
وَقَبِيْتُ لَكُمْ رَبِّي بِذَلِكَ عَالِمٌ
وَهَا أَنَا ذَا مُسْتَعْتَبٍ مُتَنَصِّلٌ
كَمَا قَالَ عَبَّاسٌ وَأَنْفِي رَاغِمٌ:
تَحَمَّلَ عَظِيمَ الدُّنْبِ مِمَّنْ تُحِبُّهُ
وَأَنْ كُنْتَ مَظْلُومًا ، فَقُلْ : أَنَا ظَالِمٌ

والأبيات المتضمّنة هي للعباس بن الأحنف في قوله⁵:

وَصَبَّ أَصَابِ الْحُبِّ سُدُودًا قَلْبِهِ
فَأَنْحَلَهُ وَالْحُبُّ دَاءٌ مُلَازِمٌ
فَقُلْتُ لَهُ إِذْ مَاتَ حُبًّا
مَقَالَةً نُصَحِ جَانِبَتَهَا الْمَائِمُ:

تَحَمَّلَ عَظِيمَ الدُّنْبِ مِمَّنْ تُحِبُّهُ
وَأَنْ كُنْتَ مَظْلُومًا ، فَقُلْ : أَنَا ظَالِمٌ
فَأَنَّكَ إِلَّا تَغْفِرِ الدُّنْبَ فِي الْهَوَى
يُقَارِقُكَ مَنْ تَهْوَى وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ

يدور لفظ التضمين البلاغي ، على معان معروفة عند القدامى ، ومنها الاستشهاد بشعر الغير ، أو اقتباس آية أو

ذلك: «إنّ ظهور شخصية جديدة لا بد من أن يؤدي إلى القصة السابقة، لكي تروي لنا قصة جديدة، تفسر "أنا هنا الآن" للشخصية الجديدة. لا بد من قصة ثانية تكون متضمنة في القصة الأولى. هذه الطريقة تسمى التضمين.»¹¹.

لاحظ تودوروف أن نصاً سردياً عربياً على شاكلة ألف ليلة وليلة، يقدم أنموذجاً جيداً للتضمين، وهو القائل: «وتحتوي ألف ليلة وليلة أمثلة من التضمين لا تقل إدهاشاً، والرقم القياسي تفوز به الحكاية التي تقدمها لنا قصة الصندوق الدامي... (حكاية حمال بغداد) في الواقع هنا: شهرزاد روت أنّ جعفر روى أنّ الحلاق روى أنّ أخاه (وله ستة) روى أنّ...»¹²، هكذا تتتابع القصص تترى، وتترابط حتى ليتعذر فهم القصة بمعزل عن بقية القصص، واللافت للانتباه أنّ التضمين في حكاية حمال بغداد بلغ الدرجة الخامسة، وفيه اندغمت كل قصة مُتضمنة بسابقتها، بواسطة حركة إسناد رشيقة تعلن عن ظهور راو جديد، ومن ثمة حكاية جديدة، وقد انتهى تودوروف في دراسته للتضمين السردى إلى تحديد نوع من التضمين الذاتي ينعته بالتضمين الذاتي (Enchâssement Auto) وهو نوع من التضمين يتم، دون تبديل جهات الحكى، وبمعزل عن ظهور شخصيات جديدة، حيث الشخصيات نفسها توقع انتقالات ممكنة وسريعة بين القصة المُتضمنة والقصة المُتضمنة، يشرح تودوروف حجم هذه الانتقالات فيقول: «إنّ طرق التضمين تصل إلى القمة في التضمين الذاتي، أي عندما توجد القصة في الدرجة الخامسة أو السادسة مضمّنة بنفسها.»¹³ إنّ التضمين الذاتي هو مستوى من التضمين يشمل مجموع القصص المُتضمنة التي تنتهي إلى السارد نفسه، وفيه تنغلق دائرة الإسناد السردية، فتبدو الحكايات أشبه باستطرادات طويلة، مندمجة مع القصة الأولى المُتضمنة.

اهتم جيرار جينيت ببلاغة التضمين السردية، وقدم نظرية المستويات السردية على أنّها مجرد "تنسيق لمفهوم التضمين" التقليدي، الذي تقاصر عن تعيين العتبة بين قصة وقصة أخرى، حيث العتبة تمثلها واقعة أن القصة الثانية تتولاها حكاية تُحكى في القصة الأولى.¹⁴ كما أنّ التضمين التقليدي، لم يتوصل، بزعم جينيت دائماً، إلى التمييز بين المحكي الابتدائي (Récit Primaire)، والحكاية

إلى معناه»⁸، أما بالنسبة إلى تضمين الإسناد فالأصل فيه زيادة المعنى، إذ كلّما باعد الشاعر بين بيتي التضمين، باسطا معانيه متوسّعاً فيها، كان ذلك أبعد من أن يعد عيباً.⁹ يتجاوز التضمين إذن معنى الاستشهاد بأقوال الآخرين، ليحتمل معنى ردّ الكلام بعرضه على بعض، وصرف الكلام من معنى إلى معنى آخر، والتوسّع في المعنى، وهو أقرب إلى تضمين الإسناد، وعلى هذا ليس التضمين وفقاً على استعارة نصوص أجنبية عن النص الأصلي، بل قد يكون النص المُتضمّن منبثقا من النص نفسه، وهو ما يجعل التضمين داخلياً، مرتبطاً بظاهرة تعلق الكلام ببعضه ببعض وتبعية اللاحق منه للسابق، وترديد النص لمفوضاته.

يلتقي مفهوم تضمين الإسناد، من ناحية تتابع أجزاء الخطاب وتربطها، بالتضمين السردى، حيث لا تتوقف آلة السرد عن توليد المحكيات، فالتضمين نسيجٌ سردي مركب، ينشأ عن إدخال قصة داخل قصة، تغدو معها القصة المُتضمنة تابعة للقصة المُتضمنة، لكنّها مع ذلك ليست ذات طبيعة حشوية، ولا هي فضلة سردية يمكن الاستغناء عنها، بل إنّها جزء من النص، وترد مندمجة فيه اندماجاً كلياً، فتعمل على إضاءة القصة الأولى، أو تفسيرها أو تُخذ ذريعة لتعطيل مسار الحديث، وزبدة القول إنّ التقاطع بين البنيتين النصيتين المُتضمنة والمُتضمنة، لا يخلو من أبعاد دلالية يجب أن تُستكشف وتُقرأ بحسب سياقات التضمين السردية.

شكل التضمين واحداً من أهم شواغل السرديات البنيوية، فقد عدّه تودوروف أداة إجرائية تعكس منطقاً معيناً في تأليف القصة، فهو إلى جانب التسلسل (Enchaînement) والتناوب (L'alternance)، يشي بتصرف الكاتب في منطق الأحداث؛ يمثل التسلسل قاعدة تأليف زمنية للأحداث، لأنّه يفضي إلى الارتباك الحدتي والتداخل، وهو يدل على مجاورة قصصٍ مختلفة، حالما تنتهي القصة الأولى تبدأ القصة الثانية، ويتولى التناوب حكي حكايتين في وقت واحد، فتقطع الأولى لتبدأ الثانية، ثم تقطع الثانية وتستأنف الحكاية الأولى، وهذه تقنية تستخدم في المسرودات التي فقدت كلّ صلة لها بالأدب الشفاهي الذي لا يمكنه استخدام التناوب.¹⁰ أما التضمين فهو وضع حكاية داخل حكاية أخرى، ويتم ذلك كلما ظهر ساردٌ جديد يتولى حكي حكاية جديدة، يقول تودوروف موضحاً

التالية (Métarécit) ، وتأمل طرائق تضمين حكاية تالية داخل حكاية ابتدائية ، ورصد مختلف الانتقالات الممكنة بينهما ، فقد أكد جينيت أن التضمين التقليدي ، حين أهمل تحديد العتبة بين قصة وأخرى ، لم يستطع أن يثبت بأن كل قصة من هذه القصص التاليات ، هي قصص أعلى من القصة التي تسبقها ، لأن ساردها شخصية في القصة السابقة ، فهذه إذن قصص مُتضمّنة تنتمي إلى مستويات سردية متباينة ، وقد يقع التضمين في مستوى سردي واحد حينما يلجأ السارد نفسه إلى الاستطراد ، فننشأ حكايات تاليات دون إقحام سارد جديد ،¹⁵ وبذلك يقع حافر جينيت على حافر تودوروف الذي اقترح مفهوم التضمين الذاتي ، ويدرجه ضمن بلاغة التضمين السردية .

يشير جيرار جينيت ، من جهة ثانية ، إلى أنّ بلاغة التضمين ، تتصل في حقل السرديات بمقولة الصوت في علاقتها بالذات التي تنتج فعلا سرديا أو يقع عليها فتلقاه أو تنقله أو تسهم فيه ، إنّ هذا المقام السردى ، ليس ثابتا ، بل يتسم بالتنوع والتعقيد ، ولا أدل على ذلك من تأمل بلاغة التضمين في ألف ليلة وليلة ، وهنا نلفي جيرار جينيت ، تارة أخرى ، ناسجا على منوال تزيفيتان تودوروف ، مكتفيا بالإحالة إلى ما أورده هذا الأخير من ملاحظات بصدد حكاية حمال بغداد السالفة الذكر.¹⁶

استوفى جيرار جينيت دراسته للتضمين السردى من خلال شرح طبيعة التعالق بين المحكي الابتدائي ، وهو القصة المتضمّنة ، والحكاية التالية بوصفها القصة المتضمّنة ، واقترح تعريفا لكليهما: «ففي المستوى الابتدائي ، يخاطب سارد خارج القصة ، كما ينبغي دون أي لبس ممكن ، مسرودا له خارج القصة أيضا»¹⁷ ومثل ذلك أن تخاطب شهرزاد شهريارا بوصفه متلقيها في الليلي ، وهما يشكلان محكيا ابتدائيا أو محكيا إطاريا يمكن التعرف عليه بسهولة ، لأنه وحسب جينيت دائما: «قلّما يمكن حكاية أن "تتضمن" حكاية أخرى دون أن تشير إلى عملية التضمن هذه ، وبالتالي دون أن تسمّي نفسها حكاية ابتدائية»¹⁸ ، أما الحكاية التالية ، فهي حكاية مُتضمّنة تابعة سرديا للحكاية الابتدائية ، تبعية تراتبية ، ثمّ يذهب جينيت إلى التمييز بين عمل السابقة méta في المصطلح السردى ، وعمل السابقة نفسها في

الاستعمال المنطقي واللساني؛ ففي لفظ (Métalangage) تدل Méta على كل لغة واصفة للغة أخرى. لكن مصطلح (Métarécit) ، بالنسبة إلى جينيت له علاقة بالتضمين ، وهو يقول مؤكدا ذلك: «أما في معجمي فإنّ Métarécit (الحكاية التالية):حكاية تُروى ضمن حكاية».¹⁹

ومع ذلك لا نرى انتفاء وجود اللغة الواصفة وإيحاءاتها المختلفة في مصطلح جينيت "الحكاية التالية" (Métarécit) ، بل تُرَجَّح أن يخرج التضمين السردى إلى معنى آخر ، فيكون متصلا بعملية التلفظ ذاتها واصطناع حيلة الكتابة داخل الكتابة ، كأن تتضمن رواية ما قصة كتابة رواية أو البحث عن مخطوط ضائع أو مسروق ، أو إنتاج فيلم أو إنتاج عرض مسرحي ، مما له صلة بتخييل فعل الكتابة ذاته ومسرحته داخل النص الروائي ، وهذا الضرب من التضمين السردى ، هو ما يُعرف في السرديات الغربية بـ (Mise en abyme) ، الذي نحسب أنه يوفّر واحدا من أهم المداخل الملائمة لقراءة رواية مقامة ليلية- مقامة المبتدى .

يُفضي التضمين السردى إذن ، إلى بتر مسار الحكاية الأولى وتأجيل نهايتها ، فضلا عن مضاعفة التخييل بتضمين حكاية داخل حكاية ، وهذا ما يجعل التضمين يتقاطع في أفق الدراسات السردية الحديثة ، مع مصطلح آخر هو الإرصاء ((Mise en abyme الذي يعدّه لوسيان دالنباخ (Lucien Dällenbach) شكلا من أشكال التضمين وملمحا من ملامح الرواية الجديدة.²⁰

يُسبب الإرصاء إلى أندريه جيد (André Gide) ، فهو أول من وظف هذا النوع من التضمين السردى ، في روايته "مزيفو النقود" (Les faux Monnayeurs) ، وفيها يعكف إدوار- بطل الرواية- على كتابة رواية ثانية داخل الرواية الأولى ؛ فتتعالق الروايتان بواسطة روابط دلالية ولسانية ، وهكذا أسهم التضمين في مضاعفة التخييل السردى ، ومعه يغدو النص المُضمّن أشبه بهراً تعكس النص الأكبر وترصد حركته التخيلية ، وإن كنا لا نعدم وجود محاولات سابقة تصبّ في مصبّ بلاغة التضمين ، بله الإرصاء على وجه التحديد ، فقد قام "وليم شكسبير" (W.Shakespeare) بتضمين مسرحية "مصيدة الفئران" (The mouse-trap) داخل مسرحية "هاملت" (Hamlet) ، حين جعل "هاملت"

البحري" لفظ **التغوير** لترجمة مصطلح (Mise en abyme)، ويعده شكلا من أشكال التضمين السردى، مستعبدا كل الاصطلاحات الشائعة في حقل الدراسات السردية العربية، ومن بينها الإرصاء²⁵ فيقول: «الباحث يكاد لا يقف على وجه التناسب أو الملاءمة بين "الإرصاء" من حيث هو مصطلح بلاغي يدل على ظاهرة عروضية مخصوصة وبين "التغوير" من حيث هو مصطلح فني وتقدي يدل على ظاهرة نصية قائمة على نسق التضمين وآلية الانعكاس (...) وبناء على ذلك فإننا نرى أن أنسب المصطلحات وأكثرها ملاءمة لـ (Mise en abyme) هو "التغوير" لما له من قرابة دلالية مع المصطلح الفرنسي، فضلا عن التقارب المعجمي والصيغي»²⁶.

لم يقدم عبد المجيد بن البحري تبريرات كافية تفسر سبب رفضه لمصطلح الإرصاء، سوى أنه مصطلح عروضي بزعمه، ثم يسوق تعريف ابن الأثير له وهو: «أن يبني الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له، أي أعدها في نفسه فإذا أنشد صدر البيت عرف ما يأتي في قافيته، وذلك من محمود الصنعة، فإن خير الكلام ما دل بعضه على بعض»²⁷ نعتقد بادئ الرأي، أن إعادة توظيف المصطلح البلاغي والتقدي القديم، مسلك مشروع تماما في سبيل النهوض بنقد سردي عربي له اصطلاحاته وسياقاته النظرية والإجرائية الخاصة، أما ما يتعلق بالإرصاء، فعلى الرغم من كل التحفظات التي قدمها عبد المجيد بن البحري، إلا أنه يحوز مثل بقية الاصطلاحات الأخرى على وجه معين من مشروعية تداوله، ويكفي أن نذكر بأن ابن الأثير نفسه جعل الإرصاء وجها من أوجه تضمين الكلام بعضه ببعض، وفي سياق شرحه للإرصاء استشهد ابن الأثير بقول البحري:

أحلّت دمي من غير جرمٍ وحرمت

بلا سببٍ يوم اللقاء كلامي

فليس الذي حلّته

وليس الذي حرّمته بحرام

ثم عاد ليقول: "وليس يذهب على السامع-وقد عرف البيت الأول وصدر البيت الثاني-أن عجزه هو ما قاله البحري"²⁸ فالإرصاء بحسب ما سلف، أشبه بإدراج وإدخال الكلام بعضه ببعض، وهو يقع في المنظوم والمنثور من الكلام.

يقوم بتمثيل مشهد اغتيال الأب علي يد أخيه الملك (كلوديوس) في حضرة القتلة وهما الملك والملكة؛ وبذلك شكّلت مسرحية "مصيصة الفئران" المضمّنة جزءا من مسرحية "هاملت"، وأنيطت بها وظيفة تفسير المسرحية الإطارية و تأويل أحداثها بالارتداد إلى الصورة التي تعكسها المسرحية المضمّنة.²¹

قد يغدو التضمين السردى، إذن تناظرا مرآويا، يعكس من خلاله النصّ المضمّن النصّ الأصلي، ويدخله دائرة التأويل بالتماثل أو القلب أو التضاد وغيرها من العلاقات الوظيفية المحتملة بين النصّ المتضمّن والنصّ المتضمّن، وإن كان هذا النوع من التضمين السردى، أي الإرصاء، لم يثبت في النقد العربي الحديث-على لفظ واحد، فقد أطلق عليه "لطيف زيتوني" **الترجيع الأدبي**: «وهو أن يتضمن النصّ نصّا يُرجع، أي يُكرّر، مضمون الكلّ، ويشكّل نوعا من رجوع الصوت بالصدى أو نوعا من صورة المرأة المحدّبة التي تختصر فضاء الرواية الواسع في إطار صغير محدود يستوعبه القارئ مباشرة. والغالب في الترجيع الأدبي أن يكون حكاية ثانوية أو مشهدا أو حلما ترويه إحدى الشخصيات ويختصر مضمون الرواية»²² فالترجيع بهذا المعنى هو تقنية روائية، تكشف عن عديد الأشكال التي يُنتج بها السردُ تمثيلا مرآويا لنفسه، غير أنّ هذا التمثيل المرآوي الذي نقله المرأة المحدّبة، على حدّ تعبير لطيف زيتوني، لا يعكس سوى الأجسام المصقّرة، فيستوي بذلك النصّ المتضمّن جزءا فقط من العمل، بينما قد يمتد تخييل القصة المتضمّنة ليشمل الرواية بأكملها، وإن كنا نتحفظ قليلا على استعمال مثل هذه الاصطلاحات الخاصة بالتناظر المرآوي، بسبب إسقاطها لعلاقات دلالية أخرى قد تكون قائمة بين النصّ المتضمّن الجزئي والنصّ المتضمّن الكلي، وعلى رأسها علاقات التشاكل و التضاد والتناقض.

يقترح "محمد عناني" عبارة (الانعكاسات النصية اللانهائية في الصورة وفي الدلالة)، لوصف المصطلح الفرنسي (Mise en abyme)²³، بينما ينعتة (السيد إمام) **بالإرصاء** ويعرفه بأنّه: «صورة منقولة مصقّرة لنص متضمّنة في ذلك النصّ؛ جزء نصي يعيد نسخ، ويعكس أو ينقل حرفيا (ملحا أو أكثر من) الكل النصي»²⁴، ويستخدم "عبد المجيد بن

عملية التأليف نفسها ، ومعها يغدو بطل الرواية وساردها الأول محمد البشري ، مؤلفا مسرحا ، بمجرد أن تصير فكرة البحث واقعا يُمارسُ من خلاله الساردُ مختلفَ مراحل إعداد الأطروحة ممارسةً فعليةً ، وبذلك تصير قصة الكتابة المتضمّنة ، قصة كاملة لها حادثاتها و فضاءاتها واندماجاتها السردية ، وقد زُجبت قصة الكتابة على قصة المقامة من خلال نسق التضمين ، الذي يقتضي: «إدخال قصة في قصة أخرى»³⁰ ، فتتداخل بذلك القصتان ، المكتوبة والهروية ، ضمن نسج سردى واحد ، وتتقاطعان ، تبئيريا ، عند منظور السارد الأول "محمد البشري".

تُدلف قصة الكتابة إلى مسرح الأحداث ، وبمقتضى ذلك ، يعلن السارد عن بداية تخييل نسق الكتابة في اللحظة نفسها التي يقرر فيها أن يصير باحثا: «مهمتي لا تتجاوز إعادة كتابة تاريخ هذه القرية في إطار إعداد أطروحة تخرج من معهد التاريخ... وهي الأطروحة التي قضيت زاحفا وراءها سنة كاملة مستمعا كقاضي تحقيق لأعجب وقائع التاريخ».³¹

تظهر قصة الكتابة المتضمّنة بشكلها المسرح داخل الرواية ، كلما أوى السارد إلى غرفته الضيقة الغارقة في فوضى الأشياء ، هنا يُرى محمد البشري أكثر من مرة ، معزولا في شرققة بحثه ، جالسا أو مستلقيا ، قارئا منكبا على قراءة الكتب والملفات والخرائط ، أو كاتباً منقطعاً إلى تدوين الشهادات وترتيب البطاقات وجمع الأوراق وكتابة يوميات موازية ، ويمتد هذا المشهد امتدادا نصيا وبصريا ، حتّى يتحوّل إلى حكاية ترددية ، يعيد فيها السارد وصف عاداته الثقافية: «كنت أعيش معركة كما يجب. أجمع أوراقى وأطويها»³² ، أو قوله: «كان يروح ويجيء بين الغرف...، ينظر إلي منكبا على ترتيب البطاقات الفنية للأطروحة...»³³ ، أو قوله: «طويت أوراقى ووقفت ... كانت بي رغبة للهروب ، ولكن أبى خطا باتجاه الباب»³⁴.

لم تكن شعيرة كتابة الأطروحة إذن ، مجرد اختبار علمي لكفاءة الطالب الجامعي الذي كأنه السارد محمد البشري ، كما لم تكن مجرد حدث ينضوي تحت سلسلة أحداث السيرة الروائية ، بل هي حدث يطرد وينمو ويتأزم ككلّ الحوادث الأخرى ، وإن كانت قصة الكتابة تتقدّم بإيقاع بطيء نتيجة امتداد فضاءها الأيقوني؛ وما يستدعيه من انفساح

أما إذا انتقلنا إلى تحري أسباب تفضيل عبد المجيد بن البحري لمصطلح التغمير ، فسنكتشف أن الباحث قد سكت عن إبراز أوجه التقارب المعجمية والصيغية بين المصطلح الفرنسي (Mise en abyme) ومقابله في العربية "التغمير" ، مكتفيا بربط التغمير بمعنى الهاوية (Abyss) ، التي تقترب بعملية إدراج النصّ داخل النصّ ، بحيث يُسلمنا كلّ نصّ إلى آخر ، وهكذا كلها تضاعفت الانتقالات بين القصة المتضمّنة والقصة المتضمّنة ، كان ذلك استدراجا للقارئ نحو متاهة سردية متشابكة ، هي أشبه بهاوية أشد عمقا وغورا.

زبدة القول إنّ التضمين لون بلاغي معروف في التراث العربي ، فهو يتصلّ بطريقة نظم أبيات الشعر وفواصل النثر سواء بسواء ، وقد وجد التضمين طريقه إلى السرديات العربية التراثية ، فعّد مظهرها من أهم مظاهر الحكى في ألف ليلة وليلة ، أما اليوم فقد أضحى التضمين السردى شكلا من أشكال البلاغة السردية ، التي تعتمد على توليف المحكيات داخل نسج سردى متداخل ، مع مراعاة دواعي وسياقات هذا التضمين وجمالياته المختلفة ، وذلك ما سوف نتبيّنه بعد إمامنا بطرائق تركيب قصة الكتابة على قصة المقامة الهروية في رواية مقامة ليلية مقامة المبتدى للروائي الجزائري عبد العزيز غرمول.

2-المظهر الدرامي لقصة الكتابة المتضمّنة:

يُعنَى فضاء الكتابة في رواية "مقامة ليلية-مقامة المبتدى" ، بالتأريخ لسيرة البطل "محمد البشري" ، الذي وصفته الرواية بأنّه طالب جامعي منتسب إلى كلية التاريخ ، كلّفه أستاذه بإعداد أطروحة تخرج عن تاريخ قرية المقامة ، لكنّ بطل الرواية ، لم يكن متحمّسا لبحثه هذا بادئ الأمر ، فراح يقنع أستاذه بعدم جدواه وهو القائل: «ماذا أفعل إذا كان أستاذ التاريخ لا يصدق أن المقامة لا تاريخ لها»²⁹ ، لكأنّه حدسَ قبل الأوان استحالة كتابة أطروحة تُمسك بشفاهيات قريبة المقامة وتحيط بتاريخها الذي لا يُورخ ، لذلك فإنّ الأطروحة التاريخية ستتحول في النهاية إلى رواية ، هي رواية "مقامة ليلية مقامة المبتدى" نفسها ، وهذه حيلة ميثراوية ، أحسن عبد العزيز غرمول حبكها وعرضها بشكل مقلوب لقارئٍ سيتحمل عبء تعديل مسار القراءة لاحقا.

تضم قصة الكتابة المتضمّنة في رواية مقامة ليلية مقامة المبتدى ، تعليقات وأوصاف وتأمّلات وكدها التفكير في

هكذا تكون شعيرة الكتابة مهذبة باستمرار، وهي تحتمل دائما مواجهة درامية بين قصة الكتابة والقصة المروية، أو بين المكتوب والشفهي، وتنتهي دائما بانفلات الحكاية من بين أصابع السارد، إذ كلّما تأججت الاختلافات وتضاربت الروايات وتعذر تقييد الحقيقة، تراجعت الكتابة واعترفت بعجزها وفشل قوانينها ومنهجاياتها أمام سطوة ذاكرة شفوية سريعة العطب: «هنا ينتشرون في غرفتي بميراثهم الذي أحاول أن أقبض عليه في منهج كان يقول عنه أستاذ التاريخ بأنه المنهج الوحيد الذي يمكن أن يقبض به على الميراث الشفوي للأمم... صوته يرتفع الآن في هذه الغرفة المغلقة حيث تدور معركة روايتها لهم هذه المشيئة الإلهية التي تقتل وتحيي، تمجد وتبذ تذكر وتنسى، ، وأكثر من ذلك تخط العصور والأزمنة في ذاكرتهم فيتحدثون عن الأموات كأنهم يتحوجون معهم في سوق الجمعة... وأجدي بينهم عاجزا عن الوفاء لقانون المقارنة»³⁷

قد تبلغ شعيرة الكتابة ذروة تأزمها، لتتخذ طابعا مشهديا، مصحوبا دائما بوصف حركات جسدٍ قلقٍ تتعاوره انفعالات متباينة يسقطها السارد على حيز الأوراق المبسوطة أمامه، فحين تستعصي الحكاية على القلم، يستسلم السارد لحالات من الضياع والأرق، وتعاوده حركات النكوص عينها "أجمع أوراقى وأطويها"، أما حين يُقَلَّب السارد الصفحات في حركة آلية، وعيونه تتأمل الفراغ الذي يتجاوز حيز الكتاب المفتوح والصفحة معا، فإن ذلك يشي باستفحال مساحات الصمت والضجر في فضاء واعد بالإحباط: «أفتح كتابا جديدا، أو حلما، أو صمنا. كل شيء يعبر عن ذاته بذاته، ولا أملك إزاء ضراوة الأشياء سوى الصمت»³⁸، وقد يُقْبَلُ السارد على الكتابة فيفتح أوراقه من جديد، فإذا بنبض الحياة يعود إلى ذهنه المتوقد، فتتداعى الخيالات والأحلام، وتتسع دائرة المناجاة والعروض الذاتية، وتتزاحم الأفكار في رواق التفكير، وتستأنف الكتابة نشاطها بعد عيٍ وانقطاع، هكذا يسفر فضاء الكتابة عن تباين وضعيات جسد السارد وانفعالاته حين يكون منهمكا في فعل التأليف، إلا أن حالة استعصاء الكتابة هي الموقف الأكثر بروزا في النص، وهي التي تنتهي بالسارد إلى إدانة كلّ حكاية خرساء تنضح باللبس والخوف والإرجاف، بدل أن تنكتب: «لم تتغير كثيرا عادات أهل المقامة... كان

الخطاب الذاتي وتراكمية الاسترجاعات، وتضخم الأوصاف، وهذا ملمح سنجليه، حين نستعرض فضاء الكتابة بمكوناته الأيقونية.

لقد أسفر حبكُ السرد في رواية مقامة ليلية ومقامة المبتدى، وفق نسق التضمين، عن انتقالات السارد المطردة بين حكي الحدث في قصة المقامة، ووصف فضاء كتابة الأطروحة، وسرد وقائعه الخاصة، ففعل الكتابة هو حدث ثقافي قابل للتوتر والتعقيد ثم الانفراج كأى حدث آخر، ولذلك غالبا ما كانت عملية البحث تتراى كحفر شاق في جذور شفاهيات المقامة وتحري صعب لمصادر الرواية، وحربٍ حامية الوطيس مع رواة الحكاية: «أجمع أوراقى وأطويها، أفتح أفقا ثم أتخلى عنه لطيور الرواة... وبعد ذلك كله أستمع بصمت لأبى وهو يعيد نسيج الشهادات بخيال لا يُضاهى... أستمع للشيخ منصور وهو يلبس قناع المداح القديم... الرهباني وهو يدير حضرات الجن والعرافيت وكأنه ملك الميتافيزيقا... العدوانى وهو يعود في كل حكاياته إلى الإجراءات المتخذة لإجراء الانتخابات البلدية التي ستغير بفضله وجه المقامة القديم.. العجوز عيشوش وهي تستغفر بعد كل حكاية: أنا ما شفت ما ريت...»³⁵

كان السارد يعي صعوبة عمله في فضاء يتذرع بالصمت ليوارى الحقيقة، ولذلك عبثا يحاول جمع شهادات الشخصيات، ومطاردة شفاهيات الرواة وحكاياتهم، فقد بُتِّئُ الحكاية كما فعل سي البشير حين سكت عن إتمام حكاية نورا والطاوس، وقد تُحاصر الحكاية بالصمت كصمت الشيخ منصور وإعراضه عن الحكاية نفسها، وقد تُقال الحكاية ثم تُفح بالشك كاستغفار عيشوش بعد كلّ حكاية تحكيها، أو ربما يحكي الجميع الحكاية نفسها حتى يتفرق دُمها على الرواة وتصير الحكاية الواحدة حكايات: «كان الكل يعرف الحكاية لكن الكل يرويها بطريقته الخاصة وكلما تعددت الطرق شعرت أن هذه الأوراق المتناثرة في غرفتي تنثرنى في طرقات عديدة متصاعدة ومتشابكة، تنتشر في تراب مائتي سنة من الحياة البسيطة التي مرت على هذه الأرض دون أن تترك أثرا إلا في الحكايات المتداولة التي يرويها كل واحد بطريقته، لسبب ما، وبشحنها كل واحد بما يتيح له خياله بل وعواطفه الشخصية أحيانا... أجمع أوراقى وأطويها...»³⁶

حاضر الحكيم وعلى وضعية تذكر السارد الواقع تحت تأثير محفز أيقوني متواجد في فضاء الكتابة.

تعلن خزانة الكتب عن قوة حضورها الأيقوني في الرواية، فهي تنشط ذاكرة السارد لاستحضار تجارب قاسية عاشها في مرحلة الطفولة، لذلك يقوم السارد بحكيها مرة واحدة فحسب، لأنّ استدعاءها إلى ساحة الشعور بغرض التطهير لا يخلو من ألم، فهنا في مرتع الطفولة غير الدافع أبداً، تضاءلت شخصية السارد بين استبداد أبٍ قيّد انطلاقاً مشاعره وحركته، ومزاجية أمٍ مستغرقة في هلوسات مرضها، وفي متهمة معاركهما الصاخبة انطلقاً بريقُ الطفولة مبكراً، وإذ تطفو الاسترجاعات الداخلية على جسد حاضر السرد، فهذا يثبت أنّ السارد ما يزال يعيش ماضيه ويستحضر باستمرار صورته الكابوسية، بخاصة حين يصير لهذا الماضي رائحة تبعث من جوف الأشياء المبتوثة في كلّ ركن من البيت المعمور المعبّق بالتاريخ والذكريات، عندئذ تصبح الذكرى مُلحة وقابلة لأن تدخل من شِقِّ الباب أو من وراء جُدُر أو من بين تقاطيع خارطة مُترهلة أو من صفحة في كتابٍ عتيقٍ أو من خزانة كتبٍ، فكلّ هذه الأشياء، ترسخ جميعها الحضور الطاغي- البصري- للماضي وللأب معاً، وتروح تعلن عن عمق تأثيرها في الواقعة السيرية: «كانت كلماته شجية وعميقة تقعم جو البيت برائحة خاصة، رائحة كنت أشتتها في الكتب القديمة التي كان يصفها في خزانته معلقاً على رفها ورقة مكتوباً عليها ممنوع اللمس»⁴¹.

وبقدر ما كان الماضي مُحصّناً ومهيّباً وممنوعاً، إلا أنّ السارد لم يكف قط عن مناوشته، وهو الذي عاش طفولته متمرداً لا يعرف معنى للزجر أبداً، هكذا يجرؤ السارد على فض أسرار الخزانة المحرّمة واكتشاف أسرارها الدفينة، إذ بمجرد أن يقع السارد في المحذور منتهكاً حرمة خزانة الأب، يكون في الآن نفسه قد انتهك سلطة الأب محققاً بذلك تجاوزاً سوريا لسلطته، عندئذ تصير خزانة الأب عالمه الأثير الذي أيقظ فيه كلّ شهوات القراءة والكتابة والاكتشاف، ومنذ حادثة انتهاك خزانة الأب يبدأ السارد مسيرة بناء ذاته وتحقيق تمايزها واستقلالها بتثقيفها وصلل مواهبها: «كنت حينها في الصف المتوسط أفضي السنة الدراسية في مدرسة داخلية بمدينة العلمة وأفضي العطلة الصيفية في مدرسة داخلية بالبيت،

الناس دائماً يقولون ويسكتون... يستعيدون من زلة لسان أو إشارة يد تقول ما لا يجب.. لكنهم يقولون دائماً في لحظة ما يقولون... يخافون من ذنوب الكلمة ثم يقولون...»³⁹.

لم تكن شعيرة الكتابة إذن، حدثاً طارئاً أو عرضياً، بل إنّها تحفر أخاديدها العميقة على جسد الواقعة السيرية ذاتية، حتّى أضحي السارد رهين إحباطاتها وأزماتها، لذلك يتعذر اقتطاع قصة الكتابة عن خط سير الحكاية. كما لا يمكن أن تُتلقى قصة المقامة المروية، بمعزل عن قصة الأطروحة التي تنكتب.

3- فضاء الكتابة وامتداداته البصرية

يحاصر فضاء الكتابة منظور السارد، ويجعله أسير مثيرات أيقونية تشكّل في مجموعها مظهراً حسياً وبصرياً يسم نشاط التأليف، غير أنّ هذه الأيقونات البصرية، من كتب ومخطوطات ورسائل وخرائط، لا يتم إدراكها في ذاتها، على أنّها مجرد أشياء، تعيد إنتاج الواقع البصري، فالأيقون: "لا يجمع بين أشياء مدركة حسياً، ويوجد لها معادل موضوعي في الواقع، بل من خلال الوعي باعتباره صورة ذهنية"⁴⁰، ولذلك تسمح الأيقونات البصرية الموظفة في رواية مقامة ليلية مقامة المبتدى، بتكوين بنية إدراكية للشئ الذي تمثله، وبمقتضى ذلك يغدو مخطوط الواقدي مثلاً تمثيلاً لنموذج ثقافي، وامتداداً لزمان قديم طاغ لا يزال يربك السارد، ويضعه وجهاً لوجه مع حاضر غامض ملعّم بالأسئلة ومثخن بالتمزقات.

تعدو الأيقونات البصرية، بمقتضى ما سلف ملتقى الأزمنة والأمكنة، ومنطقة تصادم وجهات النظر، كما يعد حضورها في فضاء الكتابة وتساندها معاً، تعويضا مناسباً عن تراجع الحكاية ونقص الأفعال، وذلك ما يمكن تبيّنه من خلال قراءة طرائق تشكيل الأيقونات في فضاء قصة التأليف المتضمّنة.

يستهدف فضاء الكتابة، بأيقوناته المختلفة؛ وعلى رأسها خزانة الكتب والمخطوطات والخارطة والرسائل والبطاقات ودفتر المذكرات، تنشيط ذاكرة السارد، وعرض حكايات ابتدائية تمخض عنها استرجاعات داخلية وخارجية، مما يعني أنّ كلّ ارتداد نحو الماضي، لا بد أن ينطلق من الدرجة الصفر للحكي تلك التي يقع تثبيتها هنا والآن، أي في

... ميزيريا! سيصرخ بصوت عنيف فتكرض أمي من المطبخ صارخة بدورها: يا راجل خليه يقرأ؟! وستحول صراخها إلى معركة كلامية...»⁴⁴

يرفض سي البشير اختيارات ابنه العلمية ويسخر من فكرة أطروحة التخرج التي جاءت لتحبط أحلامه التي طرّز بها مستقبل ابنه الوحيد، فازدادت حدة التنافر بين الأب والابن وتساعدت درامية فعل الكتابة حتى انقلبت إلى مواجهة دامية مع محيط متخلف يرفض الاعتراف بوظيفة السارد كمؤرخ في حين يقرّه ويوقره طبيبا أو محاميا أو مهندسا أو وزيرا، لكنّ فضاء الكتابة يُصَيَّرُ الأطروحة واقعا يضمّر إدانةً ضمنية لسلطة الأب والمجتمع، ويبشر ببداية انفلات السارد من قبضة الرقابة الأبوية.

في الغرفة الضيقة إذن، تكبر مساحة توحد السارد وانقطاعه عن الآخرين، وبذلك تستوي الغرفة فضاء لتعزيز الذات وترسيخ اختلافها ثقافيا، لأنها المكان الوحيد الذي يمارس فيه السارد حريته وسلطته كاملتين، لذلك نادرا ما تُستباح الغرفة التي تظل ممتنعة على الآخرين، وهو ما نلمسه بوضوح في هذا المقطع الذي يُرى فيه سي البشير مقبلا على اقتحام غرفة ابنه وقد تعاوره قلقٌ وأربكه ترددٌ، ومع ذلك يقتحم سي البشير صومعة الابن، ويتم الاقتحام بحركة جسدية تتم عن استهانة واضحة بالآخر، إذ يزيح سي البشير الكتب بقدمه ليملا فضاء الغرفة بحضوره الطاعي غير المرغوب فيه: «كان يروح ويجيء بين الغرف، يفتح أبوابا وأدراجا وأوراقا، ينظر إلي منكبا على ترتيب البطاقات الفنية للأطروحة وهو يعبر الرواق الطويل المعتم...أسمع تهديداته تلفح المكان.. قلقله المبعوث في الهواء... يفكر ويفكر ثم تخفت خطواته وهو يعبر أمام غرفتي، محاولا ربما - أن لا يزعج هذه البطاقات - الشهادات التي كان يرى أنها لا تقدم لي أكثر من الأرق والتعب... أحاول بدوري إيهامه أنني مشغول تماما ولا وقت لي لتجاذب أطراف الحديث معه... يدخل مزيجا بقدمه بعض الكتب المنثورة على أرضية الغرفة ويهمس: وماذا تريدني أن أعمل ... كيف أنام مطمئنا وينام آخرون بين الأشباح؟!»⁴⁵

لم تكن خزانة الكتب تستنفر التاريخ الشخصي للسارد وحده، بل إنها تستنهض من أروقة التاريخ أحداثا

لأن أبي وهو رئيس بلدية معروف بصرامته العسكرية يغلق علي الباب في القبولات القائطة لشهر أوت... وكانت خزانة أبي هي الانتقام الأكثر جرأة لهذا الانغلاق الصارم في القبولات الطويلة حيث يكفي مسمار معوج بدقة كي يفتح الباب على كنوز مهيبه: عطور المسك التي يضعها خصيصا لصلاة الجمعة، مجموعة من السباحات... ساعات جيب متنوعة، قمصان حريرية عربية، ملابس عسكرية، وعلب، ثم صف الكتب العتيقة التي قال لي مرة إن بعضها منسوخ بخط اليد في ورقات بغداد، وبعضها الآخر مطبوع على مطابع حجرية...»⁴²

لقد تعلم السارد مذ كان طفلا، كيف يكون مثقفا، بممارسة حق اللجوء إلى عالم الكتب الخصب الرابض في خزانة الأب الغنية بالكنوز الدفينة، والتي كان يتخذ منها ذريعة للتخلص من فائض إحساسه بالغرابة والوحدة والفراغ والخوف، فلم تكن خزانة الكتب مجرد حيز قابع في فراغ، بل هي حاضن لفعل تثقيفي وتطهيري في آن، وهي علامة على ماضيه الذي ما يزال يعلن عن وجوده، مشحّصا بشكل بصري في خزانة الكتب.

وبمقتضى ما سلف، يبدو أنّ فضاء الكتابة لا يمكن أن يكون فضاء محايدا مطلقا، بل هو مقيد بتوجيهات المنظور السردى الذي يحمله، ولذلك يتعزز فضاء الكتابة بتعليقات السارد الفكرية والعلمية المصاحبة لعمله الميداني المتصل بإعداد أطروحة التخرج، كأن يندفع السارد منافحا عن اختياراته واهتماماته كمؤرخ، متصديا لكلّ فهم خاطئ للتاريخ: «علي أن أقتع أبي مثلما أقتعت كل الذين التقيت بهم في عملي الميداني، أن التاريخ ليس مجرد حوادث قديمة ميتة نجتريها للمتعة أو الاتعاض، بل هو هذه الحياة اليومية الساخنة والفائرة التي نكابد آثارها»⁴³

ثم سرعان ما يتحول فضاء الكتابة بالذات إلى حلبة صراع بين الإيديولوجيات النصية، فقد كانت الأطروحة بالفعل أحد أهم محفزات الخلاف الدائم بين السارد ووالده: «سيقول "أبي" أن أساندة التاريخ يعيشون على الأوراق القديمة المهملة كحشرات العثّ، وأني بمثل هذا التنقيب في سلال المهملات سأطور سلالته، هو الذي بنى أحلامه كلها ليدفعني باتجاه الطب أو المحاماة... ما فيش فايده ... ميزيريا

واقعية أو الأكثر عجبا.

يتناول هذا الاسترجاع حكاية خولة بنت الأزور وحكاية خالد بن الوليد⁴⁷، وقد حدثا قبل ألف ومائتي سنة وهو زمن بعيد جدا، مما يعني أنه استرجاع خارجي يقع خارج حدود زمن القصة المروية المحصور افتراضا بين أكتوبر 1962 إلى مارس 1981، هذا وإن كانت الحكايات المسترجعة تستغرق وقتا معلوما قد يكون طويلا نسبيا، إذ لا يعقل أن تقع الحرب أو الإنقاذ من الأسر في مدد قصيرة، إلا أن السارد يختزل الحوادث المسترجعة اختزالا أقل من مدة زمنيها الخاصة، مما يثبت أن زمن الذاكرة يتقدم طاغيا وهو الذي يتصرف في مدة وشكل حضور الوقائع الماضية، وإذ لا يتكرر حكي هذا الاسترجاع الخارجي، ولا يقطع حكيه ليستكمل لاحقا وإنما يتم تسريده دفعة واحدة، لينتهي مباشرة إلى حاضر الحكي الذي يستأنف بدوره حكاية السارد وهي تعلن مرة أخرى عن عودة فضاء الكتابة، وهو ما تشير إليه عبارة السارد: «صف طويل من الحروب أعيش عليه طيلة الصيف مأخوذا بالتفاصيل الدقيقة لمؤرخين يعملون على أسر قارئهم في حرب من البلاغة والوصف...»، وعليه يتأني الاسترجاع الخارجي هنا أيضا مفردا وكليًا، وهو ينحت أخباره من نصوص سيرية وتاريخية سابقة، فيأخذ سمتا تناصيا، غنيا بالإشارات المتضمنة.

تستوي الخارطة علامة أيقونية تملاً فضاء الكتابة كما خزانة الكتب، وهي تمارس إغراءها على السارد الذي لا يستطيع مقاومة الانجذاب إلى حيزها الساحر الملقم بالأسرار والحكايات القديمة المنسربة من بين الخطوط والأشكال: «يحفظ أي بخريطة غريبة منسوخة بخط اليد وبالصمغ وقلم القصب. كانت الخريطة تبدو في ظاهرها مجرد خطوط منكسرة، متقاطعة، تحدد بلدية المقامة بتفاصيلها... كانت أيضا إذا ما دققنا النظر في تفاصيل خطوطها الزعفرانية الدقيقة تشكل في نسيجها وتوالدها اللانهائي تصميمها هندسيا دقيقا للكرة الأرضية ببلدانها وأنهارها وبحارها وتضاريس جبالها... تلك الخريطة التحتية كانت أشبه بمنطقة ممغنطة كلما حاولت الهروب منها إلى خريطة المقامة كلما جذبتني إلى أعماقها وأفصحت عن مكنونات تزيدني لهفة على تتبع تفاصيلها»⁴⁸.

بعيدة، ومثل ذلك هذا الاسترجاع الخارجي المفرد وفيه يقول السارد: «كان كل شيء في هذه الخزانة له حكاية في ذاكرة أبي لكن أعظم حكاياته هي تلك التي اكتشفتها وأنا أقلب الأوراق السميكة الرثة لفتوحات الواقدي حيث تدور أعنف الحروب ضراوة تدمي السيوف بفصاحة عجيبة تأسر القلب وتدفع القارئ إلى خوض أكثر المعارك عنفا وهو يجلس على بعد ألف ومائتي سنة متعاطفا مع خولة بنت الأزور وهي تتنكر بملابس الرجال لتحرير أخيها ضاررا من الأسر وخالد بن الوليد وهو يسلم قيادة معركة اليرموك إلى أحد جنوده معاذ بن جبل ثم يحارب في جيشه برتبة جندي وبسالة قائد...» صف طويل من الحروب أعيش عليه طيلة الصيف مأخوذا بالتفاصيل الدقيقة لمؤرخين يعملون على أسر قارئهم في حرب من البلاغة والوصف...»⁴⁶.

يعلن هذا المقطع عن الحكاية الابتدائية التي تقترن بحاضر الحكي وقد تمخض عن حكايات لها صلة بتاريخ الفتوحات الإسلامية، وإن كانت هذه الحكايات التاريخية تتناظر بشكل واضح مع حكاية السارد الشخصية، وتتداخل معها تداخلا لفظيا ودلاليا، أما الحكاية الابتدائية فتشير إليها عبارة السارد: «كان كل شيء في هذه الخزانة له حكاية في ذاكرة أبي، غير أن أعظم حكاياته هي تلك التي اكتشفتها وأنا أقلب الأوراق السميكة الرثة لفتوحات الواقدي»، هكذا يعلن السارد دونها موازنة عن مصدر حكاياته التاريخية، إذ بمجرد أن يفتح دفتي كتاب فتوح الشام للواقدي، حتى تثبتق نثف من الحكايات القديمة تباعا لتغدو هذه الوصلة الانتقالية التي تقصل دائما بين زمنين: حاضر وماض، ترددية بدورها، فالسارد محاصر دائما بفضاء أيقوني يعقب برائحة الماضي، وهو دائم الانجذاب إليه واقع تحت طائلة سحره، بل إن نشاطه الذاكراتي يتوقف على الحضور المفاجئ أو المقصود لمثير ما توفره بالتأكيد خزانة الأب الغنية بالكتب والملفات والرسائل والخرائط والشهادات، وبذلك تغدو خزانة الأب دليلا على الامتداد البصري الكثيف للماضي في الحاضر وتتحول إلى عالم أيقوني طافح الحضور، وبها يصير التذکر متاحا في كل لحظة، إذ يكفي السارد أن يرجع بصره في أنحاء الغرفة أو يمد يده ليتناول شيئا من خزانة الأب حتى يستيقظ الماضي وتعود الذكريات الشخصية أو حوادث التاريخ الأكثر

ملاحظاته أو تأمل كتاب أو خارطة أو التفكير فيما توحى به إليه هذه المصادر البحثية، إلا أن هذا الانشغال الثقافي قد يتوقف في أي لحظة حين يكون السارد مدعوا إلى استعادة وعيه بالواقع والانخراط في حياته الاجتماعية.

يسفر حضور الرسالة، بوصفها ملحقا أيقونيا في فضاء الكتابة، عن اقتحام جنس أدبي دخيل لرواية مقامة ليلية مقامة المبتدى، فيجعل منها رواية رسائلية،⁵⁰ لا تستنكف عن نقض عمود السرد التقليدي، واستحداث أنساق سردية جديدة، من هنا راح السارد، يمسح حدث العثور على رسائل نادرة، ليذيع سرّها، وتلك، لعمرى، حيلة من حيل الرواية الرسائلية، وقد أضحى معلوما أن: "تتفوق الرواية الرسائلية في تسجيل النفس، وأحلام اليقظة ودفق العاطفة، لكنها أيضا فعل، إنها تثير ردود فعل، وتتيح الفرصة لمحاوالت حادة ولمجادلات، ولقرارات مفاجئة، ولكوراث. ولأن الرسالة ذات طابع شخصي، وهي صلة بين أفراد، فإن إفشاء سرها عنوة أو عن غير قصد، يكون مُحَرَكًا أساسيا للفعل."⁵¹

لم يكن توظيف تقنية التراسل، مجانيا في الرواية، بل هو ذريعة إضافية لكتابة سردية عوّضت القصة بالرسالة، وهذا ما جعل رواية المقامة تلجأ إلى تطوير السرد بالرسالة عندما أعوزتها حكاية العدوانى، أو لم تجد القناة المناسبة لالتقاط حكايته، فإذ بالسارد يعلن: «أستخرج ملف العدوانى من بين أوراقى.. أوراق كثيرة كثيفة... بطاقات بريدية مؤرخة من العلية، وبوسعادة، وهران في سنة ما، الصحراء الكبرى، رسائل حب إلى الطاوس تحكي بطولاته أثناء ثورة التحرير... لم أكن قد لاحظت بعد أن تاريخ الرسائل مهمهل وأحيانا محو عنوة، حتى رسائل حبه للطاوس كانت أشبه بمذكرات شخصية: (اليوم تجولت قرب دار الطاوس، كانت بي رغبة للدخول... مع من تراها الآن؟ لقد عرفت أخيرا أن لها ابنة جميلة، قيل إنها القمر... العلية تاريخ. كذا...) لكنه وهو يتحدث إلي يذكر الوقائع مؤرخة...»⁵²

يتقدم نص الرسالة غفلا من علاماته التجنيسية المعروفة مثل تعيين المخاطب الغائب هنا، والذي يفترض أنّها الطاوس، واستعمال ضمير المخاطب الذي ينزاح عنه مرسل الرسالة وهو العدوانى باستخدام ضمير المتكلم مما يعزز فرضية كون هذه الرسالة وصنوها من الرسائل هي أقرب

تختصر الخارطة الأزمنة في لحظة تأمل قد تطول أو تقصر، وتتراكب على جسدها المترهل القديم سلسلة من الاسترجاعات الداخلية والخارجية، إذ كلّما شوهد السارد الأول منكبا على قراءة خارطة المقامة، فإن ذلك بمثابة إنذار مسبق بالرحيل إلى ذكريات سابقة: «أفكر، وأنا أتقصى الشرايين الزعفرانية الدقيقة لشواطئ أوربا حيث يصدح صوت أستاذ تاريخ العصر الوسيط: هنا بلنسية عاصمة من عواصم الحضارة الإسلامية ثلاثمائة وواحد وسبعين سنة تترادف فيها قصور ملوك قشتالة والمآذن المرصعة للمساجد... لكن صوته لا يزال عالقا بذاكرتي وأنا أتسلق الآن هذه الخطوط الشاحبة صاعدا بين مدن أحدها وجودها أكثر مما هي موجودة بالفعل، وأقروها تاريخيا أكثر مما أستطلعها جغرافيا... لكن صوت أمي يوقظني من غفوة الحلم: يا ولد نوض الشيخ منصور يطرق باب الإسطل منذ الخامسة مساء!!»⁴⁹

يسفر تأمل السارد في الخارطة عن استرجاع خارجي تنثال صورته على ذهن السارد في شكل ذكريات خاطفة عن مدن أندلسية منسية، جاء تركيبها ضمن نسيج استرجاعات داخلية تتقدم هي الأخرى مبتورة ومتقطعة ومحمولة بصوت أستاذ التاريخ الذي ظل صدها يتردد في فضاء تخيل السارد واستيهاماته الهادرة التي غالبا ما يتم إيقافها بواقعة صوت أو حركة تأتي من الخارج، لتعلن عن نهاية عمل الذاكرة وعودة السارد إلى حاضر الحكى: "يا ولد نوض... الشيخ منصور يطرق الباب منذ الخامسة"، هكذا ما إن يطوي السارد خارطته كما فعل مع كتاب الواقدي من قبل، حتى يتراجع الماضي ويطغى الواقع، وبذلك تصير الخارطة كأنّها حد فاصل بين زمنين يتجاذبان حركة السارد الذهنية والحديثية، ويتناسمان تردده الدائم بينهما، مما يسم الواقعة الزمنية بالانشطار والتداخل.

هذا، وغالبا ما يكون انتقال السارد من حاضر الحكى إلى ماضيه، ومن ماضيه إلى حاضره في حركة مُطَرَّدة بواسطة صيغ أداء تتردد بعينها لتدلّ على استئناف الحكاية الابتدائية أهمها: "أفكر وأنا أتقصى الشرايين الزعفرانية الدقيقة"، "وأنا أتسلق الآن هذه الخطوط"، "لكن صوت أمي يوقظني"...، فكلّ هذه الجمل الاستئنافية، ومثلها القفلات السردية، ترسخ وعي السارد بحقيقة وضعه التبئيري وتقدم منظوره السردى وهو يوشك أن يترك الذكرى ليعود إلى الواقع، أو بالأحرى ليعود إلى حقيقة كونه مجرد باحث منهمك في تدوين

وتاريخه الخاص ، فضلا عن كونه قناة للإفشاء والتطهير من روايب الماضي والوقائع الأكثر إيلاما ورسوخا في ذاكرة "محمد البشيري" ، وذلك ما نلمسه في هذه الحكاية التي يتولى السارد حكيها بنفسه: «كان زملائي يسخرون مني: صباح الخير فأر الكتب... مساء الخير فأر الكتب... وكان لأحد يراني إلا وأنا غارق بين صفحات كتاب... ورغم ذلك رأيت... زميلي في آخر المدرج يرمي يده في معطف الأستاذ المعلق على المشجب وراءنا... كان ذلك التاريخ يدب أمامي وأنا أستمتع به يوميا وأكتبه يوميا في دفتر مدرسي أخبئه تحت الوسادة وأعود إليه كلما واتاني الحنين لأقاصيصي التي أبدوها من عدم. ذات يوم رأيت ذلك الدفتر فجأة يخفق كراية زرقاء في يد الأستاذ وهو يقف على المنصة صارخا: محمد البشيري انهض! حاولت أن انهض ولكن الأرض مادت تحت قدمي... قومت قامتي فشعرت كأنني أتأرجح في جبل مشنقة. كان الضجيج في المدرج عاليا، آليات ضخمة تحفر الأرض، محركات تهب المسافات، دوي، دوي... لم أفق إلا وأنا في الشارع الكبير بعيدا عن الجامعة بألاف الأمتار، كنت أركض في كل الاتجاهات محاولا أن أتخلص من فضيحتي، وحين أعياني الركن استندت إلى حافة حائط صغير، وبكيت، بكيت ليالي طويلة، وأنا عائد إلى قرية المقامة مكسور الجناح كرزور أخطأ الفخ قليلا. قلت لأبي أنني عدت لأكتب تاريخ المقامة ... فضحك مقهقهقا: وهل المقامة لها تاريخ يا رجل».⁵⁴

هو الألم يصاعد دائما إلى بؤرة الوعي كلما أشرعت بوابات الذكرى، وعند عتبه يستوي الماضي، كأنه ينبعث من جديد، ولكن حين يختار السارد قفل حكايته الاسترجاعية، بتسجيل تحوّل طال شكل الكتابة ووظيفتها، فإنه يكون بذلك قد أنجز لعبة استبدالية مضاعفة، تراءت من خلالها تجربة الكتابة الأولى؛ أي كتابة المذكرات شخصية جدا وفضائية، وقد أن لهذا الكتاب، أي دفتر اليوميات ذي الحضور الأيقوني المثير، أن يتحوّل إلى كتابة مختلفة تتسرّب بالعلمية التاريخية وتتوسم كتابة تاريخ آخر للمقامة، وها هي قصة الأطروحة التاريخية التي كانت تُعرض مشهديا بكل امتداداتها البصرية، توشك، هي الأخرى، أن تلفظ أفساسها في اللحظة التي قرر فيها الكاتب كشف أسرار لعبته السردية مُتخليا بذلك عن مسرحية فعل الكتابة لصالح كتابة رواية

ما تكون إلى كتابة اليوميات أو هي مذكرات شخصية لا أكثر، كما تغيب الإشارة الزمكانية للرسالة والتوقيع الخاص بمرسلها. وهذا ما يدعونا إل القول بأنّ الرسائل المتخيّلة والمتبادلة بين الشخصيات في رواية مقامة ليلة مقامة المبتدى، قد انزاحت عن عمود الرواية الرسائلية، حينما تعاورها المحو والحذف والتعمية على المتخاطبين بها، مما جعلها تؤدي وظيفة عكسية تماما، وهي التشويش على كلّ معطى واقعي، بدل الإيهام به.

يتداخل النوعان: القصة والرسالة تداخلا عضويا فيجعل كلّ واحد منهما فاقدا لبعض علاماته، فكان القفز فوق العتبات لتكون البنات الخطابية الطارئة على السرد أكثر اندماجا، وعليه يمكننا أن نعد هذه الرسالة رسالة مُختلقة، تُعقّب هوية المرسل وتطمس عليها حتى كان بالإمكان إنكار نسبتها إليه إن اقتضى الأمر.

يتدعم الخطاب السيري ذاتي في رواية "مقامة ليلية- مقامة المبتدى"، فضلا عن الرسائل، بأنواع سردية أخرى، قريبة منها، وعلى رأسها اليوميات الحميمية، التي نعدّها منبرا آخر للاعتراف، تحافظ من خلاله النفس على توازناتها الداخلية، ولذلك يظهر دفتر اليوميات، ضمن الفضاء الأيقوني للكتابة، وهو يعلن عن انبثاقه داخل نسيج الرواية، وتداخله معها، واليوميات: "عبارة عن محكي حميمي وشخصي، يكتب من يوم لأخر. ليس محكيا استعاديا إذ لا يتيح للمؤلف إمكان اتخاذ مسافة مع الأحداث المروية. وهو يكون متقطعا ومتشدرا على نحو لا يسمح بتطور الحدث"⁵³، يبدو أنّ اليوميات تتناول عادة التاريخ الفردي وتعرض تجارب شخصية، وهي لا تتقيّد بالتتابع الزمني، ولا بفترة محدّدة. وذلك ما كان من أمر السارد محمد البشيري، الذي غالبا ما كان يعمد إلى إعادة سرد بعض ما تضمنه دفتر اليوميات القديم، لأنّ الذكرى تستيقظ دائما على وقع ما يحدث هنا والآن.

لقد كان لدفتر اليوميات وضعه الأيقوني الخاص، لأنّه لا ينتمي إلى خزانة الأب، ومن ثمة لا يفترض خضوعه لسلطته، بل إنّ كتاب اليوميات، تثبتت لكيان السارد، وتعزيز لخصوصيته واستقلاله وتحرره من كلّ التقييدات الاجتماعية والمؤسسية، وهو تشخيص بصري لهاميه

المتضمّنة تابعة لقصة المقامة المتضمّنة، ومندمجة فيها اندماجا كلياً، وقد أسهمت القصة الثانية في توسيع مدار القصة الأولى، وتفسيرها أو تعجيلها، ، ، وإذا كان التضمين السردى، يعتمد غالباً على تعدد منظورات السرد، إلا أنّ التضمين في رواية "مقامة ليلية" لا يخرج عن نطاق التضمين الذاتي الذي تتكفل به جهة واحدة للحكي، هي جهة السارد محمد البشيري.

هياً عنصراً تخييل السيرة الذاتية للسارد، إمكانية تجاوز أعراف السيرة الذاتية التقليدية، وعمود الرواية في آن واحد، فأفضى ذلك إلى رواية سيري ذاتية، تستأنس بخطاب الاعتراف وكتابة اليوميات وعروض التراسل، وكلّها أنواع تستحث سرداً بضمير المتكلم، وتعتمده لفتح مسامات الكتابة السردية على تأملات ذات حاضرة ومشاركة في محكيها، منشغلة بحكي تاريخها الشخصي ملتبسا بتاريخ قرية المقامة، وذاكرة أهلها وشهاداتهم ومروياتهم، ثمّ إنّ هذه الذات القلقة المنكفئة على نفسها، غالباً ما تكون منجذبة إلى أمكنتها الحميمة، إلى فضاء وحدتها الخلاق، حيث الكتابة، تستنطق أيقونية الأشياء من حولها، فإذ بالمخطوطات والكتب والخرائط والرسائل ودفتر اليوميات، علامات على ماضٍ صلد جاثم على صدر حاضر يوشك أن يتداعى.

حقيقية : «ولكنني سكت مستحلياً هذه اللعبة التي أشاهد فيها رواية تبنى، لأول مرة في أرض الواقع بدلا من أرض الكتابة. ويتحرك أبطالها أمامي من لحم ودم بدل أولئك الأشباح الذين أستخرجهم بصعوبة من الذاكرة السحيقة لرواية قليلي الوفاء. إنها متعة خاصة تلك التي نشعر بها ونحن نصنع التاريخ بدل أن نرويهِ...»⁵⁵

يتراجع صوت السارد محمد البشيري مفسحاً المجال للمؤلف عساه يُوقّع بهذا الخطاب الميثاروائي روايته الأولى، التي هي بالتأكيد رواية "مقامة ليلية-مقامة المبتدى"؛ ففي هذه اللحظة تولد الرواية الوحيدة التي يمكن أن تكتب وتقرأ، إنّها روايةٌ تسائل واقعا اندس بين تلافيف السيرة المتخيّلة لمحمد البشيري وحكاية قرينه، وعلى هذا لم تكن قصة كتابة الأطروحة المتضمّنة سوى ذريعة تخيلية اصطنعها المؤلف ليواري خطاب إدانته للواقع، مفضلاً البقاء في خلفية المشهد، والاحتماء بأصوات أبطاله المتخيلين.

خاتمة

توشى السرد في رواية "مقامة ليلية مقامة المبتدى" للروائي الجزائري عبد العزيز غرمول ببلاغة التضمين، بإدراج سيرة محمد البشيري وهي تكتب مباشرة على ركب المغامرة الروائية في قصة المقامة المروية، فبدت قصة الكتابة

الهوامش

1. جيرالد برنس ، قاموس السرديات ، ترجمة السيد إمام ، ط 1، ميرات للنشر والمعلومات ، القاهرة ، 2003 ، ص 56.
2. أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج 2 ، ط 5 ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ، لبنان ، 1981 ، ص 84.
3. جلال الدين أبو عبد الله محمد بن قاضي القضاة سعد الدين أبي محمد عبد الرحمن القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع ، د. ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د. ط ، ص 430.
4. ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج 2 ، المرجع السابق ، ص 85.
5. العباس بن الأحنف ، ديوان العباس بن الأحنف ، شرح وتحقيق عائكة الخزرجي ، ط 1 ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، 1954 ، ص 243.
6. أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج 2 ، د. ط ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، 1937 ، ص 342.
7. امرؤ القيس: ديوان امرؤ القيس ، ضبطه وصححه مصطفى عبد الشافي ، ط 5 ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، 2004 ، ص 117.
8. ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج 2 ، المرجع السابق ، ص 85.
9. ابن رشيق ، لعمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج 1 ، المرجع السابق ، ص 172.
10. - Tzvetan Todorov: les catégories du récit littéraire, communications 8, 1966, Éditions du Seuil, Paris. p128.
11. تزفيتان تودوروف ، الناس -الحكايات: "ألف ليلة وليلة" كما ينظر إليها التحليل البنوي ، ترجمة موريس أبو ناصر. مجلة مواقف العدد 16 ، يوليو ، 1971 ، ص 142.
12. المرجع نفسه ، ص ص 143-144.
13. المرجع نفسه ، ص 144.
14. جيرار جينيت ، عودة إلى خطاب الحكاية ، ترجمة محمد معتمد ، ط 1 ، المركز الثقافي العربي ، 2000 ص 111.
15. المرجع نفسه ، ص 270.
16. جيرار جينيت ، خطاب الحكاية-بحث في المنهج ، ترجمة محمد معتمد وعبد الجليل الأزدي وعمر الحلي ، ط 3 ، منشورات الاختلاف ، 2003 ، ص 270.
17. جيرار جينيت ، عودة إلى خطاب الحكاية ، المرجع السابق ، ص 115.
18. المرجع نفسه ، ص 115.
19. المرجع نفسه ، ص 118.
20. -Mieke bal: Mise en abyme et iconicité. in: littérature. n°29. 1978.pp.117.
21. لطيف زيتوني ، معجم مصطلحات نقد الرواية ، (عربي-إنكليزي - فرنسي) ، ط 1 ، مكتبة لبنان ناشرون ، دار النهار للنشر ، 2002 ، ص 51-52.
22. المرجع نفسه ، ص 51.
23. محمد عناني ، المصطلحات الأدبية الحديثة (دراسة ومعجم إنكليزي-عربي) ، ط 3 ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، 2003 ، ص 54.
24. جيرالد برنس ، قاموس السرديات ، ترجمة السيد إمام ، المرجع السابق ، ص 113.
25. عبد المجيد بن البحري ، مرايا القصص-بحث في السرد الترجسي ، ط 1 ، قرطاج للنشر والتوزيع ، صفاقس ، تونس ، 2007 ، ص 51.
26. ابن الأثير ضياء الدين: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج 2 ، المرجع السابق ، ص 348.
27. المرجع نفسه ، ص ص 206-207.
28. عبد العزيز غرمول ، مقامة ليلية-مقامة المبتدى ، ط 1 ، الجمعية الوطنية للمبدعين ، سلسلة المعنى ، 1993 ، ص 55.
29. تزفيتان تودوروف ، مقولات السرد الأدبي ، ترجمة الحسين سحبان وفؤاد صفا ، ضمن كتاب: طرائق تحليل السرد الأدبي (دون ذكر المنسق العام) ، ط 1 ، منشورات اتحاد كتاب المغرب ، الرباط ، 1992 ، ص 56 .
30. عبد العزيز غرمول ، مقامة ليلية مقامة المبتدى ، المصدر السابق ، ص 21.
31. المصدر نفسه ، ص 101.
32. المصدر نفسه ، ص 135.
33. المصدر نفسه ، ص 144.
34. المصدر نفسه ، ص 101.
35. المصدر نفسه ، ص 101.
36. المصدر نفسه ، ص 102.
37. المصدر نفسه ، ص 161.
38. المصدر نفسه ، ص 95.
39. عبد المجيد العابد ، السيميائيات البصرية-قضايا العلامة والرسالة البصرية ، ط 1 ، الشركة الجزائرية السورية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، دمشق ، 2013 ، ص 23.
40. عبد العزيز غرمول: مقامة ليلية-مقامة المبتدى ، ص 44.

41. المصدر نفسه ، ص.ص 44-45.
42. المصدر نفسه ، ص 62.
43. المصدر السابق ، ص 43.
44. المصدر نفسه ، ص.ص 136-135.
45. المصدر نفسه ، ص. ص 45-46.
46. أبو عبيد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي ، فتوح الشام ، تحقيق عبد اللطيف عبد الرحمن ، ج1 ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1997 ، ص 40.
47. عبد العزيز غرمول: مقامة ليلية-مقامة المبتدى ، المصدر السابق ، ص 39.
48. المصدر نفسه ، الصفحات: 39-40-41-42.
49. ظهرت الرواية الرسائلية (Roman épistolaire) في أدبيات القرن الثامن عشر ، وهي تقوم على تبادل مجموعة من الرسائل بين شخصيات الرواية ، وأنموذجها في إنجلترا ، رواية كلاريسا هارلو (Clarisse Harlowe) لصامويل ريتشاردسون (Samuel Richardson) ، كما انبثق هذا النوع في كتابات جان جاك روسو (Jean-jacques Rousseau) في هيلويوز الجديدة (La nouvelle Héloïse) ويبيير كوديرلو دي لاكلو (Pierre Choderlos de Laclos) في رواية العلاقات الخطرة (Les Liaisons dangereuses).
50. ينظر: شارتيه: مدخل إلى نظريات الرواية ، ترجمة عبد الكبير الشراقوي ، ط1 ، دار توبقال للنشر ، 2001 ، ص 95.
51. المرجع نفسه ، ص.ص 95-96.
52. عبد العزيز غرمول ، مقامة ليلية-مقامة المبتدى ، المصدر السابق ، ص.ص 102-10.
53. محمد الداوي ، الحقيقة الملتبسة-قراءة في أشكال الكتابة عن الذات ، ط1 ، شركة النشر والتوزيع المدارس ، الدار البيضاء ، 2007 ، ص 13.
54. عبد العزيز غرمول ، مقامة ليلية-مقامة المبتدى ، المصدر السابق ، ص.ص 55-56.
55. المصدر نفسه ، ص 107.

المدراس القرآنية بالريف البجائى - قرى بنو معوش أنموذجاً - دراسة أثرية - *Quranic schools in the rural countryside - the villages of Bani Maouche model - - Archaeological study*

تاريخ القبول: 2019-09-24

تاريخ الإرسال: 2018-10-28

فؤاد بوزيد، جامعة 8 ماي 1945 قالمة
 fouadbouzid703@gmail.com

الملخص

يدور هذا العمل حول مظهر من مظاهر التراث الثقافى الهادى، وهو المظهر المعماري للمدارس القرآنية، فى منطقة من مناطق الجزائر، وهى منطقة بنى معوش من ريف بجاية. حيث تزخر هذه الأخيرة بكم هائل من هذه المعالم التى تعد ركيزة من ركائز المؤسسات الدينية والتنظيمية المشكلة للقرى والأرياف؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهى تعتبر مؤشراً واضحاً على انتشار مؤسسات التعليم والعبادة فى جميع القرى الريفية بضواحي بجاية بشكل عام ومنطقة بنى معوش على وجه الخصوص، أضف إلى ذلك القيمة العلمية والثقافية التى يمكن أن نستمدّها من المدارس القرآنية من خلال الدراسة والتدقيق والبحث والتحقيق، وهذه الأخيرة تتميز بالبساطة فى هندستها المعمارية، فضلاً عن عدم وجود زخرفة (نقص الديكور)، وإيجاد وحدة الطراز فى بعضها وفرق فى الأخرى من حيث العمارة والتخطيط، وتهدف هذه الدراسة إلى التعرف على أهمية المدارس القرآنية فى منطقة وادي الصومام بشكل عام، ومنطقة بنى معوش على وجه الخصوص.

الكلمات المفتاحية: بنى معوش، وادي الصومام، بجاية الريف، القرية، المدرسة القرآنية، المسجد، العمارة، العمارة، المخطط.

Résumé

Ce travail s'articule autour d'une manifestation du patrimoine culturel matériel qui est l'aspect architectural des écoles coraniques, dans une région de l'Algérie, la région de Beni Maouche à la campagne. Les écoles coraniques sont des institutions religieuses, sociales, politiques, économiques, culturelles, éducatives, religieuses et militaires d'une grande importance. Elles sont un indicateur clair de propagation et de culte dans tous les villages ruraux de Bejaia en général et de la région de Beni Maouche en particulier ; Outre la valeur scientifique et culturelle que nous pouvons tirer des écoles coraniques par le biais d'études, d'audits, de recherches et d'investigations, ces écoles se caractérisent par la simplicité de leur architecture, ainsi que par le manque de décoration et par l'unité de l'architecture chez certains et les aménagements chez d'autres. Cette étude vise à identifier l'importance des écoles coraniques dans la région de Vallée de la Soumam en général et dans celle de Bani Maouche en particulier

Mots-clés : Bani Maouche, Vallée de la Soumam, Béjaïa, La campagne, Le village, L'école coranique, Mosquée, Architecture, Architectural.

Abstract

This work revolves around a manifestation of material cultural heritage, the architectural appearance of the Koranic schools, in an area of Algeria, the Beni Maouche region of the rural countryside. The Koranic schools are among the most important religious, social, political, economic, cultural, educational, religious and even military institutions. On the other hand, the Koranic schools are a clear indicator of the spread of educational and worship institutions in all the rural villages in the rural area of Bejaia in general and the Beni Maouche area in particular. In addition to the scientific and cultural value that we can draw from the Koranic schools through study, auditing, research and investigation, the latter is characterized by simplicity in its architecture, as well as the lack of decoration, and the unity of architecture in some and teams in others in terms of architecture and schemes. This study aims at identifying the importance of Quranic schools in the Wadi Al-Suam area in general, and the Bani Maouche area in particular.

Keywords: Bani Maouche, Valley of the Soumam, Bejaia, The countryside, The village, The Koranic school, Mosque, Architecture, Architectural, Planned.

مقدمة

أولاً-الموقع الفلكي والجغرافي لمنطقة بني معوش

1- الموقع الفلكي

تقع منطقة بني معوش حسب إحداثيات لامبير ما بين خطي طول س س 653.6 و 666.53، وبين خطي عرض ع ع 4032.75 و 4045.54، المرتفعة عن مستوى البحر بـ 1045م.

2- الموقع الجغرافي

تتربع منطقة بني معوش على مساحة مقدرة بـ 95 كلم²، حيث تقع بالجهة الجنوبية الشرقية لولاية بجاية (الخريطة رقم:01)، يحدّها من الجهة الشمالية والشمالية الغربية كل من مناطق بني جليل، مسيسنة، وصدوق، يليها من الجهة الشرقية والشمالية الشرقية كل من مناطق بني شبانة، بني موحلي، وفرعون، أما من الغرب فمنطقة أمالو، كما يليها من الجنوب والجنوب الغربي منطقتي بني ورثيلان وبوحزمة (الخريطة رقم:02)¹.

ثانياً-المدرسة القرآنية ونشأتها في العالم الإسلامي

1- تعريف المدرسة

1-1- لغة: المدرسة مشتقة من فعل "درس الكتاب" يدرس درسا ودراسة إذا كرهه للتمكن منه، ودارست ودرست²، والمدرس بفتح الميم هو الموضع الذي يدرس فيه جمع مدارس، والمدرسة مكان الدرس والتعليم³.

1-2- اصطلاحاً: المدرسة مبنى ديني يفترض ألا يكون له مئذنة ولا منبر⁴، وتعتبر المكان المقام لإقراء القرآن الكريم ومسكنا مخصصا لسكن الشيوخ والفقهاء والطلبة⁵.

2- نشأة المدارس القرآنية في العالم الإسلامي

المدارس متأخرة عن تاريخ نشأة المساجد بعدما كان هذا الأخير يؤدي دورها، ففكرة إنشائها كانت في العهد السلجوقي بفارس والعراق، ازدهرت أكثر أيام الوزير نظام الملك، وفي القرن 12م (6هـ) عمم الأتابكة المدارس السنيّة على مدن كثيرة مثل الموصل وأربل ونصيبين⁶، وقد أكد المقرئ أن أولى المدارس بنيت في نيسابور بخراسان بقوله: "... المدارس مما حدث في الإسلام... وإنما حدث عملها بعد الأربع مائة من سني الهجرة، أول من حفظ عنه أنه بنا مدرسة في الإسلام أهل نيسابور..."⁷.

تعدّ العمارة التقليدية الدّينية بمنطقة القبائل من بين الآثار الهامة التي تصوّر لنا طبيعة التطور الفكري للإنسان المحلي من النواحي الاجتماعية، والنفسية والاقتصادية، إذ يغلب عليها الطابع المحليّ المعبرّ عن المستوى المعيشي البسيط الذي يعيش فيه هذا الإنسان، مكتسباً بذلك أهمية كبيرة لإبراز أصالة المجتمع الرّيفي، وإثبات هويّته الوطنية، كما تعتبر شاهدا مادياً ذو خصائص ومميزات محلّية تفرضها طبيعة المنطقة، بحيث ركزنا في دراستنا هذه على تراث مادي محليّ ممثل في المدارس القرآنية في منطقة من مناطق الجزائر، الممثلة في منطقة بني معوش.

وباعتبار أنّ منطقة بني معوش امتداد لمنطقة حوض الصومام بالريف البجائي، ولكونها أيضاً جزءاً لا يتجزأ من منطقة القبائل، وبحكم محافظتها على القرى ذات الطابع التقليديّ الأصيل، فإن دراسة المدارس القرآنية بهذه المنطقة، ومقارنتها بغيرها من المدارس أمر في غاية الأهمية، وبذلك تمحورت إشكالية الموضوع حول محور رئيسي يتعلق بالتعرف على الأنماط المعمارية لهذه المعالم القرآنية المنتشرة بمنطقة بني معوش، وعلى مختلف تكويناتها المعمارية؛ ويتفرع عن هذه الإشكالية مجموعة تساؤلات فرعية ارتباط أولها بنشأة المدرسة في العالم الإسلامي بشكل عام وبالريف البجائي بشكل خاص، أما التساؤل الثاني فتعلق بالنظام التعليمي للمدارس القرآنية بمنطقة بني معوش، ليصب التساؤل الأخير في معرفة الخصائص المعمارية لهذه المدارس بمنطقة الدراسة.

وللإجابة على الإشكالية المطروحة والأسئلة الفرعية اعتمدنا على الدراسة الوصفية والتحليلية المقارنة واستعنا بمجموعة من الصور التوضيحية والمخططات التي تسهّل عملية القراءة الأثرية للمعالم وكذا مقارنتها بغيرها مما انتشر بالريف الجزائري وذلك وفق المحاور التالية:

أولاً: الموقع الفلكي والجغرافي لمنطقة بني معوش.

ثانياً: المدرسة القرآنية ونشأتها في العالم الإسلامي.

ثالثاً: حركة التعليم ببجاية وضواحيها.

رابعاً: دراسة معمارية وصفية للمدارس القرآنية بمنطقة

بني معوش.

خامساً: دراسة تحليلية ومقارناتية للمدارس القرآنية.

في من عرف من علماء المائة السابعة في بجاية، الكثير من العلماء في مختلف العلوم الدينية والدينية¹⁶، وكذلك كان حظ الريف البجائي من الحركة العلمية في العهد الحفصي، وبالخصوص بعد الاحتلال الإسباني لبجاية عام 1510م¹⁷، وخروج العلماء من حاضرة بجاية إلى الأرياف وعلى رأسها بني منقلات، بني ورثيلان، بني وغليس، صدوق، ومشدالة، وغيرها كثير في حوض وادي الصومام.

ومثال ذلك في الريف البجائي زوايا عدة ومدارس قرآنية، التي تميزت بها قرى حوض الصومام وتعددت بها، والتي شابهت في نشاطها الكتابية القرآنية التي كانت في العهد الأول من الإسلام، وكما كان لها دور في حركة العلم والتربية في هذه القرى.

رابعاً-دراسة معمارية وصفية للمدارس القرآنية

بمنطقة بني معوش

نركز في هذا المحور على دراسة المدارس القرآنية وصفاً ومعمارياً، بحيث قمنا بأخذ أربع عينات منها بمنطقة بني معوش، والتي مازالت تحتفظ بالمظهر العام لوحدها وعناصرها المعمارية، وكذا ركزنا على الاختلاف الموجود بينها، أولها المدرسة القرآنية لتاقتيت إيغيل (قرية تاقتيت إيغيل¹⁸)، والمدرسة القرآنية لثيغرمت (قرية ثيغرمت¹⁹)، والمدرسة القرآنية بني خيار (قرية بني خيار²⁰) والمدرسة القرآنية لثيغرمت (قرية ثيغرمت²¹).

1- المدرسة القرآنية تاقتيت إيغيل

1-1-موقع المدرسة: تقع المدرسة في حي الحارة العلوية بالجهة الشمالية للقرية ملاصقة للمسجد، وتحطّ على ارتفاع 698م من مستوى سطح البحر (الصورة الجوية رقم: 01).

2-1-الوصف العام

تتخذ المدرسة شكلاً شبه منحرف، يحدّها من الجهة الجنوبية مسجد القرية، ومن الجهة الشمالية الساحة العامة، ومن الجهتين الشرقية والغربية منازل سكنية، لقد تعرّضت هذه المدرسة إلى عدّة ترميمات، وكان آخرها بعد ما تعرضت منطقة إلى الزلزال سنة 2001م (المخطط رقم: 01).

1-2-1-الخارجي

تحتوي هذه المدرسة على أربع واجهات، فالواجهة الشرقية مكونة من مدخلين، الأول منهما بجانبه الأيمن نافذة

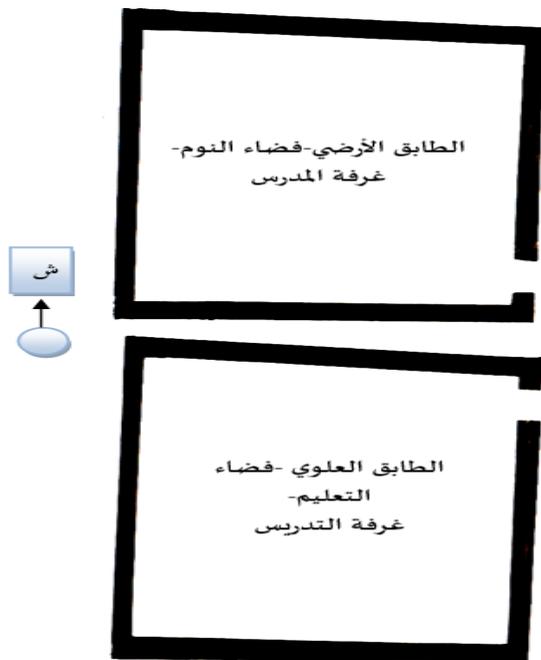
أما المدارس المختصة بنشر العلوم الدينية والشريعة على المذهب المالكي ببلاد المغرب، فقد كان ظهورها منذ عهد حكم الخليفة الموحيدي أبو يوسف يعقوب المنصور(580-595هـ/1184-1199م)، وهذا ما زاد الإقبال على العلم والمعارف، وهو ما أكدّه ابن زرع في قوله: "... وحصن البلاد وضبط الثغور وبنى المساجد والمدارس في بلاد المغرب وإفريقية والأندلس..."⁸، غير أن الباحث الإنجليزي ألفرد بل يرى أن المدارس الموحدية كانت عبارة عن دور الحديث، فأول ظهور للمدارس حسب قوله كان في منتصف القرن الخامس عشر للميلاد على عهد الحفصيين ثم بعد ذلك في مملكة فاس، وتلمسان⁹، وأنشئت مدارس عدّة في عهد الزيانيين أهمها التي أنشأها عبد الواد عام 1347م في عهد أبي حمو موسى الأول، وهكذا انتشرت المدارس بالمغرب الإسلامي، و من بينها المدرسة الشّماعية والتوفيقية والخلدونية في العهد الحفصي، وكذا مدرسة الصفارين في العهد المريني بفاس¹⁰، أما في المغرب الأوسط فتوجد مدرسة العبّاد ومدرسة سيدي الحلوي من العهد المريني وبالنسبة لعهد الزيانيين وجدت المدرسة التشفينية واليعقوبية¹¹، ومن ثم اقترن هذا المصطلح في العهد العثماني بالزاوية، وبذلك فإنّ الرّباط أقدمها تاريخاً ثم تليه الزاوية التي تطورت ومن ثم تأتي المدرسة بمفهومها الشامل فيما بعد¹².

ثالثاً-حركة التعليم ببجاية وضواحيها

إنّ حركة التعليم ببجاية وضواحيها ذات مستوى جدّ متفوق لها لهذه المنطقة من علماء اشتهروا عبر الفترات المتلاحقة من الزمن، بداية من ظهور بجاية كحاضرة للعلم والعلماء بعد بناء الناصر بن علّاس لها سنة 1067م في العهد الحمادي¹³، إذ صارت بجاية دار هجرة العلماء والمحدثين والأدباء من الأندلس وغيرها واستوطنوها، وازدهرت الحركة الفكرية بها وصارت أهلة بالسكان، وازدهرت بها العلوم الدينية واللغوية والرياضية والطّب والصناعات¹⁴. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد كان حكام الدولة الحمّادية من رجال الفكر والثقافة، ما جعل العلم والتعليم يزدهر ببجاية¹⁵، إذ كانت هذه الحاضرة زاخرة بالعلماء والشعراء، ونافست الزيتونة بتونس والقرويين بفاس، وتخرّج منها عديد الأعلام والعلماء الذين انتشروا في أعماق منطقة القبائل الكبرى والصغرى، ولقد ذكر الغبريني في كتابه عنوان الدّراية

المخطط رقم (01): المقطع الأرضي والعلوي للمدرسة

القرآنية بتاقنيت إيغيل. السلم 100/1سم.



المصدر: من إنجاز الباحث

2- المدرسة القرآنية ثيغمرت

1-2- موقع المدرسة القرآنية

تقع المدرسة القرآنية للقريبة بالجهة الشمالية للمسجد ملتصقة به (الصورة الجوية رقم: 02).

2-2- الوصف العام

تتخذ المدرسة شكلا شبه مستطيل (المخطط رقم: 02)، متكونة من طابقين، الأرضي يتمثل في غرفة المدرس، التي يفضي إليها عن طريق بوابة موجهة للشمال واقعة بوسط الجدار، أما فيما يخص الواجهات الأخرى فقد تهدمت كلياً، كما نجد الغرفة الثانية المستخدمة للتدريس بالطابق العلوي، متميزة بمدخل وسطي بالجدار الغربي مفضي إليها، وبالنسبة للجهات الأخرى فنجدها مهدمة كلياً أيضاً (الصورة رقم: 02).

أما تسقيف هذه المدرسة فإنه يتميز بنمطين ألا وهما السقف المائل والمسطح، إذ الأول يتوج غرفة التدريس، والثاني الفاصل بين مستوى الغرفتين (الشكل رقم: 01)

مستطيلة الشكل تعلوه، والثانية بجانبها الأيسر والتمتيزه بدقة خشبية واحدة مؤدية للطابق العلوي يوصل إليه عن طريق سلم مهدم، أما الواجهة المقابلة لها فتميزت بوجود نافذة في وسطها مستطيلة الشكل، ونجد بالجهة الشمالية للمدرسة مصطبة على طول الجدار تقابل الساحة العامة والمستعملة كمقعد أين تقام تجمعات كل أيام الجمعة للنظر في شؤون القرية المختلفة كالتعاون والتضامن... الخ، والتي تماثلها اليوم لجنة القرية²²، إضافة إلى وجود نافذة مستطيلة الشكل في وسط جدار الواجهة، أما الجدار

1-2-2- الداخلي

تتألف المدرسة من طابقين، أرضي يحتوي في جهته الشرقية على مدخل مستطيل، وبجهته الشمالية نجد نافذة بوسطها، أما الجهتين الغربية والجنوبية فلا نكاد نجد أية عنصر معماري، أما الطابق العلوي فيجهته الشرقية مدخل ونافذة، وبجهته المقابلة نجد أيضا نافذة تتوسط الجدار، أما فيما يخص الجدار الجنوبي فنجد النافذتين المطلتين على المسجد كما ذكرنا سالفاً، وبالجدار الشمالي لا نكاد نجد أي عنصر معماري. يعتبر الطابق الأرضي من المدرسة غرفة إقامة المدرس، والطابق العلوي منها غرفة للتدريس، وهي مسقفة من أعلى بسقف جملوني والمرتكز على الجدارين الجانبيين (الشمالي والجنوبي)، باعتبار المنطقة جبلية وريفية وتكثر بها نسبة التساقط خاصة في فصل الشتاء وعليه فإنه الشكل الملائم للتسقيف في هذه المنطقة الريفية.

الجدول رقم (01): مقاسات مدرسة تاقنيت إيغيل.

المساحة		طول 7.44م X عرض 6.08م = 45.23م ² .	
الوحدات المعمارية			
الوحدة	غرفة التدريس	غرفة إقامة المدرس	
الطول	6.58م	5.25م	
العرض	6.58م	5.75م	
العناصر المعمارية			
العنصر	العدد	العرض	الإرتفاع
الباب الرئيسي	01	0.70م	1.75م
الأبواب الثانوية	01	0.60م	1.60م
النوافذ	03	0.58م	0.70م

المصدر: من إنجاز الباحث.

الجدول رقم (02): مقاسات المدرسة القرآنية

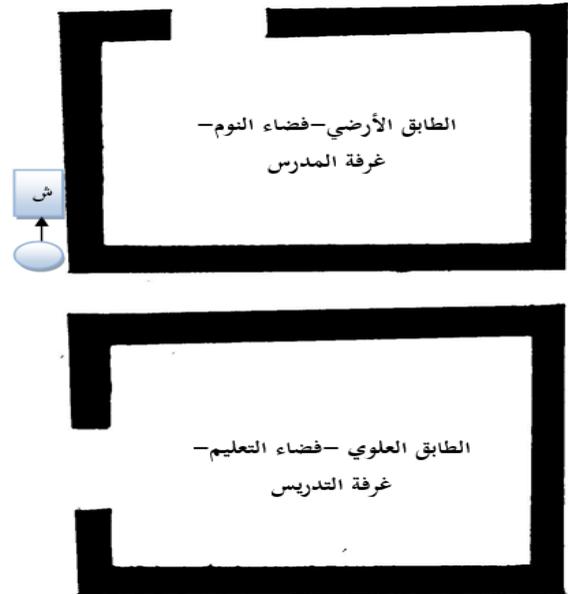
بثيغرمت.

المساحة		طول 5.52 م X عرض 3.86 م = 21.30 م ² .	
الوحدات المعمارية			
الوحدة	الطول	العرض	
الصحن	///////	////////	
غرفة التدريس	4.25 م	2.98 م	
غرفة إقامة المدرس	4.25 م	2.98 م	
العناصر المعمارية			
العنصر	العدد	العرض	الإرتفاع
الباب الرئيسي	01	1.10 م	1.93 م
الأبواب الثانوية	01	1.05 م	1.85 م

المصدر: من إنجاز الباحث.

المخطط رقم (02): المقطع الأرضي والعلوي للمدرسة

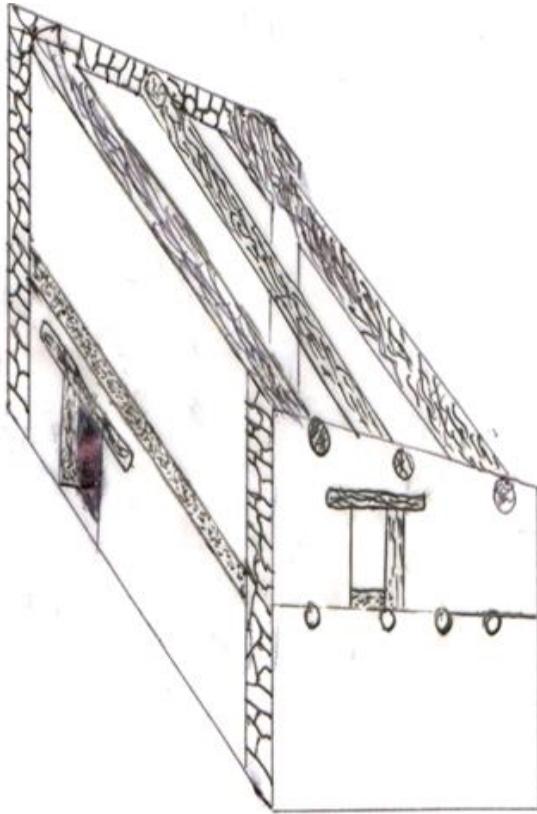
القرآنية بثيغرميت. السلم 100/1 سم. (من إنجاز الباحث).



المصدر: من إنجاز الباحث

الشكل رقم (01): الطابع العام للمدرسة القرآنية

بثيغرمت



المصدر: من افتراض الباحث

3- المدرسة القرآنية بني خيار

1-3- موقع المدرسة القرآنية

تقع مدرسة بني خيار بمدخل القرية بالجهة الشمالية الشرقية لها، بالجانب الشمالي أيضا للمسجد (الصورة الجوية رقم: 03).

2-3- الوصف العام

تتخذ المدرسة شكلا مستطيلا بها طابقان: أرضي وعلوي (المخطط رقم: 03)، يحدها من جهتها الجنوبية المسجد الملاصق لها، ومن جهاتها الثلاث الأخرى فهي مطلة على شوارع القرية. لقد تعرضت هذه المدرسة إلى تهديم سقفها الجملوني وجزء من جدار الجانب الأيسر للجهة الشرقية منها.

1-2-3- الخارجي

تحتوي هذه المدرسة على أربع واجهات، يتوجج الواجهة الجنوبية وبجانبيها الأيمن مدخل رئيسي معقود بعقد نصف دائري يؤدي إلى الطابق الأرضي، بالإضافة إلى نافذة

الجدول رقم (03): مقاسات المدرسة القرآنية ببني

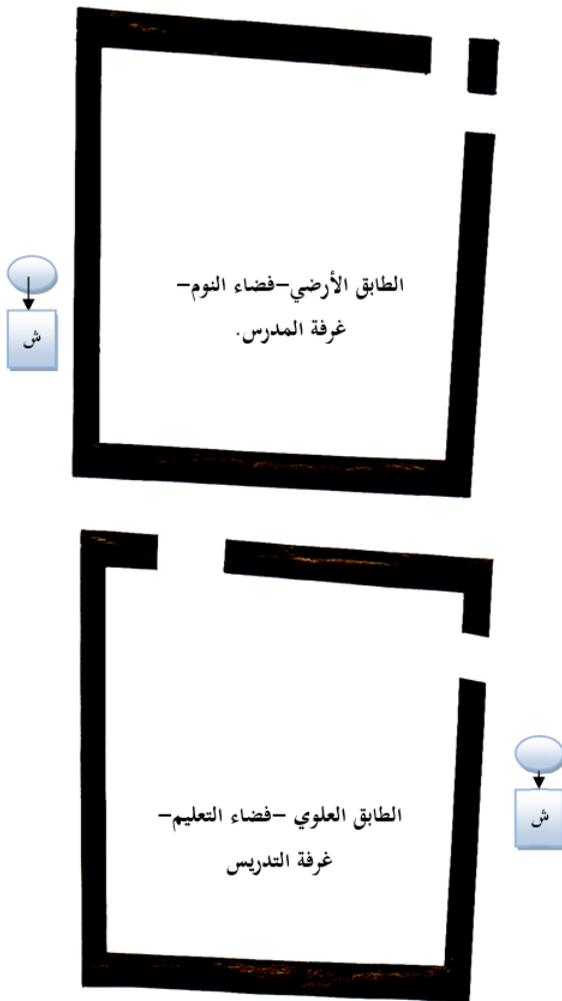
خيار.

المساحة			
طول 5.60م X عرض 4.25م = 23.80م ² .			
الوحدات المعمارية			
الارتفاع	العرض	الطول	الوحدة
2.15م	3.58م	4.78م	غرفة التدريس
2.06م	3.58م	4.78م	غرفة إقامة المدرس
العناصر المعمارية			
الارتفاع	الطول	العدد	العنصر
1.90م	0.90م	01	الباب الرئيسي
1.84م	0.60م	03	الأبواب الثانوية
0.80م	0.46م	03	النوافذ

المصدر: من إنجاز الباحث.

المخطط رقم (03): المقطع الأرضي والعلوي للمدرسة

القرآنية ببني خيار. السلم 75/1سم.



المصدر: من إنجاز الباحث

تعلوه مستطيلة الشكل يعلوها عتب خشبي ، أما بالجانب الأيسر لهذه الواجهة فنجد سلما مكونا من عشر(10) درجات يوصل إلى باب تحاذيه نافذة يؤدي إلى الطابق العلوي للمدرسة ، وبالواجهة الشرقية نجد في وسطها نافذة مستطيلة ، كما يتبين لنا من الأعلى جدار سمي الشكل يقوم عليه السقف (الشكل رقم: 02) ، أما فيما يخص الواجهة الغربية فيزكنها الأيمن باب مستطيل الشكل يقود إلى الطابق الأرضي ، يعلوه مدخل ثاني مؤدي إلى الطابق العلوي عن طريق سلم مهدم ، أما الجهة الشمالية منها فإنها خالية من أي عنصر معماري(الصورة رقم: 03).

3-2-2-الداخلي

تتكون المدرسة من طابقين ، نجد بالجانب الأيسر الجدار الجنوبي للطابق الأرضي مدخلا رئيسيا مستطيل الشكل ، وبجانبه الأيمن نافذة وكوة جدارية معقودة بعقد منكسر ، أما الجدار المقابل له فحوى كوتين جداريتين معقودتين بعقدين منكسرين ، وبالجدار الشرقي نافذة مستطيلة متوجة لوسطه مطلّة على أحد شوارع القرية ، يكتنفها كوتان معقودتان بنفس العقد المذكور سالفا استعملتا لغرض وضع المصاحف والكتب الدينية ، ونجد بالجدار المقابل له مدخلا بالجانب الأيسر له ، وكوة جدارية بالجانب الأيمن منه .

أما فيما يخص الطابق العلوي الذي يوصل إليه عن طريق مدخلين فالمدخل الأول الواقع بالجهة الجنوبية متوج بعتب خشبي ، إضافة إلى احتواء هذه الجهة على نافذة ، وبالنسبة للمدخل الثاني الواقع بالجهة الغربية فهو لا يتميز بأي خاصية معمارية ، لقد تبين لنا في الأخير ومن خلال المعاينة الدقيقة أن الطابق الأرضي كان مخصصا للتدريس والطابق العلوي استعمل كغرفة للمدرّس .

أما فيما يخص التسقيف فنجدته بنمطين في هذه المدرسة القرآنية أيضا ، الأول ذو تسقيف مسطح وهو الذي يفصل بين الطابق الأرضي والعلوي للمدرسة ، أما الثاني فهو ذو شكل جملوني يظهره الجدران الجانبيان المنكسران (الشرقي والغربي) للمدرسة (الشكل رقم: 02).

الجدارين الغربي والجنوبي المتمثل في النمط الجملوني (الشكل رقم: 03 والصورة رقم: 04).

4-2-2-الداخلي

تتشكل المدرسة القرآنية بالواجهة الشرقية من الداخل من مدخل ونافذة مذكورين سابقا، أما الواجهات الأخرى فوجد ستة كوات، موزعة اثنين بكل واجهة، أما تسقيفه فهو مهدم كلياً كما ذكرنا سالفاً.

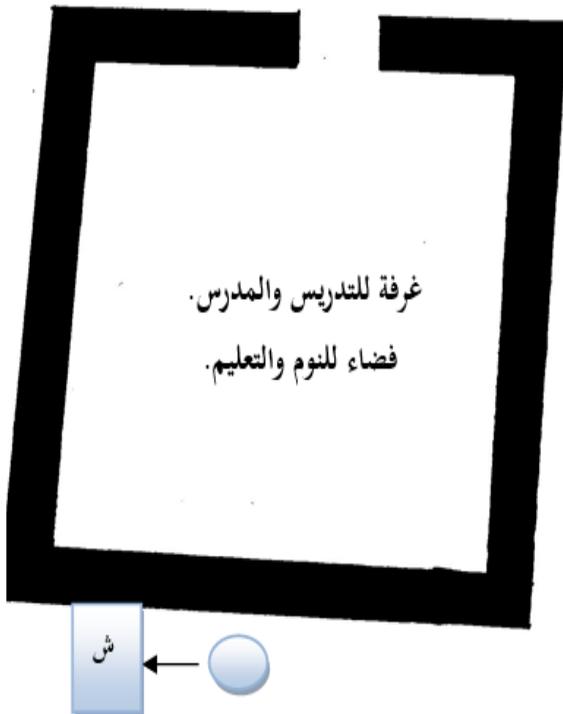
جدول رقم (04): مقاسات مدرسة قرآنية تزخيت

المساحة			
طول 5.60م	X عرض 4.25م	= 23.80م ² .	
الوحدات المعمارية			
الوحدة	الطول	العرض	
غرفة التدريس	3.90م	3.76م	
العناصر المعمارية			
العنصر	العدد	الطول	الارتفاع
الباب الرئيسي	01	0.78م	1.89م
النوافذ	01	0.45م	0.56م
الكوات	06	0.35	0.45م

المصدر: من إنجاز الباحث.

المخطط رقم(04): المقطع الأرضي للمدرسة القرآنية

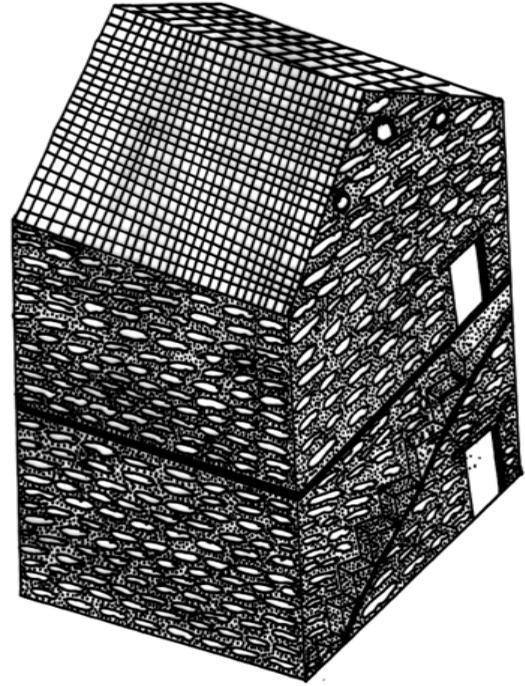
بتزخيت. السلم 75/1سم. (من إنجاز الباحث).



المصدر: من إنجاز الباحث

الشكل رقم(02): الطابع العام للمدرسة القرآنية ببني

خيار (من افتراض الباحث).



المصدر: من افتراض الباحث

4- المدرسة القرآنية بتزخيت

4-1-موقع المدرسة القرآنية

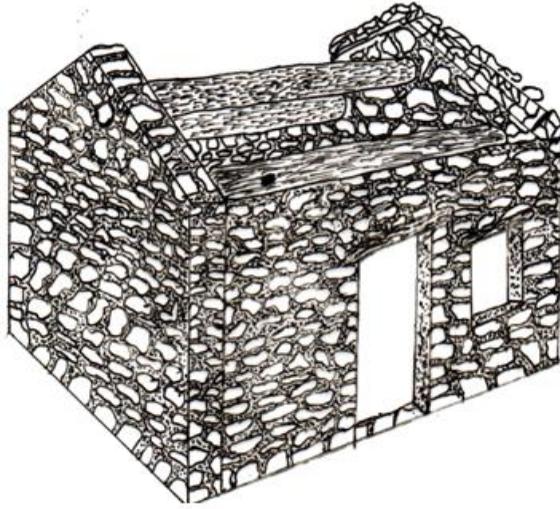
تقع المدرسة القرآنية بالجزء الأمامي للقريبة (الجهة الشمالية الشرقية)، محاذية للمسجد بجهته الشمالية (الصورة الجوية رقم: 04).

4-2-الوصف العام

تتخذ المدرسة شكلاً مربعاً، بها غرفة واحدة (المخطط رقم: 04)، وهي تؤدي الوظيفة التعليمية بالدرجة الأولى، بتعليم القرآن الكريم، الأحاديث النبوية، أبجديات اللغة العربية الخ.

4-1-2-الخارجي

يتشكل المظهر الخارجي للمدرسة القرآنية من مدخل رئيسي ونافذة مكنتفة له بالجانب الأيمن موجهة للواجهة الشرقية، أما فيما يخص الواجهات الأخرى فلا نجد أي عنصر معماري يذكر، وبالنسبة للتسقيف الخارجي فهو مهدم كلياً، إلا أننا استخلصنا النمط الذي سقفت به المدرسة من خلال



الشكل رقم(03): الطابع العام للمدرسة القرآنية

بتزخيث (من إفتراض الباحث).

المصدر: من افتراض الباحث

أيضا من نفس القلعة²⁸، وكذلك نراه بظاهرة مغايرة مدمجا في المستوى السفلي من المسجد بجامع الزهّار في قرية القصور، وكذا جامع أحمد بن الجودي بتالوانو بمنطقة برج بوعريريج، إضافة إلى ما نراه بجامع أولاد حالة من نفس النطاق الجغرافي لبرج بوعريريج، أو اشتراك الفضاء لكل من المسجد والمدرسة رغم اختلاف الوظيفة بين التعبدية والتعليمية وهو ما نراه أيضا في مسجد أولاد عثمان بزمورة برج بوعريريج²⁹.

كما كان الشأن أيضا للحركة العلمية في المدارس والزوايا في الجزائر بحواضرها المعروفة في تلمسان الغرب، قسنطينة في الشرق، وبجاية في الوسط بكونها مركز إشعاع علمي وفكري جعلها قبلة لطالبي العلم والمعرفة منذ العهد الحمادي، بكونه يمثل مرحلة التحضر والانفتاح³⁰، لقد ساعد انتقال العلماء والأدباء من العاصمة الأولى (الحمادية بمسيلة) إلى دار الهجرة الجديدة بجاية من استقطاب عدد كبير أيضا من الأدباء والعلماء من الأندلس وغيرها، بذلك أصبحت بجاية وضواحيها أهلة بالسكان، وازدهرت بها العلوم الدّينية واللّغوية والطّب والصناعات، فكان تأثر المدارس التي درستها تأثيرا كبيرا بما انتشر من مدارس قرآنية عديدة ببجاية على غرار جامعة سيدي تواتي التي كان يوجد بها 3000 طالب منهم 500 طالبة³¹.

وتعكس هذه المدارس اهتمام أهل المنطقة بالناحية العلمية فيها خاصة التعليم الدّيني وعيا منهم وإدراكا لما يحتله في تشكيل الشخصية والهوية المحلية، لما يتسم به أفراد وجماعات المجتمع المحلي من مميزات يذكرها كل من هانوتو

خامسا-الدراسة التحليلية والمقارناتية للمدارس

القرآنية

تميزت المدارس القرآنية بمنطقة بني معوش (الريف البجائي) بتخطيط معماري بسيط حوى في مجمله طابقين، فالطابق الأرضي المستعمل لغرض تعليم الطلبة حفظة القرآن، وقراءة المتون النحوية والعقائدية مثل متن ابن عاشر ومختصر خليل في الفقه الملكي، الأجرومية للإمام الصنهاجي، وهذا توافقا لما كان من مكانة لبجاية في المجال العلمي²³، وأما الطابق العلوي الذي نجده مستعملا لإقامة المدرّس فيه، كما هو الشأن بالنسبة للمدارس النظامية.

وانتشرت بمنطقة بني معوش مدارس بسيطة معماريا وفنيا (تخلو من الزخارف) والتميزة بالوحدة شكلا ومضمونا، فهي مهتمة بتدريس القرآن الكريم واللغة العربية على غرار المدارس القرآنية المنتشرة بالقرى المجاورة كمدرسة قرية أذرار²⁴ التي تأسست سنة 1939م، ومدرسة قرية عجيسة²⁵ التي أسست سنة 1942م²⁶، بالإضافة إلى زوايا أخرى اشتهرت بضواحي بجاية بعد أن أفل وميضها من بينها زاوية سيدي يحي العيدلي في عرش بني عيدل، والذي تخرّج على يد علماء فطاحل ببجاية، كما هو الشأن أيضا بالنسبة لزاوية سيدي أحمد بن يحي بأمالو ويعود تأسيسها إلى القرن 9هـ/ 15م²⁷. ونجد ما يشابه المدارس المنتشرة في هذه المنطقة ما نراه في المدرسة القرآنية لجامع بومزوق بقلعة بني عباس بكونها مستقلة عن المسجد وبطاق واحد يضم غرفة التدريس وغرفة المدرّس منفصلتين، وكذلك بجامع بومزوق

في الريف البجائي ، وبصورة خاصة في قرى الريف البجائي التي تتطابق والقرى المعيارية (تاقنيت إيغيل ، ثيغرمت ، بني خيار ، وثيزخث) بعرض بني معوش ، وكذا ما نراه في قلعة بني عباس ، صدوق العليا والسفلى ، وبوحزمة...الخ.

إن هذه المدارس القرآنية في مجملها إن دلت على شيء إنما تدل على أصالة أمة ووحدة طراز ، وهوية قسم من أقسام هذا الوطن ، المبرزة لتجدر هذا المجتمع المحلي في أعماق التاريخ ، وسعيه لمسيرة الحداثة مع الحفاظ على الأصل.

لكن لا ننسى كذلك أن ننوه بما آلت إليه المدارس القرآنية من حالة يرثى لها من التهدم والسقوط الكلي أو الجزئي ، وهذا كله ناتج إما عن الترك والهجر أو عن اللامبالاة ونقص روح الوعي الثقافي والفكري الأثري لدى سكان المنطقة ، للسعي وراء الحفاظ على ما تبقى من المنشآت الأثرية ، وكذا إنشاء جمعيات أثرية وتاريخية وثقافية تسعى للحفاظ على هذا الزخم التراثي الكبير بما يمثله من رمزية وأصالة للمجتمعات المحلية والوطنية.

ولوتورنو عن منطقة القبائل ، إذ حسب ذكرهما أن كل فرد في المنطقة يعرف القراءة والكتابة ، وما يظهر من مدارس عامة ابتناها السكان ؛ وكما يرون في ذلك واجبا دينيا ونخوة خاصة³².

إن ظاهرة بناء المدارس القرآنية تنم عن ذلك الوعي الثقافي والديني للمجتمع المحلي الذي سعى الاستعمار الفرنسي للقضاء عليها بشتى الوسائل والطرق ، للسيطرة على المجتمعات المحلية المنتشرة في ربوع الريف البجائي ، شأنها شأن مناطق مختلفة من الوطن الجزائري.

خاتمة

ما يمكن قوله ختاماً عن التفاصيل العامة للعمارة التقليدية للمدارس القرآنية بمنطقة بني معوش ، أنها اتسمت بالوحدة شكلا ومضمونا ، عدا ما نجده من مميزات وخصائص نادرة الوجود تفرضها المساحة المستغلة لتشكيل هذه الوحدة من حيث التوزيع والتقسيم ، أما ما هو عدا ذلك فإنه وكما سبق ذكره خاضع للوحدة النمطية التي لا نكاد ألا نراها في جميع ما انتشر في الريف القبائلي بصفة عامة وما نجده أيضا

الهوامش

1. - مصلحة التخطيط والتهيئة العمرانية لولاية بجاية.
2. - المقريري (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد الله)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، ج3، دار التحرير للطبع والنشر، (1967).
3. - **المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية**، أخره مجموعة الدكاترة، ط2، (1975)، ج1، ص ص 279-280.
4. - غالب (عبد الرحيم)، **موسوعة العمارة الإسلامية**، ط1، بيروت، (1988م)، ص.358.
5. - بن مامي (محمد الباجي)، **مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني**، المعهد الوطني للتراث، تونس، (2006)، ص.26.
6. - غالب (عبد الرحيم)، **المرجع السابق**، ص.359.
7. - المقريري (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد الله)، **المصدر السابق**، ص.663.
8. - ابن أبي زرع (علي بن عبد الله)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، (1972)، ص.143.
9. - بل (ألفرد)، **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم**، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت لبنان، (1987)، ص.308.
10. - عزوق (عبد الكريم)، **المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، (2007-2008)، ص.118.
11. - نفسه، ص.120.
12. - سعد الله (أبو القاسم)، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ط1، دار المغرب الإسلامي، (1998)، ج1، ص ص 245-247.
13. - عزوق (عبد الكريم)، **المرجع السابق**، ص.125. **وانظر أيضا:** بورويبة (رشيد)، **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (1977م)، ص.54.
14. - عزوق (عبد الكريم)، **المرجع السابق**، ص.83.
15. - نفسه، ص.84.
16. - فراد (محمد أرزقي)، **إطالة على منطقة القبائل**، دار الأمل، (2007م)، ص.13.
17. - Feraud(L, CH) ; **Histoire des Villes de constantine Bordj Bouriridj**, in recueil des notices et Mémoire de la Société archéologique de la province de constantine, N°15, 1871-1872, Paris.P. 256.
18. - تقع قرية تاقنيت إيفيل بالجهة الشرقية لمنطقة بني معوش، وهي على ارتفاع 741م عن مستوى سطح البحر.
19. - تقع قرية ثيغرم بالجهة الشرقية لمنطقة بني معوش، وهي على ارتفاع 578م عن مستوى سطح البحر.
20. - تقع قرية بني خبار بالجهة الجنوبية الشرقية لمنطقة بني معوش، وهي على ارتفاع 1050م عن مستوى سطح البحر.
21. - تقع قرية تيزخت بالجهة الجنوبية لمنطقة بني معوش، وهي على ارتفاع 851م عن مستوى سطح البحر.
22. - فراد (محمد أرزقي)، **أزفون تاريخ وثقافة**، ط1، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (أوت 2003م)، ص.232.
23. - عزوق (عبد الكريم)، **المرجع السابق**، ص.125.
24. - هي إحدى القرى التابعة حاليا لبلدية بني ورثيلان ولاية سطيف.
25. - هي إحدى قرى الريف البجائي التابعة حاليا لبلدية صدوق.
26. - فراد (محمد أرزقي)، **إطالة....**، **المرجع السابق**، ص ص.16-18.
27. - عزوق (عبد الكريم)، **المرجع السابق**، ص.127. **وانظر أيضا:** نسيب (محمد)، **زاويا العلم والقرآن بالجزائر**، دار الفكر، الجزائر، (1988م)، ص.169.
28. - بودرواز (عبد الحميد)، **قلعة بني عباس ببجاية مابين القرنين السادس عشر والتاسع عشر الميلاديين (العاشر والثالث عشر الهجريين)**، دراسة أثرية نموذجية، رسالة تخرج لنيل درجة الماجستير في الآثار الريفية والصحراوية، جامعة الجزائر 2 /معهد الآثار، السنة الجامعية 2010-2011، غير منشورة، ص ص 131...136 / 231-256-266 / 314-315.
29. - بودرواز (عبد الحميد)، **العمارة الريفية بمنطقة برج بوعريش "دراسة أثرية نموذجية"**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآثار الريفية والصحراوية، جامعة الجزائر 2/معهد الآثار، السنة الجامعية: 2017-2018. غير منشورة، ص ص، 86...100/298...305/394...401.
30. - عزوق (عبد الكريم)، **المرجع السابق**، ص.126.
31. - نفسه، ص.128. **وانظر أيضا:** المهدي (بوعبدلي)، **بجاية قبيلة العلماء**، (مجلة أصداء الصومام)، جويلية، (1985م)، ص.23، (20-33).
32. - هانوتو ولوتورنو، **بلاد القبائل**، ط2، (1893م)، ص.106.



الصورة الجوية رقم(02): قرية ثيغمت بني معوش



الصورة الجوية رقم(03): قرية بني خيار بني معوش



الصورة الجوية رقم(04): قرية تزخيث بني معوش



الصورة رقم(03): المدرسة القرآنية بني خيار



الصورة رقم(01): المدرسة القرآنية تاقنيت إيغيل



الصورة رقم(04): المدرسة القرآنية بتزحيث



الصورة رقم(02): المدرسة القرآنية ثيغرمت

An Arab Feminist's Indirect Perpetuation of Western Stereotypes about Muslim Women: Nawal El Saadawi's Woman at Point Zero

Date de réception : 2018-11-20

Date d'acceptation : 2019-12-18

Rawiya Kouachi, Badji Mokhtar University Annaba

kouachirawiya@hotmail.com

Abstract

The article analyses Nawal El Saadawi's Islamic feminism in Woman at Point Zero. It investigates whether the novel shows features of Islamic feminism or another version of Western feminism. Albeit El Saadawi is called an Islamic feminist, the analysis of her novel from an Islamic feminist perspective shows non-Islamic feminist practices in terms of disdaining daughters, female circumcision, molestation, preventing women from education, forced marriages, beating wives and prostitution. Consequently, El Saadawi's novel is not an Islamic feminist work. Rather, it unconsciously bolsters Western stereotypes about Muslim women who are regarded as oppressed by both men and Islam. Hence, calling El Saadawi an Islamic feminist misguides her audience, especially international readers to believe that every single practice in the novel is relevant to Islamic feminism and Islam. Yet, the presented practices are cultural ones. Therefore, El Saadawi's novel represents Arab feminism that is greatly influenced by Western feminism.

Keywords: Arab feminism, Islamic feminism, non-Islamic practices, Western feminism, Western stereotypes.

Résumé

L'article tente d'analyser le féminisme islamique de Nawal El Saadawi dans son roman femme au point zéro. Il estime d'affirmer que le roman présente des caractéristiques du féminisme islamique ou autre forme du féminisme. Toutefois, il est à noter qu'en dépit du fait qu'El Saadawi soit catégorisée en féministe islamique, son roman révèle des pratiques féministes (sexistes) non islamiques à l'instar de la dénégation des filles, de l'excision, la violence, de prévention de l'éducation, le mariage forcé à un âge précoce, le harcèlement sexuel et la prostitution. Dès lors, il est clair que le roman d'El Saadawi, n'est au aucun cas une œuvre du féminisme islamique, bien au contraire, elle met en exergue des stéréotypes occidentaux, considérant les femmes musulmanes comme opprimées à la fois par les hommes et l'islam. El Saadawi désignant de féministe islamique met son lectorat dans un état d'égarement dans la mesure où toute son œuvre serait confinée dans un cadre restreint, celui du féminisme islamique et l'islam. Bien entendu, que les pratiques présentées sont culturelles. Pour cette raison, le roman d'El Saadawi représente le féminisme arabe fortement influencé par le féminisme occidental.

Mots clés: féminisme arabe, féminisme islamique, pratiques non-islamiques, féminisme occidental, stéréotypes occidentaux.

المخلص

تحلل المقالة النسوية الإسلامية عند نوال السعداوي في "امرأة عند نقطة الصفر" وتدرس ما إذا كانت الرواية تظهر خصائص النسوية الإسلامية أو نسخة أخرى من النسوية الغربية. على الرغم من أن السعداوي تدعى نسائية إسلامية، إلا أن تحليل روايتها من منظور نسوي إسلامي يظهر ممارسات غير إسلامية من حيث ازدراء البنات، ختان الإناث، التحرش الجنسي، منع النساء من التعليم، الزواج القسري، ضرب الزوجات والبغاء. وبالتالي، رواية السعداوي ليست عملاً نسوياً إسلامياً لأنها تعزز بشكل غير مباشر الصور النمطية الغربية عن النساء المسلمات اللواتي يعتبرن مضطهدات من قبل الرجال والإسلام. ومن ثم، فإن تسمية السعداوي نسائية إسلامية يضلل جمهورها، ولا سيما القراء الدوليين، للاعتقاد بأن كل ممارسة واحدة في الرواية لها صلة بالنسوية الإسلامية والاسلام. لكن الممارسات المذكورة هي ممارسات ثقافية. وبذلك، فإن رواية السعداوي تمثل النسوية العربية المتأثرة بشكل كبير بالنسوية الغربية.

الكلمات المفتاحية: النسوية العربية، النسوية الإسلامية، الممارسات غير الإسلامية، النسوية الغربية، الصور النمطية الغربية.

Introduction

Feminism, as a social movement defending women's rights, is a diversified and thorny topic, especially in relation to the Arab Muslim world. In comparison to other types of feminism, Islamic feminism is a recent movement to speak about the plight of Arab and Muslim women. Arab or Islamic feminism are used interchangeably by many scholars, but the most used expression is Islamic feminism. A myriad of Arab and Muslim authors are classified under this naming and called Islamic feminists and among them is Nawal El Saadawi. Mariam Cooke and Haideh Moghissi regard her as an Islamic feminist advocating Muslim women's rights. Thus, this article seeks to scrutinize Nawal El Saadawi's novel *Woman at Point Zero* to see whether it represents Islamic feminism, or another version of Western feminism. It questions El Saadawi's novel in perpetuating stereotypes about Muslim women and investigates the reasons behind her fame as an Arab author in the West in contrast to her scandalous position in her country. The article is an analytical study from an Islamic feminist standpoint. Most importantly, it sheds light on the expression Islamic feminism, due to its incompatibility with the written text of El Saadawi and its use that adds fuel to the already existing orientalist stereotypes about Muslim women and Islam.

Islamic feminism is a current movement that emerged by the late 1990's in the Arab and Muslim countries. However, there is no clear evidence about the person who coined the term. In addition, unlike secular Western feminism, Islamic feminism is difficult to define inasmuch as it is connected to religion. In fact, many documents demonstrate that feminism used by Arabs is called Islamic feminism, and it is the most widespread name in comparison to Arab feminism. For example, some scholars using Islamic feminism are Haideh Moghissi (1999), Miriam Cooke (2001), Barlas Asma (2002), Jane Hiddleston (2006), Kahf Mohja (2008) and Badran Margot (2009). Consequently, the naming Islamic feminism is highly used unlike Arab feminism.

Many scholars endeavor to define Islamic feminism, but the most cited quotation is by Margot Badran, who tried to give a succinct definition to Islamic feminism. She states that Islamic feminism "is a feminist discourse and practice articulated within an Islamic paradigm. Islamic feminism, which derives its understanding and mandate from the Qur'an, seeks rights and justice for women, and for men, in the totality of their existence" (242). Accordingly, Islamic feminism stems from "interpretation of Islam and gender grounded in ijihad, or independent intellectual investigation of the Qur'an and other religious texts" (3). The tenets of Islamic feminism are derived from Islam per se and religious scripts mainly the Quran. In this regard, religious texts are the primary source to advocate women's rights and gender equality. Moreover, Tariq Ramadan defines Islamic feminism as "going back to Islamic sources and using Islamic principles to act against any kind of discrimination" (qtd.in Coleman 54). Thus, the common point between the previous definitions is that Islamic feminism is definitely tied to Islam. Accordingly, the aim of Islamic feminism is to liberate Muslim women from patriarchal cultural practices that distort the image of Islam which highly bestows women with different rights.

Concerning the methods of Islamic feminism, they are relevant to the Quran and 'Hadith' (the Prophet Muhammad's sayings). Margot Badran clarifies this idea by saying:

A priority of Islamic feminism is to go straight to Islam's fundamental text, the Qur'an...The basic methodologies of Islamic feminism are the classic Islamic methodologies of ijihad and tafsir (interpretation of the Qur'an)...Feminist hermeneutics has taken three approaches: 1-revising verses of the Qur'an to correct false stories in common circulation...2-citing verses that unequivocally enunciate the equality of women and men; 3-deconstructing verses attentive to male and female difference that have been commonly interpreted in ways that justify male domination. (247-248)

In this regard, Islamic feminists use verses from the Quran to support gender parity, and revise

males' false interpretations of some Quranic passages. Asma Barlas, an Islamic feminist, also ascertains: "my purpose is both to critique the methods by which Muslims generate patriarchal readings of the Qur'ān and to recover the egalitarian aspects of Qur'ānic epistemology" (5). In addition to the Quran, Islamic feminism also draws its principles from 'Hadith' and 'Fiqh' (jurisprudence). Mulki Al-Sharmani says: "epistemologically, Islamic feminism can be classified according to two main categories....The first consists of works that focus on the Qur'an and its exegetical tradition....The second category of work focuses on critical engagements with Islamic fiqh or jurisprudence....In addition, there has been...engagement with the Hadith tradition" (86). Therefore, as its name denotes, Islamic feminism is clearly relevant to Islam's sources of the Quran and 'Hadith' per se.

Actually, the naming of Islamic feminism provokes ceaseless debates and endless discussions over the compatibility between Islam and feminism. In this vein, there are two opposing views concerning the relationship between Islam and feminism. The first view concerns a group of scholars including Hammed Shahidian (1998), Haideh Moghissi (1999) and Shahrazad Mojab (2001) who vehemently argue that Islam is an anti-feminist religion. It is misogynist, patriarchal and the reason behind Muslim women's subjugation. According to the aforementioned scholars, the label Islamic feminism includes two contradictory elements that cannot coexist. While Islam enslaves and suffocates women's freedom, feminism seeks to liberate women from all patriarchal shackles. Thus, there is no possible relationship between Islam and feminism and the naming of Islamic feminism becomes oxymoronic.

The second group of scholars views that Islamic feminism is not paradoxical. Albeit much ink has been spilled on the idea that Islam is against feminism, few researchers support a possible compatibility between Islam and feminism. Miriam Cooke (2001) is one scholar of this group who claims that Islam is not oppressive of women. She states that "Islam... is not gender-specific but rather

a faith system and way of life open equally to women and men" (xiii). Another researcher is Margot Badran (2009). She argues that Islamic feminism stems from the Quran's teachings and preaching (242) and there are "many verses of the Qur'an that declare male-female equality" (248). Unlike the first view, very few scholars contend that Islam per se is not anti-feminism.

Concerning the appearance of Islamic feminism, Egypt is regarded as a pioneering country and forerunner in advocating women's rights. Although feminism in Egypt appeared during the postcolonial era, there are many preceding feminist voices advocating gender parity and feminist consciousness, like Zainab al Fawwaz, Hind Naufal and Qasim Amin. In the 1900s, other female feminists, like Malak Hifni Nasif, Huda Sha'rawi and Zainab Al-Ghazali greatly contribute to the rise of feminism in Egypt. Nasif and Al-Ghazali claim that women's rights were bestowed from Islam. In this regard, feminists try to gain the deprived rights of women that are taken in the name of culture and traditions. However, other feminists, like Huda Sha'rawi veered from Islam's principles to follow Western principles of feminism (Badran 20-22). Moreover, many organizations during this period, like Muslim Women's Society, are influenced by the Islamic religion because of the emergence of an Islamic movement known as The Muslim Brothers led by Hasan al-Banna in 1928.

In general, it is worth noting that feminism in Egypt starts within an Islamic framework, then through its development, goes through different drastic changes and "toward the end of the 20th century...did feminism in Egypt come to be widely branded as anti-Islamic" (Badran148). In other words, it is mandatory to differentiate between secular and Islamic feminism. The latter is based on an Islamic framework and advocates Islamic reform in relation to family and women's position in society (Badran 226). In this respect, the principles of this type of feminism stem from the Quran and 'Hadith'. However, secular feminism focuses mainly on women's rights outside the religious Islamic framework, and its modus operandi is mainly secular.

In Egypt, there are some feminists using Islamic framework for their feminism, like Zainab El Ghazali and Safinez Kazim. The latter encourages the woman "to regain her lawful rights guaranteed to her by Islam" (Badran 152). Malak Hifni Nasif and Zainab Al-Ghazali call for women's empowerment solely from the teachings of Islam. In fact, they represent the first wave of feminists in Egypt in 1930s and 1940s in which "there were cordial relations between feminist and Islamist women, who shared many goals" (217). Then, there was a gradual shift regarding the relationship between Islam and feminism. In modern times, Islamic feminism is ostensibly secular and removed from the teachings of Islam, especially with the failure of the Islamic state governed by the Muslim Brothers that suffocate the freedom of people. Margot Badran claims that "The ideology of the Muslim Brothers, laying stress on the moral foundations of society, articulated a conservative discourse privileging the patriarchal family, with male authority over women, and clear-cut differentiation of gender roles" (26). Hence, with their conservative rule, the Muslim Brothers pushed people to embrace secular thoughts. This is so apparent in the development of feminism in Egypt which started as an Islamic feminism to become secular at the end of the twentieth century.

Another early pioneer feminist leader is Nawal El Saadawi. She appears as an outstanding Egyptian feminist who belongs to the second generation of feminists in Egypt. Although she has some previous attempts to feminism, she gained prominence after the publication of her controversial book *Woman and Sex* in 1971 through which she "broke a cultural taboo by introducing the issue of sexual oppression of women connected with everyday customs, as well as the prevalence of deviant behaviours such as incest, that victimized women inside the family" (Badran 38-39). Hence, her writings are blacklisted and banned in her country, and her activities are controlled. In 1981, she was imprisoned for being a radical feminist. Yet, despite all the obstacles, El Saadawi continues her gender struggle through writing literary works to transmit her feminist ideas to her audience. One of

her works is *Woman at Point Zero* which is the focal point of this study.

The story of *Woman at Point Zero* (1983) belongs to fiction. It is based on a true encounter between El Saadawi as a psychiatrist and a prisoner in Qanatir prison in Egypt. The novel deals mainly with the ups and downs of the protagonist Firdaus from her childhood to her adulthood. It is about the plight of Firdaus in a modern Arab Muslim society and her eagerness to reach liberty. Although Nawal El Saadawi is known as an Islamic feminist par excellence, reading her work *Woman at Point Zero* from an Islamic feminist standpoint unravels many non-Islamic practices, like disdaining girls, female circumcision, molestation, preventing women from education, forced marriages, beating wives and prostitution that are not congruent with the tenets of Islamic feminism.

In her childhood, Firdaus undergoes several experiences that are irrelevant to Islamic deeds. First, she is disdained by her father because he simply prefers sons to daughters. Firdaus' father, though showing some Islamic practices, like praying in the mosque and following the Imam's sayings, despises daughters. Firdaus states that: "when one of his female children died, my father would eat his supper, my mother would wash his legs, and then he would go to sleep, just as he did every night. When the child that died was a boy, he would beat my mother, then have his supper and lie down to sleep" (El Saadawi 23). Though this practice comes from the Muslim father, it is not Islamic inasmuch as Islam bestows daughters with a respectful position. Being a daughter in true Islam is a blessing to both parents because Prophet Muhammad peace and blessings be upon him (PBUH) says: "Whoever has a daughter and he does not bury her alive, does not insult her, and does not favour his son over her, God will enter him into paradise" (Ibn Hanbal qtd. in Badawi). In Islam, daughters are greatly welcomed and should be treated in equal way with sons. However, in the story, the cultural practice of favoring sons is reflected in the narrative and daughters are mistreated. Such behavior violates the principles of Islam. In this regard, Islamic feminism calls for women's rights from Islamic sources of

both the Quran and 'Hadith'. However, in some Muslim societies, like Egypt in the story, having a daughter is considered as indignation, and this action actually goes to pre-Islamic practices that humiliate daughters and women. The Islamic feminist Asma Barlas ascertains: "The Qur'an is the only scripture to address the rights of girls...and to raise squarely the problem of fathers' abuse of daughters, something on which not just religious but also secular patriarchies and traditions frequently are silent" (181-182). However, in the story, there is no sign of treating daughters in relation to Islamic principles or any endeavors to reconsider their treatment according to sources of Islam which are the gist of Islamic feminism and an Islamic feminist text. The practice of disdaining daughters is cultural and not religious in the novel.

Another non-Islamic practice that the narrator deals with is female circumcision. Firdaus' mother and another woman circumcise her. However, female circumcision is not fully documented in Islam. It is relevant to African practices. Islamic scholars unanimously agree that religious sources permitting female circumcision are weak and not authentic. Muhammad Lutfi El Sabbagh ascertains: "none aspires to a degree of authenticity which would indicate that female circumcision is obligatory" (17). Thus, the author deals with circumcision which is a heinous African cultural practice in general and an Egyptian one in particular. In Egypt, it is a pharaonic practice that is known as infibulation. In fact, there is a hot debate on this subject, but the general agreement between Muslim scholars is that female circumcision is a cultural practice. Ali Kecia claims the following:

the majority of Muslims do not practice any form of female circumcision and where it is common, it is generally performed by members of all religious groups...The severity of the practice...depends on variables of locale, educational attainment and socio-economic status, rather than religious affiliation. In the majority of Muslim societies, by contrast, female circumcision is virtually unknown. In those regions where it is practiced, it almost always predates Islamization. (129)

Consequently, female circumcision is not relevant to Islam and it is a cultural practice that is done in the name of religion. The novel deals with a case of cultural practice that is assimilated to Islam while it has no foundation in the religious practice and its sources.

The author deals with another harmful situation which is female molestation. The latter is a recurrent theme in the novel. From her early childhood, Firdaus is molested by her childhood boyfriend. Such sexual harassment is a cultural practice, but what is noteworthy is the name of her boyfriend Mohammadian, which refers to an Islamic name relevant to the Prophet Muhammad. Firdaus says: "He would make me lie down beneath a pile of straw, and lift up my galabeya. We played at 'bride and bridegroom'. From some part in my body, where exactly I did not know, would come a sensation of sharp pleasure" (17). Another dangerous molestation is committed by her uncle who is a religious man studying in El Azhar and working in the Ministry of Wakf. First, he seduces her in her house as she states:

My galabeya often slipped up my thighs, but I paid no attention until the moment when I would glimpse my uncle's hand moving slowly from behind the book he was reading to touch my leg...I could feel it travelling up my thigh with a cautious, stealthy, trembling movement. Every time there was the sound of a footstep at the entrance to our house, his hand would withdraw quickly...He was doing to me what Mohammadain had done to me before. In fact, he was doing even more. (17-18)

Despite the fact that Firdaus' uncle is a religious person knowledgeable about Islamic teachings, he performs non-Islamic practices. However, such actions to an international reader seem Islamic practices, especially if they read a literary work written by an author named an Islamic feminist, like Nawal El Saadawi. Firdaus' uncle explains matters to her in terms of sins, but he himself performs the biggest sin of incest when she moves to live with him after the death of her parents. She states:

He took me to the cinema. I saw a woman dancing. Her thighs were naked. And I saw a man hugging a woman. Then he kissed her on the lips. I hid my face....Later, he told me that dancing was a sin, and that kissing a man, too, was a sin....I was trembling all over, seized with a feeling I could not explain, that my uncle's great long fingers would draw close to me after a little while....Then his lips would touch my face and press down on my mouth, and his trembling fingers would feel their way slowly upwards over my thighs. A strange thing was happening to me. (28)

Albeit he is supposed to be a religious man representing Islam, he commits sins that are not relevant to Islam per se.

Another non-Islamic practice is restricting education to only men. In Firdaus' narrative, when she asked her uncle to take her with him to Cairo to study at El Azhar, he answers: "El Azhar was only for men" (20). In addition, when Firdaus obtains her secondary school certificate, the wife of her uncle suggests sending her to the university to get rid of her, but her uncle responds saying: "to the university? To a place where she will be sitting side by side with men?" (47). So, albeit he is a religious person and is supposed to know that there is no difference between men and women in seeking education, he demonstrates cultural practices by preventing Firdaus from education. However, in reality and in true Islam, education is for both men and women. There is no difference between them. Anas ibn Malik reported: The Messenger of Allah, peace and blessings be upon him, said, "Seeking knowledge is an obligation upon every Muslim" (Ibn Mājah 224). The word Muslim in Islamic sources refers to both men and women without any discrimination.

The most apparent non-Islamic practice in *Woman at Point Zero* is Firdaus' forced marriage. Her uncle and his wife decide to get rid of Firdaus from their house by marrying her to an old person called Sheikh Mahmoud whose age is over sixty, while she has not turned nineteen years old yet. El Saadawi exposes a dramatic case of non-Islamic marriage. The first transgression of this marriage in the novel is obliging Firdaus to marry without her

consent. The author stresses the fact by using paradoxical behavior. Instead of asking for Firdaus' permission, her uncle and his wife wonder about Mahmoud's acceptance. However, Islamic marriage is based on a daughter's consent to accept her future husband and it endorses freedom of choice. From 'Hadith', "Ibn Abbas reported that a girl came to the Messenger of God, Muhammad peace and blessings be upon him, and she reported that her father had forced her to marry without her consent. The Messenger of God gave her the choice...(between accepting the marriage or invalidating it)" (Ibn Hanbal qtd. in Badawi). In addition, the Prophet Muhammad (PBUH) also demanded from the family of the girls to: "not marry a non-virgin except on her instruction, nor marry a virgin except with her permission, and her silence may go for permission" (Bukhari qtd. in Tubari). Moreover, Asma Barlas, an Islamic feminist, views that "Muslim marriages often are called consensual contracts of sexuality" (165). Thus, Firdaus' uncle transgresses one important principle of Islamic marriage.

The second violation of Islamic marriage is Firdaus' dowry which is supposed to be a gift to the bride according to the Islamic sources. In the story, the dowry is a matter of bargaining to sell Firdaus at a high price and profiting from the old man. The wife of her uncle says: "I intend to ask him for a big dowry...a hundred pounds, or perhaps even two hundred if he has the money, if he pays a hundred pounds, then Allah will indeed have been generous to us" (49). Then, the uncle responds: "if he accepts to pay one hundred pounds that will be sufficient blessing from Allah. I will be able to pay my debts and buy some underwear, as well as a dress or two for Firdaus" (49). Firdaus' religious uncle and his wife use the name of Allah in matters that are against the principles of Allah and Islam. The Prophet (PBUH) said to a man who wanted to get married: "Look (for something to give as a dowry), even if it is a ring of iron" Agreed upon (Al-Bukhari 4854). Accordingly, Islam facilitates marriage by giving a simple gift to the bride, and her dowry is not a business transaction where she is bought and sold as goods. Furthermore, a bride's dowry is her own property and should not be taken

by another person in the Islamic sources. However, Firdaus' uncle plans to take her dowry to fulfill his needs and pay his debts. Moreover, her uncle speaks in a religious way as he says: "Verily, we are full of gratitude to Allah for everything he has bestowed on us. May He be forever praised and exalted. Verily our hearts are indeed full of thanks to Allah the almighty" (50). As a result, despite the fact that Firdaus' uncle is a religious man in ElAzhar, his actions are cultural and non-Islamic practices, and he distorts the image of Islam, especially for international readers.

Firdaus' forced marriage results in a chasm between her and her husband. The latter shows many non-Islamic practices in his marital relationship that are not congruent with the good treatment of women as recommended in the Islamic sources of the Quran and 'Hadith'. Firdaus' husband Mahmoud is a stingy person, who beats her for trivial matters as she states: "One day he discovered some leftover scraps of food, and started yelling at me so loudly that all the neighbours could hear. After this incident, he got into the habit of beating me whenever he had a reason for it or not. On one occasion he hit me all over with his shoe. My face and body became swollen and bruised" (58). After escaping to her uncle and complaining about her husband, her uncle responds in the following way: "all husbands beat their wives". Then, Firdaus narrates: "my uncle's wife added that her husband often beat her. I said my uncle was a respected Sheikh, well versed in the teachings of religion, and he, therefore, could not possibly be in the habit of beating his wife. She replied that it was precisely men versed in their religion who beat their wives. The precepts of religion permitted such punishment" (59). The cultural practice of beating wives, like Mahmoud's beating of Firdaus is reinforced by a religious man, who is supposed to represent Islamic teachings. Albeit Firdaus' uncle is a knowledgeable person about Islam, his practices reflect cultural deeds that distort the image of Islam inasmuch as beating in the Quran means separation and not physical beating. In addition, after Firdaus' complaint, her husband continues to beat her severely as she states: "One day he hit me with his

heavy stick until the blood ran from my nose and ears" (60). As a result, she runs away from her house forever to become a prostitute.

Beating in the Quran has different meanings. According to the Arab dictionary "Lisan Al Arab" by Ibn Mandhor, the word beating has many interpretations. In addition to its meaning of striking, beating refers to separation, parting and discontinuing any interaction. Generally speaking, men take this verse as an excuse to beat women. It is written: "But those [wives] from whom you fear arrogance - [first] advise them; [then if they persist], forsake them in bed; and [finally], strike them. But if they obey you [once more], seek no means against them. Indeed, Allah is ever Exalted and Grand" (Quran 4-34). Beating wives in this context means separation between the spouses as the last resolution after their separation in bed. It is not relevant to physical beating. Asma Barlas claims that "we should be able to admit that reading this āyah as a license to batter wives...is not acceptable in that it is not the best meaning we can derive from the Qur'ān...it contradicts the Qur'ān's view of sexual equality and its teaching that marriages should be based in love, forgiveness, harmony and *sukūn*" (189). In addition, the Prophet Muhammad (PBUH) expresses his anger towards a man's behavior by stating: "How does anyone of you beat his wife as he beats the stallion camel and then embrace (sleep with) her?" (Al-Bukhari 6042). Hence, beating wives is not an Islamic practice and it is not relevant to Islamic feminism because the latter is mainly based on the principles of Islam in relation to women's rights, which are absent in Firdaus' story. More severely, her uncle who is supposed to represent Islam, instead of providing a model of a good husband respecting Islamic teaching in dealing with women and wives, reinforces cultural practices by beating his wife. Consequently, Firdaus' constant beating by her husband leads to the beginning of her tragic life; the life of prostitution.

In fact, being a mistress or a prostitute are both against the principles of Islam. They represent cultural practices and violations of Islamic teachings. In Islam, adultery, in its different forms including fornication and prostitution, is clearly prohibited as

it is mentioned in the Quran "And do not approach unlawful sexual intercourse. Indeed, it is ever an immorality and is evil as a way" (17- 32). However in the story, Firdaus was first forced to be a prostitute by Bayoumi who raped her, then he brought his friends as well. Later, she opts for this profession by her own will after her encounter with Sharifa, who encourages her to practice prostitution. Firdaus is proud of her profession. She is clearly satisfied by her own choice of being a prostitute because comparing her life to other women's lives, she views that she has more freedom than other women who suffer under patriarchal practices. She proudly announces: "because I was intelligent I preferred to be a free prostitute, rather than an enslaved wife" (124). Hence, for her, albeit prostitution is condemned, it is better than living under the shackles of patriarchy as a married woman.

All the aforementioned practices used in the novel are relevant to culture and not Islam. That is to say, Islamic feminism is absent in El Saadawi's *Woman at Point Zero* inasmuch as the practices in terms of disdaining girls, female circumcision, molestation, preventing women from education, forced marriages, beating wives and prostitution reflect culture rather than Islam. Most importantly, there is no condemnation from the part of female characters to change their miserable situation. In case there is, it is directed to a wrong perverse person, like Firdaus' complaint to her uncle. Yet, there is no change after her objection. The tenets of Islamic feminism are to represent women's rights according to the Quran and religious sources and to condemn cultural practices that violate women's rights. In this regard, Danielle Dunand Zimmerman views that Islam does not include patriarchal practices that are the outcomes of culture and not religion per se. For Zimmerman, the aim of Islamic feminism is to indict cultural practices that distort the image of Islam and liberate Muslim women from Western feminism that advocate the repudiation of religion with all its form (148). However, in Firdaus' story, there is no repudiation from her part or another character to make any change. Rather, she selects the path of prostitution which is highly denounced in Islam.

One essential aspect in the story that shows that it is not an Islamic feminist work is the fortification of patriarchy by religious men. The novel demonstrates their religious hypocrisy by invoking Allah's names in daily life and prayers, but performing non-Islamic practices. Firdaus states: "Sheikh Mahmoud, as he kneeled in prayer, his eyes half closed, of the glances he stole now and then at my plate; and of my uncle as he followed the lines in his book with peering eyes while his hand stole out from behind, searching for my thigh" (90). Firdaus' husband and uncle are hypocrite persons. Albeit her uncle is supposed to be a religious man representing Islam and Muslims' practices of Islam, his social practices in his culture oppose the Islamic teachings and reinforce patriarchal practices that oppress women. He practices incest with Firdaus, marries her to Sheikh Mahmoud without her consent and violates the dowry principle in her marriage. He informs Firdaus that beating women in Islam is a common practice. His deeds are not congruent with the principles of Islam in dealing with women. In fact, El Saadawi clearly castigates patriarchal practices in the Arab society through such characters. However, her remedy to such practices is not by referring to the principles of Islamic feminism, which seeks to revive women's consciousness to realize their rights in Islam. She provides a radical solution to Firdaus' downfall by willingly embracing prostitution and preferring prostitution to marriage. The story portrays the negative effects of patriarchy which is fortified by men in general and religious men in particular.

Taking into consideration that the story is based on a true story, this gives the actions more reliability and credibility. Eustache Palmer describes El Saadawi by saying: "she probed the oppression of women in Islamic societies and their deprivation of rights with a particular focus on the interplay between sexuality and violence and shed historic light on the situation of women in Islam and poke out diversely against the institutionalized circumcision and veiling women" (150). Palmer here uses the words Islam and Islamic. Yet, what is presented in the story is not representative of Islam and Islamic feminism. Rather, the story represents

cultural practices that deviate from true Islamic deeds in relation to women's issues. Thus, basing the novel on a true story greatly contributes to reinforcing distorted images about Islam. Indeed, the practices are real and exist in Egypt, but they are not congruent with the principles of Islam and Islamic feminism.

Therefore, the analysis of *Woman at Point Zero* shows that it does not reveal Islamic feminism despite the fact that many scholars label El Saadawi an Islamic feminist. Different critics, like Miriam Cooke and Haideh Moghissi have described her as an Islamic feminist. Haideh Moghissi states that "Islamic feminists like Assia Djebar ... Nawal El Saadawi... are learning how to take advantage of the transnationalism of Islam to empower themselves as women and as Muslims" (380). Yet, El Saadawi's feminism is not related to religion. It is linked to culture, and it reflects Western ideas of feminism. It is generally acknowledged that Western feminism is mainly secular representing culture that is far away from religion. Western feminists strongly criticize religion that suffocates women's freedom, and they embrace liberal and secular ideas for their feminism. Thus, El Saadawi consciously or unconsciously represents non-Islamic practices. She is not herself claiming to be an Islamic feminist, but the use of such naming is problematic.

Actually, El Saadawi, the godmother of "Islamic feminism", is influenced by Western feminism. She is often described as "the Simone de Beauvoir of the Arab world" (Nawal El Saadawi). For many critics, she is the true representative of Islamic feminism. Yet, she is greatly influenced by Western writings and culture and her feminism is a hybrid of Arab and Western feminism. Although she was educated in Egypt and lived there for a long period, she and her writings are not welcomed in Egypt due to her ideas and political views. She is regarded as an outcast and apostate. She was imprisoned by the president of Egypt Anwar Sadat. Then, in 1988, she was officially obliged to flee Egypt to live in different countries and to teach in various universities. For this reason, a throng of critics, like Jamal El-Ghitany, Sabry Hafez and George Tarabishi view that Nawal El Saadawi is not

a bona fide Islamic feminist because she lives in exile and cannot fully understand and accurately represent Muslim women's position. Jamal El-Ghitany says: "El Saadawi is living in America because she wants a Nobel Prize. She is writing for the West, she cannot feel the true problems of women" (qtd. in Amireh 238). In addition, her feminism represents culture and it does not reflect the tenets of Islamic feminism.

Although El Saadawi is not greatly welcomed in her country, she is well received by Western universities and audience. Amal Amireh views in her article "Framing Nawal El Saadawi: Arab Feminism in a Transnational World" that there are many reasons behind El Saadawi's popularity in the West. Her simple and direct style helps in the spread of her writings to a large audience along with her selection of prominent publishing houses, like Zed Books of London and Beacon Press in Boston that accelerate her readership (217-231). However, for Amireh, the most outstanding reason for El Saadawi's celebrity is her satisfaction of Western audience's expectations about Muslim and Arab people in general and women in particular. Westerners already have stereotypes about Muslim and Arab women. They view them as oppressed women by both men and Islam. The latter is always in the forefront while dealing with women's mistreatment and subjugation. Hence, El Saadawi's conscious or unconscious denouncing to Islam is greatly welcomed by the Western audience.

Furthermore, El Saadawi is vehemently criticized by a myriad of Arab and Muslim critics due to reinforcing Western stereotypes about Muslim women instead of defending their position. Amireh states that "El Saadawi and her Arab feminist work are consumed by a Western audience in a context saturated by stereotypes of Arab culture and that this context of reception to a large extent ends up rewriting both the writer and her texts according to scripted first world narratives about Arab women's oppression" (215). Thus, instead of representing Muslim and Arab women from the perspective of Islamic feminism, she indirectly confirms the negative misrepresentations of Arab and Muslim women that the Western people

generally have about Arabs and Muslims. So, El Saadawi allows "her works to be used to confirm prevailing prejudices about Arab and Muslim culture" (228). Consequently, she portrays and represents the Western image about Muslim women.

El Saadawi's *Woman at Point Zero* portrays cultural practices that oppose the teachings of Islam. The situation of women presented in the novel is real in Egypt. However, the aforementioned non-feminist practices are cultural rather than Islamic deeds inasmuch as Islam bestows women with many rights that are violated by culture. Most importantly, calling El Saadawi an Islamic feminist contributes to the fallacies about Islam to believe that each single action in the novel is relevant to Islam.

In fact, the use of Islamic feminism is problematic inasmuch as it is an onerous task to represent religious practices while many Arab and Muslims' social practices oppose Islamic teachings. So, it would be much better calling feminism in the Arab world as Arab feminism or Muslim feminism instead of Islamic feminism because there is a big difference between Islam as a religion that advocates women's rights and Muslims as practitioners of Islam. Although Islamic and Arab feminism are used interchangeably, Arab feminism is more appropriate to reflect cultural practices of Muslim people in relation to gender issues. Moreover, calling an Arab or Muslim feminist an Islamic feminist, like El Saadawi, perpetuates Western orientalist images about Islam, especially if these practices are presented as Islamic and not cultural deeds in internationally recognized literary works. They

would add directly or indirectly to the already existing stereotypes about Muslims and Muslim women.

Conclusion:

The analysis of El Saadawi's *Woman at Point Zero* vindicates that it does not reveal aspects of Islamic feminism that stems its principles from Islam. Although El Saadawi is worldwide known as an Islamic feminist, her novel reveals cultural and non-Islamic practices in terms of disdaining daughters, female circumcision, molestation, preventing women from education, forced marriages, beating wives and prostitution. Thus, the presentation of cultural practices under the name of Islamic feminism and the use of the label of Islamic feminist directly or indirectly perpetuate negative stereotypes about Islam that is already considered as an anti-feminist religion by the West. As a result, El Saadawi's *Woman at Point Zero* is not an Islamic feminist work. It would be much better calling El Saadawi an Arab or a Muslim feminist inasmuch as she portrays in her work cultural practices that are irrelevant to Islamic teachings in relation to women's rights. Yet, this is only one possible interpretation of El Saadawi's work. Other literary works by the author may reveal Islamic feminism which is open to future research.

Works Cited

- Al-Bukhari 4854. "Hadith on Dowry" <https://abuminaelias.com/dailyhadithonline/2012/10/13/hadith-on-dowry-the-prophet-accepted-the-recitation-of-the-quran-as-a-dowry-for-marriage>. 25-2-2018.
- . 6042. "Book of Good Manners and Form (Al-Adab)" Book 78, Hadith 72. <https://sunnah.com/bukhari/78.30-10-2018>.
- Al Sabbagh, Muhammad Lutfi. *Islamic Ruling on Male and Female Circumcision*. Alexandria: Technotex, 1996.
- Al Sharmani, Mulki. "Islamic Feminism: Transnational and National Reflections" *Approaching Religion* 4.2 (2014): 83-94.
- Amireh, Amel. "Framing Nawal El Saadawi: Arab Feminism in a Transnational World" *Signs* 26.1 (200): 215-249.
- Badawi, Jamal. "The Status of Women in Islam" *Islam's Women: Jewels of Islam*. http://www.islamswomen.com/articles/status_of_women_in_islam.php. 25 Jun. 2016
- Badran, Margot. *Feminism in Islam: Secular and Religious Convergences*. India: Oneworld Publications, 2009.
- Barlas, Asma. *Believing Women in Islam: Unreading Patriarchal Interpretations of the Qur'an*. Austin: The University of Texas Press, 2002.
- Coleman, Isobel. *Paradise Beneath her Feet: How Women Are Transforming the Middle East*. New York: Random House, 2010.
- Cooke, Miriam. *Women Claim Islam: Creating Islamic Feminism Through Literature*. New York: Routledge, 2001.
- El Saadawi, Nawal. *Woman at Point Zero*. London: Zed Books, 1983.
- Ibn Majah 224. "Hadith on Knowledge" <https://abuminaelias.com/dailyhadithonline/2012/08/30/hadith-on-knowledge-seeking-knowledge-is-an-obligation-upon-every-muslim/>) 14-2-2018.
- Kecia, Ali. *Sexual Ethics and Islam: Feminist Reflections on Qur'an, Hadith And Jurisprudence*. England: Oneworld Publications, 2006.
- Moghissi, Haideh. *Women and Islam: Social Conditions, Obstacles and Prospects*. London: Routledge, 2005.
- "Nawal El Saadawi Egyptian Physician, Physician, Psychiatrist, Author and Feminist". *Encyclopedia Britannica*. 2018. 30Oct.2018<https://www.britannica.com/biography/Nawal-El-Saadawi>.
- Palmer, Eustache. *Of War and Women: Oppression and Optimism, New Essays on the African Novel*. Trenton: Africa World Press, 2008.
- Quran. <https://quran.com>.
- Tubari, Hassan Addalla. "Women in Islam and Muslim Society". *Islamic Articles*. <http://www.iupui.edu/~msaiupui/turabi.html>. 15 Oct. 2017.
- Zimmerman, Danielle Dunand. "Young Arab Muslim Women's Agency Challenging Western Feminism" *Affilia: Journal of Women and Social Work*, Vol. 30 (2015): 148.

L'argumentation et l'analyse du discours politique français dans les débats présidentiels -le cas du débat présidentiel de l'entre-deux-tours de 2012.

The argumentation and analysis of French political speech in the presidential debate-The case of the presidential debate of the inter-two-round of 2012.

Date de réception : 2018-11-25

Date d'acceptation : 2019-12-18

Chikh Talbi, Université d'Oran 2

talbichikh@yahoo.fr

Résumé

Cette présente étude s'inscrit dans le domaine des sciences du langage et surtout de l'analyse du discours. En parlant de ce domaine, nous nous sommes penchés, dans cette recherche, sur les théories textuelles et discursives telles que l'argumentation, l'énonciation, la pragmatique et la linguistique interactionnelle. Sous ce spectre-là, l'étude proposée a pour but d'étudier le discours politique en général et le discours des débats présidentiels français en particulier, et surtout le dernier débat avant les élections de deuxième tour. L'étude en question a pour but de démarquer le contraste entre le langage et le discours des deux candidats du débat présidentiel français de l'entre-deux-tours de 2012 entre Nicola Sarkozy (désormais NS) et François Hollande (désormais FH). Par sa dynamique conflictuelle et dialogale, il nous semble important d'analyser les caractéristiques discursives et argumentatives des discours des deux débatteurs dans le contexte qui les entoure. Dans ce travail nous examinons le fonctionnement de différentes stratégies communicationnelles, argumentatives et discursives utilisées par les candidats pour gagner la confiance et l'adhésion des électeurs. Nous essayons de comprendre combien les discours des deux candidats dans ce débat présidentiel de l'entre-deux-tours n'est pas indissociable de ses conditions de production.

Mots clés : discours, débat politique, argumentation, énonciation, pragmatique, lexicométrie.

Abstract

The present study is part of the field of language sciences and especially of discourse analysis. Speaking about this field, we have focused on textual and discursive theories such as argumentation, enunciation, pragmatics and interactional linguistics. Under this spectrum, the study aims at studying the political discourse in general and the speech of the French presidential debates in particular, and especially the last debate before the second round elections. The study in question aims to distinguish the contrast between the language and the speech of the two candidates of the French presidential debate of the inter-two-round of 2012 between Nicola Sarkozy and François Hollande. By its conflictual and dialogical dynamics, it seems important to us to analyze the discursive and argumentative characteristics of the two debaters' discourses in the context that surrounds them. The study examines the functioning of different communicational, argumentative and discursive strategies used by candidates to gain the trust and support of voters. We try to understand how much the speeches of the two candidates in this presidential debate between the two rounds is not inseparable from its conditions of production.

Key words: discourse, politic speech, debate, argumentation, enunciation, pragmatic, lexicometry

المخلص

تدرج هذه الدراسة في علوم اللغة وخاصة في تحليل الخطاب. فقد اعتمدنا خلال هذه الدراسة على النظريات النصية والخطابية كنظرية الاستدلال والإعلان وكذلك نظريات البراغماتية واللسانيات التفاعلية. تتضمن هذه الدراسة الخطاب السياسي على العموم وتختص بدراسة خطاب المناظرة الأخيرة فيما يعرف بمرحلة ما بين الدورين. هدف هذه الدراسة هو تبيان الفروق اللغوية والخطابية بين المتنافسين في هذا اللقاء الأخير بين نيكولا ساركوزي وفرانسوا هولاند خلال الانتخابات الفرنسية التي جرت في 2 مايو 2012. يتعلق الأمر بتحديد الطرق وإستراتيجية التواصل والاستدلال والآليات الخطابية التي ينتهجها المرشحين من أجل الظفر بثقة المنتخبين. نحاول في هذه الدراسة فهم مدى الارتباط بين خطاب المتنافسين وظروف إلقاء هذا الخطاب.

الكلمات المفتاحية: تحليل الخطاب، الخطاب السياسي، الحوار السياسي، الاستدلال، اللفظانية، البراغماتية، القياس

اللفظي.

Introduction

Notre présente étude s'inscrit dans le domaine des sciences du langage et particulièrement l'analyse du discours. En parlant du domaine de la linguistique et du discours, nous nous sommes penché, dans cette recherche, sur les théories textuelles et discursives telles que l'énonciation, la pragmatique et la linguistique interactionnelle. Sous ce spectre-là, l'étude proposée a pour but de démarquer le contraste entre le langage des deux candidats du débat présidentiel de l'entre-deux-tours de 2012 entre Nicola Sarkozy et François Hollande.

Ce débat, de l'entre-deux tours, présente un grand intérêt surtout d'un point de vue linguistique et discursif. La finalité de ce débat est plutôt la réaction ainsi que l'attitude qu'allait adopter chacun des candidats dans ce face à face pour convaincre le public, surtout les indécis.

Il faut tout d'abord tenir compte du fait que ce discours politique qui est à la base de notre recherche et qui postule la coprésence d'interlocuteurs dans un contexte spatio-temporel déterminé, ne peut que se restituer dans un processus de communication et de persuasion.

1- Analyse argumentative du discours politique

Ce type de discours s'inscrit au préalable dans le champ de l'analyse argumentative parce qu'il examine la façon dont les gens s'influencent en utilisant les moyens verbaux en relation avec les techniques qui étaient autrefois les éléments de la parole libre et démocratique. Cette forme de persuasion et d'argumentation a pour corollaire d'éviter la violence dans un débat et de permettre aux interactions d'exister même les plus conflictuelles.

C'est une évolution culturelle qui insiste sur l'esprit de l'argumentation pour le but de convaincre l'autre par des moyens civilisés comme la raison, l'image de soi ou même les émotions. Gerstlé explique en écrivant que « l'objectif de la

communication politique dans un régime démocratique est de faire adhérer les destinataires aux choix politiques qui leur sont proposés ».¹

Nous pensons qu'il est indispensable de comprendre comment ce type d'interaction qui se distingue des autres est l'incarnation de la vie démocratique qui est basée sur la persuasion qui trouve ses racines dans la rhétorique de la Grèce antique.

Chez les Grecs, l'art de persuader par la parole libre jouait un rôle primordial dans la prise de décision, de favoriser l'exercice du jugement et de susciter l'assentiment et l'adhésion de l'autre sans y être contraint par la force. En effet, la naissance de la rhétorique en Grèce classique est intimement liée à la naissance de la démocratie et à l'idée de langage comme un « acte de persuasion ». La rhétorique serait ainsi une sorte de substitut de la violence physique. L'idéal démocratique réside dans la prise en compte du désaccord, des divergences d'opinions qui caractérisent souvent la vie sociopolitique.

Ce travail a pour but d'analyser d'abord, l'argumentation et les stratégies de persuasion dans le débat politique.

Pour faire un bon usage de la persuasion, le locuteur doit se connaître, connaître son discours, et surtout, connaître son auditeur. En effet, persuader, c'est savoir où l'interlocuteur se trouve, et où l'amener. Et si argumenter, à priori, est de « chercher à convaincre », en usant des moyens rationnels, logiques (non émotionnels), cependant, ces moyens rationnels ne sont pour Aristote qu'un élément dans l'entreprise de persuasion qui est basée sur l'éthos le pathos et le logos.

Pour lui, l'importance de l'éthos dans la persuasion est évidente. Cette image que l'orateur projette de lui-même dans son discours contribue efficacement à assurer sa crédibilité et son autorité. En effet, l'éthos **désigne** l'état d'âme, l'image que le locuteur donne de lui-même, à travers son discours. C'est ainsi que l'auditeur découvre au discours de l'orateur ses mœurs, sa personnalité, son caractère, son état d'âme, son image qu'il donne de lui-même.

Il faut aussi accorder au Pathos sa juste place dans la persuasion parce que l'émotion que l'orateur cherche à susciter dans son auditoire, peut emporter l'adhésion et modeler des comportements aussi bien que de convaincre par la logique et le raisonnement.

Pour reprendre la formule qui résume le triangle de la rhétorique antique, les « arguments logiques » correspondent au *logos*, les « passions » au *pathos*, les « mœurs » à l'*éthos*.

« *Les preuves inhérentes au discours sont de trois sortes : les unes résident dans le caractère moral de l'orateur ; d'autres dans la disposition de l'auditoire ; d'autres dans le discours lui-même, lorsqu'il est démonstratif, ou qu'il paraît l'être* »².

Aujourd'hui, la politique et la télévision sont devenues de plus en plus figuratives. Elles personnalisent l'éthos, et mettent en scène la présentation de soi des orateurs politiques. Dans sa prestation médiatique, l'orateur ne doit pas développer seulement son argumentaire d'arguments logiques, mais il doit avoir recours à une présentation séduisante et une dimension émotionnelle et affective de son discours. Parce que pour eux, une argumentation logique et chiffrée ne suffit pas toujours.

1-1- L'entreprise de persuasion : *Ethos, Pathos, Logos.*

1-1-1-L'éthos ou l'image du soi

L'éthos, dans la tradition rhétorique, « désigne l'image que l'orateur donne de lui-même à travers son comportement verbal, sa tenue, son élocution. »³

Cette image que l'orateur veut construire de lui-même, ne peut être révélée que dans le genre du discours qu'il adopte le long du débat pour adhérer le téléspectateur (dans notre cas). Donc c'est une image qui est construite par le locuteur, mais elle est déterminée surtout par les attentes de ceux qui sont désignés par le discours.

Dans un premier temps, j'ai essayé de mettre l'accent sur l'importance de l'utilisation de l'éthos dans le débat politique de l'entre-deux- de 2012. Les orateurs, dans ce débat final, étaient des représentants de deux grandes sensibilités en France.

Ils cherchaient à trouver de plus en plus des voix pour montrer qu'ils sont dignes de la confiance par leur éthos qu'ils produisent particulièrement au cours de ce dernier duel.

Il s'agit, d'abord, d'analyser l'éthos discursif des deux candidats dans le débat et de l'interpréter au regard de ce que l'on sait de leurs éthos prédiscursifs.

Plusieurs analyses du débat constatent que l'ensemble du discours est tourné vers la construction d'une image de bon président, à laquelle chaque candidat cherche à se conformer. Les éthos rhétoriques des candidats concernent ainsi avant tout l'image d'être l'homme d'action, d'avoir la force de réaliser les projets envisagés, d'avoir des visions politiques pour le futur et en même temps d'avoir un caractère humble, à savoir la capacité d'écouter et d'installer un dialogue avec son peuple et de le respecter afin d'avoir son adhésion pour gagner les élections.

L'image que FH renvoie dans ce débat est une image pondérée et juste. Ce candidat revient à ce que la fonction du président soit capable de comprendre le peuple pour confirmer sa revendication préalable d'une présidence normale et surtout pour une autre vision de la fonction présidentielle en réfutant particulièrement l'image du président sortant. Quant au président sortant Sarkozy, il se montre comme quelqu'un qui a l'expérience et qui connaît bien les dossiers.

L'objectif dans ce débat pour chaque candidat est de contester à l'autre son éthos de crédibilité et d'identification, soit en construisant explicitement de lui une image négative (image attribuée dans le discours), soit en critiquant son discours ou son comportement (image attribuée par le discours).

Chaque candidat réfute fréquemment les arguments de l'autre de façon plus ou moins appuyée, ce qui donne lieu à des échanges conflictuels et parfois agressifs. On trouve ainsi à plusieurs reprises comme : « *c'est un mensonge !* », « *vous mentez !* », « *petit calomniateur* ». Parfois, des accusations vont plus loin que les simples

réfutations. Il s'agit non seulement de noter que l'interlocuteur fait une erreur, mais de l'accuser. Ces accusations sont récurrentes pendant tout le débat. Dans ce genre de discours, les images attribuées sont souvent négatives et visent à contester à l'autre l'image favorable qu'il affiche.

Comme un élément incarnant l'éthos chez les deux candidats, l'utilisation du pronom personnel « je » semble très intéressante pour expliquer cette image de soi que les deux candidats réclament.

Par exemple, l'éthos de je-rassemblement⁴ a été le plus négocié au début et pendant le débat. Chacun des candidats réclame l'éthos de rassemblement qui semble, dans cette élection, avoir une importante valeur symbolique. Quand il s'agit des je-montrés, ils sont utilisés souvent pour des raisons surtout pédagogiques et illustratives vis-à-vis

à l'auditoire pour renforcer les affirmations politiques des candidats. Ils fonctionnent comme des preuves de l'autorité du sujet parlant qui réclame avoir raison et sous-tend la vérité.

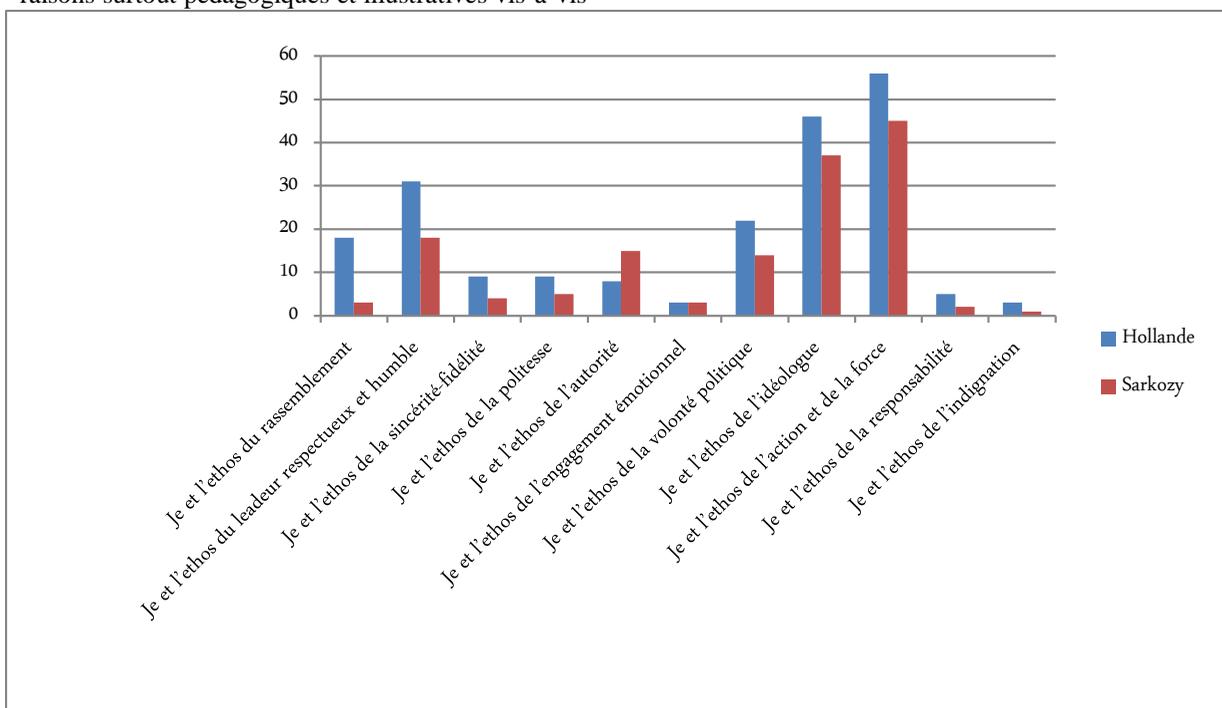
Exemples :

FH : Je vous fais d'ailleurs observer qu'il y a des Français qui sont de culte musulman aujourd'hui.

FH : je vous dis qu'il vaut mieux une position intelligente qu'une position dogmatique.

NS : Je vous dirai simplement trois exemples pour vous montrer que l'esprit du rassemblement irrigue toute la société française.

NS : Je vous rappelle que ces talibans avaient décidé que les petites filles n'iraient plus à l'école.



Histogramme 1 : La répartition des éthos rhétoriques des je⁵

Dans ce débat, il paraît que Hollande est celui qui a utilisé le plus le pronom « je » par rapport à Sarkozy (33,9 % vs 26,1 %) parce qu'il est déjà le candidat le moins connu et il doit montrer à chaque fois sa capacité en tant que challenger de se démarquer par ses propos et ses propositions pour attirer l'adhésion des téléspectateurs.

Hollande domine fort dans la catégorie *je-rassemblement* alors que Sarkozy est celui qui présente le plus de *je-autorité*.

1-1-2-« Moi président de la République » »

Cette anaphore qui a manifestement marqué les esprits avec pas moins de 16 occurrences n'a pas pu passer inaperçue. FH joue sur cette réitération

afin de marquer les esprits des électeurs, changer la vision de l'auditoire et lui faire ouvrir les yeux sur le type de présidence de son adversaire pour mieux l'accabler et lui assigner tout ce qui est mauvais.

En utilisant cette rhétorique, Hollande se donne l'image d'un président ouvert, réconciliant et coopérant, en qualifiant Sarkozy indirectement comme celui qui désunit les assemblées. Cette reprise en échos permet de faire une expression rabâchée pour envahir les esprits des électeurs.

1-1-3-Le pathos ou la provocation émotionnelle.

Les deux orateurs, lors de ce débat décisif, ont recours de plus en plus à la provocation et à l'argumentation émotionnelle qui mobilisent les sentiments, les pulsions aux désirs, le besoin de sécurité, la peur, la pitié, le bien-être afin d'attirer et d'orienter l'auditeur. C'est un discours qui mobilise des figures diverses (exclamation, interjection, interrogation, etc.), qui déclenchent l'émotion du sujet parlant et *qu'il est impossible de construire un objet de discours sans construire simultanément une attitude émotionnelle vis-à-vis cet objet.*⁶

Les deux candidats cherchent le maniement des sentiments à travers quelques techniques et quelques moyens linguistiques comme l'exclamation, la répétition et l'exagération qui, associées au pathos, déclenchent des émotions chez l'auditoire au fil de discours. Plus les émotions sont intenses, plus le discours politique est efficace. Il s'agit de dramatiser le discours pour chercher la mémorisation et l'implication de l'auditoire.

*« [...] Le discours doit enseigner, plaire et toucher : car la voie intellectuelle ne suffit pas à déclencher l'action »*⁷.

FH et NS utilisent un discours qui semble souvent renvoyer à un certain nombre de catégories sociales, afin que les individus appartenant à ces catégories puissent se reconnaître dans le discours des deux candidats et y adhèrent. L'image qu'ils se font de leur auditoire (les téléspectateurs français) se reflète à travers leurs paroles. L'auditoire est ainsi inséré dans le discours et donc, concerné par le discours. Il s'agit d'une sorte de construction

discursive de l'image de l'auditoire, et en effet, comme le note Ruth Amossy, il s'agit d'une stratégie argumentative.

FH se présente très sympathique avec les Français, surtout dans les régions rurales, qui souffrent énormément de prix du carburant. Il se présente comme celui qui va rendre la justice aux contribuables les moins fortunés, en obligeant les riches à soumettre à la justice fiscale. Les deux candidats insistent particulièrement sur des catégories d'individus les plus défavorisées dans la société française d'aujourd'hui, telles que : les fonctionnaires, les infirmières, les retraités, les petits salariés, les jeunes au chômage, les personnes âgées, ceux qui sont mal logés, les enseignants, etc.

Exemples :

FH: *« (...) Deuxièmement, sur les carburants, vous, vous dites : « je ne peux rien, je laisse les Français vivre avec ces prix des carburants » qui font que dans des départements ruraux, pour ceux qui vont à leur travail, c'est devenu un prélèvement insupportable, et après on s'étonne qu'il y ait des votes de colère, parce que c'est très difficile de se déplacer autrement que par son automobile pour aller à son travail. »*

FH: *« Deuxièmement, sur ce que vous appelez les postes de fonctionnaires, j'ai, effectivement, considéré que dans l'état actuel de l'école publique que j'ai appréciée tout au long de cette campagne parce que c'est très dur pour les enseignants et les personnels de l'Éducation de vivre ce que vous leur avez fait supporter... »*

En effet, faire usage des stigmates dans le discours est aussi et surtout un excellent moyen de tisser des liens entre le locuteur et ses auditeurs dans le cadre de la communication politique.

Il s'agit ici de généraliser à partir des situations humaines spéciales (l'induction) afin d'appuyer son argumentation, car ces cas exposés ici représentent, en réalité, un ensemble de personnes qui se trouvent dans la même situation.

L'emploi de ces cas spéciaux dans le débat a une visée pragmatique interlocutoire. Le déploiement de la souffrance d'autrui est employé

pour exercer de l'influence sur l'auditoire, en provoquant des sentiments de pitié, de colère, d'indignation, de sympathie ou de révolte. L'adhésion émotionnelle peut s'avérer, dans le cadre d'un débat politique télévisé, plus importante et plus fructueuse qu'une argumentation rationnelle dans un programme électoral.

FH se permettait de démarquer par rapport à NS par cette dimension sociale, il manifeste son inquiétude par rapport les problèmes de la société comme la souffrance à laquelle les retraités se sont confrontés. Quant au sujet de l'immigration, FH se montre en faveur de cette tranche de population qui est au centre de toutes les spéculations politiques. À son tour, NS essaie de se représenter raisonnable et juste avec la communauté musulmane et de régler les problèmes des immigrés et garantir leurs droits.

NS: « Permettez-moi de vous le dire, c'est moi qui ai créé le CFCM [Conseil français des cultes musulmans], et je n'accepterai aucune leçon en la matière.(...) entre parenthèses, la France traite mieux les musulmans en France que les chrétiens ne sont traités en Orient ».

1-2-L'argumentation stratégique dans le discours politique

L'argumentation est plus que basée sur l'art de rhétorique, elle a un rapport étroit avec l'analyse du discours en interaction dans la mesure où cette analyse a pour un objectif de décrire le fonctionnement des énoncés argumentatifs et les stratégies discursives en situation qui sont utilisées par un locuteur et dans un contexte précis de production.

En effet, dans le genre débat politique télévisé, le discours argumentatif ne peut être envisagé indépendamment des stratégies argumentatives qui valident les opinions des orateurs et contribuent à la co-construction de leurs discours argumentatifs. Par sa nature conflictuelle, le débat télévisé politique engendre un type d'argumentation différent. Il s'agit de chercher non seulement à faire valoir la supériorité de ses idées sur celles de l'adversaire, mais aussi, sur un plan formel, à sortir vainqueur de l'affrontement. Similaire à la guerre il

apparaît justifié de parler d'une stratégie argumentative ou bien d'« argumentation stratégique »⁸.

1-2-1-Le discours antérieur

Dans ce présent débat, NS a souvent recouru, à son discours tenu antérieurement de son projet pour l'élection présidentielle de 2007 pour montrer qu'il reste sur la même ligne politique et qu'il est fidèle à ses convictions politiques :

NS « dans mon projet de 2007/j'avais dit : « si je suis élu président de la république le président de la commission des finances à l'assemblée ne viendra pas de la majorité »

FH a aussi fait référence à ses propos tenus dans sa campagne électorale pour mieux les éclaircir dans ce débat et donner plus de pertinence à son raisonnement pour prouver lui aussi qu'il est fidèle à sa politique et à ses fondements.

À titre d'exemple, FH insiste sur le fait que sa décision de ne fermer qu'une seule centrale nucléaire n'est pas nouvelle. Ainsi, l'expression « dans mon projet présidentiel » renvoie explicitement au moment où il a fait part de sa décision, en l'occurrence durant sa campagne électorale.

FH « (...) j'ai dit dans mon projet présidentiel je ne retiendrai qu'une seule centrale pour le prochain quinquennat »

1-2-2-la controverse dialoguée

Ensuite, une autre stratégie argumentative est utilisée et qui consiste à réfuter les arguments d'une thèse en montrant qu'ils ne sont pas fondés. L'orateur peut opposer à l'adversaire un contre argument qui l'invalide, ou retourner l'argument contre lui, ou bien jouer la concession ou donner raison, puis rejeter la thèse adverse avec plus de force.

Dès les premières minutes du débat, on décèle un jeu de controverses dialoguées entre les deux candidats, chacun reprenant argument de son adversaire afin de le déstructurer. Tout a commencé autour de la notion de rassemblement. NS n'a pas manqué de dénoncer l'utilisation du concept de

rassemblement par son concurrent pour mieux l'investir à son intérêt. Mais aussitôt dit, aussitôt repris pour être jugé par FH qui n'a pas manqué l'occasion de reprendre et de saisir le contre argument, quand il s'agit de calme et de quiétude des Français réclamés par NS. Pour FH, c'est grâce aux intermédiaires et à la société française que les Français vivent dans le calme et la quiétude. Il veut ôter à NS tout mérite quant au calme qui a régné en France durant son mandat.

Exemples :

« FH : *et c'est pourquoi je veux être aussi le président du rassemblement pendant trop d'années les Français ont été opposés systématiquement les uns par rapport aux autres divisés et donc je veux les réunir* »

« NS : *juste un mot sur le rassemblement le rassemblement c'est un très beau mot/c'est une très belle idée, mais il faut y mettre des faits le rassemblement c'est quand on parle au peuple de France à tous les Français* »

« FH : (...) *si un quinquennat se termine alors qu'il a été heurté/et s'il n'y a pas eu comme vous dites de violences je pense que le mérite en revient à toute la société française* ».

1-2-3-L'attaque violente et le dialogisme anticipatif

Il arrive parfois que l'un des challengers s'emporte et s'attaque de façon violente à l'autre, en tenant des propos agressifs à son égard. Toutefois, ces arguments desservent son argumentation plus qu'ils ne la servent. C'est NS qui a le plus recours à cette stratégie. En effet, le président sortant semblait quelque peu sur la défensive, car il avait tendance à s'emporter assez souvent face à son adversaire.

Exemples :

NS : *vous mentez de façon éhontée et je dois l'accepter ?*

NS : *c'est un mensonge et c'est une calomnie vous êtes un petit calomniateur en disant ça*

FH : *oui oui parce que là je vous ajoute maintenant la calomnie au mensonge vous n'êtes*

pas capable de tenir un raisonnement sans être désagréable avec votre interlocuteur (...)

Parmi les exemples qu'on peut fournir, aussi lorsque FH a accusé NS d'avoir nommé ses proches aux postes les plus convoités du gouvernement, alors que NS accuse son adversaire d'une présidence normale qui ne répond pas aux défis de cette période et aux besoins du peuple français.

1-2-4-l'anticipation

Autre usage stratégique du dialogisme, c'est d'anticiper sur les propos de son adversaire avant même leur actualisation, afin de le désarmer de toute tentative de réponse.

Les deux candidats ont recours de plus en plus à cette stratégie pour se défendre d'une éventuelle accusation et pour prévoir une riposte quelconque avant même sa prolifération. Dans le débat de 2012, FH a beaucoup intervenu pour amputer le discours de son rival et l'intercepter avant même son actualisation surtout dans les questions économiques qui touchent les questions sur le chômage. FH anticipe alors sur ce que pourrait être le contre argument de défense de NS qui lui sert d'alibi (la crise financière qui a frappé l'Europe.) FH a stratégiquement anticipé sur la réponse prévue, attendue, mais non encore reçue de son adversaire.

FH « (...) *vous considéreriez que c'est un échec c'est un échec/alors vous pourrez dire j'ai l'excuse la crise est là ... personne ne la conteste, mais enfin/le chômage a plus augmenté en France qu'il n'a augmenté en Allemagne il est de 6,5 % de la population active nous sommes à 10.* »

1-2-5- la reprise en échos

Parmi ces techniques de persuasion, la reprise en échos permet d'exprimer les ressentis des deux prétendants pour mieux jouer sur l'effet de pathos. Elle permet aussi de faire d'une expression rabâchée en boucle pour envahir les esprits des électeurs.

« *C'est une présidence partisane* », « *je n'ai rien obtenu* », et surtout « *Moi président de la publique* », sont l'illustration parfaite de cette emprise qu'un candidat peut avoir sur l'électorat grâce à la reprise en échos.

1-2-6- Le paralogisme ou les fallacies

On peut utiliser le concept de paralogisme ou de fallacies pour désigner l'application erronée d'une technique formelle de déduction ; l'infraction aux règles de l'induction ; l'analogie défectueuse, et la conclusion fautive obtenue par application incorrecte de raisonnement. À cet égard, Hamblin avance qu'«un argument *fallacieux est un type d'argument qui n'est pas valide, mais qui a l'apparence de la validité*»⁹. Ce qui constitue le domaine des arguments du paralogisme «ad» en général, et notamment les fallacies sur la personne (ad hominem) et les fallacies d'autorité (ad verecundiam).

Dans cette étude, nous avons pu identifier certains arguments ad hominem les plus caractéristiques qui ont été formulés dans ce débat. Par exemple, l'argument du tartufe qui met en évidence l'incompatibilité entre la conduite d'un adversaire et le discours qu'il tient.

Un autre argument dit «de devoir», et qui consiste à faire valoir qu'un adversaire n'a pas adopté, dans telles circonstances, la forme de conduite appropriée.

Exemple :

FH« (...) Quelle est cette logique? Vous seriez pour le compromis dans certaines circonstances et puis vous seriez pour la chaise vide dans d'autres. »

Il y a aussi, autres arguments ad hominem qui sont basés sur l'association qui consiste à faire rejaillir sur un opposant la honte qui pèse sur un tiers auquel on l'associe.

NS, a utilisé cet argument par exemple pour montrer que le chef de parti socialiste, son adversaire, ne peut pas intervenir pour cautionner les dépassements de ses compatriotes

« (...)que Madame Aubry me traite de Madoff, 183 ans de prison, et que le leader de la famille ne dit rien, c'est qu'il cautionne et quand on cautionne des outrances, c'est qu'on a tort. C'est qu'on n'a pas la force pour les dénoncer. »

Nous pourrions retenir qu'au regard de l'argumentation stratégique, l'utilisation de certains

arguments ad hominem dans les débats électoraux télévisés serait légitime. Mais, si au lieu d'argumenter ses idées et de défendre son programme électoral, un leader politique s'altère dans l'utilisation outrancière de l'argument ad hominem. Cette stratégie aura témoigné d'un manque d'éthique et de légitimité, et permet de contourner les vrais enjeux de la société.

2- Le débat politique et le monde du spectacle

Le débat politique en général et particulièrement le débat présidentiel est défini aujourd'hui comme la mise en scène des discours sous forme d'un spectacle en vue d'un public pour le séduire. La politique avant, était des idées, aujourd'hui, ce sont des personnes. Ou plutôt des personnages qui choisissent des emplois et tiennent des rôles comme au spectacle. Le meilleur exemple illustrant ces propos doit être le meeting politique où l'attention est centrée autour d'une super-vedette.

Dans ce spectacle, la télévision se nourrit des débats politiques tout en les construisant conformément à ses intérêts propres.

« Distraire, captiver, amuser : tels sont les objectifs des campagnistes. En utilisant particulièrement les débats télévisés, qui augmentent l'excitation et la dramatisation du combat. »¹⁰.

Aujourd'hui, la politique a donc un visage : celui des hommes politiques qui l'incarnent. C'est pourquoi «l'art politique» est devenu figuratif. Comme des héros de contes ou de romans, ces personnages vont se présenter autour d'un certain nombre «d'attributs» qui permettront de les identifier et de les distinguer les uns des autres.

« Désormais, la politique tourne à la mise en scène. Désormais, chaque dirigeant s'exhibe et se met en vedette. Ainsi va la personnalisation du pouvoir. Fidèle à son étymologie »¹¹.

La politique contemporaine est de plus en plus formatée selon les règles du marketing. Elle assimile certaines règles du commerce qui s'imposent à tout le champ politique. Les locuteurs politiques maîtrisent l'art de la *petite phrase*, tout à la fois brève, simple, et distinctive comme à la

publicité. Les médias participent à la création des « légendes » des hommes ou des femmes politiques. Ces légendes influencent l'apparition et l'existence des stéréotypes de politiciens qui sont si importantes pour le marketing politique qui vise l'automatisme de choix des électeurs.

Les dernières élections en France étaient très influencées par les médias et les sondages. Toutes les chaînes offraient des portraits des candidats, des analyses, des débats, des reportages. Les émissions politiques battaient des records d'audience (près de 18 millions de téléspectateurs pour ce débat)¹². En effet, la guerre des images a remplacé celle des idéologies de telle enseigne que l'homme politique est devenu le produit de son image promotionnée par la campagne de marketing politique qui façonne un personnage presque mythique que le candidat doit le jouer pendant les échéances électorales. Désormais, les campagnes politiques s'organisent à la manière des campagnes publicitaires où il y a lieu d'une étude préalable du « marché » politique, par des enquêtes et des sondages.

2-1-Le débat et la communication médiatique

De nos jours, on s'interroge sur l'évolution de la politique dans sa médiatisation télévisuelle actuelle qui cèdera à des contraintes de cette communication et de cette médiatisation. Ce qui est rendu au public à travers les médias devient familier, et ce qui est familier devient reconnu et légitimé ; parce que seuls les médias sont en mesure de contrôler et de former l'opinion publique. La création des stars politiques est directement liée au rapport entre surtout la télévision et la politique. La vie des politiciens est souvent mise au même niveau que celui des « stars » de cinéma. On sait pratiquement tout sur eux : leur état de santé, leur emploi du temps, leurs loisirs, etc. On a même trouvé que les gens s'intéressaient plus à la vie des stars et moins à leurs avis politiques. Aujourd'hui l'efficacité du discours politique paraît dépendre pour beaucoup de l'image des orateurs à travers un discours entendu et vu. Il est clair que l'image impose une certaine *esthétisation* du politique. C'est

pourquoi beaucoup de politiques cherchent à participer aussi à des émissions de variétés, qui contribuent à façonner leurs images ; un facteur très important de la légitimité politique dans la mesure où « Gouverner c'est paraître » (J.-M. Cotteret).

Comme l'espace public actuel est très médiatisé avec une dominante télévisuelle, il est logique que les politiciens s'occupent beaucoup plus de leur éthos qu'il y a trente ans. Les « talk-shows » politiques remplacent les discussions et les débats. On perçoit la politique comme un objet qu'on veut regarder et non comme l'objet qu'on veut comprendre. Les politiciens le comprennent et veulent de plus en plus en profiter en utilisant les méthodes du show-business.

En effet, le débat politique actuel est avant toute chose, une opération de communication par une production médiatique sous forme d'une émission télévisée ou radiographique qui donne lieu à une matière d'information et des comptes rendus journalistiques et des analyses éditoriales dans la presse écrite et électronique.

Ce genre de débat a tendance à être perçu comme un affrontement en raison de l'importance de l'enjeu. Il s'agit aussi et surtout d'un processus de co-construction de sens. C'est pourquoi le débat politique télévisé gagne de plus en plus de terrain et de notoriété. C'est ainsi que nos candidats NS et FH, même à travers leurs arguments les plus antagoniques co-construisent leurs identités respectives.

Le candidat doit faire attention à la forme de son discours, mais aussi au fond. Il est primordial de trouver le « bon usage et le bon dosage » permettant de convaincre la majorité de la population de voter pour lui. Le but de chacun est de remporter la place dominante à travers ses propres thèses qui permettent d'imposer les règles du débat et de mettre tous les éléments et les rapports de force qui démarqueront ses offres et ses mesures de l'autre candidat. Pour les auditeurs(les Français dans ce cas), les débats politiques et surtout de l'entre-deux-tours sont des rendez-vous importants parce qu'ils déterminent la dynamique de la politique française

par les discours politiques prononcés qui se régénèrent tous les cinq ans.

2-2-L'auditoire

De ce fait, l'auditoire constitue ainsi un élément important dans tout projet de persuasion, et s'adapter à lui n'est pas chose facile pour le locuteur, surtout si son public est hétérogène. Il faut alors trouver un point commun qui les relie : des opinions, des valeurs traditionnelles, des croyances, qui constituent des points d'accord. Il s'agit là de ce qui est admis par tout le monde ou par la majorité. Pour pouvoir dégager les bons éléments sur lesquels asseoir son argumentation, le locuteur a besoin aussi de construire une image de son auditoire. K. Orecchioni (1999 : 30) souligne qu'*« on ne parle pas à un destinataire réel, mais à ce que l'on croit en savoir »*.

Pour avoir une bonne représentation, il faut toujours parvenir à rattacher les personnes auxquelles on s'adresse à un groupe ou une catégorie sociale, culturelle, politique ou autre. C'est ainsi que cette notion de représentation telle que l'utilise Grize est proche de celle de stéréotype qui est présentée par Amossy comme une image collective figée. Qu'il soit composite ou homogène, l'auditoire est repérable dans le discours grâce à certains indices linguistiques, ce qu'Orecchioni appelle « indices d'allocution ». Parmi ces indices nous avons trouvé la désignation nominale qui est l'emploi de noms propres ou d'appellatifs permettant d'identifier l'allocutaire avec certitude. Ces désignations nominales peuvent se développer en véritables descriptions. NS et FH font appel aux Français, au peuple de la France, aux citoyens, aux compatriotes.

3- Le débat politique et l'analyse de discours

Il est important d'étudier le discours (oral ou écrit) dans son cadre sociohistorique, et de le considérer comme la résultante de ses propres conditions de production. C'est ainsi que la linguistique contemporaine appréhende en général le discours dans le contexte social après qu'elle était

longtemps focalisée sur l'analyse grammaticale de la phrase. Mais l'étude du discours intègre des éléments très divers parce que son but est l'usage de la langue dans la vie réelle. Au sens de Benveniste, le discours désigne tout d'abord l'instance énonciative envisagée dans une dimension interactive. Il s'agit de la mise en œuvre de la langue par un sujet parlant. Dans tous les cas, notre parole est construite en fonction de l'autre. Dès lors, la prise de parole des deux candidats n'est jamais « gratuite ou innocente ». Ils veulent toujours agir sur l'autre, lui faire changer d'avis par la parole. C'est ainsi que le discours est lié à la pragmatique, voire à l'action.

Il est difficile de déterminer la classe d'appartenance d'un discours, car il est très délicat de décrire les propriétés de quelque chose d'aussi vaste que le discours politique. Néanmoins, il est important de pouvoir dire précisément quels sont les paramètres qui définissent la situation de communication en fonction de laquelle s'opèrent les choix mis en place et qui ont permis la production de ce discours. Ayant compris que la parole est une action, nos débatteurs ont adopté de nouvelles méthodes et recherchent un nouveau langage pour s'adresser au citoyen. Les thèmes évoqués aussi ont changé ; ils sont en rapport direct avec les préoccupations quotidiennes des citoyens français. À titre d'exemple, les thèmes abordés dans ce débat sont :

Les thématiques économiques et sociales, TVA, pouvoir d'achat, prix de l'essence, dépenses publiques, éducation, Europe, Questions de société : les immigrés (centres de rétention et du droit de vote des étrangers, nucléaire, institutions, politique étrangère, etc.

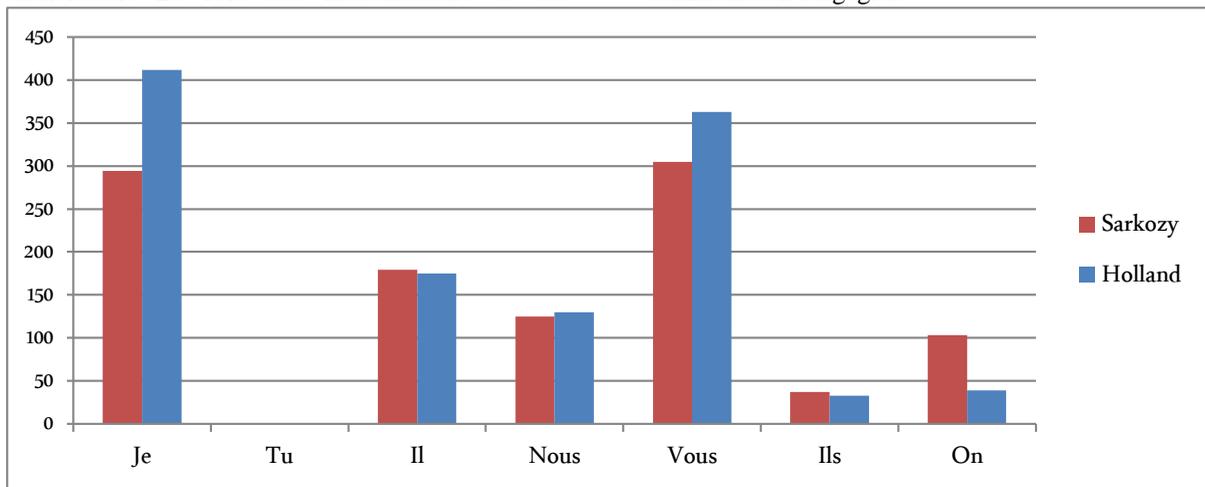
3-1- Les enjeux énonciatifs et pragmatiques de discours politique

En outre, le discours se définit comme « toute énonciation supposant un locuteur et un auditeur et chez le premier l'intention d'influencer l'autre de quelque manière ». La notion de discours installe inévitablement la relation dialogique. À partir de là, le langage est une activité qui permet au locuteur de

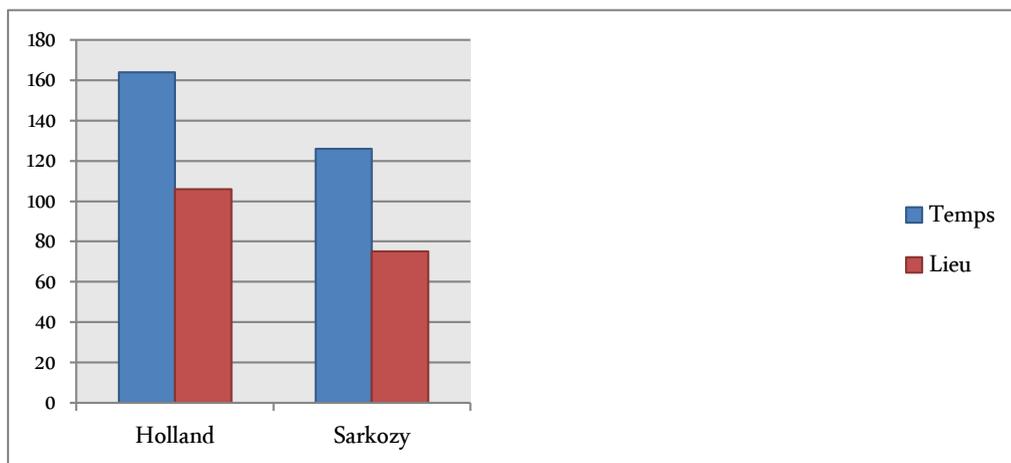
se situer par rapport à son allocataire, au monde, à son énoncé et à celui des autres.

L'analyse des enjeux énonciatifs et pragmatiques du débat permet, en premier lieu de comprendre, à travers les indices de subjectivités, comment chaque candidat avant le deuxième tour décisif des élections présidentielles montre son image de soi pour afficher son identité dans le discours et évincer celle de son adversaire. L'accent est mis sur le « je » énonciateur et la situation d'énonciation où se développent les interactions verbales par rapport à un « vous » d'un co-énonciateur. Le rôle des modalisateurs et des

déictiques spatiaux temporels dans l'appropriation du discours politique est non moins important dans la situation qui entoure les énonciateurs. Benveniste comme un des précurseurs de l'énonciation parle surtout de la subjectivité de l'énonciateur comme une capacité à se poser comme un « sujet ». Cette capacité se détermine surtout par le statut linguistique de la personne. Les études qui ont été faites montrent à travers les traces de l'énonciation combien le discours politique ne peut être que l'incarnation du discours interactif qui dévoile la subjectivité des interlocuteurs dans un procès communicatif langagier.



Histogramme 2 : L'utilisation des pronoms dans l'ensemble de débat (logiciel tropes)



Histogramme 3 : L'emploi de déictiques spatio-temporels lors du débat (logiciel Tropes)

Discussion

On peut constater facilement l'utilisation fréquente des pronoms « je » et « vous » qui incarnent cette interaction discursive entre les deux

candidats lors du débat. Le « je » exprime ce besoin subjectif primordial pour l'éthos chez les deux candidats. Cependant, FH marque une utilisation catégorique de ce pronom pour s'imposer autant que

challenger parce qu'il est déjà le candidat le moins connu et se permet ainsi de parler davantage de lui-même afin qu'il puisse se positionner par rapport à son discours et au discours de son rival. Il se donne une image d'un président qui peut donner un sens au changement qu'il réclame.

Pour les déictiques utilisés par les deux candidats, ils renvoient certainement à ce référent contextuel qui entoure ce débat de 2012. Il y a une certaine utilisation beaucoup plus ancrée dans la situation de communication affichée par FH par rapport à NS, mais cela n'est pas catégorique dans la mesure où les deux discours se sont exprimés en s'inscrivant dans l'espace et dans le temps.

4- Analyse lexicométrique, sémantique et thématique du débat

Une analyse lexicométrique du débat, réalisée à l'aide du logiciel lexico3. Et Iramuteq, Tropes, Antidote, nous permet à travers la segmentation du corpus textuel du débat de calculer la distribution des mots à l'intérieur de ce corpus et de comparer les vocabulaires des duellistes.

Par le choix de certains mots et vocabulaires durant son discours politique, le candidat construit une identité lexicale et discursive qui est due, non simplement de sa personne, mais aussi de son appartenance politique et sociale y compris les attentes de l'électorat. L'analyse statistique du corpus a mis en exergue les choix lexicaux et subjectifs des candidats.

« L'Analyse factorielle des correspondances montre que le débat de 2012 se distingue nettement des autres débats, caractérisés par des univers lexicaux distincts, qui dépendent à la fois du contexte conjoncturel de la campagne électorale(...) »¹³.

Le débat de 2012 se démarque par rapport aux autres débats présidentiels de son contexte économique mondial et européen particulier (crise économique et financière depuis 2008, crise de la Grèce, réduction des dettes souveraines, politiques d'austérité). C'est pourquoi les thèmes traités étaient réduits sur les séquences suivantes : séquence d'ouverture, économie extérieure, économie

intérieure, réduction des déficits, Europe, immigration, nucléaire, conception de la présidence, questions internationales et séquence de clôture. Les débatteurs mettent en exergue une démarche de gestion de « dossiers d'actualité » qui intéresse le plus les électeurs. Le débat entre NS et FH a été le plus long (168 minutes), dont près de la moitié a été consacré aux questions économiques (81 minutes). Nous pouvons supposer que, dans cette interaction stratégique, les thématiques abordées tiennent compte des préoccupations des Français, au travers de sondages et d'enquêtes préalables. Il s'agit dans le volet économique de la crise écologique et le thème du nucléaire, dans le volet international l'espace de discussion restreint au rapatriement des troupes françaises en Afghanistan et à la situation au Sahel, le programme nucléaire iranien, militarisation de la Corée du Nord, révolutions arabes, guerre civile en Syrie, confrontation israélo-palestinienne.

Le duel de l'entre-deux-tours de 2012 se structure autour de thématiques définies préalablement par le contexte conjoncturel de cette époque. Il se structure aussi par la prégnance d'un modèle économique mondial et les problématiques socio-économiques posées dans l'espace public citoyen par les médias, et par les conseillers politiques. L'appropriation des thématiques par les interlocuteurs détermine leurs discours et par conséquent leurs personnalités politiques qu'ils construisent selon le contexte dans lequel l'électorat se définit. Rassembleurs, gestionnaires ou humanistes, etc. les candidats se définissent comme tels auprès de leurs électeurs pour défendre leurs projets. Ce cadre du jeu interlocutoire est mis en place dans ce débat, par des remises en cause systématique des propos adverses, en défendant la véracité de leurs propos. Ainsi le recours à la thématique purement économique et chiffré est non seulement récurrent, mais donne aux citoyens le sentiment de se trouver entre deux discours experts opposés.

Le débat tel qu'il est conçu occulte les « dimensions morales de l'activité politique » pour laisser place à un discours soumis à la doxa

Bibliographie

- AMOSSY, Ruth (2012). *L'argumentation dans le discours*. Paris: Armand Colin. AMOSSY, Ruth. 2010. *La présentation de soi. Ethos et identité verbale*. Paris : Presses Universitaires de France.
- ARISTOTE, *Rhétorique, t. I, II et III*, texte établi et traduit par Médéric Dufour, Les Belles Lettres, Paris, 1967.
- BENVENISTE, E., 1966 : *Problèmes de linguistique générale, 1*. Gallimard, Paris. CHARAUDEAU Patrick, MAINGUENEAU Dominique, 2002, *Dictionnaire d'analyse de discours*, Paris, Edition du Seuil.
- COTTERET jacque, 2000, *La magie du discours : précis de la rhétorique audiovisuelle*, Paris, Editions Michalon.
- SANDRE Marion ; Éthos et interaction : *analyse du débat politique Hollande-Sarkozy*, Université Montpellier 3, Laboratoire Praxiling UMR 5267 CNRS.
- GAUTHIER, G 1990). *L'argumentation stratégique dans la communication politique : le débat télévisé L'Allier-Bertrand* [En ligne]. Revue québécoise de science politique no 17, p. 113-141. DOI : 10.7202/040650ar
- GAUTHIER, Gilles. 1995. « *L'argumentation périphérique dans la communication politique* ». Dans *Argumentation et rhétorique* (II), Hermès 16. Paris : CNRS Editions.p :170

Références

1. GERSTLÉ, J. (2008) [2004]. *La communication politique*. Paris : Armand Colin, p : 14.
2. – ARISTOTE (1991), *Rhétorique* trad ruelle, introd Meyer, commentaire de B TIMMERMANS, Paris, Le livre de poche, p. 83
3. BARBERIS, J.-M. (2001), « Éthos », in C. Détrie, P. Siblot et B. Verine (dir.), *Termes et concepts pour l'analyse du discours*, Paris, Honoré Champion : 112.
4. ROITMAN, Malin, *L'ethos de crédibilité chez les candidats à la présidence : l'exemple du pronom je présidentiel dans le débat Hollande-Sarkozy 2012*. In : Engwall, Gunnel & Fant, Lars (eds.)
5. ROITMAN, Malin, *L'ethos de crédibilité chez les candidats à la présidence : l'exemple du pronom je présidentiel dans le débat Hollande-Sarkozy 2012*. In : Engwall, Gunnel & Fant, Lars (eds.) *Festival Romanistica. Contribuciones lingüísticas – Contribuciones lingüísticas – Contributi lingüistici – Contribuições lingüísticas*. Stockholm Studies in Romance Languages. Stockholm: Stockholm University Press. 2015, pp. 291–316. DOI: <http://dx.doi.org/10.16993/bac.o>. License: CC-BY
6. CHARAUDEAU Patrick, MAINGUENEAU Dominique, 2002, *Dictionnaire d'analyse de discours*, Paris, Édition du Seuil, p : 424.
7. PLANTIN (1996) cité par AMOSSY, Ruth (2012). *L'argumentation dans le discours*. Paris : Armand Colin, p : 211.
8. Proposé par Gilles GAUTHIER, *l'argumentation stratégique dans la communication politique : le débat télévisé L'Allier — Bertrand ; Politique Document* généré le 8 nov. 2017.
9. Cité dans PLANTIN, C. (1995). « *L'argument du paralogisme* » [En ligne]. *Hermès*, Vol.1 # 15, p : 251,252 Consulté le 21 janvier 2017.
10. SCHWARTZENBERG (Roger-Gérard), *L'État spectacle*, p. 221.
11. Voir NEL (Noël), *A Fleurets mouchetés. 25 ans de débats télévisés*, op. cit.
12. « *Le verdict est tombé. Selon l'institut Médiamétrie, 17,79 millions de téléspectateurs ont suivi le débat (de 2012) entre les deux candidats à la présidentielle, retransmis à la fois sur France 2 et TF1* [Le figaro.fr](http://Lefigaro.fr).
13. - Pierre-Olivier DUPUY et Pascal MARCHAND(2013), *Évolutions lexicales des débats de l'entre-deux-tours de l'élection présidentielle française : du discours de la quantification à la polémique, des stratégies argumentatives au service des électeurs ?* Publié dans Bulletin VALS-ASLA 109.

La persuasion par l'éveil de la peur dans Le Cid de Pierre Corneille

Persuasion through the awakening of fear in Le Cid by Pierre Corneille

Date de réception : 2018-12-27

Date d'acceptation : 2019-12-18

Chaymaa Almohammad Alobeid, Université Techrine, Syrie

chaymaaalobeid@gmail.com

Rouba Hamoud, Université Techrine, Syrie

chaymaaalobeid@gmail.com

Résumé

La persuasion est une stratégie argumentative qui constitue l'un des piliers fondamentaux du discours. Elle a une influence indéniable dans le changement de l'attitude de l'interlocuteur. Parmi les stratégies de la persuasion, nous jetons la lumière sur la provocation par la peur. Nous essayerons d'apprécier son rôle dans la visée persuasive dans Le Cid de Pierre Corneille à travers la mise en relief de quelques variables indispensables dont : le message préventif menaçant (qui se concentre sur la sévérité de la menace et la vulnérabilité de la personne cible), les recommandations, l'efficacité et l'auto- efficacité

Mots-clés : persuasion, peur, violence, vivacité, efficacité, auto-efficacité.

Abstract

Persuasion is an argumentative strategy that is one of the basic pillars of discourse and has an undeniable influence in changing the attitude of the interlocutor. Among the strategies of persuasion, we throw light on the provocation of fear. Moreover, we try modestly to assert its role in the persuasion in Pierre Corneille's Le Cid through the highlighting of some indispensable variables, namely; the threatening preventive message that focuses on the severity of the threat and the vulnerability of the target person, recommendations, efficiency and self-efficacy.

Keywords : persuasion, fear, violence, vividness, efficiency, self-efficacy.

المخلص

لطالما شكل الإقناع أحد أهم ركائز الخطاب من خلال اعتماده على استراتيجيات عديدة لبلوغ الأهداف المرجوة. وتأتي أهمية استراتيجيات الإقناع من دورها في تغيير مجرى الأحداث ، وفي تغيير موقف المتلقي ودفعه الى اتخاذ سلوك يتوافق مع الهدف المنشود من الخطاب . وفي بحثنا هذا نحاول تسليط الضوء على أهمية اثاره الخوف في الإقناع في مسرحية لوسيد لبيير كورنيه. وسيتم التركيز على تبيان عدة متغيرات في نظرية الدعوة إلى إثارة الخوف وتطبيقها على المشاهد المدرسة ، كدراسة الرسالة التحذيرية التي تستند إلى قسوة الرسالة وضعف الشخص المستهدف ، إضافة الى دراسة كفاءة النصيحة المقدمة لتجنب الخطر ، ودراسة مفهوم الكفاءة الذاتية ؛ اي قدرة المتلقي على تطبيق النصيحة المقدمة.

الكلمات المفاتيح: الإقناع ، الخوف ، العنف ، الحيوية ، الكفاءة والكفاءة الذاتية.

"Les puissants sont des hommes qui persuadent. Donc les persuasifs mènent tout."

Emile Chartier, dit Alain - Les idées et les âges, les passions et la sagesse

Introduction

La persuasion s'appuie sur une stratégie d'argumentation propre à faire adhérer aux idées du locuteur celui auquel elle s'adresse. Elle fait souvent appel aux sentiments. La personne cherchant à persuader procède de toutes les stratégies possibles pour atteindre son but. Parmi ces stratégies, nous jetons la lumière sur la provocation de la peur que nous essayons tout modestement d'en prouver le caractère persuasif.

Par le biais de cet article, nous cherchons à affirmer le caractère persuasif de la peur en tant que passion tragique et les mécanismes permettant de l'évoquer. L'intérêt de cette recherche tient au fait d'appliquer « les théories de l'appel à la peur », qui appartiennent au domaine de la santé, sur des extraits du théâtre classique de Pierre Corneille.

Vue la convergence dans la mise en œuvre de ces stratégies au domaine de la santé et dans le théâtre de Pierre Corneille, nous appliquons dans notre recherche les mêmes étapes impliquées dans les théories mentionnées afin de mieux comprendre le fonctionnement de l'appel à la peur et d'identifier les conditions permettant d'assurer son efficacité persuasive.

Nous nous appuyons sur des théories récentes consacrées surtout à l'éveil de la peur en tant que stratégie persuasive (Girandola, 2000), (Pavic, 2011). Nous faisons recours ici à des modèles que nous considérons indispensables : « le modèle

hiérarchisé de la motivation à se protéger » (Tanner, Hunt et Eppright, 1991), « le modèle étendu des processus parallèles » (Witte et Allen, 2000), et « le modèle par étape du traitement de l'éveil de la peur » (Das, E.H., De Wit, J.B.F., & Stroebe, W, 2003).

Dans *Le Cid*, et surtout dans les scènes de persuasion justifiant la violence, les protagonistes font leurs procès afin de séduire le roi et de le persuader, ou bien d'innocenter le héros tragique ou bien de le condamner tout en se répartissant, selon le schéma actantiel, entre adjuvants et opposants. Dans cet article, les stratégies mentionnées sont celles des opposants, réclamant l'acte violent à l'égard du héros et cherchant à persuader le roi de le punir.

1. L'appel à la peur

La peur est définie comme « une réaction affective évaluée négativement, accompagnée d'un haut niveau d'éveil et générée par l'identification d'une menace personnellement pertinente ».¹

L'appel à la peur consiste à déclencher une perception de peur chez le récepteur par le biais de messages menaçants. La peur perçue devrait alors être source d'adhésion des individus à la recommandation proposée. « Le message avec appel à la peur possède ainsi deux fonctions distinctes. D'une part, il s'agit de poser le problème en présentant les conséquences négatives du comportement ; et donc de la menace. Et d'autre part, le message doit proposer une solution permettant d'échapper aux dangers éventuels présentés ; c'est le rôle de la recommandation ».²

¹ Courbet, D. *Puissance de la Télévision, Stratégies de communication et influence des marques*, Préface de J.N. Kapferer, 1990, p.244

² Hovland et AL. « *Communication and persuasion* », 1953ⁱⁱ

Le fonctionnement de la stratégie de l'appel à la peur est analysé par l'intermédiaire des variables impliquées dans ce processus¹ : d'abord, la concentration est portée sur le message menaçant préventif qui doit révéler la sévérité de la menace et la vulnérabilité de la personne cible et nous procédons ici des processus de la vivacité et de l'anticipation des événements.

Ensuite, nous nous concentrons sur la recommandation. Envisagée comme réaliste et réalisable, elle doit présenter une solution pour faire face à la menace suggérée, et nous insistons ici sur l'importance du codage de la recommandation (la concentration du message sur les bénéfices de l'application de la recommandation ; plutôt que sur les pertes résultant du fait de ne pas la suivre). Sans négliger le rôle de l'analyse de la situation par la personne cible.

La variable de l'efficacité de la recommandation dépend du décodage de la menace ; et là nous analysons le mécanisme défensif de la personne cible (le contrôle de la peur ou le contrôle du danger). Nous insistons enfin sur la variable de l'auto-efficacité, c'est-à-dire la capacité de la personne cible d'appliquer la recommandation.

1.1. *La menace*

Selon Witte, le message menaçant efficace doit mettre l'accent sur la sévérité de la menace ; et sur la vulnérabilité de la population concernée par cette menace.³

De sa part, Chimène, le personnage faisant recours à cette stratégie donne des messages préventifs que nous pourrions juger exemplaires, à

travers la mise en relief de la sévérité de la menace que représente le persécuteur de l'acte violent, et de la vulnérabilité du roi ciblé, même implicitement, par cette menace. Elle procède de divers arguments pour susciter une peur maximale chez le destinataire.

1.1.1. *La polémique*

Dans *Le Cid*, Chimène décrit au roi les circonstances de l'accomplissement du crime en donnant des jugements péjoratifs et dépréciatifs du persécuteur, son ennemi, « coup de témérité, jeune audacieux » et en accentuant son caractère rebelle pour éveiller une peur maximale chez le roi qui se sent ainsi menacé du même sort du persécuté « le Comte ».

*Sire, ne souffrez pas que sous votre
puissance*

Règne devant vos yeux une telle licence.

Que les plus valeureux, avec impunité,

Soient exposés aux coups de la témérité ;

*Qu'un jeune audacieux triomphe de leur
gloire,*

*Se baigne dans leur sang, et brave leur
mémoire.*⁴

Le message de Chimène, par le biais des superlatifs au pluriel « les plus valeureux », « un jeune audacieux se baigne dans leur sang et brave leur mémoire », confirme que Chimène ne parlait pas de son père seulement, mais qu'elle essaye aussi de faire comprendre que tous les « valeureux » sont menacés et parmi eux le roi lui-même. Elle fait donc une sorte de comparaison entre la gravité de l'acte de Rodrigue et la grande valeur des courtisans menacés par son acte, cherchant de ce fait l'éveil

³ Witte, K., & Allen, M. «A meta-analysis of fear appeals: implications for effective public campaigns.», 2000, pp.423-450

⁴ Corneille, P. *Le Cid*, Paris, Bordas, 1980, p.63

d'un taux exhaustif de réaction de la part du roi (indignation, mépris, hostilité) motivé par les sentiments de la peur de l'avenir.

1.1.2. *La vivacité*

La vivacité est un processus affectif dont les interlocuteurs procèdent pour augmenter la sévérité du message préventif (« *vividness* / *vividness* »). « La vivacité est relative aux aspects très concrets de l'information, et à la capacité avec laquelle l'information peut être saillante et donc s'imposer à l'esprit ».⁵

Vivacité, traduction de l'anglais *vividness* : force ou intensité avec laquelle des images présentées peuvent s'imposer dans l'esprit des individus. Ce terme est utilisé surtout dans les expériences pour lesquelles on manipule la force imagée d'un message.

L'image à laquelle Chimène fait recours, si poignante et si touchante, « se baigne de leur sang » pourrait éveiller une peur maximale chez le roi qui se sentirait tellement concerné par la menace.

Chimène :

Qu'un jeune audacieux triomphe de leur gloire,

Se baigne dans leur sang, et brave leur mémoire ⁶

Cette image est susceptible d'imposer l'image terrible de l'acte de Rodrigue dans l'esprit du roi et de provoquer chez lui un sentiment effrayant de vulnérabilité intense.

Ainsi, Chimène argumente d'images si poignantes pour influencer l'attitude du roi vis-à-vis de Rodrigue et orienter ses comportements vers le châtiment de son ennemi. Elle ne cesse pas de lui décrire des vues atroces et effrayantes et des images pleines de vivacité ;

Sire, mon père est mort ; mes yeux ont vu son sang

Couler à gros bouillons de son généreux flanc ⁷

En effet, la description de la vue du sang coulant violemment est apte à modifier la décision du roi vis-à-vis de l'acte de Rodrigue.

En affirmant au roi le caractère rebelle de Rodrigue qui a osé tuer le Comte dans la cour, « sous votre puissance, devant vos yeux, dans votre cour », Chimène essaye d'avertir le roi de l'impact de l'affront de Rodrigue qui menace sa couronne, sa grandeur et sa personne aux yeux de son peuple.

Chimène :

Un si vaillant guerrier qu'on vient de vous ravir

Eteint, s'il n'est pas vengé, l'ardeur de vous servir. ⁸

Immolez, non à moi, mais à votre couronne, Mais à votre grandeur, mais à votre personne ⁹

A partir de cet extrait, nous remarquons que Chimène a l'audace de prévenir le roi explicitement d'un péril imminent. Elle lui affirme sa vulnérabilité explicitement ; en mettant en risque son règne et sa valeur. Ceci a conduit le roi à prendre une attitude

⁵ Courbet, D., D. Priolo et I. Milhabet. « Communication persuasive et santé publique : effets de la vivacité et de la répétition des messages sur l'optimisme comparatif et sur l'intention comportementale », 2001, pp. 163-175

⁶ Corneille, P. Op.cit, p.63

⁷ Ibid, p.62

⁸ Ibid, p.63

⁹ Ibid, p.63

immédiate conformément à la recommandation proposée.

1.1.3. *L'anticipation*

En éprouvant la peur, les protagonistes analysent leurs situations et utilisent l'imagination pour comprendre qu'il y a un mal imminent qui est sur le point de leur arriver.

Cependant, en procédant de l'éveil de la peur, les protagonistes prennent en considération la situation complète dans laquelle ils se trouvent. C'est pourquoi, ils mettent en relief les caractères du héros tragique « le persécuteur du crime » : il appartient à la classe noble, il est très fort, il a gagné des batailles contre des ennemis invincibles ; ce qui lui donne une valeur intense et une grande renommée dans l'Etat et chez le peuple.

Motivé par son amour-propre et par son honneur, le héros tragique commet un acte violent relié, exprès, par le dramaturge à un acte victorieux afin de confier à la situation plus d'intensité.

Tous ces caractères donnent aux opposants l'occasion d'en profiter pour accentuer le sentiment du danger que représente le héros tragique et éveiller en même temps une peur maximale chez le roi.

Tout en profitant de la situation, Chimène a recours à l'imagination pour faire comprendre à ses destinataires qu'il y a un mal éventuel qui est sur le point de leur arriver. Elle fait donc un processus d'anticipation aux événements.

Chimène passe un message préventif au roi suggérant qu'il est vulnérable mais d'une manière véhémence. Elle parle explicitement avec le roi et lui affirme clairement qu'il est concerné par la menace ;

Immolez, non à moi, mais à votre couronne,

*Mais à votre grandeur, mais à votre personne*¹⁰

Elle fait une sorte d'accumulation, en mettant en risque tout ce qui concerne le roi dans son royaume, sa couronne, sa grandeur, et même sa personne aux yeux de son peuple.

1.2. *Les recommandations proposées*

Cependant, le message qui semble avoir l'impact persuasif le plus lourd c'est celui qui permet d'éveiller une peur maximale. Pour ce faire, les protagonistes doivent travailler par l'intermédiaire du bien-fondé des comportements recommandés, et l'accentuation du sentiment d'efficacité personnelle.

De même, les messages utilisés doivent prendre en compte la culture des personnes ciblées, c'est-à-dire les normes, valeurs, croyances et pratiques spécifiques à la communauté culturelle.

Ainsi Chimène s'exprime de la façon suivante :

Enfin mon père est mort, j'en demande vengeance

Plus pour votre intérêt que pour mon allégeance

Vous perdez en la mort d'un homme de son rang :

Vengez-la par une autre, et le sang par le sang.

Immolez, non à moi, mais à votre couronne,

Mais à votre grandeur, mais à votre personne ;

Immolez, dis-je, Sire, au bien de tout l'Etat

¹⁰ Corneille, P. Op.cit, p.63

Tout ce qu'enorgueillit un si haut attentat.

11

Pour persuader le roi de punir son ennemi, et pour le pousser à suivre irrationnellement ses recommandations, Chimène « met en risque » tout ce qui concerne le pouvoir du roi et son règne ; et justifie ces recommandations par la maintenance de la personne du roi et de son règne, en se montrant neutre « non à moi ».

L'insistance sur la neutralité de ses recommandations, par la répétition du mot « mais », a confié à la parole de Chimène un poids plus lourd sur le roi et a augmenté l'impression concernant la sincérité de sa motivation de sauver le roi et l'Etat des forfaits du héros.

1.2.1. *Le cadrage*

D'après Girandola¹², parmi les caractéristiques du message d'appel à la peur, il est nécessaire de mentionner le cadrage du message préventif, c'est-à-dire la concentration du message préventif sur les gains de suivre les recommandations, ou sur les risques de ne pas les suivre, et l'effet de ce cadrage sur le processus de la persuasion.

Dans *Le Cid*, Chimène essaye de persuader le roi que c'est à lui que reviennent les bénéfices de l'application des recommandations. Nous remarquons que l'effet de cadrer le message préventif d'un cadre positif est plus puissant que celui de le cadrer d'un cadre négatif. Autrement dit, le message de Chimène, qui est concentré sur les gains associés au comportement recommandé, c'est-

à-dire de punir le héros tragique et de commettre un autre acte violent pour faire face au premier, est plus fort, plus touchant et plus persuasif que celui de se concentrer sur les périls auxquels le roi pourrait être encouru en cas de ne pas suivre ses recommandations.

1.3. *L'efficacité des recommandations et les motivations à la protection*

Selon Pavis, les changements éventuels du comportement ne sont, en fait, pas uniquement liés aux arguments présents dans les messages, mais à la production de réponses cognitives (positives, négatives ou neutres).¹³

En examinant l'attitude du roi vis-à-vis du message menaçant, nous constatons que l'anticipation des événements, processus pour éveiller la peur, conduit les individus à avoir une attitude plus active notamment par la recherche des moyens pour faire face au danger.

1.3.1. *Le processus du décodage et l'évaluation de la menace*

Pour faire face à un message représentant un danger pour lui, « le récepteur impliqué par la menace met en place deux types de réponses en parallèle, selon deux voies. Premièrement, il traite le danger lui-même et, deuxièmement, il tente de diminuer la peur que déclenche le message ». ¹⁴

Dans le modèle étendu des réponses parallèles, Witte précise les interactions entre les deux voies, et les raisons pour lesquelles le destinataire s'oriente vers l'une ou l'autre. Dans la première voie, il essaye de contrôler le danger par un

¹¹ Ibid, p.63

¹² Girandola, F. « Peur et persuasion : présentations des recherches et d'une nouvelle lecture (1953-1998) », 2000, pp. 333-376

¹³ Pavis, G. « Utilisation de la peur en prévention », 2011, p.3

¹⁴ Leventhal, H. « Findings and theory in the study of fear communications », 1970, pp.119-186

processus de résolution de problème ; tout en évaluant le rapport entre la menace et l'efficacité de cette menace. Dans la deuxième, il tente de contrôler la peur.

En effet, c'est le processus du décodage de la menace qui conduit l'attitude de la personne cible concernant la menace et la recommandation impliquée. Autrement dit, en faisant une évaluation de la menace et de l'efficacité de la recommandation proposée, la personne menacée précise son attitude vis-à-vis du danger. Ou bien il fait un contrôle du danger, ou bien il fait un contrôle de la peur.

Dans le premier cas, la personne cible se sent fortement menacée par le danger, ce qui la pousse à prendre une attitude conformément à la recommandation proposée.

Dans *Le Cid*, après la plaidoirie de Chimène cherchant à persuader le roi du danger de son ennemi (Rodrigue) sur l'Etat, elle lui propose une solution pour faire face au danger qui est de garantir sa couronne et maintenir la paix dans l'Etat, à travers le châtiment de Rodrigue.

La réaction du roi est d'une grande importance puisque sa conduite révèle explicitement qu'il se sent fortement menacé, ce qui l'a conduit à faire un contrôle du danger de Rodrigue, en appliquant la recommandation proposée. Il a ordonné alors de garder don Diègue, le père de Rodrigue, comme prisonnier dans la cour et d'envoyer les soldats à la recherche de Rodrigue.

L'affaire est d'importance, et, bien considérée,

Mérite en plein conseil d'être délibérée.

Don Sanche, remettez Chimène en sa maison ?

Don Diègue aura ma cour et sa foi pour prison,

*Qu'on me cherche son fils, je vous ferai justice.*¹⁵

Nous voyons ici que la communication entre le roi et Chimène a mené au succès et à l'obtention des objectifs de la personne plaidant, c'est-à-dire de punir le héros tragique. Tout ce qui précède montre clairement l'efficacité du message préventif, et son effet sur les comportements de la personne cible.

Dans les scènes qui suivent, nous remarquons que ce succès n'était que provisoire. En évaluant la menace impliquée par le message de Chimène, le roi considère le danger de Rodrigue d'une importance notable. Mais après la victoire de ce héros sur les Maures, l'attitude du roi a changé. Le roi a pris alors une attitude totalement contradictoire vis-à-vis des objectifs de Chimène, il a acquitté le héros tragique en le considérant au-dessus des lois vue la valeur inestimable de ses œuvres héroïques.

Et quoi qu'ait pu commettre un cœur si magnanime

*Les Mores en fuyant ont emporté son crime*¹⁶

L'attitude du roi révèle ici qu'il a fait un contrôle de la peur provoquée par le danger et non pas du danger. En considérant le héros tragique comme indispensable pour la maintenance du règne du roi et pour le pouvoir de tout l'Etat, le roi a éliminé le sentiment du danger que provoque le héros, et la communication visant à condamner ce héros a donc abouti à l'échec.

¹⁵ Corneille, P, op.cit, p.65

¹⁶ Ibid, p.94

1.3.2. *L'influence du système de valeurs*

Selon le modèle hiérarchisé de la motivation à se protéger de Tanner, l'application des recommandations ne se fait pas seulement par le recours aux arguments proposés, jouant sur la sévérité de la menace et la vulnérabilité de la personne concernée ou sur des recommandations réalistes et réalisables, il faut aussi prendre en considération le système de valeurs dominantes.

La décision du roi est fortement justifiée par ce point distinctif du modèle de Tanner où les valeurs dominantes prennent un rôle primordial. En acquittant Rodrigue, le roi déclare que celui-ci est au-dessus des lois et que son acte victorieux dépasse sa faute revenant de ce faire au système de valeurs dominantes. Nous adhérons ici à l'avis de Biet qui affirme que le héros est indispensable pour la maintenance du royaume :

« les rois et les héros sont donc représentatifs de l'ensemble de la cité et nécessaires à l'éclat et à la noblesse de la tragédie, et s'il y a, comme le dit d'Aubignac, du danger à condamner les héros, à les exempter de leurs forfaits les plus lourds ou à les acquitter, Corneille insiste plutôt sur la pitié qu'on doit avoir pour leurs erreurs et l'admiration qu'on peut éprouver pour leur conduite vertueuse.»¹⁷

1.4. *L'auto-efficacité*

Ainsi, ce n'est pas seulement la présence des recommandations qui favorise l'efficacité, il faut en plus que les solutions envisagées soient jugées comme réalistes et aptes à avoir un réel impact.

Selon Witte et Allen, l'auto-efficacité et les recommandations sont les variables qui ont le plus

de poids sur la persuasion comparativement à la menace.¹⁸

L'auto-efficacité ou le sentiment d'efficacité personnelle est un concept développé par Bandura qui désigne les croyances des individus quant à leurs capacités à réaliser des performances particulières.¹⁹

En effet, les recommandations contenues dans le message des protagonistes sont très importantes de telle sorte qu'elles manifestent explicitement le véritable but de la communication qui est de châtier le héros tragique. Ces recommandations semblent être réalistes et la personne cible : le roi, semble aussi être capable de les mettre en place.

1.4.1. *Les arguments susceptibles d'accentuer l'auto-efficacité*

Girandola affirme que le fait d'apporter des éléments pour conforter l'auto-efficacité est important pour les conditions de réussite du message préventif.

De sa part, en se référant à des termes rappelant le pouvoir du roi, Chimène met l'accent sur la capacité de celui-ci d'appliquer les recommandations proposées. Elle procède ainsi du registre laudatif pour révéler sa confiance en la capacité du roi de mettre en place les recommandations proposées pour faire face à la menace « le plus juste des rois » ; le superlatif exagéré montre la volonté des protagonistes de faire apparaître au roi qu'ils ont une grande confiance en lui et de l'encourager à prendre une attitude conformément à leur recommandation.

¹⁸ Witte, K., & Allen, M. «A meta-analysis of fear appeals: implications for effective public campaigns.», 2000, pp.591-615

¹⁹ Bandura. «Self-Efficacy: toward a Unifying Theory of Behavioral Change»A.1977, pp.191-215

¹⁷ Biet, Ch. *La tragédie*, 1997, p.117

Leur message préventif contient aussi des inférences du règne du roi « votre puissance, votre cour, votre couronne, votre grandeur » pour augmenter chez le roi le sentiment de la capacité d'appliquer la recommandation.

Conclusion

Après avoir essayé d'analyser les stratégies de l'éveil de la peur, nous déduisons que même si la menace apparaît forte, elle pourrait ne pas produire de la peur, mais les arguments dont les personnages procèdent et les images qu'ils présentent contribuent à capter l'attention de l'auditoire et mener la stratégie de l'appel à la peur au succès. Nous remarquons aussi que le message préventif est soigneusement présenté de telle sorte que la réflexion de l'interlocuteur s'articule autour de la

menace, ce qui entraîne l'efficacité perçue des recommandations, sans négliger le fait que persuader l'interlocuteur de l'importance de la menace s'appuie sur la nécessité de donner confiance à l'interlocuteur en sa propre capacité à suivre les recommandations (auto-efficacité). Le sentiment d'auto-efficacité n'est donc qu'une donnée clé de la persuasion. Enfin, les résultats de la persuasion marquent que les objectifs de la communication atteignent leur apogée lorsque les degrés de menace, d'efficacité des recommandations, et d'auto-efficacité sont à leur plus hauts niveaux.

Références bibliographiques

- BANDURA, A. (1977) «Self-Efficacy: toward a Unifying Theory of Behavioral Change». *Psychological Review*, 84, pp.191-215.
- BIET, Ch. (1997), *La tragédie*, Paris, Armand Colin/Masson.
- CORNEILLE, P. (1980), *Le Cid*, Paris, Bordas.
- COURBET, D., (1990), *Puissance de la Télévision, Stratégies de communication et influence des marques*, Préface de J.N. Kapferer, Paris, L'Harmattan, p.244.
- COURBET, D., D. PRIOLO et I. MILHABET. (2001), « Communication persuasive et santé publique : effets de la vivacité et de la répétition des messages sur l'optimisme comparatif et sur l'intention comportementale », *Revue internationale de psychologie sociale*, 14(4), pp.163-175.
- GIRANDOLA, F. (2000), « Peur et persuasion : présentations des recherches et d'une nouvelle lecture (1953-1998) ». *L'année Psychologique*, 100, pp.333-376.
- HOVLAND et AL., (1953), « *Communication and persuasion* », *Psychological studies of opinion change*. Yale University Press.
- LEVENTHAL, H. (1970) « Findings and theory in the study of fear communications », dans L. BERKOWITZ (dir.), *Advances in Experimental Social Psychology*, New York, Academic Press, vol. 6, pp. 119-186.
- PAVIC, G. (2011), « Utilisation de la peur en prévention », CIRDD Bretagne, Rennes (<http://www.cirdd-bretagne.fr>) page consultée le 9/8/2018, p.3
- WITTE, K., & ALLEN, M. (2000), «A meta-analysis of fear appeals: implications for effective public campaigns. » *Health Education and Behavior*, 27(5), pp.591-615.

ⁱ Nous faisons recours ici à des modèles visant à étudier le rôle de l'éveil de la peur dans la persuasion : « le modèle hiérarchisé de la motivation à se protéger » (Tanner, Hunt et Eppright, 1991), « le modèle par étape du traitement de l'éveil de la peur » (Das, E.H., De Wit, J.B.F., & Stroebe, W, 2003), « le modèle étendu des processus parallèles » (Witte, 1998)

WITTE, K. «Fear as motivator, fear as inhibitor: using the extended parallel model to explain fear appeal successes and failures». In P.A. Andersen., & L.K. Guerrero (Eds.), *Handbook of communication and emotion: research, theory, applications, and contexts*. San Diego: Academic Press. 1998, pp. 423-450

Das, E.H., De Wit, J.B.F., & Stroebe, W. «Fear Appeals Motivate Acceptance of Action Recommendations Evidence for a Positive Bias» in *the Processing of Persuasive Messages. Personality and Social Psychology Bulletin*, 2003, 29(5), 650-664.

Tanner J.F., Hunt J.B. et Eppright D.R. «The protection motivation model: A normative model of fear appeals», *The Journal of Marketing*, 1991, 55, 3, 36-45.

ⁱⁱ Cette référence est mentionnée dans (GIRANDOLA, F. (2000), « Peur et persuasion : présentations des recherches et d'une nouvelle lecture (1953-1998) ». *L'année Psychologique*, 100,333-376.) sans citer le numéro de page.

Le ludique dans l'enseignement/apprentissage du Français Langue Etrangère au cycle primaire algérien

*The ludicactivitiesin teaching/learning of French as a foreign language in the Algerian
primaryschools*

Date de réception : 2018-12-31

Date d'acceptation : 2019-12-18

Sofiane Harrache, Université Kasdi Merbah Ouargla

harrache.sofiane@yahoo.fr

Résumé

Cet article rend compte de l'intégration du ludique en classe de langue au cycle primaire algérien ; il se propose de situer l'introduction des activités ludiques du point de vue des perspectives pour la classe de FLE. Une enquête par questionnaire a été menée afin de mettre en exergue les représentations qui ont cours chez les enseignants de français du cycle primaire. Nous nous sommes penchés, à partir de l'analyse des données recueillies, sur la variété des supports ludiques préférés, les fréquences d'utilisation, les conditions et les moments opportuns pour le recours aux activités ludiques. Nous avons relevé les intérêts, les difficultés ainsi que les limites de l'intégration des activités ludiques dans notre contexte d'enseignement/apprentissage du français.

Mots-clés : Activité ludique, jeux, représentations, créativité, approche par compétences.

Abstract

This article reports on the integration of fun activities into language classes in the Algerian primary schools; it suggests to situate the introduction of fun activities in the context of French as a Foreign Language classroom. A questionnaire was conducted to highlight the representations of French primary school teachers. Based on an analysis of French teachers' statements, we examined the variety of favorite games, the frequency of use, the conditions and opportune moments for their use. We have identified the interests, the difficulties as well as the limits of the integration of fun activities in our French teaching / learning context.

Mots-clés: Fun activity, games, representations, creativity, competency-based approach.

الملخص

هذا المقال يهتمّ بإدماج اللعب في قسم اللغة في الطور الابتدائي الجزائري. إنه يخصّ إدماج اللعب من وجهة نظر تطلّعات قسم اللغة الفرنسية. تمّ هذا التحقيق عن طريق استجواب كتابي من أجل حصر تصوّرات أساتذة اللغة الفرنسية في الطور الابتدائي. تطرّقنا في تحليل المعطيات المتحصّل عليها إلى تنوع الوسائل المختارة ، وإلى درجات الاستعمال وإلى الظروف ، والأوقات الملائمة لإدراج أنشطة اللعب. كما بيّنا فوائد وصعوبات وحدود إدراج هذه الأنشطة.

الكلمات المفتاح: نشاط ترفيهي ، لعب ، تصوّر ، إبداعية ، مقارنة بالكفاءات.

Introduction

L'objet de cet article est de chercher à appréhender ce qui peut faire du ludique une activité d'apprentissage non négligeable dans l'enseignement/apprentissage du FLE au cycle primaire algérien. Tout en privilégiant des perspectives transdisciplinaires, cette recherche esquisse des pistes de réflexion et d'action quant à la place que le ludique occupe en regard des nouvelles approches en didactique et des exigences pédagogiques, et notamment de l'approche par compétences prônée comme cadre privilégié dans l'enseignement/apprentissage des langues en Algérie.

Cette recherche constitue un véritable défi didactique et pédagogique pour la conception, l'élaboration et l'exploitation des activités ludiques en classe de langue. Elle s'efforce de donner une vue générale des connaissances actuelles en matière d'exploitation du jeu et des modalités pédagogiques de mise en œuvre. Dans ce sens, notre travail s'est orienté vers l'exploration des perceptions qu'ont les enseignants du cycle primaire de l'intégration des outils et pratiques ludiques dans l'enseignement/apprentissage du FLE. Nous tenons à analyser et à interpréter les données recueillies à partir des questionnaires adressés aux enseignants afin de mettre en lumière les principaux apports et enjeux didactiques et pédagogiques associés à une telle exploitation, et de saisir l'ensemble des difficultés rencontrées et des solutions envisageables lors du recours aux activités ludiques.

Notre questionnement central est le suivant : quelles perceptions les enseignants du cycle primaire algérien ont-ils de l'intégration du ludique en classe de langue ?

Cet article vise à analyser et à interroger les représentations des enseignants concernant l'intégration du ludique en classe de langue et les rôles que pourraient jouer ces activités et pratiques ludiques dans les processus cognitifs, dans les mécanismes d'apprentissage et dans le

développement des compétences disciplinaires et transversales des apprenants.

1. Réflexions sur l'exploitation pédagogique du ludique en classe de langue

C'est au début des années quatre-vingts, avec le développement des approches communicatives, que le ludique commence à se tailler une place dans les méthodes d'enseignement du FLE. Néanmoins, peu de chercheurs en didactique des langues se sont penchés sur le rôle pédagogique et la valeur éducative des activités ludiques en classe de langue ; et comme le remarque Haydée Silva, « depuis que la didactique des langues s'est constituée en discipline à part entière, le jeu a fait l'objet de très peu d'études spécifiques »¹.

La légitimité du jeu en classe de langue repose sur sa contribution à renforcer l'apprentissage et à développer les connaissances linguistiques et encyclopédiques de l'apprenant. Haydée Silva reconnaît le bien-fondé de l'usage du ludique en classe de langue ; pour elle :

« Il ne fait aucun doute que sa malléabilité, la diversité de ses manifestations, la richesse de ses contenus et de ses mécanismes, la diversité des aptitudes et des compétences mises en œuvre et sa capacité à tendre des passerelles entre les cultures sont de précieux atouts à exploiter durant le processus d'enseignement et d'apprentissage d'une langue étrangère »².

Le ludique est appréhendé à l'école comme un outil utile pour l'apprentissage d'une langue étrangère.

1.1. Ludique, outil d'apprentissage en classe de langue

Le ludique constitue un cadre social dans lequel l'enfant fait ses premiers apprentissages ; il est un mode d'expression du jeune enfant et un facteur de son développement ; Grellet précise que « ce n'est pas facile de comprendre le monde pour un petit enfant ; c'est par le jeu qu'il tente d'en résoudre les énigmes et de s'y adapter »³. Un tel

outil s'avère bénéfique et constructif, car il est conçu comme « une anticipation de l'exercice scolaire ». ⁴ A l'école, il est considéré comme un instrument favorisant l'appropriation des savoirs et des savoir-faire requis au terme d'une séquence ou d'une année. Il permet d'exercer la créativité et l'imagination, et contribue à la mise en place des apprentissages en augmentant les capacités d'écoute, de mémorisation et d'adaptation des apprenants.

Pour l'apprenant, le plaisir d'apprendre réside, sans limites de temps ni d'espace, dans l'intensité du moment consacré au jeu et dans les fantasmes magiques et irréels ; sur ce point, J.-M. Louis semble rejoindre cette vision en disant :

« C'est pour lui une stimulation intellectuelle en même temps qu'une stabilisation de son système nerveux. Moyen de connaissance, source d'équilibre psychique et comportementale, le jeu est également espace de liberté : expansion de soi, connaissance de soi en sont ses grandes vertus » ⁵.

Tout en jouant, l'apprenant défend sa volonté de jouir de l'instant présent tout en rêvant d'éternité pour immortaliser l'instant de son amour inconditionnel pour l'apprentissage des langues et pour le monde merveilleux et instinctif.

En matière de motivation, le ludique est l'un des moyens permettant d'éveiller la curiosité de l'apprenant à apprendre une langue étrangère. Dans une activité ludique, la langue devient pour l'apprenant un outil pour parvenir à ses fins ; il se sent impliqué et s'investit davantage dans les cours de langue. Jean Vial tente d'identifier les raisons qui poussent les apprenants à jouer en disant :

« Le goût du risque à affronter, de l'obsession à surmonter, de la chose à maîtriser, de l'action à exploiter, de l'autre à vaincre, voilà autant de motifs qui poussent au jeu – et le groupe n'est pas étranger à cette tentation » ⁶.

C'est en jouant que les apprenants apprennent à communiquer ; le ludique rend la tâche plus passionnante et moins contraignante.

1.2. Enjeux de l'exploitation des activités ludiques en classe de langue

Par le jeu, l'enfant peut se libérer du monde des adultes, des exigences et des contraintes de temps et d'espace pour créer un monde d'utopie. Il se laisse tromper sans condition ; il se laisse guider par son enthousiasme, par ses intuitions imaginaires et par son goût pour l'action. L'imagination est le véhicule privilégié ; selon Château, « le jeu, lorsqu'il parvient à se réaliser pleinement, coupe donc tous liens entre le domaine ludique et l'univers » ⁷. Il s'agit pour l'apprenant d'accéder à une liberté d'agir, de penser et de se mouvoir à son gré. Cette liberté d'action est largement liée à des facteurs psychologiques, sociaux, environnementaux et culturels. Le jeu est un espace de liberté, d'échange et de remise en question ; c'est un moment de réflexion et de partage d'idées entre les apprenants.

Le ludique est une activité où le joueur accepte le risque de subir des épreuves ; c'est un univers où le jeune apprenant est libre de prendre des décisions et d'ajuster ses stratégies. Toute activité ludique comprend des choix et des prises de décisions ; l'enfant « oblige, agence et ordonne ; il est le maître du monde, de ce monde bien à lui qu'il apprivoise un peu plus à chaque jour » ⁸. Le désir de réussir conditionne aussi les décisions prises par les joueurs. Le sentiment de liberté dépend peut-être de la décision de jouer, mais aussi de la décision de continuer à jouer.

Le joueur est conduit par sa volonté d'innover ; il impose ses lois, les modifie, les respecte et il se livre, sans entraves, à la fantaisie libre et créatrice. Tout son art consiste à résoudre des situations problèmes par les fantaisies les plus joyeuses, sans oublier l'humour le plus lucide en donnant libre cours à son imagination, à sa virtuosité et à son sens de théâtre ; et comme le signale Nicole Décuré :

« Les jeux contribuent à créer des contextes à l'intérieur desquels les langues prennent sens et utilité. Comme on veut jouer, et gagner, on doit aussi comprendre et s'exprimer. L'expérience se

personnalise (et cela est encore plus vrai dans les jeux de rôles) et donc se mémorise mieux car la personne est impliquée »⁹.

Comme dans toute situation de vie, les contextes ludiques supposent un engagement personnel et permettent à l'apprenant de se construire en tant que sujet.

Il s'agit d'une activité par laquelle un enseignant fait progresser un apprenant dans le but de développer ses compétences dans un espace dynamique et interactif tout en lui apprenant à maîtriser son milieu. Jouer, c'est participer à un mouvement de co-construction des connaissances et des savoirs car comme le souligne De Grandemont :

« Ceux qui ont vu des enfants ou des élèves jouer savent combien ils prennent leur tâche au sérieux, à tel point que le pédagogue doit intervenir pour diminuer la pression qu'ils mettent d'eux-mêmes »¹⁰.

De plus, le ludique, outil éducatif indispensable, permet aux intervenants de prendre en compte les besoins fondamentaux de l'apprenant en l'amenant à développer ses facultés intellectuelles.

Les activités ludiques s'avèrent un moteur puissant pour développer chez l'apprenant des habilités cognitives de niveau supérieur : prise de décision, résolution de problème, auto et co-évaluation, esprit critique et raisonnement en les exerçant. Ces univers ludiques permettent à l'apprenant de comprendre le monde qui l'entoure, de se construire en agissant et de structurer sa personnalité, car comme le note Ryngaert :

« L'enseigné garde le pouvoir de maîtriser le temps, d'arrêter une situation qu'il ne se sent pas prêt à poursuivre ; il a le droit de revenir en arrière s'il estime qu'il n'a pas eu le temps d'assimiler la phase précédente »¹¹.

En fait, la démarche ludique privilégie le génie créatif et le plaisir d'apprendre contre l'idéologie de l'apprentissage dans la souffrance.

1.3. Rôles et intérêts des activités Ludiques sur le plan didactique et pédagogique

Sur le plan pédagogique, l'activité ludique est une partie intégrante de la vie des enfants. Cette activité constitue un outil qui donne à l'enseignant la possibilité de diversifier les démarches et les situations de communication en encourageant la prise de parole et l'interaction entre les apprenants. En parlant de l'activité ludique, Cuq affirme :

« Orientée vers un objectif d'apprentissage, elle permet aux apprenants d'utiliser de façon collaborative et créative l'ensemble de leurs ressources verbales et communicatives »¹².

Il est certain, par ailleurs, que si le ludique représente une situation problème proche du réel, il favorise une communication et un usage efficace de la langue et permet également aux apprenants de développer des stratégies facilement transférables et des compétences transposables à d'autres situations sociales.

Les chercheurs en didactique suggèrent que le ludique se présente comme une situation d'intégration par excellence, car il permet la création d'un contexte réel dans lequel l'apprenant, acteur de son apprentissage, s'engage à développer des stratégies et des procédures en faisant appel à ses connaissances et à ses ressources pour résoudre des problèmes. Selon Weiss, l'objectif de l'introduction des activités ludiques « réside dans l'acquisition progressive d'une compétence de communication à partir des attentes, des motivations, des besoins des apprenants »¹³. Les contextes ludiques exigent l'implication directe et réelle de l'apprenant.

La réussite d'un apprentissage progressif de la langue dépend de la mobilisation cognitive due à l'habitude d'assimiler de nouvelles connaissances ; le ludique y participe en faisant progresser les apprenants sur le chemin de l'autonomie, car comme le souligne Eve –marie Rollinat-levasseur :

« Ces activités impliquent l'apprenant en tant que personne dotée d'un corps et non pas seulement comme locuteur : elles considèrent ainsi que parler

une langue étrangère n'est pas seulement prononcer une suite de mots ou de phrases mais suppose que la parole soit incarnée »¹⁴.

En d'autres termes, le développement de l'activité et de la flexibilité cognitive peut se concrétiser par l'exploitation des activités ludiques.

Dans un contexte pédagogique, le ludique constitue par ailleurs une activité d'apprentissage permettant à un enseignant averti de favoriser la création d'un environnement adéquat où les besoins de chaque apprenant pourront être pris en compte. Selon Nicole Décuré, il revient à l'enseignant de créer cette atmosphère ludique afin de rendre l'apprentissage du français une source de plaisir ; pour lui :

« Le jeu n'est pas une activité périphérique dans une classe de langue. Il doit être central. C'est une tâche communicative qui met l'apprenante en situation de communication. S'il sert rarement à la présentation, il peut servir constamment pour la pratique et le renforcement (acquisition des structures et du vocabulaire, création d'automatismes) »¹⁵.

En proposant des supports ludiques, cela permet la création des situations de parole variées en donnant à chacun l'occasion de s'exprimer.

Le rapport au savoir et l'envie d'apprendre sont autant d'ingrédients essentiels au succès et au développement des compétences de communication des apprenants. Le ludique permet aux apprenants, d'une part, d'aborder de nouvelles notions et d'associer les mots ; d'autre part, il permet de fixer le vocabulaire tout en privilégiant l'emploi correct de la langue. En parlant du rôle des activités ludiques, Cuq affirme que :

« Elles permettent souvent d'instaurer une progression (lettre, phonème, mot, phrase, paragraphe, texte), d'aborder différents domaines (grammaire, lexicale, etc.), d'intégrer la dimension plaisir dans l'apprentissage, en particulier dans la pratique de l'écrit, et, surtout, de sensibiliser aux possibilités infinies de la langue et de mettre en

valeur des aspects particulièrement importants comme la connotation ou la polysémie des mots »¹⁶.

Le ludique constitue un moyen de remédiation ; il rend les apprentissages plus vivants et plus concrets tout en palliant le manque de vocabulaire. L'apprenant développe progressivement de nombreuses stratégies en passant du concret à l'abstrait et construit les premiers concepts par la découverte de nouvelles situations problèmes.

2. Représentations des enseignants à propos de l'intégration du ludique en classe de FLÉ

Notre objectif est d'établir un état des lieux des pratiques ludiques en classe de langue en examinant la manière dont les enseignants de français du cycle primaire algérien conçoivent l'intégration de ces activités en classe de langue. Notre analyse des données recueillies auprès d'enseignants s'organise autour de trois pôles. D'abord, nous essayons de déterminer les fréquences d'utilisation, les conditions et les moments opportuns pour le recours aux activités ludiques. Ensuite, nous nous efforçons d'identifier la variété des activités et supports ludiques utilisés. Enfin, nous soulignons l'apport de ces activités et nous expliquons les difficultés rencontrées et les solutions à envisager lors de chaque utilisation.

2.1. Présentation de l'échantillon enquêté

Notre échantillon est constitué de 75 enseignants de français exerçant dans des écoles primaires. Nous avons opté pour un échantillon suffisamment représentatif et vaste afin de nous permettre d'affirmer les résultats obtenus et de garantir leur fiabilité. En d'autres termes, afin de pouvoir généraliser par la suite les résultats de l'enquête, l'échantillon a été construit de manière à comporter un nombre suffisant d'enseignants répartis dans différentes circonscriptions et régions de la wilaya de Sétif.

D'après notre enquête, il apparaît que la moitié des enseignants interrogés ont reçu une formation initiale à l'université et leur expérience moyenne d'enseignement varie entre deux ans et

vingt-cinq ans. Nous constatons aussi une surreprésentation des femmes par rapport à l'ensemble des enseignants. Tous ont actuellement en charge trois à quatre groupes.

2.2. Instrument d'enquête : questionnaire

En ce qui concerne l'enquête réalisée, un questionnaire de huit questions se rapportant essentiellement à l'intégration du ludique en classe de langue a été rempli par 75 enquêtés. Avec l'accord des inspecteurs chargés des différentes circonscriptions, nous avons pu distribuer les questionnaires. Après deux semaines, nous avons pu recueillir les questionnaires remplis.

Pour élaborer notre questionnaire, nous avons opté pour des questions de différentes formes afin de voir les choix didactiques et pédagogiques que les enseignants de français opèrent dans la conception et l'intégration des activités ludiques en classe de langue. Le questionnaire était articulé autour de trois parties. La première concernait les fréquences d'utilisation, les types de supports et les moments d'introduction. La deuxième partie a traité aux apports et avantages attribués au ludique. La troisième section portait sur les difficultés et les solutions à envisager.

2.3. Description et analyse des résultats

Les résultats et les données collectées des questionnaires distribués aux enseignants sont présentés dans des tableaux contenant des pourcentages suivis par des commentaires. Nous essayons d'analyser les données afin d'appréhender les actions et les choix pris à plusieurs niveaux.

2.3.1. Fréquence d'utilisation, moments opportuns et type d'activités ludiques proposées

L'objectif visé est de mettre en lumière les fréquences d'utilisation, les moments opportuns, les choix et les préférences des enseignants.

Question N°01 : Utilisez-vous les activités ludiques au cours de vos pratiques pédagogiques ?

Nous avons proposé aux enseignants de choisir une ou plusieurs réponses parmi les propositions avancées.

Réponses	Nombre d'enseignants	Pourcentage
Jamais	10	13.33 %
Parfois	48	64.00 %
Souvent	14	18.66 %
Très souvent	03	4.00 %
Total des enseignants interrogés	75	100 %

Tableau N°01 : Fréquence d'utilisation des activités ludiques chez les enseignants du primaire

La lecture du tableau nous permet de remarquer que, sur 75 enseignants, 48 soit 64 % recourent parfois aux activités ludiques. Ces enseignants demeurent sceptiques et redoutent l'inconnu et le changement du modèle pédagogique traditionnel ; ils ne sont pas prêts à s'éloigner du manuel et à renoncer à leurs rôles d'enseignants dominateurs ; ils manifestent de sérieuses réticences à l'égard des activités ludiques. Selon eux, proposer d'autres activités ludiques ne permet pas de terminer le programme.

Il est à noter que, sur 75 enseignants, 14 soit 18.66 % exploitent souvent les activités ludiques. Ces praticiens éprouvent du plaisir à introduire ces activités dans leurs pratiques pédagogiques, car une découverte progressive du ludique facilite chez l'enfant l'apprentissage d'autres langues.

Dix enseignants soit 13.33 % hésitent encore et n'utilisent jamais les activités ludiques au cours de leurs pratiques pédagogiques ; ils perçoivent l'exploitation des jeux en classe comme un manque de sérieux.

Le taux d'introduction des activités ludiques en classe de FLE varie selon les pratiques des enseignants. Le nombre d'enseignants qui recourent très souvent aux jeux dans leurs pratiques pédagogiques représente 4 % des enseignants interrogés.

Question N°2 : Quels sont les différents types de supports que vous privilégiez le plus ?

Réponses	Nombre d'enseignants	Pourcent age
Bandes dessinées/saynètes à jouer	14	18.66 %
Jeux de rôle	13	17.33 %
Poèmes / chansons/ comptines	13	17.33 %
Ateliers de lecture /ateliers d'écriture	10	13.33 %
Textes à caractère ludique	09	12.00 %
Fiches /panneaux/ cartes/ photos/ objets	09	12.00 %
Documents audiovisuels	04	05.33 %
Autres	02	02.66 %
Total des enseignants interrogés	75	100 %

Tableau N°02: Supports ludiques utilisés

Commentaire

Nous avons posé cette question afin de connaître les différents types de jeux pratiqués en classe de langue. Le tableau 02 montre que la majorité des enseignants (40 enseignants soit 53.33 %) apprécie les bandes dessinées, les jeux de rôle et les comptines avec la même fréquence (18.66 %, 17.33% et 17.33%). Ces enseignants se trouvent plus à l'aise pendant l'animation. Cela est dû aux préférences des apprenants qui se trouvent à leur tour plus motivés.

Sur 75 enseignants, 10 soit 13.33 % ont choisi les ateliers de lecture et les ateliers d'écriture. Neuf enseignants soit 12.00 % privilégient les textes à caractère ludique. Le même nombre d'enseignants soit 12.00 % a indiqué que les supports et les activités les plus exploités sont les fiches, les panneaux, les cartes, les photos et les objets. Par contre, 04 enseignants seulement préfèrent exploiter les documents audiovisuels dans leurs pratiques pédagogiques. Dans la catégorie « autres », 02

enseignants soit 02.66 % ont indiqué « les jeux de mots, les devinettes et les charades ».

Question N° 03 : Quels sont les moments privilégiés pour le recours aux activités ludiques ?

Réponses	Nombre d'enseignants	Pourcentage
Au cours de la leçon	46	.33 %61
À n'importe quel moment	20	.66 %26
Autres	04	.33 %05
Pas de réponse	06	.00 %08
Total des enseignants interrogés	75	%100

Tableau N°03 : Moments d'introduction des activités ludiques

Commentaire

Les données de ce tableau présentent les résultats relatifs aux opinions des enseignants sur les moments opportuns pour l'exploitation des activités ludiques. Sur 75 enseignants, 46 pensent que les activités ludiques doivent être introduites au cours de la leçon ; ils estiment que ces activités peuvent faire l'objet de la leçon elle-même. Pour eux, le support ludique permet, de par sa nature et sa richesse, de travailler les différentes compétences que sont l'expression orale et écrite, et la compréhension de l'écrit et de l'oral tout en permettant aux apprenants de fixer leurs acquis et de mémoriser les structures lexicales et grammaticales. Vingt enseignants soit 26.66 % estiment que l'introduction des activités ludiques peut se faire à n'importe quel moment du cours. Pour ces enseignants, il existe une grande variété de supports ludiques, ce qui permet à l'enseignant de choisir, en fonction de ses objectifs, l'activité qui lui convient le mieux. Pour 04 enseignants, l'enseignant de langue peut recourir aux activités ludiques à chaque fois que le besoin se fait sentir. Selon eux, ces activités exigent d'être utilisées à bon escient, c'est-à-dire en fonction des objectifs fixés, des rythmes d'apprentissage des apprenants et de la visée poursuivie : ludique, didactique ou pédagogique.

2.3.2. Apports et avantages attribués aux activités ludiques dans le processus d'enseignement/apprentissage d'une langue

Dans cette section, nous tenons à mettre au clair les apports des activités ludiques dans le processus d'apprentissage et dans l'acquisition et le développement des stratégies d'apprentissage liées aux compétences disciplinaires et transversales des apprenants.

Question N° 04 : Dans quelle mesure l'outil ludique fournit-il un cadre authentique en situation d'apprentissage des langues vivantes permettant le développement des compétences communicatives ?

Les enseignants insistent fortement sur le rôle que pourrait jouer l'outil ludique dans les processus cognitifs comme dans les mécanismes d'apprentissage. Pour eux, le ludique entraîne une perturbation dans les représentations des apprenants en ce qui concerne l'apprentissage du français et mobilise souvent le groupe classe. Ils estiment que l'intérêt des apprenants dépend du choix des documents ludiques. Par conséquent, l'enseignant peut opter pour des activités et des supports dont les significations sont évidentes et présentes afin de permettre aux apprenants de mobiliser leur potentiel imaginaire et de construire leur savoir tout en découvrant des aspects et des éléments culturels.

Selon les déclarations des enseignantes, le choix du support joue un rôle déterminant dans le processus d'apprentissage. Les enseignants reconnaissent la nécessité de proposer aux apprenants des supports variés, séduisants et polyvalents afin de diversifier les situations d'apprentissage. Ainsi, ils accordent une importance notable à la diversification des modalités de travail afin d'ouvrir de nouvelles perspectives d'apprentissage et de stimuler les capacités de compréhension et d'expression des apprenants en les plaçant dans des situations problèmes contextualisées qui ont du sens à leurs yeux. Ils trouvent dans la démarche ludique une manière de tenir compte des relations entre l'émotion, la cognition et l'action des apprenants en classe de

langue. Pour eux, le ludique met les apprenants au défi d'apprendre à oser apprendre et communiquer.

Question N° 05 : Quels sont les avantages qui peuvent être attribués plus spécifiquement au jeu au sein de la classe de langue ?

Réponses	Nombre d'enseignants	Pourcentage
Qui procure du plaisir	27	36 %
Activité non contraignante	22	29.33 %
Présenter la langue dans un contexte	13	17.33 %
Développer l'imagination et la créativité des apprenants	11	14.66 %
Autres	3	04 %
Total des enseignants interrogés	75	100 %

Tableau N°04 : Apports des activités ludiques

Commentaire

En lisant le tableau relatif aux représentations des enseignants sur l'apport des jeux concernant l'apprentissage du français, l'on remarque que sur 75 enseignants, 27 affirment que le jeu est une activité qui peut dynamiser le groupe un peu engourdi en donnant la parole aux apprenants les plus timides. Les enseignants affirment que les élèves, dans leur majorité, s'intéressent aux jeux. Pour eux, l'utilité de l'intégration du ludique en classe de langue est de maintenir la motivation des apprenants et de l'augmenter. En fait, la question de la motivation dans l'enseignement/apprentissage du français est importante à plus d'un titre.

À travers les données du tableau, 22 enseignants soit 29.33 % pensent que le jeu est une activité non contraignante qui valorise l'apprenant et renforce son estime de soi. Ils insistent sur le rôle non négligeable du domaine affectif dans l'acquisition des langues et mettent l'accent sur l'impact psychologique de l'activité ludique sur l'apprenant. Pour eux, les contextes ludiques permettent aux apprenants de bénéficier d'un cadre

stable, sécurisant et respectueux de leur rythme d'apprentissage.

Pour 13 enseignants, les jeux suscitent tant d'enthousiasme chez les apprenants et développent leur imagination et leur créativité. Pour eux, ces activités contribuent à plonger les apprenants dans une atmosphère de communication tout en leur permettant d'acquérir une plus grande autonomie dans un contexte pédagogique qui encourage la participation active de tous et l'implication de chacun. Nous pouvons constater que les enseignants considèrent le jeu comme une activité qui excite la curiosité de l'apprenant en faisant naître chez lui le désir de participer, de faire des choix et de négocier.

Trois enseignants soit 04 % proposent d'autres caractéristiques. Pour eux, le ludique constitue une méthode d'apprentissage du français langue étrangère, car il favorise le développement des capacités d'adaptation dans les différentes situations de communication.

Question N° 06 : Dans quelle mesure l'outil ludique peut-il favoriser l'appropriation phonétique, lexicale et grammaticale ?

Pour la majorité des enseignants interrogés, les jeux constituent un moyen de travailler, d'enrichir et d'évaluer de manière réversible et graduelle l'acquisition du vocabulaire des apprenants. Selon eux, le document ludique offre une mine inépuisable d'activités et de situations d'apprentissage variées et signifiantes permettant d'enrichir les possibilités de communication et d'expression des opinions personnelles des apprenants. Ils estiment que dans les contextes ludiques les apprenants peuvent acquérir progressivement les rudiments de la conversation et assimiler les nouvelles structures qui répondent à leurs besoins d'expression.

Ces enseignants préfèrent fournir un enseignement explicite du vocabulaire en proposant des situations ludiques qui présentent des unités lexicales reliées entre elles par diverses relations de sens. Ils pensent qu'il est utile de proposer les supports et activités ludiques afin de susciter la

motivation et l'implication des apprenants en les rendant plus actifs dans leur apprentissage d'un nouveau vocabulaire. En fait, l'investissement personnel des apprenants est considéré par les enseignants interrogés comme un facteur très important dans l'appropriation de nouveaux mots.

Dans l'esprit des enseignants, les contextes ludiques attirent l'attention des apprenants sur le contenu et non sur la forme, et facilitent l'apprentissage de nouveaux mots et leur rétention dans la mémoire active. Ils affirment que l'exploitation des activités ludiques favorise la structuration et la mémorisation des unités lexicales visées, et contribue à donner aux apprenants les moyens nécessaires de continuer leurs apprentissages au-delà des limites de la classe.

D'après les déclarations d'autres enseignants, introduire des points de grammaire dans des situations ludiques permet de faire réfléchir les apprenants sur les formes grammaticales à partir d'un corpus. De plus, ces situations ludiques servent à introduire les points de grammaire puis à les réinvestir dans des productions guidées. Ces enseignants estiment que la grammaire doit être ancrée dans une réalité textuelle et contextuelle, c'est-à-dire, placée au service de la communication. Dans ces activités, les apprenants peuvent acquérir la grammaire d'une manière très active tout en communiquant. En fait, c'est l'usage qui enseigne la grammaire d'une langue.

Pour d'autres enseignants, l'introduction des activités ludiques représente une invitation au plaisir des sons. Cela permet d'exposer les apprenants à des énoncés oraux authentiques afin développer chez eux la conscience phonétique et phonémique. Les enseignants estiment que ces activités peuvent aider à former la capacité discriminative des apprenants ; ils déclarent que les situations ludiques garantissent non seulement la réalisation correcte des phonèmes mais aussi la maîtrise de la lecture et de la compréhension en permettant aux apprenants de développer une certaine autonomie.

2.3.3. Difficultés et solutions à envisager

Les deux questions que nous soulevons portent sur les difficultés et les solutions à envisager lors du recours aux activités ludiques.

Question N° 07 : Quels sont les difficultés qui peuvent découler de l'utilisation des jeux en classe de langue ?

Cette question porte sur les difficultés auxquelles se heurtent les enseignants pendant l'élaboration et l'exploitation des activités ludiques en classe de langue.

Réponses	Nombre d'enseignants	Pourcentage
L'absence de documents proposant ce genre d'activités et leur rareté dans le manuel.	23	30.66 %
Le manque d'expérience ludique pour ce genre de pratique.	19	25.33 %
L'insécurité, le manque de sérieux et le risque de dérapage vers la langue maternelle.	13	17.33 %
Le changement de statut des participants.	10	13.33 %
Les difficultés d'ordre technique (espace, matériel, etc.)	07	9.33 %
Autres	03	4.00 %
Total des enseignants interrogés	75	100 %

Tableau N°05 : Difficultés rencontrées

Commentaire

Nous pouvons constater que tous les enseignants rencontrent des difficultés et des obstacles. Sur les 75 sujets, 23 déclarent que les difficultés les plus souvent soulevées sont liées à l'absence de ressources et livres pédagogiques proposant des critères clairs et suffisants pour une exploitation adéquate et efficace des activités ludiques en classe de langue.

Sur 75 enseignants, 19 soit 25.33 % indiquent le manque d'expérience des enseignants pour ce genre de pratiques. Ils affirment n'être pas suffisamment formés pour mettre en œuvre ce genre

d'activités ; c'est pourquoi, ils hésitent de remplacer les activités comprises dans le manuel par les activités ludiques ; ils ont du mal à remplacer les exercices structuraux peu rentables qui sont ancrés dans leurs habitudes pédagogiques même si les activités ludiques sont plus utiles et efficaces.

En d'autres termes, la réticence des enseignants à introduire des activités ludiques s'explique par le manque de formations pratiques et aux stratégies de formation des enseignants. Nous avons constaté que leur formation continue est insuffisante pour mettre en application les principes de l'approche par compétences en introduisant les activités ludiques ; par conséquent, ils ne parviennent pas à dépasser ces idées héritées des méthodologies anciennes qui ignorent le jeu. En fait, introduire des activités ludiques en classe de FLE représente un risque à courir pour un enseignant qui manque d'expérience.

Pour cette question, 13 enseignants, soit un taux de 17.33 % pensent que les apprenants peuvent ne pas prendre au sérieux ce genre d'activités ; par conséquent, ces contextes ludiques génèrent des problèmes au niveau de la gestion de la classe. De plus, ils soulèvent le problème du décalage entre le modèle pédagogique habituel et celui de l'enseignement/apprentissage du FLE dans une démarche ludique. Pour eux, ces contextes impliquent la liberté de mouvement des apprenants. Ces derniers se trouvent impliqués dans le jeu proposé. En d'autres termes, lorsque l'activité ludique est très captivante, les enseignants n'arrivent pas à maîtriser les interventions et les discussions des apprenants. Le troisième type de difficultés soulevé par les enseignants est le risque de dérapage vers la langue maternelle. Ces enseignants déclarent que les apprenants tendent à communiquer dans la langue maternelle.

D'autres enseignants (13.33%) pensent que l'introduction des jeux en classe de FLE remet en cause le statut et la place de l'enseignant envers ses apprenants et les acteurs du milieu pédagogique. Pour ces enseignants, les apprenants changent de statut. En d'autres termes, les difficultés récurrentes lors de l'exploitation des jeux en classe de FLE sont liées aux comportements des apprenants qui se

trouvent impliqués de façon personnelle et autonome.

Sur 75 enseignants, 07 supposent que le désavantage réside dans la difficulté technique de mise en œuvre. Pour eux, l'exploitation de ces activités exige des dispositifs techniques et organisationnels ; ils déplorent le manque de moyens matériels. De plus, les enseignants trouvent des difficultés pour mettre en œuvre des activités ludiques pour des raisons de temps, d'espace et de surcharge des classes. Cela nous amène à dire que l'absence de moyens matériels et le manque de formation concernant les modalités de mise en œuvre des activités et pratiques ludiques ne peuvent que favoriser un statut quo dans la méthodologie en refusant tout ce qui est nouveau.

Pour 03 enseignants, le jeu entraîne une perte de temps dans la réalisation du programme et la majorité des élèves se désintéresse des activités ludiques. De plus, ils pensent que le niveau faible des apprenants est la première cause.

Question N° 08 : Quelles sont les solutions envisageables quant aux difficultés liées au contexte pédagogique et aux aspects d'ordre technique que les enseignants risquent d'avoir à affronter ?

Réponses	Nombre d'enseignants	Pourcentage
Proposition de formation pour les enseignants.	27	36 %
Procéder par étape dans la découverte du ludique.	18	24 %
Introduire des règles afin d'empêcher tout dérapage.	11	14.66 %
Offrir des moyens techniques.	07	9.33 %
Choisir des activités courtes en tenant compte des centres d'intérêt des apprenants.	06	8 %
Autres	06	8 %
Total des enseignants interrogés	75	100 %

Tableau N°06 : Solutions proposées par les enseignants

Commentaire

La lecture des données du tableau ci-dessus nous permet de constater que, sur 75 enseignants, 27

soit 36 % estiment que la programmation des journées pédagogiques sur ces thèmes peut contribuer à la formation continue des enseignants et à la valorisation de leur rôle d'enseignant. Pour eux, ces formations vont également aider les praticiens à surmonter les lacunes et à élaborer leur propre matériel ; elles ouvrent la voie à une implication pratique des enseignants en leur proposant des applications pédagogiques et ludiques. Et à cette occasion, ces praticiens peuvent en dégager les implications théoriques et didactiques, et devenir de véritables acteurs de leur pratique.

Les enseignants soulignent en outre la nécessité de se former à l'aide des blogues et des forums électroniques, et de se documenter avant d'entreprendre le domaine ludique afin d'établir une liste de jeux et de choisir dans cette liste l'activité qui correspond à la progression établie. Ils mettent en avant l'utilité d'échanger avec les collègues leurs expériences afin de concevoir et d'élaborer des outils et des activités ludiques. Pour eux, cela permet aux enseignants de perfectionner et de renouveler leurs méthodes d'intervention pédagogique tout en restant attentifs aux besoins de leurs apprenants.

Sur les 75 sujets, 18 soit 24 % proposent de travailler en procédant par étapes afin de veiller avec soin à la préparation et à la mise en œuvre de ces activités. Ils pensent que procéder par étapes peut inciter l'enseignant à s'impliquer directement dans l'élaboration des supports et des activités ludiques. La solution proposée par les enseignants au risque d'être remise en cause par les acteurs du milieu pédagogique est d'appliquer la rigueur en inscrivant la démarche ludique dans un cadre d'action pédagogique.

Pour 11 enseignants interrogés, l'enseignant doit préparer son jeu, l'insérer dans une séquence didactique et diversifier les activités ainsi que les modalités pédagogiques afin d'orienter les apprenants-joueurs et de cerner cette dynamique qui les dépasse. Afin d'empêcher tout dérapage des apprenants vers la langue maternelle, les enseignants proposent de déterminer et d'introduire les règles d'organisation et de fonctionnement tout en

interdisant l'utilisation de la langue maternelle, et tout recours à la langue maternelle, le participant sera pénalisé à l'intérieur de l'activité. De plus, la solution envisagée aux difficultés liées au changement de statut des apprenants consiste pour l'enseignant à réexpliquer le cadre structurant et les règles qui régissent le déroulement de ces activités. Ainsi, tout en modifiant sa position pédagogique, l'enseignant peut inviter ses apprenants à proposer d'autres structures et procédures ludiques culturellement acquises afin de créer une atmosphère propice au jeu.

La lecture des données du tableau permet de constater que l'intervention de l'enseignant demeure primordiale dans la mise en œuvre des pratiques ludiques et dans la maîtrise de la classe. Ces enseignants estiment que l'expérience professionnelle antérieure de l'enseignant est cruciale dans la gestion de ces nouvelles relations afin de préserver la motivation des apprenants et d'éviter toute forme de dérapage. Pour eux, proposer aux apprenants une gamme diversifiée de rôles ludiques tout en restant attentif et vigilant à leurs comportements permet à l'enseignant de créer des situations confortables et favorables à l'émergence de l'attitude ludique. Tout en encourageant l'activité organisée, l'enseignant peut donner des consignes précises afin de mieux gérer le temps, l'espace et le contexte ludique, et de maintenir un niveau d'exigence suffisant.

Sept enseignants estiment que le choix des activités est tributaire des conditions matérielles dont disposent les enseignants et les établissements. Ils pensent que l'enseignant peut inviter ses apprenants à se mettre debout et à circuler entre les sièges en fonction des besoins de l'activité. Ainsi, il peut opter pour un matériel simple et se concentrer sur le suivi pédagogique pendant le déroulement du jeu. D'après les déclarations de 06 enseignantes, il est important de choisir des supports courts en tenant compte de l'intérêt des apprenants. D'autres enseignants déclarent que la meilleure façon de procéder consiste à commencer par des activités

simples pour s'attaquer ensuite à des activités de plus en plus complexes.

Six enseignants proposent de déterminer les raisons du choix de tel jeu et d'envisager des solutions en cas d'obstacles. Cela nécessite de l'enseignant de comprendre l'utilité des pratiques ludiques et de se former continuellement afin de maîtriser les structures ludiques et de prévenir les difficultés d'apprentissage. Dans le choix des activités ludiques, les enseignants proposent de se tourner vers les apprenants pour savoir ce qu'ils attendent et de choisir des situations qui appartiennent à leur univers quotidien en tenant compte de leurs valeurs, leurs goûts et leurs attentes.

Conclusion

L'analyse des données témoigne d'un éclectisme révélateur des représentations diverses et significatives que se font les enseignants de l'introduction du ludique en classe de langue. Il ressort de cette étude que ce type d'activités est pratiquement peu présent dans les pratiques pédagogiques des enseignants de langue, que plus l'enseignant essaie de recueillir des informations théoriques et pratiques sur les supports et les activités à exploiter, plus il s'y intéresse et plus il sait en faire bon usage.

La majorité des enseignants considère l'activité ludique comme un outil didactique et pédagogique scientifiquement fondé et compatible avec les objectifs fixés au niveau du programme d'enseignement du primaire et dont l'exploitation nécessite des ajustements pour tenir compte des besoins du public. Ces enseignants sont conscients de l'importance et du rôle des pratiques et activités ludiques dans l'apprentissage de la langue française et dans la formation d'un apprenant intelligent qui sait réfléchir et qui s'exprime. Les pratiques ludiques sont perçues par les enseignants comme des outils pédagogiques servant au développement de stratégies et compétences en communication écrite et orale tout en contribuant à renforcer les compétences du *Vivre ensemble* chez les apprenants.

Nous remarquons que certains enseignants ne se limitent pas aux activités traditionnelles et supports classiques ; ils sont ouverts aux apports des outils ludiques et pratiquent un enseignement fondé sur le sens. C'est pourquoi, ils sont en quête d'autres pratiques variant les démarches de classe et diversifiant les activités et les tâches afin de satisfaire les attentes et les besoins des apprenants.

Insatisfaits des activités proposées dans les manuels de français, ces enseignants ont recours à des supports ludiques. Pour cette catégorie d'enseignants, ces activités représentent des situations d'apprentissage où les apprenants travaillent en commun tout en développant des savoirs, des savoir-faire et des attitudes. Ils pensent que l'exploitation de ces supports leur permet de sortir de leur rôle de détenteur du savoir linguistique pour aller vers le savoir partagé en acceptant de ne pas tout contrôler.

D'autres enseignants, plus conservateurs et peu convaincus par ces outils ludiques, demeurent résistants au changement et affichent une attitude légèrement favorable. Plus enclins à mettre en œuvre un enseignement traditionnel axé sur les formes linguistiques et les anciennes pratiques, ils refusent

de s'aventurer sur le terrain ludique en proposant d'autres pratiques pédagogiques. Ils ont peur de perdre du temps au détriment du programme à terminer.

Concernant les démarches pédagogiques à adopter, certains enseignants, très motivés par leur travail, préfèrent prendre du recul pour réfléchir sur leurs pratiques. Par conséquent, ils essaient d'élaborer et de créer leurs activités et leur propre matériel afin d'adapter leurs démarches à leurs groupes. Pour cette catégorie d'enseignants, ces initiatives représentent l'occasion d'enrichir sa boîte à outils et de donner libre cours à leur créativité didactique.

Tous les enseignants interrogés insistent sur l'importance de former continuellement les enseignants à l'utilisation de ces outils afin de favoriser l'apprentissage ludique des langues tout en adoptant des méthodes pédagogiques innovantes. Pour eux, programmer des séminaires et journées de formation permet aux enseignants de renouveler leurs connaissances théoriques et leurs pratiques pédagogiques, les partager, les perfectionner et de s'initier concrètement et progressivement à cet univers sans frontière qu'est le domaine ludique.

Références

1. Silva, H. (2008), *Le jeu en classe de langue*, Paris, Ed. Pierre Carpentier, p. 22
2. Silva, H., *ibid.*, p. 26
3. Grellet, C. (2000), *Jeu entre la naissance et 7 ans, Un manuel pour les ludothécaires*, Paris, Ed. Ateliers de l'UNESCO, p. 07
4. Brougère, G. (2005), *Jouer/Apprendre*, Paris, Ed. Economica, Antropos, p. 26
5. Louis J.-M. (2004), *Mon écolier est-il un enfant heureux ? L'épanouissement scolaire de 4 à 10 ans*, Paris, Ed. interEditions, p. 22
6. Vial, J. (1981), *Jeu et éducation, les ludothèques*, Paris, Ed. PUF, p.44
7. Château, J. (1985), *L'enfant et le jeu*, Paris, Ed. Scrabée, p. 25
8. De Grandmont, N. (1995), *Pédagogie du jeu, Du normal au déficient*, Coll. Théories et pratiques dans l'enseignement, Montréal, Québec, Ed. Logiques, p. 67
9. Décuré N. (1994), *Jouer ? Est-ce bien raisonnable?*. Les Langues Modernes, Association des professeurs de langues vivantes (APLV), Les jeux, pp.16-24. <halshs-01355610> p. 22
10. De Grandmont, N., *op-cit.*, p.p. 131- 132
11. Ryngaert J.-P. (1977), *Le jeu dramatique en milieu scolaire*, Paris, Ed. CEDIC, p. 35
12. Cuq, J.-P. (2003), *Dictionnaire de didactique du français langue étrangère et seconde*, Paris, Ed. CLE International, p. 160
13. Weiss F. (2002), *Jouer, communiquer, apprendre*, Paris, Ed. Hachette, p. 08
14. Alix C., Lagorgette D., Rollinat-Levasseur E-M. (2013), *Didactique du français langue étrangère par la pratique théâtrale*, Paris, Ed. Université de Savoie, p. 39
15. Décuré N., *op-cit.*, p. 16
16. Cuq J.- P. et Gruca I. (2005), *Cours de didactique du français langue étrangère et seconde*, Coll. FLE, Grenoble, Ed. PUG, p. 456

English Collocations: The Neglected Area in the EFL Classroom

Date de réception : 2019-01-12

Date d'acceptation : 2019-12-18

Afaf Djiti, University of Batna 2, a.djiti@univ-batna2.dz

Hachemi Aboubou, University of Batna 2, hachabou@Hotmail.com

Abstract

One of the most important aspects of English language teaching and learning that is not receiving considerable attention in EFL classroom is English collocation. The aim of the current study is to investigate if EFL students are aware of the concept of English collocations. The aim is also to explore teachers' attitudes towards teaching collocations in the EFL classroom. Data were collected through two questionnaires administered to Algerian first-year EFL students and teachers at the department of English, Batna 2 University. The results revealed that students are completely unaware of the concept of collocation as it is kept out of view in the language classroom. Teachers, on the other hand, consider English collocations as an important element of foreign language teaching and learning, yet they do not yield collocations their due place in EFL classroom. This, in turn, negatively impacted students' overall language performance. On the basis of the findings of this study, some recommendations are proposed to raise students' collocational awareness and use.

Key Words: English collocations; aware; teachers' attitudes; teaching collocations; language performance.

Résumé

L'un des aspects les plus importants de l'enseignement et de l'apprentissage de la langue anglaise qui ne reçoit pas une attention considérable dans la classe EFL est la collocation de l'anglais. Le but de l'étude actuelle est de vérifier si les étudiants EFL connaissent le concept de collocations anglaises. L'objectif est également d'explorer les attitudes des enseignants envers l'enseignement des collocations dans la classe EFL. Les données ont été recueillies au moyen de deux questionnaires adressés aux étudiants algériens de première année d'EFL et aux professeurs de département d'anglais de l'Université Batna 2. Les résultats ont révélé que les étudiants sont complètement inconscients du concept de collocation qui est gardé hors de vue dans la classe de langue. Les enseignants, d'autre part, considèrent les collocations anglaises comme un élément important de l'enseignement et de l'apprentissage des langues étrangères, mais ils ne leur donnent pas la place qui leur revient dans la classe EFL. Ceci, à son tour, a eu un impact négatif sur la performance linguistique globale des étudiants. Sur la base des conclusions de cette étude, certaines recommandations sont proposées pour sensibiliser les étudiants aux collocations anglaises et à leur utilisation.

Mots clés: collocations anglaises ; conscient ; attitudes des enseignants ; l'enseignement des collocations ; performance linguistique.

المخلص

تعتبر المتلازمات اللفظية أحد أهم جوانب وتعليم اللغة الإنجليزية التي لا تحظى باهتمام كبير في قسم اللغة الإنجليزية كلفة أجنبية. الهدف من الدراسة الحالية هو التحقيق فيما إذا كان طلاب اللغة الإنجليزية كلفة أجنبية على دراية بالمتلازمات اللفظية. والهدف من ذلك أيضا هو استقصاء مواقف الاساتذة اتجاه تدريس المتلازمات اللفظية في قسم اللغة الإنجليزية. تم جمع البيانات من خلال استبيانين موجّهين إلى كل من طلاب السنة الأولى لغة إنجليزية ومدرسين في قسم اللغة الإنجليزية، جامعة باتنة 2. وكشفت النتائج أن الطلاب غافلون تماما عن مفهوم المتلازمات اللفظية لأنها مغيبة في قسم اللغة. ومن ناحية أخرى، يعتبر المدرسون المتلازمات اللفظية للغة الإنجليزية عنصرا هاما في تعليم وتعلم اللغة الأجنبية، ولكنهم لا يولونها مكانها المناسب في قسم اللغة الإنجليزية كلفة أجنبية. وهذا بدوره يؤثر سلبا على أداء طلاب اللغة عموما. واستنادا إلى نتائج هذه الدراسة، تم اقتراح بعض التوصيات لزيادة وعي الطلاب بالمتلازمات اللفظية وطرق استخدامها.

الكلمات المفتاحية: المتلازمات اللفظية للغة الإنجليزية، على دراية، مواقف الاساتذة، تدريس المتلازمات اللفظية، الاداء

اللغوي.

General Introduction

Acquiring good vocabulary and using it appropriately are one of the central elements of language learning and teaching. Following Milton (2009), vocabulary is not a facultative or an unessential component of language learning; rather, it is of great importance as “words are the building block of language and without them, there is no language” (Milton, 2009, p.3).

In fact, one would be surprised to know that this recognition of the pivotal role of vocabulary in second language learning comes to the front after long neglect in classroom teaching practices. According to Lewis (1993), “lexis is the core or heart of language but in language teaching has always been the Cinderella” (p.89). Throughout all the approaches of second/ foreign language teaching, vocabulary was completely disregarded or given a secondary position. In this respect, Decarrico (2001) stated that “vocabulary acquisition could take care of itself” (p.285). Hence, there is no need to teach vocabulary as it can be assimilated in a natural way, i.e., exposing learners to the language would cause vocabulary learning.

Nevertheless, with the advancement of computer-based studies of language (Corpus linguistics) in the late 1980s, language researchers began to shift their attention towards the ultimate significance of teaching vocabulary in the language classroom. In this regard, Schmitt (2000) pointed out “evidence from large corpora shows that there is more lexical patterning than ever imagined and that much of what was previously considered grammar is actually constrained by lexical choices” (p. 14).

As a result of research in corpus linguistics, the lexical approaches to language teaching came to the fore and accentuated the valuable role of vocabulary and lexis in language teaching (Richards & Rodgers, 2001). One of the pioneers of lexical approaches who put forward the lexical approach to language teaching and learning is Lewis (1993). He indicated that the lexical approach embraces many of the tenets of the communicative approach, yet with a greater consciousness of the crucial role of

lexis in the teaching /learning process. Lewis (2008) further added that “language consists of grammaticalized lexis, not lexicalized grammar” (p.13). Putting it differently, grammar, compared to lexis, plays a secondary role in the creation of meaning. Nonetheless, this does not mean a complete rejection of grammar. Actually, it is misleading to think that grammar is not worthy of note in the lexical approach. Lewis fully clarified this idea by asserting that “grammatical knowledge permits the creative re-combination of lexis in novel and imaginative ways, but it cannot begin to be useful in that role until the learner has a sufficiently large mental lexicon to which grammatical knowledge can be applied” (Lewis, 2008, p.15).

Formulaic language or word combinations are, then, the core of language learning. A large part of language is composed of ready-made word combinations that are stocked for future retrieval and use (Wray, 2002). The use of these latter identifies the native from non-native speakers (Conklin & Schmitt, 2008).

A subsection of word combinations is collocation. Lewis (2000) opined, “The single most important kind of chunk is collocation” (p. 8). According to Sinclair (1991), collocations are “items that occur physically together or have stronger chances of being mentioned together” (p.170). Simply put, collocations refer to two or more words that tend to collocate together arbitrarily, i.e., they are not subjected to any kinds of semantic or syntactic principles.

For many linguists and vocabulary researchers, English collocations are of paramount importance in the process of language teaching and learning. According to Wray (2002) and Schmitt (2004), Collocations constitute a large part of native speakers’ linguistic knowledge. This means that the use of English collocations is more frequent in native speakers’ speech and writing. As a matter of fact, having collocational knowledge would enable EFL learners to comprehend and use the English language more effectively. Thus, conducting research on English collocations “will continue to be a central area of research for both curriculum design

and language learning theory and practice” (Nation & Webb, 2011, p.175).

Notwithstanding the undeniable significance of collocations in the teaching /learning process, still, these lexical bundles are overlooked in the EFL classroom. Actually, the roots of this problem stem from the neglect of vocabulary in the EFL classroom. As far as the department of English at Batna 2 University is concerned, vocabulary is not taught as an independent course. EFL students, for their part, lack word knowledge and more precisely collocational knowledge: the proper use of word chunks. The focus, then, according to Sinclair (1991) is on the “open-choice principle”, relying on individual words, rather than the “idiom principle” which characterizes the native speakers who depend on ready-made word combinations (pp.109-110). Consequently, EFL students face difficulties in expressing their thoughts as they do not have enough prefabricated word combinations at their elbow. Moreover, they make serious grammatical and mis-collocational errors in their language production. In this respect, Hill (2000) maintained that students who lack “collocational competence” have a propensity to produce awkward, grammatically correct or incorrect sentences in the sort of wordy sentences. Teachers, on their side, focus on over-correcting those grammatical mistakes without knowing that they are attributed to their students’ lack of collocational knowledge (p.49).

Therefore, the current study aims at investigating students’ consciousness of the concept of collocations. Furthermore, it attempts to elicit EFL teachers’ perceptions and attitudes towards teaching English collocations in the EFL classroom.

This study also seeks to provide answers to the following research questions:

- Are EFL students at Batna 2 University familiar with the concept of English collocations?
- What are EFL teachers’ perceptions of collocational instruction in the language classroom?
- To what extent are EFL teachers and students aware of the great value of collocations in foreign language learning?

The results stemming from this study may be advantageous for language teachers and learners as it would increase their awareness of English collocations, and help them to recognize the great value of English collocations in language learning. In addition, this study will provide teachers with some interesting techniques to use in the classroom for the purpose of raising their students’ familiarity with English collocations and their significance in the language classroom.

1. *Literature Review*

1.1. *Definition of Collocations*

The term collocation is derived from the Latin verb “collocare”, which means to range or put together (Martynska, 2004, p.2). Many researchers in the field of lexicography proposed distinct interpretations of the term collocation (e.g., McCarthy, 1990; Stubbs, 2001; Nesselhauf, 2005; Laufer & Woldman, 2011, etc). However, all the definitions centered around the same idea: the frequent syntagmatic association of a word with other particular words (Nesselhauf, 2005).

The first linguist who put forward this term is the British linguist Harold Palmer in 1933. In his study entitled *Second Interim Report on English Collocations*, Palmer emphasized the importance of learning collocations in a holistic manner, instead of assembling their constituent parts (as cited in Nation, 2001, p.317). Though Palmer was the very first linguist who brought up the label collocation, it is Firth (1957) who presented this latter to the arena of theoretical linguistics and became known as “Firthian” term (Nation, 2001, p.317). According to Firth (1975), “you shall know a word by the company it keeps” (p.11). This denotes that the meaning of the word depends not only on its semantic aspects but also on its connection with other items. Many other linguists elaborated more on the Firthian term. For the sake of example, McCarthy (1990) asserted that “the relationship of collocation is fundamental in the study of vocabulary; it is a marriage contract between words, and some words are more firmly married to each other than others” (p.12). In view of this, the

restricted or arbitrary aspect of collocations is highlighted in this definition. This means that not all words that are combined together are collocations (Lewis, 2008). Following McCarthy (2005), groups like *fast car*, *fast food*, *quick glance*, and *quick meal* are collocations; they sound natural and right to native speakers. However, *quick cars*, *quick food*, *fast glance*, *fast meal* are not, though *fast* and *quick* are near synonyms.

1.2. Types of English Collocations:

Specialists in lexical units have proposed a variety of categorizations of collocations. The easiest and well elaborated classification is given by Benson, Benson, and Ilson (2010) in the *BBI Combinatory Dictionary of English*. According to Benson et al. (2010), there are two types of collocations: lexical and grammatical collocations. The first category refers to the different association of nouns, adjectives, verbs, and adverbs. It encompasses seven types, as demonstrated below:

L1 Verb (implying action) + noun:
reach a verdict / make an impression

L2 Verb (indicating eradication) + noun:
quench one's thirst

L3 Adjective + noun: *a sweeping generalization/ a crushing defeat*

L4 Noun + verb:
alarms go off / blood circulates

L5 Noun + noun: *a pride of lions / a bit (piece, word) of advice*

L6 Adverb + adjective:
deeply absorbed / keenly aware

L7 Verb + adverb:
apologize humbly, appreciate sincerely

The second category, grammatical collocations, incorporates a content word (noun, verb, or an adjective) plus a preposition, clause or an infinitive. It includes eight types, as presented beneath:

G1 Noun + Preposition:
Blockade against

G2 Noun + to infinitive:

They felt a compulsion to do it.

G3 Noun + that clause:

He took an oath that he would do his duty

G4 Preposition + noun :

In advance

G5 Adjective + Preposition:

they were fond of children

G6 Adjective + to infinitive:

it was necessary to supervise them closely

G7 Adjective + that clause:

she was afraid that she would fail the examination

G8 consists of nineteen English verb patterns: (e.g., verb + preposition: *we will adhere to the plan*).

All the provided examples were adapted from *BBI Combinatory Dictionary of English* (2010, pp.19-34).

1.3. The Difference between Free Word Combinations, Idioms, and Collocations

For achieving a better comprehension of the term collocation, lexicon scholars provided a distinction between collocations and other categories of multi-word units. Conzett (2000), for instance, placed collocations in the middle between idioms and free word combinations. Idioms are fixed expressions; you cannot deduce their meaning out of the meaning of their parts. To illustrate, *throw in the towel* is an idiom which means to quit in defeat. Free word combinations, on the other hand, like *a friendly dog* or *old car* are more flexible. They combine freely with other words. Collocations, for Conzett (2000), are in the center and they are of two kinds: stronger collocations to the right such as *sibling rivalry*, *mitigating circumstances*, and weaker collocations to the left such as *strong coffee*, *heavy smoker* (p.74). This view of collocations between the two borderlines is also agreed upon by other lexicon scholars (Nattinger & DeCarrio, 1992;

McCarthy & O'Dell, 2005). From another point of view, Nation (2001) provided an extended definition of collocations and considered idiom like *to take someone in* as a collocation. Likewise, Hill (2000) viewed unique collocations (e.g., *shrug your shoulders*) as a sort of idioms (p.51). This implies that a very restricted choice of words is allowed.

1.4. *The Significance of Teaching Collocations to EFL Learners*

As a lot of linguists have called attention to the valuable importance of teaching and learning English collocations in the EFL classroom, having good knowledge and production of collocations are now regarded as increasingly fundamental areas in teaching and learning English as a foreign language. Students who know that it is correct to say *to load a gun* not *to charge the gun* and to *charge the battery* not *to load the battery* are showing what Hill (2000) referred to as "collocational competence": "we are familiar with the concept of communicative competence, but we need to add the concept of collocational competence to our thinking" (p.49). For Hill (2000), having collocational competence is indispensable for EFL students as collocations prevail the English language, i.e., 70% of spoken or written English is made up of collocations. Moreover, collocations expedite the students' thinking and improve their communicative competence. Contrary to non-native speakers, who deal with the foreign language word by word since they lack multi-word units like collocations at their disposal, native speakers process prefabricated language chunks with ease and speak fluently as "they are calling on a vast repertoire of ready-made language in their mental lexicons" (ibid., p.54).

Similarly, McCarthy and O'Dell (2005) put forward some reasons pertaining to the importance of collocations. Firstly, they help EFL students to produce natural English. For example, saying *smoking is strictly forbidden* rather than *smoking is strongly forbidden*. Secondly, collocations give the students new ways that are more vivid and precise for expressing their ideas like saying *it was bitterly cold and pitch dark* instead of *it was very cold and*

very dark. Thirdly, they enable them to improve their spoken and written English style. Saying *poverty breeds crime* in place of *poverty causes crime* or *substantial meal* in place of *big meal*. Finally, using collocations enable EFL students to avoid making errors.

It should be noted that this significance of collocations triggered linguists and lexicographers to create collocation dictionaries like the *BBI Combinatory Dictionary of English*, *Oxford Collocations Dictionary*, *MacMillan Collocations Dictionary*, *Longman Collocations Dictionary and Thesaurus*, and the like. These dictionaries provide good instances of co-occurrences of a given word with other words. Hence, the learner can learn a great deal of phrases in context. They also incorporate different types of collocations and many other useful activities to be used in the classroom so that to develop learners' knowledge and use of collocations.

1.5. *Related Studies*

Different studies discussing the benefits of learning and teaching collocations in the EFL classroom have been recently conducted although a great number of researchers and linguists highlighted their high prominence some time ago. Among these latest studies, a study carried out by Namvar (2012) who studied the Iranian EFL students' use of collocations in their writing. For this purpose, the researcher tested 15 postgraduate students through using a writing test and a multiple choice collocation test which encompassed 50 items, between lexical and grammatical collocations, chosen from the *Oxford Collocation Dictionary*. The results showed that the Iranian students' difficulties with grammatical and lexical collocations in their writing were attributed to the negative first language transfer. Besides, the findings revealed that there is a relationship between Participants' knowledge of collocations as assessed by their achievement in the collocational test and their language proficiency as assessed by the writing test marks.

Another study conducted by Gaballa and Al-Kayri (2014), investigated the productive and

receptive collocational knowledge of 68 Arab students learning English as a foreign language at Taif University. Three gap-filling tests: verb+noun, adjective+noun, verb+ preposition, were used to evaluate the participants' productive knowledge of collocations, plus the appropriate judgment test to assess their ability to determine the right collocations. The results indicated the students' poor knowledge of English collocations which, in their opinion, was related to the impact of subjects' learning environment on the acquirement of English collocations.

Teaching English collocations to develop learners' speaking fluency was another area of research that drew the researchers' attention. Sarvari, Gukani, and Khomami (2016), conducted an experimental study to examine whether or not EFL learners' speaking fluency would be improved through teaching collocations. 38 students participated in the study; they were equally split into two groups: a control group and an experimental group. The former group was taught following the traditional method of teaching lexis, whereas the latter group was exposed to collocations. An IELTS speaking task was used to assess both groups' performance. Results of t-test showed that the experimental group did far better than the control group.

Cüneyt Demir (2018), on the other hand, analyzed a hundred English language teaching research articles composed by native speakers to raise awareness of the significance of collocations, and, more particularly, to find any relation between the proper use of collocations and native fluency in academic writing. The researcher found that the concerned native speakers used a great number of collocations in their writings, and this was the key to achieving fluency in academic writing.

To conclude, the above-mentioned studies demonstrated the students' poor knowledge and difficulties with collocations and how teaching collocations in the EFL classroom raised their awareness of the importance of collocations and helped them in improving their language proficiency. Thus, more attention should be paid to

teaching and learning collocations for the benefit of language learners.

2. Methodology

2.1. Research Method

To provide responses to the posed research questions and reach the settled aims, the descriptive method was opted for in this study. The reason behind this choice is the reliance of this method on the in-depth investigation of a certain problem for getting knowledge about how to overcome and improve the current circumstance. Regarding this, Burns and Grove clearly stated that "Descriptive designs help to identify problems in current practice with a view to improve outcomes" (Burns and Grove, 2001, p. 248).

2.2. Data Collection Tool

Concerning data gathering tool, two questionnaires, one administered to students and the other to teachers, were used to obtain the needed information. This tool gives a good deal of data in a short span of time (Brown, 1998). The aim behind the students' questionnaire was to check their awareness of the collocation concept and their difficulties with word combinations. Teachers' questionnaires, on the other hand, sought to determine their perceptions of teaching English collocations in the EFL classroom. The questionnaire comprised multiple choice questions, close and open-ended questions. Data were therefore analyzed quantitatively and qualitatively.

2.3. Sample of the Study

The study was carried out at the level of the department of English language at Batna 2 University. The informants that participated were first-year EFL students and their teachers of oral and written expression. Regarding students, 60 first-year EFL students, between males and females, participated in the study. Their ages were between 18 and 27 years old. These students were randomly chosen out of 421 students so that to give every student the opportunity to be selected.

In regards to teachers, the study covered 10, between written and oral expression, teachers. All of them are full-time teachers. Their experience in teaching oral and written expression ranged from 8 to 20 years. 5 of them were teaching written expression, and the rest were teaching oral expression at the department of English. The concerned teachers were selected through purposive sampling on account of their different teaching experience and qualifications, and their readiness to voice their opinions regarding the subject matter.

2.4. Data Analysis and Discussion of Findings

2.4.1. Students' Questionnaire Analysis

Item 1: Do you think that having a good command of vocabulary is important in learning English as a foreign language?

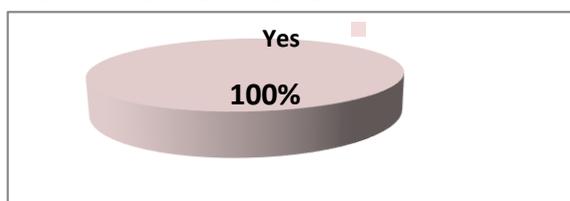


Figure N° 1: Students' Perceptions of Vocabulary

All participants (100%) considered vocabulary as an important aspect of language learning. This indicates their awareness of the significance of vocabulary. Having a good knowledge of vocabulary is very crucial in learning English as a foreign language.

Item 2: In your opinion, what does it mean to know a word?

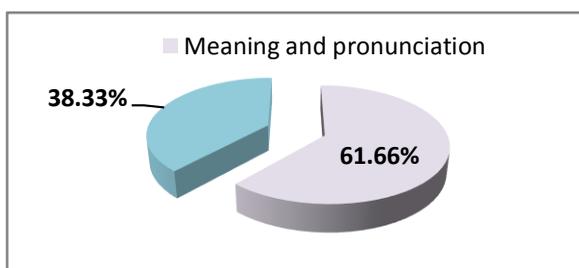


Figure N°2: Students' Word Knowledge

Regarding this question, the respondents provided the following suggestions: (61.66 %) of participants declared that to know a word is to know its meaning and pronunciation. The rest of them

(38.33%) viewed knowledge of word as knowledge of meaning only.

The students' answers to this question were between meaning and pronunciation and meaning only. This highlights the participants' very restricted view of word knowledge.

Item 3: A large vocabulary can be learned through learning and memorizing:

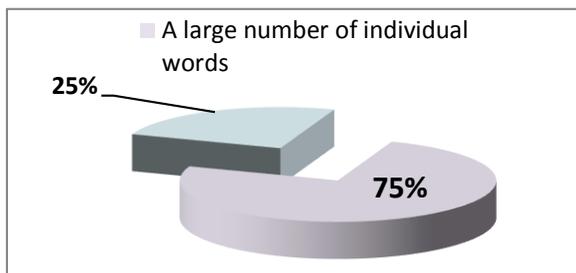


Figure N°3: Students' Strategies of Learning and Memorizing Words

The vast majority of respondents (75%) stated that large vocabulary can be learned through learning and memorizing words in isolation. After memorizing these new words in their mental lexicon, they retrieve them for subsequent use. Only (25%) of participants declared that the adequate way of learning new words is via learning and memorizing words in combinations. Unlike the first category of students, these students have the right strategy of learning a new vocabulary.

Item 4: Do you use a dictionary for looking up new words?

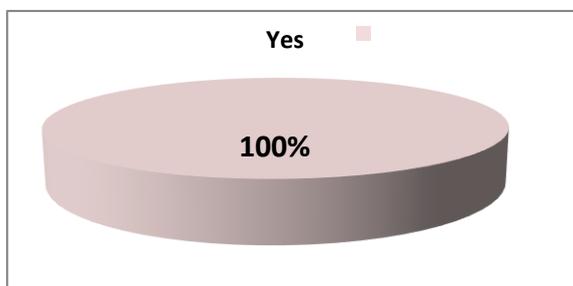


Figure N°4: Students' Reliance on a Dictionary

All the participants (100 %) confirmed that they use a dictionary to check up on new words. This is very important in learning a foreign language for it would enable them to enrich their vocabulary.

Item 5: If yes, which one do you use to help you learn new vocabulary? (If you check more than one, put them in order of importance)

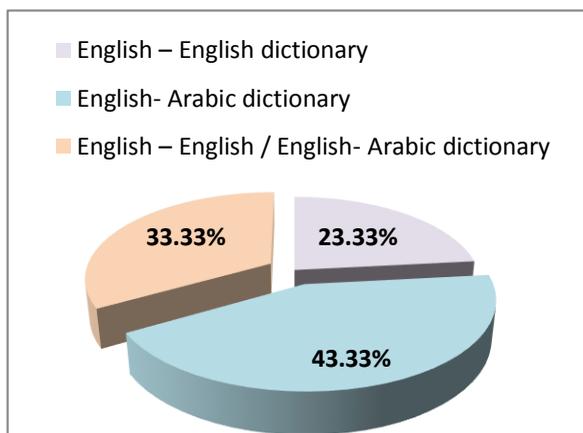


Figure N° 5: Different Dictionaries Used by Students

Reliance on monolingual or even bilingual dictionaries was students' proposals to this question. The great proportion of students (43.33 %) use English- Arabic dictionaries. This shows their total reliance on their first language to understand the target language. (33.33%) of students check, first, English – English dictionaries, and then English – Arabic dictionaries. This may indicate their misunderstanding of the target word, so they depend on English- Arabic dictionary, or they approximately get its meaning and just want to verify its equivalent in Arabic for further clarification. Only (23.33 %) of participants rely on English – English dictionaries. This denotes that they are unconsciously learning words in combinations as their meaning differs in different contexts.

Item 6: Have you ever used a collocation dictionary? (Hard copies or those available online)

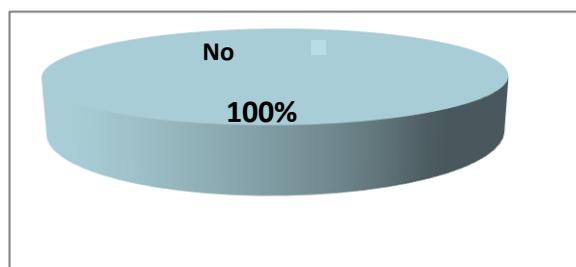


Figure N° 6: Students' use of Collocation Dictionary

All the participants (100%) reported that they have never used collocation dictionary. This shows

their unawareness of the valuable importance of checking such a dictionary.

Item 7: Regarding Collocations, do you know what is meant by the term collocation?

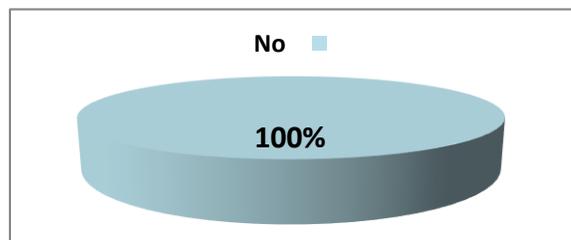


Figure N°7: Students' Familiarity with the Concept of Collocation

None of the respondents provided a yes answer to this question. All of them were not knowledgeable of what collocations are.

Item 8: When writing or speaking English, do you encounter difficulties in combining words correctly?

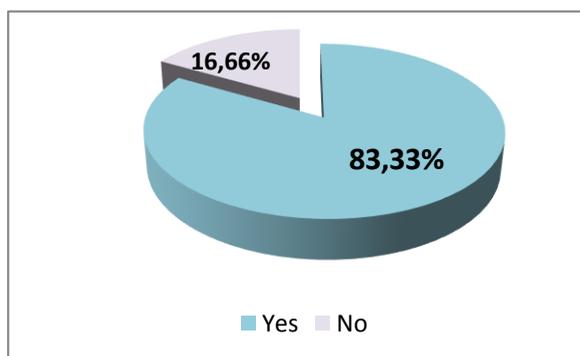


Figure N°8: Students' Difficulties with Word Combinations

The high majority of participants (83.33%) declared that they tend to miscombine words when trying to communicate their ideas while speaking or writing. This means that their vocabulary stock in terms of collocations is so scarce. Only (16.66 %) declared that they do not face such difficulties. What should be noted concerning this question is that students tend to, correctly or incorrectly, associate words together without knowing that this is labeled collocation.

Item 9: *If yes, is this because of:*

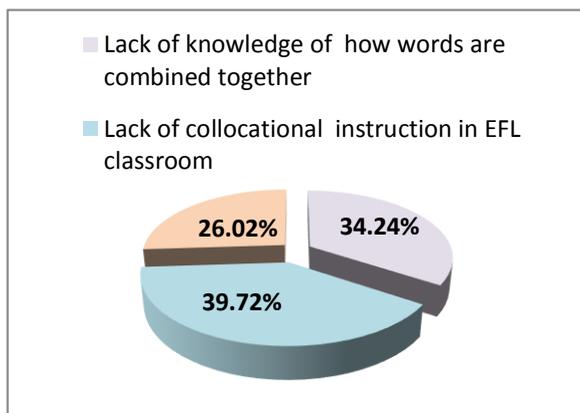


Figure N°9: Difficulties Faced when Combining Words

In answering this question, the students opted for more than one choice. (39.72%) of students declared that they have never been taught how words go hand in hand. This is because teaching English collocations in the EFL classroom is completely ignored, and this affected the way they speak and write in English. (34.24%) of respondents attributed their miscombination of words to their unawareness of how words co-occur together. This is assigned to their wrong habit of only noting individual words and not chunks of the target language. (26.02%) stated that they tend to rely on their first language when speaking or writing as they do not have ready-made word associations at their disposal, and this resulted in collocational errors. They combine English words the same way they combine Arabic words together.

2.4.2. Teachers' Questionnaire

Item 1: *Is teaching vocabulary through collocations a part of your teaching practices?*

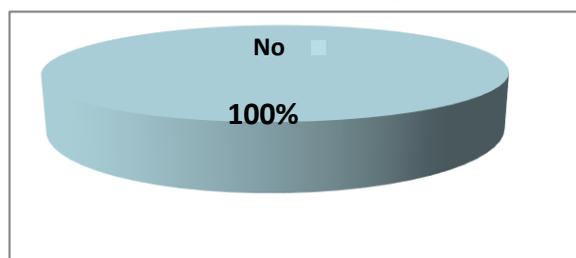


Figure N°10: Teachers' Perception of Teaching Vocabulary via Collocations

All the teachers gave no answer to this question. Teaching collocations is not receiving

teachers' attention. They are completely overlooked in the EFL classroom.

Item 2: *Do you think that having a good knowledge of English collocations is important for learning English as a foreign language?*

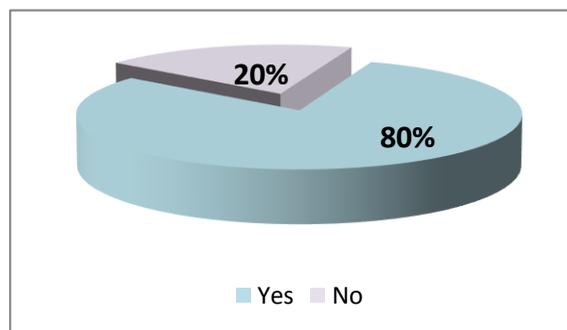


Figure N°11: Teachers' Views Regarding the Importance of English Collocations

Surprisingly, the overwhelming majority of the participant teachers (80%) considered the knowledge and correct use of English collocations as important in learning the English language though they do not raise their students' consciousness of collocations and their significance in the EFL classroom. This is confirmed through their answers to the first question. For the rest (20%) of teachers, collocations, as compared to grammar and communication skills, are less important in the language classroom. This pinpoints the concerned teachers' unawareness of the contribution of collocational knowledge to the development of students' accuracy, fluency, and collocational competence.

Item 3: *If yes, what prevents you from teaching English collocations?*

The common reason afforded by the respondents was time constraint. They do not have enough time to dedicate for teaching collocations as they are required to finish the syllabus in time. Other reasons provided by teachers include: not knowing how to introduce collocations in the classroom, never thinking of teaching collocations, the focus on individual words rather than collocations is more appropriate for first-year students. The findings demonstrate that teachers ignore teaching collocations despite acknowledging their importance in foreign language learning.

Item 4: How do you introduce new words to your students?

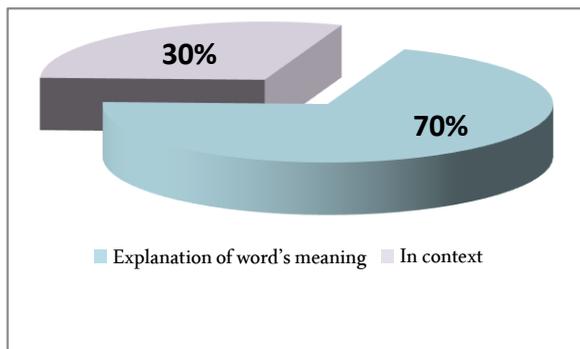


Figure N°12: Teachers' Ways of Introducing New Vocabulary

Figure 12 shows teachers' own way of introducing new vocabulary. The majority of teachers (70 %) indicated that they rely on explaining word meaning whenever their students got stuck on certain new words. This implies that teachers lack word knowledge. Knowing a word is not only limited to knowing its definition. The other (30%) of teachers reported that they present new words in context so as their students apprehend their meaning and use them appropriately. This category of teachers knows that the meaning of the word can be inferred through other words going together with it. The focus on context underlines the significance of collocations in foreign language acquisition, yet drawing attention to collocations is still absent from classroom practices.

Item 5: Do your students use collocations in their spoken or written productions?

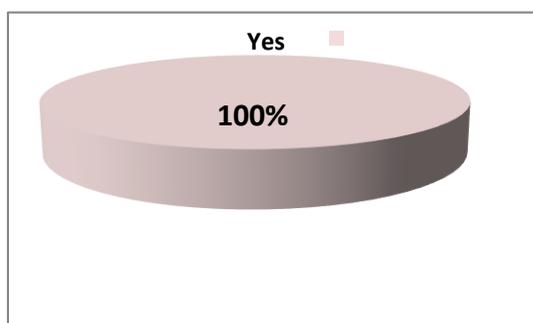


Figure N°13: Teachers' Views Of Their Students' Use Of Collocations

All the respondents asserted that their students use English collocations when speaking or writing. This, again, indicates the students'

unawareness of the concept of collocations although they use them, whether wrongly or rightly, in their speech and writing.

Item 6: Do your students make collocational errors while speaking or writing?

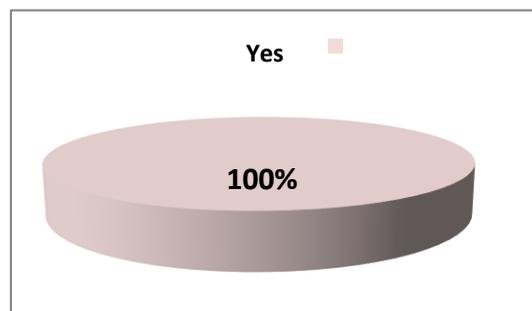


Figure N° 14: Students' Collocational Errors

As can be seen from figure 14, all the teachers confirmed that their students have a very limited productive knowledge concerning the use of collocations. The wrong combinations of words are highly manifested in their spoken and written English; they produce inaccurate and unusual language. This shows that teachers are mindful of their students' serious collocational errors. However, no time is allotted for helping their students to be conscious of English collocations, to notice their miscollocations, and to boost their vocabulary repertoire through collocations. The teachers' response to this question is in line with the students' answer to the eighth question.

Item 7: In your opinion, what are the causes of such errors?

The lack of collocational knowledge and instruction, the interlingual and intralingual transfer were the causes stated by teachers. However, the ignorance of teaching collocations in the EFL classroom seems to be the main reason behind students' creation of untypical collocations.

Item 8: Do you have the intention to raise your students' awareness of English collocations in your teaching courses?

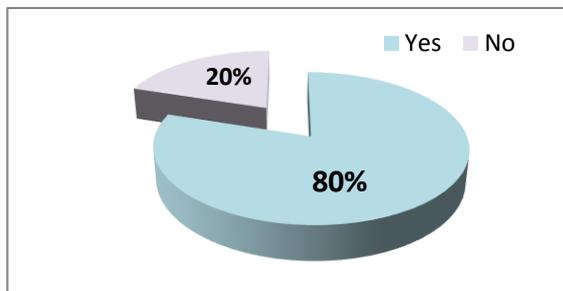


Figure N° 15: Teachers Attitudes Towards Raising Students' Awareness of English Collocations

The high proportion of teachers (80%) agreed that teaching vocabulary through collocations have been marginalized in the EFL classroom, and showed their interest in teaching collocations as this would raise their students' awareness of English collocations and improve their overall language proficiency. This denotes that the teachers knew that there is a missing link in the language classroom that should be covered and not left ignored. The other (20%) of teachers were not interested in making their students conscious of English collocations. This shows their negative attitude towards teaching collocations.

Conclusion and Recommendations

This study has investigated the students' awareness of the concept of English collocations. It has, also, elicited teachers' attitudes towards teaching English collocations in the EFL classroom. The analysis of both teachers' and students' questionnaires revealed that there is a lack of collocational knowledge and awareness of the crucial significance of English collocations in teaching and learning English as a foreign language. Neglecting this central element to language learning could negatively affect learners' language proficiency. EFL Students, as agreed by their teachers, produce deviant collocations that make the target language sounds awkward and unnatural and, hence, impede the students' efficient communication. This is largely due to the absence of collocation instruction in the language classroom, on one hand, and the students' unconsciousness of the

importance of collocations, on the other hand. According to Vasiljevic (2014), "the inability to recognize collocations means that learners cannot take advantage of the lexical priming in the natural discourse" (p.51). This means that nothing goes in their mind whenever they come across words in a given text, and this, in itself, is a serious problem.

The findings resulted from this study call for more attention to be paid to teaching and learning English collocations for their pivotal role in promoting the EFL students' language proficiency in general. Having said that, some recommendations are suggested :

1- It is high time, that EFL teachers consecrate time for explicit teaching of English collocations. This would raise their students' understanding of collocations and their significance in learning the foreign language. In this respect, Schmitt and Siyanova (2008) asserted that "the only way to develop good collocation intuitions in our learners is to institute a fundamental change in our teaching pedagogies, moving from a focus on individual words toward a focus on phrasal elements" (p.454). Drawing students' attention to collocations can be done by focusing on their miscollocations (Woolard, 2000). This would not only help students to enlarge their vocabulary but also make them recognize that "learning more vocabulary is not just learning new words, it is often learning familiar words in new combinations" (Ibid., p.31). Teachers can bring to class authentic materials such as authentic texts, and make their students notice, extract, and call to mind the tackled collocations. Regarding this, it is more appropriate to record collocation in a notebook. They should also give them the opportunity to practice collocation exercises in the classroom. These are very useful in promoting students' awareness of word combinations. Such kind of exercises is found in many textbooks. "*English Collocations in Use*", written by McCarty and O'Dell (2017), is one of these books which include interesting topics with varied collocation exercises.

2- It is important to encourage students to consult collocation dictionaries: *Oxford Collocations*

Dictionary for Students of English, Macmillan Collocations Dictionary among others, that are available online or at the University library, and train students to use them effectively. This can be very helpful in raising students' awareness of English collocations, and also enhancing their collocational competence.

3- Another important technique for teaching collocations is to make students exploit online corpora resources which are rich of collocations

used by native speakers. Consequently, learners gain native-like competency of using collocations.

All the above-mentioned suggestions are of great importance to developing not only EFL students' collocational awareness, but also their collocational competency, language proficiency, reducing their miscollocations in spoken and written input, and above all, increasing their independence and autonomy in learning English Collocations.

References

- Benson, M., Benson, E. & Ilson, R. (2010). *The BBI combinatory dictionary of English: A guide to word combinations* (3rd ed.). Amsterdam/Philadelphia: John Benjamins Publishing Company.
- Brown, J.D. (1998). *Understanding research in second language learning*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Burns, J., & Grove, N. (2001). *Understanding research*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Conklin, K., & Schmitt, N. (2008). Formulaic sequences: Are they processed more quickly than nonformulaic language by native and nonnative speakers? *Applied linguistics*, 29(1), 72-89. doi:10.1093/applin/amm022.
- Conzett, J. (2000). Integrating collocation into a reading and writing course. In M. Lewis (Ed.), *Teaching collocations: Further developments in the lexical approach* (pp.70-86). Hove, England: Language Teaching Publications.
- Decarrico, J.S. (2001). Vocabulary learning and teaching. In M.Celce-Murcia (Ed.), *Teaching English as a second or foreign language* (pp. 285-299). Boston: Heinle & Heinle.
- Demir, C. (2018). Word combinations in academic writing. *Journal of Language and Linguistic Studies*, 14(1), 293-327.
- Firth, J.R. (1957). *Papers in linguistics*. Oxford: Oxford University Press.
- Gaballa, H.E.B., Al-Khayri, M. (2014). Testing collocational knowledge of Taif University English seniors. *Journal of Humanities*, 19(11), 63-90.
- Hill, J. (2000). Revising priorities: From grammatical failure to collocational success. In M.Lewis (Ed.), *Teaching collocation: Further developments in the lexical approach* (pp. 47-67). Hove, England: Language Teaching Publications.
- Laufer, B. and Waldman, T. (2011) Verb-noun collocations in second language writing: A corpus analysis of learners' English. *Language Learning*, 61(2), 647-672.
- Lewis, M. (1993). *The lexical approach: The state of ELT and a way forward*. London, England: Language Teaching Publication.
- Lewis, M. (2000). *Teaching collocation: Further developments in the lexical approach*. Heinle, Cengage Learning.
- Lewis, M. (2008). *Implementing the lexical approach: Putting theory into practice*. Heinle: Cengage Learning.
- Martyńska, M. (2004). Do English language learners know collocations? *Investigationes Linguisticae*, 11(1), 1-12.
- McCarthy, M. (1990). *Vocabulary*. Oxford: Oxford University Press.
- McCarthy, M. J. and O'Dell, F. (2017). *English collocations in use* (2nd ed.). Cambridge: Cambridge University Press.
- Milton, J. (2009). *Measuring second language vocabulary acquisition*. Bristol, England: Multilingual Matters.
- Namvar, F. (2012). The relationship between language proficiency and use of collocation by Iranian Efl Students. *The Southeast Journal of English Language Studies*, 18(3), 41-52.
- Nation, I.S.P. (2001). *Learning vocabulary in another language*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Nation, I.S.P., & Webb, S. (2011). *Researching vocabulary*. Boston, MA: Heinle.
- Nattinger, J.R., & DeCarrico, J.S. (1992). *Lexical phrases and language teaching*. Oxford: Oxford University Press.
- Nesselhauf, N. (2005). *Collocations in a learner corpus*. Amsterdam, Netherlands: John Benjamins Publishing Company.
- Richards, J.c., & Rodgers, T.S. (2001). *Approaches and methods in language teaching* (2nd ed.). Cambridge: Cambridge University Press.
- Sarvari, S., Gukani, A. H., & Khomami, H. Y. (2016). Teaching collocations: Further developments in L2 speaking fluency. *Journal of Applied Linguistics and Language Research*, 3(3), 278-289.
- Schmit, N. (2004). *Formulaic sequences: Acquisition, processing and use*. Amsterdam: John Benjamins.
- Schmitt, N. (2000). *Vocabulary in language teaching*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Schmitt, N., & Siyanova, A. (2008). L2 learner production and processing of collocation: A multi-study perspective. *The*

Canadian Modern Language Review, 64(3), 429–458.

Sinclair, J. (1991). *Corpus concordance collocation*. Oxford: Oxford University Press.

Stubbs, M. (2001). Words and phrases: *Corpus studies of lexical semantics*. Oxford: Blackwell Publishers.

Vasiljevic, Z. (2014). Teaching collocations in a second language: Why, what and how. *ELTA journal*, 2(2), 48-73.

Woolard, G. (2000). Collocation: Encouraging learner independence. In M. Lewis (Ed.), *Teaching collocation:*

Further

developments in the lexical approach (pp. 28-46). Hove, England: Language Teaching Publications.

Wray, A. (2002). *Formulaic language and the lexicon*. Cambridge: Cambridge University Press.

For a Task-Based Pedagogy in a Medical Course to Foster Vocabulary and Aural Comprehension

Date de réception : 2018-09-22

Date d'acceptation : 2019-12-18

Hamza Tebbani, Université Mohamed Lamine Debaghine, Sétif 2

hamtebi@gmail.com

Abstract

This study aims to explore the students' perceptions about the strategies adopted when coping with lexical meaning related to medical vocabulary and the obstacles they face during listening-based tasks. To achieve this objective, the study deploys a quantitative approach in the form of a questionnaire applied to a sample of 40 students in the first year pharmacy branch at Farhat Abbas University, Setif. The main upshot displays convergent insights about the restricted use of listening strategies when manipulating vocabulary comprehension, in addition to poor textual and linguistic knowledge, and mismatch of tasks with the students' level. The study concludes that the transition from exploration to experimentation is recommended for further investigation.

Keywords: English for Medical Purposes, Vocabulary Comprehension, Listening, Task-based Approach.

Résumé

La présente étude vise à cerner la perception des étudiants vis-à-vis des stratégies adoptées pour identifier le sens lexical et contourner les entraves auxquelles ils sont confrontés dans les tâches de l'écoute. A cet égard, une approche quantitative, par le biais d'un questionnaire, a été appliquée sur un échantillon de 40 étudiants de première année pharmacie à l'Université Ferhat Abbes, Sétif 1. En effet, les résultats ont révélé des avis concordants quant à l'utilisation restreinte des stratégies d'écoute pour gérer les problèmes de compréhension lexicale. En outre, ces résultats reflètent aussi un manque de connaissances contextuelles et linguistiques flagrants de la part des étudiants en question. Il est ainsi utile de mettre en exergue une inadéquation criarde des tâches d'écoute proposées aux étudiants. L'approche basée sur des tâches à accomplir, que nous prônons dans cette recherche, s'est avérée plus performante dans la compréhension lexicale que les méthodes jusqu'alors adaptées par les étudiants.

Mots-clés: L'anglais à objectifs médicaux, la compréhension lexicale, l'écoute, l'approche basée sur des tâches à accomplir.

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى استكشاف آراء الطلبة فيما يتعلق بالاستراتيجيات المعتمدة في فهم معاني المفردات ، والعقبات التي تواجههم خلال المهام القائمة على الاستماع. في إطار هذا البحث ، تبين لنا أن نختار منهاجاً كميّاً في صورة استبيان. اعتمدنا عينة من 40 طالباً في السنة الأولى صيدلة بجامعة فرحات عباس ، سطيف. بدأ لنا من خلال النتائج آراء متطابقة فيما يخص الاستعمال المحدود لهذه الاستراتيجيات. بالإضافة إلى ذلك ضعف المعارف النصية واللغوية ، وعدم تطابق المهام مع مستوى الطلبة. وفي الختام ، فإن الانتقال من الاستكشاف إلى التجريب يعكس دراسة ذات طابع معمق.

الكلمات المفتاحية: الانجليزية للأغراض الطبية ، فهم المفردات ، الاستماع ، المنهج القائم على أساس مهام.

Introduction

Over the span of several years, receptive vocabulary has compelled scant attention within research probes or tended to be somehow overlooked by analogy with other linguistic entities. Yet, from the late 1980s onward, manifold facets have been put forward when approaching vocabulary. Actually, vocabulary expansion boosts the potential to grasp not merely lexis but further lexical bundles, and plausibly affords accessible resources when drawing inferences across the text (Clarke et al.¹; Harding et al.²). In respect to EMP, it has grown in stature as an outstanding component due to the breakthroughs in medical province. Above and beyond, when selecting medical jargon, it is of paramount importance to understand any nuances between subtly distinct structures of the nomenclature (Laufer³; Mogull⁴; Pavel⁵)

On the one hand, unlike the synthetic syllabi that were mainly burdened with defects, the analytic syllabi as the task-based tended to deflect the focus away from implicit to explicit vocabulary learning. The approach per se has currently sprung up as a mainstay to address an emerging set of issues related to listening complexity and meaning geometry. In other words, a focus on meaning has been the cornerstone of task-based approach. In addition, within its scope, listening tasks were meant to be tailored in processing, recycling vocabulary and assessing comprehension (Hyland & Shaw⁶; Shohamy⁷; Wu et al.⁸).

On the other, the steady transition from sound perception to word recognition, from meaning construction to text comprehension within a certain context has an inextricable nexus with the brain. Accordingly, educational stakeholders need to be versed not merely in lexical-oriented approaches, but also in cognitive concepts and precepts that underpin it. Within the medical context, deeper levels of comprehension require certain mental-related processes. Besides accurate interpretations of the explicit text, thinking, reasoning, inferencing and construction of causal mental models are requisite (Schober et al.⁹). Thus, for the sake of dispelling certain misconceptions about these processes, three intrinsic taxonomies have been set forth. Basically, there is a stark contrast between cognitive, metacognitive and socio-affective strategies. Along with motivation, emotions and attitudes, the latter stand for the actions that are espoused among learners when interacting with each other. In turn, whereas metecognitive strategies pertain to

planning, monitoring and assessing, their cognitive counterparts overlap with decoding, storing and recalling (Graham & Santos¹⁰; Li¹¹; Pawlak et al.¹²). All in all, the interplay of these multi-faceted paradigms with lexis is an overload that learners need to overcome. Owing to that, this research has brought their perceptions into sharp focus.

1. Statement of the Problem

It is very common that in running English courses at the tertiary level, some specified features are more or less shared. Basically, they are neither imparted by ESP teachers nor tailored in tandem with subject specialists. They do neither cater for students' needs nor cover contents which are within their grasp. After conducting a focus group discussion (cf. appendix), issues of this kind tend to occupy profoundly the foreground of English course geared to first year pharmacy students. Therefore, to expound vocabulary, the course confines the stress on countless aspects as reading comprehension, writing compositions and oral presentations. Nevertheless, there is not much scope of listening comprehension. When performing aural-based assignments, students are baffled by vocabulary uptake and its intricacy. So, making allowance for the problem, the inference drawn is that what hampers the students' comprehension is attributable to the little acquaintance they have with the vocabulary strategies. Also, the problem accrued during listening is triggered by the paucity in linguistic and background knowledge. Unquestionably, all these disable them to interpret the denotation of lexis and subsequently impede their comprehension.

2. Purpose of the Study

Within the purview of the study under scrutiny, the purpose is twofold. First, it aims to review the students' standpoints towards the impediments they confront when engaging in aural assignments and retrieving vocabulary meaning. Second, it purports to raise the awareness among students about the affordance to handle vocabulary using strategies through three phases. In the main, probing the plausible impact of these strategies over lexical uptake is contingent upon well-elaborated aural tasks.

3. Research Questions

By taking the purpose of the study into account, the researcher tried to investigate the ensuing research questions:

1. What challenges do the students confront when negotiating the meaning of receptive lexis?

2. What are the causes underlying these challenges?

3. To what extent do they adopt listening strategies to negotiate the meaning of receptive lexis?

4. Literature Review

4.1 Vocabulary and Meaning Geometry

Across diverse disciplines, vocabulary may assume several labels which range between specialized, technical, sub-technical or semi-technical. Contrary to general vocabulary, when they occur in a certain sphere, they exhibit specific patterns of usage. As a case in point, the word 'bypass' can be deployed in distinct contexts with different meanings (in general 'detour'; in electrical engineering 'shunt'; in medicine 'operation to reroute blood' (Long¹³; Paltridge & Starfield¹⁴). Along with having Greco-Latin roots, fundamental scientific terms stand for names of diseases, medicines, chemicals and processes (Linares et al.¹⁵).

Vocabulary instruction is reckoned as one of the trickiest concerns that lie upon educational stakeholders, in all grades and domains. Within recent years, it has been gaining momentum in language-medium education and a plethora of facets has been conceived as impeding vocabulary comprehension. In addition to semantics, syntax and register, vocabulary has a close interplay with morphology, orthography and phonology. (Oakhill, et al.¹⁶; Odisho¹⁷; Wechsler¹⁸).

For the sake of attaining optimum outcomes, a spectrum of strategies should be incorporated in the curriculum. Initially, there is a firm reciprocity between vocabulary expansion and reading comprehension. When deciphering meaning, reading comprehension hinges on three processes: Retrieving ideas from the chunks of text, tying the ideas to each other, and grasping the gist of the whole text (Willingham¹⁹). Similarly, the interplay between listening and vocabulary uptake is contingent upon three phases. The latter are prediction (pre-listening), verification (during listening) and reflection (after listening). As a case in point, predicting the spelling and pronunciation of words, using the general knowledge to think about what the unknown word might logically mean, reflecting on the strategies used to achieve the answers whether correct or incorrect (Graham & Santos¹⁰).

4.2 Scientific and Medical English

Medical English has been getting a raw deal in the field of English for Science and Technology (EST) which draws upon the tenets of English for Specific Purposes (ESP). On the one hand, EST overlaps with three categories: Life sciences (as medicine and botany), physical sciences (as physics and geology), and engineering (as civil and electrical engineering) which display an array of shared features. The latter range between organizational principles, grammatical and rhetorical structures, and lexical items (Brown²⁰). In the same vein, as Wallwork²¹ maintains, scientific English is a subset of academic English that pertains to scientific realms (as mathematics, chemistry and pharmacy) instead of humanistic ones (as economics, history and philosophy). On the other, EMP courses differ according to diverse facets as Paltridge & Starfield¹⁴ assert:

- Duration (i. e. short extensive vs. long courses);
- Target audience (e.g. clinicians vs. medical researchers vs. pre-medical students vs. medical students in the clinical phase of their training);
- Medical specialty (e.g. pharmacists, chest physicians, neurosurgeons, etc.);
- Skills, genres and medical situations (e.g. English for pharmacist-patient communication, English for medical congresses, English for report/journal article writing, p. 254)

4.3 Task-based Approach

Being transpired throughout the late 1970s as a substitute for traditional structure-based approaches, the communicative language teaching afforded a new slant on language instruction. Actually, it confined the stress on a set of approaches which extended its compass. These encompass: task-supported language teaching and task-based language teaching. Distinguished by its in-depth focus, the task-based pedagogy pervades as a rigorous approach, which emphasizes learning through communication (Loewen & Sato²²). Thus, through the integration of distinct tasks, it tempts to identify the denotation of lexical chunks and thereby foster comprehension. As Long¹³ sets forth: "Tasks produce negotiation for meaning, which in turn, increase L2 comprehension." (p.346)

Actually, when tailoring vocabulary tasks, Nation²³ recommends certain strands for the sake of getting an impartial syllabus. They are fourfold:

- Meaning-focused input (learning through listening and reading);
- Meaning-focused output (learning through speaking and writing);
- Language-focused learning (learning through a deliberate study of words aspects such as pronunciation and spelling);
- Fluency development. (p.2)

5. Research Methodology

The current probe is intended to be an exploratory investigation aimed at affording a painstaking account on the informants' views about meaning retrieval when engaging in aural assignments. Based on a quantitative approach that implied a questionnaire, it prompted to elicit the strategies they adopt and the impediments they confront likewise.

5.1 Participants

As to the sample of informants, it comprised 40 first year students majoring in pharmacy at Ferhat Abbas University, Sétif. Along with being within the 18-21 age bracket, females outnumbered males by four to one.

5.2 Questionnaire

For the sake of gaining insights about the frequency use of listening strategies and the issues in fulfilling aural assignments, a questionnaire was addressed to 40 subjects. Within the compass of research, the questionnaire as an instrument expounds mainly the partakers' beliefs, agreement or disagreement towards certain statements, frequency use of strategies, using a scale of measurement ranging between 1 and 5 (Loewen & Plonsky²⁴). Initially, to accomplish the research aims, the questionnaire was designed to pile up quantitative data relying on 35 items, split up into three sections (strategies use, challenges and difficulties) and ranked according to a five-point Likert scale (ranging from never, very challenging or agree to Always, not challenging or disagree). Insofar as the questionnaire items are concerned, they were drawn up from a variety of sources (Graham & Santos¹⁰; Siegel²⁵; Vandergrift & Goh²⁶). Eventually, prior to the distribution phase, the research purpose was illuminated and the allotted span for questionnaire completion was determined (40 minutes).

5.3 Findings, Analysis and Discussion

To manipulate the quantitative data, the SPSS (version 23) was deployed. After being set in descriptive statistical tables, the outcomes were reported and interpreted. They are as follows:

Table 1. The Challenges Encountered during the Performace of Aural Tasks

Likert Scale	Very Challenging		Challenging		Quite Challenging		N Not Challenging		Not Encountered Before	
	N	%	N	%	N	%	N	%	N	%
Understanding unfamiliar words	29	72.5	6	15	3	7.5	2	5	0	0
Understanding the general idea of the text / dialog	8	20	7	17.5	16	40	9	22.5	0	0
Understanding the specific detail of the text / dialog	4	10	28	70	5	12.5	3	7.5	0	0
Determining the boundaries between sentences, phrases, words and word parts	30	75	3	7.5	4	10	3	7.5	0	0
Determining the shift from one idea to another	8	20	20	50	5	12.5	5	12.5	2	5
Determining the shift in tone of voice	10	25	5	12.5	9	22.5	16	40	0	0
Determining the type of vocabulary (topic-related, general, academic, etc.)	7	17.5	6	15	12	30	14	35	1	2.5
Determining the type of listening strategy you're going to use (guessing meaning from context)	29	72.5	2	5	1	2.5	6	15	2	5
Type of the listening task (gap filling, true-false questions, etc.)	2	5	19	47.5	11	27.5	8	20	0	0
Length of the listening task	9	22.5	3	7.5	17	42.5	11	27.5	0	0

As the table unveils, when tackling aural tasks, the ten challenges prevail among the overwhelming majority and fluctuate proportionally between ‘very challenging’, ‘challenging’ and ‘quite challenging’. Actually, they range from the most to the least challenging as follows: understanding unfamiliar words (95%), determining the boundaries between sentences, phrases, words and word parts and understanding the specific detail of the text (equally 92.5%), determining the shift from one idea to another (82.5%), determining the type of listening strategy you’re going to use and type of the listening task (equally 80%), understanding the general idea

of the text (77.5%), length of the listening task (72.5%), determining the type of vocabulary (62.5%), and eventually determining the shift in tone of voice (60%).

In turn, making allowance for the challenges that are not encountered before, they entail three tiny proportions that stand for ‘determining the type of vocabulary’ (2.5%), ‘determining the type of listening strategy you’re going to use’ and ‘determining the shift from one idea to another’ (equally 5%). In fact, the existence of intricacies is an ample evidence of deficiencies in the use of aural strategies.

Table 2. The Causes Underlying the Challenges Encountered

Likert Scale	Strongly Agree		Agree		Strongly Disagree		N Disagree		Undecided	
	N	%	N	%	N	%	N	%	N	%
Your lack of background knowledge	20	50	8	20	5	12.5	7	17.5	0	0
Your lack of vocabulary knowledge	21	52.5	8	20	8	20	3	7.5	0	0
Your lack of grammatical knowledge	5	12.5	3	7.5	11	27.5	20	50	1	2.5
Your lack of phonological knowledge	14	35	18	45	3	7.5	5	12.5	0	0
Your ignorance of the listening strategies	30	75	6	15	2	5	2	5	0	0
Your reluctance to listening	7	17.5	1	2.5	23	57.5	9	22.5	0	0
The listening assignments aren't suitable to your language level	11	27.5	21	52.5	5	12.5	3	7.5	0	0
Some distracting factors (as noisy class, unclear recordings, etc.)	2	5	5	12.5	10	25	20	50	3	7.5

The table displays the agreement and disagreement of informants towards eight distinct issues that may emanate when fulfilling aural tasks. On the one hand, the most encountered impediments are fivefold. Actually, they are in descending order as follows: the ignorance of the listening strategies (90%), the listening assignments aren't suitable to your language level (80%), the lack of phonological knowledge (80%), the lack of vocabulary knowledge (72.5%), and the lack of content knowledge (70%). On the other, the least encountered impediments are threefold. They range in descending order as follows: the reluctance to listening (80%), the lack of grammatical knowledge

(77.5%), and some distracting factors as noisy class, unclear recordings, etc. (75%). Although they are relatively low in percentage terms, 7.5% and 2.5% account for those who are undecided about distracting factors (as noisy class, unclear recordings, etc.) and the lack of grammatical knowledge respectively. Overall, along with the deficiencies in the use of aural strategies and linguistic competences, the impediments students encounter within the aural tasks reside in the intricacy of the contents to be dealt with. This intricacy unquestionably disables them to interpret the denotation of lexis and subsequently impedes their comprehension of these contents.

Table 3. The Listening Strategies Adopted when Negotiating Lexical Meaning

Likert Scale		Never		Rarely		Sometimes		Usually		Always	
Number / Percentage		N	%	N	%	N	%	N	%	N	%
Pre-Listening	Reading the transcript	20	50	9	22.5	6	15	3	7.5	2	5
	Thinking about topic-related words	21	52.5	9	22.5	3	7.5	4	10	3	7.5
	Thinking about the spelling	25	62.5	7	17.5	2	5	2	5	4	10
	Thinking about the pronunciation	23	57.5	9	22.5	3	7.5	1	2.5	4	10
	Predicting answers to the questions that go with the transcript	25	62.5	8	20	2	5	3	7.5	2	5
	Getting ready to verify your predictions	29	72.5	6	15	2	5	1	2.5	2	5
Prediction Phase											
During Listening	Using the words you understand to get the general meaning of the text / dialog	8	20	20	50	7	17.5	2	5	3	7.5
	Listening to the words that follow or precede the unknown word	21	52.5	5	12.5	3	7.5	7	17.5	4	10
	Using your general knowledge to think about what the unknown word might logically mean	24	60	4	10	2	5	3	7.5	7	17.5
	Checking whether the unknown word did in fact mean what you thought it meant	30	75	6	15	1	2.5	2	5	1	2.5
	Using what you know about sentence structure to work out what kind of word it is (Noun, verb, adjective, etc.)	22	55	10	25	2	5	3	7.5	3	7.5
	Thinking whether the unknown word is like a word you know, and then checking whether that meaning would make sense	16	40	11	27.5	4	10	4	10	5	12.5
Verification Phase											
Post-Listening	Comparing your answers with your peers	10	25	5	12.5	6	15	7	17.5	12	30
	Checking how many right and wrong answers you come up with	3	7.5	6	15	11	27.5	10	25	10	25
	Reflecting on the strategies that you used to achieve the answers whether correct or incorrect	30	75	4	10	3	7.5	1	2.5	2	5
	Using the transcript while listening to revise your answers and check language structures (spelling, pronunciation, etc.)	25	62.5	3	7.5	7	17.5	4	10	1	2.5
	Using the key words used in the text in a productive follow-up task	29	72.5	4	10	2	5	1	2.5	4	10
Reflection Phase											

All in all, as the table highlights, the students' deployment of aural strategies along the three phases isn't strikingly extensive. In a nutshell, a preponderance of the respondents don't recourse to use these strategies or barely use them.

Insofar as the pre-listening phase is concerned, the largest percentages swing between 'never used' and 'rarely used'. As dichotomous sets, they range in ascending order as follows: reading the transcript (50% – 22.5%), thinking about topic-related words (52.5% – 22.5%), pronunciation of the words (57.5% – 22.5%), spelling of the words (62.5% – 17.5%), predicting answers to the questions that go with the text (62.5% – 20%), and getting ready to verify your predictions (72.5% – 15%).

By the same token, the highest frequencies within the ensuing phase (during listening) tend to be confined to the dichotomy (never used – rarely used). They range in descending order as follows: checking whether the unknown word did in fact mean what you thought it meant (75% – 15%), using what you know about sentence structure to work out what kind of word it is (55% – 25%), using your general knowledge to think about what the unknown word might logically mean (60% – 10%), using the words you understand to get the general meaning of the text (20% – 50%), thinking whether the unknown word is like a word you know, then checking whether that meaning would make sense (40% – 27.5%), and listening to the words

that follow or precede the unknown word (52.5% – 12.5%).

With reference to the post-listening phase, the deployment rates are dissimilar to the bygone phases. In other words, some substantial percentages reflect the informants' use of aural strategies. The latter embrace checking how many right and wrong answers you come up with (92.5%) and comparing your answers with your peers (75%). Nonetheless,

the remaining percentages display the informants' nonuse of the other strategies. In ascending order, they comprise: using the transcript while listening to revise your answers and check language structures (62.5%), using the key words used in the text in a productive follow-up task (72.5%), and reflecting on the strategies that you used to achieve the answers whether correct or incorrect (75%).

Prior to listening, it is indispensable to go through a warmer-up. Initially, the latter is a prerequisite for increasing background knowledge. Thus, it entails a reading task which permits to predict linguistic clues as whether the words stand for nouns, numbers, abbreviations, etc. and how they are pronounced and spelled, etc.

Subsequently, it is crucial to probe deeply into the metacognitive mechanisms of manipulating vocabulary while listening. For the sake of pinpointing the overall gist of the transcript, drawing on verification (whether to confirm or disconfirm the previous predictions) is of paramount significance.

Eventually, after listening, raising awareness about the strategies adopted is compulsory so as to ascertain whether they require to be adapted or altered for further similar aural tasks. Moreover, alongside rehearsing the key words (focusing on word parts, pronunciation, etc.), a productive follow-

up task is fundamental to buttress vocabulary retention.

Conclusion

At the tertiary level, imparting receptive vocabulary is imbedded within the ambit of the manifold medical specialties and pharmacy is no exception. Nonetheless, when delving deeper into the way it is learnt, many defects unfold. To pursue the line of inquiry, a thorough exploration was carried out to pinpoint the informants' standpoints about these defects. On the basis of the outcomes, a plethora of facets has been yielded as impeding receptive vocabulary processing. In the main, there was a striking nonuse of listening strategies when handling vocabulary. Alongside the lack in background knowledge, linguistic knowledge (whether lexical, phonological or grammatical), the aural assignments were not within the threshold level of the informants.

Overall, to give the probe another spin, an ongoing investigation may translate the exploration into intervention highlighting the plausible impact of task-based pedagogy over receptive vocabulary comprehension. Accordingly, in bridging theory and practice, distinct strategies (as guessing meaning from context using clues, determining the boundaries between sentences, phrases, words and word parts, etc.) can be implemented. As a matter of fact, the latter vary in accordance with the tasks to be accomplished. Otherwise, it may scrutinize the extent to which the task requirements set up a need to process receptive vocabulary, and the extent to which learners engage in endeavoring to retrieve its meaning. Above and beyond, the selection of the task-based pedagogy is not haphazard since its focal focus is meaning and vocabulary uptake is likewise about meaning.

References

1. Clarke, P. J., Truelove, E., Hulme, C., & Snowling, M. J. (2014). *Developing reading comprehension*. John Wiley & Sons, Ltd.
2. Harding, L., Alderson J. C. & Brunfaut, T. (2015). Diagnostic assessment of reading and listening in a second or foreign language: Elaborating on diagnostic principles. *Language Testing*, Vol. 32(3) 317-336. <http://dx.doi.org/10.1177/0265532214564505>
3. Laufer, B. (2014). Vocabulary in a second language: selection, acquisition, and testing: a commentary on four studies for JALT vocabulary SIG. *Vocabulary Learning and Instruction*, 3(2), 38-46. doi: 10.7820/vli.v03.2.laufer
4. Mogull, S. A. (2018). *Scientific and medical communication: A guide for effective practice*. New York: Routledge.
5. Pavel, E. (2014). Teaching English for medical purposes. *Bulletin of the Transilvania University of Braşov*, 56(2), 39-46.
6. Hyland, K., & Shaw, P. (2016). *The Routledge handbook of English for academic purposes*. London: Routledge.
7. Shohamy, E., Or, E. & May, S. (2017). *Language testing and assessment*. Springer International Publishing AG.
8. Wu, X., Liao, L., & DeBacker, T.K. (2016). Implementing task-based instruction in ESP class: An empirical study in marine engineering English. *Journal of Language Teaching and Research*, Vol. 7, No. 5, pp. 936-945. <http://dx.doi.org/10.17507/jltr.0705.14>
9. Schober, M. F., Rapp, D. N., & Britt, M. A. (2018). *The Routledge handbook of discourse processes*. New York: Routledge.
10. Graham, S., & Santos, D. (2015). *Strategies for second language listening: Current scenarios and improved pedagogy*. London: Palgrave Macmillan.
11. Li, K. (2017). *Motivational regulation in foreign language learning*. Palgrave Macmillan.
12. Pawlak, M., Mystkowska-Wiertelak, A., & Bielak, J. (2017). *Autonomy in second language learning: Managing the resources*. Switzerland: Springer International Publishing.
13. Long, M. (2015). *Second language acquisition and task-based language teaching*. Malden, MA: Wiley-Blackwell.
14. Paltridge, B., & Starfield, S. (2013). *The handbook of English for specific purposes*. Malden, MA: Wiley-Blackwell.
15. Linares, O., Daly, D. & Daly, G. (2017). *Plain English for doctors and other medical scientists*. Oxford University Press.
16. Oakhill, J., Cain, K. & Elbro, C. (2015). *Understanding and teaching reading comprehension: A handbook*. New York: Routledge.
17. Odisho, E. Y. (2014). *Pronunciation is in the brain, not in the mouth: a cognitive approach to teaching it*. Gorgias Press LLC.
18. Wechsler, S. (2015). *Word meaning and syntax: Approaches to the interface*. Oxford University Press.
19. Willingham, D. T. (2017). *The Reading mind: A cognitive approach to understanding how the mind reads*. San Francisco, California: Jossey-Bass.
20. Brown, J. D. (2016). *Introducing needs analysis and English for specific purposes*. London and New York: Routledge.
21. Wallwork, A. (2016). *English for academic research: A guide for teachers*. Springer International Publishing AG.
22. Loewen, S., & Sato, M. (2017). *The Routledge handbook of instructed second language acquisition*. New York: Routledge.
23. Nation, I.S.P. (2013). *Learning vocabulary in another language*. Cambridge University Press.
24. Loewen, S., & Plonsky, L. (2016). *An A – Z of applied linguistics research methods*. New York: Palgrave Macmillan.
25. Siegel, J. (2015). *Exploring listening strategy instruction through action research*. UK: Palgrave Macmillan.
26. Vandergrift, L., & Goh, C.C.M. (2012). *Teaching and learning second language listening: Metacognition in action*. New York: Routledge.

*Appendix**Focus Group Discussion**Part 1: English Course*

- 1.1 What is the nature of the English course you are undertaking?
- 1.2 Which disciplinary topics do you cover in the English course?
- 1.3 Does the English course cater for your language needs?
- 1.4 Does the English course fit your language level?
- 1.5 Which skills do you focus on when tackling vocabulary comprehension?

Part 2: Reading

- 2.1 How often do you practise reading in class?
- 2.2 Which reading activities do you perform the most?
- 2.3 What are the difficulties that you encounter while reading?
- 2.4 Do you adopt any reading strategies to cope with vocabulary comprehension?
If yes, what are they?
- 2.5 Do you carry out any follow-up activities (as writing activities) after reading?

Part 3: Listening

- 3.1 How often do you practise listening in class?
- 3.2 Which listening activities do you perform the most?
- 3.3 What are the difficulties that you encounter while listening?
- 3.4 Do you adopt any listening strategies to cope with vocabulary comprehension?
If yes, what are they?
- 3.5 Do you carry out any follow-up activities (as speaking activities) after listening?

Investigating Intercultural Effectiveness of High and Low Academic Achievers

Date de réception : 2018-10-19

Date d'acceptation : 2019-12-18

Khadidja Kouicem, Université Constantine 1

khadidja-bioenglish@live.fr

Mohamed Lamine Boudoukhane, Université Constantine 1

khadidja-bioenglish@live.fr

Abstract

We aimed basically, through this paper, to investigate the extent to which academic achievement may contribute to developing the students' intercultural effectiveness. To attain such an aim, we selected the intercultural effectiveness scale as the research tool. It was addressed to sixty third year students of English in the Department of English at Constantine University, divided into two groups according to their high or low academic achievement in English for measuring particular capacities and skills viewed as indispensable components in a culturally diverse environment. The analysis of the data gathered has showed that students with high academic achievement are more interculturally effective than students with low academic achievement.

Keywords: Language and culture, intercultural competence, intercultural effectiveness, intercultural effectiveness scale, academic achievement

Résumé

Nous avons essentiellement cherché, dans le présent article, à déterminer dans quelle mesure la réussite scolaire pouvait contribuer au développement de l'efficacité interculturelle des étudiants. Pour atteindre un tel objectif, nous avons choisi l'échelle d'efficacité interculturelle comme outil de recherche dans laquelle nous avons impliqué soixante (60) étudiants de troisième année de licence au département d'anglais à l'Université de Constantine. Les soixante participants ont été sélectionnés sur la base de leurs résultats scolaires en langue anglaise afin de pouvoir mesurer leurs capacités et leurs compétences particulières considérées comme éléments indispensables dans un environnement culturellement diversifié. L'analyse des données recueillies a montré que les étudiants ayant un niveau de réussite scolaire élevé sont plus efficaces sur le plan interculturel que les étudiants ayant un faible niveau de réussite scolaire.

Mots-clés : Langue et culture, compétence interculturelle, efficacité interculturelle, échelle de l'efficacité interculturelle, réussite scolaire.

المخلص

من خلال هذا المقال أردنا أساسًا البحث في مدى مساهمة التحصيل الدراسي في تطوير الفعالية الثقافية بين الطلاب. لتحقيق هذا الهدف، اخترنا مقياس الفعالية بين الثقافات كأداة البحث الخاصة بنا حيث تم توجيه استبيان إلى ستين طالبًا في السنة الثالثة في قسم اللغة الإنجليزية في جامعة قسنطينة، مقسمين إلى مجموعتين وفقًا لتحصيلهم الأكاديمي باللغة الإنجليزية: طلبة ذوو تحصيل عالي وطلبة ذوو تحصيل متدني، وذلك لغرض قياس قدرات ومهارات معينة ينظر إليها على أنها مكونات لا غنى عنها في بيئة متنوعة ثقافيًا. أظهرت البيانات التي تم جمعها على أن الطلاب ذوي التحصيل الدراسي العالي هم أكثر فعالية من الناحية الثقافية من الطلاب ذوي التحصيل الدراسي المنخفض.

الكلمات المفتاحية: اللغة والثقافة، الكفاءة الثقافية، الفعالية الثقافية، استبيان الفعالية بين الثقافات، التحصيل

الأكاديمي.

Introduction

Living in a globalized world, intercultural communication is more likely to face individuals every time they step out of their community. Accordingly, people need to be interculturally competent in order to achieve communication goals, and avoid problematic and embarrassing situations that are the outcome of lack of intercultural competence. Foreign language learners are more concerned with the conception of interculturality, as they are learning and using English as an international language. They need to develop their intercultural competence alongside their linguistic competence in order to be interculturally competent. In other words, achieving communication goals in intercultural communication is the outcome of the mastery of different skills including language proficiency; however, English learners often rely on their language proficiency alone, neglecting the cultural aspect of the language. Therefore, it seems problematic if the students are not interculturally competent or effective, because communication that lacks appropriate cultural content often results in hilarious incidents, leads to misunderstanding and hampers achieving communication goals. Further, the problematic issue in this research is that one cannot know whether having a high academic level may contribute in developing the students' intercultural effectiveness in the absence of an explicit intercultural teaching at the Department of English at Constantine University. The present paper, therefore, aims fundamentally at figuring out the relationship found between academic achievement and intercultural effectiveness. Based on this, the principal research question to be asked is to what extent academic achievement can influence the intercultural effectiveness of the students at the Department of English at Constantine University? Asking such a major question, one hypothesizes that high academic achievers would attain higher intercultural effectiveness than low academic achievers.

1. Literature Review

1.1 The Concept of Culture

Culture has many definitions, depending on the scholars' perspectives and points of view. Nieto (2002) supports that there is more than one perspective to view and reach a good understanding of culture, since it depends on the context; for that reason, it cannot be given a specific definition. However, Taylor (1871) offers a standard definition which was agreed upon largely; he said that culture is that complex whole which consists of knowledge, belief, art moral, law, customs, and any capacities and habits acquired by individuals who are members in a given society. Similarly, Brown (2007) thinks of culture as, "the ideas, customs, skills, arts, and tools that characterize a certain group of people in a given period of time" (p. 177). He adds also that culture is "a way of life, as the context within which people exist, think feel, and relate to others, as the "glue" that binds groups of people together" (p.177). In short, one cannot refer to culture as one isolated aspect of life but a combination of various aspects.

1.2 Intercultural Competence

Interculturality is a universal experience, which requires fostering intercultural competence that is largely agreed to be, by intercultural scholars, the fundamental component to survive in such diverse world and to achieve successful communication. This term of intercultural competence was defined by the majority of the scholars as the ability to communicate effectively in a culturally different environment. For example, Portalla and Chen (2010, p. 21) state that it is the "individuals ability to achieve their communication goal while effectively and appropriately utilizing communication behaviors to negotiate between the different identities present within a culturally diverse environment". In foreign language teaching and learning, intercultural competence was seen as "the ability of a person to behave adequately in a flexible manner when confronted with actions, attitudes and expectations of representatives of foreign cultures"

(Meyer, 1991; cited in Cortazzi & Jin, 1999, p. 198). To elaborate, being interculturally competent student means having the ability to make sure that there is a mutual understanding between students who have dissimilar social identities, and the ability to interact with the native speakers taking into account their various identities and their own uniqueness.

1.2.1 Dimensions of Intercultural Competence

According to Portalla and Chen (2010, p. 21), intercultural competence consists of three dimensions, including intercultural awareness, intercultural sensitivity, and intercultural effectiveness. Chen and Starosta (1996) use intercultural awareness to define the cognitive component of intercultural competence; it refers to the ability to comprehend and explain other cultures. Intercultural sensitivity, on the other hand, was defined as the “individual’s ability to develop a positive emotion towards understanding and appreciating cultural differences that promotes appropriate and effective behavior in intercultural communication” (Chen & Starosta, 1996, p. 5). Finally, intercultural effectiveness is the behavioral aspect of the intercultural communication competence, sometimes referred to as intercultural adroitness or a skill set. In this research paper, we opted for intercultural effectiveness, as we are more concerned with the behavioral dimension than the affective and cognitive dimensions.

1.2.1.1 Intercultural Effectiveness

Chen and Starosta (1996) claim that intercultural effectiveness should only refer to “intercultural adroitness” or the behavioral aspect of intercultural communication competence, taking into account that intercultural effectiveness relates to communication skills, verbal and nonverbal behaviors together, which allow individuals to achieve their communication goals in intercultural interaction through an appropriate and effective performance. This concept is considered as the most significant dimension that must be dealt with when it

comes to individuals or students engaged in intercultural communication, because it is based on communication skills and attaining communication goals. Intercultural adroitness or effectiveness is the behavioral aspect of intercultural communicative competence in that it refers to “the ability to get the job done and attain communication goals in intercultural interactions.” (Chen & Starosta, 1996, p. 76)

1.2.1.1.1 Components of Intercultural Effectiveness

Scholars have identified various components to account for interculturally effective behaviors, and considered them as the key to achieve communication goals. They can be grouped into five main components which are “message skills, interaction management, behavioral flexibility, identity management, and relationship cultivation.” (Chen, 1989, 2005; Martin & Hammer, 1989; Ruben, 1977; Spitzberg & Changnon, 2009; cited in Portalla & Chen, 2010, p. 22)

- **Message Skills:** this refers to the ability to use the language of a culture other than one’s own, and in doing so the individual must “exercise one’s counterpart’s verbal and nonverbal behaviors” (Chen, 2007, p. 102). According to Rubin (1982; cited in Portalla & Chen 2010 p. 22), these verbal and nonverbal behaviors of message skills consist of four components: communication codes, oral message evaluation, basic speech communication skills, and human relations.

- **Interaction Management:** it is the key to keep the process of interaction in a smooth way, far away from perplexing moments. Interaction management can be shown through “taking turns in discussion, and initiating and terminating interaction based on an accurate assessment of the needs and desires of others” (Ruben & Kealey, 1979, p. 18; cited in Portalla & Chen, 2010, p. 22). Wiemann (1977, p. 199; cited in Portalla & Chen 2010, p. 23) discuss five components of interaction management, which are interruptions of the speaker are not permitted, one person talks at a time, speaker

turns must interchange, frequent and lengthy pauses should be avoided, and an interactant must be perceived as devoting full attention to the encounter.

- **Behavioral Flexibility:** this means “the ability to observe an interaction, distinguish and make use of the appropriate behaviors, and adapt to the specific situational context” (Bochner & Kelly, 1974; cited in Portalla & Chen, 2010, p. 23). It is an essential component during interaction, because it helps the individual not only to select suitable behaviors, but also to cope with the different situations encountered.

- **Identity Management:** it is “based on the ability of knowing oneself as an entity, and at the same time being able to inform the counterparts about who they are” (Littlejohn & Foss, 2009, p. 151). This implies that identity cannot be shaped alone by oneself; it is rather formed through the process of negotiation and reinforcement between the individuals.

- **Relationship Cultivation:** this refers to “the ability to establish a certain degree of relationship with one’s partner in order to satisfy each other’s needs and reach a positive outcome of interaction” (Chen, 2007, p. 106). It is solely through this component that the individual needs can be satisfied and brilliant outcomes of interaction can be attained.

1.2.1.1.2 *Measuring Intercultural Effectiveness*

Usually, measuring one’s intercultural effectiveness, and his/her ability to achieve communication goals in an intercultural interaction, is done through the use of *Intercultural Effectiveness Scale* (IES), a research tool that is made by experts in the field like Portalla, Chen, and others, using intercultural items (items that are representative of one’s own intercultural knowledge).

1.2.1.1.2.1 *Intercultural Effectiveness Scale*

Many intercultural effectiveness scales (IES) were developed with a shared purpose: to

evaluate the necessary competencies to interacting effectively with people from different cultures; more specifically, to see how the target sample would perform in this context, and how effective they would be concerning achievement of communication goals. The following are some scales used for attaining the said purposes:

The instrument that was selected as a research tool for this study, the Intercultural Effectiveness Scale (IES), is made by Portalla & Chen (2010), professors at the University of Rhode Island, USA. The intercultural effectiveness scale (IES) was developed based on a review of the literature, where 76 items important for intercultural effectiveness were generated. The process of the development and validation of the instrument was about three stages: “the first stage aimed to reduce the number of the original items; the second stage aimed to generate the instrument; and the last stage aimed to test the validity of the instrument.” (Portalla & Chen, 2010, p. 24). As Portalla & Chen (2010, pp. 25-26) explained, the 20-item last version of the scale consists of six factors”; each factor contains particular items made for measuring a particular capability during interaction. They are: behavioral flexibility, interaction relaxation, interactant respect, message skills, identity maintenance, interaction management.

1.3 *Academic Achievement*

The students are familiar with the term of academic achievement, because their main objective during their learning process is a high academic achievement. More practically, academic achievement refers to the performance outcomes that demonstrate the degree to which an individual has reached definite goals that were the focal point of activities in the teaching process, specifically at school, college and university (Steinmayr et al., 2014). Academic achievement is based on some indicators used to determine it; these indicators are (1) general indicators such as procedural and declarative knowledge acquired in an educational system, (2) curricular-based criteria such as grades or performance on an educational achievement test,

and (3) cumulative indicators of academic achievement such as educational degrees and certificates. All these crucial factors involve academic endeavors and thus, more or less, reflect the academic capability of the individual. (Steinmayr et al., 2014)

2. Research Methodology

2.1 Research Participants

The case study for our research is represented by third year students of the Department of English at Constantine University during the academic year 2017-2018. The sample consists of 60 students divided into two groups selected according to their academic achievement. The first group consists of 30 students; they are selected according to their high academic achievement, with an average between 16.04 and 14.90. They are 22 females and 8 males. On the other hand, the other group consists of 30 students selected for representing the low academic achievers; they have an academic average between 06.00 and 07.10. They are 19 females and 11 males. The sample's age ranges between 20 and 24. Most of the participants have been studying English for 10 years.

2.2 Research Instrument

To carry out the research, the *Intercultural Effectiveness Scale*, designed by Portalla and Chen (2010), has been selected. The reason behind the choice of this research tool is that we were dealing with intercultural effectiveness as a concept and as a skill; therefore, the most reliable tool for this is the intercultural effectiveness scale itself. In addition to that, the scale is designed for the measurement of particular capacities and skills that are believed to be necessary in intercultural interaction. This scale aims at measuring the students' ability to distinguish between appropriate behaviors and adapt to specific situations, how comfort and relaxed students would feel in an intercultural interaction, their ability in using the language of the target culture fluently, the level of respect they would show, their ability to express ideas and answer questions during

interaction, and their capability to maintain the unique identity of their culturally different counterpart while also maintaining their own separate identity during interaction.

2.3 Results and Discussion

2.3.1 Comparison of the Two Groups Overall Results

As the comparison would show the level of difference between the groups, we attempted to make a comparison of the two groups participants' overall results of the scale.

Table 1: Overall Results of High and Low Achievers

	High Achievers	Low Achievers
Mean	77	59
Mode	78	55
Low score	67	47
High score	84	70

Reference: made by the researcher

Looking at table 1, it is clear to notice the difference between the two groups. Starting by the mean for each group, high academic achievers turned to a 77 score, while low academic achievers turned to a 59 score. As for the mode, 78 is that of the high academic achievers and it is higher than that scored by the low academic achievers: 55. Looking at the lowest score obtained by both groups would show that good achievers have done better (67, obtained twice) than the lower achievers (47, obtained once); the same is noticed in the case of the highest score of the groups: high academic achievers scored 84 (obtained once), and low academic achievers scored 70 (obtained once).

In this case, the t-test for the independent groups would give us the final decision on which group is more interculturally effective, but so far and after the numbers obtained above, it can be noticed that the students with high academic achievement are more interculturally effective during intercultural communication than students with low academic achievement.

Table 2: T-test for the Scale of High Achievers and Low Achievers

Intercultural Effectiveness Scale	Groups	Mean	SS	df	t	p
	High achievers	77	452.97	58	15.24	< .00001
	Low achievers	59	760.97			

$p < 0.05$, one-tailed **Reference:** made by the researcher

For degrees of freedom (58) corresponding to 0.05 level of significance and for one tailed hypothesis, and p value of < .00001, the results can be described as statistically significant because the computed t of 15.23824 (15.24) is much higher than the p value. Therefore and once again, high academic achievers are interculturally more effective than low academic achievers.

2.2.5.2 Comparison of the Two Groups Results of Individual Subscales

▪ Behavioural Flexibility

Table 3: Behavioral Flexibility Mean

Students	Mean
High Academic Achievers	12.46
Low Academic Achievers	10.93

Reference: made by the researcher

Good Academic achievement seems to be influential concerning behavioral flexibility. As we can see, students with high academic achievement are more likely to be flexible during interaction, and adapt more to specific situations. Possibly, high academic achievers are better than low academic achievers, because the former are said to believe more that it is possible to realize things even when they seem quite impossible. Moreover, they are likely to resist the fear of failure, and therefore, they are quite ready to adapt themselves to different situations to attain their goals.

▪ Interaction Relaxation

Table 4: Interaction Relaxation Mean

Students	Mean
High Academic Achievers	20.27
Low Academic Achievers	15.94

Reference: made by the researcher

The considerable difference, here, shows us that students with high academic achievement tend to feel more comfortable and more relaxed during

intercultural interaction than students with low academic achievement. Actually, this can be justified by the fact that a common trait of high academic achievers is self-confidence. This allows them to perform different tasks with more comfort and relaxation, which is not the case of low academic achievers, whose self-confidence may be affected by several factors.

▪ Interactant Respect

Table 5: Interactant Respect Mean

Students	Mean
High Academic Achievers	13.30
Low Academic Achievers	12.70

Reference: made by the researcher

Unlike the previous subscales, this one seems to have only a slight difference concerning the mean values, where both groups scored high in this skill. This means that, good academic achievement has only a slight impact on whether students prove to show respect to other culture or not. Moreover, learning a foreign language means learning a foreign culture as well; therefore, this can be helpful in the sense that the students turn to be more tolerant to accept differences between cultures, which makes them, regardless of their level, respect the others.

▪ Message Skills

Table 6: Message Skills Mean

Students	Mean
High Academic Achievers	12.03
Low Academic Achievers	08.13

Reference: made by the researcher

As the mean values of the two groups indicate, high academic achievement seems to be helpful in raising the students' ability to use the target language appropriately during intercultural communication. In fact, this difference can be traced

back to the assumption that high academic achievers are most of the time good communicators, as they convey their messages appropriately and accurately. For example, it has been found that they do not commit grammar mistakes when they interact, which makes their language accurate and, therefore, comprehensible.

▪ *Identity Maintenance*

Table 7: Identity Maintenance Mean

Students	Mean
High Academic Achievers	11.06
Low Academic Achievers	08.86

Reference: made by the researcher

From the scores obtained, we may say that good achievers are more capable of maintaining the unique identity of people who are culturally different, while also maintaining their own separate identity during interaction. In other words, they may be more aware than low academic achievers of when, where and why to keep their identity, because it depends on different situations. Being more intelligent and vigilant may help them considerably in managing issues related to identity better than low academic achievers.

▪ *Interaction Management*

Table 2.49 Interaction Management Mean

Students	Mean
High Academic Achievers	07.80
Low Academic Achievers	06.50

Reference: made by the researcher

In this table, we notice the difference between the mean values of the two groups, but we must mention that the intensity of the impact of the high academic achievement is not as with the previous subscales; low achievers see themselves able to manage interaction. Actually, it may seem

somehow contradictory that the low academic achievers score as high as academic achievers' managing interaction, especially, in most of their answers, they seemed uncertain to identify many points; moreover, they scored less than high achievers in many other points.

Conclusion

This research aimed at shedding light on the importance of integrating the cultural aspects in EFL classrooms in general, and more precisely the importance of intercultural effectiveness that turned out to be an unquestionable matter when it comes to intercultural communications. It became a key element to reach communication goals during this kind of interactions. For this reason, this research attempted to measure the students' intercultural effectiveness, and how effective and appropriate they would be in relation to their academic achievement. The obtained results revealed that students with high academic achievement are interculturally more effective than the students with less academic achievement.

People are certainly living in a globalized world, with numerous different cultural backgrounds. Hence, intercultural communications are more likely to occur every time individuals step out of their community, and this makes the skill of intercultural effectiveness, or the ability to achieve communication goals in intercultural interaction, a skill that must be acquired and well developed alongside the linguistic competence.

References

- Brown, H. D. (2007). *Principles of language learning and teaching*. New York, NY: Pearson Education.
- Chen, G. M. (2007). A model of global communication competence. *China Media Research*, 1, 13-11.
- Chen, G. M. & Starosta, W. J. (1996). Intercultural communication competence: A synthesis. *Communication Yearbook*, 19, 353-384.
- Cortazzi, M. & Jin, L. (1999). The culture the learner brings A bridge or a barrier? In M. Byram, & M. Fleming (Eds.), *Language learning in intercultural perspective: Approaches through drama and ethnography* (pp. 98-118). Cambridge: Cambridge University Press.
- Littlejohn, S. W. & Foss, K. A. (2009). *Encyclopedia of communication theory*. Thousand Oaks, Calif: Sage.
- Nieto, S (2002). *Language, culture and teaching: Critical perspectives for a new century*. USA: Routledge.
- Portalla, T. & Chen, G. M. (2010). The development and validation of the intercultural effectiveness scale. *Communication Studies*, 19(3), 21-37.
- Steinmayr, R., Meißner, A., Weidinger, A. F., & Wirthwein, L. (2014). *Academic achievement*. Oxford Bibliographies Online Datasets. doi:10.1093/obo/9780199756810-0108.
- Taylor, E. B. (1871). *Primitive culture: Researches into the development of mythology, philosophy, religion, art and customs*. London: John Murray.